مجموعة من أساتذة معهد الفلسفة
وأكاديمية العلوم بالاتحاد السوفيتي

# مشكلات الحرب والسلام

ترجمة: شوقي جلال
سعد رحمي

مشكلات

الحرب والسلام

دار الثقافة الجـديدة

مجموعة من أساتذة معهد الفلسفة
وأكاديمية العلوم بالاتحاد السوفيتي

# مشكلات الحرب والسلام

ترجمة : شوقي جلال

# مقــــدمة

لا تزال ماثلة فى أذهان الناس الجرائم الوحشية للعدوان الفاشى وكل مانجم عن الحرب العالمية الثانية من آلام وأحزان لاحدود لها • وسوف تذكر شعوب العالم دائما وأبدا ما أبدته شعوب الاتحاد السوفييتى من شجاعة وبطولة • هذه الشعوب التى تحملت العبء الاكبر والاساسى فى الحرب ضد ألمانيا النازية دفاعا عن حرية واستقلال وطنها وابتغاء انقاذ الحضارة من الدمار • ولاتفتأ شعوب العالم اليوم تحس خطر الحرب يتهددها • فعلى الرغم من تفاقم التناقضات الداخلية للامبريالية الا أنها لاتزال تحتفظ بطبيعتها العدوانية وهو مايتبدى لنا واضحا فى سباق التسلح وشن الحروب المحلية أو المحدودة • ويرتبط هذا الى حد كبير بالنفوذ المتزايد للمجموعة العسكرية الصناعية فى أكثر البلدان الرأسمالية تقدما ، أى التحالف بين الاحتكارات الكبرى والمؤسسة العسكرية فى جهاز الدولة •

ولاريب فى أن أخطر ماتهدد به الامبريالية شعوب العالم الآن هو التهديد بشن حرب عالمية جديدة • ان سحابة الغبار الذرى التى غطت هيروشيما بكل ماتنطوى عليه من نذر اخطار رهيبة تمثل تحذيرا ونذيرا بالعواقب الرهيبة والمحزنة التى يمكن أن تحدث وتصيب البشرية كلها اذا ماشنت الامبريالية حربا عالمية ثالثة • ان حربا عالمية فى الظروف الراهنة تستخدم الصواريخ العابرة للقارات التى تكتسح أمامها مساحات شاسعة من الكرة الارضية فى دقائق معدودات ، مثل هذه الحرب انما تعنى الموت والدمار لمئات الملايين من البشر واحالة كل كنوز وثروات الحضارة العالمية الى رماد •

ان الحرب التى تشنها الامبريالية الامريكية فى الهند الصينية حرب من مصدر واحد هو السياسة الامبريالية •

فى الستينات من هذا القرن ارتكبت الولايات المتحدة وبعض القوى الامبريالية الاخرى أعمالا عدوانية مسلحة ضد فيتنام وكوبا وباناما وجمهورية الدومينكان والدول العربية • وشن الامريكيون حربا بربرية ضارية ضد فيتنام • وأعرب المؤتمر الدولى للاحزاب الشيوعية والعمالية المنعقد فى موسكو

في يونيو ١٩٦٩ ، عن ادانة كل القوى التقدمية للعدوان المسلح الذى تشنه القوات المسلحة الامبريالية ضد فيتنام ، ودعا المؤتمر كل أصحاب النوايا الطيبة وكل القوى التى تنشد السلام والعدل والحرية القومية والاستقلال أن تبذل كل جهد ممكن لدعم وتنسيق جهود القوى المعادية للامبريالية لمساندة شعب فيتنام .

أن الحرب التى تشنها الامبريالية الامريكية فى الهند الصينية حرب غير مشروعة ، وحرب قرصنة . انها فى واقع الامر حرب استعمار وتدخل عسكرى وانتهاك لحقوق الأمم فى تقرير مصيرها ، وانتهاك لحق شعب فيتنام فى أن يختار طريق التطور الاجتماعى الملائم له .

انالجرائم البربريه التى يرتكبها المعتدون الامريكيون ضد شعب فيتنام واستخدام وسائل الدمار الشامل البيولوجية والكيميائية وغيرها ، انما تمثل كلها انتهاكا لضمير الانسانية وقد كشفت لشعوب العالم الجوهر الحقيقى غير الانسانى للامبريالية .

وقد أدى كل هذا الى مزيد من العزلة السياسية والمعنوية للمعتدى عن الرأى العام العالمى ، بل وعن بعض الدوائر الحاكمة فى عدد من البلدان الراسماليه .وأكثر من هذا اننا نجد فى الولايات المتحدة الامريكيه قطاعات عريضة من السكان تحتج ضد الحرب القذرة فى فيتنام وهو ما من شأنه ان يهز المجتمع الامريكى من أساسه .

ان المقاومه البطولية لشعب فيتنام عامل حاسم فى حركة الشعوب المعادية للامبريالية .

وعلى الرغم من آلة الحرب الجهنمية التى يمتلكها المعتدى فقد وجد نفسه مكرها على أن يوقف دون قيد أو شرط غاراته على أراضى جمهورية فيتنام الديمقراطية وان يجلس الى مائدة مباحثات رباعية تضم جبهه التحرير الوطنية لفيتنام الجنوبية كعضو يقف معه على قدم المساواة وقد كانت قوات جبهة التحرير توجه أثناء ذلك ضربات قوية للمعتدين الامريكيين وعملائهم . ودعمت حكومة الشعب فى أكثر المناطق وبقى النظام العميل اعزل لايسانده ويبقيه فى السلطة غير الامبريالية الامريكية .

وفى عام ١٩٦٧ ، شنت اسرائيل حربا عدوانية غادرة ضد جمهورية مصر العربية وسوريا والاردن . ولاتزال اسرائيل منذ ذلك التاريخ تحتل الاراضى العربية التى استولت عليها اثناء حربها العدوانية التى أيدتها وساندتها القوى الامبرياليه العالمية وأولها واهمها الامبريالية الامريكية والصهيونية العالميه . وترفض اسرائيل تنفيذ قرارات هيئة الامم المتحدة وتصر على أتباع سياستها التوسعية التى تستهدف ضم الاراضى ، كما تمارس سياسه القهر ضد السكان العرب فى الاراضى المحتلة فضلا عن ممارسة الاستفزازات العسكرية (*) .

---

(*) صدر هذا الكتاب بلغته الاجنبية قبل حرب اكتوبر المجيدة التى هزت المؤسسة الصهيونية العسكرية الحاكمة فى اسرائيل من أعماقها وأحدثت تغيرات جذرية فى المنطقة امتد صداها على النطاق العالمى وأصبحت مصر والعرب قوة جديرة بالاحترام ، قوية البأس ، مرهوبة الجانب ، قادرة على ان تنزع أرضها بقوة السلاح وتصون السلام العادل ( المترجم ) .

ان العدوان الاسرائيلي يمثل انتهاكا خطيرا لحقوق الشعب العربي بما في ذلك عرب فلسطين ، وهو أيضا انتهاك خطير لميثاق الامم المتحـــدة الذي يدين كل أعمال العدوان • والسبيل الوحيد لاستتباب الســـلام والامن في المنطقـــة هو انسحاب القوى الاسرائيلية من كل الاراضي المحتلة والالتزام الكامل بتنفيذ قرار مجلس الامن الصادر في ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧ •

ان المؤامرات والاستفزازات الامبريالية الموجهة ضد كوبا وضد العديد من بلدان آسيا وأفريقيـا وأمريكا اللاتينية وعـلى الســـاحل الكوري تمثل جميعها تهديدا مستمرا للسلام •

ويلجأ الامبرياليون الى كل أنواع الحجج الزائفة في محاولة منهم لطمس واخفاء الطبيعة الاجرامية لحروبهم وغير ذلك من الاعمال المعادية للديمقراطيه ويتخذون من معاداة الشـــيوعية قاعدة أيديولوجية أساسية يبررون بهـــا نزعتهم العسكرية وعدوانهم • وعلى الرغم من أن هذه الحجج ترتكز كلها على أكاذيب وأباطيل الا أننا نخطيء اذا هونا من قدر مثل هذه الدعايات الرجعية وتأثيرها على عقول الشعب •

وازاء خطر الحرب المتزايد نجد لزاما علينا أن نستعين بتفســـير علمي واضح وأصيل لمشكلات الحرب والسلام ليكون بحق أساسا أيديولوجيا مكينا لنضالنا ضد الاختلاقات التي تدعيها سياسة معاداة الشيوعية ودعما لنشاط وجهود حركة السلام •

ان جهود السلام يمكن أن تحقق أهدافها بنجاح اذا ماعرف الناس أفضل السبل وأكثر الطرق ملاءمة لتبني وفهم الجوهر الحقيقي للموقف الســـائد في العالم •

ويقدم الشيوعيون اجابة واضـــحة ومحددة على كل قضـــايا الحرب والسلام التي تشغل الاذهان وتبذل الحركة الشيوعية الامية جهودها لكبح جماح المعتدين وللحيلولة دون وقوع حرب عالمية جـديدة ، وترتكز هـــذه الجهود على تحليل علمي دقيق أساسه الفهم المادي الجـــدلي لاسس العلاقات الجديدة للقوى العالمية • ولكن لكي تصبح هذه الجهود جهودا فعالة مثمرة فانه يكون من الضروري اشتراك أوسع القطاعات الجماهيرية والارتباط النشيط لكل قوى السلام •

وجدير بالذكر أن مدى فعالية هذه الجهـــود رهن بالتزام الســـبل الصحيحة للعمل ودرجة التضامن ووعي الجبهة العريضة من القوى نصـيرة السلام ومدى فهمها للاسباب الحقيقية التي هي مصدر التهديد بالحرب • ان نجاح أو فشل حركة السلام اليوم يعتمد الى حد كبير على التفســـير العلمي لنظرية التعايش السلمي •

ان الدعوة الى السلام على أساس من المقدمات الزائفة غير العلمية وطرح شعارات خيالية لن يكون لهما من ثمرة غير التهديد الخطير لقضـــية الســـلام والتقـــدم الاجتماعي •

أن مشكلات الحرب والسـلام متباينة ومعقدة الى أقصى حد • ويجرى دراستها وتحليلها على يد خبراء يعملون فى ميادين علمية متباينة سواء فى مجال العلوم الطبيعية أو الاجتماعية • فعلماء الاقتصـاد والتاريخ والقانون والمتخصصون فى الشئون الدولية يجدون مجالا واسـعا يمارسـون فيه تخصصاتهم وقدراتهم بينما يجد علماء الاجتماع أيضا فى هذا المجال قسـطا كبيرا مما يدخل فى تخصصهم لعلاج هذه المشكلات •

اذ من المسلم به أن الحرب والسلام هما فى الأساس مشكلتان اجتماعيتان فهما لا تنفصلان عن المجتمع وعن الظروف التاريخية الموضوعية ، ومن ثم فان أى محاولة لتحليل مشكلات الحرب والسلام لا تضع هذا التصـور موضع الاعتبار انما هى محاولة مصيرها الفشل التام •

ويضم هذا الكتاب عددا من المقالات التى كتبها عدد من الفلاسـفة السوفييت والخبراء فى الشـئون الدولية • ولم تكن ثمة أى محاولة لمعالجة مشكلات الحرب والسلام من وجهة النظر العسكرية • ذلك لأن الكتاب عنى بوجه خاص بالصراع الايديولوجى السـائد بشأن قضايا الحرب والسـلام وتسليط الضوء على الاسباب الاصلية للحرب مع بيان الحاجة الى تفسير علمى لنظرية التعايش السلمى •اذ أن هذه هى القضايا التى تتصارع بشـأنها عديد من الاراء فى البلدان الرأسمالية ، وهى آراء يسـتحيل أن تتفق معها وتتطلب دراسة شاملة مع فضحها بالكامل • وغالبا ما نجد هذه الاراء غير العلمية مقبولة من خصوم الحل السلمى للصراعات الدولية ، بل ومقبولة من أنصار الحل السلمى لهذه الصراعات ، ولهذا نجد لزاما علينا أن نجرى حوارا علميا شاملا ومدعوما بالحجج والاسانيد •

وقد حاول مؤلفو هذا الكتاب تقديم دراسة فاحصة لعدد من النظريات الاجتماعية والسياسية عن الحرب والسـلام ، وهى أكثر النظريات رواجا فى الغرب الرأسمالى وقابلوا بينها وبين الموقف الماركسى العلمى •

ان التحليل العلمى للتطور الاجتماعى يؤدى بالحتم الى نتيجة محـددة تقضى بأن الامبريالية هى وحدها ودون سـواها سبب الحروب العدوانية الرجعية فى ظروف عصرنا الراهن • ان الامبريالية والامبريالية وحدها تتحمل المسـئولية الكاملة عن الحربين العالميتين الماضيتين وهما أكثر حروب التاريخ دمارا وتكلفة • ان السنوات العشر للحربين العالميتين اللتين وقعتا فى القرن العشرين قد كلفتا البشرية أكثر مما كلفتها كل الحروب التى وقعت فى القرون الثلاثة السابقة •

لقد لقى ثلاثة ملايين أوروبى مصرعهم فى الحروب الاوروبية التى نشبت فى القرن السابع عشر و ٥٢٠٠٠٠٠ نسمة فى القرن الثامن عشر و ٥٥٠٠٠٠٠ فى القرن التاسع عشر • هذا بينما كان عدد الاصابات القاتلة فى الحـروب العالمية الاولى عشرة ملايين ، باستثناء المدنيين ، هذا فضلا عن أكثر من عشرين مليونا من ذوى العاهات التى أدت الى حالة من العجز • وكان عدد القتلى فى الحرب العالمية الثانية ٤٥ مليون نسمة والجرحى ٩٠ مليونا من بينهم أكثر من مليون نسمة أصيبوا بحالة عجز كاملة وقد لقى مليونان من المدنيين مصرعهم بسبب الغارات الجوية •

وتسببت الحربان العالميتان فى دمار مادى جسيم ويقـدر ما نجم عن الحرب العالمية الاولى من دمار مادى بما قيمته ٣٣٨٫٠٠٠ مليون دولار ، ويصل هذا الرقم بالنسبة للحرب العالمية الثانية الى ٤٫٠٠٠٫٠٠٠ ملايين دولار منها ٥٠٠٫٠٠٠ مليون دولار قيمة الخسائر المادية فى الاتحاد السوفييتى ٠

واقتضت الحربان العالميتان انفاقا عسكريا مهولا وقد بلغت قيمة الانفاق العسـكرى المباشر ٢٠٨٫٠٠٠ مليون دولار فى الحـرب العالميـة الاولى و ١٫٣٨٠٫٠٠٠ مليون دولار فى الحرب العالمية الثانية ٠

وبلغت قيمة الانفاق العسكرى فى الولايات المتحدة خلال العامين ١٩٤٦ ـــ ١٩٤٨ مايزيد عن ١٫٠٥٠٫٠٠٠ مليون دولار أو مايزيد عن ضعف جملة ما تكلفته الولايات المتحدة الامريكية فى كل تاريخها قبل ١٩٤٥ ٠ ويحدث كل هذا فى عالم تعانى فيه الملايين من الفقر المدقع ويتفشى فيه الجوع والمرض والاميـــة ٠

وها نحن اليوم نشـهد الطبيعة العدوانية للامبريالية تتكشف لنا بقوة جديدة ٠ وقد بلغت تكاليف الانفاق العسـكرى الامريكى على مدى الاعوام الخمســة الاخيرة ما قيمته ٣٥٠٫٠٠٠ مليون دولار أو ٢٠ فى المائة زيادة على ما انفقته فى الحرب العالمية الثانية ٠

وتفيد البيانات الرسـمية للولايات المتحدة الامريكية أن عدد المصـابين من الامريكيين فى الحرب الفيتناميـة حتى عام ١٩٦٨ يقرب من ربع مليون ما بين قتيل وجريح ٠ وقد كلفت الحرب الفيتنامية الولايات المتحدة ١٠٠٫٠٠٠ مليون دولار ٠

وكان بالامكان انفاق مثل هذا المبلغ على النحو التالى :

| | | |
|---|---|---|
| ٧٠٠٠٠ | مليون دولار | على الحرب ضد الفقر فى الولايات المتحدة الامريكية ٠ |
| ٢١٠٠٠ | مليون دولار | لبناء المستشفيات وغيرها ٠ |
| ٧٠٠٠ | مليون دولار | لبناء دور رعاية وايواء للكهول وغيرهم ٠ |
| ٩٨٠٠٠ | مليون دولار ( الجملة ) * | |

وبينما تم انفاق ٢٠٫٠٠٠ مليون دولار فى حرب ضد شعب يبلغ تعداده ٣٠ مليون نسمة فان ٦٠٠ مليون دولار فقط تم اعتمادها « للمساعدة الاقتصادية » من أجل تنمية بلدان آسيا التى يبلغ تعداد سـكانها اكثر من ٨٠٠ مليون نسمة ٠ بعبارة اخرى ، فبينما يتم انفاق ٧٠ سـنتا ( ثمن علبة سجاير ) على كل فرد من سكان بلدان آسيا التى تتلقى معونة من واشنطن بهدف « اعانته على الحياة » فانه يتم انفاقه ٣٢٢٫٠٠٠ دولار على كل فيتنامى بهدف اعانته على الموت ٠ وهذا هو الوجه الحقيقى للامبريالية الامريكية اليوم ٠

(*) انظر صحيفة United States News & World Report عدد ١١ نوفمبر ١٩٦٨ ٠

وليس ما ذكرناه سوى حقيقة واحدة من بين حقائق كثيرة تؤكد أن التهديد بالحرب سيظل باقيا ما بقيت الامبريالية .

بيد أننا سنجد كثيرين يخفقون في معرفة الجذر الحقيقي للحرب . ويرجع ذلك الى رواج العديد من النظريات الزائفةالتي تحدثنا عن اسباب الحروب . وهذه هي النظريات التي يعرض لها هذا الكتاب .

وتتضمن هذه الدراسة عرضا للنظرية التي ترد اسباب الحرب الى الطبيعه البشرية ، ونظرية مالتوس والنظرية الجغرافية السياسية التي ترد أسباب الحرب الى عوامل الضغط الديموجرافي وعوامل جغرافية أخرى ، كما تتضمن هذه الدراسة أيضا الرأي الزائف المتهافت عن مفهوم « الفوضى الدولية » القائل بأن السيادة القومية هي أهم أسباب الحروب . ويقترن هذا الرأي الاخير بالخطط الطوباوية الرجعيه التي تنادي بانشاء « دولة عالمية لها قوة بوليس عالمية قوية تكبح الامم » وهي نظرية ضارة الى أقصى حد نظرا لانها قد تدفع الكثيرين ممن يساندون باخلاص السلام الى اتخاذ طريق خاطيء في جهودهم من أجل دعم السلام .

اننا نجد في كثير من البلدان سياسيين وباحثين رجعيين يساندون صراحة العدوان والنزعة العسكرية ويحاولون تقديم تبرير سوسيولوجي « لسياسة القوة » ويقدمون تبريرا « علميا » للسياسة الخارجية الرجعية بوجه عام .

ويشكل هذا المسار العدواني تهديدا خطيرا للسلام ويستلزم يقظة واستعدادا للدفاع عن مكاسب الاشتراكية .

وهناك في نفس الوقت غير هذه التبريرات الصريحة التي تدافع عن العدوان والنزعه العسكرية نجد أيضا كثيرا من الآراء والنظريات الاخرى عن الحرب والسلام التي تصادف رواجا وتستوجب نقدها وادانتها على الرغم من دعوتها للتعايش السلمي . مثال ذلك أن بعض المفكرين في البلدان الراسمالية يفسرون التعايش السلمي بين الدول ذات النظم الاجتماعية المختلفة وكأنه أمر منفصل تماما عن التقدم الاجتماعي ، بل وكأنه يتعارض أحيانا مع مصالح التقدم الاجتماعي ويحاولون توسيع نطاق تصورهم هذا ليشمل بعض العمليات الاجتماعية الداخلية ، مثل الصراع الطبقي في البلدان الرأسمالية وحركة التحرر الوطني وما الى ذلك . ومثل هذه الاراء هي اراء غير علمية نظرا لان اصحابها يرفضون فكرة التقدم الاجتماعي أو انهم يحاولون عرقلتها ، وهي أيضا اراء رجعية نظرا لانهم يحاولون ادانه النضال الثوري للشعوب من أجل تحررها الوطني والاجتماعي وينتهكون المبادىء الأولية للديمقراطية .

ان كل شعب من الشعوب له حقه المقدس في حمل السلاح دفاعا عن حريته واستقلاله . ولهذا فان النظرية العلمية عن التعايش السلمي تدافع عن حق كل شعب في أن يحل مشكلات تطوره الاجتماعي وفقا لمصلحته واختياره هو ، ونعارض السياسة الامبريالية ، التي تستهدف التدخل في شئون الشعوب الاخرى وتصدير الثورة المضادة . وسياسة التعايش السلمي لاشأن

لها على الاطلاق بالدفاع عن النظام الاجتماعى للاستغلال أو انكار الصراع الطبقى وحروب التحرر الوطنى ، بل على العكس انها تخلق أفضل الظروف المكنة بالنسبة للجماهير لحل صراعاتها الطبقية وتكفل لها مزيدا من التقدم الاجتماعى دون المخاطرة بحرب عالمية جديدة • ولم يحدث أبدا ان فصل الشيوعيون قضية الحرب والسلام عن مصالح التحرر الوطنى والاجتماعى • وقد حدث منذ نصف قرن مضى غداة تأسيس أول دولة للعمال والفلاحين فى ٢٦ أكتوبر ( ٨ نوفمبر ) ١٩١٧ ان القى لينين خطبة عن السلام أعلن فيها :

« ان قضية السلام قضية ملحة ولعلها أخطر القضايا الراهنة •• »

ان حكومة العمال والفلاحين التى أقامتها ثورة أكتوبر ٢٤ — ٢٥ مرتكزة على سوفيتات ممثلى العمال والجنود والفلاحين لتدعو كل الشعوب المتحاربة وحكوماتها للشروع فورا فى مفاوضات من أجل سلام عادل وديمقراطى •

« ان السلام العادل أو الديمقراطى هو ما تتحرق اليه شوقا الغالبية الساحقة من أبناء الطبقة العاملة وغيرهم من الشعوب العاملة التى انهكتها ودمرتها الحرب — سلام ظل ينشده بدأب واصرار العمال والفلاحون الروس منذ الاطاحة بالملكية القيصرية — وما تعنيه الحكومة بهذا السلام هو أن يكون سلاما فوريا دون ضم للاراضى (( أى دون ضم لاراضى أجنبية بالقوة )) •

وكان أول قرار اتخذته الدولة السوفيتية فى مجال السياسة الخارجية هو المرسوم التاريخى الذى أصدره لينين بشأن السلام والذى تم التصديق عليه فى ٢٦ اكتوبر ( ٨ نوفمبر ١٩١٧ ) حيث نجد السلام مرتبطا برباط وثيق بالمصالح الاساسية للشعب العامل •

ان الاتحاد السوفييتى التزاما منه بالمبادىء الاساسية للماركسية اللينينية يدعم بقوة قضية السلام بين الامم ويدافع بدأب عن مصالح الشعب العامل ويلتزم بالمبدأ اللينينى عن المساواة بين كل البلدان دون اعتبار لحجم أى منها •

ونجد تلخيصا واضحا ووافيا لهذا كله فى تقرير اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى فى المؤتمر الرابع والعشرين للحزب المنعقد فى مارس ١٩٧١ حيث يقول : « ان اهداف السياسة الخارجية للاتحاد السوفييتى كما صاغها المؤتمر الثالث والعشرون للحزب الشيوعى السوفييتى ترتكز على التعاون مع البلدان الاشتراكية من أجل أفضل الظروف الدولية لبناء الاشتراكية والشيوعية ، ودعم وحدة وتماسك البلدان الاشتراكية وصداقتها واخوتها ، ومساندة حركة التحرر الوطنى والتعاون مع الدول النامية الفتية ، والعمل باصرار على تعزيز مبدأ التعايش السلمى بين الدول ذات النظم الاجتماعية المختلفة ، والتصدى بحزم للقوى العدوانية للامبريالية ، وصون البشرية وحمايتها من خطر حرب عالمية اخرى )) •

ان هذه السياسة التى تستهدف صون ودعم السلام تخدم المصالح الاساسية لكل شعوب العالم وتتبدى واضحة فى الجهود العالمية لحركة السلام •

ان الاتحاد السوفييتي بالاشتراك مع الشعوب الشقيقة للبلدان الاشتراكية الاخرى وكل القوى الثورية والتقدمية في جميع انحاء العالم ، يشن نضالا دؤوبا ابتغاء ضمان النصر للسلام والديمقراطية والاستقلال الوطني والاشتراكية ان الاتحاد السوفييتي والبلدان الاشتراكية الصديقة تبذل جهودا مشتركة لغرس هذه المبادىء وتأكيدها • وخير شاهد على ذلك : مؤتمر كارلو في فاري Karlovy Vary والاعلان الصادر عن اللجان المركزية للاحزاب الشيوعية والعمالية وحكومات البلدان الاشتراكية فيما يتعلق بادانة العدوان الاسرائيلي في منطقة الشرق الاوسط ، وحديث اليكسي كوسجين في الدورة الاستثنائية لمنظمة الامم المتحدة ، والقرار الصادر عن الاجتماع الكامل للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي « بشأن سياسة الاتحاد السوفييتي ازاء عدوان اسرائيل في الشرق الاوسط » ، وخطبة أندريه جروميكو وزير خارجية الاتحاد السوفييتي في الدورة الرابعة والعشرين للجمعية العامة لهيئة الامم المتحدة حيث أعلن مقترحات الحكومة السوفيتية من أجل دعم الامن الدولي والتي تضمنت عديدا من الاجراءات الملحة والعاجلة والتي تستهدف تجنب كل ما يهدد السلام كما تستهدف قمع كل أعمال العدوان ، الدعوة الى « الاتفاق على تحريم انتاج وتخزين الأسلحة الكيميائية والبكتريولوجية ( البيولوجية ) والدعوة الى تدمير المخزون منها » وهو الاقتراح الذى قدمه الاتحاد السوفييتي الى الجمعية العامة للامم المتحدة بالاشتراك مع بولندا والمجر ومنغوليا وبلغاريا ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا واكرانيا وبيلوروسيا ـ كل هذه الاجراءات شاهد على الجهود العظيمة للاتحاد السوفييتي والبلدان الاشتراكية الاخرى من أجل صون السلام •

وقد صدر نداء للسلام عن المؤتمر الدولي للاحزاب الشيوعية والعمالية المنعقد في موسكو في يونيو ١٩٦٩ • وتضمن هذا النداء ما يلي : « لم يعد السلام الدائم اليوم خيالا أو مطلبا غير علمي ـ بل هدفا ممكن التحقق تماما • وثمة قوى اجتماعية وسياسية لها بأسها موجودة في العالم اليوم تعارض الحرب وتعمل جاهدة من أجل تخفيف حدة التوتر ومن أجل تحقيق تعاون دولي • ان سياسة السلام التي تنتهجها أول دولة اشتراكية في العالم ـ الاتحاد السوفييتي ـ والدول الاشتراكية الاخرى ، وتشديد نضال الشعب العامل في البلدان الرأسمالية ، ونمو حركة التحرر الوطني ، والعمل على نطاق واسع من خلال التأثير على الرأى العالمي الديمقراطي والمكافحين من أجل السلام كل هذا من شأنه أن يلغي حتمية نشوب حرب عالمية أخرى ويخلق امكانية حقيقية لدعم نضال الشعوب من أجل السلام •

ولا ريب في أن الموقف الدولي المتوتر من شأنه ان يعقد النضال من اجل السلام ، بيد أن القوى التقدمية لاتزال تتوفر لها فرص حقيقية لدحر الامبرياليين واجبارهم على قبول نزع السلاح •

وتشن القوى الامبريالية حربا أيديولوجية شرسة ضد برنامج نزع السلاح الذى اقترحه الاتحاد السوفييتي • وتلجأ هذه القوى الى كل انواع الحجج والمعاذير وتضعها عقبة في طريق هذا البرنامج ، ويتناول هذا الكتاب بالدراسة أهم هذه الحجج ، ونحن نؤمن بضرورة مناقشة هذه القضايا

وبخاصة أن الاتحاد السوفييتي والبلدان الاشتراكية الاخرى تبذل كل ما تستطيع من جهد لحل مشكلة نزع السلاح ٠

ان خبرة ممثلي المثقفين في البلدان الاخرى هم من بين القوى التقدمية التى تعمل بنشاط لمساندة السلام ٠ وأحد أهداف هذا الكتاب بيان الاسهام الايجابى من جانب الباحثين والعلماء التقدميين فى البلدان الرأسمالية من أجل قضية السلام ٠ اذ أن كثيرا منهم ، يلعب دورا نشطا ، وان لم يكن من وجهة النظر الماركسية ، داخل حركة السلام ويدين بقوة وحسم السياسة الخارجية العدوانية للقوى الامبريالية ٠

ان الهدف الأول والاساسى لكل انصار السلام والتقدم هو دعم صفوفهم في النضال ضد القوى الرجعية والنزعة العسكرية الامبريالية وأن يضعوا نهاية لتدخل المعتدين في شئون شعب فيتنام والشعوب العربية ٠

وينقسم هذا الكتاب الى ثلاثة اجزاء : الجزء الأول وعنوانه « مبحث السلام في الفكر الاجتماعي قديما » ويضم فصلين ـ « الاشتراكية الخيالية ومشكلات السلام » بقلم ى ج ٠ بانفيلوف ، و « فكرة السلام العالمى في نظريات أصحاب الفكر الانسانى البورجوازى » ( من القرن ١٦ حتى القرن ١٨ ) بقلم أ ٠ س ٠ اندرييف ٠

وثمة اسباب عديدة تبرر الاهتمام الخاص الذى أولاه الكتاب للافكار التى عبر عنها الشيوعيون الطوباويون وأصحاب المذاهب الانسانية فى القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر ٠ وأول هذه الاسباب أن الباحثين البورجوازيين يغفلون الاسهامات التى قدمها الرواد السابقون على الشيوعية العلمية بالنسبة لنظرية الحرب والسلام ٠ وسبب آخر هام يتمثل فى أن هؤلاء المفكرين التقدميين الذين عرفهم التاريخ قد حاولوا بقدر أو بآخر دراسة الموضوع فى اطار اجتماعى ٠

الجزء الثانى وعنوانه « الحرب : اصولها وجوهرها » ويعنى أساسا بدراسة جوهر الحرب والسلام من وجهة نظر المادية الجدلية ، ويقدم تحليلا نقديا للنظريات الزائفة غير العلمية عن اصول الحرب واسبابها ، ويتضمن الفصول التالية : « جدليات الحرب والسلام » بقلم : ن ٠ ت ٠ كارابانوف ، « السياسية والحرب فى عصرنا الراهن » بقلم ت ٠ د ٠ كندراتوف ، و «الاحتكارات والحرب » بقلم ف ٠ ى ٠ أبو لتين ، و « الفلسفة البورجوازية ومشكلات الحرب والسلام » بقلم ب ٠ ت ٠ جرجوريان ، و « السيادة القومية والحرب » بقلم : ى ٠ د ٠ مورد زينسكايا ، و « ضد النزعة المالتوسية والسياسة الجغرافية فى تبرير الحرب » بقلم ب ٠ ى ٠ سموليفيتش ، و « علم النفس الاجتماعى الغربى وأسباب الحروب ووسائل تجنبها » بقلم ى ٠ م ٠ كنداكوف ٠

الجزء الثالث وعنوانه « ضد أيديولوجيات النزعة العسكرية والرجعية ومن أجل السلام والتقدم الاجتماعى » ويحلل الاتجاهات الرئيسية السائدة فى الصراع الايديولوجى الراهن بشأن القضايا المتعلقة بمشكلة التعايش السلمى بين الدول ذات النظم الاجتماعية المختلفة ٠ وفصول هذا الجزء

**كمـــــا يــــلى :**

« المذاهب الامريكية لسياسة القوة » بقلم : ب أ . شاباد ، و « نظرية المباريات في الشئون الدولية » بقـلم : ج . أ . جراسيموف ، و « القوى المعادية للتعايش السـلمى » بقـلم : ف . أ . زامكوفا ، و « نقد تفسـير التعايش السـلمى بأنه المحافظـة على الوضـع الاجتمـاعي القـائم » بقلم : د . ب . ستاروشنكو ، و « ضد نظرية نزع السـلاح الايديولوجى » بقلم : أ . ب بوتتكو ، و « الكاثوليكية الحديثة ومشكلات الحرب والسلام » بقلم : ل . ت . فليكوفيتش ، و « الايديولوجية السلبية اليوم حركة الكويكرز الامريكية » بقلم : ل . ن . متروخين ، و « علماء ومثقفو الغرب والبحث عن السلام » بقلم : أ . د . جرجوريان ، و « حركة البوجواش » بقلم : م . س فوسلنسكى ، و « البرنامج السوفييتى لنزع السلاح .. والقـوى المعارضة له .. » بقلم : أ . ن . كاليادين .

ويعقب الاجزاء الثلاثة فصل ختامى بعنوان « حركة السلام والانسانية الاشتراكية » بقلم : أ . أ . باجراموف .

وقام باعداد هـذا الكتاب عـدد من أسـاتذة معهد الفلسفة وأكاديمية العلوم بالاتحاد السوفيتى مع أسهامات من بعض الاساتذة فى معاهد الابحاث الابحـــــاث المختلفة .

●

## الجزء الأول

# مبحث السلام
# فى الفكر الاجتماعى قديما

# الفصل الأول

# الاشتراكية الخيالية ومشكلات السلام

السلام الدائم بين الامم ونهاية كل الحروب أحد المثل العليا الجليلة النى تنشدها البشرية ويناضل من أجلها الشيوعيون · لقد أكد ماركس أن السلام وحده هو الذي يمثل مبدأ أمميا للمجتمع الشيوعى الجديد (١) كما وصف لينين الشيوعية بأنها مجتمع « الرخاء الشامل والسلام الابدى » (٢) ·

وقال : « وضع نهاية لكل الحروب وتحقيق السلام بين الامم والقضاء على النهب والعنف — هذا هو مثلنا الاعلى » (٣) ·

وقد أكدت العلوم الاجتماعية أن الطريق الى سلام أبدى يمر عبر انتصار الاشتراكية فى جميع انحاء العالم طالما وأن هذه هى التى ستقضى اخيرا على اسباب كل الحروب · ومن ثم فان الرسالة التاريخية للشيوعية هى تحقيق السلام الدائم فى العالم ·

ان السلام الابدى الذى ينشده ويناضل من أجله الماركسيون اللينينيون له ناريخ طويل وحافل · وقد نما وتطور عبر قرون بفضل المفكرين الاجتماعيين التقدميين · وجدير بالذكر ان الادب غير الماركسى عن تاريخ تطور أفكار السلام يغفل دائما اسهام الشيوعيين الخياليين ـ الرواد السابقين للشيوعية العلمية ـ فى مجال النضال من اجل انتصار العدالة وتحقيق سلام دائم فى مجال العلاقات الدولية · وعلى العكس من ذلك فاننا نجد عديدا من انصار السلام من كل الانواع والضروب ممن يرفضون أن تكون هناك أى رابطة بين مشكلة السلام وبين تحول الاسس الاقتصادية والسياسية للمجتمع · وليس من العسير تبين الدلالة الاجتماعية لهذا الطراز فى تناول

---

(١) انظر The General Council of the first international. ( ١٨٧٠ — ١٨٧١ ) موسكو ١٩٦٧ ص ٣٢٨ ·

(٢) ف · أ · لينين : « الاعمال الكاملة » — مجلد ٢٧ ص ١٥٩ ·

(٣) نفس المرجع — مجلد ٢١ ص ٢٩٣ ·

تاريخ الفكر الاجتماعي . اذ انه ينتهي الى رفض للاعتراف بوجود الرابطة العضوية التي تربط بين الشيوعية وبين السلام الدولي وهي رابطة قائمة منذ أن تولدت الافكار الشيوعية ونمت وتطورت على أكمل وجه في الفكر الماركسي اللينيني .

ان التطلع الى حياة بغير حروب هو أحد المثل العليا التي تنشدها وتحترق اليها شوقا جماهير الناس منذ الازمنة الاولى . وقد تجسد هذا المثل الاعلى أول الامر في الاساطير التي تحدثنا عن العصر الذهبي والتي ظهرت في فترة الصراع الشرس الذى صاحب انهيار النظام القبلي وقتما كانت المجتمعات الطبقية الاولى ( التي تمارس العبودية ) تنبني وتتأسس عن طريق العنف وسفك الدماء . لذا فان الاساطير والحكايات الخرافية عن العصر الذهبي التي تحدثنا عن الشعوب التي تعيش في سلام وتنعم بالوفاق ، كانت تشكل الاساس لاول يوتوبيا اجتماعية معادية للنزعة العسكرية . وعرض مؤلفو هذه الاساطير صورة المجتمع المشاعي الاول باعتباره المثل الاعلى وقدموا لنا صورة لمجتمع انتفت فيه شرور المجتمع العبودى ( مثل رواية جامبول Jambul عن الارض المشمسة ) وغيرها . وهكذا فان المثل الشعبي الاعلى عن السلام الابدى كان منذ البدء يرتبط ارتباطا لا انفصام له بومضات تحمل بريق الافكار الشيوعية ــ الملكية العامة للانتاج والروح الرفاقية في العمل ومجتمع المساواة ليس فيه سادة ولا عبيد .

ومع انتهاء المجتمعات العبودية وحلول العصور الوسطى سادت في الفكر الاجتماعي نظرة اخرى تفيد ان السلام يمكن ان يتحقق اذا ما تجسد في شكل دولة واحدة تمثل الوحدة الروحية للشعوب على نحو ما عبرت عنه الامبراطورية الرومانية . ولجأ انصار البابوية الى هذه الفكرة واتخذوها اساسا لبرنامج للسلام الثيوقراطي أو اساسا يكفل السيطرة العالمية الشاملة لكنيسة روما . وعارضت هذه الفكرة السلطات الدنيوية للحقبة الاقطاعية وبخاصة الاباطرة الالمان وحاولوا بدلا منها احياء الامبراطورية الرومانية وتذرعوا في محاولتهم لاخفاء طموحهم بما اسموه « قضية » السلام في اوروبا .

ومع بداية القرن ١٦ بدأ المفكرون التقدميون في معالجة مشكلة السلام بأسلوب جديد اذ ربطوا بينها وبين مبدأ القومية وأسقطوا تماما الزعم القائل بأن السلام لا يمكن ان يتحقق الا من خلال اطار امبراطورية عالمية .

وأول من رفع صوته معبرا عن الجماهير منتقدا حروب السلب والنهب في فجر الحقبة الرأسمالية هو أبو الشيوعية الطوباوية (الخيالية ) ونعني به المفكر الانساني الانجليزي العظيم توماس مور ( ١٤٧٨ ــ ١٥٣٥ ) .

دعا مور في اصرار الى ان يكون المبدأ الاسمى للحكومة هو رفاهية الشعب . بيد ان هذا المبدأ لم يكن له مكان ولا موضع اهتمام في القصور الملكية حيث كان كل من فيها مشغولا بالبحث عن مبررات لمغامرات جديدة ويقضى كل وقته يطرح خططا جديدة للحرب . بل ان السلام ذاته كان موضوعا لهذه الخدع والمكائد وتبذل المحاولات التي تستهدف خلق انطباع بأن الامير بدافع من الحب والرحمة وضع نهاية لسفك الدماء ، وخداع العامة

بمحاولة اقناعهم انه فعل هذا شفقة بهم وعطفا عليهم بينما يواصل سياسة استغلاله لهم كما كان دائما من قبل (٤) ٠

وأشار مور الى الاعداد التى لا حصر لها من المرتزقة الذين تغص بهم البلاد ويحتلون أراضيها حتى فى وقت السلم ووصفهم بأنهم « طاعون مدمر » وضرب مثلا بالرومانيين والقرطاجنيين والسوريين الذين اجتاحوا بجيوشهم المدن والميادين والامبراطوريات ودمروها (٥) ٠

وكان مور مدركا تماما أن من الخطأ توجيه الدعوة الى الملوك ومستشاريهم وسوق الحجج المعقولة ليلتمس منهم التخلى عن خططهم وأطماعهم فى الحصول على مكاسب من أراضى الغير ٠ وقال مور ان الملكية الخاصة هى علة كل الشرور الاجتماعية ٠ « حينما وجدت الملكية الخاصة الفردية وحيث تكون السيادة للمال وحده يكون من المستحيل ضمان عدالة الرفاهية للمجتمع » (٦) ٠

كان مور صاحب أول محاولة فى تاريخ الفكر الاجتماعى لوضع سياسة خارجية سلمية وغير توسعية ٠ واقترح مدينته الفاضلة بديلا للعالم الذى يسوده العنف والمظالم ٠ ومدينته الفاضلة ( يوتوبيا ) رؤيا أو حلم خيالى عن بلد عجيب تنتفى فيه الملكية الفردية الخاصة ، ويمقت سكان المدينة الفاضلة الحرب ويفزعون منها ويرونها « أمرا وحشيا للغاية » ولا يلجأون اليها الا لتحقيق ثلاثة أهداف ٠ الدفاع عن أرضهم عند الغزو ، لانتزاع أرض حليف من يد الغزاة وردها لاصحابها ، لتحرير أمة مقهورة من سطوة الاستبداد ٠ وقد يشنون حربا انتقاما لاهانة أو دفعا لاذى لحق بهم ، ولكن بعد التأكد من أن الطرف الآخر لا ينوى اصلاح خطئه ومن ثم يكون فى وضع المعتدى (٧) ٠

نلحظ هنا واحدة من أهم القسمات المميزة للايديولوجيا الشيوعية الخيالية بالنسبة لقضايا الحرب والسلام ٠ اذ بينما يدين الشيوعيون الخياليون الاوائل الحرب بين الشعوب نجدهم ينبذون تماما فكرة الاستسلام أو نزعة اللا عنف ٠ لقد كانوا أول من مايز بين الحرب العادلة وغير العادلة ورأوا أن الحرب العادلة هى التى تنشب دفاعا عن مصالح الشعبودفاعا عن الارض الام أو لتحرير شعب من ربقة العبودية والاضطهاد ، هذا على الرغم من أن فكرة « الحرب العادلة » لم تكن قد وجدت بعد كمفهوم علمى ٠ وكان طبيعيا أن يوجه الشيوعيون الخياليون اهتماما خاصا بموضوع التدريب العسكرى وهم يحددون معالم صورة دولتهم المثالية ٠

---

(٤) توماس مور « Utopia » لندن ١٩٣٥ ص ٣٧

(٥) نفس المرجع ص ٢٣

(٦) نفس المرجع ص ٤٣

(٧) توماس مور : المرجع السابق ص ٦١

وكان الطوباويون يشفقون على العامة من شعوب أعدائهم ويعاملونهم كأنهم مواطنون من ابناء بلدهم ، مدركين أن الشعب يساق الى الحرب قهرا ضد ارادته اذ يدفعه اليها الجنون الجامح لحكامه وقادته (٨) ٠ وكان الطوباويون أيضا يحترمون اتفاقية الهدنة ولا يعيثون فسادا فى أراضى أعدائهم ، ويتجنبون ايذاء المدنيين العزل من السلاح أو نهب المدن التى استسلمت (٩) ٠ ولقد كان مور فى تقديره لسلوك الطوباويين فى الحرب يستبق الكثير من المبادىء الاساسية للقانون الدولى بالنسبة للسلوك الانسانى فى الحرب ٠

وتعمل الدولة الطوباوية على دعم العديد من الروابط بينها وبين الشعوب الاخرى ، أما بالنسبة للتجارة الخارجية فانها لا ترعى فقط تتعامل الخاصة بل تضع فى الاعتبار ايضا مصالح الفقراء فى البلدان التى تتعامل معها فتمنحهم سبع صادراتها (١٠) . وأحد أهداف تصدير السلع هو تكديس الثروة لاستخدامها فى حالة النزاع أو الشقاق الدولى لاستئجار المرتزقة الاجانب أو لدفع الاموال للحلفاء أو رشوة الاعداء (١١) . كان مور يعتبر استخدام الاموال لمنع الحرب أو انهائها أسلوبا أكثر رحمة من استخدام السلاح ضد الاعداء ٠

وجذبت فضائل الطوباويين اهتمام جيرانهم من الامراء والعبيد ٠ ولقد استطاع الطوباويون تحرير الكثير من العبيد وتخليصهم من القهر ٠ وامكن صد كل البلدان التى حاولت بدافع من الغيرة الاعتداء على حرية الدولة الطوباوية ٠

وهكذا كان توماس مور أول من اكتشف المبادى الجديدة للعلاقات الدولية التى انبثقت عن الاهتمام بصون الاسلوب الشيوعى فى الحياة فى دولة محاطة بأمم شيوعية ٠ وهكذا أيضا قدم توماس مور رأيه عن ان الشيوعية لا تنفصل عن النضال ضد الظلم وعدم المساواة فى العلاقات الدولية ، كما طرح رأيه هذا قبل قرن من الزمان على وجه التقريب من تاريخ ظهور علم القانون الدولى ، وسبق بزمان طويل الحاجة الى ارساء العلاقات الدولية على اسس الديمقراطية لمبادىء الحرية ـ الاخاء ـ المساواة التى تم ارساؤها بفضل جهود كبار مفكرى كبار عصر التنوير وقبلتها القطاعات الاجتماعية التقدمية ٠.

وفى عام ١٦٢٣ ، أصدر الفيلسوف الطوباوى الايطالى تومازوكامبانيلا Tommaso Campanella كتابه «مدينة الشمس» وهو نفس التاريخ الذى كتبه

(٨) المرجع السابق ص ٩٤
(٩) نفس المرجع ص ٩٨ ، ٩٩
(١٠) نفس المرجع ص ٦٦
(١١) المرجع السابق ص ٦٦ ، ٦٧

فيه هوجو جروتيوس رسـالة بعنوان Hugo Grotius De Jure Belli et Pacis وكتب أمـريك كروسى The New Cyneas أول مقـال عن مناسـبات ووسائل ارساء أسس سلام عام وحرية التجارة فيجميع أنحاء العالم ، ولكن بينما كان جروتيوس يحاول اعداد وتنظيم العلاقات الدولية القائمة والغـاء كل أسباب التعسف وتأكيد العدل ، وبينما كان كروسى يفكر فى اطار خلق حضارة بورجوازية بوسائل سلمية ، قفزكامبانيلا قفزة كبيرة الى الامام سبق بها زمنه حيث علق آماله على انتصار العدالة فى العلاقاتالدولية من خـلال نظام اجتماعى شيوعى .

لم يقدم كامبانيلا « مدينة الشـمس » باعتبـارها دولة منعزلة ، بل باعتبارها دولة تربطها بجيرانها كل أنواع الروابط وتتحالف مع العديد من الشعوب الاخرى . ويقوم سكان المدينة برحلات بهدف تعلم عادات وتقاليد البلدان الاخرى ، ويتاجرون مع التجار الاجانب ويرحبون بالاجانب بينهم ، ويقبلون بينهم كل من يرغب فى أنْ يكون مواطنـا معهم . وأول مشـكلة اعترضت سكان مدينة الشمس نتيجة اتصالاتهم بالعالم الخارجى هى مشكلة حماية عادات وأخلاق شعبهم خشية أن تفسدها التأثيرات الخارجية (١٢) .

ولم تكن لدى سكان مدينـة الشمس أى حوافز حقيقيـة تحفزهم الى الدخول في حروب تستهدف التوسع بيد أنهم يلجأون الى الحرب اضـطرارا في مناسبة بذاتها . ان سكان مدينة الشمس « لايقترفون العـدوان أبدا ، ولكنهم لايذعنون له ويشنون الحرب اذا ماهوجموا فقط (١٣ ) .

ان النوع الوحيد من الحروب المسموح به هو : « الحرب ضد منتهكى العدالة الطبيعية والدين » (١٤) . ويكون اعلان الحرب عندما يرفض العدو تعويض خسارة وقعت أو يرفض الكف عن قهر حلفاء دولة الشمس أو لطرد مستبد جبار من مدن التمست العون من سكان مدينة الشمس (١٥) . وهكذا تتطابق عمليا آراء كل من توماس مور وتومازو كامبانيل مؤسسى الشيوعية الخيالية بشأن الحرب العادلة .

وأعرب كامبانيلا عن اعتقاده بأن الشـيوعية تمثل مسـتقبل كل البشرية . ويؤكد سكان الشمس انه سيأتى يوم يعيش فيه كل العالم وفقا لعاداتهم وتقاليدهم (١٦) .

سـوف يريد سـكان البلدان المجاورة للجزيرة التى تقوم فوقها مدينة الشمس أن يحيوا حياة سكان مدينة الشمس ، ولهذا السبب سـيحاول

---

(١٢) تومازو كامبانيلا La Citta del Sole ميلانو ١٩٦٢ ، ص ٢٧ — ٢٨

(١٣) نفس المرجع ص ٣٠

(١٤) نفس المرجع ص ٢٤

(١٥) نفس المرجع ص ٢٣ — ٢٤

(١٦) نفس المرجع ص ٣٠

حكامهم غزو مدينة الشمس (١٧) . وسـوف تؤدى هذه الحروب الى الاطاحة بالنظام الاجتماعى فى البلدان المعتدية (١٨) .

وظهر فى النصف الثانى من القرن السابع عشر وصف آخر لليوتوبيا أو المدينة الفاضلة ولنظامها الاجتماعى وسياستها الخارجية ، وظهر الوصف الجديد هذه المرة فى فرنسا . ونقصد بذلك رواية The History of the Sevarambes « تأليف دنيس فيراس Denis Vairasse والتى صدرت فى جزأين عام ١٦٧٧ ١٦٧٩ . ويروج المؤلف لفكرة مؤداها أن أحد المثل العليا للشيوعية سيضع نهاية للحرب : السلام يمنح الشعوب السكينة والسعادة » (١٩) .

رأى فيراس أنمشكلة ضمان السلام هى أولا وأساسا مشكلة أخلاقية ورأى انه لصون السلام يلزم ضمان النقاء الخلقى واستئصال الرذيلة (٢٠) . ويقتضى هذا اعادة تنظيم المجتمع من أساسه . وهكذا يقص علينا فيراس كيف يمكن لمؤسس دولة الشمس أن يدرس ويتقصى أسباب المعاناة والحروب والشرور . ويخلص الى نتيجة مؤداها أن هذه كلها تصدر عن ثلاثة أمور ـ الكبرياء ، الغيرة ، والتعطل ، وهى أمور يدعمها الظلم الاجتماعى وعدم المساواة والثروة والملكية الخاصة وابتغاء تخليص المجتمع من كل هذه الرذائل وتطهيره من كل الشرور المقترنة بها والناتجة عنها ألغى سكان دولة الشمس أو السيفاريون كل الامتيازات الطبقية والملكية الخاصة وقرروا أن يكون العمل اجباريا على الجميع (٢١) . خلاصة القول أن فيراس لم يقتصر على وصف السياسة الخارجية لمدينته الفاضلة ، بل ابان مصدر سياسته وجذورها التاريخية .

لقد جاهدت دولة الشمس التى قال بها فيراس لكى تعزل نفسها عن بقية العالم بسبب أهداف ذات طبيعة أيديولوجية وأخلاقية . وتجنبت كل أشكال العلاقات مع الامم الاخرى خشية أن تؤثر رذائل هذه الامم على سكان دولة الشمس (٢٢) . وبيما كان سكان دولة الشمس يتحاشون كل المؤثرات السيئة فأنهم عنوا بكل المثل الطيبة والابتكارات المفيدة التى يمكن اقتباسها من الشعوب الاخرى ، ولقد اعتاد سكان دولة الشمس فى علاقاتهم بالبلدان الاخرى أن يتصرفوا بطريقة مستترة فى السفر الى الخارج للتجارة ، أو لدراسة

---

(١٧) نفس المرجع ص ٢٤

(١٨) نفس المرجع ص ٢٦

(١٩) Denis Vairasse «Histoire de Sevarambes» Amsterdam MDCCXVI p. 293

(٢٠) نفس المرجع ص ٢٩٣ — ٢٩٤

(٢١) نفس المرجع ص ٢٧٥ — ٢٧٩

(٢٢) نفس المرجع — ص ١٦٨

الفنون والعلوم التى يمكن أن تفيد دولتهم اذ كانوا فى مثل هذه المناسبات يمتنعون تماما عن ذكر أى شيء عن بلدهم للاجانب .

وهناك أيضا المفكر الانجليزى جيرارد ونستانلى Gerrard Winstanly الزعيم والقائد الفكرى للحفارين الانجليز ، والذى يسمو على كل المفكرين البورجوازيين فى القرن السابع عشر من حيث فهمه للظروف والاوضاع الاساسية اللازمة لتحقيق سلام أبدى .

فمنذ فجر أول ثورة بورجوازية ناجحة عبر عن الشكوك العميقة والخطيرة لدى الطبقة العاملة وارتيابها فى أن نظام الملكية الخاصة سيوفر لهم السلام والسعادة .

لقد رأينا كيف أن كلا من توماس مور وكامبانيا لم يجعلا من السلام الابدى مثلا أعلى ، اذ أن الدولة المثالية لكل منهما كانت مضطرة قسرا الى أن تلجأ الى الحرب دفاعا عن حقوقها . ولقد كان ولستانلى أول من عبر فى تاريخ الفكر الطوباوى عن الرأى القائل بأن المجتمع الانسانى القائم على الملكية العامة هو الكفيل بتحقيق السلام الدائم لكل الامم وأن يضع نهاية للحرب وأكد باصرار مبدأ الملكية العامة للارض ، وذلك بأن تكون ملكا للشعب كله وأن تحرير العامة من الاسترقاق والعبودية سيوفر السلام على الارض ولن تعرف الامم الحرب بعد ذلك (٢٣) .

لقد كان من أهم الخصائص المميزة لآراء الحفارين اعتقادهم بأن الملكية الخاصة هى مصدر الحروب وعلتها الاساسية . وعلى الرغم من ان هذا الرأى كان مشتركا بين طوباويين الاوائل الا أن ونستانلى كان أول من عرضه فى وضوح وصراحة فى أعماله . ان بيان الحفارين الذى يحمل عنوان « المعيار الحقيقى لدعاة المساواة » ينص على أن « الدفاع عن الملكية والمصلحة الخاصة الفردية يقسم شعب أى بلد وشعوب العالم الى شيع وأحزاب ، وهذا هو علة كل الحروب وسفك الدماء والصراع فى كل مكان (٢٤) . وتحدث ونستانلى فى خطاب له الى لورد فيرفاكس Fairfax عن الرابطة بين الحرب وبين القهر الطبقى حيث قال : « اننى أتساءل عما اذا كانت كل الحروب وسفك الدماء والبؤس لم تظهر الى الوجود الا عندما حاول امرؤ أن يكون سيدا ( لوردا ) متحكما فى آخر وزعم أن الملكية على الارض طبقات فوق بعضها ؟ » (٢٥) .

لقد كان مفكرو البورجوازية الصاعدة فى القرن السابع عشر يعتقدون أن التجارة الرأسمالية لها رسالة اساسها التوفيق والمصالحة وعليها أن تفى بها .بيد أن ونستانلى عارض هذا الرأى بقوة وقال فى هذا الصدد: «ان هذا البيع والشراء تسببا ولايزالان يتسببان فى اثارة الشقاق والحروب . ولن تتعلم الامم ان تغمد سيوفها وتتخلى عن الحروب ما لم نطرح هذا الاسلوب

---

(٢٣) مختارات من أعمال « جيرارد ونستانلى » لندن ١٩٤٤ ص ١١٩ .
(٢٤) المرجع السابق — ص ٤٢ .
(٢٥) نفس المرجع ص ٥٩ .

القائم على الخداع ، اسـلوب البيع والشراء ، ونلقى به بين مهملات التاريخ المتمثلة فى السلطة الملكية (٢٦) ٠

وقدم ونستانلى نظرية أصيلة عن التقدم الاجتماعى كانت منطلقه فى دراسة تاريخ الحرب والسلام ٠ انه يصور فجر التاريخ عصرا نقيا لا تشوبه شائبة عاش فيه الناس فى حرية وسلام ووفاق ٠ ونظرا لان الارض كانت ثروة مشتركة بينهم جميعا فقد انتفت مظاهر العداوة بين الناس ٠ بيد ان الناس سمحوا بدافع الجهل « للفكر المتحيز » لان يدفعهم بعيدا على طريق « البيع والشراء » ، وهكذا ظهرت تدريجيا وبصورة متسترة الرغبة فى الغزو والسيطرة أو فقد الانسان براءته الاصيلة وحريته كما فقد السلام والوفاق. وكانت هذه هى معالم المرحلة الثانية من التاريخ التى أطلق عليها ونستانلى اسم الحكومة الملكية ٠ لقد كان كل امرىء تحدوه الرغبة فى أن يكون مالكا لارض وان يجعل من أخيه خادما له وعبدا ٠

وحل الحكم الجمهورى محل حكم الملوك ، ويعنى ونسـتانلى بالحكم الجمهورى المجتمع الذى تتوفر فيه الملكية المشتركة للارض وينتفى فيه البيع والشراء ، وتسوده حكومة تنشد الرفاهية والرخاء العام ، وبذا يستعيد الناس السلام القديم والحرية الضائعة (٢٧) ٠

ويصف ونستانلى حكومة الملوك بأنها « راعية الحروب » (٢٨) ٠ ويقول ان بالامكان تسميتها حكومة قطاع الطرق (٢٩) ٠

« انه لا يسفك الدم ابتغاء تحرير الناس من القهر ، بل لكى يكون ملكا وحاكما لشعب مقهور (٣٠) ٠ ويصف حكومة الكومنولث بأنها « حكومة الحق والسلام » (٣١) ٠

ولا ريب فى أن الطابع التقدمى لهذا الرأى واضح تماما ٠ وبالفعل فان العديدين من انصار السلام المعاصرين لونستانلى بل وممن جاءوا بعده علقوا آمالهم فى السلام على قيام « نظام ملكى مستنير » ٠ وحدث أن جاء روسـو وديديرو وعرضا فكرتهما عن أن شرط السـلام هو ابدال الملكية بحكومة جمهورية ، بيد أن هذا الرأى لم يكن يتضمن الغاء الملكية الخاصة .

وأوضح ونستانلى أن الشعوب قد لاتحقق جميعها نظام الحكم الجمهورى فى آن واحد . قد يكون الانجليز هم الرواد الاول وأسبق هذه الشعوب ثم يبدأ هذا النظام يذاع وينتشر بين الامم الاخرى التى تقتدى بالشعب الانجليزى

---

(٢٦) نفس المرجع ص ١١٧ — ١١٨ ٠

(٢٧) نفس المرجع ص ١٣٣ ٠

(٢٨) نفس المرجع ص ١١٩ ٠

(٢٩) نفس المرجع ص ١٣١ ٠

(٣٠) نفس المرجـع ٠

(٣١) نفس المرجع ص ١٢١ ٠

وتحذو حذوه . وفى هذا الصدد يقول ونســــتانلى : « فى هذا البلد الذى تســوده حكومة الكومنولث ويكون أول بلد يحقق هذا الامر ســوف يســود السلام ويعم الرخاء وسوف يفد اليه العديد من أبناء الشعوب الاخرى تشهد جماله وتتعلم سبل حياته » (٣٢) . «واذا نجحت حكومة الكومنولث الانجليزى فى اقامة حرية كاملة فان هذا القانون سوف ينتقل من انجلترا الى كل أمم العالم الاخــــرى » (٣٣) .

وفى القرن الثامن عشر كانت البرامج الشيوعية الطوباوية عن السلام الدائم ترتبط ارتباطا وثيقا من حيث المحتوى بالآراء التى روج لها مفكرو عصر التنوير الفرنسيون . ونحن نلمس القسمات الجوهرية المميزة للتنوير فى النقد الحاد للمبادىء الاساسية لنظام حكم الاقطاع المطلق فى مجال العــلاقات الدولية وادانة الحروب باعتبــارها احدى البقايا الاثرية لعصر البربرية ، وادانة الفتوحات والغزو وسلطة القهر والتحكم الاستبدادى مع الدعوة الى المســاواة بين الامم واحترام سيادتها فى الشئون الدولية ، والمساندة المخلصة لمصــالح الجماهير والعناية برفاهيتهــــا .

وثمة قسمة اخرى تربط بين الشيوعيين الطوباويين وبين مفكرى التنوير، وهذه القسمة هى الاعتقاد بضرورة « التدخل السياسى فى المســـار الطبيعى للاحداث » . بيد أننا نجد هنا تيارا أيديولوجيا آخر يؤدى دوره ــ رفض رأى مفكرى التنوير واعتقادهم بأن الغاء المبادىء الاساسية لنظام الاسر الاقطـــاعى سيؤدى تلقائيا الى استتباب السلام الدائم .. فبينما رأى مفكرو التنوير أن الطريق الى السلام الدائم يكمن فى خلق اتحاد من دول متساوية والغاء الحكومة الملكية أو فى أقامة « النظام الملكى المســتنير » الذى اعتبروه المثل الاعلى لهم ، فان الشيوعيين الخياليين حاولوا البرهنة على ان السبيل الوحيد لالغاء الحرب هو اعادة تنظيم التركيب الاجتماعى للامم على اساس الملكية المشتركة .

وهناك جين ميزليار Jean Meslier وهو ديمقراطى ثورى ، مادى التفكير ، أبو الشيوعية الطوباوية الفرنسية ، كرس كل جهوده لفضح الطابع المعادى للشعوب الذى تتسم به السياسة الخارجية للحكم الملكى المطلق وذلك فى نقده للبنية الاجتماعية والسياسية للمجتمع الاقطاعى . وشـــبه الملوك بالذئاب والاسود التى تهيم فى الفيافى بحثا عن فريسة وعلى أهبة الاستعداد لاشعال نيران الحرب وسفك الدماء والقتل وتدمير المدن واشاعة الخراب (٣٤) . وذهب الى ان واجب من بيدهم الســـلطة فى البلاد أن يبذلوا كل جهد ممكن لاشاعة السلام وضمان سيادة العدالة والصــدق ، فهذه هى الشروط اللازمة لتحقيق السعادة والرضى بين كل شعوب العالم (٣٥) .
وأكد ميزليار أن أسباب الحروب هى ســـوء توزيع الثروة فى المجتمع

---

(٣٢) نفس المرجــع .
(٣٣) نفس المرجع ص ١٢٧ .
(٣٤) جين ميزليار Le testament الجزء الثانى ، أمستردام ١٨٦٤ ص ٢٨٣ .
(٣٥) نفس المرجع ــ ج ١ ــ ص ١٧ .

حيث تؤدى الملكية الفردية الخاصة الى اثارة الحقد والكراهية بين الشعب والتى تؤدى بالتالى الى اثارة الشقاق والصراع والحروب (٣٦) .

وفى عام ١٧٧٥ أصدر مورلى Morelly المفكر الفرنسى الشيوعى الطوباوى كتابه «ناموس الطبيعة أو الروح الحقة لقوانينها ، وعرض مورلى فى كتابه هذا فكرته عن أن السلام كان دائما الحال الاول والوضع الاصيل للانسانية. وسبق زمانه بقرن كامل مثل ونستانلى حين قرر ان التاريخ الانسانى بدأ أول مابدأ بمجتمع مشاعى فى توافق مع الطبيعة والعقل . وذهب مورلى الى أن انهيار المجتمع المشاعى كان مصدر نشوء الفوارق التى ظهرت بين الافراد أو الاسر او الامم ، وكان ايضا علة كل مظاهر المعاناة والحرب والنهب (٣٧) . ان الملكية الخاصة وتقسيم الملكية ، سواء أكانتا قسمة عادلة أم ظالمة ، تولدان الرغبة فى اخضاع الآخرين والتحكم فيهم (٣٨) لذلك فان اكثر الامم انسانية واعتدالا هى تلك الامم التى ظلت عمليا لا تستحوذ على ملكية أو لم تتحقق فيها مظاهر الملكية بشكل عام (٣٩) .

واعتقد مورلى ان بالامكان تحقيق السلام الدائم اذا ما استطعنا ان نقنع الامم تدريجيا بقبول النظام الجديد عن طريق وضع مثال يحتذونه يكون أسوة وقدوة . يقول : « ان القوانين السلمية التى يمكن ان تدعم تدريجيا وباطراد العلاقات الاجتماعية لشعب انسانى متمدن ، يمكن ان تكون مثالا قويا وفقا لامة اخرى . فمثل هذه المؤسسات الحكيمة بامكانها ان تذاع وتنشر سلطاتها المعتدلة فى كل أرجاء الارض مما يكون له أثره الفعال فتسقط الاسلحة من أيدى الشعوب الشرسة الضارية (٤٠) .

ولم يقدم مورلى جديدا يختلف عما قاله سابقوه عن شكل العلاقات الدولية مستقبلا . بيد انه خطا خطوة كبيرة الى الامام فى فهم المبادىء الاساسية الجديدة للعلاقات الدولية ، وذلك بالنسبة لتوسيع نطاق المساعدة الى الشعوب الاخرى . وعبر عن هذا فى شكل قانون يلتزم به مجتمع المستقبل . يقول مورلى « اذا كانت الامة تساعد أمة مجاورة أو أجنبية بما تنتجه هى ، أو اذا كانت تلقى هى مساعدة على هذا النحو ، فان هذا العمل يشكل الصورة الوحيدة للتجارة عن طريق التبادل .. ويجب ان نكون على جانب كبير من الحرص لكى نضمن أن مثل هذا النوع من التجارة لا يؤدى الى تسرب أقل حد من الملكية الى داخل الجمهورية » (٤١) .

ويمثل لابيه دى مابلى L'Abbé de Mably مفكر آخر تخيل المرحلة

---

(٣٦) نفس المرجع — ج ٢ — ص ٢١٠ — ٢١٥ .

(٣٧) Morelly, Code de la nature ou le Veritable esprit de ses lois.

باريس — ١٩٥٣ — ص ٦ .

(٣٨) نفس المرجع ص ٥٩ .

(٣٩) نفس المرجع ص ١٢١ .

(٤٠) نفس المرجع ص ٧٤ .

(٤١) نفس المرجع ص ٧٤ .

البدائية للتاريخ الانسانى باعتبارها عصرا ذهبيا ، أو مجتمعا مشـــــاعيا طبيعيا . « زعم بعض الفلاسفة اننا ولدنا بالطبيعة أعداء لبعضنا البعض ، وأن الناس مع أول انفاس الحيـــاة على الارض كانت تشدهم رغبة القتال والحرب وأن يمزق كل منهم الآخر ليسترقه ويستعبده » (٤٢) .

واعتبر مثل هذه الفلسفة « فلســـفة باطلة » وطرح نظريته التاريخية الخاصـــة عن اسباب الحرب . وذهب الى ان تقسيم الملكية ، وظهور الملكية الخاصة وما نجم عن ذلك من مظالم وعدم مساواة هى المصدر الاول لكل آلام البشرية . لقد حطمت الملكية الروابط الطبيعية التى كانت تصل النـــاس ببعضهم . فالنـــاس الذين ألفوا الملكية واعتادوها ينزعون الى الاعتقاد بأن ثروتهم ستربو وتزداد اذا ما اتسعت حدودهم على حساب جيرانهم ، ومن ثم كان اشعال الحروب (٤٣) . التى تحدث دائما نتيجة « فشلنا فى أن نتوافق مع قوانين الطبيعة ومقاصـــدها »(٤٤) . ان العودة الى قوانين الطبيعة ، أى العودة الى المجتمع الشيوعى هى شرط السلام الدائم . « أليس من المعتقد أن المواطنين الذين لا يملكون ثروات خاصـــة ، الاغنياء بفضـــل الثروة العامة المشتركة ، لن يكون لديهم سبب لتعكير صفو الحياة مع جيرانهم ؟ » (٤٥) .

وذهب لابيه دى مابلى الى ان « عهد البورجوازية لن يكون عهد سلام » . وقال عنه كل من فرانكلين وآدمز انه يعبر بكلامه هذا عن رأيه فى دستور الولايات المتحدة ، فقال ردا على هذا انه ما لم تنتف تماما كل مظاهر عـدم المساواة المادية فى الولايات المتحدة فان البلاد ستأخذ حتما طريق العدوان ضد الشعوب وهى السياسة التى ستؤدى الى تحالف كل الشـــعوب ضد « القرطاجنيين الجدد » .

وخـــلال أعوام ردة ترميـــدور Thermidor التى اعقبت الاطاحة بدكتاتورية اليعاقبة أسس بابيف Babeuf ما اســـماه « حكومة الادارة السرية لســــــــــلام الشعب » Derectoire Secret de Salut Publique . بهدف الاعداد لثورة مسلحة فى فرنسا واقامة دكتاتورية للعامة من الشعب تعمل تدريجيا على تحقيق البرنامج الشيوعى للمساواة على يد اعضاء المؤامرة . واعتقد بابيف والثوريون الذين التفوا حوله أن مسألة السياسة التى سوف تتبناها حكومة العامة تجاه الشعوب الاخرى ليست مجرد موضوع لنظرية مجردة ، بل هى قضية ممارسة عملية مباشرة . ان برنامج السياسة الخارجية لاعضاء مؤامرة المساواة كان يجسد اساسا ذات المبادىء الاســاسية الدولية التى صاغها الشيوعيون الخياليون فى القرن الثامن عشر ، بيد أنهم خطوا بها خطوة أبعد فى ضوء أفكار الحكومة الثورية الممثلة لجماهير الفقراء .

---

(٤٢) Oeuvies Complétes de L'Abbé de Mably, London, 1789, Vol. 9, p. 60

(٤٣) نفس المرجع ص ١٣ .

(٤٤) نفس المرجع ص ١٩١ .

(٤٥) نفس المرجع ص ١٤ .

وذهب أنصار بابيف الى ضرورة وجود تشريع يحرم كل اشكال الحروب العدوانية · ورأوا أن واجبهم هو غرس روح الكراهية فى نفوس الشعب تجاه عمليات الغزو · ان الرغبة فى الغزو والنهب يجب ان تكون أمرا غريبا على شعب أقام نظاما اجتماعيا مشاعيا · ومثل هذا الشعب لن تكون لديه الرغبة ولاالفرصة لحمل السلاح ليقهر جيرانه ، انما فقط سيخوض الحرب لطرد عدو غاز أو لمساعدة جار يعانى من القهر ظلما وعدوانا (٤٦) ·

ويجب ان يكون اقانون الدولى ومساندة تأييد السلام العالمى هما حجر الزاوية للسياسة الخارجية لدولة البابيفيين الشيوعية ·. ولكن نظرا لان احترام القانون الدولى ليس وحده ضمانا كافيا يحمى البلاد من أى غزو خارجى فان الشعب ينبغى ان يكون مهيأ ومستعدا للدفاع عن حدود بلاده ، ولابد وان يكون قادرا على حمل السلاح ·

لقد كان واجب كل الشعوب ان تساعد بعضها البعض للدفاع عن « الحقوق الطبيعية » واستعادتها · ولا ريب فى ان مشاعر الاخوة لا تتسق مع أساليب العنف التى هى نتيجة حتمية للحرب · فالجمهورية الفرنسية لا يمكنها أن تفرض مبادئها على الشعوب الاخرى بقوة السلاح بل أجدر بها أن تفى بواجبها نحو الشعوب الاخرى « بأن تكون مثالا وقدوة مضيئة للدولة القائمة على المساواة والحرية » (٤٧) .

ويلزم اقامة اسوار من الاسلاك الشائكة تفصل بين فرنسا وجيرانها لحماية الجمهورية الفرنسية من المؤثرات الضارة الناجمة عن الاخلاق والمؤسسات الاجنبية الغريبة عن روح الحرية والمساواة ، ولكى تمنع أى تدخل خارجى فى الشئون الداخلية للبلاد · ويلزم أن تكون التجارة الخارجية كلها فى أيدى المجالس والهيئات الرسمية العليا فى الجمهورية ضمانا لمنع الفساد والشرور التى تتولد عن الملكية الخاصة (٤٨) ·

ولم يقصد أتباع بابيف الى عزل فرنسا عزلة كاملة عن بقية العالم · ان جمهوريتنا ترحب بكل من يرغب فى التعرف على المؤسسات الفرنسية وترحب بكل من يفد اليها تحدوه رغبة مخلصة فى أن ينعم بالمساواة والسعادة ·

ويوضح برنامج السياسة الخارجية لاتباع بابيف أن اهدافهم الاجتماعية ترتبط ارتباطا وثيقا بالنضال من أجل اقامة سلام عادل بين الامم . ان رفض حروب الغزو والالتزام بالقانون الدولى ، والدفاع عن الوطن الشيوعى ، ورفض أى محاولة لفرض المبادىء على الشعوب الاخرى قسرا وبقوة السلاح ، ومساعدة الشعوب المقهورة ، وارساء دعائم الحرية والمساواة فى بلدهم وفاء

---

(٤٦) Ph. Buonaroti, Conspiration Pour l'egalitè dite de Babeuf, Paris, 1957, p. 80.

(٤٧) نفس المرجع ص ٢٨ ·

(٤٨) نفس المرجع ص ١٦٣ ·

بواجبهم ازاء كل شعوب العالم ـ هذه هى كانت اسس السياسة الخارجية لشيوعية المستقبل التى وضعها اتباع بابيف تأسيسا على الافكار الاجتماعية الطوباوية فى القرنين السادس عشر والسابع عشر • وأشار لينين ، على نحو ما فعل ماركس من قبله ، الى ان المبادىء الاساسية التى وضعها بابيف وانصاره « تطورت على نحو متسق وتضمنت فكرة النظام العالمى » (٤٩) •

ومع ظهور الرأسمالية وضح التناقض بين الحرب وبين تطور الانتاج وكان ادراك الناس لهذا التناقض حافزا لمضاعفة وتكييف الجهود من جانب التجار الاحرار Free Traders وأنصار السلام ومختلف ضروب محبى الانسانية ، وغيرهم من الراغبين فى تلافى أضرار ورذائل الرأسمالية التى تجلت مع أمور أخرى فى شكل حروب مدمرة بين الامم مع عدم الغاء الشروط الاساسية للمجتمع البورجوازى • وتحمل أنصار السلام والتجار الاحرار مشكلات جمة ابتغاء جمع الحقائق والارقام للبرهنة على صدق رأيهم عن الحروب التى تستهدف الابقاء على مصالح التجارة الوطنية والدفاع عنها مع اخضاع الشعوب الاخرى بمثل هذه الحروب انما تؤدى الى تدمير التجارة والانتاج وينجم عنها خسائر مادية ومعنوية فادحة • بيد أنهم وهم يتحدثون عن جدوى الحروب لامة من الامم ككل : اغفلوا انها قد تكون مفيدة للبعض من أبناء هذه الامة دون غيرهم • ونتيجة لذلك وجدوا أنفسهم وجها لوجه ازاء المعضلة التالية : اذا كانت الحرب غير ذات فائدة أذن ما الذى دفع بالامم الى عمل ضد مصالحها الذاتية ، ولماذا تدور الحرب سجالا بين الامم دون انقطاع؟ وعجز أنصار السلام عن الاجابة على هذا السؤال لسبب بسيط هو أنهم اخفقوا فى أدراك الرابطة الاساسية بين الحرب وبين النظام الرأسمالى للانتاج ، أى بين الحرب وبين المصالح الاساسية للبورجوازية •

وأول من اشار الى هذه الرابطة فى الفكر الاجتماعى التقدمى هم الشيوعيون الخياليون اذ ادركوا الرابطة بين الحرب وبين العلاقات القائمة على الملكية الخاصة • وكما سبق أن راينا فان المفكرين الاوائل للطبقات المحرومة ، أى الشيوعيين الخياليين منذ القرن ١٦ حتى القرن ١٨ ، أوضحوا أن الغاء الملكية الخاصة شرط أولى لضمان سلام دائم • ولقد كانت الفكرة القائلة أن استبدال النظام البورجوازى بالاشتراكية سيضع نهاية للحروب هى الركيزة التى تبنى عليها نظريات السلام الدائم التى دعا اليها الاشتراكيون الخياليون العظام فى القرن التاسع عشر من أمثال فورييه وروبرت أوين •

أشار فورييه الى أن الحروب ظاهرة تتكرر فى « المجتمع المتحضر » أى من المجتمعات العبودية مرورا بالمجتمعات الاقطاعية الى المجتمع البورجوازى ، أما السلام فما هو الا رؤيا سرعان ماتؤدى وتتلاشى وتومض

(٤٩) ف• أ• لينين ـ « الاعمال الكاملة » مجلد ٣٨ ـ ص ٤٠ •

من حين لآخر . ان المنافسة التجارية التى أغرقت اوروبا فى بحار من الدماء زمانا طويلا لا تزال تضع العالم السياسى على حافة بركان يهدأ بل سيظل ينذر بالدمار طالما بقى نظام الاستبداد الاقطاعى بدلا من ظهور عبقرية اجتماعية . « ان الجيش البورجوازى طفيلى اجتماعى حقيقى ، انه أقلية من العبيد المدججين بالسلاح يكبحون الاكثرية من العبيد العزل . ان المجتمع الذى يتوفر فيه الاتساق والتوافق الاجتماعى ، أى المجتمع الاشتراكى هو الذى سيرسى دعائم وحدة عامة فى العالم ويقضى على ظاهرة الحروب والثورات والفقر والمظالم الاجتماعية » (٥٠) .

اننا لا نجد مكانا للحرب فى كتاب روبرت أوين « عالم أخلاقى جديد » وانتهى تحليل أوين للمجتمع البورجوازى الى نتيجة مؤداها انه « أصبح ضروريا وحتميا الاهتداء الى نظام اجتماعى آخر ابتغاء القضاء على الحرب وماينجم عنها من لا أخلاقيات وبؤس وجنون » (٥١) . سوف نجد حكومات بلدان العالم نفسها مكرهة بحكم المحافظة على الذات أن تقبل نظاما اجتماعيا أكثر كمالا ورشدا ابتغاء تجنب الفوضى والحرب والكوارث . ان الدمار التام للنظام الاجتماعى القديم واحلال نظام اخر جديد هما وحدهما اللذان سيضعان نهاية للتنافس والمعاناة والحروب .

واذا كان كل من فورييه وأوين قد اقترح استبدال النظام الراسمالى بنظام جديد هو النظام الاشتراكى فانهما كانا يؤمنان بأن المجتمع البورجوازى برمته ، بما فى ذلك الطبقة الحاكمة لا يمكن الا أن تعنيهم الفوائد المباشرة التى ستفيدها البشرية من التحولات الاجتماعية التى اقترحاها . انهما لم يدركا أن مصالح البورجوازية قوامها الابقاء على نظام الاستغلال وانهما تتصادم مع مصالح الشعب العامل . وهنا نجد الاشتراكيين الخياليين يؤمنون بأفكار مشابهة لآراء أنصار السلام عن مشكلات الحرب والسلام نظرا لان كلا منهم وجه نداءه الى المجتمع ككل دون وضع خط يمايز بين الطبقات المختلفة أو دون افتراض أى استثناء للطبقة الحاكمة . ولكن ثمة هوة عميقة وواسعة تفصل بينهم ذلك لان أنصار السلام الخياليون من حيث انهم كانوا ينشدون المستحيل — رأسمالية دون حرب ، سلام دائم مبنى على أساس المجتمع البورجوازى — هذا بينما كان الاشتراكيون الخياليون خياليين من حيث انهم لا يعرفون ما القوة الاجتماعية القادرة على استئصال الراسمالية واقامة سلام دائم . هذان الاتجاهان فى نظرتهما الى مشكلتى الحرب والسلام يفضيان الى نتائج متعارضة تمام التعارض : « أنصار السلام يحاولون تزيين الراسمالية بينما يصمها الاشتراكيون الخياليون بأنها نظام يرعى الحروب ويبقى عليها .

---

(٥٠) Oeuvres Complétes de charles Fourier. الجزء الاول ، باريس — ١٩٦٦ ص ٨٦ .

(٥١) Robert Owen: the book of the New Moral World. London, 1844 p. 15-16

واختلفت نظريات سان سيمون عن كل النظريات العامة التى سادت فى مطلع القرن ١٩ التى قال بها المفكرون الخياليون حيث مجدوا الاشتراكية واكبروها كنظام يكفل السلام الدائم . اذ بينما كان يؤمن بأن ادانة النظام الجديد للحرب سيبرىء أوروبا منها ولن تكون لها رجعة بعد ذلك « الا انه كان يؤمن أيضا بأن السلام الاوروبى لا يعنى نهاية الحروب ضد شعوب آسيا وافريقيا لفرض السعادة عليهم(٥٢) . ولم يكن من قبيل المصادفة أن يسلك سان سيمون سبيلا مختلفا ومغايرا للتراث الانسانى للاشتراكية الطوباوية ، ذلك لانه كان مفكرا عنصريا شوفينيا ولا ريب فى أن الشوفينية والعنصرية ملازمان للحرب .

ان تطور التناقضات الطبقية فى المجتمع البورجوازى منذ الاربعينات فى القرن الماضى أفسح مجالا لعديد من التعديلات التى طرأت على آراء الاشتراكيين الخياليين ، وبدأ مفكرو الطبقات المحرومة فى اكتساب فهم أعمق لمصالح الطبقات المختلفة فى المجتمع البورجوازى ، وأن يضعوا فى الحسبان هذه الاختلافات فى المصالح الطبقية عند تقويمهم للحروب . وهكذا نجد لويس أوجست بلانكى Louis Auguste Blanqui الممثل المبرز للجناح الثورى للشيوعية الخيالية الفرنسية فى الثلاثينات والاربعينات من القرن التاسع عشر يشير الى أن مصالح البورجوازية أثناء الحروب النابليونية كانت مختلفة أشد الاختلاف عن مصالح الجماهير . وادرك أيضا كيف كانت مصالح البورجوازية مناقضة اشد التناقض لمصالح الجماهير بالنسبة لسياسة الحلف المقدس المضاد للثورة(٥٣) .

هذه التطورات التى طرأت على الفكر الاجتماعى التقدمى السابق على الماركسية والذى ظهر فى القرن ١٩ فيما يتعلق بالنظرية العلمية عن الحرب والسلام ، بلغت ذروتها فى الآراء التى ظهرت فى الخمسينات من القرن ١٩ والتى عبر عنها نيكولاى تشرنشيفسكى Nikolai Chernyshevsky وهو اشتراكى خيالى روسى . ومفكر ديموقراطى ثورى مبرز .

تناول تشرنشيفسكى كل مشكلة الحرب والسلام من وجهة نظر «الانسان العامل» . فقد عارض استخدام القوة فى الشئون الدولية وأوضح بشاعة الدمار الذى تخلفه الحروب والآلام المبرحة التى يعانى منها الشعب العامل قبل غيره . بيد انه اعترف بأن ثمة حروبا «مفيدة» وهى فقط تلك الحروب التى يخوضها الناس دفاعا عن الوطن . وقال فى هذا الصدد « ان أى حرب هى حرب مدمرة للانسان العامل والحرب الوحيدة المفيدة هى تلك التى يخوضها الناس لطرد المعتدين عن أرض الوطن » . (٥٤)

---

(٥٢) بروكسل ١٨٣٩ — ص ٢٨ Oeuvres Chaisies de C.H de Soint-Simon

(٥٣) A. Blanqui, Textes Chaisis, باريس — ١٩٥٥ — ص ٨٥ — ٨٦ ، ٩٦ — ٩٧

(٥٤) N.G. Chernyshevsky: Selected Philosophical of Works
مجلد ٢ ، الطبعة الروسية ، موسكو — ١٩٥٠ ص ١٩٨ .

ادرك تشرنشيفسكى الرابطة العضوية بين الحرب ومصالح الطبقة الحاكمة ، لذلك فانه عندما درس سياسة نابليون والمجموعة الحاكمة التى هددت باغراق فرنسا فى حروب مدمرة نجد تشرنشيفسكى يشير الى أن المخرج الوحيد للخلاص من مثل هذه السياسة هو أن تطرد فرنسا من حياتها هذه العناصر التى كانت تقودها الى الحرب ضد مصلحتها . وتتناول أيضا الحرب الاستعمارية التى شنتها انجلترا ضد الهند الشرقية فقال : « ان الحرب غير مفيدة للامة ، ولكنها مفيدة تماما للطبقة التى تحكم انجلترا » . (٥٥)

ورأى تشرنشيفسكى أن السبيل لوضع نهاية للحرب هو أن يكون للطبقة العاملة دور حاسم فى ادارة شئون الدولة . وقال « عندما يكون للطبقة العاملة تأثير حاسم على مجريات الامور فى انجلترا وتتوفر لها الخبرة الكافية للحكم وفق مصالح العمال وليس وفق مايفرضه عليها أناس آخرون تتناقض مصالحهم مع مصالح الطبقة العاملة ، هنا سوف تنبذ انجلترا كل الحروب التى تشنها خارج حدود بلادها . وعندما يتحقق نفس الموقف فى البلدان الاوروبية الاخرى ، سوف تختفى كل امكانية لاشعال الحروب بينها . ولكن الى أن يتحقق هذا ستظل الحرب أمرا لافكاك منه على الرغم من تعارضها التام مع المصالح الحقيقية لكل أمة من الامم المتحاربة » . (٥٦)

أما عن أسباب الحروب فقد ذهب تشرنشيسفكى الى أن الحرب هى النتيجة المباشرة « للنظام المدنى للمجتمع » . ان النزوع الى الحرب أمر مشترك بين كل الامم الاوروبية . ووصفه بأنه « نزوع مناف تماما لطبيعة الشعب العامل ، ولكنه لا يزال يخيم على الحياة الاوروبية كنتيجة للنظام الاجتماعى لتلك الامم . » (٥٧)

وهكذا نجد مفكرى القرن التاسع عشر المعبرين عن الجماهير قد خطوا خطوة كبيرة نحو اكتشاف أسباب الحرب والسلام . وبدأ هؤلاء يربطون الامل فى السلام بالنشاط التاريخى للجماهير وادركوا الصلة بين الحرب ومصالح الطبقة الحاكمة .

بيد انهم لم يناصروا هذه الفكرة بقوة ووضوح وثبات وبدا هذا واضحا بوجه خاص فى الطريقة التى نظر بها الاشتراكيون الخياليون الى البورجوازية اذ انهم لم ينظروا الى البورجوازية باعتبارها الطبقة الحاكمة فى مجتمع بورجوازى توكل ادارة شئونها للارستقراطية بل باعتبارها « الطبقة المتوسطة » وعجزوا عن تحديد دور هذه الطبقة فى اشعال

---

(٥٥) نفس المرجع .
(٥٦) نفس المرجع — ص ١٩٩ .
(٥٧) نفس المرجع .

الحروب . ولهذا رأى تشرنشيفسكى ان زيادة المشـــاركة المباشرة لرجال الصناعة الانجليز فى ادارة شئون البلاد ستؤدى الى الاقلال من احتمـال الحرب ، هذا على الرغم من انه لم يعتبرهم أنسب من يعبر عن مصـالح العمال والعمل (٥٨) . وكان ديزامى Dezamy يميل أيضا الى الرأى القائل أن البورجوازية قادرة على أداء دور من أجل غرس مبدأ الملكية المشتركة الذى سيربط الناس جميعا بروابط الاخوة ويحررهم من النزعة القوميـة الضيقة (٥٩) . وهكذا فشل الاشتراكيون الخياليون جميعا بما فى ذلك أقربهم الى النهج العلمى آنذاك من أمثال تشرنشيفسكى وديزامى ، فشلوا فى تقويم وادراك أن الشعب العامل والبورجوازية يمثلان قطبين متنافرين فيما يتعلق بقضية الحـرب والســلام .

ويتجلى هذا النوع واضحا لدى الاشتراكيين الخياليين من البورجوازية الصغيرة . مثال ذلك جون جراى John Gray وهو خير طراز يمثـل البورجوازية الصغيرة فى النصف الاول من القرن التاسع عشر . لقد كـان جون جراى يشارك فى كل الاوهام المشتركة بين رجال الصناعة وأنصـار السلام من أبناء البورجوازية الصغيرة ، وذلك فيما يتعلق برأيهم عن قضية تحقيق سلام دائم . وقال فى هذا الصدد «ان نزعة الحرب ستموت ميتـة طبيعية فى الوقت المناسب والمحدد اذا ماتحسنت ظروف البشر بصـورة شاملة عن طريق دعم التجارة الحرة » . (٦٠)

ان الشروط الاساسية اللازمة لتفسير علمى لمشكلتى الحرب والسلام توفرت مع تطور الصراع الطبقى للبروليتاريا ضد البورجوازية .

ان الاتحاد القومى الاعظم للنقابات الذى اقترحه روبرت أوين ليشمل بريطانيا وأيرلندا كان يستهدف السيطرة على انتاج البلاد بالكامل ، والعمل تدريجيا على تحويل الاقتصاد الى نظام اشتراكى عن طريق تنظيم العمال فى تعاونيات . وكان أحد مطالبه السياسية الرئيسية : «انهاء الحروب ، وتسوية كل الخلافات بين الامم عن طريق مؤتمر سنوى يعقد بصـفة دورية مرة فى كل بلد على التوالى» (٦١) . وذهب أوين الى أن مثل هـذا الاتحاد العمالى سيسمح بالالتزام بالتنظيمات والترتيبات المقترحة وبوضع نهاية للمنافسة والصراع بين الافراد والامم وينقذ كل الطبقات من الآلام والرذائل التى لا حصر لها (٦٢) .

كان هذا احدى النقاط التى تضمنها أول برنامج ســلام للحركة العمالية البريطانية .

---

(٥٨) تشرنشيفسكى — نفس المرجع — ص ١٩٩ .

(٥٩) T. Dezamy: Code de la Communautè باريس ١٨١٢ ص ٣ — ٦ من المقدمة

(٦٠) John Gra:y The Social System: a treatise on the principle of exchange. أدنبرة ١٨٣١ ص ١٧٢ .

(٦١) مجـلة the Crisis عدد ٢٤ مجلد ٣ — ٨ فبراير ١٨٣١ لندن ص ٢٠٠ .

(٦٢) نفس المرجـع .

ومع فجر الحركة العمالية الدولية فى الاربعينات من القرن ١٩ أعلن ممثلو الطبقة العاملة كما أعلن الديمقراطيون الثوريون فى مختلف البلدان مبدأ معارضة الحروب غير العادلة باعتباره جزءا عضويا مكملا للمهام الدولية العامة للطبقة العاملة . ويشهد عام ١٨٤٥ أول محاولة ناجحة لتوحيد الديمقراطيين الثوريين فى مختلف بلدان العالم وهى المحاولة التى أدت الى تشكيل حلف الديمقراطيين الاشقاء ، وهو حلف ديمقراطى دولى يضم ممثلى الجناح اليسارى للحركة الميثاقية الانجليزية واعضاء عصبة العدالة الالمانية والثوريين من الجنسيات الاخرى الذين يعيشون فى لندن كمهاجرين . وانعقد اجتماع لهذا الحلف حضره أكثر من ألف ديمقراطى يمثلون اغلب شعوب أوروبا وتحدث فى هذا الاجتماع جورج هنرى ، وهو كاتب من الجناح اليسارى وقائد ميثاقى وعلم من أعلام الحركة العمالية الانجليزية ، وأعلن فى حديثه باسم العمال الانجليز «اننا ندين ونستنكر كل الحروب عدا تلك التى تخوضها الامم كرها ضد قوى داخلية قاهرة أو ضد غزاة أجانب» (٦٣) .

وتحدث فيتلنج Weitling باسم العمال الالمان وأعلن فى حديثه: «ما الفائدة التى يمكن أن تعود علينا من كل هذه الحروب وسفك الدماء الا أن نفيدمن الموقفلكى نهب جميعا ضد اللصوص والسفاحين ، ارستقراطية كل الامم؟ » .

وهكذا نجد القضايا مطروحة فى منتصف العقد الخامس من القرن ١٩ فى صيغة فكر اجتماعى تقدمى ، وهو أمر يستوجب الاهتداء الى اجابة علمية توضح الوسائل الفعالة لتحقيق السلام الدائم . احد هذه العناصر المطلوبة هى كيف ترتبط الحرب بالنظام الرأسمالى وبمصالح البورجوازية وبالعلاقات السياسية بين الدول الرأسمالية . عنصر آخر هو توضيح القوى الاجتماعية القادرة على وضع نهاية للحرب ، وقضية التطاحن بين مصالح البورجوازية ومصالح البروليتاريا فى العلاقات الدولية . وكانت هناك ايضا قضايا تتعلق بالطبيعة السلامية للنظام الشيوعى الجديد لكى تفيد كأساس لسلام دائم بين الامم ، وقضايا برنامج سلام مستقل للطبقة العاملة ، والتاكتيكات التى ستلتزم بها البروليتاريا فى نضالها لارساء دعائم علاقات دولية عادلة .

لقد كان حل كل هذه القضايا هو الاسهام التاريخى الذى أسهمت به الشيوعية العلمية متمثلاق العلم الماركسى اللينينى . لقد أحدثت الماركسية اللينينية ثورة فى الآراء عن الحرب والسلام وكشفت عن الجوهر الحقيقى للحرب وأسبابها ، وأوضحت طبيعة القوى الاجتماعية السياسية وطبيعة الوسائل الكفيلة بانقاذ البشرية من ويلات الحروب وتحقيق سلام دائم على الارض ، ونبذت تماما كل النزعات الميتافيزيقية والمثالية واستبعدتها من تحليل الظواهر الاجتماعية المعقدة والمتناقضة . ان التعاليم الماركسية اللينينية عن الحرب والسلام تفيد كسلاح ايديولوجى مكين فى النضال من أجل التقدم الاجتماعى والامن والسلام ، وفى النضال من أجل منع كارثة نووية .

---

(٦٣) مجلة The Nothern Star مجلد ٨ — عدد ٤١١ لندن .

# الفصل الثانى

## فكرة السلام العالمى فى نظريات أصحاب الفكر الإنسانى البورجوازى من القرن ١٦ حتى القرن ١٨

السلام مثل أعلى ظلت البشرية تنشده ، منذ اقدم العصور . ولقد كانت المعارضة القوية للحرب من جانب التقدميين فى كل العصور جزءا من آمال أرحب تتوق الى السلام والرخاء العالمى والعدل الاجتماعى . ووجدت هذه المبادىء الانسانية اسمى تعبير لها فى فكرة الاشتراكية . ولهذا فان تطور فكرة السلام العالمى فى الفكر الاجتماعى على مدى العصور والاحقاب تمثل موضوع دراسة هامة .

ظهرت فى الاعوام الاخيرة دراسات عديدة قاصرة على هذا الموضوع وحده . بيد أن اكثرها عالج محتوى برامج السلام العالمى فى مرحلة التنوير معالجة احادية الجانب . ونخص بالذكر هنا العناصر الطوباوية فى هذه النظريات التى استخدمها المفكرون المعاصرون الذين يصرون على الزعم بأن الحروب قدر انسانى لا فكاك منه ولا سبيل الى القضاء عليها . وعمد هؤلاء أيضا الى استخراج وابراز جوانب المشكلة التى يمكن تأويلها كآراء تدعو الى سلام طبقى ، وشوهوا عمدا أيضا المفاهيم الاساسية لمفكرى عصر التنوير ، وذلك بهدف تبرير فكرة الحكومة العالمية . لهذا كله نرى أن من الاهمية بمكان تقديم دراسة تحليلية علمية مدعومة بالبراهين تتناول محتوى الافكار الخاصة بالسلام العالمى التى عرضها ونادى بها مفكرو البورجوازية فى عصر التنوير .

تطابق ظهور النزعة الانسانية البورجوازية ( من القرن ١٦ الى القرن ١٨ ) مع ظهور الرأسمالية وتطورها . فقد أدى عصر التراكم الاولى لرأس المال الى ظهور العديد من النزاعات العسكرية التى جلبت للبشرية آلاما ونكبات لم يسبق لها مثيل : تأسست الدويلات واقيمت المستعمرات فيما وراء البحار ، وكل هذا بقوة السلاح . وظهر العديد من النظريات التى تبرر دعم سلطة الدولة ، وكانت الحروب أداة مساندة ايديولوجية لهذه العملية . وصاغ ماكيافيللى ( ١٤٦٩ — ١٥٢٧ ) المبادىء الاساسية لمفهوم « المصلحة القومية » وذلك فى كتابه « الامير » الذى ذاع وساد وقتذاك .

ان ظهور البورجوازية فى أوروبا وما صاحبه من مظـاهر الاندماج القومى فى أواخر القرن ١٦ وأوائل القرن ١٧ أدى الى سرعة ظهـور وعى قومى صاحبه فى ذات الوقت ظهور نزعة قوميـة . وهـكذا نجد كتب الجغرافيا المدرسية التى صدرت فى فرنسا فيما بين عامى ١٦٣١ و ١٦٤٦ تصر على ضرورة استعادة فرنسا لحدود منطقة الغال القديمة (١) وأصبح الانتصار العسكرى جزءا عضويا من عقيدة المصلحة القومية التى يساندها أعضاء الولاية الثالثة Third Estate ولعل خير طراز يمثل هذه الآراء هو جان بودان Jean Bodin الذى نذر قدرا كبيرا من اهتمامه لقضـايا الحرب والسلام فى معالجته لمبادىء سيادة الدولة والعلاقات الاقتصـادية الدولية . وقد عرض فى كتابه « الرد على نقـائض مالتروا » ( ١٥٦٨ ) مفهوما أصيلا عن التجارة الحرة رآه أكثر الوسائل فعالية لدعم السـلام العالمى . بيد أننا نجد فى كتابه « الجمهورية » ( ١٥٧٦ ) فكرة ضمنية مفادها أن الحروب الخارجية التى تستهدف دحر هجوم معـاد حرب ضرورية اذا كانت استجابة لمصلحة قومية ، وأن الحرب خير وسيلة للابقاء على الدولة نظرا لانها تشد انتباه الناس بعيدا عن الثورة والتمرد والحروب الاهلية ، وتخلق وحدة داخلية ، بل أن الحرب تكون أمرا له ما يبرره اذا خاضها حاكم ابتغاء كسب أو منفعة (٢) .

وتطورت هذه الافكار على يد المفكر الاقتصادى الفرنسى انطوان مونت كريتيان Antoine de Montchrétien فى كتابه « رسالة فى الاقتصاد السياسى » ( ١٦١٥ ) الذى يمثل دعوة الى الحكومة الفرنسية لاتباع سياسة حماية جمركية . ويضع مونت كريتيان المجد العسكرى والتوسـع ضمن الشروط الضرورية اللازمة للرخاء الاقتصادى .

بيد أن حروب القرنين ١٦ ، ١٧ كان لها أثرها المعاكس على تطـور أوروبا . ذلك أن حرب الثلاثينات وحدها جرت الخراب والدمار على قطاع كبير من القارة . وهنا بدأت البورجوازية تأمل فى السلام من أجل ازدهـار الصناعة وتقدم التجارة الداخلية والخارجية . وهذا هو الدافع الذى دفع المفكرين البورجوازيين الى التماس سبل للحد من الصراعات وتحليـل أسباب الحرب . ومع هذا كان لايزال سائدا اتجاه يميل الى اعتبار الحرب قدرا محتوما . وظهرت فى هذه الحقبة ( أوائل القرن ١٦ ) نظـرية لويجى دا بورتو Luigi da Porto والتى تقول « الثراء كبرياء ، والكبرياء غضب، والغضب حرب ، والحرب فقر ، والفقر تواضع ، والتواضع سـلام ، والسلام ثراء ورخاء .. الخ . » (٣)

---

(١) R. Mousnier, Les XVIe et XVIIe siecles, باريس ١٩٦١ جـ ٤ — ص ١٩٠

(٢) Jean Bodin, Six Livres de la Republique. باريس ١٥٨٠ ص ٧٥٥ .

(٣) J.R. Hole «War and Public Opinion in Renaissance Italy» Italian Resaissance Studies. لندن ١٩٦٠ ص ١٠١ .

ونظرا لأن اغلب المفكرين البورجوازيين فى القرن ١٦ كانوا يعتبرون الحرب أمرا محتوما فانهم لم يعنوا فقط بصوغ المبادىء الاساسية للقانون الدولى بل عنوا أيضا بنقد الحرب انطلاقا من مواقف انسانية .

وكان أرازمــوس أوف روتـــردام Erasmus of Rotterdam ( ١٤٦٦ — ١٥٣٦ ) من أكثر دعاة السلام غيرة وحماسا وهو ما تمثل فى دعوته لاقامة نظام مسيحى هربا من جنون سفك الدماء ومن ثم يكون النظام المنشود مثالا طيبا وقدوة للبشرية .

وظهر أونوريه بونيه Honoré Bonet فى النصف الثانى من القرن ١٦ ودعا الى التخفيف من غلواء الوحشية فى الحروب . أما تلميذه كريســتين دى بيزان Christine de Fisan فلم يكن مستعدا الا لقبول حرب تستهدف دفع ظلم مع تجنب الوحشية بكل صورها .

وجدير بالذكر أن أهم مساهمة فى مجال اعداد وصوغ القانون الدولى خلال الفترة الاخيرة من القرن ١٦ هى مساهمة فرانسيسكو دا فيتـــوريا Francisco da Vittoria الاســـتاذ بجامعة ســـامانكا والذى اعتبر الحرب شرا ، ولكنه رأى السلام مثلا أعلى بعيد المنال . ومن الاهمية بمكان هنا الاشارة الى فكرته المتمثلة فى دعوته الى الامم الاوروبية لكى تشكل كلا واحدا متكافئا ومتكافلا وأن تجاهد من أجل القضاء على كل مظـــاهر الظلم فى علاقاتها ببعضها وتكون « جمهورية انسانية » (٤) .

وتطـــورت الدعوة الى الســــلام على يد ســــــباستيان فرانك Sebastian Frank ( ١٤٩٩ — ١٥٤٢ ) ممثل الاتجـاه الديمقراطى فى عصر الاصـــلاح الدينى ، ونجده فى كتابه Krieguchlein des Friedens (٥) يذكر النـــاس بأن الله يأمرهم بألا يغضـــبوا لغير ما ســـبب معقـول ، ويعـلن بأنه ليس من واجب الانســـان العمل على زيادة ودعم جيوشـــه وأسلحته نظرا لان الرب القـوى القـدير هـو وحـده الذى يعرف متى يكون ضروريا الدفاع عن ذاته سبحانه . واذا كان فرانك يتحدث هنا عن الرب فان هذا فى واقع الامر لا يصبغ حججه بصــــــبغة تجريدية ودينية خالصة . لقد كانت صياغته الدينية هى الاسلوب المألوف فى العصور الوسطى وكل ماقصد اليه انه اذا كان الانسان يحجم عن حسم النزاعات الارضية بقوة السلاح فلا مجال لشن حرب ابتغاء مجد الرب وان الواجب هو العمل على أن يسود السلام الابدى الارضى . وأكثر من هـــذا أن فرانك قرن انتصار السلام على الارض بانتصار العدالة الاجتمـــاعية معترفا بحق العامة من الناس فى الثورة ضد سادتهم . بيد أن حلمـــه عن السلام لم يدعمه أى برنامج عمل .

---

(٤) E. Nys, Etudes de droit Internationale, 1968 p. 321 - 23, M.R. Vesnitch Deux Précurseurs français du pacitisme et l'arbitrage internationale, Paris, 1911, p. 37.

(٥) S. Franck, «Kriegbuchlein des Friedens», in the book by K. Raumer, Ewiger Friede, Freiburg - Munchen, 1953.

ودار فى القرن ١٧ حوار حول فكرة اتحاد الدول وكان أطراف هـذا الحوار وليام بين William Penn وليلينفـد Lilienfeld وسان بيير دى سولى Duc de sully ــ المؤلف الحقيقى للمخطط العظيم ــ اقتبس وآخرين وقالوا ان فكرتهم ناشئة عن المخطط العظيم Le Grand dessein الذى قال به هنرى الرابع فى فرنسا . ويذهب بعض المؤرخين الى ان دوق فكرة اتحاد الدول والتحـكيم من أ. كروسى (٦) وواقع الامر أن المخطط العظيم يمكن أعتباره فقط بمثابة مشروع سلام أبدى قائم على أسـاس التراث الادبى لعدد من مفكرى القرن السابع عشر وعصر التنوير مثل ويليام بين وسان بيير وجان جاك روسو . وقد أسر هذين الاخيرين الصـياغة «السلامية» التى صيغ بها المشروع والنتائج المتضمنة فيه ويمكن استخلاصها منه ــ والتى سادت فى القرن السابع عشر واستخدمها سالى Sully لاغراض ديماجوجية ــ وأسرتها ايضا الاسطورة التى تحكى عن أن هنرى الرابع هو صاحب المشروع ، وهى الاسطورة التى قبلاها على ظاهرها . ولقد كان مشروع سالى موضوعا من أجل تحقيق حلف سياسى عسـكرى بين دول أوروبا الغربية وليس ثمة ما يبرر الاعتقاد بأنه مشروع سـلام أبدى . ومع ذلك فان من المستحيل اغفال أهميته نظـرا لاثره الكبير على المفكرين الذين جاءوا من بعده من أمثال بين Penn وروسو .

وتطور القانون الدولى البورجوازى فى القرن ١٧ من خلال أعمـال جروتيوس ثم من بعده صمويل فون بوفندورف Samuel van pufendorf وامريك فون فاتيل Emerich von vattel وظهر العديد من النظريات عن الاثر الهام للحرب والسلام فى تطور المجتمع ، وعن الحروب العادلة وغير العادلة وشهدت هذه الحقبة محاولات لدراسة الاسباب الاقتصادية للحرب ووسائل الحد من الصراعات العسكرية ودعم التطور السلمى لفترات زمنية طويلة .

لقد صدر فى باريس عام ١٦٢٣ كتاب له أهمية فريدة فى هذا الصدد ، ويحمل عنوانا طويلا مملا : « مقال فى مناسبات ووسائل دعم سـلام عام وحرية التجارة فى جميع أنحاء العالم ، موجه الى ملوك وامراء العصر » (٧) ويعرض هنا أ. كروسى مؤلف الكتاب الافكار الاساسـية عن برنامجـه للسلام ، ويؤكد فى عرضه أن دافعه الوحيد هو حبه لوطنه ، وانه يعبر عن آمال ومخاوف كل الصادقين المخلصين فى فرنسا . ويعتقد ان تحقيق السلام والاستقرار الداخلى ليس كل المهمة ، بل ان السلام فى الخارج أكثر اهمية ولهذا فقد رصد كروسى كتابه للمشكلة الاخيرة اساسا .

ترى ما الاساس المعقول لانشاء مجتمع الامم السـلمى ؟ يقـول كروسى انه الحق الطبيعى للناس فى الحياة والرخاء والقائم على أسـاس وحدتهم ومساواتهم . ان الحقوق الطبيعية وقوانين الطبيعة تصدق على

---

(٦) E. Erucé, Le Nouveau Cynée.

(٧) الناشر T.W. Balch ــ فيلادفيا ١٩٠٩

الجميع دون نظر الى أهميتهم . « ان الشمس تسقط ضوءها على الذهب او الطين سواء . والماء يفيض للناس جميعا . والرب يعني بحياة أقل الكائنات شأنا . اذا لماذا يعزل الحكام أنفسهم عن العامة ؟ » ينبغى أن يخضع الناس جميعا لنفس القوانين لانهم بحكم طبيعتهم كل واحد لايتجزأ حيث أن الانسان كائن اجتماعي ولا يسعه الا أن يضع الناس الآخرين فى اعتباره ويعنى برفقائه فى الحياة . أحرى بالناس أن يعيشوا أصدقاء .

ان فكرة المساواة الطبيعية ووحدة البشر هى فى جوهرها تعبير عن النظرية البورجوازية عن القانون الطبيعى الذى تعرف أن جروتيوس هو مؤسسة بشكل عام . وهكذا يمكن القول بأن كروسى الذى ظهر كتابه عام ١٦٢٣ فى الوقت الذى شرع فيه جروتيوس فى تأليف كتابه «عن قانون الحرب والسلام » ، استبق الى حد ما نظرية مؤسس القانون الدولى الذى قدر له أن يحظى بموافقة عالمية . وربما أتيح لجروتيوس أن يعرف شيئا عن رسالة كروسى عندما لجأ الى باريس حيث فكر وكتب ونشر كتابه Magnuin Opus

وطبيعى أن كروسى يعبر فقط عن مفهوم القانون الطبيعى فى عبارات عامة جدا على نحو تلعب فيه الادارة الالهية دورا أكبر من دورها عند جروتيوس . ومع هذا فقد كان مفهومه عن القانون الطبيعى مثل غيره من أصحاب النظريات فيما بعد يرتكز على تصور ممعن فى التجريد لمعنى القانون والعدالة .

ونحن نجد كروسى فى نقده للحرب يركز أساسا على المبدأ الاخلاقى للعدل علي الرغم من أنه يظهر نفسه وكأنه لا يعبأ بالجوانب الاجتماعية الاقتصادية للمشكلة . ويشير الى أن الحروب الخارجية يخوضها الناس ابتغاء مجد أو كسب أو رد لاهانة أو للتدرب العملى على الحرب . وفى أغلب الاحوال يكون هدف الحرب واسبابها تعطشا للمجد وتأخذ شكلا مشروعا . ولكن أحرى بالحكام أن يتخلوا عن النزعة العسكرية المسيطرة، وأن يكبحوا رغباتهم فى خوض غمار حروب لا معنى لها . وينبغى تحديد عدد القوات المسلحة فى ضوء احتياجات الدفاع فحسب ، حتى لا يرى الجنود فى الحرب فرصة للنهب والقسوة الوحشية . ويدين كروسى صراحة الحروب التى تندلع من أجل قضية شرف أو من أجل اكتساب خبرة عسكرية .

ويذهب كروسى أيضا الى القول بأن الحروب ينبغى الا تندلع من أجل تحقيق مكسب فقط أو تكون وسيلة لبلوغ منفعة ذلك لان الشرف هو وحده الذى يتهدده خطر الحرب بل ان الكسب أيضا غير مضمون . بل ان النصر ليس من شأنه أن يحسن وضع المنتصر لفترة طويلة مادامت الضرائب وغيرها من المتطلبات يجرى فرضها على الناس .

وطور جان جاك روسو فى كتابه « رأى فى السلام الابدى » هذه الفكرة عن الانتصارات العسكرية للحكام وكيف أنها مجلبة للخراب بالنسبة للرعايا . يقول : « بات واضحا للجميع أن الامراء الفاتحين يجعلون الحرب عبئا على رعاياهم مثل ما هى عبء على أعدائهم ، وأن

المنتصر ليس فى وضع افضل من المنهزم » لقد اعلن هانيبال لاهل قرطاجنة « لقد هزمت الرومان . ارسلوا لى الكتائب لقد فرضت الضرائب على ايطاليا فارسلوا لى المال . هذه هى دلالة واهمية كل صلوات الشكر للرب والبهجة التى نبديها بالالعاب النارية وفرحة الشعب بانتصار سادته » (٨) .

أما عن النوع الثالث من الحروب ، وهى الحروب التى تكون لاستعادة حق مسلوب أو لاصلاح خطأ ، فقد كان كروسى يؤمن برأى مناقض تماما . وقال أن المشكلة كلها تكمن فى مزاعم الملوك الذين فقدوا فى مرحلة ما جزءا من أراضيهم . وفند كروسى دعوتهم وتحريضهم على الثأر واستعادة حقوقهم السابقة على الارض نظرا لانه لا يوجد أى وجه للمقارنة بين المملكة وبين الارث العادى ومن ثم فان هذا النوع من الحروب لا مبرر له على خلاف ماقال به دافيتوريا وجروتيوس . بيد أن كروسى يرى فى ذات الوقت أن للملك حق رد الاهانة واستعادة حقوقه ، ولكن ليس عن طريق الحرب بل التحكيم .

ولهذا اقترح كروسى اقامة محكمة دولية لفض المنازعات سلميا .

وتأسيسا على الرأى القائل بأن الناس جميعا ابناء اسرة واحدة ويتمتعون جميعا بملكة العقل ذهب كروسى الى حد الاعتقاد بأنه لا الخلاف السياسى ولا الشقاق الدينى يمكنهما أن يحولا دون أن يقيم الناس سلاما أبديا طالما أن العقل هو الحكم فى كل أعمالهم . وازاء اقتناعه بأن الملاك حكماء واعون بواجبهم فقد ذهب الى أن اقامة سلام عالمى وقف عليهم .

وعمل كروسى على تطوير فكرة وحدة الجنس البشرى والمساواة الطبيعية ومن ثم فقد وسع من مجال المثال الاعلى التقليدى عن السلام الاوروبى بحيث يضم كل الامم . ودعا الى أن يؤدى السلام العالمى الى أن توافق اكثر الدول على نظام للتعاون الدولى وأن يفيد ذلك أولا وأساسا التجارة العالمية .

هذا هو بوجه عام برنامج كروسى عن السلام العالمى . ولكن على الرغم من أنه برنامج خيالى الا انه يمثل صورة مضيئة للنزعة الانسانية الفرنسية .

وتوالت السنون بعد مطلع القرن السابع عشر وتعالت اكثر فاكثر الاصوات التى تدين الحرب . ونقرأ هنا اسماء فوبان Vauban ولابروبير La Bruyére وفنيلون Fenelon وهودار دى لاموت Houdar de la Motte فقد تناول هؤلاء موضوع الحرب وبحثوا وسائل منع نشوب الصراعات العسكرية وهناك أيضا جان أموس كومنيوس الفيلسوف

---

(٨) J.J. Rousseau: «Jugement sur la Paix perpetuelle» الاعمال الكاملة جنيف ١٧٨٢ جزء ٢٨ .

التشيكى المبرز الذى نذر أعواما طويلة من حياته ليقدم تحليلا وافيا وشاملا عن الافكار الخاصة بالسلام . وطرح قضية حماية السلام على حكام أوربا فى رسالته التى صدرت تحت عنوان « شيء واحد فقط هو الضرورى » وهى الرسالة التى وجهها الى كل المشتركين فى المؤتمر الدولى المنعقد فى برايدا Breda لصوغ نصوص معاهدة السلام بين انجلترا وهولندا والتى اطلق عليها أسم « بشير السلام » .

وأهم كتبه كتابه الصادر تحت عنوان « نصيحة عامة للجنس البشرى ونخص بها أولا وقبل كل شيء العلماء وحكام أوربا المخلصين بشأن تصحيح الاوضاع الانسانية » وكان كتابه هذا بمثابة دراسة نقدية شاملة للعلاقات الاقطاعية وغلبت عليه رغبة حارة من أجل السلام فى كل ربوع الحياة الاجتماعية فى الشئون الداخلية للامم وفى العلاقات بين الديانات المختلفة وفى العلاقات الدولية بخاصة .

ورأى كومينوس أن العلة الاساسية للحرب الخارجية أو للصراعات الاهلية الداخلية تكمن فى اختلافات الراى الناجمة عن جهل الانسان . ومن ثم فان فرص التعليم المتساوية هى ضمان السلام والرخاء نظرا لان الحقوق الطبيعية الاصيلة للانسان أساسها طبيعة مشتركة بين البشر وحاجات واهتمامات متطابقة . ويطرح فكرة له أطلق عليك اسم Pansophia أو الحكمة الشاملة لتكون أساسا لوحدة الجنس البشرى ويرى أنها تمثل نقطة الانطلاق لتحول المجتمع ويرى أن ثمة أهمية كبرى فى جمع شمل العلماء الباحثين الدوليين فى رابطة ( مجتمع النور ) تكون مهمتها تطوير التعليم والمعرفة فى أوروبا وفى (ممتلكات ماوراء البحار) أى فى المستعمرات ان تطوير التعليم وتقدمه لن يكفلا تقدم العلوم فحسب بل سيفيدان أيضا لحفز وتحقيق المزيد من التعاون بين الشعوب . ذلك لان الوحدة الدولية تضمن السلام والامن . وهذا هو السبب فى أن واجب الحكام أن يكون منطلقهم الحق والعدل فى حكومتهم والا يفرضوا اراداتهم على جيرانهم قسرا وبقوة السلاح . ان الواجب يقتضى استبعاد الحرب تماما فى مجتمع يسوده العقل . ولكى نضمن السلام ينبغى انشاء هيئة عالمية — يشير اليها كومينوس باعتبارها محكمة سلام أو مجلس شيوخ عالمى تكون مهمتها صون الوحدة بين الشعوب وحماية العلاقات السلمية بينها . وينبغى على كل الشعوب ( بما فى ذلك شعوب آسيا وافريقيا وأمريكا ) أن تسهم فى انشاء هذه المنظمة الدولية . ويمكن فى مرحلة تالية انشاء منظمات مماثلة منفصلة فى كل قارة على حدة .

ولسوء الحظ لم يتم نشر رسالة المفكر الانسانى التشيكى وهو على قيد الحياة . حتى لو تحقق هذا فقد كان من المرجح ألاتكون أحسن حظا منمشروع مفكر شاب معاصر له هو وليم بين .

أصدر وليم بين (١٦٤٤ — ١٧١٨) «مقال عنالسلام الاوروبى فىالحاضر والمستقبل عن طريق انشاء مجلس نيابى» . وصدر الكتاب عام ١٦٩٣ بينما كانت حرب شاملة تطحن القارة بأسرها . وترتكز فكرته على الدعوة الى

اتحاد للدول غير الاتحاد الذي اقترحه كروسي اذ يرى أن يقتصر هذا الاتحاد على دول أوروبا الغربية والروسيا وتركيا وأن يكون ذا طبيعـة سـياسـية عسكرية خالصة ٠

ويحصى بين الشكوك المختلفة التى يمكن أن تثار ضد مشروعه ويعمل على تبديدها فى ذات الوقت ٠ ما الذى يتعين أن يحدث اذا مارفض حاكـم ما قبول قرار اتخذه المجلس ؟ يجيب بين هنا يجب على أقوى دولة فىالاتحاد أن تخضع قسرا للضغط المشترك من جانب الدول الاخرى . وسؤال آخر كيف يمكن تجنب الفساد ؟ أن نبدأ فقط بتعيـين نواب أمناء أكفاء فى المجلس وأن تكون على يقين من أن تصرفاتهم ستخضع لرقابة محكمـة ودقيقة ٠. أليس من المحتمل أن يؤدى مثل هذا البرنامج الى اضعاف الجنود ويجعلهـم عاجـزين عن أداء واجبهم فى الوقت اللازم ؟ يمكن تجنب هذا بأن نعطى الجنود التدريب الملائم واللازم ٠ مثال ذلك أن نعلم الجنود الفنون والعلوم مما يساعدهم على أن يصبحو عناصر صالحة اجتماعيا . وأخيرا اليس من المحتمل أنتنقد الممالك سيادتها ؟ لا على الاطلاق : « ٠٠٠ تحتفظ الدول بسيادتها السابقة دون أن يكون لأى منها مزايا على الآخرين ٠ واذا قلنا أن هذا اضعاف لسـلطتها فان هذا يكون بمعنى واحد فقط أن السـمكة الكبيرة لن تكـون قادرة على التهام الصغيرة وأن كل دولة على قدم المساواة مع الدول الاخرى وتجد الحماية منأى ظلم يقع عليها وعاجزة عن ارتكاب أى عمل ظالم» . ويرتكز مشروع بين على المبادىء الاساسية للقانون الدولى ويهدف الى تحويل أوروبا من مجموعة دول مفككه الى نسق متماسك لمجموعة من الدول المتضافرة ٠ وبديهى أنمثل هذا المشروع لم يكن له تأثير عملى على التطور السياسى لأوروبا ٠

كان هذا هو مصير العديد من برامج السلام التى ظهرت فى مطلع القرن الثامن عشر ٠ ولعل أشهرها مشروع لابيه دى سان L'Abbé de Saint Pierre (١٦٥٨ ــ ١٧٤٣) أحد ممثلى فجر عصر التنوير والذى ظل طوال حياته بطل سلام غيورا . وقد أصدر فى ١٧١٢ «مقال عن السلام الابدى فى أوروبا» (٩) ثم اتبعه بمؤلفه الضخم من ثلاثة مجلدات «مشروع سلام دائم فى أوروبا » ٠. وبعد اثنى عشر عاما ظهرت نسخة مختصرة للمشروع وكانت هناك سلسلة متصلة من الرسائل والكتيبات تحترم كلها نفس الهـــدف ــ دعم الافـكار الاساسية التى يتضمنها المشروع ــ واكتسب شهرة واسعة بفضل اهتمامه بترويج فكرة السلام ٠ وذاع صيته بين أصحاب الفكر التقدمى فى عصره ٠

وكان سانت بيير ، مثل كومينوس ، مقتنعا بأن التعليم وحده ضـمان التطور السلمى ٠ ولكن الى أن يأتى الوقت الذى يتوفر فيه مثل هذا التعليم ينبغى تحقيق السلام عن طريق انشاء ائتلاف دولى ٠ وحاول سان بيير تنفيذ « المخطط العظيم لهنرى الرابع بيد أن التحــالف الذى اقترحه يختلف عن

---

(٩) Charles - Irénée, L'Abbé de Saint-Pierre, Project pour rendıe la pait perpetuelle en Europe, Utrecht, 1713-17 abregé du projet de paix perpetuelle, Notterdam 1729.

تحالف هنرى الرابع سواء من حيث الاهداف أو وسائل تحقيقه • ويرتكز مشروعه على أساس قبول النظم السياسية القائمة والمعايير الراهنة للعلاقات الدولية • ويجب ان تكون المفاوضات هي السبيل الوحيد لحسم أى خلاف ينشب بين الدول الاعضاء في الائتلاف ، بل أكثر من هذا انه حمل الملوك مسئولية أكبر بشأن السلام فى أوربا •

ولا ريب فى أن فكرة الائتلاف السياسى بين دول اوروبا الاقطاعية اكتسبت طابعا رجعيا فور معالجتها بأسلوب عملى لانها استخدمت كصيغة مقبولة للتعبير عن تطلعات ملوك أوروبا الاقطاعيين . ولهذا نجد دار جنسون D'Argenson الذى أعتبر نفسه تلميذا لسان بيير يضع فرنسا فى موضع القوة المنظمة للائتلاف السياسى بين الدول الاوروبية • حقا لقد كان مشروع سان بيير مشروعا غير واقعى بالنسبة لاوروبا وقتذاك حتى انه كان يشك فى امكانية نجاحه •

ولكن على الرغم من الطبيعة الخيالية التى اتسمت بها الكتابات المعادية للحروب التى ظهرت فى عصر النهضة ومطلع التنوير الا أنها كانت دون شك كتابات تقدمية في محتواها • وتتمثل قيمتها الاساسية فى نقدها الشامل للحروب • لقد كان الهدف من ائتلاف الدول هو فقط دعم السلام الدائم • وكانت المساندة لسيادة ووحدة الدول الاعضاء قرينة الايمان بمعنى الواجب وعدالة ملوك اوروبا • ولم يكن يتطرق الشك الى المفكرين فى أن الملوك كانوا عاجزين تماما عن وضع حد للحرب أو أن اتحاد الشعوب على اساس مصالحها فى السلام أمر مستحيل التحقيق داخل اطار نظام اجتماعى متطاحن •

لقد كان الملوك بسلطاتهم المطلقة في القرنين السادس عشر والسابع عشر يجسدون عملية تمركز سلطة الدولة والاتحاد بين الولايات على اساس قوى فى كل انحاء اوروبا ضد قوى الاقطاع • وكان مفهوما تماما خلال هذه الحقبة أن ينزع المفكرون الانسانيون البورجوازيون الى مثل هذه الآراء الخيالية • ولكن مع نهاية القرن ١٨ وتفاقم حدة تناقضات النظام الاقطاعى المطلق أصبح مفكرو التنوير عاجزين عن قبول أى شكل من أشكال المناشدة للادارة الخيرة للملوك • بل على العكس فقد انتهوا الى ان النظام المطلق هو فى واقع الامر وحقيقته جذر الحرب وعلته •

لهذا كان من الأمور ذات الدلالة أن نجد فولتير يبدى احتقاره الشديد لمشروع سان بيير لانه ينظر نظرة مثالية لدور أوروبا فى خلق ائتلاف سلمى بين الدول • لقد كان فولتير يفزع من الحرب ويمقتها أشد المقت بيد أنه كان يؤمن بان اوروبا عاجزة تماما عن وضع حد لها وان مشروع سان بيير ان هو الا وهم خالص •

وأبدى فولتير انتقاده الشديد لفكرة التحكم فى الحروب عن طريق الالتزام بمبادىء القانون الدولى ، ذلك لان هذا لا يعدو ان يكون تشريعا لعمليات النهب العسكرى • وقال فى هذا الصدد « اعرف قانون السلام خير معرفة • ان قوامه التزام المرء بكلمته والاعتراف بالحقوق الطبيعية للاخرين بيد اننى لا اعرف قانون الحرب • ان سن قوانين للقتلة تسمح لهم باقتراف

جرائمهم اثناء الحرب يبدو لى بدعة غريبة ٠ وانى لأرجو والحال كذلك ان نجد بين أيدينا فى المستقبل القريب مجموعة قوانين تسمح بالسلب والنهب لقطاع الطرق ٠ (١٠)

أيد جان روسو ( ١٧١٢ ـ ١٧٧٨ ) نقد سان بيير للحرب ودعوته لسلام عالمى ، ووصل تأييده الى حد أن نشر موجزا لمشروع سان بيير ( عام ١٧٦١ ) وأصدر كتيبا تحت عنوان « منظمة دولية للسلام (١١) ان المزايا التى سوف تعود من انشاء اتحاد للدول على كل أمة بمفردها وعلى اوروبا بأجمعها مزايا جمة وعظيمة حتى انه ليكفى اقامتها ليوم واحد لتتأكد أهميتها وتستمر الى الابد ٠ بيد ان الوسائل التى كانت مقترحة وقتذاك لتحقيق مثل هذا الاتحاد بدت فى نظر روسو وسائل غير واقعية تماما ٠ لقد كان مشروع سان بيير مشروعا صالحا ومقبولا ٠ اذ هل يمكن حقا ان نتوقع من الملوك الذين يتفاخرون بحقهم فى شن الحروب وقتما يرون ذلك ملائما لمصلحتهم ، ان يقبلوا الاذعان لمحكمة دولية ؟ لا بالطبع ذلك لان نشاط الملوك ووزرائهم موجه كله من أجل دعم سلطة دولهم فى الخارج وتعزيز سلطتهم المطلقة ٠ ان ثمة علاقة وثيقة بين الحرب وبين الفتوحات من ناحية والاستبداد من ناحية اخرى ٠

ان السبيل الوحيد لبلوغ السلام الدائم هو ان تتطابق المصالح الشخصية مع المصلحة العامة ٠ ولكننا لن نجد انسانا يعنيه السلام وهو يعيش فى مجتمع يقهر حكامه رعاياه ٠ ومن ثم يلزم حدوث التغير داخل الدولة وان ينتهى القهر والاستبداد وان تسود الديمقراطية الحياة السياسية للبلاد ٠ هنا فقط يصبح السلام الدائم أمرا ممكنا ٠ وهكذا اضاف روسو الى مفهوم التعايش السلمى فكرة ان السلام العالمى رهن باجراء تغيرات سياسية اساسيه فى المجتمع ٠

وثمه شخصية اخرى اتصفت بعدائها العنيد للحرب ونعنى بها مونتسكيو ٠ كان مثله الاعلى انشاء جمهورية فيدرالية تتمتع بسلطات واسعة فى الشئون التى تنشب داخل الدول الاعضاء ٠ وأصر على أن ينشأ الاتحاد الفيدرالى بين دول ذات حكومات متماثلة ٠

وشارك ديديرو مونتسكيو فى رأيه من حيث ان قيام حكومة ذات شكل واحد يمثل شرطا اساسيا لتحقيق السلام الدائم ٠ ورأى مثل روسو ان ثمة رابطة بين سياسة الغزو وبين دعم الاستبداد واعتقد ان التقدم العالمى نحو الحرية والغاء الملكية هو السبيل الوحيد لتهيئة الظروف الملائمة لاستبدال الصراعات المشروعة بالصراعات العسكرية الدولية ٠

---

(١٠)
F.M. Voltaire: De la paix perpetuelle in Collection compléte des Ouvres

جنيف ـ باريس ـ ج ٢٨ ص ١٠٥ ٠

(١١)
See Collection compléte des oeuvres de J.J. Rousseau, Tome 23, p.p. 3 - 52.

وتطورت الافكار المعادية للحرب فى الفلسفة الالمانية أيضا ، واستهل المفكرون الالمان بحثهم الدؤوب لمشكلة السلام بكتاب فرانك Kriegbuchlein des Friedens وظهـــر ليبنس فى أواخـــر القـــرن ١٧ بطلا غيـــورا يدافع بكتاباته عن قضية الســـلام العالمى . واقترح اقامة اتحاد بين الامم الاوروبية وان تكون فرنسا ، عند نشوب صراع ، هى الحكم ويجرى استخدام جيوشها بهدف حسم هذا الصراع . ونظر نظرة اكبار لمشروع كل من كروسى وسان بيير .

واهتم ايضا كل من ولف Wolf ولسنج Lessing برسالة سان بيير . بيد ان كانط Kant وفشته Fichte وهردر Herder هم الفلاسفة الذين أثروا فكرة السلام الدائم بمحتوى جديد .

كان عمانويل كانط ( ١٧٢٤ — ١٨٠٤ ) أول من تنبأ بصـــورة عبقرية بحتمية اتحاد الامم . ان الطبيعة البشرية تحت تأثير الحروب وعبء ، تسليح الجيوش ودعمها ووطأة الفقر حتى فى أيام السلام فى كل بلد من البلدان سوف تدفع الناس وتحثهم بعد العديد من حالات الدمار والثورات والانهاك التـــام الى الاستماع لصوت العقل فيؤلفون حلفا دوليا كل دولة فيه ، حتى أصغرها، لها أن تأمل فى الاستقلال وتتمتع بحقوق مكفولة لاتضمنها قوتها الذاتية ، بل قـــــوة اتحـــــاد الشعوب .

واصدر كانط فى عام ١٧٩٥ رسالته الشهيرة « نحو سلام دائم » تضمنت الكثير من الافكار النفاذة بشـــأن العلاقات الدوليـــة .

لاريب فى أن كانط كان داعية سلام . لقد آمن بأن الحرب تكون مشروعة عندما تلجأ اليها أمة كرها دفاعا عن استقلالها . ولكن على الرغم من تسليمه بأن الحرب مشروعة وعادلة فى بعض الحالات الا أنه لم يسلم بوجود أمر من الامور من شأنه أن يسمح بالحرب لتظل سيفا مصلتا يهدد الحياة الدوليـــة ، وكان مقتنعا تماما بأهمية وجدوى اقامة سلام دائم بين الامم(١٢) .

ان كثيرين من الكتاب البورجوازيين يعمدون اليوم الى تشـــويه فكرة كانط عن اقامة اتحاد فيدرالى بين الدول الحرة وأن تلتزم بميثاق فيما بينهـــا يحرم الحروب ( م . ادلر ، ك . فردريك وآخرون ) . وثمة محاولات تستهدف اظهار كانط فى صورة المؤمن بأن السيادة القومية تقود حتما الى الحرب وأن انشاء حكومة عالمية هو الضمان الوحيد للسلام . ويحاول المفكرون الامريكيون المفسرون لفكر كانط أن يصبغوا مفهوم « الاتحـــاد الفيدرالى » الذى قال به كانط بصـــبغة عصرية ، وذلك بأن يعطوه معنى آخـــر مغايرا للمعنى الذى قصــــد اليــــه كانط .

ولكن التحليل المنصف الموضوعى لمحتوى « المقالات الختامية » الثلاث فى رسالة كانط حيث يعرض مشورته عن وسائل دعم السلام اذا ما تحقق،

---

(١٢) I. Kant, zum ewigen frieden. Kônigsberg 1795.

يبين لنا هذا التحليل أن منظمة الدول التى اقترحها لم تكن ملكية عالمية ولا جمهورية عالمية ، بل عصبة أو جامعة دول حرة ذات سيادة ، ويتحدث كانط عن عصبة الامم وليس عن دولة جامعة للامم .

يصف كانط فى المقال الاول احسن صورة للحكومة المدنية لكل دولة من دول العصبة ويحدد حق المواطنة العالمية وعلاقته بحق الاجنبى فى استضافته بين الشعوب . اما عن مبدأ الاتحاد الفيدرالى فقد اعطاه كانط نفس المعنى الذى قال به سابقوه . اذ أن اتحاده المقترح بين الدول الحرة يعنى توحيد الجهود من أجل تحقيق سلام عالمى دائم دون أن يكون موجها بأى حال من الاحوال ضد سيادة الدول فى وضعها المستقل . وهكذا فان كل المحاولات التى يبذلها المفكرون المعاصرون باسم المواطنة العالمية ليصوروا كانط وكأنه الاب الروحى لفكرهم وداعية لاقامة حكومة عالمية تتجاوز القومية ان هى الا ادعاءات لا أساس لها .

ولقد كان المثل الاعلى الذى ينشده هردر ( ١٧٤٤ — ١٨٠٣ ) هو أن يرى شعبه يعيش فى سلام وصداقة مع الامم الاخرى ، واعرب عن أعجابه الشديد بكل من اسهم بنصيب من أجل نشر فكرة السلام . وثمة رسالة ضمن « رسائل من أجل ارتقاء الانسانية »(١٣) مهداة الى سان بيير على الرغم مما بينهما من اختلاف فى بعض الآراء بشأن وسائل تحقيق السلام الدائم .

اذ بينما كان سان بيير وكانط أيضا ينظران الى الامر نظرة تشريعية خالصة فان هردر نظر الى المشكلة باعتبارها أولا وقبل كل شىء قضية أخلاقية وتعليما وتربية أخلاقية . وكان هردر يؤمن بأن عقد اتفاق فى عالم معاد لن يكون أبدا ضمانا للسلام : ان انتشار العدالة العالمية والانسانية هو الشرط الوحيد لارتقاء الاخلاق وتقليل النزاعات العسكرية .

وقدم هردر عديدا من المقترحات عن وسائل تحقيق وانجاز مهمة تعليم وتربية الشعب بروح العدالة والانسانية . وأهم مايميزه هو توجيه دعوته الى الجماهير باعتبارهم هم أول وأكثر من يعانى ويلات الحروب . ودعا الى أن تمسك الشعوب بزمام الامور فى أيديها وتجبر الحكام على قبول مطلبها من أجل السلام .

ولقد احتلت أفكار النزعة الانسانية عن السلام العالمى مكانا مرموقا فى كتابات مرحلة التنوير فى روسيا . مثال ذلك ميخائيل لومونوسوف Mikhail Lamonosov الذى عبر عن أمله فى انتهاء الحروب ، وورومان تسبريكوف Roman Tsebrikov (١٧٦٣-١٨١٧) ، وايبولين يوجدانوفيتش (١٧٤٣ — ١٨٠٣) اللذان روجا لافكار السلام وفى الستينات من القرن

(١٣) J.G. Herder, Briefe zur Beforderung der Humanitat, Berlin, 1793-97.

الثامن عشر كتب سيمون دينسكى Semyon Desnitsky مقالات عن السلام العالمى .

وهنا أيضا ياكوف كوزيلسكى الذى كان محيطا بنظريات مرحلة التنوير الفرنسية وبخاصة أعمال روسو . وكان يؤمن بأن السبيل الوحيد لتحقيق السلام هو أن يكون هناك مجتمع تتسق فيه مصالح الحكام والمحكومين . وعارض كوزيلسكى بشدة حروب التوسع وقال ان الساسة الذين يعمدون الى اثراء أنفسهم على حساب غيرهم من الامم يجب اعتبارهم مسئولين عن جرائم الحرب .

وذهب الكسندر راديشيف الى أن الثورة واعادة تنظيم المجتمع هما سبيل الشعوب لتحرير نفسها والى الابد من شر الحروب . واقترح فازيلى مالينوفسكى مشروعا يدعو لاقامة منظمة سلام دولى وذلك فى كتابه « تأملات عن الحرب والسلام » . وأهم ما فى مشروعه الدعوة الى فكرة تطبيق العقوبات بصورة متدرجة تنتهى الى استخدام القوة المسلحة ضد كل من يفسر السلام الدولى .

ولم يقتصر بحث مشكلة السلام الدولى فى القرن ١٨ على المفكرين السياسيين وحدهم : بل ان الفزيوكرات وهم رجال اقتصاد أيدوا فكرة السلام الدائم ، ولكن من وجهة نظر بورجوازية . لقد دعوا الى المساندة العالمية للقانون الطبيعى باعتباره أساسا للعلاقات الدولية بهدف تهيئة أفضل الظروف لتقدم التجارة والروابط الدولية الاخرى .

يتضح من هذا أن مفكرى البورجوازية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر عكفوا على دراسة وتمحيص فكرة السلام فى ضوء جوانب ثلاثة أساسية:

أولا : السلام عن طريق اتحاد الدول ، ثانيا :السلام عن طريق الاتساق الاجتماعى ، وثالثا : السلام كنتيجة لنظام اجتماعى عادل . بيد أن الدعوة الى تأسيس دولة متسقة أساسها العقل ، مع استبعاد الحاجة الى الحرب لم تتضمن أبدا الاعتراف بضرورة التدمير الثورى للنظام الاجتماعى القائم على أساس الملكية الخاصة . ولهذا السبب كانت النتيجة العملية لكل الدراسات النقدية البورجوازية عن الحرب والدعوة للسلام قاصرة ومحصورة فى نطاق التعجيل بانهيار المؤسسات الاقطاعية فى أوروبا .

اننا لاننكر أن نقد المؤسسات الاقطاعية ونزعة الحكم المطلق كان له مضمونه الانسانى التقدمى . ولكن احلام المفكرين البورجوازيين الانسانيين لم تكن لتتحقق وترى النور سواء فى عهدهم أو فى المرحلة التالية لهم مباشرة . ان انتصار البورجوازية على الاقطاع لم يتمثل ولم تكن حصيلته

اقامة دولة متسقة قائمة علي العقل والتي دعا اليها مفكروها الايديولوجيون بل تمثل في ظهور النظام الرأسمالي الذى ضاعف من التناقضات الاجتماعية وجلب مزيدا من استغلال الانسان للانسان ومزيدا من الازمات الاقتصادية والبطالة والفقر والالام والمعاناة وسفك الدماء . وقد كتب انجلز يصف أزمة المثل العليا في عصر التنوير فقال :

« لقد انهارت تماما الدولة القائمة علي العقل .. وتحول السلام الدائم الموعود الى حرب توسع لانهاية لها » (١٤)



(١٤) Frederick Engels, Anti-Duhring, Moscow 1969, p. 303.

## الجزء الثانى

# الحرب
# أصولها وجوهرها

# الفصل الثالث

# جدليات الحرب والسلام

## مفهوم الحرب :

ان التعريف العلمى لمعنى السياسة والحرب والسلام كمقولات اجتماعية شرط جوهرى للوصول الى فهم صحيح وحل اصيل للمشكلات الدولية الراهنة . وقدمت لنا الفلسفة الماركسيه اللينينية تفسيرا واضحا ومؤكدا لهذه المقولات فى ضوء الفهم التاريخى والاجتماعى .

ان الحرب مفهوم متعدد الجوانب متباين المعانى متغيرها . وكل هؤلاء الباحثين الذين يخفقون فى ادراك الطبيعة الجدلية للحرب ويصرون على معالجتها فى ضوء التفسير الميتافيزيقى وانطلاقا من مبادىء جامدة سيجدون انفسهم فى طريق مسدود . وثمة تحليل شامل لجوهر الحرب بكل جوانبها الهامة والاساسية على أساس المنهج الجدلى للبحث . وكان المفكر العسكرى الالمانى كلوزفيتز Clausewitz أول من خطا خطوة على طريق التحليل الجدلى للحرب كظاهرة اجتماعية سياسية . ولكن ماركس وانجلز ولينين هم الذين لعبوا دورا هاما وأساسيا المكشف عن المحتوى الحقيقى للحرب استنادا الى المنهج الجدلى الذى مكنهم من تجنب النهج الذاتى التلفيقى الذى يعد خاصية مميزة لعلماء الاجتماع البورجوازيين فى الماضى والحاضر .

ان الماركسية اللينينية ترفض الآراء والنظريات العقائدية الجامدة عن الحرب باعتبارها رذيلة وشرا مطلقين ، وتمايز على أساس من التحليل الموضوعى بين الحروب العادلة وغير العادلة ، وحروب رجعية وأخرى تقدمية ثورية .. الخ .

ان النهج التاريخى فى تحليل الحروب القائم على أساس من الفهم الجدلى والمرن هو وحده الذى يمكن أن يعبر بصورة وافية عن المحتوى الموضوعى للحرب وتباينها الكيفى . وتبدو لنا الحرب فى ضوء النظريات

الميتافيزيقية كمقولة جامدة وأبدية ، ومثل هـذا النهج انما هو نهج لاتاريخي أي لا يعتمد على التاريخ بمعناه العلمي ومن ثم يخفق في ادراك الجوهـر الحقيقي للحرب ومحتواها الاجتماعي والسياسي والطبقي ٠

ويقـوم النهج الماركسي اللينيني في تحليل الحروب عـلى أسـاس التداخل بين التاريخ والمنطق لان هذا هـو الـذي يسـاعد عـلى اكتشاف الطبيعة النوعية المميزة لكل حرب ٠ ويصوغ لينين رأيه في هذا الشأن كمـا يلي : « ثمة حروب وحروب عديدة ٠ وينبغي علينا دائما ان ندرك بوضـوح طبيعة الظروف التاريخية التي أدت الى اثارة الحروب ، وطبيعة الطبقات التي تشنها ولأي اهداف ، ونحن مالم ندرك هذا سيظل حديثنا كله عن الحـرب عبثا لاطائل من ورائه ٠ (١) وقال أيضا : « اننا نحن الماركسـيين نختلف عن أنصار السلام وعن الفوضويين من حيث أننا نؤمن بضرورة دراسة كـل حرب على حدة دراسة تاريخية (أي من وجهة نظر المادية الجدلية التي قال بها ماركس ) ٠ (٢)

ويمثل التحليل الجدلي للتناقضات الطبقية والسياسات الطبقيـة محور الدراسة التاريخية للحروب في المنهج الجـدلي ٠ اذ تعتبر جدليـات تطور الاتجاهات السياسية الطبقية هي مفتاح فهم جوهر الحـرب كمقولة اجتماعية تاريخية ٠

ان تطور النظرية العلمية عن جوهر وأسباب الحروب لم يبدأ مـع الاعتراف بوجود « قوانين خالدة » للتطاحنات البشرية ، بل بتحديد العوامل السياسية التي أدت الى اندلاع هذه الحرب أو تلك ٠ ويؤكد لنا الفهم الجدلي ان السياسة هي حجر الزاوية بالنسبة لنظرية الحرب ٠ ونحن مدينـون للنهج المادي الجدلي اذ انه هو أول محاولة ناجحة من أجل التحـديد العلمي لنشأة الحرب واسبابها على مدى تاريخ المجتمع البشري ٠

ووقف كلوزفيتش موقفا مناقضـا ومتميزا عـن النهج الميتافيزيقي الذي يعالج السياسة والحرب كمفهومين متعارضين تماما ، وحدد معنى الحـرب انطلاقا من الموقف الجدلي الهيجلي ٠ والغرض الاساسي عند كلوزفيتش هـو ان مفهومي الحرب والسياسة أبعد عن أن يكونا مفهومين ستاتيكيين وكان هو أول مفكر نظري عسكري يستخدم المنهج الجدلي في تحليل الحرب ٠

واذا كان كلوزفيتش يعرف الحرب بأنها استمرار للسياسة ، ولكـن بوسائل أخرى عنيفة فانه بتعريفه هذا يكشف عن مدى النجاح الذي يمكـن انجازه عن طريق الالتزام بالمنهج الجدلي في تحليل الحرب ٠ وقال في هـذا الصدد : « ليست الحرب سوى استمرار لسياسة الدولة بوسائل أخرى ٠ واذا تأكد صواب هذا الرأي في كل مكان والتزم به الجميع فان كل شيء سوف

---

(١) ف. أ. لينين : الاعمال الكاملة ، مجلد ٢٤ — ص ٣٩٩ ٠

(٢) نفس المرجع — مجلد ٢١ — ص ٢٩٩ ٠

يبدو واضحا ميسور الفهم . (٣) ويشهد هذا التعريف بانتصار المنهج الجدلى على المنهج الميتافيزيقى . ولقد كان هـذا هو تقويم كل من ماركس وانجلز ولينين عندما طبقوا المنهج الجدلى على تحليل حروب بذاتها .

ومع هذا كله فان تعريف كلوزفيتش للحرب يختلف اختلافا جوهريا عن التعريف الذى نجده فى نظرية الماركسية اللينينية . لقـد اسـتطاع كلوزفيتش مستعينا بالمنهج الجدلى الهيجلى المثالى ان يقدم فقط تعريفا مثاليا للسياسة عنده توحد وتنسق كل المصالح للحكومة والعلاقات الاجتماعيـة الداخلية بما فى ذلك قضايا النزعة الانسانية وغيرها . وهـذه هى نقطـة الضعف فى فلسفته . ولقد منعه تعريفه المجرد غير الصحيح لمعنى السياسة من اكتشاف الطبيعة الطبقية للحرب كمقولة اجتماعية . بيد أن افكاره لاتزال تحتفظ بأهميتها اليوم كعلاج يفيد ضد كل الآراء المرئية الضيقة الافق بشأن طبيعة وأسباب الحرب والتى تجد رواجا كبيرا .

ان كثيرين من المفكرين العسكريين البورجوازيين المعاصرين يرفضـون قبول نظرية كلوزفيتش الجدلية الصحيحة عن الحرب باعتبارها اسـتمرارا للسياسة بوسائل عنيفة . ونرى هؤلاء فى تعريفهم لطبيعة الحرب يلتزمـون نهجا ميتافيزيقيا مثاليا يخفى الرابطة بين الحرب والسياسـة . ويعارض هؤلاء بقوة التحليل العلمى للسياسة الطبقية التى بين الحروب الامبرياليـة وبين السياسة الامبريالية للبلدان الرأسمالية .

ان النزعة الذاتية والنزعة الغيبية هى أساس المنهج عند الكثيرين من المفكرين البورجوازيين المعاصرين فى تحليلهم لمشكلة الحرب . انهم يعالجون الحـرب كشىء دائم وأبدى ، ولغز غامض من ألغاز الحياة الاجتماعيـة التى لاسبيل الى حلها . ولهذا نجد المؤرخ العسكرى هانز فون مانتوفيل أحـد القادة النازيين السابقين يؤمن بأن الحروب تنشب دائما نتيجة صراع مستمر بين أفكار شيطانية . وفى رأيه ان « قوة مجهولة ... منذ ١٩١٤ ــ واضـح أنها ترجع لاسباب ميتافيزيقية علوية ــ قد أغرقت الشعوب والامم فى كارثة أخرى » . (٤)

ويرجع الجنرال جوديريان Guderian نشوب الحربين العالميتين الى « ارادة القدر » الغيبية . « ان ارادة القدر زجت بجيلى للاشتراك فى حربين عالميتين » . (٥)

ويقدم المؤرخ العسكرى الانجليزى فولر Fuller تفسيرا غيبيـا مجردا لنشوب الحروب . « من أين تندلع الحروب والمعارك بينكم ؟ ألا تندلع

---

(٣) Karl Von Clausewitz, Vom Krieg, Berlin, 1957, p. 6.

(٤) H. Von Manteuffel, Bilanz des Zweiten Weltkrieges. Erkenntnisse und Verpflichtungen fur der Zukunft. Hamburg 1953, p. 463-64.

(٥) Vincenz Muller; ich fand das wahre Vaterland, Berlin, 1963 p. 471

من غير هذا العالم حتى وان كانت الحرب تسرى بين أعضائكم بفعل شهواتكم ؟ تكمن فى هذه الكلمات التى قالها سان جيمس ، الاجابة التى يمكن للامم أن ترفضها اذا ماخاطرت بنفسها ٠

ان جذور الحرب ماثلة فى نزعات الحقد والشهوة والشر ، ومخاوف البشر ٠ (٦) بعبارة أخرى فان فوللر يرى الحرب مقولة اجتماعية ثابتة وأبدية ناجمة عن الطبيعة المتناحرة للعلاقات البشرية .

ونحن نجد نفس هذا النهج الذاتى التلفيقى اساسا لكل آراء المفكر العسكرى الانجليزى أ ٠ حـ ٠ كنجسنون ماك لورى فى تحليله لمضمون الحرب الحديثة ، اذ يحاول ابراز التناقضات الايديولوجية باعتبارها المصدر الوحيد للصراعات العسكرية الحديثة ٠ « ربما يكمن أعمق تحول فى الدافع الذى تناور من حوله الان الامم وتعد للحرب ٠ فلم يعد الدافع الى الحرب مجرد الرغبة فى اكتساب أراض جديدة أو مصادر للثروة ٠ ان القسمة الاساسية المميزة اليوم للحرب أو للتهديد بالحرب هى النضال العالمى بشأن الايديولوجيات : نضال بشأن سبل الحياة وهو مايذكرنا بشىء أشبه بالحروب الصليبية » (٧)

ان الماركسية اللينينية باستخدامها للمنهج الجدلى تقدم لنا دراسة وافية وشاملة للعلاقة بين الحرب والسياسة ٠ ولعل أبرز قسمة للدراسة الجدلية اللينينية أنها موضوعية عيانية وتعكس كل التناقضات الواقعية للحياة الاجتماعية ٠ ويمكن أن نرى هذا بوضوح فى التحليل التاريخى الذى قدمه لينين فى دراسة عن الحرب حيث يعالج فيها كل شىء فى ضوء العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والطبقية وترتكز على أساس مادى راسخ ٠ ان نهج لينين فى الدراسة قد طور بصورة ثورية نفس مفهوم السياسة منتزعا اياه من الدجماطيقية المثالية والتجريد ثم أرساه على أسس تاريخية وطبقية موضوعية راسخة ٠ وعارض لينين كل المحاولات التى تستهدف ابتذال مفهوم الحرب وفصله عن السياسة وقدم بدلا من ذلك تحليلا تاريخيا شاملا لجدليات مقولة الحرب ٠ لقد أغفل كلوزفيتش أو تجاوز ماأصبح فيما بعد عنصرا جوهريا فى التحليل الماركسى اللينينى للحرب ـ ونعنى به التحليل التاريخى للسياسة الطبقية ٠

طور ماركس وانجلز ولينين نظرياتهم عن الطبيعة الحقة للحرب على أساس تحليلهم لعديد من الحروب فى ظروف الرأسمالية والامبريالية واختلفوا جميعا عن كلوزفيتش من حيث انهم لم ينظروا الى السياسة كتعبير عن المصالح المجردة للمجتمع ككل ، بل باعتبارها تعبيرا عن مصالح طبقية

---

(٦) J.F.C. Fuller, The Second World War, 1939-1939, London 1918 p. 412.

(٧) E.J. Kingston - Mc-Cloughry, Global strategy, New York 1957 p. 26

محددة . وكان هدفهم الاساسى هو الكشف عن المحتوى السياسى لحــــرب من الحروب وعن الرابطة بين اهدافها وبين المصالح المادية لطبقة بذاتها . وأكد لينين أن الحرب « السياسة غير متعارضين ولايمكن أن يكونا متعارضين عــلى نحو مايزعم الميتافيزيقيون ، وانما الحرب تمثل استمرارا وتحققا واكتمالا لسياسة طبقية بذاتها . وقال « تقتضى وجهة النظر الماركسية ان نحدد فى كل حالة على حدة المحتوى السياسى للحرب .

« ولكن ما الذى يحدد المحتوى السياسى لأى حرب ؟ »

« كل حرب ان هى الا استمرار لسياسة الحرب الراهنة ؟ » (٨)

ويشـــارك لينين كلا من ماركس وانجلز فى وجهة نظرهما الجدلية من حيث اعتبار الحرب نتاجا طبيعيا واستمرارا لسياسة دول بذاتها يعنيها الأمر وطبقات اجتماعية مختلفة داخل تلك الدول فى هذه المرحلة بعينها . ونص قوله مايلى « لايمكن فصل الحروب جميعها عن المذاهب السياسية التى تولدها » (٦)

ودحض لينـــين رأى الدجماطيقيين والتلفيقيين الذين كانوا يميلون الى الاعتقاد بأن الحرب صراع عرضى بين الدول وقال لينين : « كيــف يمكن اذن أن نكشف ونحدد جوهر أى حرب ؟ الحرب استمرار لسياسة ، ومن ثم يلــزم بالضرورة ان ندرس السياسة التى كانت سائدة قبل الحرب والسياسة التى افضت الى الحرب » (١٠) ولولا المنهج الجدلى لما كان بالامكان اكتشاف الجوهر الحقيقى للحرب وتطور السياسة الطبقية التى كانت عليه لنشوب الحرب .

ليس معنى هذا ان الجدل لايمايز بين مفهومى « الحرب » و « السياسة » ان السياسة يمكن أن تكون سلمية بينما الحرب تعنى استبعاد السلام تماما واتساع الطريق لوسائل العنف . وعندما تنشب الحرب تستمر السياســـة ولكن بطرق أخرى عسكرية . وعبر لينين عن رأيه هذا كمايلى : « أن السياسة التى تنتهجا دولة بعينها وطبقة بذاتها داخل هذه الدولة قبل الحـــرب بزمن طويل تستمر حتما اثناء الحرب على يد نفس الطبقة وكل ماتغير هو اســـلوب العمل فحسب . (١١)

ان الفشل فى ادراك جدليات التلاحم بين الحرب والسياسة وتوقف كل منهما على الآخر هو الأساس العرفانى الميتافيزيقى الذى يتولد عنه العديد من التعريفات الفارغة لمعنى الحرب والتى لاتفسر شيئا على الاطلاق . بل اكثـر من هذا أن مثل هذه التعريفات تؤدى الى تشوهات فجة لمفهوم الحرب وتخفى جوهره الطبقى ، وقد الح لينين على هذه النقطة كثيرا « كيف يمكن تفسير أى حرب دون النظر الى السياسة التى كانت تنتهجها الدولة قبلها وطبيعة النظام الاجتماعى فى هذه الدولة والطبقات الاجتماعية بها ؟ اعود وأكرر القول : هذه

---

(٨) ف . آ . لينين : الأعمـــال الكاملة ـ مجلد ٢٣ ـ ص ١٩٦

(٩) نفس المرجع ـ مجلد ٢٤ ، ص ٤٠٠

(١٠) نفس المرجع : مجلد ٢٣ ، ص ٣٣

(١١) نفس المرجع مجلد ٢٤ ص ٤٠٠ .

نقطة اساسية يغفلها الباحثون دائما · أن الفشل فى ادراكها يشكل تسعة أعشار كل حوار يدور عن الحرب والذى لايعدو كونه مجرد ثرثرة فارغة »(١٢)

وعندما حاول مفكرون من امثال كاوتسكى وبليخانوف وكثيرين غيرهما تعريف الحرب الامبريالية ( الحرب العالمية الأولى ) فى ضوء هذا المنهج وردها الى القضية الثانوية وهى من الذى بدأ أشعال الحرب ، هنا عجزوا جميعا عن تفسير الجوهر الحقيقى للحرب بسبب فشلهم فى الاهتمام الكافى بالاتجاهات السياسية للقوى الامبريالية الرائدة خلال السنوات السابقة على الحرب ، وتجنبوا بذلك اسبابها الحقيقية ولأى اهداف سياسية · وانتقد لينين كل هذه التقديرات الخاطئة على النحو التالى : « ان خطأ وزيف الفهم العام لمعنى الحرب هو تجنب هذه القضية ، انه يغفل هذه القضية ويطرح الأمر وكأن ليس هناك صراع طبقى وكأن بلدين يعيشان معا حياة ود وصداقة الى أن هاجمت احداهما الأخرى على حين غرة وبدأت الدولة التى وقع عليها الهجوم تدافع عن نفسها · هذا ليس الا تعليلا مبتذلا ليس فيه اى ظل للحقيقة الموضوعية » (١٣) وأكد لينين أن اهم قسمة للحرب الامبريالية هى « صراع رأسماليى كل أمة من أجل تقسيم العالم واستعباد الأمم الضعيفة ·· » (١٤)

وهكذا لم يتسن اكتشاف المحتوى الموضوعى الحقيقى للحرب العالمية الأولى الا عن طريق دراسة تحليلية جدلية شاملة وموضوعية للاتجاهات السياسية التى افضت اليها · وقد أدان لينين المفكرين التلفيقيين الذين رفضوا استخدام المنهج الجدلى للمعرفة فى تحليل اسباب الحرب وجوهرها ·

« ان أعداء التقدم لايدركون ان الحرب استمرار لسياسة »ومن ثم يحصرون أنفسهم داخل نطاق صياغة محددة يظلون أسرى لها «هاجمنا العدو» و « غزا العدو بلدنا » دون التفكير فى السؤال عما هى القضايا موضوع الصراع فى الحرب ، وأى الطبقات تخوضها ولأى أهداف سياسية ··

ان الشيء المهم الذى يعنى الجاهل الفهم هو أين تقف الجيوش ومن الذى أحرز نصرا الآن وفى تلك اللحظة · ولكن الشيء المهم عند الماركسى هو أى القضايا هى موضوع الصراع فى هذه الحرب · (١٥)

ان كل المحاولات التى تعالج الحرب كصراع مسلح بمعزل عن أى شيء آخر لايمكن ان تقدم لنا تعريفا علميا لجوهر الحرب · وكان هذا هو منهج كاوتسكى فى معالجته للحرب العالمية الاولى اذ نظر اليها باعتبارها صراعا مسلحا بين شعوب ودول ، البعض يهاجم والبعض الآخر يدافع عن نفسه ·

ومثل هذا التعريف لايسمح لنا بوضع أى حد يمايز بين حرب وبين

---

(١٢) نفس المرجع — ص ٤٠٢ ·

(١٣) نفس المرجع — مجلد ص ٢٦٦ ·

(١٤) نفس المرجع — مجلد ٢١ ص ٣٨٤ ·

(١٥) نفس المرجع — مجلد ٢٣ — ص ٣٣ ·

هجوم مسلح يشنه قطاع طرق أو تراشق بالنيران بين عصابات ٠ اذ أن أيا من هذين هو صراع مسلح بين مهاجمين ومدافعين عن أنفسهم ٠ وقد فضح لينين زيف وبطلان هذا النهج التعسفي في تفسير الحرب حين قال : ٠٠ ٠٠ ٠٠ « ان الدراسة الفاحصة للمقدمات النظرية في استدلال كاوتسكى تكشف عن ذات الفكرة التى سخر منها كلوزفيتش منذ ثمانين عاما خلت ، وهى الفكرة القائلة انه عند نشوب الحرب تنقطع كل العلاقات السياسية التى نشأت على يدى التاريخ بين الأمم والطبقات ويظهر موقف جديد تماما ولن يبقى هناك سوى مهاجمين ومدافعين وسوى طرد «الاعداء من أرض ، الآباء ٠ » (١٦)

وألح لينين على ضرورة وضع السياسة موضع الاعتبار عند تحديد الجوهر الحقيقى لأى حرب ، وعارض الفكرة الزائفة والسائدة التى تقول ان الحرب يمكن معالجتها دون الاشارة الى السياسة الطبقية ، «باعتبارها مجرد هجوم يعكر صفو السلام ثم يعقبها استعادة للسلام الذى تبدد وكأننا لانفتأ نقول لقد تحاربوا ثم القوا السلاح وهدأ كل شىء ٠ ومثل هذا الرأى ليس سوى جهل مطبق ٠ » (١٧)

ولنأخذ كمثال الحرب التى تشنها الولايات المتحدة الامريكية الان ضد شعب فيتنام ٠ اننا ننشد المحال اذا حاولنا فهم الجوهر الحقيقى لهذه الحرب الامبريالية دون ان نبدأ بتحليل السياسة الامبريالية للولايات المتحدة الامريكية ٠ ويصدق نفس الشىء بالنسبة لاى حرب أخرى يشنها الامبرياليون ٠

وينظر المفكرون البورجوازيون والرجعيون الى الحرب الناشبة فى فيتنام نظرة مغايرة ٠ انهم ينظرون الى هذه الحرب التى يحمل فيها الشعب الفيتنامى السلاح ضد الامبريالية الامريكية على أنها عصيان « غير مشروع » تقوم به عناصر قوية ضد حكومة « شرعية » ٠ ان الجوهر الحقيقى للحرب هو محاولة منجانب الامبريالية الامريكية والقوى الرجعية والعسكرية المحلية الممثلة للبورجوازية وملاك الاراضى دفاعا عن مصالحهم الطبقية السياسية والاقتصادية لسحق النضال الوطنى لشعب فيتنام ٠

ويؤكد لنا جدل التطور التاريخى فى القرن العشرين أنه مهما اختلفت الاهداف التى تسعى لتحقيقها الحروب فانها تمثل دائما وأبدا استمرارا لسياسة طبقية محددة ولكن بأساليب عنيفة ٠

ان الحرب التى تنغمس فيها أية من الامم لايمكن فصلها عن سياستها ، ناهيك عن أى حرب هى حلقة فى سلسلة سياسية ، وامتداد واستمرار لسياسة طبقة بذاتها ودولة بعينها فى فترة تاريخية محددة ٠

وكتب لينين ينتقد المناهج الميتافيزيقية فى بحث أسباب الحرب العالمية

---

(١٦) نفس المرجع — مجلد ٢١ — ص ٢٢٠ ٠

(١٧) نفس المرجع — مجلد ٢٤ — ص ٣٩٩ — ٤٠٠ ٠

الاولى ! « يتعين علينا أن نضع فى الاعتبار كل السياسة التى تنتهجها مجموعة الدول الاوروبية فى علاقاتها المتبادلة الاقتصادية والسياسية هذا اذا شئنا أن نفهم كيف نشأت وتولدت الحرب الراهنة عن هذا النظام » (١٨)

يتبين لنا من هذا الاهمية البالغة لتحليل كل نسق العلاقات السياسية والاقتصادية الدولية عند تحديد الجوهر الحقيقى لاى حرب ٠

واذا كان مفهوم الحرب مفهوما عاما الا أن كل حرب تختلف كيفيا عن كل الحروب الاخرى ٠ ولقد أصبحت مفهوما عاما بعد ان توقفت عن ان تكون مفهوما مجردا للحرب بالمعنى العام واضحت مفهوما علميا شاملا ٠ وأفاد المنهج الجدلى لتقديم دراسة موضوعية شاملة عن المحتوى الطبقى للسياسة باعتباره المفهوم الاساسى الذى يقوم عليه نظام تطور المقولات العلمية موضع البحث ٠ ويختلف التحليل الماركسى اللينينى اختلافا أساسيا عن أراء المثاليين الجدليين وعن الاراء الاحادية الجانب للتلفيقيين وعن المذاهب المتهافتة المفكرين الدجماطيقيين والاسكولاستيين المحدثين ٠

ويحدد لينين جوهر الحرب بناء على تحليل موضوعى نوعى للسياسة الطبقية التى تلتزمها طبقات بذاتها فى مرحلة بعينها ٠ فاذا كانت السياسة السابقة على نشوب الحرب سياسة امبريالية آذن فالحرب التى نجمت عنها حرب امبريالية بالضرورة ٠ واذا كانت السياسة سياسة وطنية تحررية فان الحرب التى أفضت اليها هذه السياسة هى بالضرورة حرب تحرر وطنى ٠

ان السبيل الوحيد لتقديم تصنيف علمى شامل للحرب هو الدراسة التحليلية لطبيعتها الطبقية ٠

وتبنى المنهج الجدلى العلمي فى التحليل هو الذى يمكننا على سبيل المثال من تحديد الطبيعة الرجعية الاستعمارية لكثير من الحروب التى نشبت مؤخرا مثل الحرب التى شنتها بريطانيا ضد ماليزيا والشرق الاوسط والحرب التى شنتها فرنسا ضد الجزائر والتىشنتها البرتغال ضد انجولا ٠ وهكذا — ذلك لان هذه الدول خاضت الحروب بهدف سحق حركة التحرر الوطنى فى المستعمرات وفى البلدان التابعة ٠ ومن ناحية أخرى فان الحروب التى خاضتها شعوب الصين واندونيسيا ومصر والجزائر من أجل حريتها ضد الامبرياليين هى حروب عادلة وتقدمية ٠

ونحن الان فى مرحلة مابعد الحرب نشهد القوى الرجعية الممثلة للبورجوازية الامبريالية العالمية بزعامة الولايات المتحدة الامريكية تهدد البشرية بحرب عالمية نووية ٠ بيد ان الاسلحة النووية لاتغير من الطبيعة الطبقية الجوهرية للحرب ٠ ان الحرب النووية على النطاق العالمى فى الظروف الراهنة لنتكون سوى نتيجة للسياسة الامبريالية المغامرة التى تنتهجها رأسمالية الدولة الاحتكارية المعاصرة ٠ ان الامبريالية التى أغرقت العالم

---

(١٨) لينين : نفس المرجع — مجلد ٢٤ — ص ٤٠١ ٠

مرتين فى حربين عالميتين تهدد البشرية الان بخطر كارثة أشد روعا ٠
واذا درسنا دراسة فاحصة السياسة الطبقية للولايات المتحدة الامريكية وجمهورية المانيا الاتحادية وبريطانيا وغيرها من الدول البورجوازية سيبدو واضحا لنا تماما ان الامبريالية تختلق التهديد بنشوب حرب عالمية ثالثة ٠ وهذه هي النتيجة التى توصل اليها الباحثون الماركسيون اللينينيون على أساس دراسة تحليلية موضوعية لكل التطاحنات والصراعات الاساسية فى عصرنا ٠ ان سياسة الحرب والعدوان التى تستهدف تحقيق مصالح رأس المال الاحتكارى هى التى قد تفضى الى حرب عالمية ثالثة ٠

ولاريب فى أن أى حرب نووية ستكون غير كل الحروب الامبريالية اذ أنها تمثل تهديدا خطيرا لكل الجنس البشرى وقد تؤدى الى دمار شامل لكل مراكز الثقافة العالمية ومصرع مئات الملايين من البشر ، بل وربما تكون نذيرا بنهاية السياسة المغامرة لكل قوى الامبريالية الرجعية فى العالم ٠

ان الجدل الماركسى اللينينى يعارض كل الاراء التجريدية عن جوهر الحرب ويؤكد ضرورة تعريف كل حرب على حده تعريفا اجتماعيا طبقيا ٠ ولقد أدان ماركس وانجلز ولينين بشدة كل محاولات الفلاسفة البورجوازيين والمفكرين العسكريين الذين حاولوا استبدال التعريف الاجتماعى للحرب بتعريفات جيولوجية أو سيكولوجية أو طبيعية أو غير ذلك من عوامل ٠

ان التطبيق الذكى للجدل فى الدراسة العلمية لمقولة الحرب هو الذى يمكننا من الدراسة التحليلية العميقة والشاملة لميكانيكا تطور هذا الشكل فى التعبير عن الصراعات الاجتماعية وعن العمليات الداخلية والتحولات الجوهرية التى تؤثر على طبيعة الحرب ٠

ونحن ندين للجدل الماركسى باكتشاف التحولات الكيفية فى طبيعة الحروب ٠ لقد رفض لينين النهج الميتافيزيقى فى دراسة الحرب كمقولة ثابتة لاتتبدل وقدم لنا دراسة شاملة عن التحول الجدلى للحروب ٠ وفتحت النظرية الجدلية القائلة بدينامية ومرونة المفاهيم امكانيات واسعة للتحليل التاريجى الشامل لعملية التحول هذه بالنسبة للحروب ٠ واكثر من هذا فان لينين رأى تحول الحروب كبرهان ساطع يؤكد صواب الرأى القائل بأن كل الخطوط الفاصلة فى الطبيعة والمجتمع هى خطوط اصطلاحية ودينامية ٠
« أن كل خطوط التقسيم فى الطبيعة والمجتمع هى خطوط اصطلاحية ودينامية ٠ وأن كل ظاهرة يمكن فى ظروف محددة ان تتحول الى النقيض ٠ وبديهى أن هذا الرأى يمثل احدى القضايا الاساسية للجدل الماركسى ٠ ان حربا وطنية يمكن أن تتحول الى حرب امبريالية والعكس بالعكس » ٠ (١٩)

هذا التحول الكيفى للحروب الى النقيض أمر طبيعى تماما ، ولكن الفكر العقائدى الجامد ( الدجماطيقى ) هو وحده الذى يجد نفسه عاجزا

---

(١٩) نفس المرجع — مجلد ٢٢ ص ٣٠٩ ٠

عن تفسير تحول ظاهرة محددة الى نقيضها ٠ أما المنطق الجدلى فيرى أن أى تحول كيفي فى سياسة طبقة من الطبقات يفضى تلقائيا الى تحـول أسـاسى مطابق له في جوهر الحرب ٠. وهذا هو النهج الذى التزم به لينين فى تفسير التحول الذى طرأ على طبيعة الحروب فى الحقبـة النابليونية : « ٠٠٠ بدأت حروب الثورة الفرنسية العظمى كحروب قومية ، وكانت كذلك بالفعل ٠ لقد كانت حروبا ثورية ــ تستهدف الدفاع عن الثورة العظمى ضد تحالف الملوك المضاد للثورة ٠ ولكن عندما أسس نابليون الامبراطورية الفرنسية وأخضـع عددا من الدول الاوروبية الكبيرة العتيدة أصبحت هذه الحروب الوطنية التى تخوضها فرنسا حروبا امبريالية وأدت ، بالتالى الى حروب تحرر وطنى ضد الامبريالية النابليونية » (٢٠)

ان التحليل العلمى الاصيل لجوهر كل حرب من هذه الحروب وللعملية التاريخية التى تتحول بمقتضاها وفى أثنائهـا حـرب وطنيـة الى حـرب امبريالية والعكس بالعكس مثل هذا التحليل يستلزم بالضرورة ويتضـمن دراسة واقعية محددة للموقف السياسى فى كل مرحلة ، وكذلك دراسـة اهداف الحرب المعينة ٠

وكتب لينين فى معرض نقده للمنهج الذاتى الدجماطيقى فى دراسـة المشكلة فقال : « ان المفكر السوفسطائى هو الشخص الوحيد الذى يمكنـه ان يغفل الفارق بين حرب امبريالية وأخرى وطنية على أساس ان احداهمـا يمكن أن تتطور وتتحول الى الاخرى ٠ ولقد افاد الجـدل دائمـا ــ وتاريخ الفلسفة اليونانية مثال على ذلك ــ كمعبر الى المغالطة السوفسطائية ٠ بيـد أننا سنظل جدليين ونحن لانقاتل السوفسطائية بانكار امكانية التحول بوجه عام ، بل بتحليل الظاهـرة المعطاة فى وضـعها المحـدد العيانى وتطورها الواقعى » ٠. (٢١)

وثمه مثال آخر لمنهج لينين فى تحليل حروب التحرر الوطنى وتحولها الى نقيضها ــ أى الى حرب امبريالية ٠ فقد كتب لينـين فى معرض وصـفه للامبريالية الايطالية الوليدة مع مستهل الحرب العالمية الاولى فقـال : « ان ايطاليا الديمقراطية الثورية أى ايطاليا البورجوازية الثورية ، ايطاليا التى ألقت نير السيطرة النمساوية ، ايطاليا فى عهد غاريبالدى هاهى ذى تتحول أمام أعيننا الى ايطاليا التى تقهر شعوبا أخرى وتنهب تركيا والنمسا ، الى ايطاليا الفظة الرجعية التى تحكمها بورجوازية مفترسة جشعة يسيل لعابهـا المرأى أى غنيمة » ٠ (٢٢)

درس لينين أيضا الاسلوب الذى تحولت به الحرب العالمية الاولى الى

---

(٢٠) نفس المرجـع ٠

(٢١) نفس المرجـع ٠

(٢١) نفس المرجـع ٠

(٢٢) نفس المرجع ــ مجلد ٢١ ص ٣٥٧ ــ ٣٥٨ ٠

حرب أهلية فى روسيا · وانتقد بحدة الافتقار الى الواقعية فى تحليل الدجماطيقيين والتلفيقيين الذين رفضوا الاعتقاد بأن الحرب الامبريالية يمكن أن تتحول الى حرب أهلية فى عصر الامبريالية · وكان هذا الاتجاه الذاتى يرتكز على التصور المجرد للحرب باعتبارها شرا أبديا · ومعالجة الحرب كشيء منفصل عن السياسة الامبريالية · أما نظرة لينين فقد كانت ترتكز على التحليل التاريخى الموضوعى والمحدد لعصر الامبريالية ، وتتمثل نظرته فى ان « الحتمية الموضوعية فى تحول الرأسمالية الى امبريالية هى علة الحرب الامبريالية · لقدقادت الحرب البشرية الى حافة الهاوية ، الى حافة دمار الحضارة الى دمار المزيد من الملايين التى لاحصر لها من بين البشر » ·

« ان المخرج الوحيد هو قيام ثورة بروليتارية » · (٢٣)

لقد أوضح منطق تطور الصراعات الاجتماعية أثناء الحرب العالمية الاولى أن خير مخرج واقعى من هذه التناقضات هو تحول الحرب الامبريالية الى نقيضها ــ الى حرب أهلية ــ لصالح الاشتراكية · « ان شعار حرب أهلية من أجل الاشتراكية يشير الى أسرع مخرج للحرب الامبريالية ويربط نضالنا ضد الحرب بنضالنا ضد الانتهازية » · (٢٤)

بيد ان الجدل المادى لايرى تحول حرب الى أخرى عملا ذاتيا بل يراه عملية منطق موضوعى يتضمن حركة التناقضات من مرحلة الى أخرى · ان تحول الحرب الامبريالية الى حرب أهلية ليس بالامر الذى يمكن « صنعه » تماما مثلما لايمكن اصطناع « ثورة · انه ينشأ عن عدد من الظواهر المتباينة والجوانب والقسمات والخصائص والسمات والنتائج الخاصة بالحرب الامبريالية » · (٢٥)

ان الطريق الذى دعا اليه لينين وألح عليه فى اطار الظروف التى لابست مرحلة التطور الخاصة بروسيا انذاك كان هو الطريق الوحيد المفيد لتقدم الانسانية ، نحو الاشتراكية · وقد أكدت ثورة أكتوبر الاشتراكية صواب النتيجة التى انتهى اليها لينين حين قرر ان الحرب الامبريالية يمكن أن تتحول الى حرب أهلية تخوضها البروليتاريا ضد البورجوازية ·

وثمة تحليل لسياسة القوى الامبريالية فى المرحلة السابقة على الحرب العالمية الثانية يعرض جدل تطور الاحداث فى هذه الحرب وتحولها من حرب امبريالية الى حرب تحريرية عادلة ضد الدول الفاشية ·

اذ يبين لنا التحليل الماركسى اللينينى لطابع الحرب العالمية الثانية أن الدوائر الحاكمة فى المانيا وبريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة الامريكية واليابان شنت الحرب من أجل السيطرة العالمية ، وكانت هذه الحرب استمرارا لسنوات سابقة من المنافسة الامبريالية داخل المعسكر الرأسمالى · كان هذا

---

(٢٣) نفس المرجع ــ مجلد ٢٤ ــ ص ٨٧ ·

(٢٤) نفس المرجع ــ مجلد ٢٣ ــ ص ٢٦ ·

(٢٥) نفس المرجع ــ مجلد ٢١ ــ ص ٢٧٨ ·

هو السبب الحقيقى للحرب التى بدأت كحرب غير عادلة ورجعية وامبريالية ٠

ان الدجماطيقيين والميتافيزيقيين هم وحدهم فقط الذين يمكنهم النظر الى الحرب العالمية الثانية كحرب لم يتغير طابعها ابدا وظلت ثابتة كما هى ٠ ولكن مع غزو الاتحاد السوفييتى بدأت الحرب تكتسب طابعا جديدا ، وتحولت الى حرب تحريرية عادلة ضد الفاشية بفضل النضال التحررى ونضال بلدان الحلف المعادى لهتلر ٠ وكانت هذه هى نقطة التحول فى جدل تطور مسار الحرب العالمية الثانية ٠

ونجد مفتاح التفسير العلمى الصحيح المشكلة فى تحليل سياسة الاتحاد السوفييتى قبل الحرب واثناء الحرب الوطنية العظمى التى خاضها الشعب السوفييتى ٠ واذا كان هذا هو منطلقنا فى التحليل فاننا بهذا فقط يمكن ان نكتشف الطابع الحقيقى للحرب العالمية الثانية واسباب تحولها من حرب امبريالية الى حرب عادلة معادية للفاشية ٠ ولن يقودنا اى منهج آخر الا الى الخوض فى متاهة الاسكولاستية والتلفيقية ٠

ويجب مع ذلك ان نتجنب التوسع فى تطبيق ظاهرة تحول الحرب الى المدى التلفيقى الزائف ٠ وكما راينا فاذا كنا ندين الجمود العقائدى الذى يحصر نفسه داخل قالب محدد لفكرة استحالة تحول الحرب فان الماركسية اللينينية تعارض بشدة كل نهج ذاتى تجريدى فى دارسة المشكلة ٠ كما تعارض خلط الممكن بالواقع ٠ لقد اكد لينين بالحاح : « فى علم مناهج البحث على وجه الدقة والتحديد ٠٠ يجب على المرء أن يميز الممكن من الواقعى ٠ » (٢٦)

ان المادية التاريخيه حين تدرس اى حالة من حالات حرب تتحول من النقيض الى النقيض فانها تجرى دراستها هذه فى اطار السياق الموضوعى المشخص وفى اطار العلاقة العضوية للحرب بالتطور العقلى للسياسة الطبقية والتناقضات الطبقية فى المرحلة التاريخية موضع البحث ٠ ومن ثم فان التقويم الموضوعى للامكانية الحقيقية لتحول اى حرب يرتكز دائما على اساس من التحليل الشامل لطبيعة القوى الاجتماعية ومحتوى التناقضات الطبقية والقومية فى مرحلة تاريخيه بذاتها ٠ فهذا هو السبيل الوحيد الذى يمكن لنا به ان نقيم على نحو صحيح المنطق الموضوعى للتحولات التى تطرا على طبيعة الحرب ٠

## النهج العلمى فى تحديد مفهوم السلام :

يعتقد كل انسان ان لديه فهما واضحا لمعنى السلام والفارق بينه وبين الحرب ٠ ويبدو ان كل انسان مقتنع أيضا بأن مفهوم السلام هو النقيض المباشر لمفهوم الحرب ٠ ولكن الظواهر خادعة ، ونحن هنا بصدد وهم شائع الى أقصى حد ٠ أن هذا التعريف التجريدى للحرب والسلام كقطبين أو طرفين

(٢٦) نفس المرجع — مجلد ٣٥ — ص ٢٤٣ ٠

ثابتين انما هو فى واقع الامر نهج غير علمى تماما فى طريقة تناول مشـكلات السلام • ويقف التحليل المادى الجدلى للحرب والسلام على النقيض بشـكل أساسى من هذه النظرة السطحية ويوضح ان ميكـانيزم العلاقـة بين هـذين المفهومين الاجتماعيين مختلف تماما عما يبدو لنا من اول وهلة •

وجدت مشكلة السلام اول تفسـير علمى لها فى الفلسفة الماركسـية اللينينية • أن السبيل الوحيد لاكتشاف طبيعةوخاصية هذه المقولة الاجتماعية هو الالتزام بنهج يجمع بصورة عضوية بين التاريخ والمنطق • مفهوم السلام مثل مفهوم الحرب يجب تعريفة فى ضوء جوهره السياسى والطبيعة الطبقيه • فالسياسة فى كلتا الحالتين لها دور حاسم • هو ما أوضحه أيضا كلاوزفيتش الذى قال ان اندلاع الحرب لايعنى انتهاء العلاقات السياسية او تحولها الى شىء مغاير تماما ، بل مجرد استمرارها ولكن بأساليب أخرى •

ان مبدأ الوحدة العضوية بين ماهو تاريخى وما هو منطقى هو وحـده الاساس العلمى لبيان وفهم الجو الحقيقى والطبقى للسلام ومعرفة الاتجاهات الاساسية لتطوره ، بما فى ذلك التحول الكيفى من نوع بذاته ، من السلام الى نوع آخر • أما المنهج الميتافيزيقى فانه يؤدى الى افراغ السـلام من محتواه ويغفل واقع تطوره ويفض بنا الى نتائج لاتعدو أن تكون سوى نظريات مجردة عن السلام « بمعنى عام » •

ولقد انتقد لينين مثل هذه الآراء على النحو التالى :
« يمكن لشعار السلام أن يتقدم اما مقترنا بشروط سلام محددة أو بدون شروط على الاطلاق أى كنضال لايستهدف ضربا محددا من ضروب السلام بل السلام بوجه عام ( (Frieden Ohno Weiters) ) وواضح أن شعارنا فى الحالة الأخيرة لن يكون فقط شعارا غير اشتراكى بل شعارا فارغا تماما من أى معنى أو محتوى » (٢٧)

واذا اردنا تبين جدليات تطور مفهوم السلام على نحو صحيح يتعين علينا بالضرورة الالتزام بنهـج تاريخى محـددوواقعى • اننا لن نفهم محتوى السلام كمقولة اجتماعية بدون تحليل موضوعى شخصى للعلاقات السياسية فى مجتمع طبقى • ولقد اكتشف الجدل الماركسى هذه العلاقات عن طريق اكتشاف منطق الانتقال من اساليب محددة لتحقيق سياسة طبقية الى اسـاليب اخرى ، من الحرب الى السلام وبالعكس •

وكتب لينين يصف طبيعة العلاقة بين الحرب والسلام والسياسة فقال :
« الحرب استمرار بأساليب عنيفه لسياسة كانت تنتهجها طبقات حاكمة داخل القوى المحاربة منذ فترة طويلة قبل اندلاع الحرب • والسلام استمرار لنفس السياسة • » (٢٨)

---

(٢٧) نفس المرجع — مجلد ٢٢ — ص ١٦٣ •
(٢٨) نفس المرجع — مجلد ٢٢ — ص ١٦٣ •

لايوجد سلام لاطبقى فى مجتمع طبقى مثلما لاتوجد حـــرب لا طبقية أو سياسة لاطبقية • فالسياسة هى نقطة الانطلاق لأى تحليل موضوعى شخصى للسلام مثلما هى المنطلق فى تحليل الحرب • واذا كانت الحرب اســـتمرارا للسياسة ، ولكن بأساليب العنف فان السلام استمرار للسياسة بأساليب غير عنيفة • وهنا يكمن الفارق الاساسى بين الحرب والسلام • ولقد حدد لينـين المحتوى التاريخى لمفهومى الحرب والسلام كمايلى : « اعتاد الاشتركيون دائما أن يدينوا الحروب بين الأمم باعتبارها عملا بربريا وحشيا • بيد أن موقفنـا تجاه الحرب مختلف تماما عن موقف انصار الســـلام البورجوازيين ( الذين يؤيدون السلام ويناصرونه ) ومختلف ايضا عن الفوضويين • ونحـن نختلف عنهم من حيث اننـا ندرك الرابطة الحتمية بين الحروب وبين الصراع الطبقى داخل بلد من البلدان ، وندرك ان الحروب لايمكن القضاء عليها نهائيا مالـم تنته الطبقات وتقوم الاشتراكية •• » (٢٩)

وينتقد لينين التصور الميتافيزيقى للحرب والســلام كقيمتين نهائيتين ابديتين ــ الحرب شر مطلق والسلام خير مطلق ، ويرى لينين انه تصور فارغ من المعنى والمضمون ••

ولقد راجت التفسيرات التجريدية للسلام العادل قبل ظهور الفلســـفة الماركسية المينينية • وسوف يجانبنا الصواب اذا انكرنا القيمة الايجابية لمثل هذه المبادىء كتلك التى يرتكز عليها العـــديد من التصـــورات الاشـــتراكية الطوباوية عن السلام العادل ــ واقامة علاقات جوار طيبة ومساواة وعدالة فى العلاقات الدولية •••• الخ • ولكن الفلســفة الماركســية اللينينيــة هى التى وجهت الضربة القاضية للشعارات التجريدية المنافية للتاريخ عن السلام العادل بوجه عام •

وانتقد لينين النهج الدجماطيقى التجريدى فى دراسة السلام • « اعتـاد انصار السلام البورجوازيون ومقلدوهم « الاشتراكيين أو أصداؤهم المحاكية أن يروا السلام كمفهوم متمايز أساسا ومستقل عن كل شيء ، ذلك لانهم لم يفهموا ابدا ان الحرب استمرار لسياسة السلام وان الســلام استمرار لسياســـة الحرب • » (٣٠)

لقد هيألنا الجدل فرصة رائعة ومهولة تتيحلنا النفاذ الىالجوهر الاجتماعى للســـلام • اذ تيسر لنا بفضل الجدل تحديد ان التغيرات التى تطرأ على محتوى مفهوم الســـــلام تتوقف بصورة مباشرة عـــلى الطبيعة الاجتماعية لـلاتجاهات السياسية للدول والشعوب • وهكذا واستنادا الى التحليل الجدلى للعـلاقات السياسية قدمت الماركسية اللينينية تعريفا واضحا للمفهومين المتعارضين عـن السلام العادل والسلام غير العادل • فاذا كانت العلاقات بين الدول قائمة عـلى الاستعباد والنهب الفاضح وترتكز على القهر القومى والطبقى واغتصاب أراضى

---

(٢٩) نفس المرجع ــ مجلد ٢١ ص ٢٩٩ •

(٣٠) نفس المرجع ــ مجلد ٢٣ ــ ص ١٩٢ •

الغير وانتهك استقلال الدول ؛ اذا كان الحال كذلك فان مفهوم السلام الذى يجسد كل هذه القسمات لابد وان نحدده بأنه سلام امبريالى غير عادل ٠

نعود ونكرر ان لينين فى دراسته الفاحصة للقسمات الجوهرية للسلام الامبريالى حدد معناه بأنه « مسافة او فاصل لالتقاط الانفاس » يفصل بين الحروب الإمبريالية ، وخط تقسيم بين عمليات النهب الامبريالى أو نموذج لعمليات تقسيم واعادة تقسيم العالم « على أساس علاقة جديدة للقوى » ٠ و « تغير بأى وسيلة الا الوسائل السلمية ٠ » (٣١) ولكن فى عصر الرأسمالية الاحتكارية اصبحت فترات التقاط الانفاس هذه التى تفصل بين حروب النهب والعدوان اقصر فأقصر مما ادى الى ضياع معالم خط التقسيم الفاصل بين الحرب والامبريالية والسلام الامبريالى ٠ وقد ادرك لينين هذه القسمة الكيفية فى جدل الانتقال من مفهوم الحرب الى مفهوم السلام فى عصر الامبريالية ووصف الصراع المكثف والمتصل بين الدول الامبريالية بأنه مثال « التقسيم واعادة تقسيم العالم والانتقال من التقسيم السلمى الى التقسيم غير السلمى وبالعكس ٠ » (٣٢)

وقد توصل لينين لتعريفة للسلام الامبريالى عن طريق تحليله لسياسة الدول الرأسمالية الكبرى المشتركة فى الحرب العالمية الأولى بأن الطبيعة الامبريالية للحرب ذاتها أفضت وبصورة طبيعية الى سلام امبريالى ٠ وأكد لينين وبالحاح أن السبيل الوحيد لتحديد جوهر السلام هو تحليل السياسة الامبريالية للحرب ٠ « وحقيقة المرحلة الراهنة والحرب الراهنة والمحاولات الراهنة لعقد سلام هى تقسيم الغنائم الامبريالية ٠ هذا هو اساس كل شىء ، ولكى نفهم هذه الحقيقة ونعبر عنها « أى لكى نعرض الامور كما هى فى الواقع » نكون قد التزمنا بالمهمة الرئيسية للسياسة الاشتراكية كسياسة متمايزة عن السياسة البورجوازية التى تستهدف أساسا اخفاء هذه الحقيقة وحجبها» ٠ (٣٣)

وتكشفت هذه الحقيقة خلال التحليل التاريخى للجوهر السياسى للحرب العالمية الاولى ٠ ونظرا لان الحرب كانت استمرارا للسياسة الامبريالية التى كانت تنتهجها القوى الرأسمالية الكبرى فقد كان نتاجها سلاما امبرياليا وطبيعى ان تفضى أى حرب أمبريالية الى سلام امبريالى غير عادل ٠ وقد كانت هذه هى النتيجة العلمية المستخلصة من تعريف الجوهر الطبقى للحرب العالمية الاولى ٠

وكان رد لينين على الاراء غير الجدلية التى قال بها علماء الاجتماع والفلاسفة البورجوازيون على اختلاف شاكلتهم كمايلى : « ان كلا من البورجوازى والشوفينى الاجتماعى يرفض تبين أن الحرب الامبريالية فى ١٩١٤ ـ ١٩١٧ ، هى استمرار للسياسة الامبريالية منذ ١٨٩٨ حتى ١٩١٤ ان لم يكن قبل ذلك أيضا ٠ كذلك فانه لا انصار السلام البورجوازيون

---

(٣١) نفس المرجع ـ مجلد ٢٢ ـ ص ٢٧٤ ٠

(٣٢) نفس المرجع ـ مجلد ٢٢ ـ ص ٢٧٣ ٠

(٣٣) نفس المرجع ـ مجلد ٢٣ ـ ص ١٧٦ ٠

ولا انصار السلام الاجتماعيون يدركون أنه بدون الاطاحة الثورية بالحكومات البورجوازية سيظل السلام الان سلاما امبرياليا فقط واستمرارا للحرب الامبريالية . » (٣٤)

وكثيرا مايقع الفلاسفة البورجوازيون في خطأ عرفاني كبير اذ يحاولون تحديد الجوهر الحقيقي للسلام دون الاشارة الى السياسة الطبقية للدول ويعزلون محتوى مفهوم السلام من سياسة العنف السابقة . مثال لذلك كاوتسكي وبليخانوف وتروتسكي الذين حاولوا دراسة محتوى مفهوم السلام دون أي أشارة على الاطلاق لمضمون الحرب الامبريالية أو الى سياسة الدول البورجوازية في عصر الامبريالية .

ونظرية كاوتسكي مثلها مثل كل اراء غيره من الانتهازيين وأنصار السلام البورجوازيين لم تعد أن تكون سوى تعبير واه عن امال ذاتية في سلام عادل ، ومقارنة تجريدية بين الحرب والسلام . واقترح بعضهم وضع نهاية للحرب واقرار سلام عادل بانسحاب القوات من جانب واحد .

وكتب لينين في هذا الصدد يقول : « فكرة أن الحرب يمكن القضاء عليها دون تغيير الطبقات في السلطة هي فكرة فوضوية . فاما أن تكون هذه الفكرة فكرة فوضوية ومن ثم تكون فارغة من أي معنى أو ليس لها أي دلالة بالنسبة للدولة ، واما أن تكون فكرة سلامية مشوشة فاشلة تماما في تقويم الرابطة بين السياسة وبين الطبقة القاهرة . » (٣٥)

وانتقد لينين مثل هذه المخططات التجريدية غير المعقولة التي يضعها اصحابها من أجل اقرار سلام عادل ديمقراطي ، وكان نقده على النحو التالي : « ان الكهنة » الاجتماعيين « والانتهازيين على استعداد دائما لبناء أحلام عن اشتراكية سلامية في المستقبل . ولكن الشيء الوحيد الذي يميزهم عن الاشتراكيين الديمقراطيين الثوريين هو انهم يرفضون التفكير في الصراع الطبقي الشرس والحروب الطبقية اللازمةلتحقيقهذا المستقبل الجميل .»(٣٦) وفي اطار الظروف التاريخية المحددة للحرب العالمية الاولى فان السبيل الوحيد لتحقيق سلام ديمقراطي عادل هو ان تحول الجماهير العمالية الحرب الامبريالية الى حرب أهلية ضد الحكومات البورجوازية في كل البلدان المتحاربة . وقال لينين : « ان الماركسية غيرنزعة أنصار السلام ، وطبيعيأن نكافح من أجل اسرع طريق لانهاء الحرب ، بيد أن مطلب السلام يصبح ذا دلالة وأهمية بروليتارية في حالة واحدة فقط وذلك عندما يبدأ نضال ثوري اذبدون سلسلة من الثورات فانماندعوه سلاما ديمقراطيا ليس سوىيوطوبيا فارغة وحمقاء . ومن ثم فان كل من كان يطالب انذاك بسلام ديمقراطي دائم كان لابدوأن يكون مؤيدا لخوض حرب أهلية ضد الحكومات الامبريالية

---

(٣٤) نفس المرجع — ص ١٩٢ .

(٣٥) نفس المرجع — مجلد ٢٤ — ص ٢٦٤ .

(٣٦) نفس المرجع — مجلد ٢٣ — ص ٧٩ .

والبورجوازية الاحتكارية • كان هذا هو جدل الانتقال من حـــرب عالميـــة امبريالية الى سلام عالمى ديمقراطى عادل فى الظروف القائمة انذاك •

وهــذا هو الحال فى ظل الظروف والاوضاع الراهنة على الارجح اذ ان أفضل سبيل لشعب من الشعوب لضمان سلام ديمقراطى عادل هـــو حمل السلاح وخوض نضال عادل ضد الامبريالية • وبهــذا نقول ان الشـــعبين المصرى والجزائرى قد حققا سلاما ديمقراطيا عادلا من خلال نضال صلب ضد المستعمرين والامبرياليين المعتدين وانصارهم من القوى الرجعية الداخلية ــ البورجوازية الكبيرة وكبار ملاك الاراضى •

ان المفكر المادى الجدلى حين يكشف عن العوامل الاقتصادية والتاريخية المسببة للحرب فانه فى ذات الوقت يدرس بعناية النظام الاجتماعى السياسى الذى يضمن بوجوده اقرار سلام عادل ويقضى على امكانية وقوع مزيد مـــن الحروب • ويحاول المفكرون البورجوازيون المعاصرون ذو النزعة الميتافيزيقية البرهنة على ان الحرب ظاهرة دائمة فى حياة المجتمع وأن السلام ماهو الاحدث عارض ولكن المفكر المادى الجدلى حين يكشف عن الطبيعة الطبقيـــة للحرب ويبرهن على أن الحرب هى استمرار لاتجاهات سياسية محددة فانه يكون قد برهن على ان الاشتراكية هى التى تقضى على الحرب وتزرع الســـلام وتكفله بين الأمم •

وجدير بالذكر ان لينين كان دائما حين يدرس مشكلة السلام العـــادل فانه كان يعالجها فى اطار سياق تاريخى محدد • فاذا كانت الحرب ظـــاهرة اجتماعية هى جزء أصيل من تطور العلاقات الاجتماعية القائمة على أساس من الملكية الخاصة وهى أيضا وبنفس القدرة قســمة طبيعيـــة تميز المجتمع الرأسمالى وهى استغلال الانسان للانسان فان المجتمع الاشتراكى بنظامـــه القائم على أساس الملكية الاجتماعية يقضى تماما على الظروف التى تتولد عنهـــا الحـــرب •

ولقد برهن التاريخ على أن المضمون الاساسى للسياسة الخارجية للنظام الاشتراكي العالمى هو النضال من أجل خلق افضل الظروف المواتيـــة لبناء الاشتراكية ودعم سلطتها ومساندة الشعوب المناضلة من أجل التحرر الوطنى والاجتماعى ومن أجل دعم المبادىء اللينينية عن التعايش السلمى بين الدول ذات النظم الاجتماعية المختلفة •

ان المجتمعات الاشتراكية لاتعرف الان الطبقات أو الفئات الاجتماعيـــة ذات المصلحة فى الحرب • فالسلطة فى يد العمـــال والفلاحين الذين يمثلون دعامات صلبة من أجل السلام بين الشعب العامل فى كل بلدان العالم •

وناقش لينين جوهر السياسة السلامية للاشتراكية وأكد فى مناقشته هذه ان الحزب الشيوعى عند استيلائه على الســـلطة يقيم سياســـة بلده الاشتراكى وعلاقاته مع البلدان الاخرى على أساس من المبادىء الانسانية التى تتمثل ركيزتها فى المساواة وعدم التدخل • وقال أيضا « ولكن كل مواقفنـــا

السياسية ودعايتنا موجهة من اجل وضع نهاية للحرب والحيلولة دون دفع البلاد الى الحرب » ٠ (٣٧)

ولقد طور الحزب الشيوعي السوفيتي والحكومة السوفيتية مبدأ لينين عن التعايش السلمى بين البلدان الرأسمالية والاشتراكية ٠ وهانحن اليوم نشهد القوى الاجتماعية والسياسية بما لها من قوة وبأس تملك من الوسائل الرهيبة ما يمكنها من كبح جماح الامبرياليين والحيلولة دونهم وشن حرب عالمية جديدة ٠٠

ان التحليل الماركسى اللينينى لمفهومى الحرب والسلام من الاهمية بمكان لحل المشكلات الدولية الراهنة ٠ لقد صاغت الماركسية اللينينية نظرية مادية جدلية علمية وكاملة عن الحرب والسلام ، وهى التى تزودنا بالاساس الوحيد الصحيح لتحليل جوهر أى حرب . وكشفت لنا هذه النظرية عن العلاقة بين السياسة والحرب في مجتمع طبقى وقدمت لنا تصنيفا علميا للانواع المختلفة فى الحروب والسلام ، ودرست الظروف التاريخية للقضاء على الحرب واقرار سلام دولى دائم ٠ ولقد بددت السياسة السلامية للاتحاد السوفيتي خرافة « التهديد الشيوعى » ٠ ونشهد اليوم أن دعم قوى الاشتراكية فى أوروبا يهيىء فرصا جديدة تكفل وتدعم التعايش السلمى والتعاون بين شعوب هذه القارة ٠

وخير مثال لهذا التعاون نلمسه فى علاقات حسن الجوار التي دعمت بين الاتحاد السوفيتي وبين فنلندا ٠ ان العلاقات الفنلندية السوفيتية صورة لمثال مرموق لقوتين ذاتى نظامين اجتماعيين مختلفين تتأكد بينهما أواصر الصداقة والتعاون ٠ وهناك العديد من البلدان النامية التى تكشف بدورها عن ميل نحو الالتزام بسياسة مستقلة قائمة على اساس مصالحها القومية وليست على أساس مصالح أى كتلة من الكتل العسكرية العدوانية ٠

ان قوة الاتحاد السوفيتي والبلدان الاشتراكية هى المقابل الحقيقى والقوة الموازية للقوى الامبريالية العدوانية وتمثل عاملا هاما الى أقصى حد لصون السلام ومنع نشوب حرب عالمية ثالثة ٠

●

---

(٣٧) نفس المرجع ــ مجلد ٣١ ــ ص ٤٧٠ ٠

# الفصل الرابع

# السياسة والحرب في عصرنا الراهن

ان مشكلة العلاقة بين السياسة والحرب بكل جوانبها التاريخية والاقتصادية والفلسفية والاجتماعية والعسكرية اجتذبت ولاتزال تجتذب اهتمام ليس فقط الاخصائيين فى هذا المجال ، بل واهتمام الملايين من الناس العاديين فى كل انحاء الارض . وتبدى البشرية اليوم عناية فائقة بقضية امكانية الغاء الحروب والقضاء عليها تماما فى المجتمع البشرى وأحلال السلام الدائم وتتساءل عما اذا كان هذا ممكنا أم أن التهديد بالحرب المروعة سيظل مصلتا علينا يهدد مستقبلنا ، بل يهدد وجود الحياة ذاته على كوكبنا ، كما هو حادث فى ظروفنا المعاصرة .

ثمة أيديولوجيتان ـ الايديولوجية الماركسية اللينينية ، والايديولوجية البورجوازية ـ متشابكتان في صراع وحشى بشأن هذه القضية وكل منهما تعرض نظرة للعالم مناقضة للاخرى ومناهج بحث ومواقف طبقية سياسية معارضة .

## ثورة في الآراء عن السياسة والحرب :

نشبت حروب لاحصر لها ، كبيرة وصغيرة ، على مدى التاريخ الطبقى للمجتمع ، وهى مرحلة قصيرة نسبيا من تاريخ البشرية . وثمة تقدير بأنه خلال ٥٥٠٠ من الاعوام الاخيرة خاضت البشرية غمار مايزيد على ١٤٥٠٠ حرب أى بمعدل حرب كل ثلاثة أعوام . لقى فيها ٤٠٠٠ مليون نسمة مصرعهم ، أى أكثر من تعداد سكان العالم الان . ولعل أشد هذه الحروب كلها تدميرا الحربان العالميتان بآثارهما الخطيرة المدمرة للحياة البشرية والقيم المادية .

ولقد كانت كل حرب فى الماضى تمثل أسلوبا لحل بعض الصراعات الاجتماعية والدولية ، وهو الاسلوب المتطرف للتغلب على التطاحنات بين الطبقات والشعوب والدول • وتوالت الاحقاب وتغير الزمن وتعاقبت النظم الاجتماعية الواحد تلو الاخر وتطورت اشكال ووسائل الصراع المسلح وتحسنت أيضا ، ولكن ظلت الحرب هى الحرب كما كانت دائما ـ أداة للسياسة • واعتادت الطبقات المستغلة الحاكمة أن تلجأ الى الحرب بهدف دعم قوتها وتوسيع نطاق سطوتها لتعزيز سياستها فى اخضاع الجماهير العاملة ولقهر واستعباد الشعوب الاخرى • ولحظ لينين ان الطبقات الرجعية هى التى كانت عادة البادئة باستعمال القوة وتظل دائما « ممتشقة الحسام » • (١)

ولكن الشعوب والطبقات التقدمية الثورية كانت فى نفس الوقت ولاتزال مضطرة كرها الى خوض غمار الحرب كاجراء أخير ومتطرف فى نضالها ضد قاهريها • وأكد لينين ان أى طبقة ثورية لايسعها التخلى عن الحرب الثورية • (٢) بيد ان القوى التقدمية فى أى مجتمع من المجتمعات تمقت الحرب أشد المقت ولاتلجأ اليها الا بهدف الدفاع عن نفسها ضد قوى الثورة المضادة • أو كما قال انجلز : « حيث لاتوجد طبقة رجعية يتعين الاطاحة بها لاتوجد قضية للقوة الثورية » • (٣)

ان كثيرين من الفلاسفة وعلماء الاجتماع والشخصيات السياسية والعسكرية ، أشاروا فى الماضى الى العلاقة الوثيقة القائمة بين الحرب والسياسة • ففى المجتمع العبودى اعتبر افلاطون وأرسطو الحرب وسيلة تحقيق اهداف سياسية وأن شن الحرب جزء من فن السياسة ، أو فن تدبير شئون الدولة • (٤) واعتبر هيجل هدف سياسة الدولة هو ان تكون الروح الكلية وذهب الى ان سلطة الدولة وسياستها تكمنان « فى العقل » ، واستشهد بأمثلة عديدةمن التاريخ على أن « الجيوش كان يجرى استخدامها فى فتوحات محددة تمليها السياسة » • (٥) وأكد القائد العسكرى الروسى الشهير قطزوف Kutuzov العلاقة بين الحرب والسياسة وأشار عام ١٨١١ الى أن « الملابسات السياسية تشير الى نوع الحرب » • (٦)

ولكن المفكر العسكرى الالمانى كارل فون كلوزفيتش هو الذى أعطى ، كما أوضحنا سابقا ، الصورة الكاملة عن العلاقة بين الحرب والسياسة قبل

---

(١) V.I. Lenin, Collected Works, Vol. 31, p. 364.

(٢) المرجع السابق ، جزء ٢٥ ــ ص ٣٩ •

(٣) Marx-Engels, Werke, Band 38, p. 489-90.

(٤) Aristotle, Politics, Saint-Petersburg, 1911 p. 22 (in Russian)

(٥) Hegel, The Philosophy of History, New York 1900.

(٦) M. Kutuzov, Documents, Voyenizdat, 1952 Vol. III, p. 754 (in Russian)

ماركس ، واستخدم فى كتابه : « عن الحرب » الجدل الهيجيلى وعممه على خبرة الحروب النابليونية للكشف عن الرابطة الجوهرية بين الحرب والسياسة وقال ليست الحرب عملا مستقلا منفصلا عن غيره ، بل رهن بالعلاقات السياسية أى متوقفة على السياسة • انها تنبثق دائما عن الموقف السياسى وتحدث دائما وأبدا بفعل حوافز سياسية • انها تمثل استمرارا للسياسة ولكن بوسائل اخرى ذلك لان الحرب فى واقع الامر اداة فى خدمة السياسة الحرب سياسة «تستبدل السيف بالقلم» • ونظرا لان الحرب جزء من السياسة فانها تحمل بطبيعة الحال قسمات وسمات السياسة ويجرى قياسها وفقا لمعايير السياسة » • وعند ما تصبح السياسة اكثر قوة وبأسا تكون كذلك الحرب » • (٧)

الحرب عمل من أعمال العنف • ويخضع كل شىء أثناء الحرب لقانون نظام القوة العسكرية • ويتوقف مدى القوة المستخدمة وشدة الصراع المسلح على الهدف السياسى المنشود • ومن ثم فان الهدف السياسى هو معيار كل من الهدف الذى تنشد تحقيقه بالعمل العسكرى وضرورة الجهود العسكرية ولهذا فاننا « نخطىء أشد الخطأ حين نتبع الموقف السياسى للموقف العسكرى » • (٨)

تعكس هذه الآراء ذروة الفكر البورجوازى بشأن مشكلة الحرب وصادفت هذه الآراء ثناء ومديحا من قبل الماركسيين اللينينيين ، فقد أشار انجلز الى كلوزفيتش باعتباره « نجم يحتل ذروة المجد » فى الادب الالمانى العسكرى ، وقال عنه لينين انه واحد من أعظم الكتاب العسكريين فى التاريخ •

استعان كلوزفيتش بجدل هيجل المثالى للكشف عن العلاقة بين الحرب والسياسة وطبع الجدل كل آرائه • عالج كلوزفيتش السياسة من وجهة النظر المثالية ، دون اشارة الى العوامل الاقتصادية أو الصراع الطبقى أو طبيعة النظام الاجتماعى • ونظر الى السياسة باعتبارها « العقل المشخص للدولة • (٩) وممثل مصالح المجتمع ككل » • (١٠) وأكثر من هذا ان السياسة عنده كانت تعنى السياسة الخارجية فقط ، وأغفل تماما السياسة الداخلية للطبقة الحاكمة • ونظرا لانه لم يفهم الطبيعة الطبقية للسياسة وجذورها المادية فقد أخفق كلوزفيتش أيضا فى ادراك الجوهر الحقيقى للحرب ومضمونها وطابعها والعوامل الاقتصادية والاجتماعية السياسية التى تكمن وراءها • وأعتقد أن كل الحروب ضرورية تاريخيا ومشروعة • خلاصة القول أن اراءه ونظراته كانت أسيرة الاطار الضيق للنظرة البورجوازية المثالية فى عصره •

---

(٧) Karl Von Clausewitz, op. cit., p. 729.

(٨) نفس المرجع — ص ٧٣٠ •

(٩) نفس المرجع — ص ٣٥ •

(١٠) نفس المرجع — ص ٧٣٠ •

وثمة بعض المفكرين البورجوازيين المحدثين الذين يدرسون مشكلة الحرب والسلام يزجون الى كلوزفيتش كل مديح وثناء بصورة مفرطة ويولونه ثقة أكبر مما يستحق ، مثال ذلك عالم الاجتماع والمؤرخ الفرنسى • ك روجيرون C.Rougeron الذى يقول في مقدمته للطبعة الفرنسية من كتاب كلوزفيتش « عن الحرب » أنه كان « أعظم رجال الفكر العسكرى قاطبة وفى كل العصور » (١١) اما المؤرخ العسكرى الالمانى الغربى و • ر • سكرام W.R. Schramm فيصفه بأنه « الفيلسوف العسكرى الاوحد وأهم من أنجبتهم أوروبا قاطبة • » (١٢)

مثل هذه المبالغة فى دور كلوزفيتش ليست مجرد تشويه لحقيقة تاريخية ، بل هي وسيلة تستهدف التقليل من قدر التفسير الماركسى اللينينى للعلاقة بين الحرب والسياسة • ومصداقا لهذا نجد فى Wehrwissenschaftliche Rundschau وهي صحيفة عسكرية في ألمانيا الغربية ما يلى : « يتعين علينا نحن أيضا أن نفسر نظرية كلوزفيتش تفسيرا خلاقا ونطورها كأداة تفيد فى الصراع الفلسفى والسياسى على النطاق العالمى ، هذا اذا شئنا التلاحم بالسيف مع الشرق ابتغاء هزيمته أيديولوجيا وهو ما نريده ونبتغيه • » (١٣)

ويسير على نفس هذا المنوال ولتحقيق نفس الغايات فلاسفة وعلماء اجتماع ومؤرخون عسكريون فى البلدان الرأسمالية ، ويحاولون الادعاء بأن الماركسية اللينينية لم تقدم جديدا فى نظراتها الى الحرب وأن كل ما قالته انما هو اقتباس بقده وقديده من أفكار كلوزفيتش المفكر النظرى البورجوازى العسكرى •

ويحضرنا هنا كنموذج لهذا الطراز الاراء التى قال بها د • ل ـ جارتوف الاخصائى الامريكى فى تزييف المذهب الماركسى اللينينى عن الحرب والسياسة • اذ يؤكد جارتوف أن النظرة السوفيتية تسلم تماما بفكرة كلوزفيتش عن الحرب والتى تقول ان الحرب استمرار للسياسة بوسائل اخرى دون أى محاولة نقدية لاعادة تقويم أو تعديل مضمونها أو معناها • (١٤) ونجد آراء مماثلة فى الاعمال الكاملة الصادرة تحت عنوان • الصراع الممتد Protracted Conflict الفكرة القائلة بأن الاداة العسكرية والاداة السياسية ، قابلتان للتبادل لتحقيق هدف استراتيجى واحد ، وهى محور

---

(١١) Karl Von Clausewitz, De la guerre, Paris, 1955.

(١٢) Wehrkunde, Jan. 1966, Band I, S. 2.

(١٣) Wehrwissenschaftliche Rundschau Nov., 1958, Band 11, p.

(١٤) See R. L. Gorthoff, Soviet Military Doctrine, Glencoe, 1953, p. 10, and Soviet Stategy in the Nuclear Age, New York 1958, p. 6.

فكر كلوزفيتش ، هذه الفكرة هى لب المذهب الشيوعى فى هذا الصدد • (١٥)

ويكتب عالم الاجتماع الالمانى الغربى ت • أرنولد فى كتابه « الحرب الثورية Revolutionary War » أن كل ما فعله لينين هو أعادة ما قاله كلوزفيتش من أن الحرب استمرار للسياسة بوسائل أخرى ، وأسماها نظرة جدلية ، وأضاف اليها ان الحرب ليست مجرد ظاهرة سياسية ، بل الذروة أو الحد الاقصى فى السياسة • « ويستطرد قائلا « هذا التقويم للحرب كحالة خاصة من حالات السياسة اتخذه الشيوعيون أساسا لتفسيرهم للصراعات فى توافق تام مع المنهج الجدلى •• هذا الرأى المقتبس من مذهب كلوزفيتش هو الاساس الذى ترتكز عليه كل الاستراتيجية العسكرية والسياسية الشيوعية » (١٦) وتطالعنا آراء مشابهة فى كتابات عدد من الشخصيات الهامة فى حلف الاطلنطى ، مثل ذلك ما نقرأه فى كتاب أدميرال روج « السياسة والقوات المسلحة والحلف » حيث يقول أن كلوزفيتش وضع نظريته عن الحرب وتبنى لينين فكرته وطبقها بنجاح • (١٧) وعلى هذا النحو يحاول منظرو الامبريالية التهوين من الفكر الماركسى اللينينى عن الحرب والسياسة والتقليل من شأنه فى نظر الجماهير •

ان الماركسية اللينينية فى واقع الامر قد أحدثت ثورة كاملة فى الافكار عن الحرب والسياسة وقدمت لنا أول تفسير علمى لهما واستبعدت كل مظاهر الفكر المثالى والميتافيزيقى • وطبيعى ان المبدأ الماركسى اللينينى عن الحرب والسياسة لم يكن شيئا جديدا غير متوقع ، بل تمثل خير ما تضمنته النظريات العسكرية السابقة عليه من فكر تقدمى ناصع • ولكنه ليس على الاطلاق صياغة جديدة لآراء كلوزفيتش ، وانما يقدم لنا فكرا جديدا كيفيا ويعبر عن مرحلة أرقى ونسق أرفع من فكر راق أصيل •

واذا كانت الماركسية اللينينية تسلم بالصياغة اللفظية لعبارة أن الحرب استمرار للسياسة بوسائل عنيفة فان هذا ليس من شأنه ان يخفى المحتوى المختلف تماما الذى يعنيه كل من المثاليين والماديين • ان النظرية الماركسية اللينينية عن الحرب والسياسة تقوم على المبادى الاساسية للمادية الجدلية وبيان العوامل المادية والاقتصادية التى تكمن وراء السياسة وتحددها كما ترتكز على تحليل للطبيعة الطبقية لهذه السياسة • ولكن المنظرين العسكريين فى حلف الاطلنطى يؤثرون اغفال هذا الجانب وهو ما يكشف تحيزهم وعداءهم للايديولوجية الماركسية اللينينية •

---

(١٥) R. Strauzs-Hpué, W.R. Kintner, J.E. Dougherty and A.J. Cottrell, Protracted Conflict, New York 1959, p. 31.

(١٦) Theodor Arnold, Der revolutionare Krieg 3 Aufl, Ptaffenhofen - Ilm, 1961, S. 19-20.

(١٧) Friedrich Ruge, Politik, Militar Bündnis, Stuttgart, 1963, S. 51.

ان الحرب جزء من الكل ، أى جزء من السياسة • والعلاقة الجدلية بين الجزء والكل ، أو بين الحرب والسياسة ، علاقة ذات طبيعة تناقضية • وفى هذا يقول لينين : « أما عن الحروب فان القضية الاساسية التى يقضى بهـا الجدل والتى أفسـدها بليخانوف بصـورة مخزية ارضاء للبورجوازية هى أن الحرب استمرار للسياسة بوسائل أخرى ( أى العنف ) •

« ولقد كان هذا هو رأى ماركس وانجلز دائما ، اذ رأيا ان أى حرب هى استمرار لسياسة القوى المعنية ــ ومختلف الطبقات الاجتماعية فى هـذه البلدان ــ فى فترة زمنية محددة •» (١٨)

تشغل السياسة مكانَ الصدارة والسيادة فى علاقتها بالحرب • ونحن لا يمكن ان نفهم مضمون الحرب وجوهرها وطابعها واسبابها دون الاشـارة والرجوع الى السياسة التى تنتهجها الطبقات والدول المعنية وبدون دراسـة كل نسق العلاقات السياسيةَ التى نشأت قبل نشوب الحرب بفترة من الزمن والتى أدت اليها واسـتمرت اثناءها • ولقد كان يزدرى كل اولئك الذين يؤمنون بأنه مع نشوب الحرب تنقطع كل الصـلات التاريخية بين الطبقات والامم • وكان من رأيه انه جهل مطبق وتحيز أعمى ان يتخيل المرء ان الحرب يمكن النظر اليها كأمر مستقل ومنفصـل عن سياسة الحكومات والطبقات المعنية وكأنها ليست سـوى عدو يهاجم •• « •• ان أهم شىء يغفله الناس عادة بالنسـبة لقضـية الحـرب « وهو مفتـاح القضـية » ولا يولونه ما يسـتحقه من اهتمام ويدور حوله نزاع فكرى طويل ــ نزاع فكرى عقيم لا طائل تحته ولا جدوى منه ــ هذا الشىء هو مسـألة الطابع الطبقى للحرب ما دواعى الحرب وأى طبقات تخوضـها وما الظروف التاريخية والتاريخية الاقتصادية التى أدت الى نشوبها» • (١٩) وأكد لينين انه لكى نصدر حكما عن حرب ونحدد اتجاهنا منها يتعين علينا ان نبحث الملابسـات التاريخية التى نشأت من بينها وأثارت الحرب وان نبحث طبيعة النظام السياسى الذى ترتبط به وأى اتجاهات سياسية أثارتها وأى طبقات تخوضـها ولأى اهداف • ان الطبقة الحاكمة تحدد السياسة فى الحرب مثلما تحددها فى السلم •

وأكد لينين ضرورة بحث كل حرب على حدة من وجهة نظر تاريخيـة واقعية ملموسة وانه لكى نفهم طابع أى حرب يلزم بداية أن نفهم طابع العصر الذى نشبت فيه • لم يقنع لينين بتعريف الحرب بكلمات عامة وانما قام بتحليل شـامل لطبيعة الحرب وقسماتها المميزة فى عصر الرأسـمالية الاحتكارية وقسم لينين الحروب الى طرازين مختلفين ــ حروب عادلة وحروب غـير عادلة وأوضح طبيعة الحروب التى تندلع دفاعا عن الدولة الاشتراكية •

وترفض الماركسية اللينينية التصور المثالى لمفهوم السـياسة عند بحث جوهر وطابع ومضمون الحرب وتوقفها على السـياسة • وقد وصف لينين

---

(١٨) V.I. Lenin, Collected Works, Vol. 21, p. 219.

(١٩) نفس المرجع ــ مجلد ٢٤ ــ ص ٢٩٨ •

السياسة بأنها التعبير المركز عن الاقتصاد وتعميماته والنتائج المترتبة عليه ومن ثم فان الجذور المادية للاتجاهات السياسية التى تثير الحرب يتعين علينا ان نبحث عنها في الاسلوب الاستغلالى للانتاج القائم على الملكية الخاصة وحذر لينين فى ذات الوقت من التبسيط المخل للعلاقة بين الاقتصاد والسياسة والاستنتاج التلقائى للسياسة من الاقتصاد ، وأشار الى الطبيعة المستقلة نسبيا للسياسة وواقع انها تؤثر بدورها على الاقتصاد .

وتتضمن السياسة العلاقات القائمة بين الطبقات والناس داخل الدولة ( السياسة الداخلية ) وكذلك العلاقات بين الدول والامم ( السياسة الخارجية ) . وكلاهما مرتبطان ببعضهما ارتباطا وثيقا ، الاولى لها الدور المسيطر والمحدد لمضمون وطابع الثانية . وأكد لينين « ليس ثمة فكرة تعادل خطأها وضررها فثل الفكرة الداعية الى الفصل بين السياسة الخارجية والسياسة الداخلية » . (٢٠)

ويجدر بنا الا نأخذ هذا على محمل أن السياسة الخارجية يمكن ردها ببساطة الى مجرد وظيفة أو دالة للسياسة الداخلية . حقا ان السياسة الخارجية قد يكون لها أحيانا أثر حاسم على السياسة الداخلية الا أن الدور الاكبر والاساسى يرجع للسياسة الداخلية وليست الحرب نتيجة للسياسة الداخلية أو السياسات الخارجية منفصلتين وكل على حدة بل نتيجة لكليهما معا أى نتيجة للجانبين فى تلاحمهما وارتباطهما ببعض .

وتجسد السياسة العلاقات القائمة بين الجماهير العريضة من الناس وتعكس مصالحهم المتصارعة وتطلعاتهم المتباينة . وجوهر السياسة هو الظفر بالسلطة والاحتفاظ بها . وتبدأ السياسة ، كما يقول لينين ، من حيث يكون التساؤل عن مصير الملايين . ومن ثم يمكن القول بأن السياسة هى مصير الملايين . واذا كانت سياسة الامبريالية هى التى أعدت للحروب الحديثة وخاضت غمارها الا ان هذه الحروب شدت الى فلكها جماهير واسعة من الناس ودفعت بأمم بأكملها الى الحركة . ولهذا فان طابع السياسة التى تفضى الى الحرب وتستمر أثناءها له دور حاسم فى تحديد سلوك الجماهير أثناء الحرب ومسارها ونتائجها .

والسياسة باعتبارها صورة من صور العلاقات الانسانية وخاصية مميزة للنشاط الانسانى لها جانب موضوعى وآخر ذاتى . أما الجانب الموضوعى والحاسم فهو نطاق العلاقات الطبقية ، والعلاقات بين الامم والدول التى لا تتوقف فى التحليل النهائى على الارادة الواعية للناس . وقال لينين « السياسة لها منطقها الموضوعى الخاص بها بغض النظر عما يخططه الاشخاص أو الاحزاب مقدما . (٢١) والجانب الذاتى للسياسة مشتق من الموضوعى وهو تعبير عنه وانعكاس له . ويشتمل على منحى واتجاه نشاط الطبقات والاحزاب

---

(٢٠) نفس المرجع — مجلد ٢٥ — ص ٨٥ .

(٢١) نفس المرجع — مجلد ١١ — ص ٣٧٩ .

ورجال الدولة والسياسيين والقادة العسكريين وما شـــابه ذلك والنظريات والبرامج السياسية والشعارات ٠٠ الخ ٠

ان سياسة الطبقات المستغلة لا تمهد فقط لنشوب حرب بذاتها وتحدد مضمونها السياسى وهدفها وطابعها ، بل انها ايضا تؤثر على الاســـتراتيجية والتاكتيك المستخدمين فى الحرب وتؤثر على أساليب الصراع المسلح وصورته والبناء التنظيمى للقوى المســلحة ومناهج القيادة العســكرية والتدريب فالسياسة تمثل القاعدة والركيزة للاستراتيجية العسكرية والصراع الحربى بوجه عام ٠ وقد أدى دخول الاسلحة النووية مجال الصراع الحربى الى زيادة ومضاعفة « تسييس Politicisation الاســــتراتيجية : أى زاد اعتماد الاستراتيجية على السياسة واصبحت العلاقة بينهما أكثر تعقدا ٠ وتضـــع السياسة فى الاعتبار منجزات ومتطلبات الاستراتيجية العسكرية حتى يكون لهذه أثر نشط على السياسة ٠

ومع هذا كله فان الحرب ليست سياسة بالمعنى العادى المألوف بل سياسة مطبقة بأسلوب خاص عن طريق القوة المسلحة ٠ اذ مع نشـوب الحرب يصبح العنف المسلح والعمل العسكرى الاداة الرئيسية للسياسة وشكل العمل حيث أن « المقاومة العســـكرية » كما قال لينين ، « لا يمكن دحرها الا بأســـاليب عسكرية » (٢٢) ويخضع الصراع المسلح لقوانين موضوعية محددة تدرســـها العلوم العسكرية ٠ ويلزم لخوض غمار صراع مسلح انشاء تنظيم خاص ــ هو القوات المسلحة التى يتم تجهيزها بمعدات خاصة ( الاسلحة والذخائر ٠٠ الخ ) ــ وهو ما يختلف تماما عن الادوات المستخدمة فى مجال العمل الســياسى ويتم انشاء هيئات خاصـــة لهذا الغرض ــ وزراء للدفاع وهيئة أركان حرب الخ ــ ويجرى استعمال اساليب خاصة لادارة الصراع المسلح وتوجيه العمــل العسكرى ٠ وطبيعى ان الصراع المســلح ، وهو الصـفة الاســاسية المميزة للحرب ، يؤثر على السياسة كما يؤثر على كل الجوانب الاخرى للحياة فى الدول المتحاربة ٠

ويسم الصراع المسلح الحرب بميسم خاص مميز اذ يطبعها كمايقول لينين بطابع « البربرية والوحشـــية » (٢٣) وهو أكثر الاســاليب تطرفا فى حل النزاعات الســياسية ، وكأنه قاض صـــارم وحكم قاس يفصـــل فيما يتعلق بالعـــلاقات القائمة بين الطبقات والامم والدول ٠ ونخطىء اذا رددنا الحرب وأرجعناها الى الوسائل والاساليب النوعية المتميزة التى يجرى استخدامها أى اذا ارجعناها الى الصراع المسلح وحده معزولا عن السياسة التى تنتهجها الدولة والطبقة ٠

هكذا حددت الماركسية اللينينية العلاقات العميقة بين الحرب والسياسة ، وأوضحت لاول مرة الطبيعة الطبقية للسياسة ولاستمرارها أى للســـياسة

---

(٢٢) نفس المرجع ــ مجلد ٢١ ــ ٢٩٩ ٠

(٢٣) نفس المرجع ــ مجلد ٢١ ــ ص ٢٩٩ ٠

وللحرب معا ، وكشفت عن أسباب الحرب وارتباطها بالنظام الاجتماعي السياسى للاســـتغلال القائم على الملكية الخاصة ، واكتشفت الطبيعة الانتقالية للحرب والطبيعة الموضوعية المميزة لقوانين اصراع المسلح • وكل هذا يفيد لدحض النظرة الخاطئة التى يذهب اليها منظرو الامبريالية الذين دأبو على انكار وجود أى فارق كيفى بين نظريات كلوزفيتش والمذهب الماركسى اللينينى بشـــأن السياسة والحرب •

## هل لم تعد الحرب استمرارا للسياسة :

ان العلاقة الوثيقة بين الحرب والســـياسة والتى أكد صـــوابها علميا مؤسسو الماركسية ، اللينينية ليست علاقة استاتيكية وثابتـة • انهـا مثـل أى علاقة أخرى في الطبيعة وفى المجتمع تنشأ وتنمو وتتغير وتزداد تعقـدا • فثمة تغيرات معينة تحدث فى العلاقة بين الحرب والســياسة وفى جوهرهما مما يستوجب وضعها موضع الاعتبار فى النظرية وفى النشاط العلمى •

ونتيجة للتغيرات التى تحدث فى عملية التطور الاجتماعي الاقتصـــادى فان السياسة تطرأ عليها تغيرات اساسية وتأخذ مضمونا كيفيـا جـديدا فى مراحل مختلفة • وتؤثر هذه التغيرات فى السياسة على جوهر ومحتوى وطابع الحرب وتشكل اساسا لتحديد اوجه التمايز بين الحروب فى العصور المختلفة وهو اساس موضوعى لتصنيفها تصنيفا علميا وفق طابعهـا النمطى والطبقي وتحديد ما اذا كانت حربا عادلة ام غير عادلة ومن أجل تطوير استراتيجيـــة وتاكتيك الاحزاب الماركسية اللينينية •

وفى نفس الـوقت الـذى كـانت تتغير فيـه السياســة ، وتحت تأثير هذه التغيرات ، كانت تتحسن باطراد وسـائل واسـاليب وأشـكال الصراع المسلح وازداد ميدان الحرب اتساعا كما اردادت الاسلحة والمعـدات تعقـدا وتضـــاعف عدد البشر المشتركين فيها • واكتسبت الحروب طابعا تدميريا اكثر فأكثر ، وتعاظمت عواقبها الاجتماعية وهو ما يحدث بالنسـبة للتأثير العكسى للحرب على الســـياسة وعلى كل المظاهر الاخرى لحياة الشـــعوب والدول المتحاربة • وهذه هى صـــورة اخرى لمظـاهر التغييرات الاســاسية التى تطرأ على جوهر ومضمون وطابع الحرب •

وتقع التغيرات التى تطرأ على العلاقة بين الحرب والسياسة فى عصرنا الراهن نتيجة عوامل ثلاثة • اولا انها تقع نتيجـة تغير علاقـات القـوى بين المعسكرين المتعارضين ونتيجة تحول النظـام الاشـتراكى العـالمى ليصـبح العامل الحاســم فى تطـور البشريـة ونتيجـة لتزايـد الطبيعـة العدوانيـة للامبريالية وهى فى مرحلة الانحسار • ثانيـا انهـا تقـع نتيجـة للطبيعـة المعقدة للعلاقات السياسية فى عصرنا الراهن ، وهـو عصر يتسـم بالصراع بين نظامين اجتماعيين متعارضين ، والثورات الاشتراكية ومعـــارك التحرر الوطني وانهيار الامبريالية وتصفية الاستعمار وظهور امم جديدة آثرت طريق

النمو الاشتراكي وانتصار الاشتراكية والشيوعية على النطاق العالمي واليقظة السياسية التي شملت ملايين البشر في كل ركن من أركان المعمورة وأكثر من هذا أن السياسة في عصرنا الراهن قد اكتسبت اساسا ماديا مكينا مقترنا بالثورة العلمية والتكنولوجية والتطور السريع لقوى الانتاج • والعامل الثالث الذي غير بصورة جذرية العلاقة بين الحرب والسياسة هو الثورة في فن الحرب التي حدثت على اساس التقدم في الانتاج والعلوم والتكنولوجيا

ان الثورة التي حدثت في فن الحرب قد تجلت أولا وقبل كل شيء في التقدم المذهل الذي لم يسبق له مثيل في مجال التسليح والاعداد العسكري وفي التحول من الاسلحة التقليدية الى الاسلحة النووية والحرارية والصواريخ العابرة للقارات والاسلحة الكيميائية والمكروبية واستعمال الاوتومية Automation والسيبرنا طيقا على نطاق واسع • وأدى استعمال الصواريخ النووية على نطاق واسع في الاعوام الاخيرة الى ان اصبحت الحرب قضية شديدة الخطورة بصورة لا مثيل لها اذا ما قورنت بالحروب التقليدية

ولقد أصبحت كل منطقة من مناطق العالم الآن في متناول الاسلحة النووية مضافا اليها الصواريخ العابرة للقارات والاقمار الصناعية • انها قادرة على تدمير هدفها في لحظات قصيرة دون النظر الى طبيعة الظروف الجوية وفي أي يوم على مدار السنة • وأصبح في الامكان شن الهجوم من مواقع للهجوم صغيرة فوق الارض أو تحتها ، أو من فوق منصات متحركة اوغواصات أو قطع الاسطول البحري او الطائرات • وتتميز الأسلحة الحديثة من هذا الطراز بالقدرة الفائقة على تفادي الاسلحة النارية وبقدرتها الشديدة على المناورة والتنبه لمواضع الخطر • كل هذا جعل الدفاع ضد الصواريخ النووية أمرا عسيرا •

ان الصواريخ النووية قد حولت تماما الاساس المادي التكنيكي للقوات المسلحة وأدت الى حدوث تغيرات اساسية في تركيبها وتنظيمها ، وفي ادوار الاسلحة المختلفة واهميتها النسبية وفي مسائل التدرب عليها

وكتب ماركس عن مرحلة تاريخية سابقة : « مع اختراع اداة جديدة من ادوات الحرب وهي الاسلحة النارية كان لابد وان يتغير كل التنظيم الداخلي للجيش ، وتحولت العلاقات التي يمكن للافراد في اطارها ان يكونوا جيشا وان يعملوا لجيش عسكري ، كما تغيرت ايضا العلاقات بين الجيوش المختلفة وبعضها البعض ، وبوسعنا ان نلمس نفس هذا الوضع وبصورة مكثفة اكثر بعد اختراع الاسلحة النووية •

ولقد نشأت مذاهب عسكرية جديدة ومفاهيم حديثة عن الاستراتيجية في ضوء احدث الاسلحة والمعدات العسكرية • وظهرت اساليب جديدة كيفيا وأشكال جديدة للصراع المسلح • واذا كانت الاسلحة التقليدية قد تم تصميمها بغرض ضرب القوات المسلحة المشتبكة فوق ميدان القتال فان الاسلحة الجديدة موجهة اساسا ضد المراكز السياسية والاقتصادية الرئيسية وضد المدن الكبرى والسكان المدنيين • ولعل اول امثلة تطبيقية لهذه الاسلحة ، وان كانت

اصبحت اسلحة قديمة عفى عليها الزمن ، وهى تلك الاسلحة التى اســـتخدمها الامبرياليون الامريكيون لا لضرب أهداف عسكرية ، بل ضد السكان المدنيين فى هيروشيما وناجازاكى ٠

واذا كانت قيادة حلف الاطلنطى قد قررت اســتخدام الصواريخ النووية لتعزيز سياستها العدوانية فان هذا دفع بقـــادة الحلف من المفكرين النظريين الى بذل المزيد من الجهد وتعزيز نشاطهم فى مجال النظرية العسكرية والعمـل على تزييف مشكلة الحرب والسلام والانخراط فى عمليات دفاع صريح وخفى لتبرير استخدام القوة المسلحة ٠

وبينما يؤمن بعض المنظرين الامبرياليين بصواب رأى كلوزفيتش عن ان الحرب استمرار للسياسة بوسائل عنيفة الا انهم يرفضون الاعتراف بقســمات جديدة تميز العلاقة بين الحرب والسياسة ويسوقون حججهم دفاعا عن سياسة الابتزاز النووى وسباق التسلح والاسلحة التقليدية ، ويغمضون اعينهم ازاء خطر الحرب العالمية ٠

ولنطالع معا كتابى « عن الحرب الحرارية النووية ، التفكير فيما لايمكن تصـــوره » و « عن تصـــعيد الحرب » ومؤلف الكتـــابين هـــو هـ ٠ كاهن الذى يطلق عليـــه وصـــف « كلوزفيتش العصر النووى » ٠ يعرض كاهن فى كتابيه مبدأه عن « السماح » بحرب نووية كأداة للسياسة العدوانية للامبريالية الامريكية ٠ وقد وضع نظرية عن التصعيد فيتصورها كسلم مدرج متصـــاعد ويتألف من ٤٤ مرحلة تبدأ من العتبة النووية وتنتهى بالحلم الاثير لدى مثيرى الحروب النووية ــ أى اشـــعال نار حرب حرارية نووية تشـــمل العالم كله ويفخر كاهن بأن كتاباته الكئيبة اللا انسانية أصبحت مراجع اساسية لاغنى عنها للتخطيط العسكرى فى البنتاجون ٠

ويحاول مفكرو الامبريالية فى نفس الوقت تشـــــويه المذهب الماركسى اللينينى عن العلاقة بين الحرب والسياسة ، وذلك بالترويج للفكرة القائلة بأن الاسلحة الحديثة قد غيرت بصورة جذرية هـــذه العلاقـــة عمـــا كـــانت عليـــه منذ قرون ٠

وفى كتـــاب « الاســـتراتيجية الســـوفيتية فى مفترق الطـــرق » لمؤلفـــه ت ٠ و ٠ وولف المعروف بعدائه الشديد للشيوعية نقرأ حديث المؤلف الامريكى عن « تآكل »المذهب الماركسى اللينينى الكلاســـــيكى وآراء لينين عن الحـــرب كأداة للسياسة ويقول : « ساعدت البيئة النووية على تقويض المبـــدأ الماركسى اللينينى التقليدى عن العلاقة بين الحرب والسياسة وأثارت قضـــايا محيرة عن الفائدة السياسية من استخدام السلطة العسكرية او التهـــديد باســـتخدامها فى عصر الصواريخ النووية » (٢٤) ويبدو واضحا هنا بما لا يدع مجالا للشك

---

(٢٤) Thomas W. Wolfe, Soviet Strategy at The Crossroads, Cambridge 1964, p. 4.

التحيز الطبقى لمثل هذا التفكير الذى لا يستهدف الحقيقة بل زعزعة الثقة فى المبدأ الماركسى اللينينى ٠

ولكن الواقــع يؤكـــد ان العلاقة الوثيقة والعميقة القائمة بين الحـرب والسياسة والتى تعرضها المؤلفات الكلاسيكية للماركسية اللينينية لم تفقـــد أيا من مواضع الصــواب فى العصر النــووى ، بل أخـذت صــورة أكثر تعقـدا وتناقضا ٠ ان الحرب النووية لايمكن ان تنشأ او تتولد من فراغ ، بل لابد وأن تكون نتيجة لقصد عمدى او محصلة للسياسة الشريرة التى تنتهجها الجماعات الامبريالية العدوانية ٠ ومثلما كانت الحربان العالميتـــان نتاجا واســـتمرارا للسياسة العدوانية للقوى الامبريالية ، ومثل العديد من الحروب المحليـــة التى تشـــنها الامبرياليه منذ هزيمة المانيـــا النازية واليـــابان فان أى حـرب نووية لن تكون هي الاخرى سوى نتاج واســتمرار للسياســة العدوانيــة التى تنتهجها الامبريالية الامريكية ٠

ان الخطر الرهيب الذى تنطوى عليــه الحـرب النووية قـد اثر بطبيعـة الحال على الطريقة التى ينظر بهـــا المفكـــرون النظـــريون والسياســـبون والاستراتيجيون البورجوازيون وهو ما من شأنه ان ادى الى ظهـــور موقفين مزدوجين متناقضين ٠ فبينما ينظر هؤلاء الى الاسلحة النووية كـــأداة ردع فى مواجهة الاشتراكية والشيوعية فانهم فى نفس الوقت يخشون النتائج القاتلـة التى يمكن ان تلحق بالرأسمالية نتيجة حرب نووية ٠ ومن هنا كانت تنشـــأ سياسة الحروب المحلية والمحدودة ٠

وهنـــاك بعض المفكرين الامبرياليين الذين يدركـــون تمامـــا مخاطر الحرب النووية بينما لا يرفضونها فى المبدأ والاساس اذ يميلون الى اســتخدام الاسلحة النووية استخداما محدودا ومحليا لتحقيق مصالح سياسية ٠ انهم يطلبون الحرب النووية فى نطاق محدود على نحو يتفق مع اغراضهم مما ييسر لهم اهدافهم ويقلل مخاطرها كوســيلة لبلوغ اهدافهم الســـياسية العدوانية ووجد مثل هذا الضرب من التفكير تعبيرا له فى نظرية الحروب المحليـــة وفى ابتكار أسلحة نووية ذات قدرة تدميرية محدودة لاستخدامها فى مثل هـــذه الحروب ٠ ويعتقد الاستاذ و ٠ كوفمان المتخصص فى العــلاقات الدولية ان الحروب المحدودة « تقينا من التحـــولات الثورية والمربكة التى هى نتــاج للحروب الكبرى » (٢٥) ٠

ويرى هؤلاء المفكرون البورجوازيون ضرورة تطبيق ســـياسة الحروب المحدودة فى كل مجالات الحرب ٠ وهكذا فان الاهداف السياسية والاســلحة النووية المســـتخدمة والمســـاحات الجغرافيــة والاهداف التى ينبغى ضربها واستمرار العمليات العسكرية ، كل هذه ستصبح بالتالى محدودة ٠ ويمايزون

---

(٢٥) Limited Warfare:, by William W. Kaufman, Military Policy and National Security, Ed. By W. W. Kaufman, New Jersey, 1956.

بين انواع عديدة ومختلفة من الحروب المحدودة ، حروب بين بلدان صـــغيرة لا تؤثر على مصالح الدول الكبرى ، وحروب بين بلدان رأسمالية غربية كبيرة أو بلدان صـغيرة لا تتورط فيها البـلدان الاخرى ، وحروب بين قوى عظمى وبلدان صغيرة ثم اخيرا حروب محدودة بين القوى العظمى ولا يســـمح لها بأن تتحول الى حرب عالمية نووية ٠ (٢٦)

ولا يرى المفكرون البورجوازيون جوهر وطابع الحروب المحـدودة الا فى صيغ كمية ، استخدام محدود للقوات والاسلحة ، منطقة محدودة للعمليات العسكرية ، أهداف استراتيجية وسياسية محدودة ومحـددة مقدما ٠٠ وهكذا وطبيعى أن مثل هذا النهج من شأنه ان يخفى الطبيعة الطبقية لمثل هـــذه الحروب ومحتواها الســـياسى ولا يســمح بالتمييز بين الحروب العادلة وغير العادلة ٠

ان منهج البحث الماركسى اللينينى يرفض هـــذا النهج البورجوازى ويحلل هذه الحروب فى ضوء العوامل الطبقية والســـياسية وغير ذلك من العوامل الاجتماعية الاقتصادية التى تكمن وراءها ٠ فالحروب المحلية ليست سوى صورة أخرى لاســتمرار السياسة الامبريالية العدوانيــة بوسائل عنيفة واذا كانت هذه الحروب تقع فى مناطق محدودة وتخوضها قوى عســـكرية محدودة فان هذا لا يؤثر على طبيعتها الطبقية التى تتجسد فيها سياســـة عدوانية متلاحمة مع قوة مسلحة ويجرىاستخدامها فى شكل جرعات محكمة٠

ومن ناحية اخرى فان التصنيف الماركسى اللينينى للحروب المحدودة لا يقوم على اساس العوامل الكمية فقط ، بل يرتكز ايضا على القسمات الكيفية الجوهر الطبقى والمضـمون الســياسى والطابع الاجتمـاعى والدور الاجتماعى التاريخى وأساليب الصراع المسلح ٠ ومثل هذا التصنيف القائم على اساس القســـمات الكمية والكيفية معا هو وحده القادر على تحديد اتجاه الجماهير والطبقات والاحزاب من هذا النوع من الحروب ٠

والحروب المحدودة موجهة اساسا ضد البلدان الاشتراكية والشـعوب المناضــــلة من أجل التحرر الاجتماعى والوطنى ٠ ويحاول الامبرياليون الامريكيون وعملاؤهم استخدام الحروب المحلية بهدف تجنب الانهيار الاخير للنـظام الاستعمارى وفرض نظام جديد للاستعمار على البـلدان المستقلة حديثا وخير شـاهد على ذلك العدوان الوحشى الذى يشـنه الامبرياليون الامريكيون ضد الهند الصينية والعدوان الاسرائيلى ضد العرب ٠

ويدعو أنصـار الحروب المحدودة الى استخدام محـدود للاسلحة النووية وبدلا من أن يطالب هؤلاء بتحريم الاسلحة النووية اذا هم يعارضـــون حل الخلافات الدوليــة بوسائل سـلمية ، كمـا يعارضون وقف سـباق التسـلح

---

(٢٦) Henry A. Kissinger, Nuclear Weapons and foreign policy, New York, 1957, p. 136-41.

وهكذا فاننا نجد على سبيل المثال المفكر العســـكرى الامريكى ر · أوزجود R.E. Osgood يصرح في كتابه « الحرب المحدودة » ، انه لموقف اخلاقى غير مسئول اذا اعتقدنا ان النزع الشامل للسلاح أقوم وأفضل من التنظيم المخطط للقوة المسلحة كأداة رشيدة للسياسة · » (٢٧)

لقد بين التاريخ أن الحروب المحدودة كانت دائما مقدمة للحروب العالمية وتعجل من نشوبها · وأصبح خطر وقوع مثل هذا الامر أعظم من أى وقت مضى · وليس معنى هذا ان أى نزاع محلى سيتطور حقا الى نزاع عالمى ، ولكن معنى هذا انه فى ظل الموقف الدولى المتوتر والمتشابك وفى ظل النظام المعقد للالتزامات التعاهدية المتبادلة بين دول المعسكرات المختلفة والتقدم السريع فى التكنولوجيا النووية ، فى ظل هـــذا كله يوجد دائما الخطر الماثل فى أن تتحول الحرب المحدودة الى حرب عالمية وبخاصة حيثما يجرى اســـتخدام الاسلحة النووية ·

وهكذا فاننا نجـــد عددا كبيرا من المفكرين الامبرياليين يدعون الى استخدام وسائل الدمار الجماعى على المستوى المحلى أو العالمى من أجل تحقيق اهداف سياسية · وتتجسد آراؤهم ونظرياتهم فى التصورات الاستراتيجية للامبريالية الامريكية وشركائها ·

وأحد هذه التصورات يتمثل فى استراتيجية « الاستجابة المرنة » التى ظهرت كنتيجة لانتقاد استراتيجية « الانتقام المكثف » أى الاستخدام المباشر المكثف للاسلحة النووية ضد الاهداف الكبرى فى الاتحاد السوفييتى والبلدان الاشـــتراكية الاخرى · وكانت اســـتراتيجية « الانتقام المكثف » ترتكز على اساس اعتبار الاسلحة النووية هى السلاح المطلق مع الاقلال من قيمة الاسلحة التقليدية والتسليم بأن الحرب النووية هى البديل الوحيد الصحيح ·

وهكذا يقول م · تايلور فى كتابه « النفير الغامض » ان الانتقام المكثف قد لا يضـــع قادتنا الا أمام اختيارين أما المبادرة بحرب شـــاملة أو المســـاومة والتراجع · » (٢٨)

واقترح تايلور بدلا من اســـتراتيجية « الانتقام المكثف » اســـتراتيجية « الاستجابة المرنة » أى ان تكون مرنا بالقدر الكافى الذى يســـمح بالتكيف السريع والفورى مع المواقف الجديدة المفاجئة التى لا نتنبأ بها ولا يمكن التنبؤ بها الآن · » (٢٩) بعبارة أخرى ان الاستراتيجية العدوانية للاستجابة المرنة ليست موجهة فقط نحو حرب نووية عالمية ، بل موجهة لخوض غمار حروب

---

(٢٧) Robert E. Osgood, Limited War, The Challenge to American Strategy, Chicago, 1957, p. 283.

(٢٨) M.D. Téylor, The Uncertain trumpet, New York 1960, p. 5.

(٢٩) نفس المرجع — ص ٣٦ ·

محدودة تستخدم كلا من الاسلحة النووية والتقليدية لخدمة السياسة العدوانية للامبريالية الامريكية ٠

وثمة عنصر هام فى استراتيجية « الاستجابة المرنة » وهو « استراتيجية الهجوم» التى يتبعها دعاة الانتقام فى بون وتقضى هذه الاستراتيجية بأن تكون القوات المسلحة لحلف الاطلنطى على أهبة الاستعداد للتحرك سريعا الى اقرب مكان ممكن من حدود البلدان الاشتراكية بحيث يمكن نقل العمليات الحربية فورا الى داخل أراضيها مع الاعتماد على القوات النووية للحلف ٠

وهناك مجموعة ثالثة من المفكرين البورجوازيين يدركون أن أى حرب نووية فيها هلاك الرأسمالية ويؤمن هؤلاء بالتصور القديم اى بأن قول كلوزفيتش بأن الحرب استمرار للسياسة بوسائل عنيفة لم يعد قولا صحيحا بعد أن غيرت الأسلحة النووية وبشكل جذرى العلاقة التقليدية بين الحرب والسياسة ٠

لقد صرح السيناتور جون فولبرايت فى حديث له بأن نظرية كلوزفيتش القائلة بأن الحرب هى ذات السياسة ولكن مطبقة بأساليب أخرى لم تعد نظرية صحيحة ذلك لان ظهور الأسلحة النووية جعلت منها نظرية قديمة بالية ٠ ونجد هذا الرأى أيضا فى كتاب « الاستراتيجية العالمية بقلم ( ر٠ف٠ مارشال كنجستون ــ ماك كلورى الذى يقول « خذ أشهر عبارة له ( يقصد كلوزفيتش ) القائلة بأن الحرب استمرار للسياسة بوسائل اخرى اى بالقوة المسلحة وحاول ان تتأملها فى ضوء الظروف الراهنة لن تجد ما هو أبعد منها عن الصواب بعد ظهور الحرب النووية ٠»(٣٠) وقد ردد هذا الرأى أيضا عالم الاجتماع والمؤرخ الفرنسى ك ٠ ديلماس فى كتابه « الاستراتيجية النووية » (٣١) ونجده أيضا فى عديد من الكتب والمقالات والاحاديث لكتاب عسكريين فى الغرب الرأسمالى ٠

والحجة الاساسية التى يسوقها هؤلاء للبرهنة على أن صيغة كلوزفيتش لم تعد صحيحة هى أن الحرب الحديثة تشكل خطرا على اقتصاد كلا الجانبين ٠ ويلجأ الى هذه الحجة عالم الاقتصاد والاجتماع الالمانى الغربى ف ٠ شترنبرج فى كتابه « الثورة العسكرية والصناعية » ٠ (٣٢)

ليس هناك من ينكر أن حرب الصواريخ النووية تمثل تهديدا مهولا لاقتصاد أى من البلدان المتورطة فيها ٠ بيد أن النتيجة التى انتهى اليها شترنبرج لا يمكن استخلاصها تلقائيا من هذا الرأى ، وهى نتيجة غير مقبولة نظرا لأنه

---

(٣٠) E.J. Kingston-Mc-Cloughry, Global Strategy, New York 1957, p. 248.

(٣١) Claude Delmas, La Strategie Nucléaire, Paris 1963 p. 17-18.

(٣٢) F. Sternberg, Die Militarische und industrielle Revolution, Berli 1957, S. 62.

لم يضع فى اعتباره الجوهر والمحتوى السياسيين والطابع الطبقى لأى حرب مستقبلة أو اقترانها بالسياسة العدوانية لرأس المال الاحتكارى ٠

وهناك حجج اخرى ضـد صـواب صـيغة كلوزفيتش تنبنى كلها على النظرية القائلة بأن الحرب الحديثة قد تجاوزت حدود السـياسة وأنتجت « نقيضا حراريا نوويا » حيث أصبح التهديد بكارثة نووية وسيلة لمنع نشوب أى صراع مسـلح بين النظامين ، وبهذا أصبح التهديد بحرب نووية عامل استقرار وضمانا جديدا للسـلام ٠ وبهذا أصبح للحرب أو للخوف منها فى العصر النووى وظيفة اجتماعية سياسية جديدة وهى صون السـلام ٠ وفى هذا المعنى يقول ل ٠ بون L. Bohn ممثل اتحاد راند الامريكى فى مقال له بعنوان : « سلام مع نزع السلاح ــ أم بدونه ؟ » يقول ان الحرب هى الاداة الاساسية لمنع نشوب الحرب وأن تدمير المخزون من الاسلحة النووية لن يفيد الا فى زيادة خطر نشـوب حرب عالمية جديدة ويجعلها حتمية من الناحية العملية ٠ » (٣٣)

ويعلن رجال الفكر البورجوازى أيضا أن التكنيك العسكرى الحديث قد دمر اتجاه الحرب وجرده من مضمونه السياسى وحرر السلاح من السياسة ٠ مثال ذلك ما يقوله ت ٠ ك ٠ فينليتار : « لم يعد من المستطاع الان التحكم فى العلم التطبيقى للدمار : اذ أصبح يشبه النمر المفترس الذى يجوب طرقات المدينة ٠ » (٣٤) ونجد رأيا مماثلا فى مجموعة المقالات التى صدرت فى ألمانيا الغربية لتؤكد أن نزعة السـيطرة فى تقدم التكنولوجيا قد أدت الى ظهور موقف أصبحت فيه « الاسـلحة العسـكرية تعمل كالمكنسـة السـحرية فى حواديت الجان » أى خرجت عن السياسة وأفلتت من تحكمها ٠ وهكذا لم تعد الحرب استمرارا للسياسة بل صراعا مدمرا لمجرد البقاء ٠ ومن هنا فان نوع السلاح يحدد مفهوم الحرب ٠ « فاذا كانت حروب الماضى استمرارا للسياسة بوسائل أخرى فان السياسة الحديثة ليست سوى اسـتمرار للحرب التى يمكن أن تحتل المسرح فى أى لحظة ٠ » (٣٥)

هناك بطبيعة الحال قدر من الحقيقة فى مثل هذا النوع من التأكيـدات التى يذهب اليها علماء اجتماع وكتاب عسـكريون غربيون على اختـلاف مشاربهم الفلسفية ، ومعتقداتهم السياسية ــ أى بالنسبة لاعترافهم جميعـا بالخطر المهول الذى لا مثيل له لأى حرب نووية تكون أداة السياسة الامبريالية العدوانية ، ولكن يلزم فى نفس الوقت فضح هذه الحجج كحجج زائفة وأحادية الجانب وتتسم بانحياز طبقى شديد ٠

---

(٣٣) Disarmament: its Politics and Economics, Ed. by Seymour Melman, Boston, 1962, p. 50.

(٣٤) Thomas K. Finletter, Power and Policy. US. Foreign policy and Military power in the Hydrogen Age, New York, 1952, p. 342.

(٣٥) Atomkrieg, Bad Godesberg, 1955, S. 35, 36, 40.

أولا ان هؤلاء الكتاب العسكريين وعلماء الاجتماع البورجوازيين عندما يرفضـــــون رأى كلوزفيتش انما يهاجمون فى واقع الامر المبدأ الماركسى اللينينى عن الحرب والسياسة ويحاولون التدليل على أنه لم يعد مبدأ صوابا فى ظل العصر النووى ٠ وهذا أســـلوب جديد فى الهجـــوم على النظريات الماركسية اللينينية بطريقة مستورة ، وغالبا ما يكون خلف قناع سلامى ٠

ثانيا ، تمثل هـــذه الحجج محاولة لاخفاء دور الســـياسة العدوانية للامبريالية الامريكية التى تسعى الى اختراع المزيد من أسلحة الدمار الشامل الجديدة ٠ ان الاسلحة النووية ليست مجرد انتاج لتطور العلوم والتكنولوجيا فحسب ، بل هى قبل كل شيء الناتج والابنة الشائهة للسياسة العسكرية التى تنتهجها الرأسمالية الاحتكارية فى محاولتها للسيطرة على العالم وتلتزم بها كموجه لها فى النشاط السياسي والعسكرى ٠ انها لا ترفض الســياسة العدوانية والحرب كوســـيلة لبلوغ أهداف ســـياسية كما لا ترفض انتاج واستعمال الاسلحة النووية ٠ بل على العكس فان هذه الاســـلحة الرهيبة ( بالاضافة الى الاسلحة التقليدية ) تشـكل الاســاس للســياسة العدوانية واستراتيجية الامبريالية الامريكية وشركائها فى حلف الاطلنطى والاحلاف الاخرى التى توجه سياستها ضد البلدان الاشتراكية ٠ لهذا تطالعنا صحيفة حلف الاطلنطى « المجلة العسكرية العامة » لسان حال أعتى الفئات الامبريالية عدوانية وسياستها واستراتيجيتها النووية ، تطالعنا هذه الصحيفة بتصريح يقضى بأنه فى الصراع ضد الشيوعية يلزم استخدام أشد الاجراءات وأقصاها ، بما فى ذلك خوض غمار حرب عالمية مهما كانت رهيبة مهولة ٠

القسمة الثالثة للحجج السالفة التى يســوقها علماء الاجتماع والكتاب العسكريون البورجوازيون والتى تجعل من هذه الحجج أمرا غير مقبول عقلا هى اخفاقها فى الفصل بين قضيتين مترابطتين ومتمايزتين فى نفس الوقت ، والمزج بينهما واعتبارهما قضـــية واحدة ٠ وتعنى بهما قضـــية الجوهر ، أو المحتوى الســـياسى والطابع الطبقى للحرب النووية والذى يدخل فى نطاق النظرية العســكرية ، والقضية الثانية عما اذا كان مقبولا خوض غمار حرب نووية لتكون هذه الحرب أداة ســياسية ، وتدخل هذه القضـــية فى نطاق التطبيق العملى للسياسة ٠ ان الجمع بين هاتين القضيتين رغم اختلاف الجوانب الاساسية لكل منهما يعنى أن علماء الاجتماع والسياسة والمفكرين العسكريين فى البلدان الرأسمالية يلتزمون صراحة بنظرة طبقية ضيقة ، وهذا دليل أيضا على الانحياز المنهجي والفلسفى والاخفاق فى منهج وادراك العلاقة المعقدة بين الحرب والسياسة ٠

ان علماء الاجتماع العسكريين البورجوازيين يفصلون عن عمد أو غباء ، بين الحرب وبين السياسة العدوانية للامبريالية ، هذا على الرغم من أن كليهما مرتبط ارتباطا وثيقا ٠ ويحاول هؤلاء تصوير حرب المســـتقبل بأنها كارثة طبيعية فى صورة صراع تكنولوجى بين الالات ، وليس له أى علاقة بالسياسة العدوانية للامبريالية ، أو بأى اهداف سياسية على الاطلاق ٠ ومصداقا لهـذا

نجد عالم الاجتماع الالمانى الغربى ماتفلت يكتب فى كتـابه « السـياسة فى ظل القنبلة » عن الحرب التى تستخدم احدث الاسـلحة ككارثة طبيعية مثـل الانفجارات الشمسية والانفجارات البركانية ٠٠ الخ ٠ ويقول « ان الانفجارات الذرية كوارث تنطلق بمجرد الضـغط فوق زرار » ٠ (٣٦) ولا يعتبر الحرب الذرية صراعا بين بشر ٠

وهكذا أمكن تضليل الجماهير بشأن الجوهر الحقيقى والمحتوى السياسى والطابع الطبقى لحرب المستقبل المحتملة ، وبهذا أيضـا اصبح الناس عزلا معنويا وسـياسيا واختلط فكرهم فلم يعد بوسـعهم تبين الطريق الى أين يسيرون وكيف يسلكون ٠ ويحاول رجال الفكر غرس اعتقاد فى نفوسهم بأنه عند اندلاع حرب عالمية فان القوات المسلحة وسكان بلدان حلف الاطلنطى لن يخوضوا الحرب دفاعا عن مصـالح سـياسية وتطلعات طبقية لرأس المال الاحتكارى ، بل دفاعا عن حياتهم وابتغاء انقاذ انفسهم من الفناء ، والهـدف هو تبرئة المعتدين من كل مسئولية عن الاعداد وشن مثل هذه الكارثة النووية ٠

وهكذا يتضح لنا أن الماركسيين اللينينيين يخوضون صراعا على جبهتين بشأن قضية جوهر السياسة والحرب ٠ انهم يناضلون ضد النهج الدجماطيقى وضد المراجعة بكل صورها وضد المحاولات التى تستهدف تقديس النظريات كشىء مطلق وتحولها الى تجريدات جامدة مقطوعة الصلة بظروف الواقع الذى يتغير دائما وأبدا ٠ وهم فى نفس الوقت يعارضون محاولات التشـكيك فى مبدأ العلاقة بين السـياسة والحرب ، وهو المبدأ الذى أرسى أسس وقواعد البحث العلمى فى هذا الموضوع ولم يفقد أى عنصر من عناصر صحته وسلامته حتى اليوم ٠

## الحرب النووية أبشع جريمة ضد الانسانية :

يرى الماركسيون اللينينيون ، بناء على المنهج المادى الجدلى فى البحث ، ان الحرب النووية نوع خاص من الحروب فى جوهرها ومحتـواها وطابعهـا ووسائل الصراع المسلح المستخدمة ونتائجها المحتملة ٠

ان أى حرب نووية سوف تشنها الامبريالية ستكون مختلفة كيفيا عن حروب الماضى أو الحروب الحديثة التى تستخدم الاسلحة التقليدية ، وسـوف يكون اختلافها أساسا وقبل كل شىء فى محتواها السـياسى المحدد وأهدافها السياسية وطابعها الطبقى ٠ ان مثل هذه الحرب لن تحسم قضـايا سياسية فردية أو محدودة ، بل قضـية ذات أهمية تاريخية تؤثر على مصير البشرية كلها ٠

وثمة وجه اختلاف آخر يمايز بين الحرب النووية والحرب التقليدية هو

(٣٦) Rudolf Mattfeldt, Politik im Schatten der Bombe, Mùnich-Wien, 1963, Sx13.

الوسائل المستخدمة من أجل تحقيق الاهداف السياسية . بينما كان يجرى تحقيق الهدف السياسي فى الحرب التقليدية عن طريق تدمير قوات العدو المسلحة فان تحقيق الهدف في الحرب النووية سيتضمن تدمير القوات المسلحة للخصم وقدراته النووية عن طريق تدميره اقتصاديا .

وسوف تختلف الحرب النووية عن الحروب السابقة من حيث وسائل وصورة الصراع المسلح . انها ستتضمن يقينا استخدام الصواريخ النووية وسوف يدخل فى مداراتها المدمرة عديد من البلدان والامم وبهذا تصبح صراعا عالميا .

وتمثل الحرب النووية ، على خلاف الحرب التقليدية ، تهديدا خطير الشأن نظرا لعواقبها الاجتماعية والبيولوجية والنفسية والاخلاقية . وكما جاء فى الوثيقة الاساسية للاجتماع الدولى للاحزاب الشيوعية والعمالية ( موسكو ١٩٦٩ ) فأن اى حرب نووية ستودى بحياة ملايين البشر ودمار بلدان بأكملها دمارا شاملا ، ولهذا السبب فان النضال ضد خطر الحرب ، خطر نشوب حرب عالمية نووية ، سيظل عنصرا اساسيا للجهود المشتركة للقوى المعادية للامبريالية .

ان أى حرب نووية ، اذا وقعت لن تكون الا أمرا يخدم سياسة مجرمة مجنونة للامبريالية تستهدف دمار البلدان الاشتراكية واستعادة المراكز التى فقدتها الرأسمالية .

ويتخذ الاتحاد السوفييتي والبلدان الاشتراكية موقفا مناقضا لموقف البلدان الامبريالية اذ تعارض الحرب النووية وتعمل من أجل تحريم الاسلحة النووية . ولكن اذ أكره الامبرياليون المعسكر الاشتراكى على الدخول فى حرب فان مثل هذه الحرب ستكون استمرارا لسياسة هذا المعسكر العادلة والدفاعية والتحريرية ، سوف تكون عملا عادلا ومشروعا لمواجهة العدوان ، وستكون ايضا حقا طبيعيا وواجبا مقدسا تلتزم به الانسانية المتقدمة لتدمير ألد اعدائها ومصدر الحروب المدمرة ـ أعنى الامبريالية .

ان الحرب العالمية ليست قدرا محتوما ، اذيمكن تلافي وقوعها . ويوجدفى العالم الآن قوى اجتماعية سياسية قوية قادرة على منع نشوب حرب نووية وعزل الاوساط العسكرية واحباط سياستها العدوانية . هذه القوى هى النظام الاشتراكي العالمى والحركات الشيوعية والعمالية وحركات التحرر الوطنى والملايين فى جميع انحاء العالم ممن يعارضون بقوة الحرب والعاملون في صفوف حركة السلام . وهؤلاء جميعا يملكون الوسائل المادية والمعنوية والمصادر الكفيلة بعزل تجار الحروب وتجنب صراع نووى .

ان العلماء والمثقفين فى كل بلدان العالم عليهم دور هام وعظيم فى النضال من اجل منع نشوب كارثة نووية . انهم يتحملون مسئولية اخلاقية واجتماعية هائلة تجاه سير الانسانية .

ان العلماء الذين اخترعوا الاسلحة النووية وخير ممثلى المهن الاخرى

يدركون جميعا القدرة التدميرية المهولة لهذه الاسلحة . ولهذا يتعين عليهم أن يلقوا بكل ثقلهم لمعارضة مثيرى الحروب .

واذا كان الماركسيون اللينينيون يعارضون بقوة الحرب النووية الا انهم لا يعارضون كل انواع الحروب . انهم يساندون الحروب العادلة الثورية التى تحمل فيها الجماهير السلاح للكفاح من أجل حريتها واستقلالها ومن اجل الاشتراكية – ومثل هذه الحروب حروب التحرر الوطنى الناجمة عن التناقضات بين السلطات الامبريالية وبين شعوب البلدان المستعمرة والتابعة ، وكذلك الحروب الاهلية التى تثار نتيجة التطاحن بين البورجوازية والبروليتاريا . كل هذه الحروب هى حروب عادلة تحريرية واستمرار وأداة للسياسة الثورية التى تستهدف التحرر الوطنى والاجتماعى والطبقى .

وقد نص برنامج الحزب الشيوعى السوفييتى على ان الحزب والشعب السوفييتى سيواصلان معارضتهما لكل أنواع الحروب التوسعية بما فى ذلك الحروب بين البلدان الرأسمالية ، وكذلك الحروب المحلية التى تستهدف سحق حركات التحرر الوطنى ، وأن واجب الحزب والشعب هو مساندة النضال المقدس للشعوب المقهورة وحروبها العادلة ضد الامبريالية وابتغاء التحرر .

وهنا يختلف الماركسيون اللينينيون اختلافا أساسيا عن انصار السلام الذين يعارضون كل أنواع الحروب ، بما فى ذلك الحروب العادلة والمشروعة . اذ ان انصار السلام يحاولون ايجاد « نماذج » للسلام الدائم . مثال ذلك البروفيسور جالتونج ، مدير معهد أسلو الدولى للدراسات عن السلام يحصى خمسة وثلاثين مشروعا لهذه النماذج – سلام قائم على « الردع النووى » ، واقامة دولة عالمية والطريق الدينى الى السلام وهكذا .. الخ . وأضاف جالتونج الى هذا الخليط من مشروعات السلام مشروعه الخاص الذى أطلق عليه اسم نظرية الانتروبى Entropy ( عامل نفاد الطاقة ) . وجوهر نظريته أنه مع تقدم الروابط والعلاقات السياسية والاقتصادية والتكنولوجية والثقافية والعلمية وغيرها ومع ازدياد تعقدها وتشابكها فان التباين الحاد بين النظامين الاجتماعيين المتباعدين سيقل تدريجيا ويتلاشى أو يتداخل ويفضى رويدا رويدا الى سلام عالمى . (٣٧)

ان ايديولوجية أنصار السلام من هذا الطراز ايديولوجية غير علمية اذ تخفق فى اكتشاف المصادر الحقيقية للحرب وجوهرها الطبقى ، كما انها تضلل الجماهير بشأن كيفية تحقيق سلام عالمى دائم ، وتنزع عنهم سلاحهم الذى يواجهون به تهديد الامبريالية بالحرب . ويرفض الماركسيون اللينينيون نزعة السلام هذه ويساندون اولئك الذين يكابدون من اجل اقرار سلام اساسه معارضة الحروب الامبريالية .

ان علاقات الاتحاد السوفييتى ببلدان العالم الرأسمالى اساسها مبدأ

---

(٣٧) A. Buchholz Die grosse transformation, Stuttgart, 1968, S. 112

لينين عن التعايش السلمي بين البلدان دون اعتبار لنظمها الاجتماعية · ويعني هذا المبدأ حسم النزاعات الدولية بوسائل سلمية دون اللجوء الى القوة المسلحة · وقد اشار لينين فور انتهاء الحرب العالمية الاولى الى ان الحيلولة دون نشوب حرب عالمية جديدة قد تكون أشد تدميرا يجب ان تكون « حجر الزاوية لكل سياسة تنتهجها كل بلدان العالم وتحظى اليوم قضية منع نشوب حرب نووية بأهتمام أكبر وأصبحت محور السياسة العالمية · ان الحاجة الى دعم مبدأ التعايش السلمي بين الدول ذات النظم الاجتماعية المختلفة تشكل صورة من صور المعارضة الحاسمة لقوى الامبريالية العدوانية وتنقذ البشرية من حرب عالمية جديدة طبقا لما أوضحه الحزب الشيوعي السوفييتي في مؤتمره الرابع والعشرين ·· وجدير بالذكر أيضا ان اقامة نظام للامن الاوروبي الجماعي ولارجاء العالم المختلفة ستشكل مساهمة هائلة لقضية السلام · ·

ان الحزب الشيوعي السوفييتي في كل جهوده من أجل بناء ا شيوعية ودعم قدراته الدفاعية عن الاتحاد السوفييتي انما يسترشد بأفكار لينين العظيمة ، ويعمل دون كلل من أجل وضعها موضع التطبيق وحماية تراث لينين ومعارضة كل محاولات تشويهه · ان السياسة اللينينية للحزب الشيوعي السوفييتي وللاحزاب الشقيقة عامل هام واساسي من اجل السلام والتقدم الاجتماعي وأساس قوي لخلق الظروف المواتية لبناء الاشتراكية والشيوعية وتطور حركة التحرر والحركات الثورية ·

وتسود هذه السياسة الروح الامية والاحساس بالمسئولية تجاه مصير الانسانية ونجاح الحركة الشيوعية في نضالها ضد الامبريالية ، ومن أجل تعاون كل الاحزاب الشيوعية والعمالية ووحدة القوى المعادية للامبريالية ، وخير شاهد على هذا اجتماع الاحزاب الشيوعية والعمالية المنعقد في موسكو عام ١٩٦٩ · اذ ان وثائق هذا الاجتماع تعميم وتقنين لخبرة الحركة الشيوعية على مدى الاعوام الطويلة السابقة ، وهي ايضا تحليل عميق للتطور العالمي المعاصر ، وبرنامج نضالي من أجل التحرر الوطني والاجتماعي ومن أجل السلام والديمقراطية الاشتراكية ·

ويبذل الاتحاد السوفييتي والبلدان الاشتراكية الاخرى جهودا دؤوبة ومتصلة لضمان نمو القدرة الدفاعية للدول الاشتراكية ـ وضمان ان القوات المسلحة في حلف وارسو تمتلك احدث الاسلحة والمعدات وهذه الجهود هي استمرار لسياسة السلام وتعبير عنها ·

ولقد أكد قرار المؤتمر الرابع والعشرين للحزب الشيوعي السوفييتي بشأن تقرير اللجنة المركزية انه « نتيجة للجهود الجماعية واتخاذ عدد من الاجراءات في السنوات الاخيرة فان المنظمة العسكرية لحلف وارسو قد تطورت وتحسنت كثيرا · ان القوات المسلحة للقوات المتحالفة في أقصى حالات الاستعداد وقادرة على الوفاء بمهامها السلامية تجاه الشعوب الشقيقة · وفي نفس الوقت فان القوات المسلحة لحلف وارسو تمثل درعا قويا وحصنا منيعا لكل الشعوب المحبة للحرية ··

●

# الفصل الخامس

# الاحتكارات والحرب

الملكية الخاصة هى العلة الاساسية لاغلب الحروب التى نشبت بين الامم والطبقات على مدى تاريخ المجتمع البشرى · ولقد كانت الطبقات المالكة فى مراحل محددة من التطور التاريخى ـ ملاك العبيد ، والاقطاعيون ثم البورجوازية اخيرا ـ هى دائما مثيرة الحروب · ولقد كان الاستيلاء على الملكية ـ العبيد والاراضى ومصادر الثروات الطبيعية والقيم المصنعة ·· الخ ـ هو الهدف الرئيسى للحروب · وليست حروب القرن العشرين استثناء من هذه القاعدة طالما ان علتها الاساسية هى الاحتكار ورأسمال الدولة الاحتكارى ·

ولقد حدد لينين السياسة بأنها التعبير المركز للاقتصاد · ويمثل اهتمام الاحتكارات الكبرى فى سباق التسلح الاساس الاقتصادى للسياسة العدوانية للامبريالية · اذ أن انتاج الاسلحة يضمن للاحتكارات عائدا من الارباح لا ينقطع ويعجل من تطبيق التكنولوجيا الجديدة ويضاعف الانتاج ، وهو ما من شأنه ان يعطى دفعة مؤقتة للنمو الاقتصادى ويرجىء الازمات الناجمة عن فائض الانتاج · وتأكد الاثر الواضح لسباق التسلح على الاقتصاد الرأسمالى اثناء حروب الولايات المتحدة الامريكية فى كوريا وفيتنام ·

وتشكل طلبات الحكومات على السلاح شكلا من اشكال تدخل الدولة فى الاقتصاد ، وهو أمر أبعد ما يكون عن أن يثير قلق الاحتكارات ، بل يلائم مصالحها فى الابقاء على النظام الرأسمالى ·

ولقد وصل انتاج السلاح الى ذروة لم يسبق لها مثيل فى الولايات المتحدة قلعة الرأسمالية الاحتكارية ، وتشهد زيادة مطردة فى الانفاق الحكومى من أجل الاستعدادات للحرب حتى بلغت قيمة الانفاق العسكرى للسنة المالية ١٩٦٨ / ١٩٦٩ ما قيمته ٨١٠٠٠ مليون دولار مقابل ٤٦٠٠٠ مليون دولار لعام ١٩٥٩ / ١٩٦٠ واذا وضعنا فى الاعتبار أوجه الانفاق التكميلية فان

جملة النفقات العســـكرية خلال العام المالى ١٩٦٨ / ١٩٦٩ تبلغ ١١٢٠٠٠ مليون دولار من بين جملة ميزانية الدولة التى تبلغ ١٨٤٠٠٠ مليون دولار . ويعمل فى القطاع الحربى – أى فى القوات المسلحه وفى الصناعات الحربية – ما لا يقل عن تسعة ملايين نســـمة أو احدى عشرة فى المائة من جملة القوة العاملة بالبلاد .

ويكفينا هنا عرض رقمين لبيان مدى التناقض والتباين بين هذه الارقام المخصصة للحرب ضد الفقر داخل الولايات المتحدة الامريكية .

ان ٢٠٠٠٠ مليون دولار هى كل مايمكن للحكومة الامريكية أن تنفقه على ٣٢ مليون فقير . وثمة مشكلات أخرى هامة لاتلقى سوى هذا القدر الضئيل من الاهتمام . مثال ذلك انه عام ١٩٦٧ تم انفاق ٢٠٠٠ مليون دولار للاســـكان و ٥٢٠٠٠ مليون دولار للتعليم .

ولكن الاحتكارات الامريكية لاتقصر انتاجها من الســلاح وفاء لاحتياجات السوق المحلية فحسب . فهى غير قانعة بما لديها من قواعد عســكرية منتشرة فى جميع ارجاء العالم ، ٤٢٩ قاعدة ضخمة وقرابة ٣٠٠٠ قاعدة صغيرة ، وانما تشرع فى انتاج صفقات ضخـــمة للبدان « المواليه » لها . انها تزود محمياتها واصدقاءها « بأسلحة » مجانية لحماية مصالحها فى الامبراطورية الامريكيـــة والنظـــام الرأســـمالى . ولقـــد قدمت الولايات المتحـــدة الامريكية مساعدات عســـكرية الى البلدان الأخرى منـــذ عام ١٩٥٠ تصل الى ماقيمته ٣٨٠٠٠ مليون دولار . أى ان الولايات المتحدة ، بنص عبارة السيناتور مكارثى أصبحت « المورد الاساسى للاسلحه التقليدية فى كل أنحاء العالم » (١)

ولكى تزيد الاحتكارات من نفوذها وتأثيرها على الحكومة فانها تحـــاول خلق علاقات شخصية وثيقة مع وزارة الدفاع عن طريق تقديم وظـائف ادارية للمحالين الى الاســـتيداع وبخاصة الجنرالات منهم . وثمة بحث اجـــرى عام ١٩٥٧ يبين أن مائة مؤسسة انتاجية كبيرة والتى حصلت على ٧٥ فى المائة من جملة طلبات السلاح قد وظفت مالا يقل عن ١٤٠٠ ضابط ســـابق من بينهم ٢٦١ جنرالا . وتشير آخر البيانات المتاحة عن دور الاحتكارات فى انتاج السلاح عام ١٩٦٧ أن مائة مؤسسة هى كبرى المؤسسات من بين عشرات الآلاف ، عهد اليها البنتاجون بانتاج ٧٠ فى المائة من كل الطلبات .

ان علماء الاجتماع والاقتصـــاد البورجوازيين الذين يعملون فى خدمـة احتكارات صناعة الســلاح ، وكذلك العســـكريين يقدمون كل أنواع الحجج الكاذبة تبريرا لسباق التسليح والعدوان الامبريالى والحرب .

فمنذ أن قدم كينز نظريته عن « الرأسمالية الموجهة Controlled Capitalism فقدم عديد من الاقتصاديين البورجوازيين ضروبا شتى من الحجج تأييدا لآرائه .

---

(١) E. McCarthy, The limits of power, Americas'role in the world, New York, 1967, p. 32.

انهم يطرحون نظريته مضافا اليها تعديلاتهم الطفيفه التى تستهدف خدمة النظرية ذاتها على الرغم من انتقادهم لكينز نفسه او انتقادهم لبعضهم بعضا وابتكار كل انواع الحيل اللفظية والحجج الزائفة دفاعا عن النزعة العسكرية ٠

وكانوا جميعا بعد الحرب العالمية الثانية على وفاق فى اصطناع تيار من الحجج التي تمتدح الانفاق العسكرى مؤكدين أنه يحفز التقدم الاقتصادى ويحول دون أزمات فائض الانتاج وضمان أكيد للرخاء الاقتصادى ويؤكد العديد من رجالات الاقتصاد فى أمريكا وأوروبا الغربية أن أى خفض فى الانفاق العسكرى ، ناهيك عن نزع السلاح الكامل أو الجزئى ، قديفضى الى كارثة اقتصادية ٠

وكم هو يسير علينا تبين مصدر الالهام لهؤلاء الاقتصاديين وغيرهم من مفكرى النزعة العسكرية ٠ اذ يكفينا أن نطالع الارقام لنرى من المستفيد الذى تتخم جيوبه نتيجة انتاج السلاح وأثارة الحروب ويكفينا الاشارة الى ان الحد الادنى فى تقدير الارباح الصافية التى حصلت عليها مؤسسات صناعة السلاح على مدى الخمسة عشر عاما الاخيرة هو ١٠٠٫٠٠٠ مليون دولار ٠

ان دماء الفيتناميين والجنود الامريكيين الذين لقوا مصرعهم فى الحرب الاستعمارية ضد فيتنام قد حققت أرباحا خيالية لرجال الاعمال ٠ وكل تصعيد فى الحرب هناك كان يقابله تصعيد فى الارباح العائدة الى كل المرتبطين برأس مال الصناعات العسكرية التى انتشرت كسرطان رهيب فى الكيان الاجتماعى للولايات المتحدة الامريكية ٠

ان بعض المؤسسات الانتاجية الامريكية ــ مثل مؤسسات مارتان ــ مارييتا ، وطيران أمريكا الشمالية ، ولوكهيد وبوينج يعتمد فى وجوده على الطلبات العسكرية فقط ٠ ويحقق الجنرالات وكبار الضباط مزيدا من الرواتب والمكافآت المرتفعة لانفسهم ٠ مثال ذلك أنه فى عام ١٩٦٥ حصل الجنرالات على زيادة سنوية مقدارها ٢٠٠٠ دولار ، ومن هم برتبة عقيد حصلوا على زيادة سنوية ٧٠٠ دولار ، وهكذا ٠ بيد أن هذه المبالغ أمور تافهة بالقياس الى مايحصل عليه الجيش لممارسة « بعض التأثير » لضمان طلبات لصفقات عسكرية ٠

وليس هناك من يجهل دور رجال الصناعات الحربية فى اثارة حربين عالميتين ٠ وهناك العديد من الكتابات التى تحدثنا عن أمثلة كثيرة ، منها بازيل زخاروف الذى تحول عند نهاية القرن الماضى من مالك لحانة صغيرة فى القسطنطينية الى تاجر سلاح كبير ٠ وقام بتمويل كلا المعسكرين المتخاصمين وساعد على اثارة العديد من الصراعات العسكرية وكانت مكافأته نظير « خدماته » أوسمة بريطانية ووسام الشرف الفرنسى « اللجيون دونير » وغير ذلك مما يصل حصره الى ٢٩٦ ميدالية ووساما من احدى وثلاثين دولة

واذا قارنا ملوك السلاح فى الماضى من أمثال زاخاروف وكروب بملوك الصواريخ النووية الحديثة لبدوا أقزاما من حيث مدى ومستوى نشاطهم ٠ واذا

كان الملايين لقوا مصرعهم في الماضي لكي ترفل حفنة في نعيم الرفاهية فان أمثال زخاروف وكروب المعاصرين يعدون العدة لمصرع مئات الملايين ٠

واذا كنا نؤكد هنا الدور الخطير لمؤسسات صـــناعة الاســـلحة فان من الضروري في نفس الوقت ان ندرك الطبيعـة العدوانية العنيفـة لرأس المـال الاحتكاري في مجموعه ٠ ان المؤسسة العسكرية للدولة هي السلاح الذي تقبض عليه كل البورجوازية الاحتكارية ٠ وعـــلى الرغم من ان جماعـــة صغيرة من الرأسماليين الاحتكاريين هي المستفيدة بشكل مباشر من تغليب الطابع العسكري فان مدى ومستوى هذا الطابع العسكري وبرنامج تسليح الدولة والسياسـة العسكرية لها كلها أمور تمليها المصالح الاستراتيجية العسكرية والسياسيـة لرأس المال الاحتكاري ككل ٠ ان احتكارات صناعة الســلاح تمثل فقط أكثر القوى الرجعية المغامرة في البورجوازية الاحتكارية المعاصرة ٠

لقد نفذت النزعة العسكرية الى أعماق العلم الامريكي وتغلغت فيه ٠ مثال ذلك أنه في عام ١٩٦٨ كان ثلثا ميزانية البحث العلمي تقدر ب ٢٨٠٠٠ مليون دولار مخصصين للانفاق على البحث العسكري ، هـــذا فضـــلا عن أن الغالبية الساحقة من جيش العلماء والمهندسين اكثر من نصف مليون ، تعمل في مجال بحوث ترتبط بشكل أو باخر بصناعة السلاح ٠ وذكر ج٠٠ ريدجواى الصحفي الامريكي أن بحوث الادارات العسكرية تتم أيضا داخل الجامعات والكليات في الولايات المتحدة الامريكية ٠ وهناك ست عشرة مؤسسة للبحث العلمي تضـــم العديد من موظفي الحكومة السابقين تعمل بعقود مبرمة لصـــالح البنتاجون ٠ ويقدم رأس المال الاحتكاري الامريكي مرتبات عالية جدا ليجذب اعدادا غفيرة من العلماء والمهندسين ويغريهم بترك بلادهم ، كل هذا من أجل استغلال معلوماتهم ومواهبهم من أجل تطوير الاسلحة ٠

وجدير بالذكر أن العسكريين الامريكيين يمتدحون أنفســـهم لان المعامل البكتريولوجية السرية للغاية قد أنشأت وطورت ميكروبات فتاكة قادرة عـــلى افناء سكان القارات جميعا في لحظات معدودات ٠ هـــذا عـــلى الرغم من خفض نفقات الانفاق على الحرب ضد الامراض المنتشرة ٠ مثال ذلك أن ميزانية معهـــد الصحة القومي خفضت في عام ١٩٦٢ ، ســـتين مليون دولار منها ١٥ الى ٢٠ مليون دولار تم خصمها من برنامج أبحاث السرطان ٠ وذكرت صحيفة نيويورك تايمز أن مـــن بين ٤٥٠٫٠٠٠ حالة سرطان ســـنوية يمـــوت ٧٥٫٠٠٠ أكثر من النسبة المحتملة لو أمكن اعتماد الاموال اللازمة للحرب ضد هذا المرض ٠ (٢)

ويعكف الكيميائيون الامريكيون على تحسين واستكمال تكنولوجيا القتل الجماعي بالغاز وغيره من المواد السامة ٠ وهناك مصانع مخصصة لانتاج غـــاز الاعصاب لحساب القوات المسلحة في الولايات المتحدة الامريكية ٠

---

(٢) The New York Times, October 14, 1965 and Nov. 4, 1961.

وبديهى أن الولايات المتحدة الامريكية تواصل انفاق مقادير هائلة ـ الاف ملايين الدولارات سنويا ـ لتطوير الاسلحة النووية والصواريخ ٠

ومع هذا فان رجال الصناعات الحربية لايزالون غير قانعين بالارباح الخيالية ، وتطالب الصحافة الامريكية التى تسيطر عليها النزعة العسكرية بضرورة تخصيص جانب أكثر فأكثر من أموال دافعى الضرائب لتجد طريقها الى احتكارات صناعة ٠ وعرضت صحيفة The U.S. News and World Report. قائمة بأسماء سبعة أنواع من الاسلحة أزمعت الحكومة الامريكية الغاءها على الرغم من احتجاج القوات المسلحة ، وان كانت بسبيل تطويرها ٠ وكانت هناك ثلاثة أنواع أخرى من الاسلحة ارجىء انتاجها لحين تعليمات جديدة من الحكومة ٠ واستطردت الصحيفة فى حصر اربعة عشر سلاحا هاما للغاية لم تكن الحكومة توليها اهتماما كافيا ٠ وتضمنت هذه الاسلحة صواريخ البلازما وأجهزة حربية قادرة على احداث زلازل أرضية وأمواج بحرية ذات مد رهيب وسحب كثيفة طويلة المدى ، وأشعة الموت وقواعد عسكرية فوق سطح القمر وغواصات حاملة للطائرات ، وقنابل نيوتونية وقنابل فضائية قادرة على احراق مدينة بأكملها من فوق ارتفاع ٢٥٠ ميلا ٠

واذا كان نصيب الاسد من جملة الاموال التى تنفقها وزارة الدفاع الامريكية على الابحاث العسكرية يذهب من أجل تطوير تكنولوجيا الموت والدمار فان رجال الاقتصاد وعلماء الاجتماع يحصلون على نصيب كبير ٠ ذلك لان أبحاث العلوم الاجتماعية تستهدف تشريط الرأى العام ليتعاطف ويؤيد النزعة العسكرية وسباق التسلح ومساندة الصراعات العسكرية والنزعات العنصرية ، والتأكيد بان الحرب ضرورية ضرورة الهواء الذى نتنفسه وانها حتمية مثل ظواهر الطقس ٠

ويتضح لنا من أحاديث أجريت مع أساتذة جامعات ومدرسين وباحثين علميين فى معاهد مختلفة ومؤسسات ، أن كثيرا من برامج أبحاثهم يمولها بالكامل البنتاجون ٠

وتفيض الاموال لتصب فى جيوب علماء الاقتصاد البورجوازيين وعلماء الاجتماع والمؤرخين والفلاسفة والجغرافيين ، ولاتأتيهم الاموال عبر قنوات عسكرية خالصة ، بل تأتيهم أيضا عن طريق هيئة الاستعلامات الامريكية ووكالة المخابرات المركزية وعديد من المؤسسات التى انشأها وينفق عليها أصحاب الملايين من أمثال روكفلر وفورد وغيرهما ٠

وفى ربيع ١٩٦٦ ، عرفت الصحافة معلومات خاصة عن عقود تم ابرامها بين وكالة المخابرات الامريكية وبين الجامعات لتمويل « برامج الابحاث » ٠ وثمة تعاقد سرى بين المخابرات المركزية وجامعة ميتشجان تقوم بمقتضاه الجامعة بتدريب عملاء المخابرات للعمل فى فيتنام ٠ وحدث أن اشتكى بعض علماء الانثروبولوجيا الامريكيين العاملين بالخارج من أنهم اجبروا على توقيع عقود لابلاغ وكالة المخابرات المركزية بنتائج أبحاثهم ٠ وهناك أيضا عقود سرية مبرمة بين جامعة ستانفورد وغيرها وبين المخابرات المركزية ٠ وأدت هذه الاكتشافات

الى حدوث عاصفة من الاحتجاج بين الطلاب والمدنيين المخلصين . واضطر مركز الأبحاث الدولى فى جامعة ماساتشوسيت الى اعلان أنه بصدد انهاء عقوده مع المخابرات المركزية ابتداء من يونيو ١٩٦٦ ، بما فى ذلك عقوده الخاصة بالدراسات الشيوعية .

وثمة جيش ضخم من ممثلى العلوم الاجتماعية فى دور النشر والصحف والاذاعة والتليفزيون والسينما يعمل لخدمة صناعة السلاح . وهذا الوضع لاتنفرد به الولايات المتحدة الامريكية ، بل نجد مثيلا له فى البلدان الرأسمالية الصناعية الاخرى ، ولهذا نشهد عديدا من الباحثين ممن يتقاضون أجورا سخية يبذلون جهدهم لاقناع الجماهير بأن الانفاق العسكرى ضرورة حيوية ويلزم زيادته .

وليس غريبا أن نرى المرتزقة من عملاء الاحتكارات والقوات المسلحة مستعدين دائما لاقناع الجماهير بأن ارتفاع مستوى الانفاق العسكرى قد ساعد على تجنب وقوع الازمات الاقتصادية الدورية . انهم يغفلون تماما الحاجة الى دراسة التأثير المزدوج للسوق المدنى والسوق الحربى فى ارتباطه الوثيق بالتغيرات التى تطرأ على فائض القيمة وأثر فائض الارباح على دورة الانتاج ووقوع الازمات . واذا هؤلاء بدلا من القيام بتحليل شامل يقنعون بمزاعم نزقة جريئة تقول بأن السوق الحربى يفيد كعامل استقرار اذا ماظل كما هو دون ان يتأثر بالازمات العامة ، بينما ينكمش سوق الانتاج المدنى ويغفل هؤلاء تماما حقيقة أنه لو لم يتأثر السوق الحربى فان الاتجاه العام للانتاج الرأسمالى يظل كما هو ، أى الاتجاه الى أن يظل الطلب الفعلى دون العرض ، وهو مامن شأنه ان يؤدى على الفور الى وقوع أزمات نتيجة فائض الانتاج .

ولنحاول ان نلقى نظرة الى الميكانيزم الداخلى للطريقة التى يؤثر بها الاستهلاك العسكرى على تطور الاقتصاد ككل فى التطبيق العملى . اذا حدث أن زاد الانتاج الحربى المخصص لامداد القوات المسلحة عاما بعد عام بمعدل أعلى من معدل الانتاج المخصص للاستهلاك المدنى واتسع السوق الحربى بسرعة أكبر من السوق المدنى فان الانتاج العسكرى الرأسمالى يجذب اليه فى هذه الحالة المزيد من استثمارات رأس المال . ويمثل فائض القيمة الناجم عن صناعة السلاح جزءا صغيرا من الاستثمارات ، بينما يمثل فائض القيمة للصناعات المدنية حجما كبيرا . ولايقتصر الامر على استثمار رأس المال فى صناعة السلاح بدلا من الصناعات الاخرى ، بل قد يحدث أن يتحول رأس المال المستثمر بالفعل فى الصناعات الاخرى الى مجال الانتاج الحربى كلما توفر طلب كبير على الاسلحة الجديدة وزادت القوات المسلحة زيادة كبيرة واستلزم الامر مضاعفة المخزون من الاسلحة أو بسبب نشوب حرب .

يحدث فى مثل هذه الحالة ان يكون الانتاج والانفاق العسكريان عامل حفز مؤقتا لتطور الانتاج الرأسمالى ، بل قد يغيران دورة الانتاج ويخلقان مظهر رخاء زائف .

ومع هذا فمن الواضح تماما أن السوق العسكرى لايمكنه الاستمرار فى التطور بمعدلات أعلى من السوق المدنى الى أى مدى وبصورة مطلقة . ويحدث

هذا لسبب بسيط وهو أنه مع الوقت لايؤدى هذا الوضع الى اضعاف ، بل الى توقف كامل لتراكم رأس المال المستثمر لتطوير قوى الانتاج • فحينما يزيد الطلب العسكرى الى مستوى عال فانه قد يؤدى الى خفض تراكم رأس المال مما يؤثر بالتالى على المجتمع ككل •

ان رأس المال المستثمر فى الانتاج الحربى ( الذى قال عنه ماركس انه جزء من الثروة تذروه الامم مع الرياح ) يقتطع دائما من الميزانية العامة • وتقوم الدولة الرأسمالية باقتطاعه أساسا من حصة الدخل القومى التى ينبغى انفاقها على الشعب العامل ، وهو مامن شأنه ان يعطى نتيجة عكسية من حيث التأثير على مستوى معيشته : بيد ان هذا يمكن ان يحدث فى نطاق حدود معينة بحيث لايتجاوز الحد الادنى اللازم لتجديد قوى العمل •

ولكن ما الذى يحدث لدورة الانتاج الرأسمالى عندما يظل سوق الانتاج الحربى ثابتا لفترة طويلة أو يتوسع تدريجيا فقط بنفس معدل السوق المدنى ؟ •

من الطبيعى أن مثل هذا الموقف قد يؤثر فقط تأثيرا طفيفا جدا على أزمات فائض الانتاج • اذ أن الانتاج الحربى هنا ينتج فائض قيمة كافيا لتغطية احتياجاته هو الاستثمارية • حقا انه قد يغطى اكثر من احتياجاته هو ، وقد يكون ثمة فائض للاستثمار فى صناعات أخرى • على أية حال فان الانتاج العسكرى لايمكنه أن يجتذب رأس مال فائضا تم تراكمه فى دورة الانتاج للصناعات المدنية •

ولكن اياكان الموقف فى مرحلة زمنيه بذاتها فثمة شىء واحد يظل دائما وأبدا صادقا بالنسبة للانتاج الحربى من حيث تأثيره على تكاثر الانتاج على المدى الطويل اذ انه يمثل فاقدا كبيرا بالنسبة للانتاج الاجتماعى ، بأن يظل باقيا كما هو حتى يصبح انتاجا عتيقا • وطرازا قديما أو يتم تدميره • ان الانتاج الحربى عمل غير انتاجى أى غير مثمر ويمثل انتاجا طفيليا •

ومن الواضح أنه كلما ازداد تحول القوى الانتاجية الى اغراض انتاجية كلما قل تكاثر الانتاج وحدث نقص فى معدلات النمو وتضخم وانحطاط وتدهور وربما انهيار لمستوى المعيشة •

ويصف بعض علماء الاقتصاد الغربيين الانفاق العسكرى علاجا لامراض الازمات الدورية والبطالة التى تصيب الرأسمالية الحديثة • ولكن مايصفونه فى واقع الامر ليس غير استنزاف منظم للدول الرأسمالية وهو استنزاف تدريجى يفضى الى حالة اختناق اقتصادى • وان الانسحاب أو التراجع عن تكاثر الانتاج وتدمير أو تجميد قسط كبير من الانتاج لتمكين هذا النظام الانتاجى للبقاء ، مثل هذا الاسلوب يتصاعد تدريجيا ليصل الى مستوى الانتحار للنظام ذاته •

كل هذا يجيب على السؤال التالى : ماالعواقب الاقتصادية التى تصيب البلدان الرأسمالية عند نزع السلاح ؟ • ان هيئة استشارية منبثقة عن منظمة الامم المتحدة ( تضم الهيئة عشرة خبراء من الاتحاد السوفيتى وتشيكوسلوفاكيا

وبولندا وسبعة خبراء من البلدان الرأسمالية من بينها الولايات المتحدة الامريكية وبريطانيا وفرنسا وباكستان ) رفعت هذه الهيئة نقاب الزيف والخداع الذى نسجه انصار احتكارات السلاح وانصار العسكرية بأن أعلنت فى ختام تقريرها « العواقب الاقتصادية والاجتماعية لنزع السلاح » عام ١٩٦٢ :

« لاريب فى أن تحول موارد الثروة المستغلة الان فى المجال الحربى الى أغراض سلامية يمكن ان يتحقق نصالح البلدان ويحقق تحسنا لاوضاع العالم الاجتماعية والاقتصادية · ان انجاز مشروع نزع السلاح الكامل والشامل سيكون خيرا عميما يفوق التصور » · (٣)

وقد وافقت الجمعية العامة للامم المتحدة بالاجماع على هذا التقرير الذى يمثل وثيقة بالغة الاهمية وأتاحت الفرصة أمام الرأى العام فى البلدان الرأسمالية لتكوين فكرة صحيحة عن الدور الاقتصادى لسباق التسلح وعواقب نزع السلاح ·

وكان نشر هذا التقرير لطمة قوية لكل انصار سباق التسلح وخصوم نزع السلاح · بل ان كلمات عديدة القيت فى الكونجرس الامريكى تتحدث عن الفوائد الجمة التى يمكن أن تعود على الاقتصاد الامريكى نتيجة نزع السلاح ويذكر نقاد النزعة العسكرية ان قطاعات عديدة من الاقتصاد الامريكى تتطلب استثمارات دولية كبيرة لكى تكون قطاعات قوية قادرة على النمو · وحسب العلماء الامريكيون الاجراءات اللازمة لانهاء تلوث الماء والهواء الذى وصل حدا خطيرا للغاية فى الولايات المتحدة الامريكية فتبين ان هذا يستلزم ٥٠٠٠٠ مليون دولار وأن ١٠٠٠٠ مليون دولار أخرى لازمة لتحسين الملاحة فى نهر أوهيو وعشرات الملايين لازمة لبناء المدارس وغيرها من المؤسسات التعليمية ولتدريب العدد الكافى من المعلمين تعويضا للنقص القائم ·· وليس هذا سوى قليل من كثير ·

ويجد القارىء مزيدا من الحجج المقنعة ضد النزعة العسكرية وسباق التسلح فى كتاب « مجتمعنا المستنزف our depleted society تأليف سيمور ملمان Seymour Molman وفى عديد من الكتب الاخرى والمقالات التى ظهرت مؤخرا فى الولايات المتحدة الامريكية ·

وقد أشار بيان الدورة الثالثة عشرة للجمعية العامة لهيئة الامم ان المبالغ الهائلة من الاموال التى يلقى بها فى فم الحرب الرهيب الذى لايشبع وجهود عشرات الملايين من الناس التى يجرى انفاقها استعدادا للدمار يمكن أن تفيد لتطوير وتحسين الحياة على الارض فى وقت قصير للغاية هذا اذا ماوجهنا كل

(٣) Economic and Social Consequences of Disarmament Report of the UN Secretary General transmiting the study of his consultative group, Vienna, 1962, p. 57.

هذه الاموال والجهود لاغراض سلمية · لقد بلغ جملة الانفاق العسكرى المباشر عام ١٩٦٦ فى كل بلدان العالم ١٤٠٠٠٠ مليون دولار · وينص البيان الذى أقرته الجمعية العامة للامم المتحدة بالاجماع على أن سباق التسلح ينهب البشرية وأن نزع السلاح سيحقق نموا اقتصاديا لكل البلدان ويحقق ازدهارا ثقافيا وعلميا وحضاريا ·

ان النزع الكامل والشامل للسلاح سيكون ذا فائدة خاصة بالنسبة لاقتصاد البلدان النامية · ففى عام ١٩٦٦ بلغت الميزانية العسكرية لهذه البلدان مايقرب من ٨٠٠٠ مليون دولار أى أكثر من نصف رأسمالها المستثمر سنويا · ولاريب أنه بالاضافة الى توفير هذه المبالغ الضخمة فان نزع السلاح سيمكن من تحويل جزء كبير من الاموال التى تقتصدها البلدان الصناعية نتيجة انهاء سباق التسلح الى المناطق المتخلفة فى العالم · ان المساعدة الاقتصادية السنوية للبلدان الاقل تخلفا فى شكل قروض وائتمانات متبادلة ستكون أكثر من ضعف المساعدات التى تتلقاها هذه البلدان حاليا فى شكل استثمارات رأسمالية ·

واذا أعفى الاتحاد السوفيتى والبلدان الاشتراكية الاخرى من انفاق أموال هائلة من أجل الدفاع فانها ستكون فى وضع يسمح لها بزيادة مساعداتها زيادة كبيرة للمناطق المتخلفة فى العالم ·

لقد بدأت تتزايد باطراد اعداد من يدركون فى البلدان الرأسمالية خطر العبء الرهيب الناجم عن الانفاق العسكرى الذى يتحمله اقتصاد بلادهم · ومع ذلك فان الاوساط الاحتكارية فى الولايات المتحدة الامريكية ـ أعتى دول العالم امعانا واغراقا فى النزعة العسكرية ـ لاتزال تبدى عداء شديدا لفكرة خفض نفقات التسلح ولايقتصر الامر على الاصرار على مواصلة سياسة سباق التسلح فى بلدها ، بل تبذل كل جهد لممارسة الضغط على البلدان الاخرى ، وبخاصة بلدان حلف شمال الاطلنى لكى تزيد من ميزانياتها العسكرية المتضخمة بالفعل ·

ان نمو النزعة العسكرية فى الولايات المتحدة الامريكية وفى بعض البلدان الرأسمالية ، والحرب الاجرامية ضد شعوب الهند الصينية والاستفزازات العسكرية فى أمريكا اللاتينية ، والانقلابات الرجعية فى افريقيا وآسيا بتدبير المخابرات المركزية الامريكية ، والعدوان فى الشرق الاوسط كل هذه شواهد تؤكد الطبيعة العدوانية المتزايدة للامبريالية وقد اعطى المؤتمر الثالث والعشرين للحزب الشيوعى السوفيتى التحليل التالى للموقف الدولى « ان تفاقم الازمة العامة للرأسمالية واستفحال تناقضاتها يدفعان الامبريالية نحو مزيد من المغامرة ويضاعفان من خطرها على السلام والتقدم الاجتماعى · وهاهى الامبريالية تمعن أكثر فأكثر فى البحث عن مخرج لها من خلال الاستفزازات المسلحة والاستعانة بكل ضروب المؤامرات بل وعمليات التدخل العسكرى الصريحة المفضوحة » ·

وجدير بالذكر ان من العوامل الهامة التى نشهدها فى الحياة السياسية

للبلدان الغربيـــة أنه مع اطراد النمو الخبيث للنزعة العســكرية تزداد قوة المعارضة لهذه العملية من جانب القوى الديمقراطية والمحبة للسلام ٠ والامثلة على هذا كثيرة منها اتساع حركات المعارضة ضد الحرب الامريكيـة فى فيتنام سواء فى داخل أمريكا ذاتها أو فى خارجها ، وقد امتدت هذه الحركات الى كل القطاعات الجماهيرية ابتداء من ملاك الشركات الخاصة الى الاتحادات النقابية

ان الحرب فى فيتنام التى كلفت الولايات المتحدة أكثر مـن ١٠٠٠٠٠ مليون دولار قد كشفت بوضوح النواقص الاصيلة فى المجتمع الرأسمالى ، لقد أوضحت أن سباق التسلح ليس علاجا على الاطلاق لاى شىء،ناهيك عن جدواه لانقاذ الرأسمالية ٠ لقد كشف الاقتصاد الامريكى عن اتجاهات تضخم خطيرة وثمة تكالب خطير على الذهب وهبطت احتياطيات الذهب هبوطا حادا وخطيرا من ٢٣٠٠٠ مليون دولار عام ١٩٥٣ الى ١٠٥٠٠ مليون دولار عام ١٩٦٨ ٠

ان النتيجة الاساســية للحرب فى فيتنام هى أنها كشــفت عبث كل محاولات الامبريالية الامريكية ســواء لهزيمة الاشتراكية على النطاق العالمى أو اعاقة الاشتراكية عن طريق حروب محلية ٠



## الفصل السادس

# الفلسفة البورجوازية ومشكلات الحرب والسلام

لم يعد الفلاسفة البورجوازيون اليوم قادرين على حصر أنفسهم في اطار التنظير التجريدى لموضوع الحرب والسلام • فهم غالبا يكملون النتائج النظرية التى ينتهون اليها ببرامج سياسية محددة •

ويعرض مقالنا هذا مقارنة بين القضايا النظرية والعملية التى تناولها عديد من المذاهب البورجوازية الحديثة بشأن الحرب والسلام • وسوف يمكننا هذا من تحديد المدى الذى تتطابق فيه بعض النظريات الفلسفية البورجوازية الحديثة مع متطلبات شئون الدولة داخليا ودوليا •

ان الاراء السياسية للفيلسوف ـ الذى تكون فيه اجابة على مشكلة الحرب والسلام ـ تتوقف الى حد كبير على أسلوب فهمه « لجوهر الوجود » وحدود وامكانيات المعرفة وطبيعة المثل الاجتماعية والتطور الاجتماعى •

ومن ثم فان النظريات الفلسفية الاجتماعية البورجوازية الاساسية يمكن تقسيمها بشكل عام وبصورة مبدئية الى مجموعتين حسب طبيعة النظرة الى التقدم الاجتماعى وقواه الدافعة وبالتالى : اسباب الحرب • وتتضمن المجموعة الاولى نظريات ذات طابع موضوعى قدرى ، وتتضمن الثانية اتجاهات ذاتية ارادية •

يرى فلاسفة المجموعة الاولى ان القوى المحركة للتاريخ ومعناه واتجاهه ومضمونه تكمن كلها فى عوامل خارجة عن التاريخ ذاته مثل قول البعض الروح المطلق أو اهداف ومقاصد الطبيعة • وترى المجموعة الثانية التاريخ باعتباره ظواهر اجتماعية أى خصائص بيولوجية وسيكولوجية حتمية وأصيلة تميز الشخصية الفردية ونشاطها الروحى الخلقى الطليق •

ان كثيرين من الفلاسفة البورجوازيين المعاصرين يرفضون الاشكال التقليدية للمثالية ويعارضون كلا من المذاهب الميتافيزيقية التجريدية القبلية ومختلف المذاهب الذاتية الروحية • وترتكز نظرياتهم على تأكيدات انسانية للتطور الطليق للشخصية الانسانية •

ولاريب في أن كل هذه الاتجاهات السائدة في الفلسفة البورجوازية المعاصرة ، أيا كان جوهرها الحقيقي ومنحاها ، فانها جميعها صور كردود افعال نتيجة التحولات الاجتماعية الهائلة التي شهدها العالم خلال الخمسين عاما الاخيرة · ان نتائج التقدم العلمي والتكنولوجي ، وبخاصة الموقف الدرامي الذي ظهر في العالم اثر ظهور القنبلة الذرية والصواريخ كان لها أثرها المهول على النظريات السياسية والفلسفية للفلاسفة البورجوازيين ·

حقا ليس ثمة مايبرر الشك في النوايا المحبة للسلام لعديد من الفلاسفة البورجوازيين المعاصرين · بيد أننا حين نكون بصدد بحث ارائهم بشأن قضيتي الحرب والسلام يتعين علينا الا يكون حكمنا منصبا فقط على النوايا الذاتية بل يمتد ليشمل أيضا الدور الموضوعي لفلسفتهم وبرامجهم السياسية واتجاههم العملي ازاء المذاهب السياسية القائمة ·

هناك على سبيل المثال كارل ياسبرز أحد مؤسسي الفلسفة الوجودية والذي رصد قسطا كبيرا من اهتمامه للجوانب النظرية والسياسية المحددة لمشكلة الحرب والسلام · وتعنينا نظرياته لسببين : أولا أنها تتضمن عمليا كل القسمات النموذجية المميزة للفسلفة البورجوازية الحديثة ، وثانيا الجوانب السياسية للمشكلة التي نحن بصددها هنا ترتبط في نظرياته ارتباطا وثيقا بالجوانب الفلسفية على نحو لانجده عند غيره بهذا القدر من الوضوح ·

يحذو ياسبرز حذو الكثيرين من الفلاسفة المعاصرين فيرفض الميتافزيقا وكل المذاهب الفلسفية العقائدية الجامدة : انه لايعتقد أن أفكاره تشكل نسقا فلسفيا للموجودات ، بل يرى انها احرى بأن تكون فلسفة عن الشخصية الانسانية تستهدف الكشف عن المعنى الحقيقي للوجود الانساني

بحث ياسبرز عن الجوهر الحقيقي للوجود الانساني والقيمة الحقيقية لهذا الوجود في الشخصية الانسانية المتحررة والمستقلة عن كل ماهو غريب عن الذات ، ولم يبحث عنهما في المجالات الغريبة عن الانسان تماما ( منها على سبيل المثال ظواهر الحياة الاجتماعية ) · ويذهب ياسبرز الى أن الانسان يكتسب أو يحقق مكانه في العالم وجوهره الحقيقي عن طريق تحرير نفسه من كل أشكال الحياة الاجتماعية التي هي « غريبة بصورة مطلقة » عنه ·

ويؤمن ياسبرز بأن الانسان يتأتى له فهم معنى الحياة عن طريق ماسماه « الكشف الوجودي » الذي يحق للمرء أن يختبره للحظات قصيرة في مواقف معينة · وقد يحدث هذا الكشف في لحظات الوجد والفهم المتبادل العميق فيما يسمى مواقف الحدود أو المواقف الفاصلة — أي الاوقات التي يكون فيها الانسان وجها لوجه مع الموت ، والمعاناة في نضاله اليومي من أجل البقاء ·

وهكذا يتأتى للانسان فهم معنى الحياة عندما يقف وجها لوجه مع الموت · ان الموت يؤثر علينا جميعا ويفيد كموقف فاصل طالما ان دخوله في حيواتنا يكشف الطبيعة المحدودة لوجودنا · يدرك الانسان الموت ويكون واعيا

به كموقف فاصل لا فى لحظـــة وفاته ، ذلك « لاننى عندما اموت اختبر الموت ولا أعاينه » (١) ولكن عندما يموت شخص اخر وثيق الصلة بالانسان بفضـــل ارتباط ومعايشة وجودية • ولهذا فاننا نحتفظ بالرابطة التى تربطنا بشخص ما مضى عنا وفارقنا بوفاته • ان الموت يعيننا على تحديد ماهو وجودى فى الحياة وماليس كذلك • « ان مايظل محتفظا بجوهره وماهيته ونحن نواجه الموت هو الوجودى وما يتكشف لنا انه غير ذى قيمة وعبث فهو عار من الوجود » • (٢)

وأيا كان الكشف الوجودى الذى يتأتى للانســـان سواء أكان بطريقـة ايجابية أم سلبية ، فانه يحقق دائما كشفا للطبيعة المأساوية للحياة الانسانية وعقب الومضة القصيرة للكشف الوجودى يغوص الانسان مرة أخرى فى ظلام وجوده اليومى • ويرى ياسبرز أن الخلاص من هذا الموقف المأساوىيكمن عبر عالم المطلق والخالد : انه يعتبر النور الوجودى أمرا غير عقلانى فى جوهـــره ويقع فى لحظات محددة ، وهى تلك اللحظات التى يومض فيها شعاع ضـــوء من عالم المطلق لينفذ عبر حجاب الوجود اليومى • ويؤكد ياسبرز أن هـــذا العالم لاعلاقة له على الاطلاق ولا وجه للتشابه أبدا بينهوبين المجالاتالميتافيزيقية التى نصادفها فى المذاهب العقائدية التى ورثناها عن الماضى ، ويؤمن أيضـــا بأن ظواهر الحياة الانسانية على اختلافها وأمورها المتباينة ليست سوى حجب تحول دون التعريف العقلانى الذى يهبنا استبصارا ننفذ به الى العالم الآخـر أو ماوراءها • (٣)

ويفزع ياسبرز من التأكيدات والاحكام العلمية والفلســـفية الجامـدة والنتائج المحددة بكل دلالاتها العقائدية المتزمتة • فاذا كان العلم يعنى ببحث العلاقة بين الموجودات فقد استهدف ياسبرز بفلسـفته الكشـــف عن العوامل الاساسية الكامنة وراء الســـلوك البشرى • ان العلم له قيمة شـــاملة قاهرة اما الفلسفة فتقود الانسان الى ماوراء القهر حيث الحـرية ، العلم يعلى بنـــاء المعرفة الفعلية أما الفلسفة فتدمر كل أبنية الحقيقة لتعود بالانسان ثانيـــة الى حالة اللايقين •

ولكن ياسبرز من خلال نفوره الشديد من الدجماطيقية ومن خلال محاولته خلق فلسفة غير عقائدية تماما ينتهى بصورة تخلو من الفطنة الى فلسفة احادية الجانب بصـــورة متطرفة والتى هى فى واقع الامر ضرب من الدجماطيقيـــة النسبية • انه حين يؤكد عدم وجود أى اتجاه أو رأى نهائى يمكن تطبيقـــه بصورة جامدة فانه فى واقع الامر يرفض القيمة الموضوعية لفلسفته هو • وكان لهذا اثره الهام والخطير على آرائه السياسية وبالمثل على نظريته عن الحـــرب والسلام •

---

(١) K. Jaspers, Philosophie, Band, II, Mùnchen, 1932, S. 222.

(٢) نفس المرجع — ص ٢٢٢ •

(٣) نفس المرجع — ص ١ — ٢

يخلق ياسبرز هوة فاصلة لا سبيل الى اجتيازها بين المعرفة والوجود وبين الموجود أو الاشكال العيانية من الحياة الاجتماعية وبين ما ينبغي ان يكون ويلتمس القوى المحركة والمبادىء الاساسية للسلوك الخلقى من الفرد الموجود وهذا الميل نحو المقابلة بين الجوانب المختلفة للعملية التاريخية ــ الباطني والظاهرى ، الحضارة والتطور الخلقى والروحي للبشرية ، الضرورة التاريخية والحرية الفردية ــ هذا الميل نموذج للفلسفة البورجوازية الحديثة وعلم الاجتماع فى مجموعه ·

وقد أثرت هذه القسمات المميزة لفلسفة ياسبرز على نهجه فى تناول المشكلات السياسية المعاصرة على الرغم من أن نظراته وأحكامه بشأن القضايا السياسية كانت ترتكز أساسا على تحليل واقعي مشخص للعوامل والظواهر المتباينة للحياة الداخلية للدولة المعاصرة وللحياة الدولية ·

وقد تطورت نظرية ياسبرز عن الحرب والسلام على نحو مانراه فى عديد من كتبه التى ظهرت بعد وفاته مثل ــ القنبلة الذرية ومستقبل الانسانية ( ١٩٦١ ) والمشكلات الحيوية للسياسة الالمانية ( ١٩٦٣ ) ، وآمال ومخاوف ( ١٩٦٥ ) ، الذى يضم عددا من المقالات والاحاديث التى صدرت فى تواريخ مختلفة · أماآخر كتبه : ( الى أين تسير جمهورية المانيا الاتحادية ؟ ) · فقدصدر فى ثلاثة اعداد متتالية فى مجلة دير شبيجل عام ١٩٦٦ ويمثل اضافة هامة للكتب الثلاثة السابقة الذكر وتعتبر هذه الاضافة ثورة كبيرة فى آرائه عن النقد الراديكالى للاتجاهات السياسية غير الديمقراطية والعسكرية التى تنتهجها المانيا الغربية كما تعتبر مساندة حاسمة وتأييدا قويا لقضية السلام · (٤)

يمكن تلخيص البرنامج السياسى الذى قدمه ياسبرز فى المقترحات التالية : أولا تظل المعاهدات القائمة سارية المفعول حتى يتم استبدالها خلال مفاوضات مقبلة ، ثانيا دعم مبادىء القانون الدولى بما فى ذلك تخلى الدول عن مبدأ السيادة المطلقة بمعنى قبول القرارات التى تقرها اغلبية اعضاء المنظمة التشريعية الدولية والغاء حق الفيتو ، وطبيعى ان مثل هذه المنظمة الدولية ستتمتع بسلطات لم يسبق لها مثيل ، ثالثا تبادل الافكار دون حدود ولتتصارع الافكار بحرية وصراحة فى العلن دون اى شكل من اشكال الرقابة رابعا سن قوانين تشرع تدخل القوى غير القومية فى الشئون الداخلية للدول كل على حدة عندما تخفق أى من هذه الدول فى العمل طبقا لمبادىء العدالة التى تمقبولها والالزام بها عالميا · خامسا اعتبار الحدود غير العادلة والاتفاقات غير العادلة التى جرى فرضها فى الماضى موضوع بحث لاعادة النظر بشأنها ويتم تحرير الدول المستعبدة بناء على قرار من القوى العالمية غير القومية ويرى ياسبرز ان الانتخابات الحرة عن طريق الاقتراع السرى هى أفضل الوسائل

---

(٤) K. Jaspers, Die Atombombe und die Zukunft des Menschen, Mùnchen, 1961; Lebensfragen der deutschen Politik, Munschen 1963, Hoffnung und sorge, Mùnchen, 1965; Der Spiegel 1966, Nos 17, 18, 19.

وأكثرها ملاءمة للتعبير عن ارادة الناس · ويؤمن بأن الاجراءات سالفة الذكر اذا تم تطبيقها بالفعل فان اثرها لن يقتصر على تجنب نشـــوب الحرب فقط ، بل ستفيد في القضاء عليها تماما · ان العالم يواجه أحد بديلين اما عالم يســـوده النظام أو عالم تسوده الحرب · (٥)

اذا ماالظروف الجوهرية اللازمة لخلق مثل هذا النظام العالمى ؟ · يناقش ياسبرز هذا الامر تفصيلا فى مقال له بعنوان : « الحق والحرية والســـلام » يقول : يبدأ السلام الذى يعم العالم بالسلام داخل بيت كل انســـان على حدة وينبنى السلام على الحرية · ان السلام الباطنى والخارجى لن يكـــون مكفولا ومضمونا الا على اساس الحرية الوجودية للفرد وللافراد جميعـــا · واذا بدأنا بالفرد فان الحرية تتجسد فى حكومة جمهورية داخل دولة وتتمثل أيضـــا فى معارضة هذه الدولة لقهر الشعوب الاخرى ·

بيد أن الحرية لاتعنى سلوكا اعتباطيا وانما الحرية الحقـــة تتضـــمن بالضرورة الاخلاص للحق ، « لاسلام بدون حـــرية ، ولكـــن لاحـــرية بدون الحق » · (٦) السلام كلمة جوفاء مالم يفترض ضمنه الحق ، أى مالم يكن وليد الحق وخادمه ·

ولنبدأ الان تحليلنا لافكـــار ياسبرز هذه التى عـــرضـــناها موجزة اذ أن تحليلها أمر ضرورى · ترى ماذا يعنى بهذا الحق الذى بدونه لن تكون ثمـــة حرية أو سلام ؟ ترى على أى مبادىء يستند فى اقتراحه انشـــاء هيئات رقابة وتحكم دولية وبناء نظامه العالمى ؟ ترى ما الحـــدود والاتفـــاقات التى أبرمت وتحددت فى الماضى ويرى ياسبرز أنها غير عادلة ؟ يقينا اذا تسنى لنا فقط ان نعرف شيئا عن موقف ياسبرز من المذاهب السياسية القائمة ومجموعات الدول بنظامها الراهن فاننا نستطيع حينئذ ان نفهم المضـــمون الحقيقى الذى ينطوى عليه « برنامج السلام » الذى اقترحه ·

أولا ماالحق ؟ يجيب ياسبرز على هذا السؤال اجابة تتفق تماما مع فلسفته المعادية للنزعة العقائدية والتى ترفض كل احكام دجماطيقية · نحن دائما عـــلى طريق وحده ، لايملكه أحد والكل يبحث عنه · (٧) فالحق حسب عقيدة ياسبرز الفلسفية هو مايكفل صعود الانسان ميمما شطر الوجود ·

على الرغم من غموض هذه الافكار وتشوشها الا أنها تستبعد بوضـــوح امكانية أى اصرار دجماطيقى على اجابة محددة باعتبارها الاجابة الوحيـــدة الصواب ، وبذلك تترك الباب مفتوحا على مصراعيه للحوار بشأن هذه المشكلة العالمية · ان المسلم به هنا ان كل الدول عاقدة العزم بدرجة أو بأخرى عـــلى

---

(٥) K. Jaspers, Lebensfragen der duetschen politik Mùnchen 1963, S. 143.

(٦) نفس المرجع ص ١٦١ ·

(٧) المرجع السابق ص ١٦١ ·

اكتشاف الحقيقة . ويحذرنا ياسبرز من ان اصرار المرء على رايه هو باعتباره الرأى الصواب دون سواه قبليا يستبعد تماما امكانية بلوغ االحقيقة .

ومع هذا فقد كان ياسبرز مقتنعا قبليـــا a priori بالقيمة الفريدة للمثل العليا الغربية والمبادىء الغربية للحيـــاة الاجتمـــاعية ولا يعتقـد ان الاشــتراكية هى الحل او قادرة على حل العديد من التناقضات الأســاسية للمجتمع الحديث . لم يكلف نفسه مشاق الدراسة التحليلية المحددة والدقيقة لنظم الدول فى كـل القارات ، والتــزم موقف التحيز المميز للفلســفة البورجوازية الحديثة عموما ، لذا نراه يحدثنا حديثا عفويا زلقا عن « الغرب الحر والشرق الاستبدادى » و « التراث الديمقراطى الاوربى » ونزعة التوســع القوى الافرو أسيوى ، ويكفينا المثال التالى كشاهد على ما نحن بصــــدده لقد تزايد خطر القوى الاستبدادية التى تحرم العالم من الحرية فى ظل القنبلة الذرية . اذ طالما كانت جماهير الناس هى التى تخوض الحرب بالاســـلحة التقليدية مستخدمة التكنولوجيا الحديثة دون القنبلة الذرية فان الاستبداديين سيكونون هم المستفيدين . ان الاحداث ستصل حتما فى مثل هذه الحرب الى نقطة تجد فيهـا الدول الحرة نفســـها مواجهة لاختيـــار واحد من اثنين أما استعمال القنبله الذرية او قبول النزعة الاستبدادية والتسليم لها .. أى اما المخاطرة بدمار الانسانية او التضحية بالحرية . الكل متفق على ضرورة عدم اللجوء الى القنبلة . ولكن لن نجد مثل هذا الاتفاق قائم عندما يثور الســؤال التالى : ماذا عسانا أن نفعل عندما يصبح الامر مسألة الحياة أو الموت للحرية ؟ القنبلة تدمر الحياة ، ولكن دمار الحرية على يد الاستبداديين يجعلهـــا أمـــرا غير ذى قيمة وحتى وان لم يســتمر هذا الوضع الى الابد .. ســتأتى اللحظة التى يصدر فيها هذا القرار الوحشى ، ولم يجد أى امرىء عاصما له من هــذا الامر . » (٨) وهكذا نجد فلســـفة ياسبرز المرنة المعادية للعقائدية الجامدة « تفتح الطريق لاعتقاد مطلق ، ودون أى تردد أو شــكوك ، فى صـــــدق « الحرية » البورجوازية فى الغرب و « النزعة الاستبدادية » فى الشرق . أن الدول الحرة مواجهة باختيار واحد من اثنين اما استعمال القنبله او التضحية بحريتها .

وانتقد ياسبرز بشدة فى سنواته الاخيرة النظام الســـياسى فى المانيا الغربية . وأشار الى أن جمهورية المانيا الفيدراليه تشق طريقها الى دكتاتورية حزب الاليجاركية . وقال ان هذا قد يشكل « أخطر تهديد للسلام » . وقـد يفضى الى « كارثه نهائية وقاتلة لالمانيا هذه المرة .

بيد ان ياسبرز لم يرد كل هذه « المفاسد التى يعانى منها النظام البرلمانى فى ألمانيا الغربية » ــ كما اسماه ــ الى العوامل الاجتماعية الاقتصادية للمجتمع الرأسمالى أى الى محاولة الطبقة الحاكمة استغلال النظام لمصلحتها الخاصة ، بل

---

(٨) K. Jaspers, Wohin treibt die Bundesrepublik? Der spiegel, Nr, 19, 1966, S. 85.

ردها الى التطورات البغيضة التى حدثت داخل الأحزاب الحاكمة والمؤسسات البورجوازية الديمقراطية والاتجاهات ... الخ . ولم يذكر ياسبرز شيئا عن تلك العوامل الموضوعية فى المجتمع الرأسمالى والأسلوب الفردى فى الحياة والذى من شأنه فى موقف سياسى دولى او داخلى أن يؤدى حتما الى دمار الحريات الديمقراطية البورجوازية وقيام صورة من صور الدكتاتورية . أن المنحى الغربى الصرف والمعادى للشيوعية فى نفس الوقت ( اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا ) الذى تلتزم به القوى الرجعية فى المانيا الغربية هو فى واقع الامر مصدر المشكلة التى رآها ياسبرز مشكلة محيرة للغاية . وهنا نواجه الموقف العقائدى المطلق والقصير النظر والذى عارضه ياسبرز فى فلسفته . ان الحق فى النظرية عند ياسبرز ليس كما معينا ثابتا ومحددا مقدما بل هو شىء دائما وأبدا فى عملية كينونة تحدث وتتكشف أى صيرورة دائمة ولكنه يصرح فى التطبيق العملى ان المبادىء الاجتماعية القائمة والمثل الاجتماعية فى « الغرب الحر » هى وحدها المبادىء والمثل الحقة والمقبولة .

ونظرا للعصر الذى نعيش فيه ومايعانيه من تهديد حقيقى بدمار العالم فان ياسبرز يدعو الى بذل جهد نشط وفعال من أجل قضية السلام . ويحذر من أى تواكل او خمول او عدم مسئولية أزاء الموقف الفاصل الماثل فى العالم اليوم مما يكون له اوخم العواقب . هنا ينشد ياسبرز تأكيد الخطر الماحق الذى ينذربه الموقف ، لذلك نراه تحقيقا لهذا الغرض يلجأ الى الحقائق العلمية والعوامل الواقعية العيانية ليستعين بها فى تحليل دور ودلالة التنظيمات والمؤسسات الاجتماعية المختلفة ويدعو الى اصدار حكم متزن رصين والالتزام بأقصى حدود العقلانية . وفى نفس الوقت نراه يؤكد فى فلسفته ان الانسان يمكنه فقط ان يهتدى الى مبرر وجوده فى الحياة خارج العلم فى لحظات الكشف الوجودى الذى يتأتى فى المواقف الفاصلة . ان فلسفته الوجودية تدمر كل أبنية الحق ليلقى الانسان فى حالة من اللايقين والقلق المتصل .

يقينا انه من المفيد تماما انتقاد النزعة التفاؤلية الخرقاء والايمان الاعمى بالتقدم التاريخى والتسليم دون تبصر بالمسيرة المظفرة للبشرية نحو السعادة والرخاء . ذلك لأن هـذه النزعة التفاؤلية تبلد الحس وتقتل اليقظة وتؤدى الى الخمول والفتور ، وهى أمور لايمكن السماح بها فى عصرنا الراهن . ولكن الوجودية حين نراها حريصة أبدا على ان تلقى بالانسان فى هاوية القلق فانها تزرع التشاؤم وتخلق شعورا باليأس يختلف اختلافا طفيفا فى عواقبه عن نزعة التفاؤل الخرقاء .

لاريب فى أن المواقف الفاصلة ـ مثل الموت والمعاناة والاثم والصراع من أجل البقاء ـ قد تعيننا على فهم الحياة وعلى ان نقدرها ونجلها بشرط الاتسحق هذه المواقف الانسان وتجعله يفقد كل اهتمام بالحياة او ان تشوهه معنويا أو بدنيا وهو ما من شأنه ان يكون تكرارا معادلا من حيث نتائجه لصور مختلفة من المعاناة الانسانية .

ان فلسفة المواقف الفاصلة تتبدى دائما وابدا فى اعمال ياسبرز السياسية فهو يقول ان الخوف ضرورى للوصول الى سياسة سلام واقعية

والتخلص من الخوف يزيد الهدوء ويقلل الهم ويعوق السبيل الى سياسة السلام ٠

ولا يسع المرء الا ان يسلم مع ياسبرز بأن الادراك العميق بالخطر الشديد الذى يحيق بالعالم المعاصر يزيد دون شك يقظتنا ويضاعف من احساسنا بالمسئولية الاخلاقية ازاء كل ما نصدره من قرارات وما يصدر عنا من سلوك ولكن لايلزم عن هذا ان يكون الناس ، او يلزم أن يكونوا فى حالة خوف متصل وهلع دائم ٠ ان انتشار الخوف واللايقين وهما امران يدعو لهما ياسبرز بقوة مناقض تمام التناقض لأى سياسة سلام ثابته ٠

وينظر البعض الى فلسفة ياسبرز باعتبارها ضربا تفاؤليا من ضروب الفلسفة الوجودية الالمانية ( مقارنة بفلسفة هيدجار ) ٠ بيد ان هذه التفاؤلية هى مسألة صورية خالصة ، وليست منبثقة عن الجوهر الحقيقى لفلسفته ٠ حقا ان ياسبرز نفسه مسلم بأن كشفه الوجودى يكشف كل مأساة ( تراجيديا ) الوجود الانسانى ٠ ان ياسبرز ينظر الى الحياة من خلال عينى انسان مشرف على الموت ويقومها من وجهة نظر الموت ـ هذا بينما تنبنى النزعة التفاؤلية الحقة على اساس تقويم الحياة من وجهة نظر الحياة ٠ حقا ويقينا اننا حين نواجه الموت من خلال موت انسان يرتبط بنا ارتباطا وجوديا او ان نواجه فنائنا نحن فاننا نستطيع ان نحقق ادراكا سياسيا رفيعا لما كان جوهريا فى الحياة ولما لم يكن جوهريا فيها ٠ ان ادراكنا لطبيعة وجودنا الفانى يساعدنا ايضا على تقويم الزمن وتقويم الحياة ٠ ولكن هناك دائما الوجه الآخر للعملة ، الفزع من الموت يجعل من المستحيل علينا ان نقوم موضوعيا ما انجزناه والامكانيات القائمة ويشل الانسان اما ادراك الطبيعة الفانية المحدودة المتناهية لوجودنا فانه يفضى فى الغالب الاعم الى الانانية واللا مبالاة تجاه مصير الاجيال المقبلة وقدرها ٠

ويحدثنا ياسبرز ايضا عن الحب باعتباره قلب وروح المعاشرة الوجودية انه على اهبة الاستعداد للمخاطرة والانطلاق نحو الآخرين وان يثق فيهم ويركن اليهم ٠ كل هذا حسن ولاريب فى ان الثقة المتبادلة قد تعين حقا على تحقيق التقارب بين الافراد وبين الامم وهو ما من شأنه أن يساعد على حل المشكلات الانسانية المختلفة بما فى ذلك اهمها واخطرها وهى مشكلة السلام ، ولكن ماذا عن العديد من أمثلة السلوك غير العقلانى للافراد والدول وماذا عن حالات نقض الثقة وهو مانصادفه كثيرا فى الحياة ؟

ان ياسبرز على دراية بكل هذا ، ومع ذلك فانه يعقد آمالا كبارا على دعم الثقة والعقل فى العالم عن طريق المعاشرة الوجودية ٠ ولكن كيف لنا أن نتاكد من أن الانسان فى لحظة الموقف الفاصل اى لحظة الكشف الوجودى لن يدرك فى روحه حقا يتناقض مع العقل الواقعى ان استجابة الانسان الى موقف فاصل يحددها مقدما الى درجة كبيرة بيئته الاجتماعية أى ذات الوجود فى الاسرة والكنيسة والدولة وهو ما يسميه ياسبرز « الوجود الغريب » ٠

ويحاول ياسبرز تأكيد الدلالة الموضوعية للكشف الوجودى بالاشارة الى رابطتنا بالمطلق ، اذ يشير علينا بأن نركن الى ايمان فلسفى ومعجزة تعيننا من السماء ٠ ويرى ان المعاشرة الوجودية ليست كسبا انسانيا بل منحة مجانية من الحظ ٠ ولكن ماذا عمن لم يسعدهم الحظ ؟

مرة اخرى يناقض ياسبرز نفسه فى هذه النقطة حيث انه فى احكامه

العملية يشير علينا باجابة اخرى مخالفة · « هل لنا أن نركن الى تحولات تلقائية غير متوقعة تظهر بفعل السحر فى مسار تطور الجنس البشرى والحياة على الارض والكون وان نركن الى خلاص يأتينا من المتعالى لحظة وقوع الواقعة ؟ (٩) أولا يرى ياسبرز ان الموجودات والظواهر والاحداث التى حولنا اشبه بطلاسم غير معقولة وانها تحيطنا علما بطريقة ما برسالتنا الحقيقية ·. ولكنه يؤكد من ناحية اخرى وبصورة مطلقة ونهائية اننا ونحن نتوقع شيئا مايتجاوز ادراكنا فاننا لانستطيع أن نتصرف طبقا للعقل ، اذ أن هذا التوقع سيضعنا أسرى اوهام من صنعنا ويجردنا من قدرتنا على العمل · (١٠)

اننا لانفهم على الاطلاق هذا الاسى الذى يبديه ياسبرز وهو يقول ان الحرب فى عصر الذرة ستؤدى بالعالم الى دمار كامل وأن الواجب يقتضينا « بأن نبذل كل جهد ممكن لانقاذ العالم » بيد أن هذا المطلب المطلق وغير المشروط من أجل السلام يفترض مقدما وجود مقابل له الا وهو ثناء مبدئى على النظم الاجتماعية السياسية القائمة والاعتراف بالحاجة الى تعايشها سلميا رغم كل العواقب ·

وحيثما يشير ياسبرز الى الوقائع ويرتكز على ثناء واقعى للامور نراه يعرض مرارا أفكارا لاتتعارض فقط مع فلسفته ، بل تتناقض بالفعل معها وتنفيها وتجعلها أفكارا غير ممكنه التطبيق فى الممارسة العملية · وفى نفس الوقت فان كثيرا من القضايا المسلم بها فى فلسفته تفقد قيمتها ودلالتها العملية بمجرد الكشف عن مضمونها المحدد ·.

يحدثنا ياسبرز عن رغبته فى تحرير الانسان من العوامل الخارجية للحياة التى تمارس قهرا عليه · ويحاول الكشف عن العلل الجذرية لسلوك الانسان داخل الشخصية الانسانية ، ولكى يؤكد حرية الفرد واستقلاله · بيد انه فى واقع الامر حين يرفض الاشكال الاجتماعية للوجود الانسانى باعتبارها أمورا غريبة تماما عن الانسان ويغوص فى الاعماق الوجودية للوجود الفردى فانه يفقد رؤيته للانسان ولا يجد بين يديه سوى اعتقاد فلسفى يشير مرة اخرى الى طائفة من القيم والمثل المجردة التى تكمن فى مكان ما فيما وراء هذا العالم ان عقيدة ياسبرز الفلسفية تستبدل فقط القدرية الخارجية بنزعة قدرية باطنية ولعلها أقوى وأصعب من أن تقهر ·

ويحاول الوجوديون تفسير وفهم التطور الاجتماعى لامن وجهة نظر المجتمع ككل ، بل من وجهة نظر ادراك وفهم الموجود او الفرد او الشخصية الانسانية بادراكها وآرائها الشخصية · وثمة رأى مماثل يذهب اليه الشخصانيون ( كولكينز Caulkins وهوكنج Hocking وبراتيمان Brightman وفلونج Flewelling وكنت Kent ورى Roy وآخرون وغيرهم ) · انهم أيضا يضعون مشكلات الانسان أو مشكلات حياته ، سعادته وحريته فى محور فلسفاتهم · وتفرض الفلسفة الى شخصية الفرد كتجل للمطلق ·

---

(٩) K. Jaspers, Lebensfragen der deutschen Politik S. 155.

(١٠) نفس المرجع

ويرى الشخصايون أن الكون ينطوى على حقائق روحية معينة هى فى نهاية الامر ذات طبيعة شخصية فى جوهرها وتمثل الجانب الذاتى من الفكر والوجدان والارادة عند ذوات أو أنوات Egos معينة وأكثر من هذا أن الكون ذاته كون روحى تماماوشخصى تماما بحكم طبيعته ويمثل أنا شاملة للكل ونهائية ٠

وفى الوقت الذى يصوغ فيه الشخصانيون الكون صياغة شخصانيـــة وروحية ويصبغونه بهذه الصبغة فانهم دائما وأبدا يؤكـدون اســتحالة رد الروحى الى غير الروحى أو المادى ٠ ان المادة قوة ميكانيكية خالصة وخاملة ، أما الشخصية فهى القوة النشطة بصورة محددة والتى تخلص صفات جديدة ٠ ويستخلص برايتمان من هذا التقابل بين الروح النشطة الفعالة وبين المـــادة الخاملة تصوره الفلسفى للتاريخ ٠ فهو يرى أن ثمة صراعا دائرا داخل روح كل انسان بين الخير والشر ، بين الامور القيمة وعديمة القيمة ٠ وهذا الصراع الدائر بداخل ذواتنا يمتد الى المجتمع ويحدد موقفنا من الطبيعة ٠

ويرى برايتمان أن القرن العشرين عصر قيم متصارعة ٠ وكما يقول فى كتابه « مدخل الى الفلسفة » : « ان الحرية والعقل وحقوق الانســـان وعبادة الرب وحب الحق والجمال والخير ـ أى أسمى قيم الانسان جميعها ـ تتهددهـا « الضرورة العســكرية Military necessity والدولة الاســتبدادية والنظريات والتطبيقات المـــادية والمنافســـة الضـــارية » ٠ (١١) ان ثمـة صراعا متصلا داخل الانســـــان بين المادية والروحية ، بين ماهـــــو أرض وبين الدين بين النور وبين الظلام ٠ ويتمثل معنى التاريخ فى وضع حد ونهاية لهذا الصراع وتحقيق نوع من الاتحاد المقبول بين هذين الجانبين المتعارضين فى الحيـــاة ٠ ويرى برايتمان أن هذا سوف يتحقق عن طريق تطوير وتنمية أفضل الجوانب التى تنطوى عليها ذات كل انســـان والالتزام بتلك المبادىء الاســـاسية التى يمكن من خلالها خلق قيم حقيقية أصيلة ٠ ويأمل فى ان يتم حســـم الصراع الدائر فى العالم الراهن بهذه الطريقة ٠ ويؤمن بأن وراء كل حرب يكمـــن سلام ، وأن وراء كل عماء وفوضى يكمن النظام ، وأن على الجانب الاخر مـــن التناقضات الظاهريةسوف نجد الحقيقة ٠ وجدير بالذكر أنه على الرغم مـــن الرغبة المخلصـــة التى راودت كلا من برايتمان وفلولنج فى الاهتداء الى حـــل يحسم النزاع الا انهما نجحا فقط فى تأكيد حتميته ٠

اذ يرى هذان الفيلسوفان ان الصراع بين القوة المدمرة والقوة الخالقـــة داخل الانسان والمجتمع صراع أصيل فى طبيعتهما ٠ الحرب والسلام سجال يعقب احدهما الاخر دوما عـــلى نحو تعاقب المد والجزر ٠ « الحضـــارات تأفل وتندثر مثلما تظهر وتنبنى ٠ ان وخز هذه الحقيقة التى تلوح الان فى الافـــق الفكرى العام يدعم تحرر عصرنا من الاوهام » ٠ (١٢)

---

(١١) E.S. Brightman, An introduction to Philosophy New York, 1951, p. VII, VIII.

(١٢) Ralph tyler Flewellings, The Survival of Western culturer New York, London 1943; p.5

ان مشكلة السـلام عندهما ترتبط ارتباطا وثيقا بنظريتهما عن التقدم التاريخي أو حـركة التاريخ ، ولكنهما لايقدمان أى حـل عملي وايجـابي للمشكلة ٠

ويرى الشخصانيون أن اللوم يقع على الشرور الاجتماعية كلها بسبب حـالة الاغتراب المتزايد ٠ اذ يؤكد هـوكنج Hocking أن الاغتراب وليد محاولة الانسان معرفة الرب كموضوع مغاير لذاته ( لذات الانسان ) أى كشيء لايمكن فقط أن يكون رفيقا له بل كعدو وكأسوأ مايكون العدو وأشد روعا من الموت ومن أى ظاهرة أخرى من ظواهر الطبيعة ٠ والحـل الذى يقترحه علينا هو أن يستعيد الدين دوره القيادى الرائد فى المجتمع وخلق شكل من أشكال الصلة والمعاشرة بين الانسان وبين المطلق وتحقيق وحدته الصوفية مع اللاهوت ٠ وهكذا نعود مرة أخرى لنجد الفلسـفة ترتد الى القول بأن الايمان هو سبيل الخلاص الوحيد للبشرية ٠

وتكشف الشخصـانية عن علاقتها الوثيقة بالوجودية في مسـلماتها الاسـاسية الاولية ، بل وأيضا فى اصرارها وتأكيدها عـلى طبيعة الوجود الانسانى من حيث انه وجود مأسـاوى عرضى محفوف بالمخاطر غير آمن ، وتأكيدها على دور العقل والاغتراب القدرى الذى لافكاك منه بين الانسان وبين العالم ٠

وترتبط المثالية الموضوعية الحديثة ارتباطا وثيقا بالفلسفات المثاليـة الذاتية المائلة لتلك التى أسلفنا عرضها ٠ ولعل من أقوى الاتجاهات الواقعية الموضوعية نفوذا فى القرن الحالى الفلسفة الواقعية الجديدة الانجلو امريكية Anglo-American Neo-realism لقد تزايد الاهتمـام خـلال السـنوات الاخيرة فى الولايات المتحدة لاحياء نظـريات الفيلسـوف الامريكى المعروف الفريد نورث وايتهد وهو من أصحاب النزعة الواقعية الجديدة ٠ ونحن نعرف ان وايتهد يحاول فى اطار فلسفته الافلاطونية الواقعية أن يحسم بعض القضايا الاجتماعية الاساسية المعاصرة ٠

يذهب وايتهد الى أن مشكلة السلام مشكلة لاهوتية أكثر منها مشـكلة تطبيق عملى ٠ ويؤمن بأن البشرية سوف تعيش فى سلام طالما كانت قادرة على أن تدرك وتحدد لنفسها بالحدس غايات سلامية ٠

وجدير بالذكر أن المثالية الموضوعية عند وايتهد ليست مطابقة لمثاليـة افلاطون على الرغم من نهجه الافلاطونى ٠ انه يلتزم موقفا ميتافيزيقيا حيث لايمكن تفسير الواقع الا بالاحالة الى المثل الاعلى ٠ وقد سمى هذه الصـفات المفـارقة ( الترنسـتدنتالية Transcendente qualities ) الغـايات الخالدة ٠ ويرى وايتهد أن العالم عملية تطور دائبـة تمثل اتحاد ( الغايات الخالدة ) ( *الامكانيات الكامنة التى لم تتحقق فى الواقع العقلى* ) مع « الاشياء الواقعة » ، أى تحول الممكن الى موجود بالفعل ٠ أن مذهبه لنا ، فى محاولة منه جديدة كيفا لاتتمثل فى معطيات العالم السابق ٠ ويقدم لنا ، فى محاولة منه لتفسير التقدم الخالق creative advance يقدم مفهوم القـدرة الخالقـة

الخالقة والرب كما ان عملية التقدم تتطلب أن تكون كل الخصائل المتباينـــة التى تصف الحياة متضمنة الشيء الواقعي الواقع really real الذى يمثل الاساس القبلى a priori لصعود الصور المثالية فى العملية المحددة للعالم الوقتى الزائل · ويصف وايتهد هذه العملية بأنها التدمير المتصل للاشـــياء الواقعية والتى تتضمن فى نفس الوقت « خلودا موضوعيا » سواء فى عناصر أشياء واقعية واقعة أخـــرى أو ، وقبل كل شيء فى طبيعـــة « الرب » ·· ان الرب يجمع بين كونه مصـــدر ظهور عوامل الجـــدة والابداع فى الطبيعة والمجتمع وكونه أساس خلود أى كائن زائل اجتماعيا كان أم طبيعيـــا ، ومن ثم فان الحرية الانسانية الحقة تأتى من الرب مصدر كل اتساق فى العالم ·

غني عن البيان ان هذه الفلســـفة التى هى فلســـفة عالم « يدمر ذاته دوما » انما تعبر عن موقف تشاؤمي من التطور الاجتماعى · ان وايتهد يرفض كل القواعد والاحكام القاسية الثابتة الجامدة ، ويرفض القول بأن أى نظرية اجتماعية قادرة على ان تخطو خطوات نحو تفسير السلوك الانسانى فى ضوء اتجاهات عامة يلتزم بها أو تســود نظاما اجتماعيـــا بذاته · ويذهب الى أن التحول السريع والتجدد المتصل فى ظواهر الحياة الاجتماعية الحـــديثة من شأنهما أن يجعلا من المســتحيل علينا تماما أن نتحـــدث عن أى عوامل ثابتة وعامة وصحيحة ·

ونتيجة لذلك فان « ميتافيزيقا الانســـان الاجتماعى » التى يقول بهـــا وايتهد تقدم لنا أسسا نظرية قاصرة لاتكفى لبرنامج سلامى ايجابى ·

لقد كان وايتهد نفسه يعارض الحرب ويني آماله كلها فى السلام عـــلى التطور المستمر للانسانية صوب مبادىء اخلاقية مشتركة · لقد كانت آراؤه عن الحرية والديمقراطية قاصرة وغير محددة بالقياس الى كثيرين غيره مـــن فلاسفة الواقعية الجديدة ·

ونحن كثيرا مانطالع فى الفلسفة الامريكية محاولات تبرر « ســـياسة القوة » العدوانية للولايات المتحدة الامريكية ونذكر من بين هذه الفلســـفات العدوانية فلسفة جورج سانتايانا George Santayana وموقفه مما أسماه الفلسفة التأملية التى تذهب الى أن وراء كل شيء موجود يوجد جـوهر مثالى أكثر واقعية · وهذه النظرة هى التى تحدد طبيعة « فلسفة الحيـــاة » عنده وأفكاره الاجتماعية ··

يؤكد سانتايانا أنه لايمكن لنظرية واحدة ان تزعم بانهـــا قادرة عـــلى تصور الحقيقة كلها ، وأن العلم والفلسفة والشـــعر والدين ···· الخ ماهى الا صور رمزية أبدعها الخيال الانسانى بهدف فهم وتفسير الواقع · ان العلم والفن والدين ، مهما تباينت علاقاتها المختلفة بعالم الاشـــياء الا انها جميعها تمثل صورا أسطورية « ميثولوجية » تتوقف قيمتها على المدى الذى يكون فيه الخيال قائما مقابل العقل ·

ويمايز سانتايانا بين مستويين من الوجـــود الاجتماعى ـ المســتوى الحيوانى والمستوى الروحى ، وذلك على أساس مايفترضه من تعارض حاسم

ورئيسى بين ماهو مادى وماهو مثالى • وتشتمل المقولة الاولى عنده على كــل أشكال النشاط الاجتماعى بما فى ذلك النشاط العقلى الذى يخدم اشـباع الحاجات المادية • وتشتمل المقولة الثانية كل مافترض أنه يمثل المسـتوى الرفيع للنشاط الابداعى : الفن والشعر والادب والدين •

ويصـنف أشـكال الحكومات طبقا لنفس المعايير • ومن ثم فان أكثر أشـكال الحكومات كمالا هى الحكومة التى تغلب عليها الدوافع الروحيـة لا الحيوانية • ويرى أن غاية التطور الاجتماعى هى اقامة مايصفه بأنه نظـام عقلانى نابع عن الدوافع الانسانية اللاعقلانية • ويؤمن سانتايانا بأن الطبيعة تتضمن مثلها الاعلى الخاص بها وان التنظيم الارتقائى للدوافع اللاعقلانيـة يولد الحياة العقلانية • ان الانسان حيوان عقلانى وكل حياته العقلانية تحكمها وتوجهها الحيـاة البيولوجية الحيوانية للانسـان والتى تكمن فى اعماق طبيعته • والدوافع اللاعقلانية هى العوامل الاساسية والمبدئيـة الاولية فى الحياة الانسـانية ، وتظهر دائما مهما كانت غايات الانسـان ثم تنتظم فى « حياة العقل » أو « الحياة العقلانية » •

ان نظـرية سـانتايانا عن « المجتمع المثالى » هى فى واقع أمرها مبدأ أرسنقراطى للصفوة • اذ يؤمن سانتايانا بأن الديمقراطية الحديثة وسـيلة لجذب الناس الى مركز القوة ممن لايحملون أولا يرثون الثقافة الانسـانية ، وهكذا يتعين ادخال وتطبيق أفضل أشكال الحياة الاجتماعية ابتغاء صـون الارث الثقافى للانسانية ولتنظيم المجتمع على نحو عقلانى • ويرى سـانتايانا أن سياسة القوة امر أساسى فى العلاقات الدولية • ولهذا فان الولايات المتحدة يمكنها أن تقوم بدور الدولة القائدة للعالم وأن تتدخل « فى الحياة التقليدية لكل الامم الاخرى والا يكون تدخلها قاصرا فقط على بيع الحاصلات والمنتجات الامريكية التى لاحصر لها ، بل بأن توصى ان لم تفرض بالقوة باتباع الاسلوب الامريكى فى الحياة وفى التفكير » • (١٣)

ويرى سانتايانا ان السلام العالمى يتعارض مع الحرية وأن لاسبيل الى تحقيقه فى ظل الديمقراطية العامة • ان السلام سوف يسود الارض فى حالة واحدة فقط وذلك عندما يتسنى « لزهرة » الانسانية ـ الصفوة الفكرية ـ أن تفرض حكمها العقلانى بالقوة • ويظهر سانتايانا هنا فى ثوب من يدافع عن سياسـة القوة التى تنتهجها أشـد العناصر تطرفا فى الجماعات الحاكمـة فى البلدان الرأسمالية •

واضح أن السبيل الوحيد للدفاع حقا عن السـلام والقيم الروحيـة للانسانية هو الديمقراطية • ان السلام والتقدم لايمكن أن يتحققا الا بانتهاج أساليب ديمقراطية وسلامية لاقرار وحسم الخلافات الداخلية والدولية وهذا هو ما يصدق بوجه خاص فى العصر الذرى •

---

(١٣) I.L. Horowitz, the idea of war and peace in contemporary philosophy, New York, 1957,p.86

واذا كانت القضايا التقليدية للمثالية الموضوعية اما أن تتحول الى أو تتحد مع عناصر الواقعية الذاتية ، وذلك فى الوجودية والشخصانية والواقعية النقدية وفى غيرها من الفلســـفات الحديثة فان نظريات وايتهد وغيره من الفلاسفة الدينيين تظل بوجه عام داخل اطار المثالية التقليدية • أما الوجودية المســيحية التى قال بها بول تيليتش Paul Tillich وفلسفة رينهولد نيبور Reinhold Niebuhr « لاهوت الازمة » وغير ذلك من نظريات التوماســية الجديدة ـ نسبة الى القديس توماس ـ فانها جميعها لا تختلف اختلافا جوهريا عن الفلسفات الدينية التقليدية •

يحدثنا تيلتش ونيبور عن الخطيئة كاغتراب عن الرب وضع الانســان فى حالة أزمة • « من المحزن حقا أننا فى عصر الطاقة الذرية وعصر الحــروب الجماعية حققنا من التقدم التكنيكى مايتيح لنا أن نضغط باصبع واحدة عــلى زرار واحد لندمر ملايين البشر ، هذا بينما لم تتفتق حكمتنا بعد عن معرفة أن لا أمان لانسان طالما هناك انسان فى خطر » • (١٤)

ويستردان فى موقفهما ليقترحا علينا مايريانه سبيلا وحيدا للخروج من هذا الموقف • يقولان ان السبيل الوحيد لخلاص البشرية أن تهتدى الى القوة الباطنية الكامنة بداخلها لتحرير نفســها من هـــذه الخطيئة وتنمى بداخلها الحكمة اللازمة • ويؤكد نيبور أن على الانسان ان يفهم انه ليس خـــالقا بل مخلوقا ، ومن ثم يتعين عليــه أن يتصرف طبقا لارادة الخالق ويكف عــن أى محاولة لتشييد « برج بابل » ليهلك تحت أنقاضه ••••• « من خلال ايماننــا بالرب الذى تجلى فى صورة المسيح ومات ثم قام ثانية يمكن للموت أن يصبح أساسا لحياة جديدة للافراد والامم والحضارات » • (١٥)

ويذهب اصحاب التوماسية الجديدة ( جاك ماريتان Jacques Maritain وجيلســـــون Gilson وكوبلستون Copleston وآخرون ) الى أن سبيل السلام والسعادة الكاملة يكمن فى الصعود المستمر للانسان نحو حيـــاة ظاهرة كاملة والذى هو تجسيد للرب ذاته • ويؤمن ماريتان بأن السلام لايمكن أن يتحقق « قبل زمان الازمة الكبرى والمصـــالح العظمى اللتين أشار اليهمـا القديس بولس • (١٦)

وتشيع فى الغرب نظرية النزعة العالمية حتى بات لها تاثير واســـع المدى دفع أنصار التوماسية الجديدة ورجال اللاهـــوت البروتســـتانتى الى الدعوة لاقامة « دولة عالمية » •

واذا كانت الفلسفات الحديثة تظهر لنا فى صور أصيلة الا انهــا ، على الرغم من ذلك ، ترتكز على نفس مبادىء الفلســـفات المثالية القديمة ، وذلك

(١٤) Ethics, July 1965, Vol. LXX, No.4,p. 307

(١٥) Ethics, July, 19»0, p. 315.

(١٦) اقتباس من مرجع هوروويتز سالف الذكر ص ٧٩ •

فى نهجها الذى تتناول به مشكلة الحرب والسلام وهو نفس النهج الذى تلتزم به فى واقع الامر ازاء عديد من المشكلات الاخرى • ولايزال هناك اتجاه عام الى تلمس القوى المحركة للتاريخ وجوهر الوجود الانسانى والاسس الموضوعية للنشاط البشرى الذى يستهدف بلوغ سلام دائم ، فى المجالات التى تكمن واقعيا خارج الوجود الاجتماعى البشرى والفردى •

واذا كانت كل الحلول الفلسفية والسياسية التى قدمتها الفلسفات البورجوازية الدينية والدنيوية تتضمن بعض النقاط الايجابية الا انها جميعها تجمعها قسمات مشتركة تجعلها حلولا غير مقبولة نظريا وعمليا • ونذكر من بين هذه القسمات تفسيرا غير عقلى للقوى الدافعة والاثار الفعالة لدى الفرد والمجتمع ، نظرة تشاؤمية شديدة التشاؤم للوضع الانسانى ، ميل الى اعتبار العلوم والتكنولوجيا والاشكال الاجتماعية القائمة هى العوامل والقوى المعادية أساسا وغريبة عن الانسان تماما ، التأكيد على أن الادراك الذاتى وكمال النفس هما الوسيلتان الاساسيتان لحل المشكلة الانسانية ، الايمان بأن خلال الانسان أمرا غيبيا تماما ، الالتزام بنهج مثالى تجريدى فى معالجة المشكلات السياسية المحددة واقعيا •

أما رالف بيرى مؤسس الواقعية الجديدة الامريكية فقد كان على خلاف الكثيرين من أقرانه الفلاسفة اذ كان دائما مدافعا غيورا عن سياسة السلام والتعاون الدولى • وذهب بيرى الى ان التعايش السلمى بين الولايات المتحدة الامريكية الدولة الرأسمالية وبين الاتحاد السوفيتى الدولة الاشتراكية أمر ممكن على أساس المصالح المشتركة بين النظامين طالما ان الحقوق العامة للفرد متشابهة بوجه عام • وذهب أيضا الى أن كلا النظامين يعنيه السلام قبل الحرب ، والتعاون قبل النزاع وقال لقد أصبح السلام فى الظروف الراهنة شيئا أكثر من مجرد خير اسمى : اذ كان ضرورة مجردة • (١٧)

حرى بنا هنا أن نلقى نظرة الى آراء الفيلسوف الانجليزى المرموق برتراند رسل عن الحرب والسلام • لقد تطورت كثيرا أفكار برتراند رسل طوال العشرين عاما الاخيرة حتى اصبح فى آخر حياته واحدا من أنشط وأخلص مؤيدى حركة السلام مؤمنا بأن التعايش السلمى هو السبيل الوحيد لانقاذ الحضارة • بيد أن موقفه الفلسفى ظل ثابتا من حيث انه ينظر الى مشكلتى الحرب والسلام فى حدود علم النفس الاجتماعى • وذهب رسل الى ان تحقيق السلام لاينطوى على احداث تغيرات اجتماعية اساسية فى مجال الشئون الداخلية والدولية ، بل ينطوى أيضا على تغيرات داخلية فى الانسان وفى معتقداته مما يحقق اتساقا انسانيا •

يتساءل رسل : هل للانسان مستقبل ؟

ويجيب قائلا بأن مستقبله سيكون فقط مايصنعه لنفسه • فاذا كان

(١٧) المرجع السابق ص ١٩٢ •

يسلك ككائن عاقل فان نظرته ستكون طيبة واذا أذعن للاهواء السياسية فان الحرب الذرية ستكون حتمية ٠

ويقترح رسل الاجراءات العلمية التالية لاقرار السلام فى عصرنا الراهن : أولا وقبل كل شيء نزع السلاح الذرى ، ثانيا حظر التجارب النووية ، ثالثا القضاء على مظاهر التهديد المتمثلة فى مبدأ الضربة الانتقامية الفورية ، رابعا حظر انتشار الاسلحة النووية عن طريق منعها عن البلدان التى لم تمتلكها بعد ٠

ويكتب رسل قائلا ان الدولة الكبرى غالبا ماتجد نفسها اليوم فى وضع شديد الصعوبة وبخاصة فيما يتعلق بنزع السلاح ٠ فكل جانب يخشى الجانب الاخر وقوته النووية ولذلك يحاول جاهدا زيادة قدراته النووية ٠ ولاريب فى ان الجانب الاخر يفعل نفس الشيء وهو مايعنى أن كل خطوة نحو الغاء التهديد النووى لاتفيد الافى زيادته ٠

وينتقد رسل الرأى القائل بأن الحرب جزء من الطبيعة البشرية وأن هذه الطبيعة البشرية لايمكن أن تتغير ٠ ويقول ان كل من يساند هذا الرأى ينسى ان الغريزة البدائية تلعب دورا ضئيلا للغاية فى حياة الانسان المتحضر ٠

لقد بدأ عديد من الفلاسفة البورجوازيين يعترف ويؤمن بالفكرة القائلة بأن السلام واجب التقدير والاجلال وان لابد من اتخاذ خطوات عملية ضد العديد من أنماط النزعة العسكرية والاتجاهات اللا ديمقراطية ٠ ويصدق هذا الرأى على موقف كل من برتراند رسل ، وجان بول سارتر ٠ اذ أن هذين الفيلسوفين يوحدان بين نشاطهما النظرى والاجتماعى والسياسى لصالح السلام والديمقراطية ٠ ولا ريب فى ان مساهمتهما النشطة فى الادانة العامة للحرب الامريكية فى فيتنام شاهد على شجاعتهما ودليل على احساسهما بمسئوليتهما الشخصية ازاء كل مايصيب الانسانية ٠ وتكشف بيانات ياسبرز الاخيرة على انه اقترب كثيرا من آراء المفكرين البورجوازيين من حيث موقفه العام من مشكلتى الحرب والسلام ٠ فقد أوضح فى مؤلفاته السياسية الفلسفية أنه لايزال واقعا تحت تأثير نهج ضيق محدود ازاء التطورات التى تحدث فى الحياة الدولية ٠ بيد ان فهمه لطريقة ظهور القوى اللاديمقراطية والعسكرية فى جمهورية المانيا الاتحادية أدى به الى تبنى موقف أقل وضوحا وتحديدا أثر بصورة حادة على ارائه وأحكامه ٠

ان كثيرين من الفلاسفة البورجوازيين الرجعيين يحاولون ، سواء بحكم الطبيعة الاصيلة لارائهم السياسيةوالفلسفية أو عمدا وقصدا ،.وسواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، يحاولون تبرير « سياسة القوة » ، ويعوقون دعم الامن الدولى وانهاء سباق التسلح ٠

بيد ان الفلاسفة التقدميين على اختلاف مدارسهم الفكرية يحاولون حشد كل القوى دعما لقضية السلام ويبذلون جهدهم لازاحة كل العقبات التى

تعوق التقدم ويروجون الاراء التقدمية فيما يتعلق بالمشكلات الحيوية لعصرنا الراهن ٠

وقد ساعد على تطور افكارهم مبادىء لينين عن التعايش السلمي والسياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي التى تستهدف تحقيق هذ المبادىء ٠ ان القضايا الاجتماعية الفلسفية التى تعرض لها الفلسفة البورجوازية المعاصرة تتميز فى مجموعها بأنها ذات طابع تأملي تجريدى قبلي ولاتتضمن المبادىء التى تفيد كأساس سليم لوضع برنامج سياسي عادل وواقعى للسلام ٠ وأكثر من هذا أن النظريات السياسية الواقعية والايجابية التى عرضها بعض الفلاسفة البورجوازيين على أساس تقديم واقعى لوقائع الموقف فى عالمنا اليوم تتعارض مع مقدماتهم الفلسفية ٠

ان مشكلات الحرب والسلام تتطلب بالضرورة معالجتها انطلاقا من منهج تاريخي محدد ٠ بيد ان الفلسفة البورجوازية المعاصرة تسودها بوجه عام مبادىء مجردة لايمكن أن نتوقع منها ان تقودنا الى حلول واقعية ٠

●

# الفصل السابع

# السيادة القومية والحرب

حظيت قضية الحروب باهتمام مبالغ فيه في الفكر الاجتماعي البورجوازي الحديث . واذا كنا قد شهدنا محاولات عديدة تبحث عن أصل الحروب في عوامل سيكولوجية وديموجرافية وجغرافية فان هناك ايضا نظرية ذائعة في بلدان الغرب الرأسمالي ترى ان السيادة القومية هي العلة الاولى للحرب . تقول النظرية ان السيادة القومية تفضي بالحكم الى فوضى دولية ، ومن ثم فان خلق مواطن عالمي وحكومة عالمية متجاوزة للقوميات هو افضل وسيلة لاقرار السلام . ويقول في هذا الصدد والت روستو Walt Rostow عالم الاجتماع الامريكي « تنشأ الحرب في نهاية الامر نتيجة وجود وقبول مفهوم السيادة القومية » . (١) ويرى بعض الباحثين البورجوازيين ان الطبيعة الدينامية للدولة القومية أحد المبررات الفلسفية الاساسية للحرب . (٢)

كيف نشأت مثل هذه النظرية ؟ وما الظواهر الموضوعية التي تعكسها ومادلالتها الاجتماعية ودورها الطبقي في العالم المعاصر ؟

لاريب في أن هناك رابطة بين الحروب والسيادة القومية ، ومن ثم فان هذه النظريات لها سند من الحقيقة . فقد شهد التاريخ على مدى بضع قرون في الحقبة الاخيرة أمثلة عديدة لحروب ( من بينها حربان عالميتان مدمرتان )

---

(١) W.W.Rostow: The Stages of economic growth, Cambridge, 1960, p. 108.

(٢) انظر نفس هذا الراى كما عبر عنه عميد جامعة بوسطون A.Knudson « ان التبرير الفلسفي للحرب لم يأخذ بعد صورة ثابتة . بيد أن هذا يمكن رده الى حجج ثلاث : الاولى ترتكز على الطبيعة القتالة للانسان والثانية الطبيعة الدينامية للدولة والثالثة الوظيفة المفيدة للحرب A.C. Knudson, The Philosophy of War and peace, New York, 1947, p. 20

شنتهما دول بورجوازية باسم السيادة القومية · بيد اننا نخطىء اذافسرنا هذه الرابطة على أنها علاقة سببية · ان مفهوم الحرب كظاهرة اجتماعية أوسع بكثير من مفهوم الحروب التى شنتها دول ذات سيادة قومية · لقد وقعت الحروب فى مراحل تاريخية مبكرة فى عصر النظام العبودى والنظام الاقطاعى ، وقبل قيام الدولة القومية بزمن طويل · وكانت بعض هذه الحروب شرسة ضارية ومدمرة الى أقصى الحدود مثل الحروب التى وقعت بين الامبراطوريات العبودية الكبرى أو الحروب الصليبية فى العصور الوسطى ومن اليسير علينا ان نجد فى التاريخ أمثلة لكل أنواع الحروب التى تختلف اختلافا بينا فى طبيعتها وطابعها الاجتماعى ، حروب غير عادلة وعدوانية وتوسعية ، وحروب عادلة وتقدمية وتحريرية ، وكانت القسمة المشتركة بينها جميعا سوسيولوجيا أنها تعبير عن استمرار مطرد لسياسة طبقة بذاتها · فكل مجتمع عرف التطاحنات الطبقية وعرف الحروب التى تمثل استمرارا مطردا لسياسة الطبقات المستغلة القاهرة ، وعرف حروبا تعكس التطلعات السياسية للمتهورين والتى كانت فى جوهرها احتجاجا مسلحا ضد القهر أو العدوان ·

ونحن نستطيع بشهادة تاريخ العالم أن نخلص الى نتيجة محددة مفادها أن الحرب قسمة أساسية مميزة لكل النظم الاجتماعية الاقتصادية التى تعرف التطاحنات الطبقية وأن الحروب العدوانية التوسعية كانت دائما وأبدا تعبيرا عن مصالح الملكية للفئات المستغلة التى تقبض على السلطة وتحاول توسيع نطاق سلطانها ·

ان الزعم بأن السيادة القومية هى العلة الاساسية للحرب زعم يتهافت أمام النقد الموضوعى فى ضوء وقائع التاريخ نظرا لان السيادة القومية هى ناتج أخير وحديث للتطور الاجتماعى التاريخى ، أى جاء بعد الحروب بكثير · بيد ان خصوم السيادة القومية كثيرا مايبنون حججهم على أساس الخبرة الراهنة وليس على اساس التاريخ · ونراهم فى محاولتهم لدعم مطالبهم لالغاء السيادة القومية يشيرون الى اتجاهات التكامل الاقتصادى والسياسى فى العالم الرأسمالى الراهن · مثال ذلك مايقوله د · ب · هيتر D.B. Heater فى كتابه « الافكا السياسية فى العالم الحديث ، « العالم ينكمش · لم تعد الوحدات الاقتصادية هى الامم بل كتل الاسترلينى والدولار والاتحادات الاقتصادية للسوق الاوروبية المشتركة · بيد ان من الاهم من هذا كله الاتفاق غير القومى الذى تحقق فى أوروبا الغربية متمثلا فى حلف شمال الاطلنطى » · (٣)

وهناك هنرى أوين رئيس مجلس التخطيط السياسى فى الولايات المتحدة الامريكية ، الذى يقول « ان الدولة القومية الصناعية الحديثة عاجزة عن

---

(٣) D.B. Heater, Political ideas in the modern world, London, 1964, p. 71.

أن تفي باحتياجات العصر » (٤) ويعنى بذلك تنظيمات مثل البنوك الدولية والسوق المشتركة وغيرها ٠

ان الاتجاه الراهن نحو التكامل الاقتصادى انما تمليه احتياجات قوى الانتاج التى بلغت مرحلة عالية من التطور ٠ ومع هذا فان الوسائل التى تجلت بها هذه الاتجاهات تتباين تباينا واضحا وكبيرا على اساس محتواها الاجتماعى ٠

وتقدم لنا العلاقات الدولية الحديثة شاهدا قويا يؤكد ان تقسيم العمل الدولى الذى يتطور على اساس من التطبيق الاجتماعى التقدمى يفضى الى اقامة علاقات متبادلة نافعة أساسها المساواة الكاملة التى تكفل التقدم الاقتصادى فضلا عن أنها لاتهدد بل تدعم عمليا السيادة القومية للبلدان المعنية ومن ناحية أخرى فان التقسيم الدولى للعمل الذى يتطور على اساس الامبريالية يفضى حتما الى مزيد من الاستغلال والقهر والاستعباد ( للامم الاضعف من جانب القوى الامبريالية ) ٠

ان الرأسمالية ترتكز على اتجاهين تاريخيين أصليين فى نظرتها الى المسألة القومية ٠ الاتجاه الاول اساسه ايقاظ الحياة القومية وبعث الحركات القومية وخلق الدول القومية ، والثانى تدمير نزعة التفرد القومى والذاتية القومية بضم الاراضى وتوحيدها نتيجه زيادة التكافل الاقتصادى بينها ٠ ويعتبر الاتجاه الاخير قسمه اساسية مميزة للمرحلة الامبريالية للرأسمالية ، وهو اتجاه قوى الان تحت تأثير قانون التطور غير المتكافىء للرأسمالية فى الوقت الذى تتقلص فيه الدائرة العامة للاستغلال الرأسمالى ٠

وتعكس أيضا الاتجاهات عبر القومية التطلعات السياسية للرأسماليين من أجل الوحدة بهدف دعم مراكزهم مقابل القوى الرئيسية للعملية الثورية العالميه ــ أعنى مواجهة النظام الاشتراكى وحركة الطبقة العاملة وحركة التحرر الوطنى ٠ وقد أدى هذا الموقف الى تطور لم يسبق له مثيل للاتجاه المميز للامبريالية نحو استعباد ليس فقط البلدان الزراعية ، بل أيضا البلدان الصناعية المتقدمة التى حققت لنفسها بالفعل كيان دولة قومية ٠ ان رغبة الدول الرأسمالية الاقوى فى السيطرة على الاقطار الاضعف بما فى ذلك شريكاتها ، لكى تملى عليها ارادتها أو على الاقل لكى تمارس عليها ضغطا يدفعها الى الاذعان لسياستها يأخذ شكل دعوة هذه البلدان أو حثها على الارتباط بعديد من اشكال التنظيمات عبر القومية ٠ وهذا من شأنه ان يؤدى الى ظهور صراعات حادة للغاية داخل الكل والاتحادات الامبريالية عبر القومية ٠ ويكمن وراء هذه الصراعات ، كما قال لينين منذ عهد بعيد ، الصراع العميق الغور والحتمى ، صراع المصالح بين البلدان الامبريالية ٠ ولقد تأكد

---

(٤) Policy premises for the next Administration Foreign Affairs, No. 4, 1968, p. 701

صـــدق كلام لينين في ضوء الصراع الشرس الدائر الآن بين الاوســـاط الامبريالية في مجال المنافسة الاقتصادية وحول العديد من القضايا السياسية الدولية ، ولعل اوضح مثال على ذلك النزاع بشأن انشاء قوة نووية جماعية كدول حلف الاطلنطي ، ولا ريب في أن هذا كله يقف دليـلا ضد مزاعم دعاة التكامل القائلين بأن الدول الامبريالية قادرة على التقدم دون صراع أو نزاع بشرط ان تكون سيادتها محددة ..

ان الاتجاه الى التدويل له محتـــوى اجتماعي محـــدد وثابت دوما . فمنظمات مثل حلف الاطلنطي أو السوق المشتركة لها طابع امبريالي محدد ، كما تخرق السيادة القومية لشـــعوب اخرى ، فهي تمثل بالفعل محاولات الفئات الامبريالية الرجعية لفرض ارادتها على الشعوب الاخرى ابتغاء مصالحها الانانية .

ولهذا فان اى موقف سلبي من السيادة القومية في الظروف الراهنة هو في جوهره موقف رجعي مهما كانت العواصف السياسية لاصحاب تلك الاراء .

ان خصوم مبدأ السيادة القومية ، بما في ذلك اولئك الذين يساندون نظرية « الفوضوية الدولية » والذين يرون السيادة القومية العلة الاساسية للحرب ، يضـــمون اناسا من اتجاهات سـياسية شـديدة التباين ابتداء من المحافظين والفاشيين الجدد والعسكريين الليبراليين واعداء النزعة العسكرية .

ولنحاول ان نلقي معا نظرة على اسباب اتساع مدى الاراء الســـياسية التي يؤمن بها انصار هذه النظرية وان نبحث معا مضمون النظرية ذاته .
اذا شئنا معرفة السبب في مســـاندة المحافظين والرجعيين لنظرية الفوضـــوية الدولية وجب علينا ان نبحث اولا وقبل كل شيء في موقعهم الطبقي وفي الظروف التي يتصرفون من خـــلالها . ان المفكرين الرجعيين يرفضون مبدأ ان الامم متســـاوية ويســـاندون « سياسة القوة الامبريالية العدوانية » . وبديهي بأن مبدأ السيادة القومية يتعارض مع سـياسة القوة حيث ان مبدأ السيادة القومية يقضي صراحة بأن التدخل في الشئون الداخلية للبلدان الاخرى عمل غير مشروع كما يستلزم احترام مبدأ عدم انتهاك اراضي الغير واحترام مبدأ الاستقلال السياسي ، ويؤكد ان الامم جميعها صـــغيرها وكبيرها أمم متساوية .

ويحذو المفكرون الفاشـــيون الجدد في تبريرهم للحرب والعنف حذو أسلافهم ويرددون ما قالوه في الماضي . ولكن نظرا لخطورة ترديد نفس حجج النازي القـــديم في الدفاع عن العدوان فانهم يلجأون الى منهج جـديد قوامه الجمع بين الدعاية للحرب وبين عبارات النفاق عن الحـاجة الى انهاء الحروب . وتتلاءم النظرية القائلة بأن السيادة القومية هي العلة الاســـاسية للحروب تتلاءم مع اغراضهم تماما .. ولهذا فان انصـــار النزعة العســكرية يمجدون صراحة الحرب كوسيلة للسيطرة على العالم ضد الدول ذات السيادة ويضيفون ان مثل هذه الحرب ستضـع نهاية للحروب ذلك لانها ستضـع نهـاية لمبدأ السيادة القومية .

وتجد مثل هـــذه الاراء دعما وتأييدا من بعض النظريات المعروفة فى الماضى فى مجال الفكر السياسى والتى كانت فى حينها تعكس الاهـــداف السياسية للطبقات المستغلة • وترى هذه النظريات ان القوة ودعم هذه القوة وزيادتها جانب اصيل فى طبيعة الدولة • وتعالج السيادة على انها مظهر قوة فحسب ، وان الحرب عاقبتهـــا الحتمية • وتتضمن هذه النظريات انكارا لحق الامم الصغيرة فى الوجود •

وكان أوضح الفلاسفة تعبيرا عن هذه الاراء الفيلسوف الانجليزى هوبز ( ١٥٨٨ ــ ١٦٧٩ ) والمؤرخ الالمانى الرجعى هو فون تريتشك Treitschke ( ١٨٢٤ ــ ١٨٩٦ ) وفردريك نيتشه ( ١٨٤٤ ــ ١٩٠٠ ) • بل ان تريتشيك وصل به الامر الى حد القول « ان وجود دولة صغرى أمر مضحك يقينا » (٥) وقال « استخدام القوة هو النتيجة المنطقية لطبيعة الدول » « • ان مجرد وجود عديد من الدول يجعل الحروب ضرورة » (٦) ولاتزال هذه الاراء تتردد فى عالمنا اليوم وبأســـلوب جديد ، ولكنها كما كانت فى الماضى تعبيرا عن تطلعات عدوانية رجعية .•

ويقدم لنا المفكـــر الامريكى الفاشى الجديد ك • ويكام Wickum افكارا مماثلة لتلك • انه يستند فى فكره الى تريتشك وترائه عن القوة الغاشـــمة والحروب العدوانية والنزعة الشوفينية والعرقية • ويخلص ويكام من هذا كله الى رأيه الذى يقول فيه « ستقع الحروب حتما طالما وجدت دول عديدة » ، بيد انه يفسره على نحو مغاير • يقول « اذا كان للانسان أى منهج فى جنونه فانه سيعتبر الحروب التى تنشب نتيجة كثرة عدد الدول هى على الاقل وســـيلة لخفض هذه الكثرة • هذا اذا هو جوهر النزعة القومية العالمية الجديدة • واذا تسنى لنا بفضل هذا الضرب الجديد من الحرب الهادفة ان نحقق الوحدة فى نهاية الامر اذا يكون قد توفر لنا مبرر الغاء الحدود القومية وأوضاع السيادة ، بل والاستعباد الوقتى للامم المهزومة من جانب الامم المنتصرة • » (٧)

ونطالع عظات مماثلة تبشرنا لعدوان فى الاراء والنظريات الداعية الى انشاء دولة عالمية ، وهى الاراء التى يقدمها عديدون من دعاة المواطنة العالميـــة الحديثة • ونذكر من بين هؤلاء أ • رفيس E. Reves الذى الف كتابا احـــدث ضجة كبرى فى الغرب وقت صدوره ، ويحمل الكتاب العنوان التالى « تشريح السلام » ويقول فيه : « اذا تعذر علينا تحقيق النزعة العالمية وتطبيقها عمليا وخلق اتحاد عالمى بالاساليب الديمقراطية وبالرضى والاتفاق المشترك نتيجة تفكير عقلى ــ اذا وجب علينـــا دون ابطاء ان نعجل بالوحــــدة عن طريق الغزو • » (٨)

---

(٥) H. Von treitschke, Politik, Leipzig, 1922 Band I, S. 34.

(٦) نفس المرجع جـ ٢ ــ ص ٥٩٢ •

(٧) C. Wickum: The total state. A philosophical interpretation of contemporary and future society, Boston-Mass., 1964. p. 73-74.

(٨) Emcry Reves, The Anatomy of Peace, New York, London 1945, p. 264.

ويرى بعض خصـــوم السيادة القومية ان ليس ثمة ضرورة للتظاهر بالتعاطف مع « الاساليب الديمقراطية ·· » وهكذا نجد ك · ويكام ســالف الذكر لا يحاول اخفاء الجوهر اللا ديمقراطى لارائه ، بل نراه يقول فى سفور ان السيطرة العالمية مثل أعلى ويبرر الحرب وسيلة لتحقيق هذا الهدف ، وينتقد الســيادة القومية كعقبة فى الطريق · ويذهب الى ان فكرة الحكومة العالمية نرجع الى أيام كونفشيوس والاسكندر الاكبر والرواقيين الرومانيين بيد أن « التطبيق العملى للحكم العالمى أصبح الان فقط ممكنا وواقعيا · » (٩) ويرى التحقق العملى لهذا المثل الاعلى متمثلا فى الصراع من اجل السيطرة على العالم تحت قيادة الولايات المتحدة الامريكية ·

ان ويكام لا يستشعر خجلا أو وخز ضمير وهو يمجد الحرب والعنف فى دعوته للحكومة العالمية كمثل أعلى · يقول : « يجب ان نكون مهيئين للاقتناع بأن الوسائل التى ستحقق بها الدولة العالمية ستكون وليدة ظروف قاهرة ، وليست وليدة احلام وردية ·· وسوف تكون من بين هذه الوسائل على وجه اليقين القوة المسلحة والقهر بعد الحوار والضغط الاقتصادى ·» (١٠)

وجدير بالذكر ان أيديولوجيا النزعة العســكرية والعنف تنتقد مبدأ الســيادة القومية ، بل ومبدأ الديمقراطية بوجه عام كما تنكر حق الدول الصغيرة فى البقاء · ويقول ويكام دون خجل : « اذا كانت الديمقراطية تعنى حق تقرير المصير لكل شرذمة صغيرة تحتل مسافة جغرافية تافهة وترغب فى نفسها ان تكون دولة اذا وجب علينا مكافحــة الديمقراطيــة مكافحتنــا للطاعون · » (١١)

ولكن ماذا عن الامم المتحــدة ؟ وماذا عن القانون الدولى ؟ يقول ويكام ليست هناك قاعدة قانونية معترف بها فى العلاقات الدولية ونحن نغرق فى الاحلام اذا تصورنا وجود شىء كهذا ؟ » (١٢)

اما عن الامم المتحدة فيقول « ان الامم المتحدة اليوم ·· ضمان يكفل السيادة القومية او نزعة التعدد ·· انها لا تصلح أداة للســلام العالمى أو وحدة عالمية ســلمية · اذا طالما كانت هناك قوى ذات ســيادة ســتظل الحروب · » (١٣)

يتضح لنا بذلك ان « الحجة » المزعومة التى يســتند اليها ويكام لدعم ندائه العسكرى العدوانى لكى تكون الحرب اداة للسيطرة على العالم ان هى الا الرأى الزائف الذى يقول ان الســيادة القومية تفضى حتما الى الحروب ·

(٩) ك· ويكام · نفس المرجع ص ١٦٥ ·
(١٠) نفس المرجع — ص ١٠٣ ·
(١١) نفس المرجع — ص ١١٤ ·
(١٢) نفس المرجع ص ١٥٠ ·
(١٣) نفس المرجع ص ١١٤ ·

والنتيجة التى يمكن استخلاصها من اراء ويكام ونظراته الفاشية الجديدة هى ان السيادة القومية تمثل اللعنة فى نظر الرجعية الامبريالية لانها عائق فى سبيل توسعها وتحقيق امالها فى السيطرة على العالم . وفى نفس الوقت فان النظرية القائلة بأن « السيادة القومية تفضى دائما الى الحرب » تفيد كقناع ملائم للمدافعين عن العدوان ، وتمكنهم من اتخاذ مظهر زائف للدفاع عن السلام يخفون وراءه الدعوة الى الحرب .

ان ادانة السيادة القومية ومحاولة زعزعة الثقة فيها يفضيان حتما الى تبرير الحرب والنزعة العسكرية .

بيد ان الملاحظ فى بلدان الغرب الرأسمالى ان ادانة السيادة القومية كثيرا ما تواكب الترويج لافكار ضد النزعة العسكرية وتلازم الدعوة للسلام . وهذا هو الحال غالبا مع كثيرين من الليبراليين ، بل والتقدميين والباحثين المعادين للنزعة العسكرية الذين يرون ان الغاء السيادة القومية واقامة دولة عالمية هما السبيل الوحيد لاقرار السلام .

وهناك المؤرخ الامريكى المشهور وخبير الشئون الدولية ف . شومان الذى يقول فى كتابه ، « التحفة الكبرى » ان التزايد المستمر فى عدد الدول المستقلة ذات السيادة يسبب تفاقم حالة الفوضى الدولية ويشكل سببا للقلاقل والعنف ويذهب الى ان السبيل الوحيد لاقرار السلام هو الاشتراك الاختيارى فى اقامة جمهورية فيدرالية عالمية نتيجة الاتفاق بين الحكومات والشعوب . (١٤) ونجد هذا الاسلوب فى التفكير مشتركا بين الباحثين البورجوازيين . انهم يغفلون أو يجهلون الاسباب الطبقية للنزعة العسكرية ويخفقون فى تبين التطاحن الاساسى بين النظامين الاجتماعيين الاقتصاديين الاساسيين الموجودين الان فى العالم . ويصطنعون كل اشكال المشروعات الخيالية لاقامة حكومة واحدة تتجاوز الحدود القومية .

وواقع الامر ان تبنى أى من هذه المشروعات سيتضمن رفضا للمبادىء الديمقراطية سواء فى الشئون الداخلية للدولة أم فى العلاقات الدولية .

ولنحاول معا ان ندرس بعض الحجج المستخدمة فى الدفاع عن مثل هذه الاراء .

ان الكاتب والناشر البريطانى ن . أنجيل من أوائل الباحثين الليبراليين البورجوازيين الذين أكدوا ان السيادة القومية علة اساسية للحرب . وقد اطلق انجيل على أهم كتبه التى عالجت مشكلات الحرب والسلام اسم « الوهم الكبير » . (١٥)

---

(١٤) Frederick L. Schuman, international politics, The Western State system and the world community, New York toronte, London, 1958, p. 391, 678.

(١٥) N. Angell, The Great Illusion, London, 1911.

ويلاحظ ان النهج الميتافيزيقي التجريدي الذي التزم به انجيـــل في معالجته لموضوع القومية حال دونه وادراك الطبيعة الطبقية للقوى صـــاحبة النفوذ الاجتماعي والاقتصادي داخل الدولة القومية • وعجز لهذا السبب عن تقديم تحليل موضوعي دقيق ومحدد للقضية موضوع البحث كما عجز بالتالي عن تقديم تفسـير أو تجاوز الوضـع القومي Supernationalism والروابط الفوق قومية لرأس المال • ووقع في الخطأ الاســاسي وهو وضـــع الروابط الدولية في وضع مثالي والتسليم بالاســطورة القائلة بأن رأس المال هو في جوهره عامل سلام • وكان اندلاع الحرب العالمية الاولى عقب صـدور كتابه بفترة قصيرة خير رد على « الوهم الكبير » •

بيد ان انجيل لم يتراجع وواصـــل دفاعه عن نظريته وعاد في حوار عقدته جمعية السياسة الخارجية الامريكية في نيويورك عام ١٩٣٢ وأكد ان « السبب الاساسي للحرب •• والعلة الاساسية الحقيقية هما ، فيما اعتقد ، الفوضوية الدولية •• اذ من المستحيل على الفوضوية أن يكون لها دور فعال في المجال الدولي ، مثلما هو مستحيل على الفوضوية ان يكون لها دور داخل الدولة ، لكي تهيء لنا ســبل العيش في ســـلام داخل حدود الامة بدون المؤسسات الحكومية وبدون قانون أو دستور او محاكم • » (١٦) لقد كانت علة الصراعات الدولية هي « انفصال واستقلال الهيئات القومية • » (١٧)

وتنبأ انجيل بصراع يقع في المستقبل بين اتجاهين : تطور القوميـــة مما ينجم عنه توتر دولي وعداء وصراع مســلح ، والمجاهدة الواعية « لاقلية مستنيرة من اجل اقامة منظمة عالمية قادرة على اقرار السلام • وصادفت اراء انجيل هذه قبولا من فلاسفة ليبراليين وعلماء اجتماع ورجال قانون وناشرين وكان اكثرهم يؤمن بأن المواطنة العالمية هي السبيل الوحيد لاقرار الســلام وللتخلص من الحروب •

وذاعت هذه النظرية بصور مختلفة وقام بترويجها اعداد من الباحثين الامريكيين والبريطانيين والفرنســيين والالمان وغيرهم •• ولكن اكثر من عبر عنها صراحة الفيلســوفان الامريكيان م • ادلر M. Adler و أ • فرويد A. Freud (١٨) أما ادلر ، استاذ فلسفة القانون بجامعة شيكاغو فيؤمن بأن اقرار السلام لا يقتضينا فقط تحديد نطاق السيادة القومية ، بل يستلزم الغاءها تماما والعمل فورا على اشاعة وتأكيد الحاجة الى اقامة حكومة عالمية • ونطالع في مقدمة كتاب ادلر « كيف نفكر في الحرب وفي السلام » • ما قاله كليفنتون فاديمان : « شيء ما سيكون علة الســـلام العالمي • انه الحكومة العالمية • وشيء ما يسبب الحرب • انه الفوضوية • وشيء ما يسبب الحروب

---

(١٦) A. Angell, «What Causes War? N.Y. Lurcheon Discussion», Foreign policy Association, Dec. 17, 1932 p. 10

(١٧) نفس المرجع ص ١٢ •

(١٨) M. Adler, How to think about war and peace New York, A Freud, of Human Souvereignty, New York, 1964.

العالمية . انه الفوضوية العالمية » .. « ان السيد ادلر يمســـك الثور من قرنيه . وسوف يأتي الوقت لنعرف اسم الثور على حقيقته . ان اســـمه .. السيادة » . (١٩) ويقول : « ان ثمن السيادة هو الحرب » .

ان الفشل الاســـاسي الذي يصم نظرية ادلر يرجع الى انه اغفل تماما العوامل الاجتماعية الاقتصادية وأرجع كل قضايا الحرب والسلام الى مشكلات تنظيم الحياة السياسية التي تصورها على نحو تجريدي . وهكذا عالج مسألة السيادة القومية اذ ردها الى الفوضوية والارادة الذاتية . يقول « الفوضوية هي الوضع الذي يعيش فيه أولئك الذين يريدون العيش بغير حكومة .. ان الفوضوية والسيادة لا ينفصلان . » (٢٠)

ويطور أ . فرويد نفس الفكرة مؤكدا ان « الحرب هي النتاج المبـــاشر للسيادة القومية (٢١) . » انها نظامنا العالمي السياسي والفوضوي للسيادة القومية . » (٢٢) فهي المسئولة عنها ويقول « أصبحت الدولة القومية من آثار العصور الغابرة » (٢٣) .

ويحدد معنى السيادة القومية بقوله : « .. الدول القومية تبني مزاعمها على خلفية « قومية » غيبية غامضة وقد استأثرت بحق العمل دون اعتبار لاى قانون اخلاقي . ويسمى هذا الحق أو الامتياز « السيادة القومية . » (٢٤)

وينطوي مثل هذا الاسلوب في عرض الموضوعات على تشـــويه لمعنى السيادة . فالسيادة لا يمكن ردها الى الارادة الذاتية والفوضوية في الشئون الدولية ، بل انها تفيد في مواجهتها والتصدي لهما . ان مبدأ الســـيادة يتضمن حق مقاومة الافعال التحكمية طالما وانها عنصر عضـــوي من النظام الكامل للمفاهيم التي تؤلف القانون الدولي .

أما عن مبدأ السيادة القومية فانه لا ينفصل عن المفاهيم الديمقراطيـة للتقدم الاجتماعي حيث انه يفترض مقدما الحقوق المطلقة لامة واحدة بذاتهـا في كل ما يتعلق ببنائها الاجتماعي الاقتصادي والسياسي . ان سيادة الدولة هي حرية كاملة للدولة تحظر تدخل اى دولة اخرى في كل ما يتعلق بشئونها الداخلية وعلاقاتها الخارجية . وتتضمن في كل المجالات احتراما لاســـتقلال وذاتية أي امة من الامم صـــغيرة او كبيرة . وتتضمن الســـيادة بالضرورة الاعتراف بمساواة الدول ذات السيادة واحترام حقوق السيادة لكل الامم .

---

(١٩) آدلر نفس المرجع ـ المقدمة ص ١٢ ـ ١٤ .
(٢٠) نفس المرجع ٦٦
(٢١) أ . فرويد . المرجع سالف الذكر ص ٨٢
(٢٢) نفس المرجع ص ٨٦ .
(٢٣) نفس المرجع ص ٣٣٢
(٢٤) نفس المرجع ص ٢ .

وهكذا لا يتضح لنا فقط ان السـيادة فى اتساق كامل مع التنظيم والترتيب للعلاقات الدولية ، بل ان الاعتراف بالسيادة يفيد علمياً كأساس للاتفاقات الدولية ويشكل الاساس والسند للقانون الدولى • ان مبدأ السيادة يدعم كل المبادىء المسـلم بها عالميا فى مجال القانون الدولى والتى يعتبر مراعاتها شرطا اساسيا للتعاون بين الشعوب والدول •

ويقول الاسـتاذ الامريكى شـارلس هايد فى كتابه المؤلف من ستة مجلدات عن القانون الدولى ان السيادة هى اساس القانون الدولى الحديث • « ان تطور القانون الذى يحكم العـلاقات بين الدول تميز فى التطبيق العملى بقبول النظرية القائلة ان مجتمع الامم يتألف اولا من عـدد من الدول التى يطلق عليها اسم الدولة المستقلة اى التى تتشـابه جميعها من حيث الاعتراف بأن ليس ثمة ما يلزمها باقرار وجود قوة أعلى ، وتقف جميعها بالتالى على قدم المساواة امام القانون • ان اساس القانون ، أى ما اعطى بعض المبادىء المتعلقة بامكانية التطبيق العام صفة القانون وطابعه ، هو القبول من جانب العديد من الدول المستقلة والتى يحكمها نفس المبدأ • » (٢٥)

هذا المبدأ المشهور فى القانون الدولى يلقى اليوم اسـتهانة من جانب العديد من القوى الامبريالية وبخاصة الولايات المتحدة الامريكية ، ويلجـأ هؤلاء الى نظرية الفوضوية الدولية « التى تقول ان السيادة القومية هى علة الحروب ، ويستخدمونها لتبرير الاتجاهات السياسية العدوانية لرأس المال الاحتكارى » •

وثمة جانب آخر لهذه النظرية يجعلها مرفوضـة علميا ، وهو معالجتها الشائهة للتقدم الاجتماعى • مثال ذلك أن آدلر يعتبر تطور المجتمع • الانسانى ليس سوى عملية نمو أو زيادة كمية فحسب ، عملية اتساع متصل متضمنا تكوين وحدات اساسية أكبر فأكبر •

وبناء على هذا المنهج الزائف يتساءل آدلر عن حق الدول القومية فى البقاء وينتقد السيادة القومية لانها تعوق عملية الاتساع السياسى التى يراها عملية محتومة والدولة العالمية هى الحد الطبيعى لهذا الاتساع وهى المرحلة الأخـيرة لهذا النمو السياسى الذى تلتحم فيه وحدتان أساسيتان :

١ ـ وحدة عالمية كركيزة أرضية للحياة السياسية ،

٢ ـ وحدة الانسانية يقهر كل الفوارق العرقية أو الثقافية باعتبار هـذه الوحدة الأساس السيكولوجى للمواطنة العالمية • (٢٦)

ان اسلوب آدلر فى الحاجات يكشف عن نفس الخطأ المنهجى الأسـاسى

---

(٢٥) Charles Cheney Hyde, International Law chiefly as interpreted and applied by the United States, Boston, 1947, Vol. I. p. 4.

(٢٦) آدلر ـ المرجع سالف الذكر ـ ص ٦٩ •

ـ محاولة رفع المقولات السياسية الى مستوى المطلقات المستقلة تماما عن العوامل الاجتماعية ـ الاقتصادية • اذ يرى الدولة في بعدين اثنين فقط ـ البعد الارضى والبعد البيولوجى ـ ويعتبرها تنظيما يوحد كل الجنس البشرى • بيد أن تطور الأشكال السياسية لايمكن النظر اليه بمنأ عن العامل الحاسم الاجتماعى الاقتصادى للدولة وطبيعتها الطبقية •

ويتضمن استدلال آدلر العقلي فكرة تقول ان الدولة العالمية التى يتحدث عنها ستكون انعكاسا اقتصاديا واجتماعيا للدولة الامريكية على مستوى عالمى • ويرى ايضا ان الظلم الاجتماعى أو عدم المساواة قسمة حتمية فى الدولة العالمية وانتاج للحاجات الوظيفية للمجتمع • ويرى كذلك ان من وظائف هذه الدولة كبح الصراع الطبقى بالقهر والارغام • (٢٧)

ان هذه النظرة الى الدولة العالمية بالاضافة الى رفض مبدا السياده القومية يصبغ نظرية آدلر بصبغة رجعية تماما • اذ انها موجهة على هذا النحو ضد حركة التاريخ التقدمية وضد التطور التدريجي للمجتمع وبلوغ الكمال به ، وهى عملية لاتنفصل ابدا عن النشاط الابداعي للجماهير •

ان الاعتراف بمبدأ السيادة القومية عنصر جوهرى فى النظرية العلمية عن التقدم • لقد ظهر هذا المبدا انعكاسا لظهور الأمم على مسرح التاريخ وافاد مصالح التقدم الاجتماعى طالما كان موجها ضد الاقطاع • وكان مبدأ السيادة القومية منذ نشأته مبدأ ديمقراطيا هاما وكان يجرى تفسيره على انه حق الأمة فى تقرير مصيرها • ونذكر هنا توماس جيفرسون رئيس الولايات المتحدة وأحد الزعماء التقدميين في عصره فقد قال مؤيدا مبدأ السيادة الشعبية « ما أن يصبح أى شكل من أشكال الحكم سلطة مدمرة لهذه الأهداف » ( يعنى حقوق للانسان ) فانه يكون من حق الشعب أن يغير السلطة او يقضى عليها ويقيم حكومة جديدة ترتكز على نفس المبادىء وتنظم السلطة طبقا لهذه الصورة اى على النحو الذى يرى الشعب انه كفيل بأن يحقق له الأمن والسعادة •

ان السيادة القومية بمعناها الأعم هى المبدأ القائل بأن كل الامم متساوية في الحقوق ، حق الاستقلال والوحدة القومية وتقرير المصير بما فى ذلك حق تكوين دولة مستقلة ، وكذلك الحق فى أن تقرير باختيارها تطويرها الاقتصادى والاجتماعى السياسى والثقافى • (٢٨)

---

(٢٧) نفس ص ٢١ — ٣٠ — ٤٢ — ١٩٠ •

(٢٨) مبدأ السيادة القومية مماثل لمبدأ سيادة الدولة (حيث تكون الامة قد كونت دولتها) ولكن أولى بنا الا نخلط بين الاثنين حيث أن سيادة الدولة وجدت قبل تكوين الامم بينما يمكن أن تكون للدول المتعددة القوميات سيادة دولة أيضا . وسيادة الدولة هى الاستقلال التام للدولة وتحررها من أى تدخل أجنبى من قبل أى دولة أخرى فى كل شئونها الداخلية وفى كل مايتعلق بعلاقاتهاالخارجية . والمضمون الاساسى للسيادة القومية هو حق كل أمة وشعب فى أن يقررا مصيرها بنفسهما ولنفسهما .

واذا كان عصرنا يتميز بأنه عصر الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية فان وجود نظام اشتراكي عالمي وتحقق انتصارات تاريخية لحركة التحرر الوطني جعلها مبدأ السيادة القومية لايتضمن فقط دلالته التقدمية السابقة بل ينطوى أيضا على مضمون جديد • انه يتضمن الان مايفيد حماية وصون مصالح شعوب كل الاقطار كبيرها وصغيرها ، ويتضمن ايضا الاعتراف بحق كل امة فى أن تختار بملء حريتها طريقها الخاص في تطورها الاجتماعي والاقتصادى سواء أكان طريقا رأسماليا ام غير رأسمالي •

وهكذا يمثل السيادة القومية راس رمح موجه ضد التوسع الامبريالي وضد كل محاولات الامبريالية لمنع الشعوب من أن تصبح سيدة قدرها ومسيرها •

ترى لماذا صادفت نظرية « الفوضوية الدولية » قبولا وحظيت باهتماما كثير من المثقفين في الولايات المتحدة الامريكية وفى أوروبا الغربية على الرغم من انها نظرية متهافتة ؟ ولماذا نرى الباحثين المعادين للنزعة العسكرية والشخصيات الجماهيرية فى الغرب الرأسمالي يسوقون آراء مطابقة او مماثلة الى حد كبير ، لآراء آدلر ؟

هناك اسباب عديدة اهمها الجذور المعرفية ( أسس النظرية المعرفة ) Gnosiological لنظرية الفوضوية الدولية • فالنظرية كما رأينا سابقا لها اساس موضوعي يكمن فى السياسة التوسعية العدوانية للطبقات المستغلةصاحبة السلطةوالنفوذ سواء اليوم او فيما مضى • انالقسماتالرجعية اللاديمقراطية للسياسة التقليدية للبلدان الامبريالية ( دون الدخول فى الجوهر الاجتماعى لهذه السياسة ) ترتبط فى سهولة ويسر بالطبيعة القومية للدولة وبالسيادة القومية بوجه عام •

ولكن المفكرين البورجوازيين يحاولون عبثا اصطناع الحجج ضد مبدأ السيادة القومية • وهم فى محاولاتهم هذه يتأملون القسمات من سلسلة الأحداث المعاصرة ويؤولونها بصورة تعسفية ايضا ويبتكرون انماطا من التطور الاجتماعي غير قائمة •

ان بعض الفلاسفة وعلماء الاجتماع الوضعيين (مثل أجبورن) لايرون غير الجانب الكيفي للعمليات الاجتماعية ويقيمون علاقة علية مباشرة بين مستوى التطور التكنولوجي ( الذى يردونه غالبا الى سرعة وسائل الاتصال ) ومساحة الوحدات السياسية « اى اراضى الدولة » ويجعلون منه اساسا لحجتهم لتأييد الدعوة الى الغاء الحدود القومية •

ليس هناك من ينكر أن التكنولوجيا تلعب دورا هاما للغاية فى التقدم الاجتماعى • ولكن اولى بنا لا نفكر فى التكنولوجيا وحدها وبمعزل عن كل ماسواها ، بل باعتبارها جزءا عضويا فى نظام من العلاقات الاجتماعية اى جزءا وجانبا من اسلوب الانتاج الاجتماعي ككل • هذا فضلا عن انه لاتوجد اى علاقة سببية ملحوظه بين سرعة وسائل الاتصال وبين مدى اتساع ارض الدولة •

وليس بالا مكان القول بأن الحدود القومية في ذاتها تعوق التقدم

التكنولوجى وتطور قوى الانتاج • وهكذا نجد قوى الانتـاج تتطور فى ظـل النظام الاشـتراكى بمعدلات لم يسـبق لها مثيل على الرغم من ان النظام الاشتراكى نظام اجتماعى واقتصادى وسياسى لامم ذات سيادة •

ان الروابط الدولية الرأس المال روابط رجعية قائمة على الاستغلال ولهذا فمن البديهى أن يشكل مبدا السيادة القومية عقبة فى طريقها • ولكـن صراع الشعوب لتحرير نفسها من استغلال الاحتكارات ، قومية كانت ام دولية ، انما يمثل على وجه القطع واليقين ظاهرة تقدمية • ولهذا نخطىء اذ نمتدح مبـدأ تجاوز القوميات بصورته المجردة وننتقد الأطر القومية فى صورتها العامة دون الاشارة الى حالات نوعية متميزة • ويجب اولا ان نحـدد الطبيعة الاجتماعية الاقتصادية لنسق محدد من الروابط الدولية ونتبين ما اذا كانت قائمة على مبدأ المساواة والمصلحة المتبادلة وما اذا كانت تفيد لدعم التطور والتقدم والرفاهية للأمم المعنية ، وما اذا كانت تكفل المساعدة والتأييد للشعوب التى تخلفت عن ركب التقدم الاقتصادى نتيجة النهب الاستعمارى •

ان حركات التحرر الوطنى التى تستهدف تحقيق السيادة القومية تدعم أولا وقبل كل شىء الغاء القهر السياسى ، وهو واحد من اقبح القسمات الاجتماعية واكثرها مجافاة للانسانية • ولكن التقدم الاجتماعى يتضمن تحرير المجتمع من كل أشكال القهر ـ الاقتصادى والاجتماعى والروحى • ولاريب فى ان تحقيق الاستقلال السياسى وانهيار الامبراطوريات الاستعمارية من شأنهما ان يهيئا أهم الظروف اللازمة مقدما لتقدم وتطور البلاد وارتقائها بما فى ذلك التحولات العميقة اجتماعيا واقتصاديا •

ويرتكز المفهوم العلمى للسيادة القومية على مبدأ حـق الأمم فى تقـرير المصير • وان أى محاولة لانكار السيادة القومية انما تنطوى على خاصية معادية للديمقراطية موضوعيا •

وهناك عدد من الباحثين والشـخصيات العامة التى تعـادى النزعـة الاستعمارية ، ولكنها تعارض السيادة القومية وتؤيد فكرة اقامة دولة عالميـة وتدعو الى الغاء مبدأ السيادة القومية فى صورته المطلقة (٢٩) ولكن ليس ثمة شىء اسمه سيادة مطلقة • ذلك ان وجود العديد من الاتفـاقات والالتزامات الدولية المتباينة المنبثقة عن العضوية فى منظمة الامم المتحدة انما يعنى ان الدول توافق طواعية واختيارا على الالتزام فى تصرفاتها بعدد من المبادىء العامة • وهذا هو السبيل الواقعى لمنع نشوب حرب عالمية جديدة • وهكذا ايضـا نقول أن مشروع الاتفاق الذى قدمه الاتحاد السوفييتى للدورة الخامسة عشرة للجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة لمناقشة يوم ٢٣ سبتمبر ١٩٦٠ وهـو المشروع الذى ينص على المطالبة بالنزع الكامل والشامل للسلاح لايمثل أى انتهاك للسـيادة القومية أو لسيادة الدولة ونحن نشهد فى العالم الحديث صراعا بين سياستين متعارضتين أشد التعارض :

---

(٢٩) N. Cousins, in Place of Folly, New York, 1961, p. 105 - 06.

**الأولى تستهدف التحرر الوطني والاجتماعي الكامل لشعوب العالم • ومثل هذه السياسة تطابق الاتجاه الطبيعي للتقدم الاجتماعي وتجسدها النظرية الماركسية اللينينية عن التطور الاجتماعي وترتبط ارتباطا عضويا بالمبادىء والسيادة القومية •**

**والثانية موجهة ضد التحرر الوطني والاجتماعي ، وتتعارض تماما مع حركة التقدم الاجتماعي • وتعكس هذه السياسة مصالح الفئات الامبريالية الرجعية التي تهدف الى معارضة التقدم الاجتماعي واعاقة حركته بالقوة كما تتعارض تماما مع سياسة التعايش السلمي •**

ان مبدأ التعايش السلمي يشكل الاساس العقلي الوحيد لأى سياسة خارجية • واذا كان منع نشوب حرب نووية هو تعبير عن المصالح الحيوية لكل الامم فان التعايش السلمي يصبح بذلك ضرورة موضوعية لتطور وتقدم المجتمع الانساني المعاصر • وتجمع سياسة التعايش السلمي بين مبادىء القانون الدولى القائم على احترام سيادة الدولة فى العلاقات الدولية ، وبين الاعتراف بحق الامم المقدس فى تقرير مصيرها وفى المساواة وهو ما يجسده مبدأ السيادة القومية •

وجدير بالذكر ان ميثاق الامم المتحدة ذاته قائم على الجمع بين هذين المبدأين • فنحن نجد مفهومى سيادة الدولة والسيادة القومية واضحين تماما فى الميثاق الذى يبدأ انطلاقا من مبدأ السيادة وعدم تدخل الدول فى الشئون الداخلية لبعضها البعض ( أى الاعتراف بمبدأ سيادة الدولة ) ومن مبدأ المساواة بين الشعوب وحقها فى تقرير مصيرها ( أى الاعتراف بمبدأ السيادة القومية ) •

وتنص مقدمة ميثاق منظمة الامم المتحدة على أن شعوب الامم المتحدة عازمة على تأكيد ايمانها •• بالحقوق المتساوية للامم صغيرها وكبيرها • »

وتكرر مبدأ الحقوق المتساوية لكل الامم صغيرها وكبيرها فى عديد من مواد الميثاق • تنص المادة الاولى فقرة ٢ على ما يلى : « انماء العلاقات الودية بين الامم على اساس احترام المبدأ الذى يقضى بالمساواة فى الحقوق بين الشعوب وبأن يكون لكل منها حق تقرير مصيرها • وهذا تأكيد لمبدأ السيادة القومية •

وتنص المادة الثانية فقرة ٤ على ما يلى « يمتنع اعضاء الهيئة جميعا فى علاقاتهم الدولية عن التهديد باستعمال القوة او استخدامها ضد سلامة الاراضي أو الاستقلال السياسى لاية دولة • وهذه الفقرة تستلزم احترام مبدأ سيادة الدولة فى العلاقات الدولية •

واذا ألقينا نظرة الى العالم اليوم فاننا ندرك على الفور أن كل بؤرة للحرب ترتبط بدرجة أو بأخرى بعملية انتهاك مباشرة للسيادة القومية من جانب الامبرياليين • ويدعو التقدميون فى كل الاقطار الى وضع حد لكل هذه الانتهاكات ويطالبون كل بلدان العالم ــ وأولها وقبلها الولايات المتحدة الامريكية ــ ان تلتزم بميثاق الامم المتحدة وبمبادىء القانون الدولى •

# الفصل الثامن

# ضد النزعة المالتوسية والسياسة الجغرافية فى تبرير الحرب

تمثل النظريات الديموجرافية احد الاسلحة الهامة فى الترسانة الايديولوجية للبورجوازية • وخير مثال على ذلك النزعة المالتوسية التى بدأت تروج لها الطبقات الحاكمة مع بداية ظهور معارضة منظمة للاستغلال الرأسمالى أى منذ الايام الاولى للحركة العمالية •

فسر مالتوس الحرب والاستعمار فى ضوء العمليات الديموجرافية • ويجرى استخدام النظريات العرقية التى تستثير النزعة الشوفينية وتمجد القهر الاستعمارى كأداة للصراع ضد الايديولوجية الطبقية للبروليتاريا •

ونحن نعرف ان الازمة العامة للرأسمالية وتزايد نفوذ البلدان الاشتراكية والنظرية الماركسية اللينينية فى عصرنا قد أديا كلاهما الى ظهور نظريات ديموجرافية جديدة فى الغرب الرأسمالى • اذ بدأت تتوارى المفاهيم البيولوجية الى حد ما لتحل محلها أو تكملها نظريات اجتماعية سيكولوجية اكثر دهاء •

وترتكز النظرية المالتوسية على نظرية اساسية تقول • ان البشرية تسير نحو تضخم سكانى بمعنى ان النمو السكانى يفوق كثيرا نمو وسائل المعيشة • وزعم مالتوس فى كتابه المعنون « مقال مبدأ السكان » انه فى الوقت الذى يتزايد فيه الطعام بمعدل حسابى فان السكان يتزايدون بمعدل هندسى • (١) ويرى ان العمال نتيجة تكاثرهم الذى يتجاوز المألوف هم المسئولون عن شرور اجتماعية مثل البطالة والفقر • وأعرب عن أمله « فى ان يدرك كل من يحيط علما بنظريته من ابناء الطبقات الدنيا مدى الحزن والاسى الذى سيعانيهما بصبر وجلد شديدين • انه « سيشعر باستياء وثورة ضد الحكومة وضد الطبقات الراقية فى المجتمع بسبب ما يعانيه من فقر »

---

(١) T.R. Malthus, An Essay on the principle of Population, Vol, I, Book 1, London, 182», p.6.

و « وسوف يكون فى كل الاحوال اقل استعدادا للثورة والتمرد » . (٢)

ويشاع استخدام المالتوسية اليوم لتبرير العدوان الامبريالى . ولقد لعبت دورا خطيرا فى الاحداث التى أفضت الى الحرب العالمية الثانية التى بدت كنظرية رسمية يلتزم بها الامبرياليون اليابانيون والفاشيون والنازيون الذين حاولوا جميعا اقناع الشعب العامل فى بلادهم بأن على الامة بالاجماع ان تساند مبدأ المجال الحيوى Le bensraum اذ كان نقصه هو علة كل مشكلاتهم . وحاول النازى تبرير عدوانه بنظريته عن « أرض اقتصادية واسعة » وهى نظرية عبارة عن مزيج بين العرقية والدارونية الاجتماعية والمالتوسية والسياسة الجغرافية Geopolitics وقد قال هتلر ، « الدولة كيان تكون نتيجة لغريزة بقاء النوع . وتتمثل الغريزة الصحية لبقاء النوع فى الجهود المبذولة لضمان توازن صحيح بين السكان وبين المجال الحيوى » .

بيد ان الهزيمة العسكرية التى منيت بها النازية كانت بمثابة ضربة خطيرة للنظرية العرقية التى دعت اليها ، ومع ذلك فان كثيرين من مفكرى الامبريالية الالمانية واصلوا التبشير بنفس الآراء الاساسية التى ترتكز عليها هذه النظرية وذلك فيما بعد الحرب . وقد أشار الى هذا أتو رول Otto Ruhle الخبير الديموجرافى فى المانيا الديمقراطية والذى قال « نستطيع ان نلمس هنا بوضوح خطر الافكار المالتوسية الجديدة اذ تحتاج المانيا الغربية الى مجال حيوى Le bensraum جديد فى الشرق . وأشار ايضا الى انه منذ عام ١٩٤٥ تزايد سنويا عدد المفكرين المؤمنين بالمالتوسية الجديدة . ونجد اليوم الكتب الدراسية فى المانيا الغربية زاخرة بالافكار المالتوسية الجديدة . وبدأت هذه الافكار تشاع اكثر فأكثر لتمثل تبريرا للتطلعات الانتقامية للاحتكارات فى المانيا الغربية . (٣)

وهناك المفكر العنصرى هانز جريم Hans Grimm وهو من دعاة نظرية مالتوس فى المانيا الغربية وكانت افكاره ذات مرة مصدر الهام لهتلر وقد حاول تبرير عدوان هتلر فى كتابه « لماذا — من أين — بل الى اين ؟ » . يقول اننا اذا اخذنا العوامل البيولوجية وحدها التى دفعت المانيا الى الحرب فان تاريخ المانيا وهتلر كظاهرة تاريخية يمكن فهمه فهما صحيحا . » (٤)

ويؤكد ايضا انه اذا رغب الالمان فى أن يضمنوا لانفسهم طريقا مرضيا فى الحياة وتجنب تهديد البلشفية فان المشكلة الاساسية التى يتعين عليهم معالجتها هى المجال الحيوى Le bensraum

وكذلك ف . فريد Fried الذى كان يبشر بالعنصرية والسياسة

---

(٢) نفس المرجع — مجلد ٢ ، كتاب ٤ ص ٤٣٣ .

(٣) O. Ruhle, Brot fur Milliarden, Berlin, 1963, S. 20.

(٤) Hans Grimm, Warum — Woher — Ober Wohin Lippoldsberg 1959, S. 206.

الطبيعية فى ظل حكم النازى فهو مثال اخر للمفكر الذى لم يتخل عن اسلوبه القديم بعد الحرب على نحو ما نرى فى كتابه « تحـــولات فى الاقتصـــــاد العالمى » (٥) ، وصدر أيضا فى أواخر الاربعينات فى المانيا الغربيــة « الارض والحيـــاة » تأليف ك • جيباور ( كولونيـــا ١٩٤٧ ) و « الجغرافيا البشرية العالمية » تأليف أ • جيفنار ( شــــتوتجارت ١٩٤٧ ) ويروج الكتابان افكار المجال الحيوى Le bensraum والتضخم السكانى و « النظرية العضوية عن الدولة » • أما كتاب « الجغرافيا السياسية العالمية والسياسة الطبيعية » الذى صدر عام ١٩٥١ لمؤلفه أ • هوشوفر Haushofer (٦) فانه يعرض من جديد النظرية القائلة بأن الاعراق التى ستنتصر فى صراع الانسان من اجل البقاء ستكون تلك التى تنتج اكثر السلالات وانه فى هذا « الصراع من اجل البقاء » فان « الجنس الارى السيد » سوف يوســـع بالضرورة من مجاله الحيوى على حساب الشعوب الاخرى • وعاودت نشر ملخص لهذا الكتاب فى عام ١٩٥١ مجلة السياسة الطبيعية التى اسسها واشرف على تحريرها وقت صـــدورها كارل هوشوفر ، وعاود علماء السياسة الطبيعية فى المانيا الغربية اشاعةونشر « نظرياتهم » عن المجال الحيوى والتضخم الســـكانى والصراع بين الشرق والغرب • ولقد كان الهدف من وراء كل هـــذه التلفيقات النظرية هو الاثارة لاعادة النزعة العسكرية من جديد فى المانيا الغربية وتسليح الجيش بأســلحة الدمار الشامل •

والجدير بالذكر انه بعد ان منيت المانيــا بالهزيمــة فى الحرب العالميــة الماضية لم يعد الامبرياليون فى المانيا الغربية قادرين على التحدث صراحة عن نظرية المجال الحيوى على نحو ما كان يفعـــل هتلر • ان الحديث الصريح عن النظريات العدوانية والعرقية يثير استياء انصار السلام والتقدم فى المانيـــا الغربية ، ولهذا فالامبرياليون الالمان عند الحديث عن خدماتهم التى تصـــلح وراء اقنعة من الشعارات الشوفينية مثل « اعادة بحث الحدود » وعودة الالمان درعا و « حصننا » واقيا ضد البلشفية والشيوعية فانهم يؤثرون حجب خططهم الى « الحدود المفقودة » و « حق العودة الى الوطن » • لقد كفوا عن الحديث عن تطلعاتهمالتوسعية بلغة ابادة « السلاف المنحطين » واصبح البديل هو « تكامل اوربا حتى الاورال ، وتحرير شعوب اوربا الشرقية من « العبودية الشيوعية » ••• الخ • أما اكثر المفكرين البورجوازيين ذكاء فانهم يعترفون بالحـاجة الى الاستفادة من دروس الحرب العالمية الثانية وتزايد المعارضة للفاشية بين قطاع عريض من الجماهير سواء داخل جمهورية المانيا الاتحادية أو فى العالم اجمع • وقد تأثر موقفهم الى حد ما نتيجة ان جزءا من البورجوازية فى المانيا الغربية ابدى امتعاضه من سياسة الانتقام الصريحة المفضـــوحة كما ابدى رغبة فى تقليل الاعتماد العسكرى والســياسى على الولايات المتحدة • ومن هنا ظهرت

---

(٥) F. Fried, Wandlungen der Weltwirtschaft Stuttgart, 1948.

(٦) أ. هوشوفر ابن كارل هوشوفر ، عميد دراسات السياسة الطبيعية أيام النازى

الحاجة بين الاوساط القومية الى البحث عن اساليب اخرى لتحقيق اهدافها العدوانية ٠

أدى هذا بعديد من المفكرين البورجوازيين الى مراجعة نظرياتهم الى حد ما ٠ وكان الهدف هو صبغ افكارهم بصبغة « انسانية » لكى تكون اكثر قبولا لدى عامة الالمانيين الغربيين ٠ وقد كشف عن جوهر « اعادة تأويل النظريات النازية الفيلسوف الماركسى ج ٠ هايدن G. Heyden « جمهورية المانيا الديمقراطية ) وذلك فى كتابه : « نقد علم السياسة الطبيعية Geopolitics فى المانيا ٠ الجوهر والوظيفة الاجتماعية لمدرسة رجعية فى علم الاجتماع ٠ (٧)

يدرس هايد فى المراجعة العلمية والفلسفية لنظريات النازى ابتداء من عام ١٩٥٧ ، على اساس تحليل المواد التى نشرتها مجلة « Geopolitik ورأى ان « اعادة التأويل » هذه والتى تأخذ اتجاهات عديدة يمكن حصرها وتصويرها ببضع أمثلة وبخاصة من خلال مقالات ودراسات رئيس تحرير الصحفية ورائدها النظرى رولف هندر Rolf Hinder

ووضح ان السياسة الطبيعية فى العشرينات والثلاثينيات من هذا القرن كانت تعنى اساسا « بالبنية الخاصة للدول » وبتأسيس علاقة بين الجغرافية والسياسة ، اما السياسة الطبيعية المعاصرة فانها كما يقول هندر « ترصد قدرا كبيرا من اهتمامها لدراسة التحولات المكانية التى تسبب فيها الانسان » و « تدرس قوة التحول المكانى للروح الانسانى والعلاقة الباطنية بين السياسة وبين صراع المصالح الاجتماعية على اساس المكان ٠ » (٨)

يمكن ان نلحظ هنا للوهلة الاولى محاولة لتوسيع « مجال البحث » باضافة « القوى الروحية » ٠ فاذا كان الارتباط سابقا بمبدأ الحتمية الجغرافية فانهم اليوم يربطون المجال الجغرافى بالمجال السياسى عن طريق « عامل وسيط » وهو الانسان و « روحه » وسيكولوجيته ٠٠ الخ ٠

وثمة محاولات تستهدف اعطاء القارىء انطباعا بأن هناك معارضة واعتراضا على النظريات القديمة البالية وقد نطالع مثل هذه المحاولات على صفحات المجلة الفاشية Nation Europa ونذكر على سبيل المثال مقالا كتبه أ ٠ ارهارت تحت عنوان « السياسة الحيوية » Biopolitics « تتمة لقوانين الحياة » (٩) ٠ ويقترح ارهارت ان اعقد المشكلات الدولية الراهنة يمكن حلها

---

(٧) G. Heyden, Kritik der deutschen Geopolitik. Wesen und oziale Funktion einer reaktionaren soziologischen schule, Berlin, 1958.

(٨) Rolf Hinder, Vom sinn der modernen Geopolitik in zoitschrift fur Geopolitik im Gemeinschaft und politik, N. 1, 1958, S. 35.

(٩) A. Ehrhaidt, «Biopolitik — Volzug der Gesetze des Lehens» in Nation Europa, No. 12 — Dec. 1964 S. 3 — 4.

وحسمها « بتطبيق مكتشفات علم الوراثة على السياسة » ويتظاهر بأنه يهاجم كلا من الامبريالية والبلشفية ( دكتاتورية البروليتاريا ) فيقول : « فى مقابل هاتين الخطتين للشرق وللغرب فان السياسة الحيوية Biopolitics تخدم مستقبل البشرية « جمعاء » • ويعالج النظرية الماركسية باعتبارها نوعا من المذاهب البيولوجية وينتقد « نظرية ماركس ميتشورين » بقوله « ان عرقا بشريا كاملا يمكن استخلاصه من خلال بيئة اجتماعية كاملة • ويزعم ان مكتشفات علم الوراثة تدحض هذه النظرية التى يزعم خطأ انها نظرية ماركسية • ويرى ان القسمات الموروثة والجينات فى وحداتها الوراثية هى التى تحدد البيئة وليس العكس • وهكذا يحاول ارهارت عدو الشيوعية تقديم علم الوراثة ، وكأنه الرد الحاسم على أكثر القضايا الاجتماعية والسياسية الحاحا والتهابا مستعينا فى محاولاته هذه بأسلوب بدائى فى صبغ الظواهر الاجتماعية بصبغة حيوية خالصة •

هذه امثلة قليلة من « التصويبات » التى اصطنعها علماء المانيا الغربية ، وهى قليل من كثير من المحاولات التى تستهدف اعادة تأويل » علم السياسة الطبيعية • جملة القول ان الاتجاهات الجديدة التى نلحظها فى علم السياسة الطبيعية تمثل انحرافا عن النظرية التقليدية « المجال الحيوى » ومحاولة للانفصال عن النظريات العرقية • واذا كان المفكرون الجدد لايزالون انصارا قوميين « لالمانيا الكبرى » فانهم يتطلعون الى ان يكونوا متحدثين باسم وعى سياسى جديد يلائم عصر الذرة • وهم مضطرون رغما الى قبول فكرة الحل السلمى للصراع الدولى بسبب الفزع السائد من حرب نووية ومن امكانية حل القضية الالمانية بالوسائل العسكرية • وكما قال هندر فان الحرب فى ظل العصر النووى قد تعنى « دمار كل امكانية للحياة » • وينبغى على السياسة الطبيعية ان تعنى « بالعوامل المكانية لاستراتيجية سلام للعالم • وحيث ان الحرب لم تعد « امكانا حقيقيا » بل استحالة حقيقية فان اى عدو سيصبح ندا بل حليفا وربما « صديقا » وأصبح الابقاء على الذات بالنسبة للمجتمع لا يقتضى « افناء المجتمع الغريب بل التعايش معه » ونظرا لان استحالة التعايش لاتزال تشكل اساسا للحرب فان من الضرورى تماما ان « نلغى كل مشاعر العداء » • ويقترح هندر أن تكون « السياسة اللينة الرقيقة رقة النساء هى الاتجاه الواقعى الوحيد اليوم » • ويحدثنا عن الحرب الباردة حديثا فرويديا باعتبارها من « آثار الماضى ومخلفاته » ومن نتائج « عقد الكراهية » • (١٠)

ونطالع اراء مشابهة فى مقال كتبه ج • جنتش Jentsch نشره فى نفس المجلة • ويطرح ايضا نظرية عن المواطنة العالمية اساسها السياسة الطبيعية ، كما يطرح برنامجا سياسيا اساسه امكانية « التعايش العقلى للقوى

---

(١٠) Zeitschrift fur Geopolitik.. No. 1, 1958, S.4.

التاريخية » ٠ (١١) ويعرض فى برنامجه ثلاث مراحل « لتجديد » العالم ٠ الاولى « التغلب على العداء العقلى » بهدف « التغلب على التناقضات العالمية وتحويلها الى نسق متسق جديد » ٠ ويقودنا هذا الى المرحلة الثانية ، وهى اقامة نظام يجرى فيه توزيع واستغلال مصادر الثروة فى الكرة الارضية طبقا للقوانين البيولوجية لتكافل وتعايش الكائنات العضوية المتباينة ٠ والمرحلة الثالثة هى قيام « امبراطورية عالمية كاملة » ، « امبراطورية الهية كاملة للمسيحيين » تتحقق فيها احلام وآمال كل شعوب العالم ٠ ويرى ر ٠ هلف Hilf مجتمع المستقبل بنفس الصورة مقررا ان العالم « يتحرك نحو مجتمع ونظام عالميين للشعوب والدول » وهو « نظام عادل » يضم « النظريتين المسيحية والشيوعية » ٠ وواضح ان التصورات سالفة الذكر عن تطور احداث العالم ان هى الا تصورات خيالية يغلب عليها الطابع اللاهوتى ٠

والملاحظ ان كثيرين من مفكرى الامبريالية الامريكية تبنوا منذ الحرب الافكار العرقية التى قال بها مالتوس ومدرسته وافكار السياسة الطبيعية ٠ وثمة قسمة تميز اعمال اتباع مالتوس بعد الحرب فى الولايات المتحدة الامريكية ، وهى الاهتمام بقضايا الحرب والسلام ٠ ونلحظ هنا مرة اخرى ان مفكرى اعتى القوى العدوانية الممثلة لرأس المال الاحتكارى بدأوا يثيرون صخبا بشأن « التضخم السكانى الرهيب » وعن تزايد السكان كسبب للحروب وعن « حاجة الامم ذات المعدلات المنخفضة للمواليد » ٠٠٠ الخ ٠ وقد صدر فى الولايات المتحدة الامريكية عديد من الكتب بعد الحرب تبشر باراء وافكار المدرسة المالتوسية بكل ما فيها من كآبة وسلبية ٠ ونذكر من بين هذه الكتب « الطريق الى البقاء » تأليف و ٠ فوجت Vogy ( نيويورك ١٩٤٨ ) و « سبل السكان الى الحرب ام الى السلام » تأليف بيرش Burch وبندل Pendell ( نيويورك ١٩٤٧ ) و « شروط التقدم الاقتصادى » تأليف ك ٠ كلارك Clark ( نيويورك ١٩٥٣ ) وكثيرا غيرها ٠ وثمة كتاب تحت عنوان « جوع العالم » تأليف بيرسون وهاربر ( نيويورك ١٩٤٥ ) يعرض نظرية مالتوس القديمة القائلة بأن السكان يتزايدون بمعدل اسرع من حجم الطعام ومن ثم ستقع حتما الحروب ما لم ينقص عدد السكان كثيرا ٠

وبذل و ٠ وتمبسون ، عالم السكان الامريكى الشهير جهودا مضنية ليقدم تبريرا أيديولوجيا للحرب ، وذلك بأن حاول البرهنة على ان نمو السكان فى منطقة المحيط الهادى يشكل « تهديدا للولايات المتحدة ولكل الحضارة الغربية (١٢) ٠ ويقول فى كتاب اخر : ان ضبط النسل هو المنفذ الوحيد من الضغط السكانى ومن التوترات والمشكلات الناجمة عنه ٠٠

---

(١١) G. Jentsch, «Der Begriff des Politischen» in Zeitschrift fur Geopolitik .... Nr. 1, 1958, S.32.

(١٢) W. Thompson, Population and peace in the Pacific, Chicago, 1946.

والبديل الوحيد لاسلوب ضبط النسل هو بالضرورة العودة الى ارتفاع معدل الوفيات نتيجة الجوع والفقر والمرض ، وربما الحرب الساخنة فى المستقبل القريب ٠ (١٣)

وقد أثرت نظريات مدرسة مالتوس على علم الاجتماع الفرنسى ايضا ٠ اذ يكتب جـ ٠ بوتول Bouthoul فى كتابه « مائة مليون جثة » ان الحرب ظاهرة دورية طبيعية مثل هجرة الحيوان ، وانها تقع نتيجة « تضخم السكان وضيق المساحة المسكونة ٠ ويرى الحرب أمرا مفيدا لانها تساعد على « استعادة الميزان الاجتماعى المختل » وذلك بافناء الفائض « من السكان ويقول فى كتاب اخر « ان الفائض من الشباب والذى يكون زائدا عن الحاجة وعماتتطلبه المهام الاقتصادية الاساسية يخلق عدوانا جماعيا ٠ » (١٤) وهناك مفكر فرنسى اخر من اتباع مدرسة مالتوس وهو بول ريبوكس Paul Rebaux يرى ان الحروب الحديثة احداث بيولوجية ويشير الى ان « ضراوة الحروب نسبية اذ تتناسب مع الفائض من البشر ٠ » (١٥)

وثمة اراء اخرى مماثلة يطالعنا بها كثيرون من المفكرين البريطانيين اتباع مدرسة مالتوس ٠ ونذكر من هؤلاء هل Hill الرئيس السابق للجمعية العلمية لتقدم العلوم الذى صرح بأن ارتفاع معدل النمو السكانى سيؤدى الى زيادة التوتر الدولى وتفاقم الفوضى مما يهدد وجود الحضارة ذاته ٠ (١٦) وكتبت صحيفة ديلى تلجراف فى عددها الصادر فى ٢٨ يونيو ١٤٩٧ ان الحرب لم تعد هى الشىء الكريه تماما وليست كلها شرا محضا حيث انها تخلصنا من الازمات والبطالة وتزيد الانتاج ٠

ويحذو انصار السياسة الطبيعية فى حلف الاطلنطى حذو دعاة الانتقام فى المانيا الغربية اذ يحاولون التملص من النظريات الفاشية عن السكان ويحجبون افكار مالتوس البالية وراء رداء « الحقيقة » و « الانسانية » و « الدفاع عن السلام » و « حب البشرية » وعديد من الاقنعة الاخرى ٠ ولقد كان جـ ٠ سلديس Seldes الصحفى الامريكى على حق حين اشار فى كتابه « الف امريكى » الى ان أى قوة فاشية تحاول استعادة قوتها فى امريكا لن تأخذ نفس النمط الهتلرى ٠ انها ستعمل وراء قناع « ما فوق الوطنية » و « تجاوز النزعة الامريكية » ٠ ان القادة الفاشيين ٠٠ يعرفون ان الواجب يقتضيهم التزام خط فكرى يجتذب الزبائن » ٠ (١٧)

ان حركة السلام القوية والسياسة السلمية التى تنتهجها البلدان

---

(١٣) W. Thompson, Population and Progress in the Far East Chicago, 1959, p. 399, 40.

(١٤) G. Bouthoul, la surpopulation dans le monde, Paris, p. 184

(١٥) Paul Rebaux, trop d'enfants? Paris, 1951, p.253

(١٦) R. Innes, Essays in Biography; London, 1954, p.26.

(١٧) George Seldes, One thousand American, New York, 1947, p.1

الاشتراكية تجبر منظرى العدوان ، بما فى ذلك أكثرهم امعانا فى الرجعية على الاحجام قصرا عن التعبير عن آرائهم صراحة وتبنى نهج اكثر نعومة . ولعل خير مثال على ذلك تطور آراء و . فوجت Vogt . اذ ان كتابه المعادى للانسانية « الطريق الى البغاء » الصادر عام ١٩٤٨ أعقبه مقال عام ١٩٥٢ أعلن فيه أن زيادة سكان العالم تشكل تهديدا للسلام أخطر من تهديد القنبلة الذرية . واصدر عام ١٩٦٠ كتابا أخر(١٨) . اكد فيه انه يهتدى مثلما كان يهتدى قبل ذلك باهتمامه بمستقبل البشرية وأعرب عن أسفه العميق لان كتابه السابق أسيىء فهمه ونظر اليه الناس باعتباره كتابا فاشيا . ثم عاد ليعرض من جديد نفس آرائه المالتوسية كما سبق ؛ ولكنه كان شديد الحرص على أن يعرضها بحذر وأشار الى احصائيات ديموجرافية واستخلص منها صورة كئيبة عن العالم المعاصر الذى يعيش على شفا كارثة . وقال أن نمو السكان أخذ شكلا مشئوما يشبه شكل سحابة الانفجار الذرى(١٩) . وعرض مقارنة أخرى تعادل تلك ولكنه عقد المقارنة هذه المرة بين نمو السكان فى العالم ونمو خلية السرطان (٢٠) . ويرثى فوجت لحال البشر اليوم فلم يحدث أن كان فى العالم أناس ضاقوا بحياتهم بالكثرة التى هم عليها الآن . ان الناس يعيشون حياة بائسة محطمة يعانون البطالة والخواء . ويرى فوجت أن سبب هذا الحزن هو النمو السكانى المفرط بحيث أصبحنا عرضة لمخاطر لم تكن لتخطر على بال مالتوس (٢١) . لقد أضحت الكارثة أقرب وأقرب بسبب التعصب الشديد لقضايا النمو الاقتصادى واتباع سياسة الرخاء والرفاهية للعامة وتأمين البطالة وعلاوات ومنح مقابل الابناء والتعليم المجانى والخدمات الصحية الى آخره ، الى آخره . ولكن على الرغم من كل هذه المساعدات الهائلة على اختلاف أشكالها فلا يزال هذا البحر الخضم من المجاعة وسوء التغذية قائما ولم ينته بعد (٢٢) . واقتفى فوجت أثر غيره من اتباع مالتوس الجدد فرض جل انتباهه للبلدان المتخلفة ، ويريدنا ان نقنع بأن التضخم السكانى هو المسئول عن فقرهم وتخلفهم ، وأن هذا يشكل تهديدا خطيرا للبلدان المتقدمة . ويشير فوجت الى اقتراح كان قد عرضه منذ اثنى عشر عاما فى كتابه «الطريق الى البقاء» والذى يعرض فيه أن تقتصر المعونات على البلدان الاقل تقدما والتى تطبق سياسة تنظيم النسل ، ويزعم أن مقترحاته انما أملتها عليه دوافع انسانية خالصة . ويقترح علينا أن نرسل الى هذه البلدان حبوب منع الحمل ، فهذه خير وأبقى من ارسال جيوش الفنيين والمهندسين ودفع بلايين الدولارات لتصنيعها (٢٣) . فالدول التى تقبل

(١٨) W. Vogt, People, Challenge to surfival, New York, 1960.

(١٩) نفس المرجع ص ٤٣ .

(٢٠) نفس المرجع ص ٤٧ .

(٢١) نفس المرجع ص ٦٦ .

(٢٢) المرجع السابق ص ٨٤ .

(٢٣) نفس المرجع ص ١٤٦ .

تنظيم النسل هى وحدها فقط التى تتلقى المعونة . ولكنه أضاف خوفا من اتهامه بالقسوة بأن كل الاجراءات الاخرى هى اجراءات ضروزية ، مثل العمل على تطوير تكنيك الزراعة والتربة والمياه والرى والغابات والتصنيع والتعليم واستثمار رؤوس الاموال والمساعدات الفنية . بيد انه يؤكد فقط وفى اصرار على تنظيم النسل كعلاج لكل مشكلات العالم الاقتصادية والاجتماعية . ويراه فى كل مرة يبذل جهودا حذرة خوفا من اتهامه بمعادات البشرية كذلك يغلف أفكاره المالتوسية الكئيبة باحتجاجات معسولة يتظاهر بالاهتمام «برخاء البشرية» بيد أن هذه الاساليب فى التحليل لن تجعل من حديثه حديثا علميا .

ولسوء الحظ فان مهمام مفكرى العدوان بدت يسيرة بفضل منهج التحليل الخاطىء الذى يستخدمه عديد من العلماء البورجوازيين المبرزين فى تحليل العمليات الديموجرافية . ومن بين هؤلاء العلماء مؤيدو نظرية « الدورات الديموجرافية » و « المراحل الديموجرافية » وهى النظرية القائلة أن كل الامم تمر بثلاث مراحل فى تطورها . مراحل النمو الكامن والنمو الانتقالى والانهيار التدريجى . تتميز المرحلة الاولى بنمو سكانى بطيىء للغاية ويعقبها «انفجار» سكانى حقيقى والذى يعقبه بالتالى استقرار عملى ، ولكن يتسم بكثافة سكانية عالية . وقد عرض هذه النظرية عالم الجغرافيا الامريكى ب. جيمس James فى كتابه «جغرافيا الانسان» (نيويورك ١٩٤٩) . ويؤمن بعض انصار مثل هذه النظرية بأن البلدان فى المرحلتين الثانية والثالثة تعانى من «ضغط سكانى» بسبب الزيادة السكانية المفرطة . ويزعمون ان هذا هو ما يحفزهم الى خوض حروب عدوانية بهدف كسب مساحات جديدة للحياة . ويعالج البعض الآخر المجتمع كجسم حى ، بينما يعالج البعض ديناميات العمليات الديموجرافية بمعالجة تجريدية بدون ربطها بأنماط الانتاج . وحقيقة الامر أن ديناميات العمليات الديموجرافية لا يمكن تحليلها بنجاح الا فى سياق ظروف وأوضاع اجتماعية اقتصادية محددة .

وظهر بعد الحرب العالمية الثانية موقف جديد ازاء الارتفاع الحاد فى النمو السكانى الناجم عن انخفاض معدل الوفيات فى البلدان التى تحررت من ربقة الاستعمار . لقد كان تعداد العالم مع مطلع القرن الحالى ١٦٠٠ مليون نسمة . وأصبح عام ١٩٦٤ يساوى ٣٢٦٠ مليون أو اكثر من الضعف ، وتشير تقديرات الامم المتحدة الى احتمال تضاعف العدد عام ٢٠٠٠ .

حقا لقد أصبح النمو السكانى يشكل مشكلة خطيرة . وبخاصة فى البلدان النامية . ومن هنا تزايد نفوذ الباحثين والعلماء أنصار المدرسة المالتوسية الذين اخفقوا فى الالتزام بنهج علمى فى دراسة العلاقة المعقدة والتداخل بين العوامل الاجتماعية والاقتصادية والعوامل الديموجرافية ، كما أفزعهم مثل هذا النمو السكانى السريع .

ويطالعنا عالم الاجتماع الامريكى فيليب هوسار فى كتابه « نظريات

سكانية » (٢٤) . حيث يحدثنا عن «ثورة ديموجرافية» وعن احتمال وقوع أزمة عالمية نظرا لان مساحة الارض محدودة فى نهـاية الامر ، ولابد وأن يستنفد الانسان المساحات الصـالحة للمعيشة . ويرى انه اذا أخفقت البلدان النامية فى تحقيق مستوى معيشة اعلى لسكانها فاننا نتوقع بالضرورة عدوانا من جانب بلدان جائعة كبيرة نتيجة الضغط السكانى بها . ونجـد آراء مماثلة فى كتاب « المعضلة السكانية» نيويورك ١٩٦٣ . وكتـاب « مشكلات السكان فى المستقبل ( مينابوليس ١٩٥٨ ) وكتاب « التضخم السكانى » اله الانتقام فى القرن العشرين تأليف أ. سـتوارت ( نيويورك ١٩٥٨ ) وغير ذلك كثير .

وثمة عديد من الباحثين يساندون السلام ، ولكنهم يعتبرون « التضخم السكانى » عقبة كئودا فى طريق الحل السلمى للمشكلات الدولية وخير مثال على ذلك عالم الاجتماع والمؤرخ البريطانى الشهير ارنولد توينبى ، الذى عبر عن آرائه فى هذا الصدد فى حديث له بعنوان « الانسان والجـوع » نظرة الى مستقبل التاريخ الذى القاه أمام مؤتمر الغذاء العالمى عـام ١٩٦٣ (٢٥) . لقد ظل الانسان يعانى منذ زمان سحيق من شرور ثلاثة : الحروب والاوبئة والجوع . واصطلحت هذه العوامل الثلاثة على خفض عدد السكان والاحتفاظ به فى نطاق محدود . بيد أن الانسان استطاع الافلات من الاتكال التام على الطبيعة وأصبح قادرا على اتباع أساليب انسانيـة للوفاء بأهداف الطبيعة . ولم يبق أمامه غير شرط وحيد لنجاحه وهو تنظيم النسل . ان أرضنا محدودة الابعاد بحيث اذا ماانتفت الحروب والاوبئـة يلزم بالتالى تحديد النمو السكانى . هذا فضلا عن أن ارتفاع نسـبة المواليد يشكل تحديد صعبا يواجه الانسان الحديث ، وهو تحد أصعب من تحدى الغاء الحروب .

وعلى الرغم من أن الحرب ناجمة عن نقص فى الطبيعة الانسـانية ، وهو أمر يشارك فيه الحيوان ، الا أن الحرب يكون من المستطاع الغاؤها عن طريق اتفاق يعقد بين الاقلية الضئيلة من الجنس البشرى التى تستحوذ على السلطة السياسية وتحتكرها .

ويرى توينبى من ناحية أخرى أن خفض معدل المواليد اكثر صعوبة ذلك لانه يتضمن سلوك ملايين الازواج فى علاقاتهم العائلية الشخصـية وماورثوه من تقاليد وأهواء . ويرى توينبى أيضا أن خطر النمو السكانى السريع وما يستتبع ذلك من مجاعات فى البلدان النامية قد ازداد بصورة كبيرة مع ظهور السلاح الذرى الذى جعل انتحار الجنس «أمرا محتملا ،

---

(٢٤) P. Hauser, Population Perspectives, New B runswick - New Jersey, 1960, p. 8.

(٢٥) Population Bulletin, Population Reference Bureau, Washington, Dec. 1963, Vol XIX, No. 8, p. 218 - 24.

ان المهمتين الرئيسيتين الآن هما : مهمة سياسية قوامها حث الجنس البشرى كله على أن يتحكم فى نفسه كوحدة عالمية واحدة من أجل انتاج وتوزيع الطعام ، ثم مهمةتنظيم النسل على نحو يعادل خفض نسبة الوفيات .

وكتب برتراند رسل مقالا بعنوان « الضغط السكاني والحرب » قال فيه ان العالم مواجه اليوم بخطرين متضادين : الاول المخاطرة بحرب نووية قد تبيد الجنس البشرى ، والثانى ليس وشيك الوقوع كالاول وهو ان يزيد تعداد السكان مما يؤدى الى تفاقم حالة الفقر بسبب التضخم السكانى ، ما قد يؤدى بالتالى وبسهولة الى اندلاع حرب نووية.(٢٦) . ويرى أن خفض معدل المواليد يبشر بتقدم سريع والقضاء على الفقر وخلق روابط وثيقة بين الامم ، ولهذا فان المشكلة السكانية هى أهم واخطر .

ويتضح لنا مما أسلفنا أن فكر مدرسة مالتوس تتضمن درجات

عديدة متباينة . فنحن نجد الى جانب منظرى الامبريالية الذين يناصرونها فى سفور نجد باحثين أخفقوا فى ادراك العلاقات المعقدة بين العوامل الديموجرافية والاجتماعية والسياسية وأفزعهم باخلاص النمو السريع للسكان ويرونه عاملا هاما وخطيرا يحدد مستقبل البشر ، ان أنصار فكر مالتوس من الليبراليين يعتقدون باخلاص أن النضال من أجل خفض معدل المواليد وسيلة هامة للقضاء على التهديد بالحرب . وثمة محاولات عديدة تستهدف تصوير العصر الحديث بصورة « عصر الثورة الديموجرافية » يتهدد البشرية فيه خطران مهلكان ، القنبلة والتضخم السكانى . ويصل الامر ببعضهم الى حد القول بأن الخطر الاكبر « ليس الانفجار النووى ، بل الانفجار السكانى » . ولكن أيا كانت نواياهم الذاتية فان القائلين بهذا الرأى انما يناصرون فعلا فكر مدرسة مالتوس التى تحاول صرف انتباه الجماهير عن أخطر القضايا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى عصرنا، وهى النضال ضد الامبريالية وضد الاستعمار الجديد — وتحويل الاهتمام الى المشكلة السكانية . ولكن تظل الحقيقة الواضحة هى انه بدون فهم واضح ومحدد للاصول الاجتماعية الاقتصادية والطبقية للحرب ، ومالم نتبينها القوى الاجتماعية القادرة على الغاء الحرب ، بدون هذا ستظل كل جهود ادانة الحرب عبثا لا طائل تحته .

ان الماركسية ترفض الفكرة الداعية الى البحث عن اسباب الحروب داخل الطبيعة البشرية أو العمليات الديموجرافية . اذ ترى الماركسية اللينينية أن الحروب استمرار للسياسة بوسائل العنف . وفى هذا الصدد يقول لينين

---

(٢٦) World Academy of Art and Science, The Population Crisis and the use of world Resources, Ed. by Stuart Mudd, the Haugue, 1964, p. 1.

« الحروب جميعها لاتنفصل عن النظم السياسية التى تسببت فيها » . ولكى تحدد الطبيعة الحقة للحرب يلزم ان نكشف عن جوهرها الطبقى وان نحدد أى الطبقات تشن هذه الحرب بالذات . ان هدف مدرسة مالتوس والسياسة الطبيعية وغيرهما من المذاهب الزائفة هو اتجاه الكثيرين من الباحثين التقدميين

مثال ذلك الباحث الالمانى و . هو لتشار Hollitshcer الذى قال فى مقال له تحت عنوان « عن التضخم المزعوم لسكان العالم » ، والذى نشره فى صحيفة Wissenchaft und Fortschritt ( المانيا الديمقراطية ) ، يتحدث فى هذا المقال عن نظريات فوجت المالتوسية النهج فيقول : « من المفهوم تماما الاسباب التى تدعو انصار هذا المذهب الاجتماعى الاقتصادى المنهار الى صرف انتباه البشرية عن الاسباب الحقيقية للفقر الذى تجلبه الامبريالية للعالم هذا هو السبب الذى يدعو هؤلاء الباحثين الى نسبة كل شرور العالم الى ما أسموه « التضخم السكانى » المزعوم مؤكدين ان التضخم السكانى صراع ضد المجال الحيوى Le bensraum ولهذا يزعمون ان الحرب قدر محتوم . (٢٧)

ويقول الباحث الفرنسى جان جودبرت Jean Gaudebert فى مقال له تحت عنوان « المالتوسية الجديدة ، أداة حرب وردة اجتماعية لصالح الرأسمالية المنهارة يقول ان انصار المدرسة المالتوسية الجديدة يحاولون القاء اللوم بشأن الحرب العالمية الثالثة ، وبخاصة اذا انطلقت شرارتها من آسيا ، على التضخم السكانى ، وهم بذلك يستهدفون تحطيم معنويات الشعوب التى تناضل من أجل السلام . » (٢٨)

وقد دابت صحيفة Political Affairs. منذ نوفمبر ١٩٤٨ على انتقاد « بعث » ونشر الافكار المالتوسية الرجعية . وأشارات الصحيفة الى ان المالتوسية الجديدة أضحت احد اسلحة الترسانة الايديولوجية للامبريالية ولهذا رات من الضرورى فضح الطبيعة غير العلمية لهذه الأفكار وكشف الطابع الرجعى لكل الآراء السياسية المبنية على اساسها . ان الحياة تدحض المالتوسية سواء على المستوى الديمرجرافى ( الزعم بأن السكان يتزايدون حسب متوالية هندسية ) أو على المستوى الاقتصادى ( الزعم بأن مقومات المعيشة تتزايد بمعدل أقل من معدل تزايد السكان ) .

ان النمو السكانى مع نهاية الماضى ومطلع القرن الحالى قد انخفض بنسبة كبيرة فى البلدان الرأسمالية المتقدمة واثناء الكساد الكبير ( ١٩٢٩ - ١٩٣٣ ) ، ولقد كانت البلدان الرأسمالية الكبرى ( فرنسا المانيا وبريطانيا ، الولايات المتحدة ) مهددة خلال هذه الفترة بنقص سكانى خطير ، بينما فاقت زيادة مقومات الحياة معدل الزيادة فى السكان وهنا انقلب وضع المالتوسية وحاول

---

(٢٧) Uber die angebliche Ubervolkerung der Erde, Wissenschaft und Fortschritt, N. 3, 1952; S. 65.

(٢٨) Cahieis du communisme, Mai 1952, p. 506

البعض نسبة الفقر والبطالة الى انخفاض معدل المواليد على اســاس ان معدل المواليد فى المانيا قد نقص بسبب نقص المجال الحيوى ٠

وينبغي أن يكون واضحا ان هذا الانخفاض الحاد فى معدل المواليد مرده الى التناقضات الطبقية ، ذلك لان معدل المواليد كان قد نقص فى فرنســا وبريطانيا بكل ما تملكان من أراض مســتعمرة بنفس القدر الذى نقص به معدل المواليد في المانيا ٠ واكثر من هذا فليس المعتدى اليوم هو الهند ذات الكثافة السكانية العالية ( ١١٠ نسمة فى كل كيلو متر مربع ) وليس مصر بمعــدل زيادتهــا المرتفع ( ٥ر٢ فى المائة ) ولكن المعتــدى هو الولايات المتحدة الامريكية ذات الكثافة المنخفضــة ( ٥ر٢٠ فى كل كم ٢ ) وزيادة منخفضة ( ٥ر١ فى المائة ) (٢٩) ٠

ويبدى أنصار مالتوس المحدثون اهتماما كبيرا لمعدلات النمو السكانى المرتفعة فى البلدان النامية ٠ وثمة عوامل كثيرة تسهم فى هذا ، مثلما كانت هناك عوامل كثيرة فى أوروبا اثناء القرنين ١٨ و ١٩ ، الافتقــار الكامل الى التخطيط الاسرى ، اســتمرار وثبات الاقتصــاد المنزلى ، تشــغيل الصبية والاطفال ، الزواج المبكر ، ارتفاع معدل وفيات الاطفال ، الامية ، التقاليــد والدين اللذان يشجعان النسل والانجاب ، منع تنظيم الامومة بأسلوب عقلى وتحريم تنظيم الاسرة ٠ ولقد أدت المكتشفات الطبية الحديثة الى خفض معدل الوفيات بنسبة كبيرة ، وبهذا أضيف هذا التقدم الطبى كعامل جديد يسهم فى زيادة الســـكان ٠ ولاريب فيأن مثل هذه الزيادة الكبيرة سبب ظهور صعوبات جديدة اضافية عندما تكون البلاد بصــدد تحرير اقتصــادها من الســيطرة الخارجية وتعمل على رفع مســتوى المعيشة فيها ٠ ولهذا يؤيد الماركسيون اتباع سياسة نشطه تستهدف تنظيم النسل ٠ ولكن ما يعارضه الماركسيون هو محاولة استخدام نظريات مالتوس وما شاكلها من النظريات البورجوازية الرجعية بصورة مقنعة بهدف صرف الانتباه عن الاسباب الحقيقية للفقر والعوز ، وهو من شأنه ان يعوق النضال ضد العدوان الاســتعمارى ٠ ويؤمن الماركسيون بأن الرد الحقيقى على مشكلات البلدان النامية هو أن تحرز نفسها من كل مظاهر التبعية الاقتصادية للامبريالية ٠ ان حل مشــكلات البلدان النامية يتمثل فى الالتزام بطريق النمو غير الرأســمالى فى تصنيع البلاد وتطوير الزراعة والغاء تشغيل الاحداث ورفع مســتوى المعيشــة ٠ ومستوى التعليم للجماهير وتحسين المستوى الصحى والقضاء على كل الاهواء

---

(٢٩) كانت الاسباب هى التصنيع والانتشار الحاضري أو (انشاء المدن).وخروج المزيد من النساء الى العمل وقد تخلين الى حد ماعن وظيفتهن كربات البيوت وأمهات فحسب، وهو ماكان يهيىء لهن الفرصة سابقا للسهر على تنشئة أسرة كبيرة ٠ سبب آخر هو الاحساس بفقدان الامان والاحساس بخطر البطالة وبخاصة فى فترة الكساد الكبير (١٩٢٩ — ١٩٣٣)٠

المتعلقة بحجج الاسرة وضبط النسل وتنظيم الاسرة ، بل ضد النزعة المالتوسية الجديدة التي ترد كل المشكلات الاجتماعية الى مشكلة السكان وترى ان التطور البيولوجي للبشرية هو القوة الوحيدة المحركة للتاريخ ٠

وفي مقابل التنبؤات المالتوسية المتشائمة قدم كثيرون من العلماء والباحثين شواهد مقنعة تبين ان المستوى الحديث للانجازات العلمية يساعد على ان تستوعب الكرة الارضية اعدادا اكبر من السكان ويوفر لهم مستوى معيشة مرتفعا بشرط ان تنتهي والى الابد كل المؤثرات السلبية المتمثلة في علاقات الانتاج الرأسمالية ٠.

ويجدر بنا هنا الاشارة الى ما قاله في هذا الصدد ج ٠ بويد أر J. Boyd Orr المدير السابق لمنظمة الاغذية والزراعة التابعة للامم المتحدة يقول : « ان العلم الحديث لديه الرد على مالتوس ٠٠ اذ لم يحدث ان ازداد انتاج الطعام بأقصى معدل للسرعة ٠ ان هدف الحضارة الغربية لم يكن حجم ما نحتاج اليه للوفاء بمتطلبات البشرية ، بل حجم ما يمكن بيعه للوفاء بالارباح المطلوبة » ٠ (٣٠)

ويقول جون برنال الذي كان ذات يوم زعيما لحركة السلام العالمية ، وذلك في كتابه « عالم بغير حروب » « ان المساحة المستغلة للزراعة الان لا تتجاوز ١٣٫٢٠٠٫٠٠٠ كيلو متر مربع أو ١٠ في المائة من مساحة اليابس ، بينما تقدر مساحة الارض الصالحة للزراعة بما قيمته ٣٩٠٠٠٠٠٠ كم ٢ أو ما يعادل سبعة أمثال المساحة المزروعة الان ٠ ويؤمن برنال بأن العلم يقدم آفاقا غير محدودة عمليا لتطوير التكنيك الزراعي ولزيادة ناتج الزراعة ٠

وقد اعلن العالم الدانماركي أ ٠ جاكويسون في مؤتمر علماء الاقتصاد الزراعي المنعقد في هلسنكي عام ١٩٥٥ أنه أجرى عملية حسابية تبين له فيها ان كميات من المحاصيل الزراعية المرتفعة مثل تلك التي تغلها الدانمرك أو البلدان الاخرى في اوروبا الغربية من مساحة قدرها ٣٦٠٠ مليون هكتار تكفي لاطعام ٣٢٠٠٠ مليون نسمه ٠ واذا لم نضع في الاعتبار احتمالات زيادة المحاصيل فان بالامكان زيادة المساحة المنزرعة الان ، وبهذا يتبين لنا أن الانسان لديه حقيقة وعمليا آفاق غير محدودة لزيادة ناتج الطعام ناهيك عن ثروات البحار والمحيطات ٠

ان الماركسيين ، على عكس المالتوسيين ، متفائلون في نظرتهم الى الآفاق الديموجرافية أيضا ترى ما الاتجاهات الديموجرافية في البلدان الاشتراكية ، وما النظرة الى تطورها في ظل الشيوعية ؟

اذا وضعنا في الاعتبار ، وهو ما يجب ان نفعله ، تعقد العوامل المؤثرة على هذه الاتجاهات وواقع ان بعضها ــ قوى الانتاج المتخلفة ، العلاقات الاسرية القائمة والعادات اليومية والحروب ونتائجها ــ لايزال يؤثر وسوف

---

(٣٠) J. Boyd-Orr, the White Man's Dilemma London, 1953. p. 80.

يستمر أثره لفترة طويلة بعد الثورة ، اذا وضعنا هذا في معدل سرعة تغير علاقات الانتاج ٠

واذا اخذنا الاتحاد السوفييتي كمثال للاتجاهات السكانية في المجتمع الاشتراكي يمكن ان نلحظ القسمات المميزة التالية : انخفاض سريع في معدل الوفيات عموما وبالنسبة للاطفال نتيجة لتحسن ظروف المعيشة ونظم الدولة للرعاية الصحية التي يسرت وسائل الرعاية الصحية لكل قطاعات السكان ، ونتيجة لاختفاء مظاهر التمايز الاجتماعي في معدلات المواليد والوفيات ٠ وصاحب هذا انخفاض في المواليد نتيجة لعوامل عديدة اهمها الانخفاض الحاد في معدل وفيات الاطفال وتنظيم افضل للاسرة بفضل ارتفاع مستوى التعليم وساعد على هذا ايضا بالاضافة الى ما سبق ، سرعة حركة التصنيع والانتشار الحضاري الذي يتضمن هجرة على نطاق واسع الى المدن والمساواة بين الرجل والمرأة في التعليم والحياة الاقتصادية والحياة العامة ، واتساع الهوة بين عمليات التشييد وبين المتطلبات الجديدة الفعلية للاسكان — هذا على الرغم من معدلات البناء والتشييد العالية ، والتغيرات التي طرأت على بنية العمر والجنس للسكان نتيجة للحرب ٠ بيد أن هناك عوامل اخرى تؤثر في الاتجاه المضاد مثل عدم وجود أي مظهر من مظاهر البطالة ، والثقة في المستقبل بفضل الاحساس بالامن الاجتماعي والزيادة السريعة المطردة في مجال الخدمات العامة ، ورعاية الطفل ( بما في ذلك دور الحضانة للرضع وقبل سن الدراسة ٠٠ الخ ) وتحسن ظروف المعيشة ٠

أما عن افاق المستقبل في المجتمع الشيوعي حيث يتحقق الاشباع الكامل لحاجات الناس جميعا ( على اساس مبدأ من كل حسب قدرته ولكل حسب حاجته ) فسوف تنتفي العوامل الاقتصادية التي تعمل على خفض معدل المواليد ٠

ان الشيوعية تفترض تطورا عاليا وكبيرا مستقبلا في قوى الانتاج ٠ وفي نفس الوقت فان نبوءة انجلز عن ان الناس « سوف يصنعون تاريخهم بما يرضي ضميرهم » تصدق على النمو السكاني ، اذ بعد ان يتحقق الاتساق الكامل بين الفرد والمجتمع فان معدل النمو السكاني سيتطابق تماما مع مصالح الفرد والاسرة والمجتمع ٠ وبهذا فلن يواجه المجتمع الشيوعي تهديد التضخم السكاني ( وهو ما يفزع اتباع مالتوس ) ولن يواجه ايضا تهديد النقص السكاني ( وهو ما يخشاه انصار « نظرية الرفاهية » ) ٠

واخيرا فان الاتجاهات الاجتماعية السياسية التي نلحظها في العالم الحديث — ومن بينها الاتجاهات الديموجرافية — لا تدعم نظريات المدرسة المالتوسية الجديدة القائلة بأن النمو السكاني هو علة الحروب الاساسية والخطر الرئيسي الذي يهدد بحرب عالمية جديدة ٠

●

# الفصل التاسع

# علم النفس الاجتماعي الغربي وأسباب الحروب ووسائل تجنبها

ثمة اهتمام متزايد في الغرب على مدى عشرات السنين الاخيرة بالجوانب الاجتماعية النفسية للحرب والسلام ٠ وعلى الرغم من وجود محاولات سابقة لاكتشاف الاصول السيكولوجية للصراعات ووسائل حسمها والغائها الا انه بعد الحرب العالمية الثانية على وجه التحديد بدأ يتسع مجال الابحاث في هذا المجال حتى اشتمل على عديد من المشكلات المتباينة ، مثل الطابع القومي والطابع الفردي وتأثير الظروف الاجتماعية وغيرها والتحريف السيكولوجي للواقع ، وليس هذا سوى قليل من كثير ٠

ويبدي الماركسيون اهتماما كبيرا بدراسة الجوانب السيكولوجية للحرب والسلام ٠ واذا قارنا الدراسات الماركسية بدراسات الباحثين الغربيين في هذا المجال سنجد ان الدراسات الماركسية تهتدي بمبدأ الانتقاء الدقيق والحريص للقضايا الواقعية ذات القيمة الحقيقية وتتميز ايضا بالنقد الشديد للنظريات التي تحجب جوهر المشكلات وتساعد ، سواء بصورة مباشرة أم غير مباشرة ، على ترويج الفكرة القائلة بأن الحرب قدر محتوم ٠

## الاتجاهات الاساسية في علم النفس الغربي واسلوبها في معالجة مشكلة نشأة الحرب

ثمة اتجاهان اساسيان الان في علم النفس الاجتماعي الغربي ، اتجاه التحليل النفسي والاتجاه السلوكي وكلاهما يختلف من حيث النشأة ومنهج البحث والنظريات الاساسية ٠

ان اتجاه التحليل النفسي الذي لايزال يحظى بتأييد واسع وان كان أقل بكثير مما كان عليه في الثلاثينات ، يستمد نظرياته من سيجموند فرويد ( ١٨٥٦ ــ ١٩٣٩ ) مؤسس التحليل النفسي ٠ وعلى الرغم من أن فرويد لم يضع لنفسه ابدا وبشكل عملي هدفا متميزا هو دراسة وبحث اسباب الحرب

الا انه اعتبر نظرياته صحيحة بصورة كلية وشاملة ويمكن تطبيقها لحل اكثر الظواهر الاجتماعية تباينا ، بما فى ذلك الصراعات الدولية ٠ وقد فسر فرويد السلوك العدوانى فى ضـوء الفرض القائل بوجود طاقة عدوانية كامنة فى اللا شعور عند الانسان ٠ وقال ان هناك العديد من المحارم الاجتماعية التى تفرض نفسها وقت السلم على هذا الدافع ، ولكن الوضـع ينعكس فى حالة الحرب حيث تتهيأ الفرصة امام هذا الدافع ليفرغ طاقته ٠ وكان فرويد يميل فى بادىء الامر الى الاعتقاد بأن السلوك العدوانى وليد أزمة ناجمة عن فشل مخططات وتحطم آمال ( أى ناجمة عن احباط ) ولكنه تخلى عن هـذا الرأى اخيرا وقال بوجود غريزة عدوانية فى صميم كيان الانسان ٠

ان الحرب العالميـة الاولى بكل ما شـهدته من عنف وضراوة وبكل ما احدثته من دمار على نطاق واسع دفعت فرويد الى تطوير نظريته بشـأن دافع العدوان النظرى ، اذ افترض كمسلمة بديهية وجود دافع فطرى يدفع الانسـان نحـو المـوت والدمار وهو ما أسـماه ثانانوس Thanatos صراع دائم ومتصل مع نقيضه الدافع الى الحياة وتجديدها والابقاء عليهـا وهو ما اسماه ايروس Eros ٠ وانتهى الى ان الدافع الى الموت كدافع فطرى هو السبب الوحيد فى اشعال الحروب ، فاذا كانت هناك أمة ليست فى حالة حرب وليس لديها بدائل ملائمة للحرب فان غريزة الموت المكظومة التى لا تجـد لنفسها مخرجا ستلحق بهذه الامة الدمار ٠

وبديهى ان النتيجة التى تلزم تلقائيا عن هذه النظرية القدرية هى ان الحروب ظاهرة طبيعية وليدة الطبيعة البشرية ، ومن ثم لا سبيل الى تجنبها ٠ وعلى الرغم من ان فرويد نفسه اراد ان يكون داعية سلام ، بل واعتبر نفسـه كذلك بالفعل الا ان نظريته القدرية ارغمته على اتخاذ موقف من الحرب بعيد تماما عن النزعة السـلمية ٠ فقد اعلن ان الحـرب « تبدو أمرا طبيعيـا تماما ، وان لها بلا ريب اساسا بيولوجيا طيبـا ، وهى عمليا أمر لا مناص منه ٠ » (١)

ولقد صادفت نظرية فرويد منذ البداية انتقادا شديدا وقاسيا على يد الباحثين المتقدمين ، بل وعلى يد عديد من الفلاسفة وعلماء النفس اليمينيين ٠ ذلك ان الطابع الرجعى للغاية الذى تتسـم به الفرويدية ومنهج بحثهـا الميتافيزيقى الذى يفترض وجود دوافع لا شعورية ثابتة وأبدية لدى الانسان ، والبنية البدائية للنظرية التى ترتكز على القول بوجود غريزتين اساسيتين ، وعنصر القدرية الواضح والقوى كل هذا ادى باتباعه الى اتخاذ نهج انتقادى واجراء بعض التغييرات ورفض عدد من فروضها ٠

ولكن التحليل النفسى اليوم لم يعد يمثل نسـقا واحدا بل تشعب الى سبل عديدة متباينة ٠ فثمة طائفة من انصـار التحليل النفسى ـ نانبرج ، وستراتش ووايلدر وغيرهم ـ تقبـل نظرية فرويد عن « غريزة الموت » أو

---

(١) نقلا عن هاري ك٠ ويلز فى كتابه «بافلوف وفرويد» ـ طبع نيويورك ١٩٦٠ ص ٣٤ ٠

« غريزة العـــدوان » ، وهناك طائفـة اخرى اقوى نفـــوذا ـ Saul سول وماك نيل McNeil وبيركويتر Berkowitz وآخرون طورت النظرية وقالوا ان العدوان نتاج الاحباط ، سواء اكان احباطا فرديا ام اجتماعيا . ويصرح ســـول بأن « العداوة مرض التقدم وتكمن مصـــادرها الرئيســـية داخل الشخصية . » (٢) . هذا بينما نجد دولارد Dollard ورفاقه فى كتابهم « الاحباط والعدوان » ( ١٩٣٩ ) يقررون ان الاحباط يؤدى دائمـا وابدا الى العدوان ، ويؤيد ماك نيل وجهة نظر مغايرة تقول « ان بالامكان تتبـع القدر الاكبر من عدوانية الانسان وردها مباشرة الى الاحباط . » (٣) ولكن الاحباط الفردى او الاجتماعى لا يؤدى بالضرورة الى استجابة عدوانية .

والملاحظ بوجه عام ان انصار نظرية الاحباط يشعرون بوجه عام بحرج شديد ازاء المفهوم الفرويدى عن غريزة عدوان قائمة وأصيلة فى صميم كيان للانسان . مثال ذلك بيركوتيز يزعم ان « قليلين جدا من انصــــار التحليـل النفسى يقبلون اليوم فرض فرويد بشأن غريزة الموت ، نظرا لان تصور دافع فطرى للدمار ، وعلى نحو ما قال فرويد غير مقبول علميا » (٤)
ولم تغب عن انظار بير كويتز ، مثلما لم تغب عن انظار كثيرين غيره من رجال علم النفس ، الطبيعية الرجعية الواضحة لقضايا فرويد الاساسية .

ولا يرد انصار نظرية الاحباط سبب الحرب الى غريزة عدوان فطرية بل الى احباط اجتماعى بمعنى تكوين نفسى اجتماعى فى حالة ازمة نتيجة احباط خطط وآمال وتطلعات قومية . وقد يكمن مصــــدر هذا الاحباط داخل بلد بذاته . وكما يقول ماك نيل : « نظرا لان الكثير من علاقاتنا الاجتمـــاعية وعلاقات العمل منظم على اســـاس اصحاب اعمال وعاملين ، وقادة واتباع ، فان الاحباط قد يتولد مباشرة نتيجة قيادة غير مرضية تعوق اشباع حاجات الآخرين . » (٥)

رأى آخر مماثل يؤمن به عالم التحليل النفسى ج . ك فلوجل الذى يرى ان البلد الذى يحقق لاهله اشـــباعا معقولا لحاجاتهم الاساسية اقل استعدادا للحرب من بلد يعانى سكانه سخطا خطيرا او استثارة . ويقول « وفى مثل هذه الحالة الاخيرة فان الشعب يشعر بأنه لا يملك الا القليل وربما لا يملك على الاطلاق ما يخسره اذا ما ذهب الى الحرب ، بل سيرحب بالراحة التى ســـوف

---

(٢) A. H. Buss, The psychology of Aggression New York London, 1961, p. 190.

(٣) E.B. McNeil, «Psychology and Aggression», Journal of Conflict Resolution, 1959, Vol. III, No. 3, p. 202.

(٤) L. Berkowitz, Aggression. Asocial psychological Analysis, New York, 1962, p. 8.

(٥) T.W. Adorno and others, the Authoritarian Personality, New York, 1950 .

يشعر بها من خلال الفرصة المتاحة للتعبير عن العدوان ضد عدو يكون كبش فداء يحمله مسئولية كل ما يعانيه من شرور وامراض ٠ » (٦)

ويكمن احيانا مصدر الاحباط الاجتماعى خارج البلد المعنى ٠ ويلحظ اتزيونى Etzioni انه كلما ازداد ما يعانيه الامريكيون من احباط على الجبهة الدولية أو فى المنافســـة فى مجال الفضاء كلما ازداد مزاجهم العدوانى ٠٠ وكلما استمر الموقف الدولى فى التدهور ٠٠ يصـــبح الجمهور اكثر عدوانية ويصبح البرنامج السلامى اقل ملاءمة ٠ » (٧)

لعل الامثلة القليلة السالفة تفى لبيان ان انصـــــار نظرية الاحباط يلتزمون نهجا مثاليا ، مقابل النهج المادى ، فى بحث اســـباب الحرب ـ اذ ينطلقون من التغيرات فى التكوين النفسى الاجتماعية الى التغيرات فى الواقـع الموضوعى ٠ انهم يرون ان ثمة أزمة نفســية هى العلة الاســاسية المباشرة للسلوك العدوانى ، هذا على الرغم من أن كثيرين منهم يســلمون بان الاحباط ناتج عن ظروف خارجية ٠ وهكذا فأنهم فى واقع الامر يجعلون التكوين النفسى للانسان العلة الاساسية للحرب ، وهو ما يمثل عمليا المقدمة الاساسية لمفهوم « غريزة العدوان » ٠

وثمة عيب منهجى اخر يعيب نظرية الاحبـــاط ويرتبط بالاول ، وهو عجزها عن تفسير العدوانية فى حالة عدم وجود حالة احباط واضـــحة ٠ اذ لو كان الفرض الذى قال به فلوجل صـــحيحا وهو ان العدوانية نتيجـــة احتياجات محبطة ، اذن لزم ان يكون بلد مثل الولايات المتحدة الامريكية الذى يتمتع بأعلى مستوى معيشة فى العالم الرأسمالى واحدا من اكثر الامم حبـــا للسلام ٠ بيد أن الواقع العملى يشهد بأن الامر على النقيض تماما ، فالولايات المتحدة اليوم واحدة من اكثر دول العالم عدوانية ، بل تعمل شرطيا دوليا ضد الشعوب المحبة للحرية ٠

ان كثيرين من نقاد نظرية الاحباط يشـــيرون بحق الى ان اكثر الدول نزوعا الى الحرب فى التاريخ لم تكن الدول الفقيرة بوجه خاص ، بل على العكس كانت عادة من بين الدول ذات الرخاء ٠ ونحن من ناحية اخرى لا نســـتطيع موافقة هؤلاء النقاد الذين ينفون باصرار أى رابطة على الاطلاق بين الاحبـــاط وبين السلوك العدوانى ٠

عيب منهجى آخر هام يعيب نظرية الاحباط ، وهو فشلها فى التمييز بين حالات الاحباط التى تعانيها جماعات كثيرة متباينة فى المجتمع الرأسمالى

---

(٦) J. C. Flugel, «Some neglected Aspects of world integration», Psychological Factors of peace and war, Ed. by T.H. pear, London New York 1950. pp. 129-30.

(٧) A. Etzioni, the Hard Way to peace, A strategy, New York, 1962, p. 77, 78.

مثل حالات الاحباط عند العمال وعند الاحتكاريين ٠ اى انها ، بعبارة اخرى ، تضع تحت عنوان واحد وفي فئة واحدة عدوانية رجل الشـــارع العادى وعدوانية الطبقات الحاكمة والحلقة العسكرية الامبريالية الوثيقة الصلة بها ٠

ولكن على الرغم من كل مظاهر القصور التى اسلفناها فاننا نخطىء اذا اغفلنا العديد من الافكار المعقولة التى قدمها او ساعد على الوصول اليها انصار النظرية ٠ ومن اهم هذه الافكار البناءة النظرية القائلة بأن السخط الشعبى يمكن ان يتفاقم ويستثار بفعل تصرفات القادة البورجوازيين الذين يفشلون فى اشباع احتياجات الشعب وان هذا السخط يمكن ان يستغله البورجوازيون لتوجيهه نحو عدو وهمى على نحو ما فعل هتلر عندما اتخذ من الشـيوعيين واليهود كبش فداء لحل مشـــكلات المانيا ٠ نظرية اخرى هى عداء قطاع من السكان فى البلدان الرأسمالية للاقليات القومية مثل الزنوج ، وان هذا العداء قد يرتكز على عوامل اقتصادية غير مواتية فيسبب احباطا وسـلوكا عدوانيا واتجاهات عدوانية ٠

وهناك مدرسة ثالثة فى التحليل النفسى ( فروم ، أدورنو ، الز فرنكل برونشفيك ) وتعنى اساسا بوصف ما تحت الشـعور او قســمات التحيز والهوى فى شخصية نزاعة الى السلطة تجمع بين السادية ( الرغبة فى ايقاع الالم ) والمازوخية ( الرغبة فى تلقى الالم ) ٠

ويرى أدورنو ورفاقه (٨) ان الشخصية المتسلطة مرادفة « للفرد الذى يحمل نوازع فاشستية كامنة « الذى اذا ما تهيأت الظروف الاجتماعية الملائمة أى عندما تكون القوى الاقتصادية المتسلطة بحاجة الى اســـتخدام الدعاية المعادية للديمقراطية ابتغاء تحقيق السيطرة ، يكون قادرا على المساندة النشطة للخطط النابليونية لقادته ٠ ويقدم لنا باس Buss وصفا للانسان المتسلط » كما يراه علماء النفس الاجتماعى ٠ « الانسان المتســلط يقسم الاخرين الى فئتين : القوى والضعيف ٠ ويتسم بضمير صارم جامد ويقرر ان الامور خـير أو شر ، صواب او خطأ ، ولا شىء بين بين ٠ ويخشى ان يكون ضـعيفا لذا يؤكد لنفسه دائما انه قوى بالعدوان ضد من لا يقوون على الانتقام ) ٠ » (٩)

ان « الشخصية المتســلطة » هى الطراز التى تلقاه كثيرا فى البلدان الرأسمالية الغربية ويشـــكل فى الواقع تهديدا للديمقراطية البورجوازية والسلام الدولى ٠ بيد اننا نخطىء خطأ فاحشا اذا صورناه كأحد الاســباب الهامة للحروب الحديثة أو الشخصية النمطية للمجتمع المعاصر ككل ٠

مدرسة رابعة فى التحليل النفسى تتألف من علماء النفس الاجتماعيين

---

(٨) T.W. Adorno and others, the Authoritarian Personality, New York, 1950.

(٩) A.H. Buss, p. 262.

الذين يعنون أساسا بدراسة الرابطة بين علم نفس الطفل وعلم نفس الراشد ( أ + كاردناروم · كميد ) والغرض الأساسى عندهم أن الفوارق فى التكوين النفسى للفرد أو للجماعة (عدوان أو لا عدوان ) انما تتحدد بفعل أساليب التعليم والتربية والعلاقات بين الآباء والأبناء · وأجروا تجارب على أطفال المدارس لدراسة وبحث عدد من المشكلات منها على سبيل المثال أثر المعلم « الديمقراطى » على التكوين النفسى للطفل والمقصود بالمعلم الديمقراطى الذى يلجأ الى الاقناع ، واثر المعلم « المتسلط » الذى يستأسد ويصيح ويعنف وغير ذلك من أساليب القهر · وأوضحت بعض التجارب ان تلاميذ المدارس من النوع الاخير يميلون الى التمرد ويسلكون سلوكا أقل بنائية (١٠) ويحاول علماء نفس الطفل تطبيق نتائج تجاربهم وملاحظاتهم الاخرى المستقاة من الأساليب التربوية على المجتمع ككل ·

ان نقطة الضعف الأساسية فى هذا المنهج أنه يبالغ فى تأثير التربية والتعليم على سلوك الراشدين · لاشك فى أن أساليب التربية لها دور هام فى تشكيل التكوين النفسى الاجتماعى لفئات كثيرة من الناس ، بيد أن الميول والاتجاهات الأيديولوجية للتعليم ، سواء أكانت دعاية النزعة العسكرية أو السلام هى السائدة ، تتوقف أساسا على طبيعة الاتجاهات الاقتصادية والسياسية السائدة فى مجتمع بذاته أى تتوقف باختصار على طبيعة النظام الاجتماعى · وأكثر من هذا ، كما أشار عالم الاجتماع هـ · جونس ، أن تطبيق أساليب التربية المعدة لتجنب استثارة العدوان لدى الاطفال لاتلغى كل مصادر العدوانية فى المجتمع طالما وأن «الاستجابات العدوانية قد لاتكون معبأة ومستثارة حتى فى حياة الراشد على نحو اقل فعالية نتيجة حالات احباط فى الخبرة السائدة ·· ان موجة من العدوانية القومية التى قد ترجع لحالات احباط عابرة (ربما تكون نابعة عن وضع الأمة فى العالم) قد تكون عنيفة أشد العنف ·· (١١)

ان مدارس التحليل النفسى التى أسلفنا ذكرها قد تختلف فيما بينها بالنسبة لمواضع الانطلاق الاساسية لكل منها الا أنها جديرة بأن نعتبرها لما بينها من عناصر مشتركة ممثلة لمدرسة فكرية واحدة · اذ الملاحظ فى حالات كثيرة أنها تتطابق سواء بالنسبة للمشكلات التى تعالجها أو الحلول المقترحة ·

نشأت المدرسة السلوكية ــ التى أسسها ج · ب وطسون ، فى العشرينات كحركة مناوئة للاتجاه التحليلى فى علم النفس الاجتماعى · واذا كانت مدرسة التحليل النفسى بدأت انطلاقا من مسلمة تقضى بوجود دوافع لا شعورية نشطة أو كامنة لدى الناس فان السلوكية على العكس من ذلك تعتبر الادراك الانسانى جماع أفعال منعكسة شرطية وترى السلوك

---

(١٠) أ· ب· ماك نيل ــ المرجع السابق ص ٢٦٩ ·

(١١) H. Jones, Human Relationships and Group behaviour Alternatives to war and violence — A search London, 1963, p. 21.

حصيلة الارجاعات التى تمثلها المرء تجاه البيئة • وترد السلوكية النشاط النفسى العقلى الى مجرد عادات وأنماط سلوكية تطورت خلال الدراسة والممارسة •

ويقدم السلوكيون بدلا من «غريزة العدوان» مفهوم «العادات العدوانية» •. ويوضح ذلك أ • باس بقوله «حسب النهج السلوكى فى دراسة العدوانية فان العادة تلعب الدور الحاسم فى ذلك : العدوانية عادة الهجوم • » (١٢)

ويقول ت • لنتز Lentz : «ان الحواجز (التى تحول دون التعاون الدولى ــ المؤلف) كامنة فى رؤوسنا وأفئدتنا • انها كامنة فى عاداتنا للسلوك الاجتماعى • (١٣)

كيف تنشأ « العادة العدوانية » ؟ اذا سلمنا بأن الفرد ذاته يخلق عاداته فاننا نعود الى مسلمة التحليل النفسى عن الدوافع النشطة اللاشعورية والهذا يبحث السلوكيون عن اجابة فى سلوك الجماعة ويقررون ان اسباب العادات الفردية انما نجدها فى العادات العدوانية والتقاليد المتوارثة عن هذه العادة • ويرى باس «أن المجتمع يعين الأهداف وكم وأساليب العدوان ، وأولئك الذين لاينساقون يكونون فى حالة عدم توافق مع المجتمع • » (١٤)

بيد أننا حين ننقل مصدر العدوانية من الفرد الى المجتمع فان السلوكيين لايفعلون حقيقة أكثر من اقرار الحقيقة البسيطة وهى الاقرار بوجود عادات عدوانية بدون حل المشكلة من أصلها •

والملاحظ أن علماء النفس على اختلاف اتجاهاتهم ومدارسهم فى محاولاتهم للكشف عن أصول ومنشأ العدوانية الاجتماعية يلجأون عادة الى نظرية « أنماط الثقافة » التى قدمها روث بنيدركت Ruth Benedict فى عام ١٩٣٤ • وتقضى هذه النظرية أن الحرب «موضوع» تيمة Theme اجتماعى يمكن استخدامها كما يمكن عدم استخدامها فى أى ثقافة Culture (١٥) ويذهب ت •. هـ • بير Pear وهو من أنصار هذه النظرية الى أن نمط الثقافة Culture-Pattern هــو « المبدأ العام للتكامل يجـرى من خلاله نسج العادات والمؤسسات والعقائد والعواطف والاهتمامات والمصالح والقيم فى نمط منسق الى حد ما • » (١٦) ولكن المنهج الذى يعزو العدوانية الى عدد معين من الثقافات لايفسر مسألة أسباب العلاقات العدائية مع بلدان أخرى ذات «ثقافة عدوانية» نظرا لانه يعالج العدوانية كشىء معطى مقدما ويترك أصولها الاجتماعية بدون تفسير •

---

(١٢) أ • هـ • باس ــ المرجع السابق ص ١٩٨ •

(١٣) T.E. Lentz, towards a science of peace. Turning point in point in Human Destiny, New york, London — 1955, p.22

(١٤) أ. هـ. باس ــ المرجع السابق ــ ص ٢٠٧ •

(١٥) R. Benedict, Pattern of culture, New York, 1934 p. 27.

(١٦) T.H. Pear «Peace, War and culture-Patterns» Psychological factors of peace and war, p. 21-22.

ترى ماأوجه النقص المنهجية الاساسية التى تعيب نظرية « العادة العدوانية» والتى حالت دون السلوكيين واكتشاف الاسباب الرئيسية للحرب ؟ نجد أهمها فى معالجتهم للعادة العدوانية كاستجابة فردية سيكوفسيولوجية ٠ ( تفسيدنية ) وأداتية instrumental يقوم بها الكائن الحى ، ويغفلون العمليات الاجتماعية التى تولد اتجاها عدوانيا ازاءالامم الاخرى ، وبهذا نراهم يعزون دورا متكافئا لعوامل متباينة مثل الطبقة الاجتماعية والاسرة فى التأثير على الفرد ٠ ويخفق السلوكيون فى ابراز العوامل الاساسية الحاسمة وفصلها عن مركب العوامل الخارجية التى تؤثر على سلوك الانسان ، وذلك لسبب بسيط ، وهو انهم لايعترفون بالاهمية الاجتماعية للاصول التى نشأت عنها العادات العدوانية عند الانسان ٠

أدى هذا النقص الاساسى فى المنهج السلوكى لدراسة نشأة وتطورالعادة السلوكية الى نقص آخر يتضح عند تقويم العادة التى تكونت بالفعل ٠ لقد أخفق السلوكيون فى التمييز بين عدوانية الجماعات المختلفة من الناس ٠ ان مايعيبة بير ، وآخرون غيره على نظرية التحليل النفسى عن العدوانية وهو أخذهم عليها انها «أخفقت فى التمييز بين عدوانية تجار الحروب ٠٠٠٠ وبين مواقف عامة السكان ممن يجهل أكثرهم كل شىء عن الحرب الوشيكة » هذا الماخذ يصدق أيضا وبالمثل على السلوكيين أنفسهم ٠

وكانت النتيجة المنطقية لمظاهر الضعف هذ، هى تشابه الرأى بين انسلوكيين وأنصار التحليل النفسى من حيث ن أسباب الحرب هى أسباب نفسية تماما أو هى كذلك بوجه عام ، وتعتبر المدرستان التكوين النفسى للانسان علة الحرب الاساسية مع فارق وحيد هو أن العلة عند أنصار التحليل النفسى دوافع‌لا شعورية هى أساس التكوين النفسى بينما العلة عندالسلوكيين عادات ٠

بل ان بعض علماء النفس الاجتماعيين ممن هم على استعداد لقبول القول بعوامل اجتماعية يكون لها دورها فى نشأة وتطور الاتجاه العدوانى ازاءالامم الاخرى ، مثل هؤلاء العلماء على استعداد للالتزام بمنهج سيكولوجى أحادى الجانب فى بحثهم عن أصول الحرب ٠ وأبرز هؤلاء هو اريك فروم زعيم مدرسة التحليل النفسى الثقافى Culture psychoanalysis والذى يزعم انه ماركسى ٠

تبدو مثالية فروم واضحة فى آرائه عن أصول الحرب فى عصرناالراهن اذ يقول « اننا نعيش فى عالم واحد ولكن الانسان المعاصر لايزال يعيش بوجدانه وفكره فى عصر الدولة القومية ٠٠٠ وهذه المفارقة التاريخية لن

---

(١٧) E. Formm, Beyond the chains of illusion. My Encounter with Marx and Freud, New York, 1962, p. 71.

(١٨) E. Fromm, The Case for unilaterial Disarmament, Daedalus, 1960, Vol. 8, No. 4.

تؤدى بنا الا كارثة » (١٩) وهكذا فالعلة الاساسية للحرب ليست الاتجاهات الاساسية لطبقات اجتماعية محددة بل يتمثل فى أن فكر ووجدان الانسان المعاصر ينتميان الى عصر مضى ٠ ويقرر فروم فى كتاب آخر ، ويشاركه فى هذا الرأى كثيرون غيره من علماء النفس ــ يقرر أن «العلة الاساسية الكامنة للحرب هى الخوف «من الاسلحة النووية التى تحطم أمل الناس وتكرههم على انكار وجود خطر قاتل وتخلق حالة بارانويا وشيزوفرينيا عامة » (١٨)

وحاول فروم فى كتاب له صدر بعد ذلك أن يراجع وينقح نظريته التى تؤكد الاسباب الاجتماعية النفسية للحرب ٠ أراد التخلص من الموقف الانهزامى القائل بأن الحرب حتم لا مناص منه يرجع الى وجود دافع نظرى الى التدمير ٠ بعد ان كشف فروم النقاط الضعف فى هذا الراى لايمثل تحولا أساسيا عن نهجه الاسبق ٠ يقول : «الحروب نتاج قرار يتخذه القادة السياسيون والعسكريون وكبار رجال الاعمال ، اذ يقررون شن حرب ابتغاء كسب أراض ومصادر للثروة الطبيعية ومزايا تجارية ٠٠ (١٩) وحسب هذا المنطق فا ن اسباب الحروب الحديثه ليست ماثلة فى النظام الاقتصادى والسياسى للامبريالية بل هى ببساطه نتيجة قرار يمكن ان يتخذه قادة أى دولة اشتراكية أو رأسمالية ٠.

ويسترسل فروم فى صفحات الكتاب كلها ليؤكد الدوافع اللا شعورية عند « الانسان الحديث » مثل الميل الى النرجسية ٠٠ الخ ويحاول فروم ان يكشف سر التاريخ من خلال عملية تنظير اجتماعية سيكولوجية شاملة : « البروتسانتيون ضد الكاثوليك ، والفرنسيين ضد الالمان ، والبيض ضد السود ، واريون ضد غير الاريين ، والشيوعيون ضد الرأسماليين ، وعلى الرغم من الاختلاف الظاهر من حيث فحوى كل منها الا اننا سيكولوجيا نتناول نفس الظاهرة النرجسية وما يلزم عنها من تعصب وتدميرية (٢٠) وهكذا فبدلا من ان يجرى فروم تحليلا موضوعيا محددا لاسباب الصراعات الحديثة نراه يقدم محاولة سيكولوجية اكثر تجريدا وتعميما للتنظير تجمع كل الاهتمامات والمصالح المختلفة الاجتماعية والطبقية والحزبية والسياسية ٠ والملاحظ ان فروم لم يتخل عن هذا النهج المثالى ، غير الماركسى فى كتابه الاخير (٢١) حيث يتبنى نظرية الاحباط بصورة او باخرى معلنا ان « التدميرية والعنف هما نتاج « الامال المحطمة » ٠

ان اسباب الحرب دائما وابدا ذات طبيعة تاريخية عيانية محددة موضوعيا بمعنى انها رهن بوجود مجتمعات وطبقات بذاتها ، ومصالح طبقية

---

(١٩) E. Fromm, the heart of man. Its Genius for good and Evil, New York, 1964, p. 22.

(٢٠) E. Fromme, The Heart of Man..., pp. 82-83.

(٢١) E. Fromme, The Revolution of Hope. Toward a Humanized Technology, New York, 1968.

محددة وعلاقة قوى خاصـــة • ويكمن خطأ فروم وغيره من علماء النفس فى نهجهم غير التاريخى والقول بان اسباب الحرب هى اسباب نفســية تجريدية زاعمين انها صواب فى أى مجتمع وفى كل المجتمعات ، هذا بدلا من الالتزام بالاسباب الواقعية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية السيكولوجية •

ولايزال كثيرون من علماء النفس يتشبثون بنفس النهج الخاطىء الذى سبق ان اشار اليه منذ عام ١٩٤٤ عالم الاجتماع الامريكى ل • برنارد • لم يكن برنارد ماديا ولكنه كان يؤمن على الرغم من ذلك بوجهة النظر القائلة ان الامبريالية تتحمل مسئولية الحروب العالمية • ونظرا لانه أدرك هذه الحقيقة الهامة فقد تمكن من ادراك اوجه القصور فى النظريات الســيكولوجية عن الحرب • بقول برنارد « ان من يلاحظ الامور على نحو سطحى ، أو من يرغب لسبب او لآخر فى ان يتجنب النظريات « المادية » عن اسباب الحرب تتراءى له الاسباب السيكولوجية على انها هى الاسباب الهامة • ويمكن ان نطلق على هذه الاسباب اسم الرأى العام أو الوطنية او الروح القومية او التحيزات ــ العرقية او الثقافية او التعصــب الدينى او أى طائفـــة اخرى من الآراء أو المعتقدات أو الايديولوجيات ، ولكن يكمن وراء كل هذا دائما وابدا تــلك الاسباب الاقتصادية التى تمثل القوة المحددة والشرط الاساسى لها جميعا (٢٢)

ان علماء النفس الاجتماعيين غير الماركســيين يعترفون احيانا بدور الاقتصاد والسياسة فى دراستهم لاسباب الحرب بيد أنهم يفعلون ذلك بهدف ان يأخذ تحليلهم صورة التحليل الشامل قدر المستطاع وتحاشى الاتهام قدر الامكان باحادية الجانب وليس بهدف تقديم تفسير مادى للمفاهيم الاجتماعية النفسية •

ان الاتجاه العام فى علم النفس الاجتماعى تجاوز الاسباب الســياسية الاقتصادية ، وهى الاسباب الاولية للحرب لتحل محلها الاسباب الثانوية ، وهى الاسباب الاجتماعية النفســية التى هى فى واقــع الامر مشـــتقة من الاولى • وبديهى ان هذا النهج مفيـــد للبورجوازية الامبريالية التى تتحرق شوقا لاخفاء مصالحها الخبيثة فى سباق التسلح والطبيعة الطبقية لســياستها العدوانية ضد البلدان الاشتراكية •

## منع الحروب فى علم النفس الاجتماعى الغربى :

اذا طالعنا علم النفس الاجتماعى الغربى الراهن فاننا نادرا ما نعثر على نظريات تردد عن قصد واقتناع فكرة ان حربا عالمية اخرى امر حتمى • ذلك ان مثل هذه القدرية قد انتقت بشكل عام • ومع هـــذا فان النزعة المثالية التى تسود علم الاجتماع الغربى تشـــكل عقبة تحول دون اتباع نهج واقعى

(٢٢) L.L. Bernard, War and its Causes, New York, 1944, 328.

لمشـــكلة منع الحرب • ويتبدى هذا النهج المثالى فى صورة وجهة نظر فوق طبقية Supracl وفى اتجاه نحو توسيع نطاقه ليطبق على المجتمع ككل نتائج مستخلصة من تجارب ملاحظات قام بها افراد او جماعات • ويحيل هذا النهج ، بصورته هذه ، العديد من النظريات الى نظريات جدباء غير ذات فعالية وتضيق للغاية من مجال تطبيقها فى حركة السلام •

ويجب الا يغيب عن ذهننـــا ونحن ندرس النظريات الاجتمـــاعية السيكولجية لاقرار السلام ان علم النفس الاجتماعى وعلم الاجتماع يتداخلان وهو ما يستلزم دراســـة نظريات كل من علماء النفس وعلماء المجتمع على السواء •

ان علماء التحليل النفسى بنظرياتهم عن الدوافع والغرائز الفطرية عند الانسان ينظرون الى مشكلة منع الحروب على انها « تسام » بالدوافع العدوانية اى توجيه هذه الدوافع عبر قنوات مقبولة اجتماعيا او مشكلة خاصة بتغلب الفرد على مظاهر النقص عنده عن طريق تحقيق الكمال الذاتى اخلاقيا •

اما عن النقطة الاولى فان رجال التحليـــل النفسى يزعمون بأنه ما لم يسمح المجتمع لابنائه بمخرج حر ينفســـون من خلاله عن دوافعهم العدوانية فانهم ســـوف يحولون طاقاتهم العدوانية من الداخل الى اهداف خارجية أى ضد بلدان اخرى او ناس آخرين • ومن ثم فاذا شئنا ان نتجنب معاداة البلدان الاخرى يلزم على المجتمع ان يهيىء مسارب مأمونة للطاقة العدوانيه ، وذلك بتشجيع المنافسة والرياضـــة والصراع ضـد الامراض والشرور الاخرى • ومحور الفكرة هو ان التعبير الحر عن الدوافع العدوانية فى مجال العـــلاقات الشخصـــية من شأنه ان يضعف الى حد كبير العدوانية تجاه « الجماعات الخارجية »

لكن نظرية التسامى رفضها كثيرون من رجال علم النفس الاجتماعى بل ومن بعض رجال التحليل النفسى • وقد دحضـتها ايضا وقائع الحياة المادية الحديثة فى الولايات المتحدة الامريكية • فها هو ذا بلد متوفر فيه فرص واسعة لممارسة الرياضة ، ولكن اذا حكمنا عليه على اساس معدل الجريمة سنجد انه البلد الذى تتوفر فيه فرص اكثر من اى بلد آخـر فى العالم للتعبير الحر عن « الغرائز العدوانية » والذى تدعم فيه الدولة الاضطرابات العنصرية • ومع ذلك وعلى الرغم من تعدد واتســـاع المسارب التى يهيئها المجتمع الامريكى للتنفيس عن العدوانية ــ ابتداء من لعب الرياضة حتى اغتيال رؤساء الجمهورية فان عدوانية الصفوة صاحبة النفوذ والسلطان تجاه البلدان الاشتراكية وكل الشعوب المحبة للسلام تتصاعد الى الذروة ولا تنخفض •

ان نظرية « التسامى » متناقضة ذاتيا الى اقصى حد اذ ان رجال التحليل النفسى الذين يعلقون اهمية كبرى على السلام الدولى يمكنهم على اساسها ان يوصوا بتشجيع العدوانية داخل المجتمع ، وهو ما يعنى تدمير النظـام العام ووحدة المجتمع ، بينما اولئك الذين يؤثرون السلام داخل المجتمع بأى ثمن يمكنهم بالمثل استخدام النظرية لمناصرة المجتمع فى تشجيعه للعداوة تجـــاه

الشعوب الاخرى ٠ والامر فى أى من الحالتين هو مســـألة عدوانية حتمية يطرحها موضوع على آخر ٠٠

ان هذه النظرية نظرية ميكانيكية وتجريدية الى حد كبير بحيث يمكن اســتخدامها على نحو متكافىء سواء لتأييد السلام الدولى او العداوة العرقية والامر رهن بنزوع الذات ٠

امانظريات التحليل النفسى عن الكمال الخلقى فانها جميعا بدون استثناء تعتمد على جهود الفرد لاعادة تربية نفسه ٠ وترى احدى هـــذه النظريات ان الانسان لا يدرك فقط اناه Ego بل يسقط « ظلا سيكولوجيا » منه ، او على الاصح انه يسقط ظلا سيكولوجيا لهذا الجانب من شخصيته الذى يجهله أو يخجل منه٠ ويتم طرح هذا الظل عادة على شـــخص اخر او جماعة اخرى من اشخاص يصبحون اعداء ، وهو ما يمكن الذات من معرفتها بوجودها نفسه ٠ ويتبنى هذه النظرية جـ ٠ ل ٠ هندرسون الذى يقول : « ان انواتنا Egos الفردية والجماعية تولد بالضرورة ظلالا لابد وان تسقط على مكان ما ، وهناك يكون اعداؤنا ، الذين بدونهم يستحيل علينا ان نتيقن من وجودنا ذاته ٠ » ان هذا الانقسام الثنائى هو ما يشكل تهديدا خطيرا للســـــلام ٠ ويستطرد هندرســــون قائلا : « ان السبب فى ان اكثر العلاقات الدولية علاقات مدمرة لبعضها البعض هو عجز الانسان او عدم رغبته فى معرفة وقبول هذا الانقسام الحتمى داخل ذاته » (٢٣)

ويرى م ٠ كلين M. Klein و هـ ٠ جونس H. Jones ان المشاعر الوجدانية هى المنقسمة ، وليست كل الانا الســــيوكولجية اذ قبل حدوث الانقسام تكون المشاعر الوجدانية الموجبة والسالبة فى حالة اختلاط ، وتضاد متكافئين ambivalen وتتبدى فى عديد من العــــلاقات مع الآخرين ٠ واذا كان عبء العدوانية الباطنية جسيما للغاية تنقسم المشاعر الوجدانية ، وتتجه مشاعر المودة والصداقة الى المجموعة التى ينتمى اليها المرء والتى تصبح خيرا فى مجموعها ، وتتجه مشــاعر العداوة نحو مجموعة « خارجة » غريبة والتى تصبح شرا فى مجموعها « وهكذا تنشأ العلاقات العدوانية بين بعض الجماعات والامم ٠

ويقترح هندرسون ان الاسباب النفسية للحرب يمكن القضاء عليها عن طريق ادراك جديد للنقطة الوسطى فى شخصــــية المرء ، وهى النقطة التى يتوازن عندها الشعور واللا شــعور ٠ ومن ثم فعلى الناس ان تكتشف من جديد اليوم هذا الجزء من ذواتهم الذى لا يلقى ظلا ٠٠ وهذا من شــــأنه ان يمكنهم من الاســـــتغناء عن حاجتهم الســـيكولوجية الى اعدائهم ٠٠٠ (٢٤) ولا يوضح لنا هندرسون طبيعة الخطوات العملية التى يتعين علينا ان نتخذها

---

(٢٣) J.L. Henderson, «Psychological implications of an Alternativ to war» Alternatives to war and violence. A search, Lonodn, 1963 p. 15

لحل مشكلة صناعة الذات نفسها ، وانما يحدثنا فقط عن بعض « النظم المادية والروحية » التى يمكن من خلالها معرفة الذات وتربيتها ·

ويقف موريس ل · فارير على خلاف مع هؤلاء المحللين النفسيين الزاعمين بان العلة النفسية الاساسية للحرب انما نجدها فى البشرية ككل · اذ يرى اننا نجدها فقط فى التكوين النفسى لقادة الحكم فى السلطة (٢٥) ، ذلك ان هؤلاء ، يملكون الوسائل التى تمكنهم من ايقاظ المشاعر العدوانية لدى الجماهير · ومن ثم فان العلة الاساسية للحروب يمكن القضاء عليها عن طريق اقامة جهاز يتحكم فى عدوانية القادة · ويقترح اجراء علاج اجبارى لقادة كل الامم ويرى ان الخير كل الخير لو تسنى اجراء علاج خاص للجماهير ايضا ليكونوا اقل استجابة للاتجاهات السياسية العدوانية لقادتهم · بيد انه لسوء الحظ فشل فى بيان من هم اولئك الذين سنعهد اليهم بعلاج القادة والجماهير بل وبيان اى نوع من العلاج يقصده ·

ونطالع نفس هذه الدعوة الى الكمال الخلقى للقادة فى نظريات د · ك · هوايت ·· يرى هوايت ان الغالبية الساحقة من الناس فى كل بلدان العالم لاتفكر بمنهج ابيض او اسود بل بمنهج التوفيق والمساومة او البحث عن حل وسط بين النقيضين المتطرفين · ويقول يبدو من الناحية السيكولوجية ان اكثر الناس يؤمنون بنفس الفلسفة الظاهرية » و « بدلا من الانقسام الى معسكرين متعاديين ·· فان الجنس البشرى على ما يبدو يتجاذب ويتقارب بشأن قضايا الفلسفة الاجتماعية وقد وصل الآن الى درجة معقولة من التوافق · « لقد اصبح الصراع بين الرأسمالية والاشتراكية امرا » عفى عليه الزمن « ذلك لان » رجل الشارع او العامة باتوا يتشبثون فى عناء الآن وسط غير درامى ·· » (٢٦)

ان النظرة الفاحصة لهذه « الفلسفة الظاهرية Model Phil. تبين انها فلسفة بورجوازية نموذجية · اذ ان القضايا الاساسية لهذه الفلسفة ، كما يقول هوايت نفسه ، هي ايمان الانسان الظاهرى بالمشروعات الحرة ورغبة الجماهير فى ان ترى الرأسماليين تحت « السيطرة الشعبية » ( واضح انها سيطرة خيالية ) والاهمية الكبرى التى يعلقها الافراد على الحرية السياسية ·· وعلينا ان نكون من السذاجة الى الحد الذى نعتقد فيه بان « هذه الفلسفة الظاهرية تجمع بين المبادىء الرأسمالية والاشتراكية فى وحدة واحدة وهو ما يراه هوايت وسيلة لاقرار سلام دائم اذا ما حدث وتبنى القادة السياسيون هذه الفلسفة · ويدعو رجال الدول فى الغرب ويلح في دعوته للاسراع فى اعلان تأييدهم للفلسفة الظاهرية · ولكنه غفل عن حقيقة واقعة وهى ان قادة

---

(٢٤) نفس المرجع ص ١٧ ·

(٢٥) M.L. Farber, «The Anal Character and Political Agression», Journal of Abnormal and social psychology, November 1955, Vol. 51, No, 3.

الغرب تبنوا منذ زمن بعيد المبدأ الديماجوجى فى السياسة والاقتصاد ــ أى فكرة حكم الشعب فى البلدان الرأسمالية ــ وهو ما اســماه خطأ فلســفة للجماهير ·

ويقدم هـ · جونس ، عالم التحليل النفسى ومن انصار مدرسة انقسـام المشاعر الوجدانية ، اقتراحين بشأن العلاج النفسى الوقائى ضد الحـرب · الاقتراح الاول يقضى باتباع اساليب اكثر تسامحا فى تعليم جيل الشباب ، والثانى ان نجعل الامور اكثر يسرا على فتية المجتمع الراشدين حيث ان هؤلاء الذين حصلوا على افضل تربية يمكن ان يعانوا من ازمات عديدة تؤدى الى اثارة حالات من العدوان · ويعتبر الاقتراح الثانى نموذجا لاراء علمــاء النفس الاجتماعى المؤمنين بان السلوك العدوانى ناتج عن الاحباط · ويذهب هؤلاء الى ان الاتجاه العدوانى لبعض قطاعات السكان فى البلدان الرأسمالية ضـد الزنوج واليهود والشيوعيين وغير ذلك من طوائف اجتماعية انما يرتكز على اساس من « الاحباط الاقتصادى » وهو عين ما يقوله ايضا و · ســتاجنارا ، وهو بدوره من انصار نظرية الاحباط اذ يقول : « الاحســاس بعدم الامان الاقتصادى عامل هام أيضا فى نزعة معاداة السامية واضطهاد الجامعـات العرفية وغير ذلك من ارجاعات موجهة ضد كباش فداء (٢٧) » بيد أن الاتجاه الواقعى المتجسد فى هذه الملاحظة الدقيقة قاصر تماما على نحو مايبـدو فى نوصيته باقامة «ديمقراطية صناعية» طالما وانهـا توصية غير عمليـة على الاطلاق ولا سبيل الى تطبيقها فى مجتمع رأسمالى .

ويرى جـ. ك. فلوجل انه لكى نتغلب على حالات الاحباط يتعين علينا أن نتخذ بعض الخطوات لازالة أسباب السخط لدى الراشدين ، ومن بينها المصاعب البدنية الناجمة عن نقص التغذية والاسكان والملبس .. الخ . بالاضافة الى الاحساس بخطر مصاعب أخرى تتهدد الانســان مرتبطـة بالاحســاس بفقدان الامان والبطالة(٢٨) . ويدعو مثل ســتاجنار الى «ديمقراطية صناعية» ولكن يبدو انه مدرك أن هذا غير كاف على الاطـلاق لاقرار سلا مدولى . ويستند الى نظرية الحاجة السيكولوجية الى الاعداء ، لينصح الانسان بأن يختار الطبيعة كعدو مشترك له وأن يتحد الناس جميعا فى الصراع ضـد هـذا العـدو وهـزيمته بعبارة أخـرى انه ينصـح الانسان ، تجنبا للحرب ، أن يسلك طريق الكمال الاخلاقى للذات وأن ينسى الفوارق التى تقسم الناس ويصطنع عدوا مشتركا غير انسانى » .

ويعرب بيركوفيتز عن امله فى أن « تقل المنافسة بين الجماعات وأن ينتشر « الســلام والوئام » . ويعتبر بيركوفيتز مدافعا غيورا عن نظرية الاحباط بيد انه يرفض الفكرة القائلة بأن المصادر الاساسية للاحبــاط المولدة للعدوانية الاجتماعية يمكن تلافيها فى المجتمع الغربى .

---

(٢٧) R. Stagner, Psychology of Personality, New York, 19»1, p. 528.
(٢٨) J.C. Fleegel, op. cit., p. 132.

ان افضل طريقة مباشرة لخفض الصراع بين الجماعات هى بطبيعة الحال أن تقلل من حدوث الاحباط .

ولكن يبدو واضحا اننا لا يمكن أن نحقق غير القليل فى هذا الاتجاه وليس ثمة أمل فى ان نزيل غير القليل من المصادر المثيرة للقلق والاحساس بفقدان الامان فى مجتمعنا(٢٩) .

ان الكثير من المقترحات السلوكية للقضاء على الحرب مماثلة ، ان لم تكن مطابقة لمقترحات انصار التحليل النفسى . وليس فى هذا مايدعو للدهشة لسببين :

أولا: أن نفس النهج العام يشكل اساسا مشتركا بين كل الاتجاهات والمدارس المختلفة فى علم النفس الاجتماعى الغربى . أعنى نظرة مثالية للتطور الاجتماعى ، وتفسيرا وضعيا للظواهر الاجتماعية ، وتصميمات اجتماعية نفسية ضيقة التفكير وافتقارا للنهج السياسى فيما يتعلق بالصراعات الطبقية والحزبية .
ثانيا : ان مدارس واتجاهات علم النفس الاجتماعى الغربى على اختلافها تكشف عن تداخل واسع وتأثير متبادل .

ان أ. باس عالم النفس السلوكى يحاول مثل كثيرين من علماء التحليل النفسى أن يقهر العدوانية لدى الطفل منذ نعومة أظفاره . بيد أن الوسائل التى يقترحها تختلف جذريا عن تلك التى يقترحها رجال التحليل النفسى . فبينما يوصى هؤلاء بأن نهيىء للاطفال فرصا واسعة لاشباع دوافعهم العدوانية فاذا به هو وغيره من السلوكيين ينصحون باستئصال العدوان .
يقول « ان قوة العادة للعدوان يمكن اضعافها عن طريق العقاب سواء أكان الميكانيزم هو العمل مباشرة على اضعاف العادة أو دعم وتعزيز عادات مناقضة(٣٠) » .

ان العادات السلامية هى الشىء الاساسى الذى يعنى السلوكيين بغرسه فى نفوس الاطفال عن طريق التربية والتعليم .
أما عن مناهج التربية فان بعض علماء النفس يحاولون تجنب الليبرالية المفرطة لرجال التحليل النفسى وراديكالية السلوكيين ولهذا يقترح م. أرجيل Argyle الاسلوب التلفيقى التالى كمنهج للعمل :
ان السلوك العدوانى الصريح يمكن فى كل الأحوال تدريبه عن طريق تكنيك تنشئة ملائمة ــ علامات حميمة مع الآباء الذين لا يسمحون بأى سلوك عدوانى ولا يعاقبون(٣١) .

---

(٢٩) بيركوفيتر ــ ص ١٨٥ .
(٣٠) أ. هـ. باس ــ نفس المرجع ــ ص ١٩٩ .
(٣١) M. Argyle, Psychology and social problems, London, 1964, p. 57

ويرى لنتز أن البحث العلمى لوسائل تحقيق السلام هو السبيل لخلاص البشرية من تهديد الحرب . ويرتكز كتابه على مقدمة أساسية هى أن «المعارف الضرورية لنشاط سلامى فعال غير متاحة للانسان الآن» (٣٢) . والمشكلة كما يراها هى أن «الناس لا يريدون الحرب ولكن .. يريدون مايسبب الحرب ... » ولهذا فان «معرفة أفضل بهذه الاسباب وببدائل اكثر قبولا هو مايمكن أن يغير السلوك سريعا(٣٣) » . وهكذا فان كل المشكلة عند لنتز تتمثل فى فشلنا فى فهم أسباب الحرب . ويبدو انه غير مدرك لوجود المصالح الطبقية للبورجوازية الاحتكارية التى تحاول التشبث بمواقعها بقوة السلاح ، أو الاحتكارات صاحبة النفوذ والسلطان التى تجنى ثروات من وراء سباق التسلح .

حقا ان البحث العلمى للاساليب التى تكفل اقرار السلام أمر ضرورى يقينا ، ولكن من الخطأ والزيف معا أن نقرر أن المصدر الحقيقى للحروب لا يزال غير معروف فى عصرنا . ان الفشل فى تحديد المصدر الحقيقى ــ وهو الامبريالية ــ هو بصراحة صفح واغفال للسياسة الامبريالية . واكثر من هذا انها سذاجة سياسية لا مثيل لها أن نتخيل أن المعرفة وحدها فى المجتمع البورجوازى كفيلة بتحقيق تحول جذرى وحاسم من جانب الامبرياليين ويدفعهم الى تبنى افكار جديدة بدون صراع سياسى . ان مثل هذا ليس سوى حلم من نسج الخيال يأمل فى كمال ذاتى أخلاقى للبورجوازية .

ان فكرة كمال الذات الخلقى تشكل الاساس الذى يرتكز عليه عديد من نظريات علم النفس الاجتماعى فى الغرب لانهاء الحرب وهى النظريات التى قدمها علماء اجتماع وعلماء نفس على السواء نذكر من بين هذه النظريات نظرية تتضمن فكرة «نزع السلاح المتبادل من جانب واحد» والتى يعرضها ك . أوزجود عالم النفس الامريكى المشهور . يرى أوزجود أن ثمة صراعا حقيقيا يدور الآن لتغيير نسق المعتقدات التى تؤمن بها أى طائفة من الناس عندما تدخل هذه المعتقدات فى صراع مع معتقداتنا . ويؤكد أن هذا الصراع ليس صراعا سياسيا اقتصاديا . بل صراعا ايديولوجيا سيكولوجيا خالصا .

« اننا نكافح للابقاء على أسلوب فى الحياة أو نسق للمعتقدات أو ايديولوجيا ان شئت(٣٤) » .

---

(٣٢) ك . ف . لنتز ــ نفس المرجع ــ ٥٦ .

(٣٣) نفس المرجع ــ ص ٧٢ .

(٣٤) C.E. Osgood, «Suggestions for Winning the real war with communism», Journal of conflict resolution, Vol. III, No. 4 Dec. 1959,

ان هذا التصور المثالى الاحادى الجانب عن الصراع الدائرة رحاة فى العالم اليوم قاد اوزجود الى حد أن عزا الاسباب الرئيسية لسباق التسلح الى التأملات الشائعة للواقع الناجمة عن الميكانيزمات العقلية . وان هذه الميكانيزمات ميكانيزم « منطق — نفسى » Psycho - Logic غير ممكن تعريفه وهو الذى يحدد العدو من تصرفات الانسان . ومعنى هذا ان « المنطق — النفسى » يملى على الامريكى أن شعبه طيب وشفوق وامين وعادل أما الشعب الروسى فسيىء وظالم ... الخ .

ويحتج أوزجود ضد الآراء الشائعة عن العالم الشيوعى وعلى الرغم من انه يشارك فى كثير من الاحكام الامريكية الشائعة والمتحيزة ضد الشيوعية الا انه يدين محاولات القاء الوحل على الاتحاد السوفييتى . ويقول :

« لقد عانى الشعب السوفييتى اكثر ... من أى شعب آخر اثناء الحرب العالمية الثانية . ولهذا فان له كل الحق فى أن يظل لفترة طويلة يحسب أن ثمة تهديدا خارجيا » (٣٥) .

ولكن اوزجود يغفل حقيقة أن التكوين النفسى البورجوازى مشتق من عمليات مادية أعمق فى المجتمع البورجوازى . ولهذا فان نداءه من أجل نزع سلاح تدريجى من جانب واحد ، انما يتعلق فى واقع الامر برؤية تأتى فى شكل ومضة عرضية مفاجئة لقادة الولايات المتحدة الامريكية ، أو هو رهن بموقف من ساسة الغرب يحطمون به الحلقة الخبيثة «للمنطق النفسى» بفضل قوة ارادتهم وادراكهم .

ان اقتراح « نزع السلاح التدريجى من جانب واحد » والذى ، يعرضه عالم الاجتماع الامريكى أ. اتزيونى يحمل بالمثل طابعا مثاليا واضحا فعلى الرغم من انه على صواب فى نظرته الى أن الموقف الاحادى الجانب ( نزع السلاح الشامل والكامل فورا من جانب واحد ) يمثل مبدأ عقيما سياسيا فى الولايات المتحدة الامريكية الا ان نظرته الخاصة تنبنى على نفس الخطأ الذى يرتكز عليه الراى الذى ينتقده : انه يعلق اهمية كبرى على « ازالة ضغط المنطق — النفسى » بعد تحقق برنامجه المقترح « ان مانحتاج اليه ومايمكن أن يؤتى ثمارا فى ظل الظروف الراهنة هو توفر سياسة تكسر هذه الحلقة الخبيثة من الشك وتزيل العوائق الفكرية والحواجز النفسية لدى كل من الجانبين (٣٦) » .

---

(٣٥) نفس المرجع — ص ٣١٤ .

(٣٦) أ. اتزيونى — نفس المرجع — ص ٩٣ .

قد يبدو لنا انه يقترح أن الدفعة الاولى نحو سياسة جديدة لابد وان تكون نابعة من ضمير قادة الغرب وارادتهم الخيرة حين يدركون ضرر سباق التسلح ومزايا سياسة السلام . وهو يبنى برنامجه على أساس فرض مثال يقضى بأن قادة الغرب يمكن أن ينتهجوا سياسة جديدة كنوع من الفهم الاخلاقى وعن طريق النشاط المستنير لانصار حركة الســــلام . حقا ثمة بطبيعة الحال فرصة لتحول فى سياسة الغرب بيد أن مثل هذا التحــــول لا يمكن أن يتحقق الا عن طريق النضال السياسى للقوى التقــدمية على النطاق العالمى وداخل البلدان الرأسمالية ذاتها وليس عن طريق « تحول » قادة الغــــرب .

ويبدو أن كمال الذات هو الامل الاول عند علماء الاجتماع وخبراء علم السياسة . ونذكر من بين خبراء علم السياسة أ. ستلمان وويفــاف اللذين يعبران عن نظرة مثالية فى كتابهما « سياســـة الهيستيريا . منابع الصراع فى القرن العشرين » يقول الكتاب :

ان القوة المحركة الاساسية لتاريخ الغرب كانت ولا تزال « التعطش الى الكمال » ، رغبة الانسان للسيطرة على بيئته الطبيعية والاجتماعيــة معا ويؤمن الكاتبان بأن هذا قد تحقق فى كثير من المنجزات المادية والثقافية من ناحية وفى عديد من الجرائم والعنف على مستوى مهول مفزع والحروب من ناحيــــة أخــرى .

ان الضعف السياسى الخطير الذى تعانى منه نظريات الســـلام فى علم النفس الاجتماعى يتمثل فيما تقدمه من حلول عملية محــدودة للغاية وعميقة ذات فعالية . اذ أن الاجــراءات المقترحة لخفض « عدوانيـــــة » الاطفال ولاقامة « ديموقراطية صناعية » وتطوير الرياضة واعلان الحرب على المرض ... الخ . ربما تؤدى الى الجريمــــة فى الولايات المتحـــدة الامريكية وتحقق بعض التحسن فى الحياة العــــامة وقد تفضى الى نقص محدد فى معــدل العنف فى الولايات المتحدة الامريـــكية وفى المجتمعــات الراسمالية الاخرى ، ولكن ليس لنا أن نتوقع منها ابدا أن تلغى المنــابع الاساسية لعدوانية الفئات البورجوازية الحاكمة .

لقد أدرك كثير من الباحثين الغربيين القيمة المحـدودة والقصـــور الواضح للاصلاحات الصغيرة . ولهذا ينادون باجراء تحــول جــذرى فى السياسة الغربية واجراء تغيرات أساسية فى البناء الســياسى للدولة . وتنطوى بعض مقترحاتهم على أفكار قيمة بشأن مبدأ التنازلات المتبــادلة والطبيعـــة التدريجيــــة للتغيرات الضرورية فى العـــلاقات بين البلدان الرأسمالية والاشتراكية . ولا ريب فى أن الدعاية من جانب عديد من علماء الاجتماع وعلماء علم النفس الاجتماعى من اجل وسائل تخفيف التوتر الدولى مثل تطوير الروابط الدولية فى مجالات مختلفة والتعاون ( مثل التعاون فى

مجال بحوث الفضاء ) وخفض الاسلحة وسحب القوات وغير ذلك كثير من الوسائل ذات الدلالة التقدمية المحددة . ولاريب ايضا فى أن نقد سياسة حكومات الغرب الذى يواكب عادة نظريات السلام فى علم النفس الاجتماعى له أيضا دور ايجابى . مثال ذلك موقف أتزيونى الذى ينتقد بحدة الخطـة الامريكية « لمراقبة السلاح » ويدين ماأسماه ارهاب روسيا Russophabia الذى يشيع كمرض فى الولايات المتحدة الامريكية والترويج لاغراض الدعاية لعبارات ورموز مجردة مثل « العالم الحر » ... الخ . ويذهب أتزيونى الى أن كثير من الامريكيين مصابون بداء الشك والتخوف من الشيوعيين كما يستبد بهم الفزع من القنابل المخبأة سرا لدى الجانب الآخر(٣٧) .

بيد أن مثل هذا الانتقاد للموقف السياسى فى الغرب لا يمس حقيقـة الاسباب الرئيسية للاستعدادات العسـكرية للحرب ولا يمكن أن يخفى الضعف الخطير للنظريات النفسية الاجتماعية التى تدعو لتحول العلاقات الدولية . ان الخطأ الاساسى هو المقدمة الطوباوية اذ يظنون أن مجـرد عرض خطة طيبة لاقرار السلام كفيلة بأن تدفع القـادة البـورجوازيين الامبرياليين الى احتضان الافـكار الجديدة وتبنيهـا وانتهاج سـياسة جـديدة .

ولعل نقطة الضعف العامة التى تشترك فيها كل نظريات السـلام فى علم النفس الاجتماعى هى انها تناقض بعضها البعض . فبينما يقرر بعض الباحثين أن العدوانية يمكن علاجها عن طريق الرياضة والالعاب ... الخ . يؤكد آخرون انها تؤدى الى زيادتها . ويؤمن البعض بأن الاتصالات بين الناس فى المجالات المختلفة تؤدى الى تخفيف مؤثرات الحرب الباردة ، بينما يؤكد آخرون أن مثل هذه الاتصالات تزيد العداوة . وواضح أن اختـلاف الرأى حتمى ونحن بصدد البحث عن الحقيقة . ولكن اذا أصبحت هـذه الاختلافات غاية فى ذاتها واذا أخفقت فى تقديم نظرية واحدة واستراتيجيـة وتاكتيك مشتركين فان النتيجة حرب فكرية غير مثمرة ، كل امرىء يجـذب فى اتجاه بقوة ومن ثم نتوه مع القضية الاساسية . وهى مهمة القضـاء على الحـرب .

## دور علم النفس الاجتمـاعى العلمى فى بحث مشـكلات الحـرب والسـلام

ان أى عرض لنظريات علم النفس الاجتماعى عن أصول الحـرب ووسائل منعها لن يكون كاملا بدون محاولة ولو أولية لتقويم دور علم النفس

(٣٧) نفس المرجع — ص ٧٧ .

الاجتماعى فى دراسة مشكلات الحرب والسلام . ويمكن لنـــا ان نطـــرح السـؤال على النحو التالى :

هل ثمة اى فائدة لعلم النفس الاجتماعى فى تحليل اسباب الحـروب ووسـائل منعها ؟

اننا لا نتردد فى الرد بالايجـاب .

يؤكد التحليل النهـائى ان سبب الحـروب فى عصرنا الراهن هو الامبريالية التى هى نظام اجتماعى اقتصادى لا يشتمل فقط على حاصـل العلاقات الاقتصادية المحددة ، بل يتضمن أيضا بناء فوقيـا سياسـيا وايديولوجيا واجتماعيا سيكيولوجيا . ومن ثم فان سبب الحرب فى العصر الراهن هو جماع الاقتصاديات الامبريالية والسياسة الايديولوجيا والتكوين النفسى الاجتماعى للبورجوازية الامبريالية .

ان التكوين النفسى للبورجوازية الامبريالية ووسـائلها للتأثير على التكوين النفسى للقطـاعات والطبقات الاجتماعيـة الاخـرى فى المجتمع البورجوازى يمثل احدى الحلقات فى سلسلة من الاسباب التى تقضى الى الحرب . وهو احدى الحلقات الهامة ولكنه بطبيعة الحـال ليس أهمهـا وذلك لانه نتاج للاقتصاد والسياسة الامبريالية . ان البورجـوازية تدرك جيدا دور علم النفس الاجتماعى فى الحرب الباردة وفى الاعداد وشن الحروب الامبريالية . مثال ذلك أن وزارة الدفاع فى الولايات المتحدة تستخدم عددا كبيرا جدا من رجال علم النفس فى الولايات المتحدة الامريكية(٣٨) .

ان الامبرياليين يستخدمون علم النفس لاغراض الحرب الباردة وثمـة سىروس ـ هوبى ـ Strausz-Hupé وكنتز Kintner وبوسونى Possony وهم من اكثـر المتحمسـين للحـرب البـاردة يصرحـون بأن « اولى بالمجتمع الحر المفتوح ألا يخشى الانخراط فى الدعاية وأن يخرض حمـلة سيكولوجية للاصرار على بلوغ أهداف له(٣٩) » . أن الامبرياليين والباحثين يلجأون فى أداء خدماتهم هذه الى الحرب النفسية فى الصراع الايديولوجى : ويضع الباحثون الذين أسلفنا ذكرهم توا الاهداف التالية من بين الاهداف الرئيسية للحرب النفسية الامريكية : المعركة ضـد الافكار الماركسـية

---

(٣٨) ت. أ ـ لنتز ـ نفس المرجع ص ١٥٦ .

(٣٩) R. Strauzz-Hupé, W.R. Kintner, S.T. Possony, A. Forward Strategy for America, New York, 1961, p. 260.

اللينينية ، نشر وترويج الافكار البورجوازية فى داخل البلدان الاشتراكية ، الدعاية «مثل الحرية» فى داخل البلدان المستقلة حديثا لما أسموه « مثل الحرية » .

ان دراسة الظواهر الاجتماعية النفسية فى المجتمع البورجوازى تشغل مكانة هامة للغاية بشأن كشف أسباب الحرب وأساليب منعها . ولكن اذا شئنا أن نكون علميين حقا فان مثل هذه الدراسة يجب أن تدرس العوامل الاجتماعية السيكولوجية باعتبارها نتاجا للعلاقات الاقتصادية والسياسية فى مجتمع بذاته مع الاعتراف بالتكافل النسبى بين الايديولوجية وعلم النفس الاجتماعى اذ بدون هذا النهج فى الدراسة لن تكون هذه العوامل سوى انعكاس مجرد للعمليات الاقتصادية والسياسية .

ان العيب الاساسى الذى يشوب نظريات علم النفس الاجتماعى السالفة هو انها تبالغ فى الاستقلال النسبى لعلم النفس الاجتماعى أو تعالج السيكولوجية وكأنها العامل الحاسم للتطور الاجتماعى ، والنتيجة فى كلتا الحالتين نهج مثالى فى دراسة الموضوع ، واخفاق فى تبين الدور الحاسم للاقتصاد الامبريالى فى السياسة الطبقية البورجوازية فى الاعداد للحرب . بيد اننا اذا نفذنا الى ماوراء هذا الغلاف المثالى يمكن أن ندرك العديد من العناصر الايجابية فى كثير من دراسات الباحثين الغربيين الذين يعالجون فيها المشكلات النفسية الاجتماعية بشأن الحرب والسلام ولكن شريطة أن نراها من وجهة نظر مادية .

ولنأخذ كمثال مسألة « العقبات النفسية » التى تحول دون الفهم المتبادل والاتفاقات الدولية . يرى أوزجود أن احدى هذه العقبات « اننا من الطبيعى أن نكره الاشياء التى يحبها من نكرههم من البشر » اذا عالجنا هذه النقطة من وجهة النظر المثالية التاريخية للمؤلف نفسه سيبدو لنا أن العقبات السيكولوجية المشار اليها وغيرها المشابهة لها هى بسبب رفض قادة الغرب قبول نزع السلاح الشامل وأن الامبرياليين وقادة البلدان الاشتراكية يعادون على قدم المساواة كل مايؤثره الطرف الآخر ولكن اذا فسرنا هذا انطلاقا من الموقف المادى فسوف ندرك بوضوح مايلى : أولا أن اسلوب الرفض المباشر لكل مايؤثره الطرف الآخر نموذج لسلوك رجال الفكر والسياسة الامبرياليين الذين أزعجهم ظهور الاشتراكية ، ثانيا أن ازالة هذه العقبة النفسية ستؤدى الى تحسن الموقف الدولى .

وثمة أفكار قيمة ( مرة أخرى بشرط تفسيرها من وجهة النظر المادية ) قال بها الباحثون الغربيون عن دور الصيغ النمطية فى تشكيل التكوين النفسى الاجتماعى فى البلدان الرأسمالية . فان فضح التيارات النفسية التحتية للمخططات الايديولوجية التى يستخدمها الامبرياليون فى دعايتهم ، وكشف الصيغ النمطية الجامدة التى يحاول من خلالها الامبرياليون صوغ

وتشكيل الرأى العام ، يمثلان امرا بالغ الاهميـــة فى الصراع الايدويولوجى لمنع حرب عالمية .

وثمة قدر من الحقيقة والصدق فى تعريف فروم ، على سبيل المثال ، للتأثير النفسي الذى يمارسه التهديد النووى على المجتمع الغربى ( وان كان يتعين علينا القول بأن فروم مخطىء حين افترض أن التهديد النووى له نفس التأثير على كل المجتمعات ) يقول فروم : « ان الحياة لاى مدى من الزمن فى ظل التهديد المستمر بالدمار تخلق بعض النتائج النفسية لدى أكثر البشر — الخوف ، والعداوة ، والغلظة ، وقسوة القلب ، واحساس بالامبالاة تجاه كل القيم التى ننشدها . ولا ريب فى أن مثل هذه الظروف ســـــتحيلنا الى برابرة » (٤٠) .

ان الاخطاء والعيوب المنهجية لا يمكن أن تخفى العـــــديد من النتائج الايجابية التى حققها علماء النفس الاجتماعيون فى الغرب فى ابحـــاثهم عن اصول الحرب ووسائل منعها . وتتسم هذه البحوث فى الغالب الاعم بالطابع التجريبى emperical مما ادى الى ان النتائج التى توصلوا اليها تعكس بأمانة بعض جوانب الحياة الاجتماعية النفسية للمجتمع البـــورجوازى . هذه حقيقة لاشك فيها ولكن ما نشك فيه هو أن هذه النتائج والملاحظـــات الواقعية سوف تجد لها مكانا فى علم نفس اجتماعى علمى مكرس لدراسة الجوانب الاجتماعية النفسية للعلاقات الدولية .

من البديهى أن علم النفس الاجتماعى لا يكفى وحده لتقـــديم حل للمشكلات المتعلقة بالاسباب التى تنشأ عنها الحروب ووسائل منعهـــا . واذا شئنا اقرار سلام عالمى وكبح جماح العدوان الامبريالى يتعين علينـــا أن نثابر فى بذل جهود متصلة لزيادة يقظة شعوب العالم وأن نفيـــد من المنظمات الدولية وأن نتبنى مختلف صور النضال ضد تجار الحـــروب وأن نفضح الايديولوجيات والمخططات التى تمهد للاستفزازات العســـكرية والمغامرات الرعناء غير المسئولة .

وتأخذ قضية السلام على المستوى الداخلى للدولة شكل المعارضـــة الفعالة والعنيدة للسياسة العدوانية الرجعية للبلدان الاحتـــكارية ، وذلك بالتضامن الوثيق بين البلدان الاشتراكية والدول المستقلة . هذا كمـــا أن عملية الفضح النشطة للمعتدين داخل الامم المتحدة وفى غيرها من المنظمات الدولية تمثل احدى الوسائل الفعالة فى معارضة السياسة العدوانية .

ان تحقيق المزيد من النجاح فى النضال ضد التهديد بالحرب والنضال

---

(٤٠) E. Fromm, «The Caso for unilaterial Disarmament» Daedalus, 1960, Vol. 9. No. 4, p. 1019.

من أجل وضع حد لعمليات التدخل العسكرى وللحيلولة دون ، اندلاع حرب عالمية أخرى · مثل هذا النجاح رهن الى حد كبير بتطور حركة السلام على النطاق العالمى بحيث تضم كل المحبين للسلام دون النظر الى آرائهم ومعتقداتهم السياسية .

قد يكون من الصعب أن نبالغ فى أهمية الفهم العملى الصحيح لسبل اقرار السلام ، ومن ثم فى النظريات التى تقدمها مختلف الفئات الاجتماعية والتى يمكن أن تسهم بحل عملى لمشكلات الحرب والسلام . وقد خصصنا الجزء التالى من هذا الكتاب لتحليل مثل هذه النظريات .



# الجزء الثالث

## ضد ايديولوچية العسكرية
## والرجعية ومن أجل السلام والتقدم الاجتماعى

# الفصل العاشر

# المذاهب الأمريكية لسياسة القوة

## الجذور الاجتماعية وسمات مذاهب سياسة القوة فى الولايات المتحدة الامريكية

يتزايد شيوع المذاهب والنظريات التى تهدف الى تبرير استخدام العنف فى العلاقات الدولية ــ « سياسة القوة » الامبريالية ــ فى علم الاجتماع البورجوازى بالولايات المتحدة (١) وهذا الوضع انما هو انعكاس لعمليات موضوعية ، الا وهى الدور المتنافى للعنف فى السياسة الامبريالية ، كما انه ناتج عن الجهود الخارقة التى تبذل من أجل التوصل الى طرق جديدة لخداع الجماهير واساليب جديدة للتأثير الايديولوجى .

وهناك سببان رئيسيان للحاجة المتزايدة الى مذاهب ونظريات جديدة لتبرير « سياسة القوة » الامبريالية .

فأولا ، يجبر الوعى السياسى المتزايد للجماهير ، وتعبئة حركة السلام ، البورجوازية الامبريالية على اللجوء الى كافة أنواع النظريات العلمية الكاذبة التى تربط تبرير استخدام العنف بأساليب أكثر دهاء لتفسير الاسس التى تدفع الى ذلك ، وتهدف مذاهب علم الاجتماع التى تطمس المصدر الحقيقى للتهديد بالحرب قبل أى شىء الى اسدال الغشاوة على أعين

(١) وفى هذا الصدد يحمل التعريف التالى «للعلوم السياسية» مغزى خاصا : تعنى العلوم السياسية أساسا بالقوة فى المجتمع . (و.أ. روبسون ، التعاليم الجامعية للعلوم الاجتماعية ، العلوم السياسية ، تقرير أعده و. أ. روبسون باسم الجمعية الدولية للعلوم السياسية ، اليونسكو « باريس» ابريل ١٩٥٤ ، ص ١٧) .

القطاعات العريضة من الرأى العام فى الغرب الرأسمالى (٢) .

وثانيا ، ادى الطابع التدميرى البالغ للحرب الحديثة ، والتغيرات التى طرات على ميزان القوى العالمى لصالح الاشتراكية الى نشأة شكوك معينة فى جدوى « سياسة القوة » ، وبخاصة بأشكالها المتبعه حتى الآن ، ومن هنا تأتى محاولات أكثر قوى الامبريالية رجعية لاستخدام مذاهب علم الاجتماع لغرس الافكار السياسية الرجعية بين الجماهير ولدعم اصرار المجموعات الحاكمة على اتباع سياسة الحرب والعنف فى المجال الدولى .

وقد أصبح « التبرير » الاجتماعى للحرب والعنف منتشرا على نحو خاص فى الولايات المتحدة الامريكية .

وخلال الحرب العالمية الثانية ، عندما كانت الدوائر الرجعية فى الولايات المتحدة تخطط بالفعل لاستخدام هزيمة المانيا النازية واليابان العسكرية من أجل سيطرتها على العالم ، انتشرت المذاهب الجغرافية السياسية والعنصرية فى كتابات علم الاجتماع الامريكى .

وعلى اى الاحوال ، فقد اكتسبت المذاهب الاجتماعية التى تستهدف تبرير سياسة القوة وأيديولوجية النضال من أجل السيطرة على العالم ، اكتسبت هذه المذاهب فى المحيط الامريكى سمات نوعية محددة مستمدة من ايديولوجية وسياسة الامبريالية الامريكية . وتشمل هذه السمات الترويج لمجموعة مختارة واسعة من النظريات الاجتماعية غير العلمية التى تحرف مسألة طبيعة وأسباب الحرب ، ونظريات سيكولوجية ، كما تشمل بنوع خاص التمويه الخبيث لسياسة القوة ومحاولة تقديمها فى ثوب ديمقراطى كاذب .

وعند المراحل المختلفة التى تمثل مختلف التذبذبات فى السياسة الامريكية الخارجية المرتبطة بتوازن القوى العالمى السائد ولتطور الصراع الطبقى داخل البلاد ، كانت ثمة جوانب مختلفة للايديولوجية السياسية ، ومذاهب ونظريات مختلفة تبرز الى المقدمة .

ومن الممكن تمييز المراحل التالية فى تطور هذه النظريات السياسية والاجتماعية : الاولى من نهاية الحرب العالمية الثانية الى أوائل الخمسينات والثانية من أوائل الخمسينات الى أوائل الستينيات ، والثالثة من أوائل الستينيات الى الوقت الراهن .

وقد تميزت المرحلة الاولى بمذاهب الجغرافيا السياسية وبمختلف النظريات القومية التى تدور حول « دور أمريكا الخاص » و « رسالتها » فى حكم « عالم الغرب » . كان لهذه المذاهب والنظريات جذورها

---

(٢) والملاحظة التالية لاحد ساسة الغرب جديره بالارتفاف : « اذا كانت الافكار الشائعة والاحكام الشعبية المتحيزة لا تفرض نفسها بقوة لا هوادة فيها على عقولنا ، فينبغى علينا أن نحكم عليها على ضوء المعرفة التاريخية والتجربة التاريخية ، والحقائق التى تم اختبارها بواسطة مثل هذه الخبرة» المستر . ب . بيرستون . الديموقراطية فى السياسة الدولية . (نيويورك ، ١٩٥٥ ص ٥) .

الاقتصادية ــ الاجتماعية والسياسية المستمدة من السيطرة الامبريالية الامريكية فى العالم الرأسمالية فيما بعد الحرب ، وكانت تستهدف اثارة المشاعر المعادية للشيوعية التى ارتبطت ببدء الحرب الباردة ضد الاتحاد السوفييتى ، ونشأة حلف الاطلنطى وغيره من الكتل العسكرية العدوانية .

وكانت المرحلة الثانية تقابل بروز النظام الاشتراكي العالمى كعامل قوى فى العلاقات الدولية ، وقد تميزت بالازمة الواضحة المعالم والتى لا جدال فيها لسياسة القوة الامريكية العدوانية .

وشهدت هذه المرحلة بروز وانتشار مذهب « الواقعية السياسية » والذى وضع من اجل التغطية على التهديد الذى تحمله الامبريالية للسلام وذلك باستخدام وسائل أكثر خبثا مما جرى استخدامه حتى ذلك الوقت ، وكان الهدف هو تقديم السياسة الامبريالية للمجموعات الحاكمة الى الرأى العام كما لو كانت من املاء « الواقعية السياسية » ، وكما لو كانت من صميم « جوهر » و « طبيعة » الانسان . وقد تمت مراجعة هذا المذهب مرات عديدة و « أعيد تجديده » حتى يتمشى مع التغيرات التى طرأت فى المعسكر السياسى البورجوازى ، عاكسا بذلك الصراع بين مختلف اتجاهاتالسياسة الخارجية ، وأزمة سياسة القوة . والواقع ان هذا المذهب ولد الكثير من الصراع والتناقضات حتى اضطر العديد من مؤيديه عند مواجهتهم للحقائق الى التخلى عن بعض المبادىء الجوهرية الاساسية له .

والمثال المحدد فى هذا الصدد هو ذلك التطور الذى يمكن ملاحظته فى اراء أحد مؤسسى مذهب « الواقعية السياسية » وهو هـ . مورجنتو الذى تخلى منذ عام ١٩٦٠ ، ( وان كان قد فعل ذلك فى حذر بالغ ) عن الدعاوى القائلة بان القوة السياسية العسكرية هى الوسيلة الفعالة الوحيدة لحل المشكلات الدولية ، وأدان علنا فى عام ١٩٦٥ العدوان الامريكى فى فيتنام .

وبالرغم من ذلك فينبغى ان نلاحظ ان بالرغم من الاختلافات فى وجهات النظر بين مؤيدى هذا المذهب ، وبالرغم من أن عديدا من علماء الاجتماع البورجوازيين قد تخلى عن بعض افكاره الاساسية ، الا أن هذا المذهب مازال مزدهرا ومازال يمارس تأثيرا كبيرا على معظم مفاهيم سياسة القوة .

أما المرحلة الثالثة فتتميز بتصاعد الاتجاهات الرجعية فى سياسة الولايات المتحدة الداخلية والخارجية ، وتزايد التأثير على علم الاجتماع الخاص بالشئون الخارجية من جانب الايديولوجية السياسية لمختلف التيارات ؟ « المتطرفة » شبه الفاشية ، واراء جولد ووتر وبيرتشى ، والتى اشتهرت بامعانها فى معاداة الشيوعية وفى العنصرية ، وتشيعها للاستعمارية الجديدة ، وأخيرا وليس اخرا ، افكار العنف المضاد للثورة كما تعبر عنه المفاهيم العدوانية المعادية للشيوعية التى تتبناها الدوائر الحاكمة فى الولايات المتحدة ، والتى تهدف الى وقف العملية الثورية فى العالم بقوة السلاح .

وقد شهدت هذه المرحلة « تصاعد » السياسة العدوانية للولايات المتحدة الامريكية ، وتصاعد العنف وروح الانتقام الاستعمارى ، والذى تمثل فى الهند الصينية وافريقيا والشرق الاوسط وفى عديد من الاجزاء الاخرى من العالم .

ويتزايد تحـول مذهب المحافظين الجـدد ، والذى يعكس أكثر الملامح رجعية وعدوانية فيايديولوجية «حزب الحرب» فيالولايات المتحدة وسياسته الخارجية ،والذى يمثل مزيجا مركبا من اكثر الملامح رجعية لمذهب « الواقعية السياسية » و « العنصرية الامريكيـة والجغرافيا السياسية الامريكيـــة » ، يتزايد تحول هذا المذهب ليصبح هو الاساس النظرى لعلم الاجتماع الخـاص بالعلاقات الدولية فى الولايات المتحدة الامريكية ٠

وبعد الحرب العالمية الثانية ، كان علم الاجتماع العسكرى من الامـور الشائعة فى الولايات المتحدة ، وراح عـديد من الخبراء العسكريين يكتبـون المقـــالات فى علم الاجتماع بينما بدأ علماء الاجتمـاع فى الادلاء بدلوهم فى الموضوعات العسكرية ٠ واليوم ، نجد ان هذه العملية الخاصـــة بالربط بين النظرية العسكرية العدوانية وعلم الاجتماع العســـكرى الرجعى وقد قطعت شوطا بعيدا ، وأخذت المذاهب والنظريات الخاصة بعلم الاجتماع العسكرى تتحول بشكل متزايد الى أحـــد مكونات علم الاجتماع البورجوازى الامريكى الخاص بالشئون الخارجية ، وأصبحت هى التى تقدم التبرير النظرىلسياسة القوة الامبريالية ٠

## الاسس الفلسـفية لمـذهب العنف

## مذهب « الواقعيــة السياســـية »

يمثل الاساس الفلسفي والمنهجي لمذاهب علم الاجتماع التى تبررسياسة القوة مفهوما مثاليا للسياسة ككل ، وللعلاقات الدولية على وجه الخصوص ٠ وبالرغم مما يبدو بينها ظاهريا من انعدام التجانس ، الا أن هـــذه المذاهب جميعا تمثل ، من وجهة نظر المنهج ، نظريات مثالية موضـوعية أو ذاتيـــة ، مرتبطة فى أغلب الاحيان بعناصر من المادية المبتذلة ٠

وثمة خط فاصل تقليدى فى علم الاجتماع البورجوازى الامريكىالخاص بالعلاقات الدولية بين « المثالية السياسية » و « الواقعية السياسية » ٠ ولكن الواقع العلمى ، على أى الاحوال ، يوضح أنالفارق المنهجي الوحيد بينهما هو ان الاول يمثلمفهوما مثاليا مجردا يتناول العوامل الاخلاقية الذاتية كأساس للعلاقات الدولية ، بينما يمثل الاخر شكلا وضعيا ــ تجريبيا للمثالية يشتمل على عناصر من المادية المبتذلة « وبخاصة فيما يتعلق بتفسير « العنف » كمـــا سنرى » ٠

ومذهب الواقعية السياسية هو الذى يعتمد عليه عادة لتبرير سياســة العنف (٣)

---

(٣) كل الايديولوجيون البورجوازيون يعتبرون «المثالية السياسية» فى العادة كنوع من النبذ لاستخدام العنف ، ولكنه تحول أخيرا الى وسيلة لتبرير مختلف انواع السياســـــة الخارجية العدوانية ، مقدما قبل أى شىء خدماته الايديولوجية والدعائية للسياسة العدوانيــة للامبريالية فيما يسمى بالحرب السيكولوجية ٠ (أنظر مثلا) الدعاية والعلاقات الدوليــة ،

وتقدم الواقعية السياسية تحليلا لعدد من المفاهيم الاجتماعية والقضايا المتعلقة بجوهر السياسة والعلاقات الدوليـــة ( « القوة » و « المصـــلحة » « الارادة » و « الطبيعة الانسانية » و « طبيعة العلاقات الدولية ، الخ )،ويتم تناول السياسة الخارجية العدوانية للامبريالية على نحو ثابت على أساس انها نتاج حتمى « للواقعية السياسية » ، والطبيعة الانسانية ، ونوعيــة الشئون الدولية .

ومن الطبيعى الا يكون هذا المذهب القائم على الفكر القديم البالى القائل بأن العنف هو الوسيلة الأســـاسية للسياسة والذى يستمد أصوله حتما من « حقائق » العلاقات السياسية ، من الطبيعى الا يكون هـــذا المذهب بالشىء الجديد بالنسبة للايديولوجية البورجوازية . وأبرز مايميز هـــذا المـــذهب الخاص هو مايجرى من الارتفاع به الى مستوى النظرية « العامة » للسياســـة الخارجيـــة الامبرياليـــة والتى تتمتع بتأثير كبير عـــلى غيرها من النظريات الاجتماعية غير العلمية الخاصة بالسياسة الدولية .

وقد تم استخدام مذهب الواقعية السياسية على أوسع نطاق وقبل أى شىء فى مجال الجغرافيا السياسية ــ «الاستنتاج» المباشر للسياسة الخارجية العدوانية من العوامل الجغرفية القائمة ــ كما يتمثل فى عـــديد من مؤلفات سبايكمان (٤) وغيره التى صدرت قبل الحرب وبعـدها ، وفى عـــديد من الكتابات التى نشرت أخيرا ومنها « الجغرافيا والسياسة فى عالم منقسم » للبروفيسور س . كوهين من جامعة بوسطن .

وتقوم الواقعية السياسية على أساس الفلسفة البراجماتية الامريكية بما فيها من عناصر مادية مبتذلة . وهكذا ، فقد كان الغرض الرئيسى للنظريات السياسية لعالمى الاجتماع الامريكيين ميريام ولاســـوبل ، والتى ظهرت فى الثلاثينيات تحت تأثير البرجماتيين ، هو خلق الانطباع بأن ثمـة انفصـــاما صريحا عن المفهوم القانونى الشكلى للسياسة . وقد ادعى هذان العالمان أنهما انما يكتبان عن ظواهر سياسية واقعية ، ويحللان القوى السياسية المحركة للمجتمع .

ويرتكز انصار المذهب الواقعى عـادة عـــلى طبيعتـــه « التجريبيـــة والبرجماتية » ، موضحين أنهم ، على خلاف العديد من الحركات السياسيـــة الفلسفية ، يتجنبون كافة محاولات التنظير المجرد ، ومن السليم حقا ان بعض القضايا الهامة فى العلاقات الدولية مثل « القوة » و « المصلحة » فى السياسة و « الواقعية السياسية » فى الشئون الدولية ، تشغل بالفعل موقعا مركزيا فى مذهب علم الاجتماع الخاص بالواقعية السياسية ، ولكن تناولها يجـرى على نحو مثالى وميتافيزيقى .

وحجر الزاوية فى مذهب الواقعية السياسية هو الفرض القائل بأن : « المصلحة » هى اساس السياسة ، وكما يكتب مورجنيتو « ان فكرة المصلحة

---

سان فرنســكو ، ١٩٦٢ ، و م . دونيلان «أفكار السياسة الخارجية الامريكية» نيـــويورك ١٩٦٣ .

(٤) ( انظر ن. سبايكمان : جغرافية السلام ، نيويورك ، ١٩٤٩ واســـتراتيجية أمـريكا فى السياسة الدولية ، نيويورك ١٩٤٢ .

هي حقا من جوهر السياسة . ومن ثم فهي لاتتأثر بظروف الزمان والمكان » . (٥)

ولكن ماالمصلحة المقصودة هنا ؟ ماهذه المصلحة « المجردة » المستقلة عن الزمان والمكان ؟ ان المصلحة تلعب بالفعل دورا هاما جدا في السياسة ، وعلم الاجتماع الماركسي هو الذي يزيح النقاب عن محتواها الطبقي الحقيقي .

ففي المجتمع الطبقي ، تتحدد مصالح الطبقات المختلفة بوضعها الاقتصادي والسياسي . أما فيما يتعلق بمصالح الافراد ، فهي انعكاس لمصالحهم ، بالاضافة الى بعض السمات الفردية التي تتأثر جزئيا بالمطالب الشخصية ، وبنوع التربية والتعليم الذي حصلوا عليه . وما الى ذلك .

ومع ذلك ، فمهما كان العنصر الفردي والشخصي ، فمصالح الناس في المجتمع الطبقي لها دائما طبيعتها الطبقية ، والمصالح الطبقية هي التي تحدد المفاهيم المختلفة للعلاقات الدولية ، أو بالنسبة لمسألة اساسية مثل مسألة الحرب والسلام ، أو قضية المنهج الذي ينبغي اتباعه لحل النزاعات الدولية . ومذهب الواقعية السياسية ، على أي الاحوال ، يشتق « المصلحة » من مفهومات مجردة مثل « الطبيعة الانسانية » و « الارادة الانسانية » ، متجاهلا تجاهلا كاملا مسألة العوامل الطبقية الاقتصادية والاجتماعية الكامنة تحت الظواهر السياسية . وعلى ضوء هذه المقدمة المنطقية الزائفة التي ينهض عليها مذهب الواقعية السياسية يصبح من الممكن استخدامه بطريقة برجماتية صرفة من أجل اختزال العملية الاجتماعية ــ التاريخية ككل والارتداد بها الى مجرد بعض « اتجاهات القوة » (٦) . وهكذا تختزل المصلحة المجردة الى استخدام العنف السافر ، والذي يمتد الى كافة العلاقات الاجتماعية . ويذهب عديدمن علماء الاجتماع البورجوازيين الى حد التصريح بأن « قوانين القوة » هي القوة الوحيدة التي تعمل في مجال العلاقات الدولية .

وتستند نسبة ضخمة من المؤلفات في الفلسفة السياسية التي تم نشرها في الولايات المتحدة الى ادعاءات من هذا النوع . وهكذا يكتب روديه وأنرسون وكريستول أن « القوة عنصر موضوعي أساسي في السياسة الخارجية . » (٧) .

---

(٥) هـ. ج. مورجنيتو ، معضلات السياسة ، شيكاغو ، ١٩٥٨ ص ٦٧ .

(٦) شارلز ميريلم ، من مؤسسي مذهب الواقعية السياسية ، وقد كتب يقول أن القوة هي التي ترد المجتمع كلية ، وانها تميل الى التباور والتلاقي ، وأن «اتجاهات القوة التي تبرز ، هي أعمق غورا من الامم والطبقات وغيرها من الوحدات العابرة» (القوة السياسة ، دراسة في القوة ، جلينكو ، ١٩٥٠ ص ٣٢٤) .

(٧) ك. روديه ، و.ث. اندرسون ، و.ك . كريستول ، مقدمة للعلوم السياسية . نيويورك ــ تورنتو ــ لندن ، ١٩٥٧ ، ص ٥٣٤ . انظر أيضا ت . ستاناي ، الدفاع عن أمريكا والامن القومي (واشنطون ، ١٩٥٦ ، ص ٣) حيث يعلن المؤلف أن القوة هي الوسيلة الاساسية لتحقيق كل من الاهداف العامة والخاصة للدولة في الشئون الدولية .

ولاتختلف أحدث النظريات التي يقدمها علماء الاجتماع الامريكيون الذين ينظرون الى العلاقات الدولية الحديثة ، بروح الواقعية السياسية ، كنوع من نزاع القوة ، عن الامثلة السابقة • فهم اما يعتبرون العلاقات الدولية الراهنة نوعا من الصراع الثنائي بين قوتين عظميين هما الولايات المتحدة الامريكية واتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية ، أو يقدمون نظرية « مراكز القوى الثلاث » ـ الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وغرب أوروبا، وما الى ذلك • كما عبر ن • بادلفورد ، و ج ن لنكولن عن وجهة النظر القائلة بأن « الظاهرة المركزية للسياسة الدولية هي صراع القوة ، والنزاعات التي تستخدم فيها عناصر القوة للتوصل الى حل بين الدول العظمى » (٨)

ومن الواضح تماما من كل ذلك ان علماء الاجتماع البورجوازيين الامريكيين يعجزون تماما عن ادراك النزاعات الكبرى الحقيقية والجوهر الاجتماعي للعلاقات الدولية • ولتناقض الرئيسي في العصر الحديث هو التناقض بين الاشتراكية والرأسمالية ، ومن خلال حل هذا التناقض يتراجع النظام الاجتماعي الرأسمالي القديم عن مواقعه في المجال الدولي ليحل محله النظام الشيوعي الارقى الجديد • والنزاع بين الدول الامبريالية ليس الانزاعا بين طبقات استغلالية حاكمة ، محكوم عليها بالزوال تاريخيا ، من أجل مصالحها الانانية الخاصة • ويحاول الايديولوجيون البورجوازيون ان يسووا بين هذين النوعين المختلفين تمام الاختلاف من النزاعات سعيا منهم الى « تبيض وجه » السياسة العدوانية للامبريالية بوضعها في نفس مرتبة النضال السياسي الاشتراكي ضد القهر القومي والاجتماعي ومن أجل السلام والامن الدوليين •

وفي نفس الوقت الذي يعجز فيه واضعو مثل هذه النظريات عن التمييز بين القوى الاجتماعية المختلفة كيفيا ، والتي تعمل في العالم الحديث ، فهم يصرون أيضا على أن القوة العسكرية هي أساس العلاقات الدولية • ولكن لم يكن من مصلحة الايديولوجيين البورجوازيين في الوقت الراهن ان يمجدوا استخدام القوة العسكرية صراحة ، فقد لجأوا الى اساليب أكثر خبثا وتسترا ففي كتاب بادلفورد ولينكولن السابق ذكره ، يتم تناول دور القوة على ضوء نظريات « القوى المحركة للمجتمع » الذائعة الانتشار في علم الاجتماع البورجوازي ، وهي النظريات التي تلعب دورا كبيرا في تحريف الواقع الاجتماعي بما تتضمنه من اتجاه لتحليل التأثير المتبادل لمختلف القوى الاجتماعية • وتقوم هذه النظريات على التحليل والالتواء في تناول الظواهر الاجتماعية المختلفة كيفيا ، وعلى التأكيد الانتقائي التعسفي ، محكومة في ذلك بالاهداف المحددة التي تسعى اليها •

وعند دراسة مسألة العوامل الكامنة في جذور العلاقات الدولية

---

(٨) ن• باد لفورد ، و•ج • لينكولن ، القوى المحركة للسياسة الدولية نيويورك ، ١٩٦٧ ص ٢٩٣ •

الراهنة ، يشير علمــاء النفس الامريكيون الى الجــوانب الايديولوجيــة ، والتكنولوجية ، والاقتصادية ، والعسكرية للسياسة الخارجية ، وفى نفس الوقت الذى يسبغون فيه بعض الاهمية على جميع هذه العوامل ، نجــدهم يقدمون القوة العسكرية كأساس للسياسة الخارجية بشكل عام ، وللسياسة الخارجية للدول الرأسمالية فى علاقتها بالبلدان الاشتراكية بشكل خاص ٠

ويقدم كتاب أولسون وسوندرمان (٩) « قوى محركة» مشابهة للعلاقات الدولية ، ويقوم بتحليل دقيق لتأثير الجغرافيا ، والديموغرافيا ، والاقتصاد ، والتطور التكنولوجى والتقدم العلمى ، والتغيرات فى المعدات الحربية ، عــلى العلاقات الدولية ٠ وهنا أيضــا يعتبر العامل العســكرى العامل الاول فى الاهمية ، ويدعو الكاتبان الى بسط اليد فى الانفاق الحربى مؤكدين عــلى الطبيعة الشاملة والكلية للحرب الحديثة ، ويلحان على الاستعداد الكامل لها، وعلى تكديس مختلف انواع الاسلحة ، وذلك على ضوء وجهة النظر القائلــة بالدور الحاسم للقوة العسكرية فى السياسة الدولية ٠

وهذه النظريات من « القوى المحركة » للعلاقات الدولية وغيرها ، لاتمثل فى الواقع ، وبالرغم مما بينها وبين النظريات العلمية من تشابه فى الظاهر ، شيئا أكثر من الانواع الشائعة من محاولات أسباغ صــفة الاطلاق على دور القوة فى السياسة بشكل عام ، وفى العلاقات الدولية بشكل خاص ، والتى تمثل ظاهرة تقليدية فى الايديولوجية الامبريالية ٠

وهكذا يمكننا أن نرى أن مذهب الواقعية ينقل المقدمات المنطقيــة الاساسية لنظرية العنف الى مجال العلاقات الدولية ، معتبرا القوة السياسية ـ العسكرية عاملا مستقلا ٠

وهذا النوع من الفهم انما هو أحدى السمات المميزة للفلسفة البرجماتية باصرارها على أن النظرية انما هى نقيض التطبيق ، والتى تتخذ لها من القول بأن « الحقيقة هى الشىء المفيد » موضوعا ذاتيا مثاليا ٠ وليس للبورجــوازية الامبريالية أى امكانيات اقتصادية اجتماعية موضوعية للتغلب على تناقضات الرأسمالية ومنع نجاح الاشتراكية ، ومن ثم فهى تقامر على القوة العســكرية كوسيلة لوقف التقدم التاريخى ٠

وانصار الواقعية السياسية يتجاهلون تماما الاسس الموضوعية لتطور العلاقات الدولية وينسبون دورا أساسيا لارادة الدوائر الامبريالية الحاكمة ، ويسبغون عليها القدرة على تطــويع العملية التاريخية الاجتماعية قسرا حتى تتلأم مع مخططاتهم بمساعدة القوة السياسية العسكرية ٠

لقد كانت عبادة القوة دائما أبدا مظهرا من مظاهر سياســة الطبقــات

---

(٩) وليام ك. أولسون ، وفريد ا. سوندرمان ، تاريخ وتطبيقات العلاقات الدولية ، نيوجيرسى ، ١٩٦٦ ٠

المستغلة وأيديولوجيتها ، وكانت ترتبط على الدوام بروح المغامرة والعجز عن التقويم الواقعى لعلاقات القوى والنتائج والعواقب ٠

وهذا القول يصدق اليوم أكثر من أى وقت مضى على السياسة الراهنة للبورجوازية الامبريالية أيديولوجيا ٠ فالتبشير « بسياسة القوة » على يد البورجوازية الامبريالية ، تحت راية « الواقعية السياسية » ليس أكثر من رداء مفتعل للتغطية على الطبيعة البعيدة عن تقدير المسئولية لهذه السياسة ٠ ولطالما تصرفت الطبقات المستغلة وفقا للمبدأ القائل « أنا وبعدى الطوفان » ، ولكن استخدام القوة في السياسة الدولية اليوم لايعدو ان يكون اتجاها مشحونا بأخطار الكارثة النووية وأوخم العواقب للاجيال القادمة ٠

وتأمل البورجوازية ، بمساعدة الشخصيات القوية ، ان تصل الى مركز القوة للامبريالية ، أى الى التفوق العسكرى ، حتى تجبر الاتحاد السوفيتى وغيره من البلدان الاشتراكية على الرضوخ لارادة الدوائر الامبريالية الحاكمة عن طريق التهديد واملاء الارادة ٠

ولاجدال في أن القوة العسكرية تلعب دورا هاما فى العلاقات الدولية ٠ وعلم الاجتماع الماركسى لايستبعد بأى حال من الاحوال دور القوة والعنف ، سواء فى التاريخ بشكل عام أو فى العلاقات الدولية على وجه الخصوص ، ولكن المفهوم الماركسى لدور القوة والعنف ومكانهما فى نظام القضايا الاجتماعية يختلف اختلافا جذريا عن المفهوم البورجوازى المثالى الاجتماعى المبتذل ٠

ففى المقام الاول ، يتعارض التفكير الماركسى تعارضا مباشرا مع وجهة النظر المثالية للقوة والعنف كقوى مجردة ، أو العنف بشكل عام ٠ وعلم الاجتماع الماركسى يضع خطا فاصلا واضحا بين العنف الثورى الذى يعبر عن مصالح وارادة الجماهير ، وبين العنف المضاد للثورة الذى يعبر عن ارادة ومصالح الطبقات المستغلة ٠ ومذهب الواقعية السياسية ، من الناحية الاخرى ، لايعدو ان يكون تبريرا لاستخدام العنف كوسيلة لوقف التقدم التاريخى والاجتماعى ٠

وثانيا ، فالعنف من وجهة النظر الماركسية لم يكن يوما عنصرا اساسيا فى التاريخ ٠ فوسائل الصدام والعنف التى يمكن استخدامها كتعبير عن القوة هى فى ذاتها نتاج للعلاقات الاقتصادية والاجتماعية ٠ وعلاقات القوى بين الرأسمالية والاشتراكية فى الوقت الراهن تنشأ عن عديد من العوامل ، اغلبها اقتصادى واجتماعى ، ولايمكن بأى حال من الاحوال اعتبارها مساوية لمجموع القوة العسكرية ، لان ذلك يعنى تجاهل عوامل موضوعية هامة مثل الاتجاهات الاقتصادية ، والتطور الاجتماعى والسياسى ، والمشاعر السياسية والاخلاقية للجماهير ، وعزمها على تأييد أو معارضة سياسة بذاتها ٠ ويكفى أن نتذكر كيف تحطمت القوى العسكرية الامبريالية أكثر من مرة أمام تصميم الجماهير على الدفاع عن مكاسبها الثورية ٠

وقد توالت الشواهد على ذلك أكثر من مرة ابتداء من هزيمة قوى التدخل في الحرب الاهلية في روسيا ، الى هزيمة التدخل المسلح فى كوبا ٠ ونضال

الشعب الفيتنامي كله ، وحركة التحرر الوطني في آسيا وافريقيـــا وأمريكا اللاتينية • ان تاريخ العلاقات السياسية كله في العصر الثوري الراهن يشير الى أن الواقعية السياسية الحقة ليست هي الاستناد الى القوة العسكرية ، وانما هي الحساب الدقيق ، « للتوازي الشامل للقوى » التي تتفاعل وتعمل في مجال التطور الاجتماعي ، على حد تعبير انجلز •

والمغالطة الكبرى في مذهب الواقعية السياسيـــة هي الطـــريقة التي ينظر بها الى القوة السياسية ـ العسكرية باعتبارها عاملا قويا مستقلا بذاته في حل المشكلات الدولية ، فالواقع ان القوة السياسية ـالعسكرية للـــدول تتعدل ، لامن خلال فاعلية الارادة الفردية وانما كنتيجة للتغيرات الاقتصادية والاجتماعية •

وقد أدى نمو القوة الاقتصادية للاتحاد السوفيتي والبلدان الاشتراكية الاخرى ، والتقدم العظيم لحركة التحرر الوطني ، وانهيار النظام الاستعماري للامبريالية ، وفقدان الولايات المتحدة الامريكية لاحتكارها النووي ، والتفوق السوفيتي في مجالات عديدة من مجالات التكنولوجيا العسكرية ـ أدت كل هذه العوامل الى تعديل كامل في علاقات القوى في السياسة الدولية ، كما أن دعم الاشتراكية وتطورها ، وتفاقم أزمة الرأسمالية تميل ميلا لا مفـــر منه بموازين القوى ، بما في ذلك القوة العسكرية لصـالح الاشـــتراكية ، وبشكل متزايد •

والتغير في ميزان القوة العسكرية ليس عاملا منعزلا مستقلا عن التطور الاقتصادي والاجتماعي ، وانما هو النتاج المباشر لمزايا النظام الاقتصـادي والسياسي للاشتراكية ، تلك المزايا التي تكشف عنها قبل أي شيء ، المنافسة الاقتصادية السلمية بين النظم الاشتراكية والرأسمالية •

وحتى الايديولوجيون البورجوازيون انفسهم ، أجبروا عـــلى الاعتراف بافلاس سياسة القوة ، وبأن الموازين في المجـــال الدولي قد مالت لصــــالح الســـلام • ومما يستحق الذكر في هذا الصدد مالاحظه ف • ليبمان من أن الولايات المتحدة تتعامل اليوم مع خصم يعادلها في القوة العسكرية ، ومـع شركاء يعادلونها في القوة الاقتصادية ، وهو يقول ان هذه الحقيقة كانت شيئا جديدا بالنسبة للولايات المتحدة الامريكية التي لم تواجه طوال مئات الاعوام المشكلة التي واجهت الانســـانية منذ القدم بأن تتعلم كيف تعيش في عالم « ارادتنا ليست هي القانون الوحيد فيه » •

ويكتب عالم اجتماع أمريكي اخر ، هو هارتمان ، ليقول : « ان القـوة وحدها ليست هي العامل الفاصـــل » ـ وهـــو تصريح يعني دحض مذهب الواقعية السياسية •

والواقع ان مذهب الواقعية السياسية ، وبالرغم من انه يتبنى ظاهـريا مفهوما اجتماعيا واسعا للسياسة والعلاقات الدولية ، يستند الى مفهوم أحادي الجانب لغاية المعرفة وعلى اساس مبالغات تعسفية لاحد العوامل ، وهـــــو العامل السياسي ـ العسكري • ويرجع السبب في ذلك الى مسلكه التجريدي

فى معزل عن العوامل الاجتماعية والاقتصادية ، وما ينجم عنذلك مناستخدامه منهجا مثاليا ذاتيا للبحث مشبعا بروح البرجماتية ٠

ومذهب الواقعيــة السياسية لاينظر الى السياسة وفقا لاحكام الصراع الطبقى ، كما ان مقدماته المنطقية وقضاياه ( وبخاصة قضـيته المركزية وهى « الواقعية السياسية » ) غامضة وانتقائية ، مما يجعل من الممكن استخدامها لتبرير سياسة كلمن « انصـــار العنف المتطرفين » وممثلى البورجـــوازية الامبريالية الذين يعتقدون انه من الحكمة الحـد من اســـتخدام عنف الثورة المضادة رغم معارضتهم للشيوعية ٠

## دور مذهب الواقعية السياسية فى أزمة سياسة القوة

كلما تفاقمت أزمة سياسة القوة الامبريالية ، كلمـــا ازدادت الفروق الناشئة بين أنصار مذهب الواقعية السياســـية ، الامر الذى يعكس تفاقم النضال الضارى بين مختلف نظريات السياســة الخارجيـــة فى المعســـكر الامبريالى ٠

والاساس الفلسفى والاجتماعى لمذهب الواقعية السياسية ، وقبل كل شىء مقدمتها المنطقية الاساسية التى تذهب الى أن القوة العسكرية ظاهـــرة حتمية فى العلاقات الدولية يجعل منها أداة ملائمة الى اقصى حد لتبرير أكثر نظريات « الصقور » الامريكيين السياسية والرجعية ٠

وينادى أنصار أحد هذه الاتجاهات التى تنتمى الى مذهب « الواقعيـــة السياسية » ، والذين يمثلون وجهات نظر « الصقور » ، بأن الحرب النووية حتمية ٠ ويمكننا ان نلتقى بأجلى تعبير عن وجهات نظر هؤلاء « الصقور » فى كتابات عالمالاجتماع الشهير روبرت ستراس ــ هوبيه وعدد من زملائه فى معهد أبحاث السياسة الخارجية التابع لجامعة بنسلفانيا ٠ فهذه المجموعـــة تمثل آراء أولئك السياسيين البورجوازيين الامريكيين الذين لم يتعلموا شيئا على الاطلاق من دروس الماضى ، وكتاباهم « النزاع طـــويل الامد ، ١٩٥٩ ، واستراتيجية جسورة لامريكا ، ١٩٦١ ، وغيرهما ) تتضمن جميعا مقدمـــة منطقية واحدة مستمدة من الفكرة القائلة بأن « منطق الحرب النووية الشاملة هو صاحب السيادة على مسرح النزاع كله ، بنفس الطريقة التى يسود بها قانون الجاذبيـــة العمليـــات الفيزيائيـــة » (١٠) وهم يصرون فى كتابهم « استراتيجية جسورة لامريكـــا » على أن التعايش بين نظامين مختلفين مثل الرأسمالية والاشتراكية مسألة مرفوضة لدرجة لاتستحق النقاش ، وعلى أن الحرب النووية حتمية ٠

---

(١٠) ر٠ ستراوس ــ هوبيه و ٠ و٠ ر٠ كينتز ، و٠ س٠ت٠ بوسونى ، استراتيجية جسورة لامريكا ، ص ١٤٠ ٠

والحجة الاساسية التى يقدمها « الصـــقور » تأييدا لهذا الرأى هى أن البشرية انما هو صراع من أجل السيطرة ، وانه تاريخ الصراع للسيطرة على العالم فى مجال العلاقات الدولية • وهم يشيرون الى أن النزاع بين قرطاجنة وروما انتهى بالحرب ويخرجـون من ذلك بأن النزاع بين نظامين اجتماعيين متعارضين على النحو الذى تتعارض به الاشتراكية والرأسمالية لابد وان ينتهى بحرب نووية كبرى ، ولما كانت الحرب حتمية بين النظامين وفقا لوجهة نظرهم فلذلك يصبح من الافضل ان نبدأها فى اقرب فرصة ، حتى نمتلك ميزة توجيه الضربة الاولى •

وعلى ضوء الحقيقة القائلة بأن توازن القوى يتبدل لصالح الاشتراكية ، نجدهم يوصون بالحرب الوقائية كعلاج ناجح : « فالولايات المتحدة لايمكنها ان تتخلى عن ان تكون هى البادئة باستخدام الاسلحة الذرية • ان هذا القيد الذى نلزم به أنفسنا يمكن ان يكون مجلبة للكوارث » •

ومن السهل ان نلاحظ مدى تفشى المواقع المتكررة للسياسـة التى تتبعها المجموعات الحاكمة فى الولايات المتحدة منذ سـنوات فى مثل هـذه النظريات ، كما أننا نلتقى من وقت لاخر فى الواقع باعترافات بذلك من جانب الكتاب البورجوازيين • وهكذا مثلا نجد ان هـ • ب • هيستر ، وهـو ضابط متقاعد برتبة فريق ، يلاحظ فى بداية الستينات ، أن مدرسة السياسة الواقعية كانت هى صاحبة السيادة طوال السنوات العشر السابقة فى مجال السياسة الخارجية للولايات المتحدة ، وأن شبحا مثل شـبح القنبلة الذرية نفسها أو القنبلة الهدروجينية عجز عن اقناع الغرب بالافلاس الكامل لهـذه السياسة • وهو يضيف أنه بالرغم من بشاعة وهول مايلاحظه ، الا أن الحقيقة هى أن البعض مازالت تراوده الامال بأن « نتمكن من ان نكون أول من يلقى القنبلة » • (١١)

ويوضح هذا الاعتراف الصريح النادر فى صراحته عديدا من السـمات الهامة لمذهب الواقعيـة لسياسية التى تميز وجهـات النظر السياسـية التى يتبناها « الصقور » •

ومهما يكن من أمر ، فسياسة النزعة العسكرية تمثل أكثر الاتجاهات خطرا على الموقف الدول ، كما أنه من الممكن ان تجر نفس العواقب الخطرة على أصحابها أنفسهم •

ولقد كان لهذه الحقيقة ، التى يدركها أكثر الساسة البورجوازيين تعقلا تمام الادراك ، تأثير أكيد على الايديولوجية السياسية للامبريالية ، وهى التى أجبرت بعض انصار الواقعية السياسية على ان يضعوا فى اعتبارهم علاقات القوى القائمة بالفعل فى عالم اليوم ، وهكذا ، وجنبا الى جنب من « الصقور » نجد الان عددا من انصار هذا المذهب وقد راحوا يحاولون البحث عن مناهج

---

(١١) نقلا عن جريدة برافدا ، ٢٤ مايو ١٩٦٠ •

للسياسة الخارجية أكثر جدوى على ضوء ماتعانيه « سياسة القوة » من أزمات ٠

وبينما يبذل « الصقور » قصارى مافى وسعهم من جهود من أجل اقناع الناس بضرورة الحرب وبلا تأخير ، نجد الاخرين يكرسون جهودهم من أجل التوصل الى « تبرير » نظرى لمناهج أخرى يرون الاخذ بها فى مجال السياسة الخارجية الامبريالية ٠

والمثل المحدد لهذه المجموعة الاخيرة هو ر ٠ ثومبسون رئيس قسم أبحاث علم الاجتماع فى مؤسسة روكفلر ٠ ففى احد كتبه التى تعرض فيها لدراسة المحتوى الحالى لمذهب الواقعية السياسية ، وعند مناقشته للمقدمة المنطقية الاساسية للمذهب ، نجده يكتب قائلا : « والناس فى مجال السياسة يسعون الى القوة ، ويدخلون فى نزاع مع غيرهم من الساعين وراء نفس الهدف ٠ وهم يستخدمون التبريرات الاخلاقية لتغطية ماربهم ، ومن ثم يلهبون ويزيدون من حدة الصراع ٠ » (١٢)

ويقول ثومبسون فى كتابه ان الاحداث الدولية التى شهدتها السنوات القليلة الماضية اسفرت عن ثورة في تفكيرنا وغيرت الى حد كبير من مفاهيمنا التقليدية وضيقت من نطاقها ومع ذلك ، فهو لايرى سببا يدعو الى القول بأن نظرية الواقعية السياسية لم يعد فى مقدورها أن تستمر في العمل كأساس للسياسة الخارجية الامريكية ٠ ويكتب قائلا : « وحتى لو وقفنا وحدنا ، فسوف تبقى مهمة السياسة الخارجية على حالها ، وسوف تظل تنادى بالقوة والشجاعة السافرة لحشد القوة العسكرية الامريكية » ٠ (١٣)

وتومبسون يؤيد نظرية « الواقعية السياسية » ولكنه يحاول أن يجعل منها نظرية ملائمة لروح العصر وان يكيفها مع الاوضاع الراهنة ٠ وهو ينصح بالدخول فى مساومات واتفاقات فى مجال الحرب الباردة ، ويعلن ان الواقعية السياسية فى السياسة الخارجية لا ينبغى ان يكون المقصود بها هو الحرب ومع ذلك فسرعان ما يضيف ان « التاريخ يعلمنا أن السلام لم يتحقق الا نادرا ، أن كان قد تحقق اصلا من خلال الرضوخ أو الضعف أو التهدئة (١٤) ولكن فى عصر تحاط فيه الحرب ، مثل هذه الاخطار البشعة ، وفى الوقت الذى يحتمل فيه ان يتطور اى نزاع محلى الى نزاع عام على النطاق العالمى ، فالواقعية السياسية — فى رأى ثومبسون « تعجز عن الزعم بأن الحرب حتمية » (١٥)

وانها لدلالة بالغة الوضوح ان يتحاشى ثومبسون وغيره ، وعلى عكس

---

(١٢) ل٠ ثومبسون «الواقعية السياسية وازمة السياسة الدولية مفهوم أمريكى للسياسة الخارجية» ، برينكتون ، ١٩٦٠ ، ص ٣٤ ٠

(١٣) المرجع السابق ص ٢٤٢ ٠

(١٤) المرجع السابق ص ٢٤٦ ٠

(١٥) المرجع السابق ص ٢٤٨ ٠

« الصقور » ، المناداة بالحرب دون تأخير • ومع ذلك فأغلبية اصحاب هـذا الموقف يعتبرون ان التعايش السلمي ماهو الامجرد هدنة في مجرى النـزاع النووية ، أو هم يعرفونه بأنه مرحلة معينة فى الحرب الباردة •

وهذا المفهوم عن مبدأ التعايش السلمى هو الذى ينتهى الى « الوصفات » الخاصة للسياسة الخارجية المحددة التى يقترحونها •

وفى ظل الموقف الدولى الجديد ، يدأب منظرو البورجوازية على السعى الى التوصل الى الوسائل اللازمة لاتباع سياسـة قائمة على المحافظة عـلى العلاقات الاجتماعية القائمة •

فما هى هذه النظريات « الجديدة » وماهى هذه الوسائل « الجديدة » التى يقدمها أنصار مذهب الواقعية السياسية ؟ انها تتضمن مواصلة سـباق التسلح وسياسة القوة والتى يشار اليها الآن تحت اسم « التوزان النووى » وهو تعبير عصرى بديل عن تعبير « توازن القـوى » • وقد أثبتت النظـرية الاخيرة حدواها لفترة طويلة كمبدأ اساسيارتكزت عليه الدبلوماسية الامريكية التى كانت تسعى بكل جهدها الى الاسـتفادة من الاختـلافات بـين الدول الأوروبية للحصول على الحد الاقصى من المكاسب من النزاعات المسلحة بينهما والتى لم تكن تتدخل بشـكل مباشر الا فى الحالات التى كان من الضرورى فيها منع أحد الاطراف الاوروبية المتنازعة من التفوق بدرجة أكبر مما يجب وفى الفترة التى اعقبت الحرب ، أضـافت الدوائر الحاكمـة فى الولايات المتحـدة الى نظـرية « توازن القـوى »مذاهب ( الردع ) و ( التطويق ) و « التحرير » وغيرها من المذاهب المعادية للشـيوعية ، والتى كان الهـدف الاساس منها هو استخدام احتياطيات القوى البشرية والامكانيات العسكرية فى بلدان غرب أوروبا لصالح الاحتكارات الامريكية •

أما الطبعة الامريكية الجديدة من نظرية ميزان القوى فقد تم تقديمهـا على يد عديد من « الواقعيين السياسيين » ، وهكذا مثـلا نجد ج • جاكوبسن وم • ليبمان يقولان فى كتاب لهما : « ان فكرتها الاساسية هى منع أى دولة منفردة من أن تصل الى وضـع من القوة يكفى لتهديد وجود الدول الأخرى » وتجعل الامم الاخرى تعتمد عليها للتوصل الى السلام فى المجال الدولى » (١٦)

كما تم تناول نفس النظرية بتفصيل كبـير فى كتاب من تأليف ج • ليسكا ، من مركز واشنطن لابحاث السياسة الخارجية ، حاول فيه أن يوضح أن وجود مختلف الكتل السياسية والعسـكرية الاقليمية هو الطريقة المثلى لضمان الأمن الدولى •

وهو يرى ان الكتل والمحالفات العسكرية كانت مفيده دائما بالنسـبة لدبلوماسية المحافظة على توازن القوى فى العلاقات الدولية ، ولكنها اكثـر فائدة اليوم من أى وقت مضى لانها تستخدم فى « الدفاع عن العالم الحـر » ،

---

(١٦) ج • جاكوبسن ، م • ليبمان ، العلوم السياسية ، نيويورك ١٩٥٥ ، ص ١٩٥ •

كما تستخدم فى نفس الوقت كرادع هام ٠ وفى هذا الصـــدد نجده ينتهز الفرصة للدخول فى مناقشة تفصيلية دفاعاً عن « ميزان الرعب » ٠

و « ميزان الرعب » نظرية امبريالية بالغة الخطورة بالنسبة لمستقبل البشرية ، وهى بعيدة عن الواقعية شأنها شأن النظريات الأخرى لمذهب الواقعية السياسية لانها تعجز عن ادراك وتقدير عـــدد من الحقـائق الهامة المرتبطة بسباق التسلح واقامة الكتل العدوانية ٠ انها صورة مماثلة لسياسة دالاس الخطرة « حافة الهاوية » ، وهى تتعارض تماما مع التعايش السلمى الحقيقى ، ومع دعم المبادىء الديمقراطية فى العلاقات الدولية ٠ ولاشك أن مواصلة سباق التسلح تزيد من خطر الحرب ، بما فى ذلك الحرب التى يمكن أن تبدأ بمحض الصدفة ٠

ومع ذلك ، فقد أصبح عديد من المنظرين البورجوازيين يجدون انه من المستحيل ان يتجاهلوا حقائق الموقف الدولى تجاهلا تاما ، ومن ثم فهم يجبرون على الأقل على ان يتخلوا قولا ان لم يكن فعلا ، عن تلك المبادىء التى لم تشكل الا مؤخرا اساس الايديولوجية السياسية للامبريالية ، وفى مقدمتها افكـــار العنف كأساس للسياسة الخارجية ٠ لقد اجبر عديد من الايديولوجيين عـلى الاقرار بالحاجة الى اجراء ماللتعايش بين الاشتراكية والرأسمالية ، بل والى لاقرار حتى باهمية تأمين هذا التعايش باتباع وسائل غير عسكرية ٠

وعلى ضوء الأزمة البادية لمذهب « الواقعية السياسية » ، تضطر اكثـر المجموعات الامبريالية تطرفا الى ادخال مختلف التعديلات على نظريات سياسة القوة ٠ وليس هناك ما يدعو الى الدهشـــة اذن ان نلتقى بمذهب الواقعيـة السياسية وقد أضيفت اليه النزعة المحافظة الجديدة ، وهى اكثر التعبـيرات تركيزا عن أيديولوجية وسياسة العنف والعدوان ٠

## النـــزعة المحافظـــة الجـــديدة ٠٠ التعبـــير الايديولوجى عــن السياســة الخارجية العدوانية

جنبا الى جنب ، وعلى خط موازى مـــع « الواقعية السياســـية » كانت النزعة المحافظة الجديدة تكتسب أهميتها فى الآونة الاخيرة كمزيد من التبرير النظرى لسياسة القوة فى علم الاجتماع البورجوازى الخاص بالعــــلاقات الدولية (١٧) وقد ارتبطت النزعة المحافظة ، والتمســـك بالأفـــكار البالية

(١٧) هناك كثير من الجوانب المشتركة بين النزعة المحافظة الجديدة وبين «الواقعية السايسية» ، فكلاهما من نتائج البرجماتية الامريكية . وهكذا نجد س . بوسنى ، الذى يدعى الانتساب لكلا الاتجاهين يكتب قائلا ان النزعة المحافظة المعاصرة انما هى «نزعة محافظـــة واقعية» ، ويؤيد «القوة الحقيقية» فى مواجهة المجردات السياسية . انظر س . بوسنى «تحدى الازمة .. أفكار أولية حول مذهب الدفاع المحافظ» ، «وما هى النزعة المحافظة» نيويورك ١٩٦٤ ٠

ومعارضة التقدم فيما مضى بالرجعية الارستقراطية الاقطاعية ، وكانت تجد تعبيرها الواضح فى القرن الماضى فى كتابات بعض الرجعيين من أمثال جوزيف دى ميستر فى فرنسا ودزرائيلى فى انجلترا • وكلما ازدادت أزمة المجتمع البورجوازى تعمقا ، كلما ازداد لجوء البورجوازية الامبريالية من وقت لآخر الى الايديولوجية السياسية المحافظة • وهكذا نجد الاستاذ الامريكى م • بيرنز يشير الى أن « النزعة المحافظة ازدهرت فى شكل جديد متميز » (١٨) فى العالم الرأسمالى •

ويتميز هذا « الشكل الجديدة » للنزعة المحافظة فى علم الاجتماع البورجوازى بالمحاولة التى يبذلها للتستر على الافكار الفاشية الجديدة ، وعلى الرجعية السياسية والعدوان ، وعرضها فى ثوب اكثر احتراما ، ولتطهير سياسة الثورة المضادة من الادران ، استنادا الى المبادىء الازلية المحافظة التى تدعى الوقوف فوق الطبقات • واذا كانت الحاجة الى سياسة خارجية عدوانية تستند فى مذهب الواقعية السياسية الى طبيعة الانسان ككائن اجتماعى يناضل من اجل مصالح واضحة ، محددة فالنزعة المحافظة الجديدة تهدف الى تبرير سياسة العنف فى العلاقات الدولية باللجوء الى « الاقرار المقدس » الذى يستند الى النظرة المثالية الدينية للعالم ومحاولة تقديمها كحقيقة مقطوعة الصلة تماما بالرجعية السياسية ، وكأنها ظاهرة خالدة أبدية •

وقد سجلت هذه الاراء بطريقة لا غموض فيها فى مقدمة كتاب « ضمير المحافظ » من تأليف بارى جولدووتر والتى يقول فيها : « تكونت المبادىء التى يرتكز عليها موقف المحافظ من خلال عملية لا علاقة لها بالمشهد الاجتماعى والاقتصادى والسياسى الذى يتغير من عصر الى عصر ، قرن الى قرن • وهذه المبادىء مستمدة من طبيعة الانسان ، ومن الحقائق التى كشفها الله عن خلقه (١٩) • وهذا النوع من الفهم الميتافيزيقى للسياسة لم يوضع الا للتستر على الهدف الاساسى لعلم اجتماع النزعة المحافظة الجديدة ودعاة التفرقة الاجتماعية والقومية •

فبالنسبة للمحافظ،سواء كان قديماً أم جديدا ، « فالناس غير متساوين الا بالمعنى الأخلاقى المطلق • والتنظيم الاجتماعى يضم دائما مجموعة متنوعة من الطبقات ، والنظم ، والجماعات • والفوارق ، والوراثة ، والقياد ، » وهى المميزات التىلا مندوحة عنها لاى مجتمع مدنى (٢٠)

ومما يسترعى النظر ان الفكرة القائلة بأن المجتمع ينبغى أن يحكم بواسطة الصقور المختارة ، أو عليه القوم ، وأن الديمقراطية ما هى الا شكل

---

(١٨) م• بيرنز ، «أفكار عن النزاع • النظريات السياسية فى العالم المعاصر» ، نيويورك ، ١٩٦٠ ص ٣١٥ •

(١٩) ب• جولد ووتر ، «ضمير المحافظ» • نيويورك ، ١٩٦٠ ص ٥ •

(٢٠) صمويل ب• هنتنجتون «النزعة المحافظة كأيديولوجية» ، و «الفكر السياسى منذ الحرب العالمية الثانية» ــ تأليف و•ج• ستانكوبتز ، لندن ١٩٦٤ ، ص ٣٥٨ •

غير مجد من التنظيم الاجتماعى ، تمتد كالخيط الذهبى فى ثنايا الاتجاه المحافظ الجديد فى علم الاجتماع البورجوازى (٢١) ٠

وتتميز النزعة المحافظة البورجوازية المعاصرة ، شأنها فى ذلك شأن النزعة المحافظة الارستقراطية فى القرن التاسع عشر ، بتخلفها الكامل ٠ فمن أجل حل مشكلات القرن العشرين نجدها تقدم احدى « الوصفات » التى عفى عليها الزمن والتى طالما لجأت اليها الطبقات المستغلة ، الا وهى استخدام القوة ، سياسة القهر فى الداخل والعدوان العسكرى فى الخارج ، كل ذلك من أجل المحافظة على الفوارق الاجتماعية والقومية ٠

ووفقا للمفهوم المحافظ التقليدى القديم ، فالنزعة المحافظة الجديدة تهدف الى خلق نوع من «التحالف المقدس» شبيه بذلك التحالف الذى أقامته الارستقراطية الرجعية فى أوائل القرن التاسع عشر من أجل معارضة الثورة البورجوازية ٠

ولكن الزمن تغير ، وتحولت البورجوازية من طبقة ثورية لتصبح طبقة معادية للثورة ، ويحاول ايديولوجيوها تمجيد «التحالف المقدس» الجديد للرجعية مثل حلف الاطلنطى وغيره من التكتلات العسكرية العدوانية الموجهة ضد التقدم الاجتماعى ٠ فعالم الاجتماع الامريكى ك٠ روستير يعلن مثلا أن النزعة المحافظة «هى ظاهرة غريبة ، وفلسفة خاصة بمجتمع الاطلنطى وبعض امتداداته فى جميع أنحاء العالم » (٢٢) ٠ ومن هنا نصل الى العناصر الجغرافية السياسية والعنصرية الكامنة فى النزعة المحافظة الجديدة ، والتى نجد أغلب أنصارها وقد شغفوا بالعزف على وتر تفوق «حضارة الاطلنطى» والعنصر الانجلوسكسونى ، والرسالة العظمى لامريكا فى النضال ضد « الشيوعية الدولية » ٠

وأبرز مثال على ذلك هو مقال كتبه س ٠ بوسونى ، رئيس قسم الشئون الدولية فى معهد هوفر التابع لجامعة ستانفورد ٠ فعندما يتناول – هذا الكتاب – المغزى الاجتماعى للنزعة المحافظة المعادية للشيوعية ، نجده يقر بصراحة وبشكل مباشر بالعداء الاساسى الذى تحمله النزعة المحافظة البورجوازية للثورة الاجتماعية ، فهو يكتب قائلا : أن «المحتوى الجوهرى للنزعة المحافظة هو ، وقبل الاتيان بشىء جديد ، حتمية المحافظة على القيم التى تم خلقها من قبل (٢٣) ثم يواصل حديثه فيقول بأن أهم الالتزامات المحافظة فى الولايات المتحدة هو الدفاع عن « المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية التى تتبنى عليها حضارتنا «(٢٤) وتحسينها ٠ وينادى بوسونى

---

(٢١) كلينتون روستير ، النزعة المحافظة فى أمريكا ، نيويورك ، ١٩٥٥ ٠

(٢٢) كلينتون روستير ، المرجع السابق ص ١٦ ٠

(٢٣) س «بوسونى» تحدى الازمة – أفكار أولية عن مذهب الدفاع عن النزعة المحافظة» و «ما النزعة المحافظة» ٠ الناشر ف ٠س٠ماير ، نيويورك ١٩٦٤ ص ١٩٠ ٠

(٢٤) المرجع السابق ص ١٩٠ ٠

بأن هذه المؤسسات من الممكن تحسينها عن طريق تغيـيرات واصـلاحات اجتماعية محدودة معينة ، ولكن هذا التحسين لايمكن أن يحدث أبدا ، وبأى حال من الاحوال ، عن طريق الثورة ٠

وبالطبع ليس هناك جديد فى هذا الاتجاه ، فقد سبق أن نادى كل من أوجست كنت ، أبو الوضعية ، وهربرت سبنسر ، وكلاهما كتب فى القـرن التاسع عشر ، «بالتطور الهادىء» ، أو التقدم من خـلال الاصلاحات ، كاتجاه مضاد للثورة ٠ وقد تخلت عديد من الاتجاهات فى علم الاجتماع البورجوازى المعاصر عن مفهوم التقدم برمته ، وأحلت محله مفهوما أجوف مجـردا للتغير الاجتماعى ينحى جانبا كافة الآراء الخاصة بالتطور الثابت للمجتمع على مراحل، ومن الحركة التقدمية للمجتمع ، ويرفض الاعتراف بالمراحل المختلفة كيفيا فى التاريخ الانسانى ٠ هذا ، اذن ، هو موقف بوسونى : انه ينادى بالمحافظـة على المؤسسات الاقتصادية والاجتماعيـة ٠ والسياسية الخاصـة بالمجتمع الرأسمالى ، ويسمح بقدر محدود من التغيرات الاجتماعية ( الاصلاحات ) فى اطار ذلك النظام المعادى لصالح الشعب والذى عفى عليه الزمن ٠

ومن المسلم تماما ، بالطبع ، القول بأن التقـدم الاجتماعى يتضـمن المحافظة على بعض السمات والعناصر ونقلها من تكوين اجتماعى اقتصادى الى الآخر ، ولكن كل مرحلة من مراحل التطور الاجتماعى تتميز ، كما أثبت علم الاجتماع الماركسى ، بطريقة لاتقبل الدحض ، «برفض» أو استبعاد السمات للمحافظة التى ولى زمانها ٠ والواقع ان هذ الحقيقة على وجه التحديد هى التى يسعى علماء الاجتماع البورجوازيين الى نزعها من عقـول الجماهير ٠ فهـدف النزعة المحافظة هو تخليد المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية والسياسـية للنظام الرأسمالى ، وعداء النزعة المحافظة للتقدم الاجتماعى هو مصدر عدائها للعملية الثورية العالمية ٠ وليس من قبيل الصدفة أن يغرم أنصارها الى أقصى حد بالاشـارة الى كتاب « أفكار عن الثورة فى فرنسـا » الذى نشره المنظـر الايديولوجى «للنزعة المحافظة الكلاسيكية» بروك ( ١٧٩٠ ) ، وأن يعتمـدوا عليه فى تأييد وجهة نظرهم ٠

أما فكرة العملية الثـورية العالمية كما تنعـكس فى شـكل جنينى فى كتابات المفكرين البورجوازيين الفرنسيين التقدميين فى القرن التاسع عشر، والتى حللتها النظرية الماركسية ـ اللينينية تحليلا شاملا ، والتى لحقها مزيد من التطوير فى مختلف الوثائق المنتمية للماركسـية المبدعة ، بمـا فى ذلك برنامج الحزب الشيوعى السوفييتى ، فهى تستفز ايديولوجيى النزعة المحافظة الجديدة استفزازا مطلقا ٠

كتب بوسونى يقول «تلتزم النزعـة المحـافظة الامريكيـة بالدفاع عن الولايات المتحدة ونظامها ضد الخطر الشيوعى ، بما فى ذلك ٠٠٠ الثورة (٢٥)،

---

(٢٥) بوسونى ، المرجع السابق ص ١٩٠ ٠

ثم يضيف بعد ذلك واذا أرادت الولايات المتحدة أن تستمر فى الحيــاة ٠٠٠ يتعين عليها ان تمتلك قوة عسكرية متفوقة الى ابعد حد وأن ترصد ميزانيــة هائلة » ثم يضيف ان « الميزانية العسكرية الحالية ، والتى تبلغ حــوالى ٦٠ بليون دولار ضئيلة للغاية وينبغى زيادتها عاجلا أو اجلا » (٢٦)

وعلى أى الاحوال ، فالثورة الاجتماعية لاتتحقق عن طريق تصديرها ، أو عن طريق الفرض باستخدام قوى من الخارج ، وانما هى تتحقق عن طريق التناقضات الموضوعية الموروثة داخل المجتمع الرأسمالى نفسه ٠

ولاشك ان التطور الناجح للنظام الاشتراكى العالمى له أثره المســاعد الثورى عــلى العمال فى جميع البلدان ، ولكن هــذا التأثير انما يتمثل فى قوة المثل ، وليس هو التأثير الذى يتحقق عن طريق استخدام القوة ، أو الالتجاء الى الوسائل العسكرية كما يتمنى بوسونى وغيره من دعاة العمليــة الثورية العالمية بتوضيحه لمزايا الاشتراكية وطرحها أمام الجميع ليشاهدها ، وبتقديمه التأييد السياسى والمعنوى لحركات التحرر من القهر الاجتماعى والقومى ٠

وكم يود الساسة الامبرياليون الرجعيون ، والايديولوجيون المحافظون الذين يعبرون عنهم ، أن يقطعوا مجرى التطور التاريخى باستخدام الوسائل العنيفة ، والقوة العسكرية ، بما فى ذلك الهجوم المفاجىء ، من اجل التغلب على تفوق النظام الاشتراكى ٠

ويصر بوسونى وزملاؤه فى كتاب « استراتيجية صبورة لامريكا » على أن الرأسمالية ينبغى ان تعد لمواجهة الاشتراكية على « مســتوى القوة » للبدء بتوجيه الضربة الاولى » ٠

وهكذا تضيف النزعة المحافظة الجديدة الى نظرية القوة المسلحة المقدمة المنطقية الزائفة القائلــة بأن قوة الثورة المضــادة عامل حتمى فى العلاقات الاجتماعية المعاصرة فى مجال السياسة الدولية ٠

## مذهب « التصعيد » ٠٠ والتبشير بحتمية الحرب النووية

تشترك مختلف النظريات الاجتماعية التى تنبنى عليها سياسة القوة فى المقدمة المنطقية الاساسية القائلة بأن القوة هى العامل الحاســم فى العلاقات الدولية ، أما نقطة الخــلاف بينها فتتركز حــول ما اذا كان من الضرورى استخدام القوة بلا حدود ( بما فى ذلك الحرب النووية العالميــة ٠ لاتقابل بالنقد الحاد من جانب الماركسيين والتقدميين وحدهم ، وانما ينقدهم أيضــا عديد من الساسة البورجوازيين المتعلقين ٠ كما ان هناك الى جانب ذلك قدرا كبيرا من النقد الموجه فى كتابات علم الاجتماع البورجوازى طوال السنوات القليلة الماضية الى مفهوم الاستخدام « المحدود » للقوة ، وبخاصــة للمفهوم الخاص « بالحرب المحلية » ٠

---

(٢٦) المرجع السابق ص ١٦٦ ٠

ويشير عديد من علماء الاجتماع البورجوازيين ، بكل حق ، الى ان الضعف الاساسى لهذه الفكرة انما يرجع الى انه ابلغ الصعوبات ، ان لم يكن من المحال عمليا ، ان نحدد الخط الفاصل بين الاستخدام « المحدود » أو الاستخدام « بلا حدود » للقوة . وفى ظل الاوضاع الدولية الراهنة ، فاى حرب محلية يمكنها ان تتطور الى نزاع نووى على المستوى العالمى . (٢٧)

وعلى أى الاحوال فهناك بعض علماء الاجتماع البورجوازيين الذين يصرون على أن مذهب « الاستخدام المحدود للقوة » ليست له الفاعلية الكافية كوسيلة لتحقيق أهداف السياسة الخارجية للمجموعات الامبريالية الرجعية التى يمثلون مصالحها .

والمثال البارز لهذا الاتجاه الاخير الافكار التى يقدمها ب . أندرسون فى كتابه « الحرب النووية الحرارية » ، والذى يقول فيه بان « الحرب المحدودة» ليست الا مجرد اجراء دفاعى بحت ،لان الفكرة الاساسية فيها هى انه ينبغى على الغرب « حيثما نشأ العدوان » أن « يتدخل ، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة وبالقدر اللازم من القوة ، لوقف العدوان ، ولاشيء أكثر من ذلك » ، وهو يعتبر أن هذا المفهوم « هام » ولكنه « لايكفى » لانه دفاعى فى الاساس ، وان المدارس الدفاعية لايمكن لها أن تكسب حربا (٢٨) ، ولذلك فهو يصر على انه ينبغى على أمريكا ان تتخلى عن « سياسة الاحتواء وأن تلجأ بدلا منها الى سياسة المبادرة . » (٢٩)

والمقصود بهذه السياسة المبادرة « هو امتلاك قوة مسلحة عاملة كبيرة مجهزة لخوض أى نوع من أنواع الحرب ، سواء اكانت حربا تقليدية أو غيرها » (٣٠) ، لانه لايرى أى خط فاصل بين الحرب المحدودة والحرب العاملة أو بين الحرب التقليدية المحدودة والحرب النووية الا انه كلما تأجل نشوبها كلما كان الامر أكثر سوءا : « فالحرب الشاملة اليوم يحتمل الا تؤدى الى دمار البشرية ، أما الحرب الشاملة بعد خمسين أو عشرين عاما فيمكنها ان تؤدى الى ذلك » . (٣١)

وفى نفس الوقت الذى يلح فيه اندرسون بانه على امريكا ان تستعدتمام الاستعداد لنشوب الحرب النووية الشاملة ، فهو يرى أنه عليها أيضا ان تستعد لخوض الحروب المحلية بما فى ذلك الحرب النووية المحلية .. التى يزعم انها أمر محتمل فى المستقبل القريب .

وهكذا يمثل اتجاه اندرسون ربطا نموذجيا بين مفهوم الاستخدام

---

(٢٧) موريتون هـ. هالبرن . الحرب المحدودة فى العصر النووى . لندن ١٩٦٨ ص ١٧ .

(٢٨) بول أندرسون . الحرب النووية الحرارية ، دربى ، كونيكتيكت ، ١٩٦٣ ، ص ١٢٧ .

(٢٩) المرجع السابق ، ص ١٥١ — ١٥٢ .

(٣٠) المرجع السابق ص ١٥١ .

(٣١) المرجع السابق ص ١٥٢ .

« المحدود » والاستخدام « بلا حدود » للقوة ، وهى الفكرة التى تجد تعبيرهـا بشكل واضح وعلى وجه الخصوص فى مذهب « التصعيد » . وقد شاع هـذا المذهب ، الذى يقدمه عالم الاجتماع والخبير الاستراتيجى والعسكرى الامريكى هـ . كاهن ، مدير معهد هدسون ــ وهو منظمة الابحاث التى تحلل المسائل الدولية لحساب البنتاجون ــ شيوعا فائقا فى الولايات المتحـدة فى الآونه الاخيرة كأساس نظرى وعملى لسياسة القوة للثورة المضادة .

ومذهب « التصعيد » مبدأ عدوانى سافر للاستراتيجية العسـكرية ، يتميز ببعض الجوانب الفلسفية والاجتماعية فى نفس الوقت . وقد انبنى هذا المذهب على اساس المقدمة المنطقيـة التى تقول بحتميـة الحـرب فى العصر الراهن .

والمحتوى الاساسى لمذهب « التصـعيد » هو التحليل الوثيق لعمليـة « الانتقال المتواصل من الازمة المحددة النطاق الى الحرب الشاملة » . (٣٢) ، وبتعبير اخر فهذ المذهب يمثل برنامجا متسقا جيد الاعـداد للزج بالبشرية تدريجيـا فى حـرب نووية شاملة . ويقول كاهـن فى كتاباته « ترتبط الاستراتيجيات التى تؤكد امكانية التصـعيد باصـطلاح التهـديد المفتعل بالحرب . » (٣٣) ويحتوى « السلم » المجازى الذى ينادى به كاهن على ٤٤ درجة تبدأ فى القاع من « مرحلة الازمة الظاهرية » أى حرب الخطب والبيانات ( الدرجة الاولى ) ، وتنتهى عند الدرجة الاخيرة فى القمة فى « التشنج أو الحرب الجنونية » حيث « يتم الضغط على جميع الازرار » ( الدرجة رقم ٤٤ ) .

ويكتب كاهن ليقول انه عند الدرجة الاولى يؤكد أحد الجانبين أنه « مالم يتم حسم النزاع المعين على الفور فسـوف يبدأ هذا النزع عمليـا فى ارتقـاء درجات سلم التصعيد .

أما الدرجات التالية فتتمثل فى « أعمال التهديد » ، و « التصـلب فى المواقف » عندما يتمكن أحد الاطراف من اعادة التأكيد على موقفه بالاشارة الى ان الطرف الاخر ليس مجنونا وأنه سوف يتراجع ، و « استعراض القوة » ، و « التعبئة العامة » ، و « الاعمال العنيفة المزعجـة » ، و « احتمال تفجـير القنابل » ، و « احتمال اطلاق الرصاص على حرس الحدود » ، و « والتخريب واللجوء الى الارهاب » ، و « التحليق فوق اراضى العدو » ثم تأتى بعـد ذلك المواجهة العسكرية المأسوية » .

وبعد ذلك ، بعد « القطع الاستفزازى للعلاقات الدبلوماسية » ( الدرجة رقم ١٠ ) و « حالة الاستعداد القصوى » تأتى « الحرب التقليدية الكبيرة » ، ثم يواصل كاهن سرد أفكاره فيقول : « لقد بدأت مرحلـة اللجوء الى بعض أنواع العنف العسكرى المنظم » . ثم نرتقى ثلاث درجات أخرى لنصـل الى

---

(٣٢) هـ . كاهن . التصعيد كاستراتيجية ، نورشن ، ابريل ١٩٦٥ ص ١٤٠ .

(٣٣) المرجع السابق . نفس الصفحة .

« الحرب النووية السافرة » ، اما « باستخدام سلاح نووى بطريقة عفوية غير مقصودة » أو « ان يلجأ أحد (؟) الاطراف المتناقضة الى استخدام السلاح النووى عسكريا أو سياسيا محاولا خلق الانطباع بأن هذا الاستخدم لم يكن أمرا مبيتا » .

أما درجات السلم المتبقية فهى مراحل مختلفة من الحرب النووية . وهكذا ينتهى كاهن الى أن « تصبح الحرب الشاملة التى لم تخطرعلى بالمسألة جديرة بالتفكير فيها « ثم » نجتاز عتبة الباب » . (٣٤)

هذه هى الافكار الجوهرية لمذهب كاهن عن « التصعيد » ، والمتمثل فى حتمية « اجتياز عتبة الباب » ، أو الطريق المميت الذى يتحول فيه الممكن الى واقع .

ومن الطبيعى أنه طالما وجدت الامبريالية ودوائرها العدوانية فلا يمكن استبعاد امكانية نشوب الحرب ، بما فى ذلك الحرب النووية العالمية . ولكن المتطلبات الذاتية والموضوعية لمنع الممكن فى وقتنا الراهن من التحول الى واقع متوفر بالفعل ، وأهم هذه المتطلبات هى وجود النظام الاشتراكى العالمى ، والتقدم العظيم لحركة التحرر الوطنى ، وحركة السلام العالمى ، والتصميم لانصار السلام فى كل مكان لمنع وقوع المأساة .

ولمذهب التصعيد جانب اخر يتميز بمضامينه الاجتماعية الهامة والتى يتمكن عن طريقها من طمس الخط الفاصل بين الحرب المحلية والحرب النووية الشاملة على النطاق العالمى . ويستخدم هذا الجانب لتبرير أى شكل من اشكال القوة العسكرية يجده رأس المال الاحتكارى فى الولايات المتحدة مفيدا فى أى وقت محدد . ومن هنا نجد ان الاصرار على امكانية الحروب النووية المحلية التى يمكن ان « تتصاعد » الى حرب نووية شاملة هو الجانب المميز لافكار هـ . كاهن وغيره من أنصار نظريته (٣٥) . ويمثل الجمع بين الاستخدام « المحدود » والاستخدام « بلا حدود » للعنف العسكرى فى السياسة الخارجية وفقا للظروف ، وتخليق نظرية موحدة منهما ، جانبا اجتماعيا بالغ الاهمية فى مذهب التصعيد .

كما يمثل مذهب التصعيد محاولة للضغط على معارضى الامبريالية الامريكية وابتزازهم . وفى هذا الصدد ، فثمة شبه بينه وبين نظرية اجتماعية سياسية أخرى من نظريات العسكرية الامريكية ، وهى نظرية توماس شيلنج عن الابتزاز السياسى والتى ترتكز على المقدمة المنطقية التى تقول بان الثورة العلمية والتكنولوجية والتطور العالمى العام فى السنوات الاخيرة جعلا اللجوء

(٣٤) المرجع السابق ص ١١٢ .

(٣٥) أنظر ادوارد شيلار الذى يشير عند اصراره على صعوبة تحديد خط فاصل بين الحرب النووية المحلية والحرب النووية الشاملة الى أن النزاع النووى المحدود يمكنه أن يتصاعد («ا. شيللر . استخدام الطاقة النووية» و «الاوراق المحافظة» نيويورك ص ٢١١).

الى الحرب النووية الحرارية الشاملة من أجل الدفاع عن بعض المصالح الاجتماعية أمرا فادح الخطر . فشيلنج يكتب قائلا : « ان الحروب وحافة الحروب ماهما الا اختبار للاعصاب وروح المخاطرة ، للالم وقوة التحمل بينما أصبحت « الاستراتيجية العسكرية ، « شئنا أم أبينا ، هى دبلوماسية العنف . » (٣٦)

والقضية الجوهرية فى « دبلوماسية العنف » هى استخدام التهديدات بمهارة وعلى النحو الذى يضمن تحقيق المطالب السياسية عن طريق التهديد بالحرب النووية ، ولكن ليس عن طريق الحرب نفسها . ان الشىء الرئيسى هنا هو الردع السيكولوجى الذى يتحقق على أحسن وجه فى رأى شيلنج عن طريق الحرب « المحدودة » أو « المحلية » .

وهو يوضح نظريته بالمثال الاتى : « اذا قلت لك جدف والا قلبت القارب لنغرق نحن الاثنين معا ، فانك لن تصدقنى . فانا لا استطيع فى الواقع ان أقلب القارب حتى أجبرك على التجديف . أما اذا بدأت فى ثقب القارب تمهيدا لقلبه ـ الامر الذى سيتحقق لا لاننى أريده ، ولكن لاننى لن أكون أنا المتحكم فيه منذ شروعى فى ثقب القارب فسوف يكون تأثرك بما أقول أكبر . » (٣٧)

ويطبق شيلنج تعبير « تولد الخطر » على هذا النوع من الحرب المحلية ويكتب قائلا بأن شن الحرب المحددة انما يعنى البدء فى احداث الثقوب فى القارب ، أو البدء فى عملية ليست كلها تحت سيطرتنا ، اعتمادا على ان الطرف الاخر سوف يتراجع قبل قيام خطر نشوب الحرب الشاملة .

والخطأ الاساسى فى كل من نظرية شيلنج عن الردع السيكولوجى ونظرية كاهن عن التصعيد هى ان كلا منهما تستمد محتواها من مقدمات منطقية ارادية مخادعة تدعى بان الارادة الطبقية لرجال السياسة الامبرياليين يمكن ان تفرض على بلدان مجموعة الدول الاشتراكية عن طريق الاستخدام التدريجى والمحدود للقوة العسكرية والابتزاز السياسى .

ولكن الواقع ان الارادة الطبقية ليستعنصرا ذاتيا ، وانماهىجزء أصيل من تكوين اجتماعى شامل ، ومن ظروف مادية قبل أى شىء اخر . وقد اثبت التاريخانالارادة الطبقية للبورجوازية الامبريالية لتدمير الاشتراكية تعترضها عقبات لايمكن تخطيها ، وأن « سياسة القوة » تعانى من الفشل تلو الفشل .

وينتهى بنا هذا العرض المختصر للاتجاهات الاساسية فى علم الاجتماع الامريكى والتى تتضمن المحاولات الرامية الى تقديم التبرير النظرى لسياسة القوة الامبريالية الى لنتائج لتالية :

---

(٣٦) توماس ك . شيلنج . السلاح والتأثير رقم ٩ ، ١٩٦٦ ص ٣٣ — ٣٤ .
(٣٧) المرجع السابق ص ٩١ .

أولا ــ أن نظريات علم الاجتماع التقليدية عن سياسة القوة الامبريالية تتجه الان الى التكييف مع الاوضاع الجديدة نتيجة لافلاس هذه السياسة ، وبحثا عن اساليب جديدة للتستر على العدوان الامبريالى ٠

وثانيا ــ ان انصار المذاهب الاجتماعية العدوانية لم يتخلوا بعد ، وهم الذين يمثلون مصالح الطبقة الرجعية المحكوم عليها تاريخيا ، أى البورجوازية الامبريالية ، لم يتخلوا بعد عن تأييدهم للجهود المغامرة التى تبذل من أجل تغيير مجرى التطور الاجتماعى وتعطيل انتصار الاشتراكية بقوة السلاح ، وانما اكتفوا بمجرد تغيير المظهر الخارجى لنظرياتهم التقليدية ٠

ثالثا ــ أن تكيف وتداعى المذاهب الامبريالية التقليدية « لسياسة القوة» أديا الى نشأة الشكوك والريب فى عقول عديد من علماء الاجتماع البورجوازيين، الامر الذى ينتهى بهم الى مراجعة تفكيرهم ، بل وينتهى بهم في بعض الحالات الى احتجاجهم ضد بعض الاتجاهات المتطرفة فى السياسة الامبريالية العدوانية ٠



# الفصل الحادى عشر

# نظريــة المباريات في الشــئون الـدوليـة

يعتبر نشر الكتاب المعنون « نظرية المباريات والمسلك الاقتصادى » لكل من جون فون نيومان وأوسكار مورجنستيرن فى عام ١٩٤٤ ، بشكل عام ، نقطة البداية لمولد « نظرية المباريات » . وسرعان ماوجدت هذه النظرية طريقها الى مجال التطبيق العلمي فى قضايا الحرب ، والاقتصاد ، وبناء الحاسبات الالكترونية ، والسبرناطيقا . وبعد مرور مايزيد قليلا عن العشر سنوات أعلنت احدى النشرات التي يصدرها اليونسكو أن : « هناك فى الوقت الراهن عملية تشق طريقها من أجل التوصل الى نموذج حسابى من نوع مختلف جذريا .. ويسمى هذا النموذج من أجل التوصل الى نموذج حسابى من نوع مختلف جذريا . ويسمى هذا النموذج بنظرية المباريات فى مجال الاستراتيجية » . (١) ومنذ ذلك الوقت ، أخذت النظرية تخطو أولى خطواتها المستقلة ، وقد وصفها اثنان من أبرز المتخصصين بأنها « واحدة من أولى الامثلة للتطور الحسابى المتقن الذى يتركز فى مجال العلوم الاجتماعية وحدها » . (٢)

والتعبير فى حد ذاته غير مقنع ، لانه يتحتم عليه ان يقدم للرجل العادى أنواعا معينة من وسائل التسلية مثل أوراق اللعب والشطرنج ، وما الى ذلك وفقا للاهتمامات الخاصة بكل فرد . وعلى أى الاحوال ، فهذه النظرية تتناول كافة أنواع النزاع حول المصالح كأنها مباريات فى الاستراتيجية . والمباريات كما نفهمها عادة ليست الا نوعا واحدا من المباريات التى تعنيها هذه النظرية .

(١) طبيعة النزاع ، دراسات فى الجوانب الاجتماعية للتوتر الدولى ، اليونسكو ، باريس ، ١٩٥٧ ص ٧١ .

(٢) دنكان لوس وهوارد رايفا ، المباريات والقرارات ، نيويورك ، ١٩٥٧ ص ١١ .

وتســتخدم نظرية المباريات بهــدف تحليل جميع أنواع النزاع ، بما فيهــا السياسة بشكل عام ، ومشكلات الحرب والسلام على وجه الخصوص ٠

وربما وافق المرء أو رفض الاقرار بجدوى هذه النظرية ، ولكن سيكون من الخطأ أن ننفض يدنا منها نهائيا دون دراسة ماتقدمه من براهين بعناية ، وبخاصة عندما تكون القضية محل البحث هي مســتقبل البشرية لا أكثر ولا أقل ٠ فلايمكن لاى طريق يمكن أن يفضى الى السلام أن يترك دون ان يكتشف ولا يمكن لحجر أن يؤدى الى حل هذه القضية الحيوية أن يترك دون أن يقلب على جميع جوانبه ٠

ولسوء الحظ ان كان العسكريون هم أول من اهتم بامكانية اســتخدام النظرية الجديدة لمصالحهم الخاصة ، ويرجع السبب في ذلك الى حد كبير الى جهود مورجنستيرن نفسه ، بالرغم من مساهمة عديد آخر غيره فيها من أمثال هـ ٠ كاهن ، و ن ٠ شيلنج ، و م ٠ هالبرين ، و٠٠ كيسنجر ، و ب ٠ برودرلى ، و أ ٠ وولستتر ، و ك ٠ كنور ، و د ٠ بريتان ٠ ويكمن الخطر فى أنه لا الجنرالات ولا الرأى العام على اتساعه فى الموقف الذى يسمح باختبار مدى صحة الاستنتاجات التى يخرج بها كاهن وزملاوه الذين اطلق عليهم اسم « العسكريون المدنيون الجدد » فى الولايات المتحدة ٠ وقد اخذت استنتاجاتهم مأخذ الثقة استنادا الى قيمتهــا الظاهرة ، لان الجميع على اســتعداد لتقبل النظرية نفســها ، ومن ثم ترك هــؤلاء الخبراء ، الفريدين فى نوعهم ، ليستخرجوا منها ماشاءوا من استنتاجات ٠

والارجح أنهم هم الذين كان ايزنهاور يشير اليهم عندما حــذر ، فى أواخر عهده بالرئاسة ، من خطر تحول السياسة القومية الى « اسير فى قبضة الصفوة العلمية ــالتكنولوجية المختارة » ٠ لقد كان يبالغ الى حد ما بالطبع ، لان هذه المجموعة « تتلقى الاوامر » اساسا ، ولكن من المؤكد اننا بصــدد عملية ذات اتجاهين ، لان موقف « العميل » يعتمد الى حد ما عــلى نصــائح الخبراء ٠ وقد عبرت تأثيرات خبراء « نظرية المباريات » عن نفسها بوضوح فى البنتاجون ، وربما امتدت أيضا الى البيت الابيض ٠ ويحذر ا ٠ هوروويتز ، استاذ علم الاجتماع ، من هذا الخطر فى كتابه لعبة الحرب ، فهو يقول « ربما تحققت تنبؤات العسكريين المدنيين الجدد ، لا لانها مبنية على تكهنات دقيقــة من الناحية العلمية ، وانما كمجرد نتيجة مترتبة على التقبل العام للتعريفات التى يقدمها اصحاب نظرية المباريات » ٠ (٣)

ومــن الطبيعى ان يثير « العســكريون المدنيون » نفور الرأى العــام العالمى ويدفعونه الى ادانتهم ، وهاهى بعض الامثلة القليلة لردود الفعل التى قوبلت بها كتاباتهم ٠ فشارلز اوسجوود ، أستاذ علم النفس ومدير معهــد ابحاث الاعلام بجامعة الينوى ، يكتب ليقول ان اراء كاهن تمثل « الانحطاط

(٣) ا٠ هورو ويتز ، لعبة الحرب ، نيويورك ١٩٦٨ ص ٢٣ ٠

النهائى للذكاء الانسانى » (٤) ، أما ر · وطسون وات ، مخترع الرادار ، فقد انتقد مفهوم كاهن الحسابى غير الانسانى لمسألة الحرب النووية · (٥)

وهذا السخط مفهوم وله مايبرره تماما ، ولكنه لايكفى فى حد ذاته · فكتاب هذه المؤلفات المتعطشة للدماء لايبالون على الاطلاق بالسخط الاخلاقى الذى يمكن للقارىء غير المتحيز أن يشعر به · فمثلا نجد كاهن فى كتابه التفكير فيما لايمكن التفكير فيه يحاول ان يلقى اللوم عن كاهله ويرفض ما يوجه اليه من اتهام بأنه من دعاة الحرب ، وهو يقول انه ليس خطأ الجراح أن يضطر الى تلطيخ يديه بالدماء ، كما أننا لانستطيع ان نسلك مسلك حكام العصور الوسطى الذين كانوا ينزلون العقاب بالرسول الذى يحمل اليهم الانباء المزعجة ، ثم ينتهى الى أن كل مايقوم به لايعدو أن يكون دراسة لبعض جوانب المأساة البشرية من زاوية كمية ·

وكثيرا لايكون من السهل على انصار السلام ان يفضحوا أولئك العسكريين الذين يحاولون الظهور بمظهر العارفين ببواطن الامور ، والذين اجترأوا على التفكير فيما لايمكن التفكير فيه · فهؤلاء العسكريون يصرون على ان العلم غير منحاز ، وعلى ان دوره لايعدو ان يكون توفير النصيحة الاستراتيجية من أجل تحقيق هدف سبق طرحه أمامنا ، وأنه ليس من دوره ان ينتهى الى استنتاجات اخلاقية · وهكذا يضطر دعاة السلام الى الظهور بمظهر البلهاء البائسين البعيدين تماما عن رق العصر ، بينما يبدو الاستراتيجيون كالابطال الذين أوتوا الشجاعة لكى يظهروا جهارا مثل جنيات الحرب ، ودون ان يخشوا التحول الى حجارة · (٦) وكما يعبر هـ · س · هوجز ، الاستاذ بجامعة هارفارد عن الوضع « فدعاة السلام ونزع السلاح لن يحظوا بنظرية جدية من جانب الناس حتى يتمكنوا من مواجهة حجج كارمن كاهن والرد عليها » (٧)

وفيما يلى عرض عام لنظرية المباريات يكفى لتمكين القارىء من تكوين فكرة عامة عنها ، ودون أن نحاول للدخول فى الجانب الحسابى لها ·

وفقا لنظرية المباريات تنقسم جميع النزاعات والصدامات الى نوعين :

نوع تحكمه المنافسة بشكل قاطع ، ونوع لاتحكمه المنافسة بشكل قاطع · وفى الحالة الاولى تكون مصالح الطرفين متعارضة تماما التعارض ولايمكن التوفيق

---

(٤) تشارلز أ. أوسجوود ، «المبادرة المتبادلة» ، الصحف اللبرالية ، شيكاغو ١٩٦٢ ص ١٦٥ ·

(٥) ر. وطسون وات ، وسائل الانسان نحو أهدافه ، نيويورك ، ١٩٦١ ·

(٦) المقصود بهذا التشبيه المستمد من الاساطير اليونانية القديمة هو أن فى مقدورهم أن يتصرفوا على النحو الذى يروق لهم دون أن يهابوا شيئا — المترجم ·

(٧) هـ· ج· هوجز ، مفهوم للسلام ، نيويورك ، ١٩٦٢ ص ٦٢ ·

بينهما ، وانتصار أحد لطرفين يعني هزيمة لاخر · وهذا المبدأ شبيه الى حد كبير بالمبدأ السائد فى لعب الورق أو المصارعة ، فالانتصار يعنى أن احد الجانبين قد حصل على نقطة ، بينما تعنى الهزيمة ان الطرف الاخر المهزوم قد فقد نقطة · والانتصار الذى تعقبه الهزيمة لاحد الطرفين ينتهى برصيده الى الصفر ، ولذلك فغالبا ماينطبق تعبير « مباريات الاجمالى ـ صفر » على هذا النوع ·.

أما فى حالة أنواع المباريات التى لاتحكمها المنافسة بشكل قاطع ، فمصالح الطرفين تتصادم دون أن تكون متعارضة تماما التعارض · فى هذه الحالة يكون هناك عديد من الفرص للحلول الوسط والتنازلات المتبادلة ، بل وحتى للتعاون · ويمكننا ملاحظة هذا النوع من الحياة العائلية أو فى العلاقات الدولية · فرصيد النقط لايتحدد على نفس الشكل الذى يتحدد به فى النوع الاول ، ومن ثم فالتعبير المستخدم فى هذه الحالة هو « مباريات الاجمالى ليس ـ صفر » ·

انلكل من طرفى النزاع القدرة على أن يختار النهج الذى يسير عليه فى عمله ، مع افتراض أن كلا منهما سيختار اكثر المناهج احتمالات لتحقيق الانتصار · وعند تحديد نهج معين للعمل ، فمن المهم أن نضع ماينتويه الطرف الاخر فى الاعتبار ، والمفروض فيه هو أيضا أنه لايقل ذكاء عنا · وجميع المناهج المحتملة تمثل مجموعة من الاستراتيجيات · ويؤدى الربط بين الاستراتيجية رقم (١) ، الزرقاء ، وبين الاستراتيجية رقم (٢) ، الحمراء ، يؤدى هذا الربط الى نتيجة محتملة · ويمكن تشبيه هذه النتائج المحتملة برسم بيانى يسمى دولاب المدفوعات ، تسجل فيه مكاسب أحد الطرفين وخسائر الطرفين وخسائر الطرف الاخر وتوضع داخل مربعان تسمى المدفوعات · وهكذا ، ففى المربع الذى تتقاطع عنده الاستراتيجية الزرقاء رقم (١) مع الاستراتيجية الحمراء رقم (٢) ، نسجل ـ ١ ـ تعبيرا عن فوز الزرقاء وهزيمة الحمراء ·. ومن المهم ان تتوفر لدينا فكرة واضحة عن الحجم المحدد للمدفوعات فى النزاع محل البحث · وعندما تكون السياسة هى مجال تطبيق هذه الافكار ، فحياة الالاف والملايين من الناس هى التى تتحدد وفقا لهذه المدفوعات ·

ونظرية المباريات لاتمثل مجرد اكتشاف نفعى لوسائل حسم النزاع لصالح الطرف الذى يعرف النظرية على نحو أفضل · فالواقع ان التطبيق العلمى اثبت عكس ذلك فى كثير من الاحوال ـ وأكد انه ليس هناك طريقة سهلة لتحقيق الانتصار · وبنفس الدرجة التى تصحح بها النظارات قوة الابصار ، تساعد نظرية المباريات على تكشف الموقف وطرق حسمه على نحو أفضل · ولكن العدسات لاتحقق الهدف المرجو منها الا اذا كانت مصنوعة على النحو الذى يسد النقص فى قوة الابصار تماما ، وكذلك نظرية المباريات ، فهى لاتحقق الغرض المنشود الا اذا كان « نموذج المباراة » ملائما لطبيعة النزاع · وغالبا ماتكون افضل الحركات بالنسبة للمباراة من النوع الاول ، أى مباريات الاجمالى ـ صفر ، مختلفة تمام الاختلاف ، بل ومضادة كلية ،

للحركات التي تحقق الغرض على أفضل وجه في مباراة من النوع الثاني ، أي المباريات ـ الاجمالي ـ ليس ـ صفر . كما ان زيادة عدد اللاعبين عـن اثنين تغير الموقف تغييرا جذريا ، لانه في هـذه الحالة تكون هناك امكانيـة لقيـام أنواع من التحالفات مثل (٢) ضد (١) وما الى ذلك .

ولم يتم اتقان نظرية المباريات بعد الا بالنسبة لنوع واحد من المباريات، وهو النوع الذي يشترك فيه طرفان فحسب من مباريات الاجمالي ـ صفر . ولكن هذه الحالة ليست هي الاكثر شيوعا في العلاقات الدولية . فاذا تناولنا الشئون الدولية من زاوية مباريات النوع الاول ، وليس من زاوية المباريات الاخرى الاكثر تعقيدا ، فسوف نواجه بخطر الخروج بتوصيـيات زائفـة ، وسيكون مكمن هذه الخطورة هو أن العملية التي افضت الى هذه التوصيات تتسم بمظهر علمي . ولما كانت هذه التوصيات تتسم بمظهر علمي . ولمـا كانت هذه التوصيات تتفق عموما مع الاستنتاجات التي تنتهي اليها أكثر الدوائر رجعية وتشبعا بالروح العسكرية ، فلذلك يصبح من الاهمية القصوى ان يتم فضحها لما تمثله من بطلان .

ويتمثل المثقفون الذين وضعوا أنفسهم في خدمة العسكرية الامريكيـة قبل أي شيء في مجموعة العاملين في اتحاد راند التي لاعمل لها تقريبا الاخدمة القوات الجوية الامريكية .

والبروفيسور مورجنسترن ـ من جامعة برنكتون ـ أحد الذين ينطبق عليهم هذا القول . ففي مقال له تحت عنوان « الحرب الباردة مباراة بوكـر باردة » نشر في ملحق يوم الاحد من جريدة نيويورك تايمز نجده ينتهك كافة الحقائق ، وعلى مسئوليته الخاصـة ، من أجل تشـبيه العلاقات بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي بمباراة من نوع الاجمالي ـ صفر . ولما كانت لعبة البوكر هي للمباريات من هذا النوع ، فهو يلح على أنه من الخير للدبلوماسـية الامريكية ان تسحب ورقة من رصيد أحد لاعبي الورق الخبراء . « وبالرغم من أن المواقف في البوكر وفي الحرب الباردة ليست كاملة التشابه الا انهـا تتشابه بالقدر الذي يكفي لان نجد مايمكننـا ان نتعلمـه من مبادىء البوكر الجيدة » . (٨)

وقد عرض مورجنسترن نظريته على نحو أكثر تفصيلا في كتابه « مسألة الدفاع القومي » ، حيث يصر على أن لعبة البوكر على النطاق الدولي ، أو مشكلة اختيار ماهو « أفضل » بالنسبة لكل طرف ، « لايمكن أن تحـل بمجـرد استخدام المفهوم البديهي الشائع للاكاديميات العسكرية ، فهذا المجال هـو مجال النظرية الرياضية للمباريات الاستراتيجية . » (٩) وعن طريق البيانات المشابهة لهذا البيان يحاول مورجنسترن وأتباعـه ان يقدموا التبرير العلمي

---

(٨) نيويورك تايمز ، ٥ فبراير ١٩٦١ ، ص ٢١ .

(٩) أ. مورجنسترن ، مسألة الدفاع القومي ، نيويورك ، ١٩٥٩ ص ١٦٤ .

للسياسة العدوانية للامبريالية الامريكية ٠ وعن طريق هذه الاساليب الخاصة التي يحددونها هم أنفسهم ، والتي لايعرف الرجل العادى شيئا عنها ، يصل هؤلاء الخبراء الى أشد الاستنتاجات تفاهة ، والتي يأخذ بها غلاة الرجعيين ٠

ويحدث ذلك لانه في مباراة من نوع الاجمالي ـ صفر يكون على الطرفين عادة أن يختارا بين « كل شيء ٠ أولا شيء على الاطلاق » ، ومن ثم فهم يميلون الى التصرف وفقا لمبدأ « النصر أو الضياع » ٠ ولاشك أن هذا النوع من التفكير على أساس الانتصار أو الهزيمة له جاذبية قوية بالنسبة للعسكرية الرجعية التي تضع نفسها في خدمة رأس المال الاحتكارى ، والاستنتاجات التي ينتهى اليها اخصائيو نظرية المباريات تناسبهم تماما ، وهم يرحبون بها كل الترحيب ويتناسب هذا النوع من التفكير أيضا مع ذلك الاتجاه الشائع في الولايات المتحدة والذى وصفه ن ٠ وينر ، أبو السبرناطيقا ، بأنه « الاتجاه الى النظر الى الحرب كما لو كانت مباراة نهائية في كرة القدم التي تشترط تسجيل الهدف النهائي فيها قبل انقضاء وقت المباراة ، والتي لايمكن أن تنتهى الا بانتصار مؤكد أو هزيمة مؤكدة » ٠ (١٠) كما يمكن للمظهر العلمي لهذه النظريات أن يكون له جاذبيته بالنسبة لصغار الضباط من أصحاب التكوين الفكرى التكنولوجي ٠ وقد كتب الصحفي البريطاني بول جونسون يقول ان «تأثير المذاهب العلمية الزائفة على هؤلاء الرجال الذين تبلدوا نتيجة لمقتضيات الحرب الباردة يمكن أن يكون تأثيرا مفجعا » (١١)

وهناك بلا جدال خطر في أن تتشرب نظرية المباريات بروح الحرب الباردة مما يؤدى الى سد كافة الطرق نحو حل النزاع بين النظامين الاجتماعيين ـ الاقتصاديين بعيدا عن الصدام العسكرى المباشر ٠ فهذا الارتباط الخطر بين الحرب الباردة ونظرية المباريات يتمثل في اتجاه « المتطرفين » الامريكيين، والذى كتب عنه والتر ليبمان أنه « بالنسبة له ، لابد ان تنتهي كافة انواع الصدام والنزاع بالانتصار أو الهزيمة » (١٢) ٠ وبلغة نظرية المباريات ، فالمتطرفون ينظرون الى العلاقات الدولية باعتبارها مباراة من نوع الاجمالي ـ صفر ٠ وليس هناك مايدعو الى الدهشة عندما نجدهم يروجون بحماس وعلى نطاق واسع لاستنتاجات كاهن وغيره من « الاستراتيجيين » ، لان مباراة من نوع الاجمالي ـ صفر ٠ بين شخصين ، انما هى مباراة بين لاعبين تتعارض مصالحهما بشكل تام ، ولايمكن لاحد اللاعبين ان يكسب الا على حساب الاخر ٠ وبناء على ذلك فليس هناك أى دافع يدعو الى الاتفاق بين اللاعبين ٠ (١٣)

---

(١٠) ن٠ وينر ، أنا اخصائى رياضيات ، الايام الاخيرة فى حياة معجزة ، نيويورك ، ١٩٥٦ ص ٢٦٩ ٠

(١١) نيوستيتسمان ، ١٢ مايو ١٩٦١ ص ٧٥٤ ٠

(١٢) نيويورك هيرالد تريبيون ، ٣ مارس ١٩٦٤ ٠

(١٣) د٠ بلاكويل ، وم ٠ أ٠ جيرشك ، نظرية المباريات والقرارات الاحصائية ، نيويورك ، ١٩٥٤ ص ٩ ـ ١٠ ٠

ومن السهل ان نرى كيف يؤدى تناول العلاقات الدولية ، أو العلاقات بين البلدان الرأسمالية والاشتراكية على الاقل ، كمباراة من النوع الاجمالى ـ صفر الى التخلى عن مبادىء القانون الدولى واستبعاد امكانية التعايش السلمى بالقضاء على أى اساس للاتفاق ٠

ومانحن بصدده هنا لايعدو ان يكون تشويها مشينا للمبادىء العملية ، انه محاولة لتطبيق منطق المباريات من النوع الاجمالى ـ صفر على النزاعات من النوع الاجمالى ليس ـ صفر ، والتى تستوجب مجموعة من القواعدالمختلفة تماما ، بل والتى غالبا ماتكون على النقيض تماما ٠

ولنلق نظرة على مثال يقدمه الاستاذ رابورت ـ من جامعة متشيجان ـ

وهو المثال الخاص بالنزاع فى أوبرا توسكا لبوتشينى ٠ فرئيس الشرطة ، يعد توسكا بأنه سيبقى عـلى حياة كافارادرسى ردا لجميلها ٠ ولكن سرعان مايقرر الاثنان أن يتبادلا مواقعهما : توسكا تقتل سكاربيا ، الذى لم يكن فى الواقع قد أصدر أى أمر بالاستعداد لاطلاق النيران ٠

واستنادا الى نظرية المباريات ، فالموقف يمكن وصفه على النحو التالى : كان فى مقدور توسـكا ان تنقذ حياة كافارادوسى ، ولكن بعد دفع ثمن فادح للغاية ، فاذا أمكنها ان تخدع سكاربيا ، ومن ثم تنقذ حياة كافارادوسى دون أن تدفعالثمن المطلوب ، اذن فهى تنجو بنفسها من العار ٠ وعلى هـذا النحو التالى : فى مقدوره أن ينال بغبته من توسكا ، ولكن مقابل ثمن فادح هـو أن يطلق صراح غريمه ، ولكن اذا ماتبادل موقعه مع توسـكا ، وظلت هى متمسكة بوعدها ، لامكنه ان يحصل على مايريده من توسكا ، ولامكن استبعاد كافارادوسى خارج المساومة ، ولذلك فقد اختار استراتيجية تبادل المواقع ٠ لقد اختار كل منهما موقع الاخر وخسر الاثنان معا ٠ لماذا ؟

كان الخطأ هو أن كلا من سكاربيا وتوسكا ينظر الى الموقف على أساس انه مباراة من نوع الاجمالى ـ صفر ، وحدد كل منها استراتيجية بناء على ذلك ولكن الواقع ان الموقف لم يكن على الاطلاق موقف مبـاراة من نوع الاجمالى ـ صفر ، وكان من الافضل لهما معا أن يحافظ كل منهما على وعـده ، مهما كان ذلك شاقا بالنسبة لكل طرف ٠ كان فى مقدور كل منهما ان يحقق غرضـه الاساس ، وان كان ذلك لايتضمن تحقيق الهدف الأقصى ٠

واليكم ما يقوله رابورت حول هذا الموضوع : « لقد شهدت أبحاثا عديدة واستمعت الى مناقشات طويلة عن الطريقة التى يمكن ان تلعب بها الحـروب الساخنة والباردة ، وخرجت من ذلك بأن أغلب النزاعات الهامة التى تصيب الجنس البشرى كالوباء لاتدخل اطلاقا ضمن مباريات النوع الاجمالى ـ صفر التى تدور بين لاعبين اثنين : ولايمكن لأى حجة توجه لتوسكا أو لسكاربيا على انفراد ان تقنع ايا منهما بأن المحافظة على ما اتفقا عليه أفضل من تبادله لموقعه مع الآخر ، ولايمكن الا للحجة التى تساق اليهما معا ، وفى وقت واحـد ، أن يكون لها مثل هذه القدرة على الاقناع ـ أن الادراك والفهم الجماعى هما وحدهما اللذان يستطيعان مساعدتهما على تجنب الوقوع فى مصيدة التبادل المزدوج

للمواقع ٠ وانه ليتعين علينا فى بعض الاحيان أن نتعلم معنى الثقة ، والا خسرنا نحن وخصومنا فى وقت واحد فى المباريات من نوع مباراة توسكا ـ سكاربيا » (١٤)

ولندرس نمطا آخر من نفس المباراة : لنفرض ان بلدين أبرما اتفاقا فيما بينهما حول اجراءات نزع السلاح ٠ ان لكل منهما الحرية فى أن يختار أحد مسلكين : استراتيجية احترام الاتفاق أو استراتيجية خرقه ٠ فاذا قام الطرف ( ١ ) بخرق الاتفاق ، واستمر الطرف ( ٢ ) فى احترامه ، فسوف يحصل الطرف ( ١ ) على مزايا كبيرة ، أما اذا احترم الاتفاق فهو قمين بأن يخسر الكثير اذا ماقرر الطرف ( ٢ ) أن يخرقها ٠ والطرفان معا يفهمان ذلك وبنفس الطريقة ، وأى حجج تنتسب الى النوع الاجمالى ـ صفر من كلا الجانبين تملى عليهما معا استراتيجية تبادل المواقع ٠ ومع ذلك فكل من الطرفين سوف يخسر عن طريق هذا التبادل المزدوج للواقع ، لأن سباق التسليح سوف يستأنف من جديد ، بالرغم من أن مصلحة كلا الطرفين هى أن يتوقف ٠

هذه الامثلة تكفى لتوضيح مدى خطأ معالجة العلاقات الدولية على أساس انها تنتمى الى المباريات من نوع الاجمالى ـ صفر ، أوكما يضع الاستاذ فيشر ـ من جامعة هارفارد ـ المسألة بكل براعة : « فالعالم ليس مباراة من نوع الاجمالى ـ صفر » ٠ (١٥) وقد وردت نفس وجهة النظر فى كتاب هام آخر عن نظرية المباريات : « فالنزاع الحاد بين المصالح فرض واقعى للمبارايات المغلقة وللعمليات العسكرية ، ولعدد ضئيل من المواقف فى مجال الاعمال ، أما خارج هذا المجال الضيق نسبيا ، فمن الصعب ان يجد المرء ، بذل من جهد ، مباراة واقعية حقا » (١٦)

وبالرغم من ذلك ، يصر استراتيجيو اتحاد راند ، ناهيناعن استراتيجية البنتاجون ، على اعتبار العلاقات بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى مباراة من نوع الاجمالى ـ صفر ٠ وهكذا ، اذا شئنا ان نقدم مثلا ، نجد مورجنسترن يتبنى المقدمة المنطقية القائلة بأن «مصالح الطرف الاخر متعارضة تماما التعارض مع مصالحنا » ويتخذ منها مبررا وعذرا ينتهى منه الى أكثر التوصيات عدوانية ٠

وبشكل عام ، يمكننا ان نعتبر ان السياسة الامبريالية انما ترتكز على مفهوم للردع ، وصفه الجنرال الفرنسى بوفر بأنه « الدافع الخفى لعصرنا »

---

(١٤) الاستخدام السليم والخاطىء لنظرية المباريات ، ساينتفك أمريكان ، ديسمبر ١٩٦٢ ص ١١٨ ٠

(١٥) النزاعات الجزئية والنزاعات الدولية ، وعلم السلوك ، منشورات جرايجربل ، روجر فيشر ، الناشر ، نيويورك ١٩٦٤ ، ص ١٠٩ ٠

(١٦) صموئيل كالين ، المناهج الرياضية ونظريات المباريات . البرمجة والاقتصاد ، لنــــدن ، ١٩٥٩ ص ٧ ٠

وتستند نظرية الردع الى نفس الفروض التى انبنت عليها المباراة من النوع الاجمالى ــ صفر • وفى هذا الصدد كان على رابورت ان يقول مايلى : « تعتمد نظرية الردع صراحة على الفرض القائل بأن اقصى مايطمع فيه العدو هو أن يدمرنا ، وأن ادراكه لمايمكن أن يصيبه من جراح ، هو وحده الذى يمنعه من أن ينفذ ذلك • وتتجلى فروض المباراة من النوع ــ الاجمالى ــ صفر أكثرما تتجلى فى اننا ننسب الى الطرف الآخر انه يفضل انتهاج المسالك التى تمثل اقصى درجة من الدمار بالنسبة لنا ، وعندما نجد انه كقاعدة عامة ــ لايقدم على التنفيذ ، فغالبا ما نعزو ذلك بشكل كامل الى فاعلية الردع • (١٧) ويؤدى الافتقار الى التجربة التى تسمح بالتحكم فى الموضوع الى تحول هذا الاسلوب من التبرير الى حلقة معيبة من التبرير الذاتى •

ويلح عدد من المعلقين فى الولايات المتحدة على تطوير مجالات أوسع للتعاون ، أو مايسمونه « المصالح المشتركة للمعارضين » • ومن المحاولات التى بذلت بحثا عن هذه المصالح كتاب ف • ب • روك ــ من معهد ابحاث الدفاع ــ والذى نادى فيه مؤلفه « بمجموعه كاملة متنوعة من مباريات النوع الاجمالى ليس ــ صفرا » (١٨) ، وهو يذكر على وجه الخصوص برنامج الابحاث المشتركة أو التبادل الثقافى ، والمزيد من التجارة ، واتفاقية لنزع السلاح •

ولايمكن للصراع السياسى أو التقدم الاجتماعى أن يتحقق الا فى ظل السلام ، وبعيدا عن الحرب الذرية • وقد عبر البرت اينشتاين عن هذه الفكرة عندما كتب يقول « ينبغى على الانسان أن يضمن حياته أولا فعندئذ فقط يمكنه أن يسأل نفسه عن نوع الحياة التى يفضلها » (١٩)

وأهمية السلام هى أيضا شىء ينبع بوضوح تام من نظرية المباريات ويصر عديد من الباحثين والعلمأ البارزين على ضرورة حساب المدفوعات بكل دقة فى كل مباراة فكم يساوى السلام العالمى ؟ ان الحرب النووية العالمية باهظة الثمن ، ومن الممكن ان تؤدى الى دمار فادح بالنسبة للمصالح القومية ولمصالح الجنس البشرى ككل فى وقت واحد ، وبذلك فهى تمثل خسارة أكبر بكثير من أى مكسب يمكن أن تعقد عليه الامل • وكما يوضح ج • وليامز : كيف يتعايش معها ، ترتبط بضرورة قياس الاشياء التى لانستطيع أن نوفر لها اساسا ملموسا للقياس » (٢٠) وتنطبق هذه الملاحظة بنوع خاص على العلاقات الدولية •

---

(١٧) أ• رابورت ، الاستراتيجية والضمير ، ص ١٠٦ ــ ١٠٧ •

(١٨) فينسنت • ب• روك ، استراتيجية الاعتماد المتبادل ، برنامج للسيطرة على أنواع بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى ، نيويورك ، ١٩٦٤ ص ٤٠ •

(١٩) أينشتين ــ عن السلام ، بقلم أ• ناتان ، هـ• نوردن ، نيويورك ١٩٦٨ ص ٤٦٨ •

(٢٠) ج•د•وليامز ، الاستراتيجى الكامل هو الفائز فى النظرية الاستراتيجية للمباريات نيويورك ــ تورنتو ــ لندن ، ١٩٦٤ ص ١٩٣ •

ونظرية المباريات تعنى عناية تامة بالحسابات الكمية ٠ فهل يمكن حقا ان يقاس الانتصار فى الحرب النووية بالمقاييس الكمية ؟ ان مورجنسترن وكاهن ويتللر وغيرهم ممن يعتبرون الحرب النووية « مسألة يمكن خفض عدد فيها » يرون ذلك ، وهم يكتبون انه ببناء المخابىء الذرية يمكن خفض عدد الضحايا من الامريكيين الى مستوى « مقبول » يتراوح بين ٥٠ ، ٨٠ مليونا ٠ ولكن اذا تغافلنا عن علم الحساب ونحيناه جانبا لبرهة وجيزة ونظرنا الى المسألة على أساس من المعايير الانسانية ، فهل هناك حقا اى معنى فى ان نجعل من مثل هذا الانتصار ، الذى هو أقرب الى الهزيمة ، هدفا لنا ؟ ويتسأل عالم الاجتماع الامريكى أ ٠ واسكو ، مرددا : « ماذا يعنى أن ( نمحى من الوجود ) فى الحرب النووية الحرارية ؟ » اليس من الاجدى ان نركز جهودنا الفكرية ، بما فى ذلك استخدام الاجهزة الحسابية الخاصة بنظرية المباريات ، من أجل اكتشاف الوسائل السلمية لحل النزاعات الدولية ؟ ٠ ويوضح ن ٠ ونيران « التجربة الوحيدة للحرب النووية التى لاتمثل كارثة قومية هى تجربة مباراة الحرب ٠ واذا كان لنا ان نستخدم هذه التجربة كمرشد لعملياتنا فى حالة ضرورة حقيقية ، فينبغى اذن أن تكون معايير الانتصار التى استخدمناها فى رسم طريقة اللعب هى نفس المعايير التى نؤمن بها بالنسبة للنتيجة الفعلية للحرب ٠ واذا فشلنا فى ذلك ، فلن يكون لهذا الفشل من معنى الا الدمار الكامل والفورى والذى لامرد له بالنسبة لنا » (٢١)

ويصر عديد من العلماء والباحثين فى أمريكا ، ممن يعترضون على اساءة نتائج الحرب النووية لايمكن قياسها بالمعايير الكمية ، فمثلا نجد العالم الفيزيائى ر ٠ لاب يكتب قائلا : «ولنحاول أن نتصور مباراة نووية تقتصر على لاعبين اثنين بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى ٠ لقد أصبح بعض محللينا الحسابيين مفتونين بنتائج حساباتهم ، وآلاتهم الحاسبة تنبئهم بأنه فى ظل أوضاع معينة يمكننا أن نحقق نصرا فى الحرب النووية ٠ ولسوء الطالع أن الالة الحاسبة لاتصل الى هذه النتيجة الا لأنها مجردة من أى مشاعر: فهى تصنع النتائج بما لا مبالاة تامة ، فاذا فقد البلد (أ) ٣٠ مليون قتيل و٢٧٪ من اقتصاده ، وفقد البلد (ب) ٩٠ مليون قتيل و٦٨٪ من اقتصاده لرأينا الآلة الحاسبة تعلن أن البلد (أ) هو الفائز !! وان المرء ليستولى عليه العجب لنوع العزاء والسلوى اللذين سيشعر بهما البلد (أ) فى مثل هذه الحالة (٢٢)

---

(٢١) ن٠ دينر ، السيرناطيقا أم التحكم والاتصال فى عالم الحيوان والآلة ، نيويورك — لندن ، ١٩٦١ ص ١٧٧ ٠

(٢٢) ر٠ لاب ، أقتل واستمر فى القتل ، استراتيجية الابادة ، نيويورك ، ١٩٦٢ ص ٩٤ و ٩٥ و ٩٦ ٠

وقد عبر الادميرال المتقاعد اكليس عن فكرة مشابهة عندما قال : «بينما يمكن فى عديد من المعارك التكتيكية ، وبعض المواقف الاستراتيجية ، تحقيق الانتصار ، الا أنه من الممكن فى الأزمات الدولية الكبرى أن يكون المفهوم الدارج للانتصار كاذبا وضارا فى نفس الوقت بالنسبة لتفكيرنا» (٢٤)

ويمثل الرأى «الاستراتيجى المدنى» القائل بامكانية السماح بالحرب النووية محاولة علمية كاذبة للابحاث السياسية ، تلجأ الى الشعوذة والخداع باستخدام المجردات والمواقف الخيالية التى ليس لها الا أوهى العلاقات بالواقع ٠

وهذا النوع من التفكير هو النوع البارز من الناحية العملية فى كافة محاولات التنظير التى تستند الى نظرية المباريات ٠ ان مجموعة كاملة من الاحداث الخيالية والمناورات يتم افتعالها ، بينما يجرى اغفال وتناسى تلك الجوانب من نظرية المباريات التى لايمكن التوفيق بينها ٠ وهكذا يتم تجاهل احدى المقدمات المنطقية الاساسية لنظرية المباريات ، وهى افتراض ذكاء اللاعبين ، تجاهلا كاملا على يد كاهن وشركائه ٠ وان مؤسسة هدسون التى يعمل مديرا لها ، لهى المسئولة عن تدبير جميع أنواع المباريات القائمة على الفروض غير الحقيقية التى لاتقر بها نظرية المباريات ٠

ويقدم كتاب «الحرب الاستراتيجية المحدودة» دراسة لبعض المواقف المتخيلة ٠ فاحدى المباريات تجرى على النحو التالى : البلد (أ) يدمر احدى مدن البلد (ب) ، ويرد البلد (ب) بتدمير مدينتين من مدن البلد (أ) ٠ ويواجه البلد (أ) بمأزق : فاما أن يواصل عملية تبادل الرد ، واما انه يكف عن القتال ويستسلم ٠ ولنفرض أن البلد (أ) قرر الدخول فى حرب استراتيجية محدودة ، ففى هذه الحالة يواجه البلد (ب) بنفس المشكلة ، وهكذا ٠ وقد تفضل المؤلفون فلاحظوا أن «عالم الحرب الاستراتيجية المحدودة عالم غريب جدا ، وأن « القارىء ربما ترك وهو يحاول عبثا اكتشاف العلاقة بين هذه الافكار وبين العالم الحقيقى» ٠ ومع ذلك ، فهذا «العالم الغريب» هو الذى تتركز عليه كافة جهود اتحاد راند ٠

ونحن نلتقى بنفس النوع من التفكير غير المقبول فى آخر كتب ج ٠ ستراتشى ، وهو من منظرى حزب العمال البريطانى ، فهو يقول «من المحال أن تحاول روسيا غزو العالم بالوسائل العسكرية ٠٠ ولكن ثمة أحداثا غير متوقعة تحدث أحيانا ، ولنفكر فيما يمكن أن يكون عليه الحال لو أن هذا الحدث غير المتوقع قد تحقق بالفعل ؟ (٢٥)

وان المرء ليعجز فى أغلب الاحيان عن ان يجد ردا عندما يواجه بمثل هذه الافكار المريضة ، وان اريك فروم لعلى حق تماما عندما يكتب ويقول : « أن

---

(٢٤) هـ. اكلس ، المفاهيم العسكرية والفلسفة ، نيونزويك ، ١٩٦٥ ص ٥٨ ٠

(٢٥) ج. ستراتشى ، حول منع الحرب ، لندن ، ١٩٧٢ ، ص ١٠١ ٠

معظم الامريكيين يفكرون فى روسيا بطريقة تتسم بالهلوسة ، أى انهم يتسألون عما هو الممكن اكثر مما يتسألون عما هو المحتمل ٠٠ واذا فكرنا فى الامكانيات وحدها فلن يكون هناك فى أى فرصة لاتخاذ اى اجراءات سياسـية واقعية وممكنة » (٢٦) ويؤدى منهج السعى من خـلال جميع التحركات والمسـالك الممكنة الذى يستخدمه عديد من انصار نظرية المباريات الامريكية الى نفس هذا النوع من العمى السياسى المتزايد ٠

وتتميز الكتابات « العلمية » للاستراتيجيين الثوريين بانفصالها الكامل عن الحياة السياسـية وباستغراقها الكامل فى عالم ضيق من الحسـابات المجردة ٠ ويحاول ر ٠ ليفين ، من اتحاد راند ، تبرير ذلك على أسـاس انه « من المستحيل ان نوضح ، بطريقة مقنعة ، أى سياسة معينة هى سياسـة خاطئة » (٢٧) ٠ فالاطراف المختلفة لها مطلق الحرية فى اختيار ، أولوياتها ، الخاصة و « قيمتها المتوارثة » الخاصة ، وربما استندت فى اجراءاتها العلميـة الى مبادىء من نوع « الموت أفضل من الحمر » ومن الممكن بالطبع أن يستخدم هذا الرأى كأساس المباراة تفضى الى الانتحار ، ولكن لماذا هـذا الاختيار فى المقام الاول ؟ لاشك انه سيكون من الاقرب الى الحقيقة ان نقول ان الاختيـار انما هو بين سياسة متعقلة للتعايش السلمى وبين سياسـة الحرب الباردة البالغة الخطورة ٠

وان نظرة فاحصة فى الموضوع لسرعان ما تكشف عن السخف المحتوم لأى محاولة لتناول السياسة الدولية كمباراة من النوع الاجمالى ـ صفر ، وقد كانت هذه المحاولة بالفعل محلا لانتقاد العديدين ، فالامريكيون ر ٠ د ٠ لويس و هـ رايفا ، و ا ٠ هوروبنز ، وو ٠ ميلز ، والانجليـزى ب ٠ بلاكيت من أشد معارض هذه المحاولة ، وقد تركز جانب كبـير من النقد الموجه لها على أساس انها لاتقيم وزنا للعوامل السيكولوجية ٠ وقد شن الاستاذ ستشلنج ، من جامعة هارفاد ، « هجـوما مضـاد » على معارض النظـرية فى كتـابه « استراتيجية النزاع » الذى يحاول فيه ان يربط بين نظرية المباريات وعلم النفس ٠ وهو يعلن ان النظرية يمكن أن تسـمى أيضا نظرية القـرارات المستقلة ، ويوصى باستخدام التمويه ، والتخويف ، والابتزاز ، وقطع الطريق ولسوء الحظ انه عندما ينتقل الى السياسة الدولية فهو يكرس قـواه كمثقف لتطوير نظرية ، سياسة القوة ، أكثر مما يكرسـها للبحث عن الطرق التى تؤدى الى تأمين السلام ٠

وتتضمن مساهمته المريبة فى هذا المجال فكرة « القصور الاضطرارى » والنظرية القائلة بأن قوة التهديد لاتعتمد على الدمار الذى يمكن ان تؤدى اليه بالنسبة للطرف الذى يقدم على تطبيقها ، فالتهديد ، كما يكتب ، يكون فعالا

---

(٢٦) أ٠ فروم ، هل يقدر الانسان على البقاء ؟ بحث فى حقائق وبواعث السياسة الخارجية ، نيويورك ، ١٩٦١ ، ص ٢٠ — ٢١ ٠

(٢٧) روبرت ا٠ ليفين ، الجدل حول السلاح ، كمبردج ، ١٩٦٣ ، ص ٩ ٠

بقدر ما يبدى الذى يستخدمه عجزه عن التراجع عن تنفيذه اذا ما فشل التهديد نفسه فى تحقيق الغرض ٠

وغالبا ما يلجاء الناس الى « القصور الاضطرارى » ، وفى هذه الحالات فهم يقولون انهم « احرقوا قواربهم » ٠ فالمدخن الذى قرر الاقلاع عن هـــذه العادة الضارة ، يتعمد ترك سجائره فى المنزل عندما يذهب لصيد السـمك حتى يكون عاجزا عن التدخين سواء رغب فى ذلك أو لم يرغب ٠ أو فلنأخذ مثلا من السياسة الدولية : فاثناء مايســـمى بأزمة برلين عام ١٩٦١ ، نقلت الولايات المتحدة مزيدا من القـــوات قد تم نقلها فى « حالة طوارىء » فربما يثبت انه من الضرورى استخدامها سواء اردنا ذلك أو لم نرد ٠

ويكتب سشلنج قائلا : « وتضيف نظرية المباريات مزيدا من بعد النظر على استراتيجية المساومة ، وذلك بتأكيد الحقيقة الصارخة وهي أن التهـديد لا يعتمد على ضالة ماتكبده الطرف الذى يقوم بالتهديد بالنسبة للطرف الذى يقع عليه التهديد ٠ فالتهديدات بالحرب ٠٠ والتهديدات باقامة « مشاجرة » لايمكن فهمها الا بانكار معيار المنفعة المقارنة » (٢٨) وهكذا فالتهديد لايعتمد على الفكرة القائلة بأنك « ستنتهى الى وضع أسوأ مما أنتهى أنا اليه » ، وانما يعتمد على الفكرة القائلة بأنه « على هذا النحو ، فمن الممكن استخدام التهديد بمهارة ، وان توضح صراحة أنك على استعداد تام بالفعل لاختيار « الحاجـز النووى » ٠

واحدى الطرق لتحقيق ذلك هى « القصور الاضطرارى » ، الذى سبق ان اشرنا اليه ٠ وبعبارات بسيطة ، فهذا الطريق يتضمن فصم أى عـــلاقات بالخصم بمجرد اصدار الانذار ، وثمة طريقة اخرى ، وهى السلوك الطائش ٠ وخد خاض كاهن فى هذه النظرية فى كثير من التفضيل ، وهو يصف مباراة « الكتكوت » كمثال : شخصان يقود كل منهما عربية باقصى سرعة فى اتجـاه الآخر ، خارجا على الخط الابيض المرسوم فى الطريق ٠ ففى هـذه الحـــالة فالطرف الذى يفقد الســـيطرة على أعصابه اولا وينتحى جانبا بسرعة هـــو « الكتكوت » ، وهو جدير بان يبتذل وان يحتقر ويواصل كاهن حديثة فيقول أن « المباراة تشبيه جيد لانها توضح بعض جوانب امعـــلاقات الدولية التى لها أهميتها ٠٠ فاللاعب الماهر يستقل عربته وهو مخمور تماما ، ويأخذ فى القاء زجاجات الويسكى من النافذة حتى يوضح للجميع مدى ماهو يحليه من سكر وهو يضع على عينيه نظارات حالكة السواد حتى يكون من الواضح انه عاجز عن أن يرى شيئا ٠ وما أن تصـــل العربة الى اقصى سرعتها حتى ينتزع المقـــود ( الدركسيون ) ويلقى به من النافذة » ٠ (٢٩) وهنا لا يجد الســـائق الآخر أمامه من تصرف سوى ان ينحرف مبتعدا ٠

---

(٢٨) توماس ك. سشلنج ، استراتيجية النزاع ، نيويورك ، ١٩٦٣ ، ص ١٣١ ٠

(٢٩) الاستراتيجية القومية ، الاستراتيجيات السياسية والعسكرية والاقتصادية فى العقد القادم ، نيويورك ، ١٩٦٣ ص ٥٢٣ ٠

وهذا النوع من النظريات عن الابتزاز الدولى يصادف هوى كبيرا لدى الانتقاميين فى المانيا الغربية ، فهم يأملون ان يحققوا أهدافهم بالدخول فى مباراة « الكتكوت » مستخدمين الاسلحة النووية ٠

ولكن المراهنات باهظة للغاية فعلا : وهذا يرجعنا من جديد الى مسألة « الحسابات » مما يخرج بنا عن حدود نظرية المباريات ٠

ويعتقد برتراند راسل ان « المباراة ربما جرت بدون عواقب وخيمة بضع مرات ولكن عاجلا او اجلا فسوف نشعر بأن اراقة ماء الوجه اكثر مدعاة للفزع من الابادة النووية » (٣٠)

ومع ذلك فكثيرا ما نسمع نصيحة خطرة تلح على استخدام الابتزاز الدولى ٠ وليس من المبالغة ان تقول ان هناك فيضا من الكتابات « النظرية » من هذاالنوع والتى تعكس الدور المتنامى للبنتاجون فى السياسة الخارجية الامريكية ٠ وهكذا يتهم هوريليك وروش من اتحاد راند ، البيت الابيض « بالاحجام الزائد عن الحد فى الاستخدام السياسى للتهديد النووية الاستراتيجى » (٣١) ، بينما يعترض برنارد بروديى على « استحياء » الحكومة الامريكية (٣٢) ٠ وشيلنج يزجر عديدا من زملائه لأنهم يهتمون اكثر ممايجب بالردع ولا يولون الاهتماما الكافى الى الاكراه ، ويقترح انه ينبغى ان تسمى وزارة الدفاع فى الولايات المتحدة بوزارة الهجوم ٠

يبقى ان ينظر كيف يمكن ان تطبق نظرية المباريات بنجاح على السياسة الدولية بشكل عام ، وعلى مسائل الحرب والسلام بشكل خاص ٠ وحتى الآن فالنظرية ليست جاهزة للاستخدام فى الشئون الدولية ٠

فالحكم على احد مواقف النزاع بانه يمكن معالجته وفقا لاحكام نظرية المباريات يفض الى الوقوع فى المحظور عن طريقين : فمن الممكن ان تكون هذه المعالجة مفيدة اذا ما انتهت تخليص النزاع من التفاصيل الثانوية واذا ما اقترحت الطرق التى تنتهى الى حسمه ٠ ولكن هذه المعالجة يمكن ايضا ان تؤدى بالمرء الى الابتعاد عما هو مهم ، بل وحتى عن التفاصيل الاساسية ، الى درجة يضيع معها جوهر النزاع فى غمار قواعد المباراة ٠ وكما يعترف الاستاذ بولدنج ــ من جامعة متشيجان ــ وقد استشاط حقدا وغضبا ، « وربما كان من الصحيح فى الوقت الحاضر ان نقول بأن نظرية المباريات ان كانت صالحة للتطبيق على مستوى التجريد ، الا انها مازالت أبعد عن ان تكون مفيدة على الفور فى الاستنتاجات العلمية » (٣٣)

---

(٣٠) ب. راسل ، الفطنة والحرب النووية ، لندن ، ١٩٥٩ ص ٢٠ ٠

(٣١) أ. هوريليك ، م. ٠ روش ، القوة الاستراتيجية والسياسة الخارجية السوفييتية ، شيكاغو ١٩٦٦ ص ١٠ ٠

(٣٢) برنارد بوديى ،التصعيد والاختيار النووى ، برينكتون ، ١٩٦٦ ٠

(٣٣) كنيث أ. بولدنج ، النزاع والدفاع ، نظرية عامة ، نيويورك ١٩٦٢ ص ٥٧ ٠

والصعوبة الاساسية التي تكتنف تطبيق نظرية المباريات على المواقف الدولية هو انه مازال هناك الكثير الذى ينبغى توضيحه بجلاء قبل الخروج بأى استنتاجات محددة ـ وينطبق هذا بشكل خاص على مسالة الحسابات المتبادلة ، التى غالبا ما يكون من المتعذر تقديرها فى الواقع العملى تقديرا كميا ( كم يساوى ارتفاع معنويات الشعب الذى يقاتل من أجل حريته ؟ ) ، كما انه من المستحيل ايضا أن نأخذ فى اعتبارنا كافة العوامل السياسية والمعنوية المرتبطة بالوضع كله ٠

وكلما كان الموقف بسيطا كلما كانت الفرصة اكبر لاستخدام نظرية المباريات بنجاح ٠ ولكن العلاقات الدولية معقدة الى اقصى حد ، وعديد من المشكلات السياسية لا يمكن ترجمتها الى مصطلحات حسابية الا بمشقة بالغة هذا ان تيسر ترجمتها الى هذه المصطلحات أصلا ٠ واذا امكن التوصل الى مقياس للمشكلات السياسية ، فسوف يكون من المستطاع بالتالى برمجة الحاسبات الالكترونية وتركها لتجد هى الاجابات ، ومن ثم نستغنى عن خدمات الجنرالات والدبلوماسيين ٠ ولكن هى « الموت الالكترونى » فى الموقف الحاضر ، لايهدد حتى لعبة الشطرنج ، التى هى اكثر بساطة من السياسة ٠

وعلى اى الاحوال فالنواقص الحالية فى نظرية المباريات ينبغى الا تستخدم كأساس لنفض اليد منها ورفضها نهائيا او الاندفاع الى صب النقد على النظرية ككل ـ مهما كان الاغراء الذى يدفعنا الى ذلك نتيجة لاستخدامها لتبرير السياسة العدوانية ٠ وبعبارة أخرى فمن الواجب على انصار السلام الا يتجاهلوا نظرية المباريات كمجرد اداة رجعية جديدة نتيجة لما يلجأ اليه الأيديولوجيون البورجوازيون من تجريد كامل لها من العوامل السياسية والاجتماعية والطبقية الاساسية ، هذا التجريد الذى يجده هؤلاء الايديولوجيون البورجوازيون ضروريا للتبرير العلمى الكاذب لسياستهم العدوانية ٠ فنظرية المباريات نفسها ، كمنهج رياضى للتحليل ، محايدة تماما ومن الممكن ان تثبت بعض الافكار التى تطرحها فائدتها فى التطبيق العلمى ٠ ونحن مضطرون الى الموافقة على ما يذهب اليه أ ٠ رابورت ، وهو أحد النقاد الموغلين فى التشدد للاستخدام العسكرى الجارى لنظرية المباريات ، عندما يقول بأن العودة الى النظرية نفسها ربما كان مفيدا لانها « تدفعنا الى التفكير فى النزاع بطريقة غير عادية » (٣٤) ٠

وعلى أى الاحوال فمن الضرورى دائما الاتغرب عن بالنا اخطار الاستهانة بهذه النظرية وامكانية تشويها كاملا ٠

---

(٣٤) أ٠ رابورت ، المعارك ، والمباريات والمناقشات ، نيويورك ، ١٩٦٠ ، ص ٢٤٢ ٠

## الفصل الثانى عشر

# القوى المعادية للتعايش السلمى

تتزايد الأدلة وضوحا فى الوقت الراهن على مدى الحاجة الى بذل اقصى الجهود ضد القوى العدوانية الرجعية التى سبق لها أن زجت بالبشرية فى حربين عالميتين ، والتى تعمل الان على تفاقم الاوضاع .

والنظريات التى يروج لها مفكرو الامبريالية فيما يتعلق بمشكلة الحرب والسلام والتعايش السلمى نظريات بالغة الخطورة .

ولقد اكتسب مبدأ التعايش السلمى بين الدول ذات النظم الاجتماعية المختلفة اهمية حيوية بالنسبة للبشرية جمعاء ، كالبديل المعقول الوحيد عن الحرب النووية . وهكذا يمكننا أن نستخدم الموقف من هذا المبدأ ، قبولا أو رفضا ، كمعيار اساسى للحكم على شتى المواقف من قضية الحرب والسلام برمتها .

ويوجه اكثر أيديولوجيى الامبريالية رجعية جهودهم نحو انكار امكانية التعايش السلمى ، الامر الذى يتساوى مع القول بأن النزاع المسلح بين المعسكر الامبريالى والبلدان الاشتراكية مسألة حتمية . ومع ذلك فحتى أولئك الذين يعترفون صراحة بالاهداف الانتقامية يتجنبون الدعوة الصريحة الى الحرب .

ويواصل ممثلو مختلف الاتجاهات الايديولوجية فى المانيا الغربية التأكيد على أن مصالح المانيا الغربية تلتقى تماما مع مصالح سائر بلدان أوروبا ، ويصرون على أن عصر الدول القومية قد انتهى ، وان السيادة القومية لم تعد ضرورية ، بل وربما كانت ضارة ، وان مانحن فى حاجة اليه انما هو سياسة أوروبية عامة ، واشتراك أوروبا كلها فى تقاليد موحدة ، وتراث واحد ، وما الى ذلك من الدعاوى .

ومن أبرز المنادين بفكرة التكامل الاوروبى الهر ستراوس ، وزير الدفاع السابق فى جمهورية المانيا الفيدرالية ، الذى أعلن أن : «السياسة

الالمانية جزء من مهام السياسة الاوروبية ، ولا يمكن ان تكون خلاف ذلك » (١)

ويذهب بعض الايديولوجيين الامبرياليين من المانيا الغربية الى مدى ابعد من ذلك فيدعون بأن التخلى عن السيادة والاستقلال لا يكفى كشرط لوجود أوروبا الغربية ، وأن هذا الشرط لا يتمثل الا فى تحـــول أوروبا الغربية الى معسكر حربى موحد . وهم يصرون على القول بأن التخلى عن السيادة انما هو ضرورة عامة مطلقة فى العصر الراهن ، وانه الطـــريق الوحيد لضمان الامن القومى ، جنبا الى جنب مع تكوين الكتل العســـكرية الكبيرة عى أساس جغرافى .

ولكن هذا ليس كل ما فى الامر : فالايديولوجيون الرجعيون يبـــذلون قصارى جهودهم من أجل تشويه مبدأ التعايش السلمى ، ويخترعون كافة انواع «التقارب النظرى» و «الحجج» ضد امكانية تحقيقه عمليا ، والهدف من ذلك هو تبرير الســـياسة العدوانية للانتقاميين الذين تحولوا اليوم الى معقل الرجعية الامبريالية فى القارة الاوروبية .

ويمكننا ان نميز خطين اساسيين فى المحاولات الراهنة لرفض امكانيـــة التعايش السلمى ، يتمثل أولهما فى تقديم المذهب المـــاركسى ــ اللينينى فى صورة مشوهة ومحاولة اثبات انه يتعارض مع فكرة التعايش السلمى ، بينما يتمثل الاخر فى السعى الى « اثبات » ان التعايش السلمى شعار غير واقعى فى ظل الاوضـــاع الدولية الراهنة .

ويتضمن الخط الاول الزعمين التاليين :

١ ــ الزعم بأن التعايش السلمى يتناقض مع روح ومحتوى الماركســـية اللينينية ، وعلى وجه الخصوص مع النظرية الماركسية اللينينيـــة للثورة الاجتماعية .

٢ ــ الزعم بأن مبدأ التعايش السلمى ليس جانبا اساسيا فى السياســـة الخارجية السوفييتية ، وانما هو مجرد اجراء تكتيكى وضع من أجل تدمير النظام الرأسمالى بالوســـائل الســـياسية والايديولوجية دون اللجوء الى الصدام العسكرى .

ومن أكثر الحجج التى يستخدمها أعداء التعايش السلمى فى جمهورية المانيا الفيدرالية الترويج للنظرية الزائفة عن عدم التوافق بين فكرة التعايش السلمى ومبادىء الماركسية اللينينية ، فهذه الحجة مثلا هى محور كتـــاب ج. ويتر ، الممثل البارز للايديولوجية الكهنوتية «المفهوم السوفييتى للتعايش السلمى » ، والذى يقول فيه : « وهكذا ، فسياسة التعايش السلمى تعنى فى الحقيقة الانتظار فى هدوء حتى تتساقط البلدان واحدة بعد الاخرى كمـــا تتساقط أوراق الخريف من فوق الاشجار ، نتيجة لنضوج العمليات التى تشق طريقها كضرورة موضوعية . ولكن يجب القول بأن موقف الانتظـــار المقول به هنا يتناقض مع محتوى وجوهر اللينينية ، لان رفض مســـايرة

---

(١) أوسينبوليتيك ، ١٩٦١ ، هينت ٢ ، ص ٧٩ ــ ٨٠ .

الظروف والالحاح على الاسراع بالعملية الثورية عن طريق التدخل المسلح كانت هى النقطة التى مارس لينين من خلالها تأثيره الحاسم على تطور الماركسية الروسية»(٢) .

وعلى أساس هذا التفسير للماركسية ــ اللينينية ينتقل ويتر الى الادعاء بأن «نظرية التعايش السلمى» لا يمكن فحسب رفض اعتبارها نتيجة منطقية مستمدة من المذهب الماركسى اللينينى ، وانما هى مناقضة أيضا لبعض الجوانب الاساسية فى هذا المذهب(٣) .

ومن الواضح أن ويتر هنا انما يبارز طواحين الهواء لانه يحاول أن يدحض مفهوما للماركسية ــ اللينينية اخترعه هو نفسه من محض خياله . وفى هذا الصدد نجده وقد وقع فى خطأين فادحين على الاقل .

فأولا ، الماركسية لم تشبه ابدا العملية التاريخية الموضوعية لنضوج الثورة الاشتراكية فى مختلف البلدان الاشتركية «بتساقط الاوراق الجافة من فوق الاشجار» . ان هذا التبسيط المبالغ فيه لتطور الظواهر الاجتماعية معاد تماما للماركسية ــ اللينينية ، ومثل هذا الانتظار السلبى الذى يعتمد على القدر ليس من سمات الروح الثورية للماركسية ، وبخاصة فى حالة أحداث من نوع الثورات الاجتماعية التى لا تتحقق من تلقاء نفسها ، وانما من خلال المساهمة النشطة بالفعل . واذا تكلمنا عن المرحلة الراهنة ، فان مجرد وجود النظام الاشتراكى العالمى يمثل عنصرا بالغ التأثير على نضج وتحقيق العملية الثورية فى البلدان الراسمالية .

والاتحاد السوفييتى والبلدان الاشتراكية الاخرى هى قلعة الحركة الثورية العالمية وتستطيع البلدان التى تتقدم فيها الثورة ، سواء أكانت ثورة تحريرية وطنية ، أن تعتمد على التأييد الادبى للبلدان الاشتراكية ، بل وعلى تأييدها المادى أيضا اذا لزم الامر . وقد قدمت الانجازات الاقتصادية والسياسية التى تحققت فى البلدان الاشتراكية المثال المؤكد للشعوب التى تناضل من أجل التحولات الاجتماعية الاساسية ومن أجل التحرر الوطنى ، ومنحتها الثقة فى الانتصار النهائى لقضيتها العادلة . وبفضل انجازات شعوب اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية فى بناء الاشتراكية والشيوعية يوجد الآن فى العالم مجتمع اشتراكى يمثل حقيقة واقعة ، وعلم للبناء الاشتراكى تم اختباره فى التطبيق العملى . لقد تم تعبيد الطريق نحو الاشتراكية(٤) .

وفى أى مكان من العالم تتقدم فيه الثورة ، يمارس النظام الاشتراكى العالمى تأثيرا هائلا على النتيجة النهائية .

---

(٢) ج. ويتر ، المفهوم السوفييتى للتعايش السلمى ، بون ، ١٩٥٩ ص ٢٢ .
(٣) الطريق الى الشيوعية ، موسكو ١٩٦١ ص ٤٦٣ .
(٤) ج. ويتر ، المرجع السابق ص ٣١ .

ويتجلى هذا التأثير قبل أى شيء فى عجز الرجعية العالمية عن استخدام القوة ضد أى بلد تحققت فيه الثورة أو راحت تشق طريقها قدما ؛ الا اذا خاطرت هذه الرجعية العالميـــة بمواجهـــة الاجراءات المضـــادة من جانب البلـــــدان الاشـــــتركية .

ولكن عندما يكتب ويتر عن الحاح الماركسية ــ اللينينية على الاسراع بالعملية الثورية عن طريق التدخل بالقوة فهو يعنى شيئا مختلفا تماما ، وهذا هو الخطأ الفادح الثانى الذى يقع فيه ، ورأيه فى هذه المســـألة لا يختلف عن الموقف المزرى الذى تتخذه الايديولوجية الرسمية المعـــادية للشيوعية فى البلدان الرأسمالية والتى لا تنظر الى أى ثورة اشــــتراكيه أو تحريرية وطنية الا وكأنها نتيجة من نتائج « مؤامرات الشيوعية الدولية » وتصدير الثورة ، ومن المحال أن ندخل فى نقاش جاد مع مثل هذه الاراء لانها تمثل تشويها فظيعا للعملية الثورية .

ويعتقد ويتر أن مقدمته المنطقية الزائفة والتى تذهب الى أن الثورة الاشتراكية ماهى الا نتاج للمؤامرات الخارجية هى العقبة الاساسية أمـــام التعايش السلمى ، ويرى ان الثورة الاشتراكية والتعايش الســلمى حقيقتان تنفى كل منهما الاخرى . فهو يكتب قائلا أن «المشكلة الحقيقية للتعـــايش السلمى هى كيفية المواءمة بينه وبين الهدف الشيوعى الخاص بالثــــورة العالمية . فهل تعنى سياسة التعايش التخلى عن هذا الهدف؟ أم أن المسألة لا تزيد عن مجرد التخلى عن تحقيق هذا الهدف عن طريق الوســـــائل العســــكرية» ؟ (٥) .

وتتميز الآراء الســـــابقة بجانبين : فهى اولا توضح أن أيديولوجيى الامبريالية مازالوا يتشككون فى حتمية ظهور الاشتراكية كنظام اقتصـــادى وسياسى جديد ، ومن ثم يستبعدون حتمية الثورة الاشتراكية . وهى توضح ثانية عدم استعداد الدوائر الحاكمة فى الدول الامبريالية للقبـــول بمبـــدأ وسياسة التعايش السلمى بين النظامين الا بشرط أن يضمن ذلك المحافظة على النظام البورجوازى فى جميع البلدان التى لم تصل الى الاشـــتراكيـــة بعــــد .

وبعبارة أخرى ، فالايديولوجيون الامبرياليون يحاولون فى الحالة الاولى أن «يحرموا» الثورة الاشتراكية ، بينما تطالب الدوائر الحاكمة فى الحـــالة الثانية بأن يتخلى الشـــيوعيون عن آرائهم ، أى عن الصراع والثـــورة الاشتراكية . وبالرغم من سخافة كل ذلك ، فمازال الايديولوجيـــــون الامبرياليون يعتبرون أن سياسة التعايش السلمى لا يمكن القبول بهــــا بهــــذه الشروط(٦) .

ومهما يكن الامر ، فالحقائق تؤكد أن المبدأ اللينينى للتعايش السلمى فى

---

(٥) ج . ويتر ، المرجع السابق ص ٤٤ .

(٦) المرجع السابق ص ٤٥ .

ظل الاوضاع الراهنة هو الاساس المنطقى الوحيد لصيانة السلام واستقلال جميع الامم بصرف النظر عن نظمها الاجتماعية والسياسية . وقد طرحت المبادىء الاساسية للتعايش السلمى كضرورة موضوعية نابعة من وجود الرأسمالية والاشتراكية جنبا الى جنب ، فى عبارات لا لبس فيها ولا غموض فى برنامج الحزب الشيوعى للاتحاد السوفييتى . «والتعايش السلمى بين البلدان الاشتراكية والراسمالية ضرورة موضوعية من أجل تطور المجتمع الانسانى ، ولا يمكن أن تستخدم الحرب ، ولا يجب أن تستخدم ، كوسيله لتسوية النزاعات الدولية . ان التاريخ يطرح أمامنا أمرين لا بديل لهما -. التعايش السلمى أو الحرب المفجعة » (٧) .

وقد أكد اجتماع الاحزاب الشيوعية والعمالية المنعقد فى موسكو فى عام ١٩٦٩ على الارتباط الذى لا ينفصم بين سياسة التعايش السلمى والنضال من اجل صيانة السلام ومنع نشوب حرب عالمية جديدة ، واكد على ضرورة نضال شعوب العالم من أجل انتصار مبادىء التعايش السلمى فى العلاقات بين البلدان ذات النظم الاجتماعية المختلفة .

ومن الواضح أنه ليس فى مقدور الشيوعيين ، ولا هم ينوون ، أن يقدموا للراسماليين أى ضمانات بأن الثورة الاشتراكية لن تتحقق فى بلادهم فى الوقت المناسب ، أو أى ضمانات بأبدية النظام الرأسمالى . ان تاريخ المجتمع الانسانى ، وبخاصة تاريخ العصر الراهن ، يجعل من مثل هذه الآمال والمطالب التى يقدمها الايديولوجيون البورجوازيون مجرد أوهام خيالية .

والتعايش السلمى هو أساس المنافسة السلمية بين الاشتراكية والرأسمالية على النطاق العالمى ، و هوشكل من اشكال الصراع الطبقى بينهما . ومبدأ التعايش السلمى لا يتضمن فى طياته التعايش بين الطبقات المتناقضة ، وانما هو يعنى التعايش بين الدول ، التى تخضع بالرغم من طبيعتها الطبقية المتعارضة ، وبشكل متكافىء ، لنفس القوانين الدولية والعلاقات الدولية .

وقد عبر الاجتماع الدولى للاحزاب الشيوعية والعمالية المنعقد فى موسكو ( ١٩٦٩ ) فى عبارات واضحة لا لبس فيها ولا ابهام عن مغزى التعايش السلمى كشرط ضرورى لتعبئة قوى السلام والاشتراكية والتقدم من اجل شن الهجوم التاريخى ضد قوى الامبريالية والرجعية .. وتكشف البيانات الواضحة التى لا لبس فيها الواردة فى وثائق الاجتماع بطلان كافة الدعاوى والمحاولات التى تبذل لتشويه أو تحريف المحتوى الطبقى لمبدأ التعايش على النحو الذى يفسره به أيديولوجيو الامبريالية أو المغامرون من الجماعات اليسارية الممعنة فى التطرف .

وهاهى فقرة من وثائق الاجتماع نسوقها من أجل التوضيح .. « ان هذه

---

(٧) الطريق الى الشيوعية ، ص ٥٠٦ .

السياسة ( أى التعايش السلمى — المؤلف ) لا تتضمن المحافظة على الوضع الاجتماعى — السياسى أو اضعاف الصراع الايديولوجى ، انها تساعد على المضى قدما بالصراع الطبقى ضد الامبريالية على المســـتوى القومى وعلى المستوى العالمى . فالصراع الطبقى المحتم من اجل القضاء على الاحتكارات وحكم الاحتكارات ، ومن أجل اقامة المؤسسات الخاصة بنظام ديمقراطى حق ومن أجل اقامة سلطة اشتراكية ، مهما كانت الطريق التى تفضى الى هـــذا الهدف ، هو حق لا نزاع فيه وواجب على الجماهير العاملة وأحزابها الشيوعية فى البلدان الرأسمالية . وان الشيوعيين فى جميع انحاء العالم ليتضـامنون مع هذه المعركة العادلة » (٨) .

ولا يمكن لمبادىء التعايش السلمى بأى حـال من الاحوال أن تعنى التدخل بالعنف من جانب البلدان الاشتراكية فى الشـئون الداخلية للبلدان الراسمالية . فالثورة الاشتراكية ، التى تنضج الظروف اللازمة لقيامها كجزء من العملية التاريخية الطبيعية ، قضية لا تتسق ، بحكم طبيعتها الاجتماعيــة والاقتصادية والسياسية نفسها ، مع أى شكل من اشكال التدخل من الخارج أو « الدفع » ، أو التعجيل المفتعل بوقوع الاحداث الثورية .. وكما اوضــح انجلز : « فالشيوعيون يعرفون جيدا ان الثورات لا تتحقق نتيجة للتعمد أو التحكم ، وانما هى تتحقق فى أى مكان وفى أى وقت تكون هى فيــه الناتج المحتوم لمجموعة من الظروف المستقلة تماما عن ارادة وقيادة احزاب معينــة أو طبقات برمتها » (٩) .

وقد كرر لينين ايضا هذه النقطة مرارا مصرا على أن الماركسية كانت على الدوام معادية « لدفع » الثورة ، « وانه من المستحيل التعجيل بشىء لم تنضج الشروط التاريخية لتحقيقه بعد » (١٠) .

وفى هذا الصدد ينبغى ان نسجل انالبلدان الراسمالية هى التى ضاعفت فى الاونة الاخيرة من نشاطها التخريبى ضد البلدان الاشتراكية بهدف العودة الى الراسمالية وقلب الميزان السياسى فى أوروبا .

وتوضع هذه العوامل جميعا أن مزاعم الايديولوجيين البورجوازيين بأن مبادىء التعايش السلمى لا تتفق مع نظرية الثورة الاشتراكية لا أساس لها من الصحة .. فوجود النظامين الاشتراكى والراسمالى جنبـا الى جنب فى

---

(٨) الاجتماع الدولى للاحزاب الشيوعية والعمالية . موسكو ١٩٦٩ براغ ١٩٦٩ ص ٣١ .

(٩) الاجتماع العالمى للاحزاب الشيوعية والعمالية . موسكو ، ١٩٦٩ براغ ، ١٩٦٩ ص ٣١ .

(١٠) ف.ا. لينين ، مجموعة الاعمال ، الجزء ٢٢ ، ص ١١٠ .

عالمنا ، وتحقيق الثورة الاشتراكية التى يتم عن طريقهـا انتقال المجتمع الى مرحلة ارقى من التطور ، انما هما قانونان موضوعيان للتاريخ ، مسـتقلان تمام الاستقلال عن الاحكام الذاتية .

واستنادا الى نظرية من بنات أفكارهم ، وهم النظرية القائلة بـأن التعايش السلمى لا يتفق مع مبادىء الماركسية ـ اللينينية بشكل عام ومـع نظرية الثورة الاشتراكية بشكل خاص ، يصور الايديولوجيون البورجوازيون التعايش السلمى كتكتيك مخادع وضع من اجل تدمير النظـام الراسمالى باستخدام كافة الوسائل دون الحرب النووية الحرارية .. وتبدو هـذه النظرية كالقاسم المشترك الاعظم فى كتاب « سياسة ألمانيا الخارجية فى فترة مابعد الحرب » بقلم و « جرووى » الذى كان سفيرا لالمانيا الغربية فى الولايات المتحدة فى وقت من الاوقات ، والذى يقول فيه « ان كنا نادرا ما نلتقى اليوم بعبارة « الثورة العالمية » فى المصطلحات السوفييتية فذلك لا يغير شيئا من العزم الذى طالما صرح به عن نشر الشيوعية عن طريق وسائل المكر والخداع والارهاب ، وحتى بالقوة اذا لزم الامر ، واقامة الشيوعية فى العالم كنظـام عـام » . (١١)

وتتفشى مثل هذه التفسيرات للتعايش السلمى أيضـا فى الايديولوجية البورجوازية فى البلدان الاخرى غير الجمهورية الفيدرالية ، وهكذا مثلا نجد المفكر العسكرى الامريكى الشهير كيسنجر يكتب ليقول « يتم تبرير التعايش السلمى من جانب القادة السوفييت على أنه أكثر التكتيكات الهجومية قدرة ، وعلى أنه أفضل وسيلة لقلب البناء القائم بوسائل أخرى غير الحـرب الشاملة . (١٢)

وهذا التشويه البالغ للتعايش السلمى والذى يخترعه الايديولوجيون البورجوازيون لا يستحق حتى مجرد الالتفات من جانبنا بالرغـم من النتائج العمليـة بعيدة الاثر التى يخرجون بها منه والتى تتميز بتأثيرها المباشر على السياسة الامبريالية تجاه مجموعة البلدان الاشتراكية .

وهناك مجمـوعة من أكثر الايديولوجيين البورجوازيين تصلبا ترفض التسليم بامكانية تطبيق التعايش السلمى عمليا ، ويشبهونه بالحرب الباردة التى يمكن أن « تسخن » فى أى لحظة ، وهكذا مثـلا يعلن النازى السابق ب . أوبير لاندر انه « ليس هناك تعايش بين العالم الحر والعالم غير الحر ، وانما هناك « حرب باردة أو حرب سيكولوجية » والتى ما هى الا « وسيلة للحرب الاهلية العالمية التى نجد انفسنا فى غمارها فى المرحلة الراهنة » . (١٣)

---

(١١) و . جرووى ، سياسة ألمانيا الخارجية فى فترة مابعـد الحـرب ، ١٩٦٠ ، ص ٤٤٠ .

(١٢) هنرى أ. كيسنجر ، الاسلحة النووية والسياسة الخارجية ، نيويورك ، ١٩٥٧ ، ص ١٤٢ ـ ١٤٣ .

(١٣) عن السلام ، ١٩٦٢ ، ص ٢ .

ولكن الارجح أن أحدا لم يصل فى محـــاولة تشبيه التعايش السلمى بالحرب الباردة الى ما وصل اليه رجل الحرب الشـــهير فى ألمانيا الغربية والايديولوجى الامبريالى هـ · راوشـــنج فى كتابه الذى يقدمه تحت العنوان الخادع المراوغ : « هل مازال الســـلام ممكنا ؟ » · فراوشـــنج يقول : « والسياسة السوفييتية ليست الا حربا دائمة ضد الدول الراسمالية ، حربا تستخدم فيها الوسائل العسكرية كلما تطلب الموقف ذلك .. ان سياســـة الدولة السوفييتية تجاه العالم الـــذى لم يعد بعـــد شيوعيا هى سياسة الحرب (١٤) . وهذا الرأى يمثل المنطق الاساسى لمفهوم التعايش الســلمى كتكتيك وضع من اجل التوصل الى تحطيم الراسمالية بكل الوسائل الممكنة .

ومما يلفت النظر أن نلاحظ هذا الالتقاء بين ممثلى أشد الاتجـــاهات الراهنة فى الايديولوجية البورجوازية اختلافا ، ومهما كانت وجهات نظرهم ، حول الاعتراف بأن الاتحاد السوفيتى ليست لديه أى نوايا للبدء بشن حـــرب عالمية .. ولاشك أن هذه الحقيقة تمثل ابتعادا كبيرا عن الآراء التى شاعت فى السنوات الاولى التى أعقبت الحرب ، وهى توضح كيف كان على المذهب الرسمى للامبريالية ان يتراجع عن بعض مواقعه « الارثوذكسية » على ضـــوء الحقائق الثابتة للسياسة الخارجية السوفييتية التى تهدف الى دعم الســـلام العـــالمى .

واستنادا الى الحقائق ، تفشـــل أى محاولات لتصـــوير السياسة الخارجية السوفييتية بأنها موجهة نحو البدء بشن حرب عالمية فى أن تقنـــع احـــدا .. ومن ثم تنشأ الافـــكار « التى أعيدت صـــياغتها » من جانب الايديولوجيين البورجوازيين والتى تحاول أن تثبت استحالة التعايش السلمى والزعم بأن الاتحاد السوفييتى ينوى أن يدمر العالم الرأسمالى بأية وسيلـــة خلاف الحرب العالمية .. ويفضل أعداء التعايش السلمى عادة وبشكل عام أن يركزوا جهودهم فى مجال الشتائم البذيئة والاتهامات الممعنة فى التزييف اعتمادا على أسوأ مالدى الصحافة من وسائل وتقاليد .

والاتهام الذى لا أساس له والقائل بأن التعايش السلمى الشـــيوعى ليس الا « تكتيكا مفجعا » وضع من أجل تدمير النظام الراسمالى عن طـــريق كافة الوسائل العنيفة . فيما عدا الحرب العالمية ، لا تدحضه الحجج النظرية وحدها ، وانما تدحضه أيضا الحقائق العملية المتمثلة فى نظرية وسياســـة الاحزاب الماركسية ـــ اللينينية ، والتى توضح أن الاتحاد السوفيتى لا يعمل من أجل سياسة التعايش بالاقوال وحدها ، وانما هو يطبقها باســـتمرار وثبـــات .

وقد شاعت فى الكتابات السياسية والفلسفية البورجوازية هذه الايام فكرة تدعى أن التعايش السلمى ممكن فقط بين الدول ذات النظم السياسية

---

(١٤) هـ · راوشنج ، هل مازال السلام ممكنا ؟ هيدلبرج ، ١٩٥٣ ، ص ١١٣ ·

ـ الاجتماعية المتشابهة ، وعادة ما تقدم هذه الفكرة ، لا كحجة مستقلة ، وانما كاضافة الى الحجج التى سبق أن تعرضنا لها فيما سبق .

ولما كانت الحقائق المؤكدة فى الوقت الراهن توضح أن الامر ليس كذلك بدليل وجود نظامين متعارضين ، لذلك نرى بعض الايديولوجيين البورجوازيين وقد راحوا ينادون بضرورة العزل الكامل بين النظامين لصالح « السلام والهدوء » . .وهكذا مثلا نجد كارل جاسبرز يعلن فى كتابه ، « القنبلة الذرية ومستقبل الانسان » .. أن « التعايش السلمى ، كحالة للهدوء والسلام مستحيل الا اذا تم العزل تماما بين الجانبين » (١٥) .

وينتهى جاسبرز الى هذه النتيجة على أساس التقسيم التعسفى الذى يقوم به هو نفسه لعالم اليوم الى « عالم الحرية » و « عالم الاستبداد » .. هذا التقسيم الذى يرى انه يستبعد كل امكانية للسلام والتعايش السلمى .. ويقود هذا التقسيم جاسبرز الى الوقوف أمام اختيار محدد هو : « الحرية أو القنبلة الذرية » ، ولما كان من المحال بناء العالم وفقا لمبادىء الحرية والحق التى ينادى بها جاسبرز ، فلذلك نجده ولم يعد أمامه سوى سبيل واحد .. هو الحرب النووية . وهو يقول فى كتابه : « حتى لا نفقد حرية الانسان ، يتحتم علينا الا نخفى امكانية حلول لحظة معينة يتعين فيها اتخاذ القرار بالاختيار : الدولة الاستبدادية أو القنبلة الذرية . (١٦)

ولاشك أن آراء جاسبرز طرأ عليها فى أواخر أيام حياته تطور كبير فى اتجاه ادراك خطر السياسة المتطرفة العدوانية التى تنتهجها الدوائر الحاكمة فى المانيا الغربية .. وهكذا نجده فى كتاب من اواخر كتبه هو « الى أين تتجه جمهورية المانيا الفيدرالية » « ١٩٦٦ » وقد راح يوجه النقد العنيف الى السياسة الانتقامية غير الديمقراطية التى يسير عليها الرجعيون فى جمهورية المانيا الفيدرالية ، ويحتج على رد اعتبار مجرمى الحرب ، وعلى اصدار قوانين الطوارىء ، ويعبر عن تأييده ، الحار لتسوية المنازعات الدولية بالطرق السلمية .

وبالرغم من كل ذلك ، فمهما كانت مشاعره ، فالمنطق الموضوعى للمفاهيم الفلسفية التى قدمها فى العديد من اهم مؤلفاته بعد الحرب ، وبخاصة فى كتاب « القنبلة الذرية ومستقبل الانسان » لا يخدم الا مصالح الدوائر الانتقامية للامبريالية فى المانيا الغربية .

وتستخدم الصحافة التى تروج لروح الانتقام فى جمهورية المانيا الفيدرالية مختلف الحجج التى تساق ضد التعايش السلمى استخداما بارعا من أجل « اثبات » حتمية الصدام المسلح بين النظامين ، ومن أجل تبرير الاستعدادات

---

(١٥) ك . جاسبرز ، القنبلة الذرية ومستقبل الانسان ، مينشن ، ١٩٥٨ ، ص ١٥١ .

(١٦) ل . جاسبرز . المرجع السابق ص ١٠٧ .

العسكرية لحلف شمال الاطلنطى . وقد اعلنت جريدة ديرستاهلهلم العسكرية بكل صراحة أن « السلام والصداقة لا توجدان الا بين الشعوب الحرة » .. ويجب ان نشير هنا الى ان هذه الحجج تقوم على اســـاس من المغالطة ، وان تميزت بطبيعتها المنطقية .

فمفهوم « التعايش » ، مطبقا على العلاقات الاجتماعية ، يعنى وجـــود ظواهر اجتماعية متعارضة أو مختلفة على الاقل .. أما فيما يتعلق بالظواهر الاجتماعية المنتمية لنفس النظام ، فلا مكان لظهور مسألة التعايش .

والواقع اننا نواجه هنـــا ما هو أكثر من المنطق بالطبـــع ، فالاتحاد السوفيتى لا يعيش فحسب جنبا الى جنب مع البلدان الرأسمالية ، وانما له أيضا علاقات اقتصادية وسياسية وثقافية كبيرة معها .. والاتحاد السوفييتى والبلدان الاشتراكية الاخرى أعضاء فى الامم المتحدة « التى تنضـم البلدان اليها بصرف النظر عن نظمها الاجتماعية والسياسية » وغيرها من المنظمات الدولية المتعددة ، وخلال الحرب العالمية الثانية كان الاتحاد السوفييتى عضوا وكان القوة الحاسمة ، فى تحالف من دول ذات نظم سياسية واجتماعية مختلفة وتقدم كل هذه الحقائق الادلة الكافية للقول بأن مجرد اختلاف النظم الاجتماعية والسياسية فى البلدان المختلفة لا يفضى بالضرورة الى الحرب .

ومن الحجج التى انتشرت بشكل خاص ضد التعايش السلمى الزعم بأنه خلال عملية المنافسه بين النظامين ، فالبلاد الرأسمالية هى الخاسرة لان هناك فى داخلها احزابا سياسية تعارض النظام البورجوازى بنشاط ، بينما لا توجد اى احزاب معادية للاشتراكية فى البلدان الاشتراكية . وهذا هو الخط الذى يسير عليه أ . بوتشهولز فى كتابه « النضال من أجل عالم افضل » الذى يكتب فيه قائلا : « تبدأ المشكلة من أن الشيوعية لديها فرص أكبر بكثير لممارســـة التأثير فى الغرب عما للغرب من تأثير فى المنطقة الشيوعية .. ونظرا لوجود نظام الحرية البرلمانية فى الغرب ، فهو مفتوح للتأثير الشيوعى ، بينما نجـــد على الجانب الآخر أن جميع التأثيرات الغربية وقد اســـــتبعدت تماما وبشكل محكم . والشيوعيون لهم أحزابهم فى جميع بلدان العالم ، وهى دائما رهن اشاراتهم ، بينما لا نلتقى فى المنطقة الشيوعية بحزب واحد «غربى المنحى»(١٧) وينتهى بوتشهولز من كل ذلك الى نتيجة معينة هى ان « المنافســـة السلمية بين الشرق والغرب انما هى فى الاساس طريق أحادى الجانب للتقدم نحـــو الشيوعية » (١٨) .

والحقيقة ان بوتشهولز عندما يفكر على هذا النحـــو ، فهو يخرج عن الموضوع ، لان وجود أو عدم وجود الاحزاب المعادية للنظام القائم فى أى بلد من البلدان ليس له أى علاقة مباشرة بمشـــكلة التعايش السلمى ، وانما هو

---

(١٧) أ. بوتشهولز ، المرجع السابق ، ص ٥٠ — ٥١ .
(١٨) المرجع السابق ، ص ٥٢ .

مجرد مسألة متعلقة بطبيعة كل من النظامين وسماته الاجتماعية .. وليست الطبيعة الخاصة للنظامين هى المسألة الحاسمة فى مشكلة التعايش وانما المسألة الحاسمة فى هذا الصدد هى المبادىء التى تحدد علاقاتها الخارجية مع بعضها البعض .

ووجود القوى الاجتماعية التى تناضل من اجل الاطاحة بالراسمالية داخل البلدان الراسمالية لا يوضح الا شيئا واحدا هو ان هذا النظام غير قادر على الاستمرار فى الحياة ، كما انه حجة تساق لصالح استبدال الاشتراكية بـه .

وترنح الراسمالية فى مواجهة وحدة وتضامن النظام الاشتراكى ليس عقبة فى سبيل التعايش السلمى بين النظامين ، لان مبادىء التعايش ، بما فى ذلك اهمها وهو مبدأ عدم التدخل فى الشئون الداخلية للدول الاخرى ، قابلة للتطبيق على كلا الجانبين .

هكذا يبتعد بوتشهولز عن جوهر الموضوع فى حججه التى يسوقها ضد امكانية التعايش السلمى . اما غيره ممن يشتركون معه فى نفس الراى فهم يسوقون حججهم على مستوى مختلف ، ويشنون الهجوم على الموقف الشيوعى القايل بأن الراسمالية نظام عفى عليه الزمن . والمثل البارز على هذا هو كتاب هـ. فان بيرج ، « الطوفان الاحمر » والذى يقول فيه : « والسوفييت لا ينظرون الى بقية المشتركين فى المؤتمر كشركاء على قدم المساواة معهم وانما ينظرون اليهم كعدو حكم عليه التاريخ فعلا بالموت .. ولهذا السبب فليس فى مقدورهم أن يكونوا شركاء حقيقيين ، وانما هم عدو محتمل » . (١٩)

وهو يخرج من ذلك بالنتيجة القاطعة التالية : « ليس أمام الغرب الحر تعايش طويل الأجل مع الاتحاد السوفيتى ، سواء من الناحية الواقعية أو من الناحية القانونية ، طالما أن الماركسية ـ اللينينية قد أصدرت حكمها بالاعدام على عالمنا » . (٢٠)

وعندما يتهم الايديولوجيون البورجوازيون الماركسية اللينينية بأنها تنظر الى الرأسمالية باعتبارها نظاما اجتماعيا « محكوما عليه بالموت » ، وعندما يتناولون هذا القول باعتباره عقبة على طريق التعايش السلمى ، فهم يتجاهلون عن عمد جانبا هاما من جوانب مبدأ التعايش . فالمنافسة السلمية بين الراسمالية والاشتراكية ، شأنها فى ذلك شأن الصراع الايديولوجى بينهما ليست مقيدة بأى حدود زمانية ، لان تحلل الراسمالية من جانب ، وميلاد وترسخ وتطور الاشتراكية من الجانب الآخر ، انما هى اجزاء من عملية

---

(١٩) هـ. فانبيرج . الطوفان الاحمر ، ميونيخ ، ١٩١٨ ص ٤٨٧ .

(٢٠) المرجع السابق .

تاريخية طبيعية . ولذلك يصبح من غير المنطقى تماما أن نستخدم الآراء الماركسية حول حتمية فناء الرأسمالية كحجة تساق ضد التعايش السلمى .

ويدعى عديد من أعداء التعايش السلمى ان لينين لم يناد ابدا بفكرة التعايش السلمى ، بل ويدعون أنه كان يعاذى مثل هذه الفكرة . والايديولوجيون البورجوازيون يلجأون الى هذا الادعاء كآخر سهم فى جعبتهم من أجل اثبات استحاله التعايش السلمى .. وقد تحول تزييف آراء لينين حول هذا الموضوع الى تقليد شائع فى الكتابات السياسية والاجتماعية والفلسفية البورجوازية ، وكم من تصريحات قاطعة تساق فى هذا السبيل بينما هى لاتستند الى أى دليل على الاطلاق . وهكذا ، ففى كتاب « الايديولوجية السوفييتية اليوم » ، وهو مؤلف صريح فى معاداته للشيوعية من تأليف ويتر وليونارد ، يكتب الاخير أن لينين لم يتقدم على الاطلاق بأى مذهب أو نظرية او مبدأ من التعايش السلمى ، ودون أن يبذل الكاتب أى محاولة من جانبه ليوضح كيف وصل الى هذه النتيجة .

كما يتقدم ب . موراخ ، والذى يساهم بانتظام فى تحرير الجريدة « فيركوند » فى المانيا الغربية بهذا الرأى : « عند مناقشة نظرية التعايش السلمى ، يشير القادة السوفييت فى برنامجهم الحزبى الى لينين ويتحدثون عن المبدأ اللينينى للتعايش السلمى . ولكن الواقع ان لينين لم يقدم أبدا الفكرة القائلة بامكانية التعايش الطويل المدى بين الدول الرأسمالية والشيوعية » (٢١) . وهذا أيضا هو نفس الخط الذى يسير عليه بوتشنسكى الرسول الشهير لمعاداة الشيوعية ، فى كتابه « مختصر عن الشيوعية العالمية » وجريو فى كتابه : « السياسة الخارجية الالمانية فى فترة مابعد الحرب » ، وعديد غيرهما من أيديولوجيى الامبريالية الالمانية الغربية .

وعلى ضوء هذه المحاولات لتزييف اراء لينين عن التعايش السلمى ينبغى القيام ببعض الايضاح ، فالحقيقة ان لينين هو الذى تقدم لاول مرة فى التاريخ بفكرة التعايش السلمى بين الدول ذات النظم الاجتماعية المختلفة ، وهو الذى صاغ المبادىء الاساسية التى ينبغى ان تقوم عليها العلاقات بين البلدان الاشتراكية والرأسمالية . وقد أوضح لينين ، وبطريقة علمية ، لامكانية ، بل والحتمية التاريخية للتعايش السلمى ، حتى قبل ثورة أكتوبر . (٢٢)

وتقوم سياسية التعايش السلمى على أساس نظرية لينين التى تقول بأن الاشتراكية سوف تنتصر بادىء الامر فى بلد أو فى عدة بلدان ، الامر الذى استنتج منه ان البلدان الاخرى سوف « تبقى لبعض الوقت بورجوازية أو فى مرحلة سابقة على البورجوازية » (٢٣)

---

(٢١) فيركوند — ١٩٦٢ رقم ٢ ص ٦٣ .

(٢٢) ف.١. لينين ، مجموعة الاعمال ، ألجزء ٢٨ ص ٧٩ .

(٢٣) المرجع السابق الجزء ٣١ ص ٤١٢ .

ومع انتصار ثورة أكتوبر في روسيا اصبح وجود بلدان ذات انظمة اجتماعية مختلفة كل الاختلاف حقيقة مستقرة ، وتحولت النظرية الى واقع . وقد كتب لينين يقول : « اننا في موقف حصلنا فيه على الشروط التي تمكننا من الوجود جنبا الى جنب مع الدول الرأسمالية » (٢٤) ، ويقول بعد ذلك «ان لديناشيئا أكثر من مجرد الفرصة لالتقاط الانفاس . لقد دخلنا مرحلة جديدة كسبنا فيها الحق في الوجود العالمي الاساسي في نطاق الدول الرأسمالية » (٢٥)

ومن الواضح ان لينين لايتحدث عن مرحلة قصيرة مؤقتة ، وأنما هو يتحدث عن مرحله طويلة سوف تعيش فيها البلدان الرأسمالية والاشتراكية جنبا الى جنب ، أو تتعايش بعبارة أخرى . وبالرغم من أن النظام الاشتراكي كان قاصرا على بلد واحد ، الا أن التعايش السلمي بين الدول الرأسمالية والاشتراكية اتضحت معالمة بالفعل كحقيقة تاريخية انبعثت منها الحاجة الى اقامة العلاقات المناسبة بين هذه البلدان كضرورة تايخية . ويجب ان نؤكد ان لينين كان يعتبر التعايش السلمى بين البلدان الاشتراكية والرأسمالية عملية من التبادل الاقتصادى المثمر للطرفين . وفي هذا الصدد كتب لينين : « يتعين على البلدان الرأسمالية ان تتاجر مع روسيا ، انها تدرك أنها مالم تقم نوعا من العلاقات الاقتصادية ، فسوف يستمر تحللها بنفس الطريقة التي سار عليها حتى الان » (٢٦) . أما عند اشارته لضرورة المتاجرة مع البلدان الرأسمالية بالنسبة لبلاد السوفيتيات فقد كتب لينين «ينبغى أن نتاجر مع البلدان الرأسمالية طالما وجدت هذه البلدان على قيد الحياة » (٢٧)

وهكذا عبر لينين عن موقفه من العلاقات بين بلاد السوفييت والبلدان الرأسمالية الاخرى بطريقة بالغة الوضوح والدقة ، وفي عبارات لا لبس فيها ولا ابهام . وقد بين أن طبيعة هذه العلاقات تتوقف على حسن النية وعلى الرغبة من كلا الجانبين ، وأكد ان الجمهوريات السوفيتية « تقف بكل تأكيد من أجل التفاهم الاقتصادى .. مع جميع البلدان » (٢٨) . وان العجز عن تفهم هذه التفسيرات الواضحة للموقف الحقيقي لقائد البروليتاريا العالمية من فكرة التعايش السلمى لينم عن هدف محدد هو تشويه الحقيقة التاريخية من أجل اثبات استحالة التعايش السلمى .

وعندما يهاجم الايديولوجيون البورجوازيون مبدأ التعايش السلمى ويشوهون معناه الحقيقي فهم يغلقون أعينهم عامدين عن الحقيقة التي تؤكد أن التعايش انما هو ضرورة تاريخية موضوعية . فالبلدان الرأسمالية مضطرة الى الدخول في علاقات اقتصادية وتجارية مع العالم الاشتراكى كضرورة

---

(٢٤) ف.أ. لينين — المرجع السابق .

(٢٥) المرجع السابق الجزء ٣٣ ص ٢١٤ .

(٢٦) ف.أ. لينين المرجع السابق ص ٢١٥ .

(٢٧) ف.أ. لينين مجموعة الاعمال ، الجزء ٣٠ ، ص ٥١ .

(٢٨) ف.أ. لينين مجموعة الاعمال ، الجزء ٢٠ ص ٥١ .

الاقتصادية • وقد اتضح ذلك بعد انتصار ثورة اكتوبر فى روسيا • أما اليوم ، وعندما تحولت الاشتراكية الى نظام اقتصادى عالمى قوى ، فقد اتسع مجال العلاقات الاقتصادية والثقافية بين البلدان الرأسمالية والاشتراكية وازداد عمقا •

لقد أكد مجرى لتطور التاريخى كله ، ودون أدنى شك ، صحة ماقال به لينين من أن « هناك قوة أكثر فعالية من رغبات أو ارادة أو قرارات أى حكومات أو طبقات معادية لنا ، هذه القوة هى العلاقات الاقتصادية العامة على نطاق العالم ،والتى تجبرهم على الاتصال بنا » (٢٩)

وأقل مايمكن أن يقال انه من العبث محاولة اثبات استحالة شىء يوجد بالفعل كحقيقة تاريخية موضوعية ، ولذلك فمن الخطأ تماما ان نحاول ان نخرج من ذلك بحتمية قيام حرب عالمية جديدة • والواقع ان الالتزام الدقيق بمبادىء التعايش السلمى بين البلدان الاشتراكية والرأسمالية هو الطريق الوحيد لمنع المأساة النووية الحرارية ، ولصيانة السلام العالمى ودعمه •

وقد اسفر نضال القوى الديمقراطية فى البلدان الاوروبية ، بما فيها ألمانيا الغربية ، ضد النزعات العسكرية والانتقامية الى تحولات محددة فى السياسة الخارجية لالمانيا الغربية ، واتخذ الائتلاف المكون من الاشتراكيين الديمقراطيين والديمقراطيين الاحرار ، والذى يترأسه ويلى برانت ، سلسلة من الاجراءات من أجل العودة بالاوضاع السياسية فى أوربا الى حالتها الطبيعية •

ومن بين هذه الاجراءات ينبغى أن نشير بشكل خاص الى المعاهدتين المبرمتين بين الاتحاد السوفيتى وجمهورية ألمانيا الديمقراطية ، وبين بولندا وجمهورية ألمانيا الفيدرالية ، وما جاء فيهما من نبذ لاستخدام القوة واعترف بالحدود الشرقية لالمانيا الغربية على النحو الذى تمخضت عنه الحرب ، واعتراف جمهورية ألمانيا الفيدرالية بسيادة جمهورية ألمانيا الديمقراطية وتسوية مشكلة برلين • ان هذه التغيرات فى السياسة الخارجية لجمهورية ألمانيا الفيدرالية ماكان من الممكن تحقيقها الا بفضل السياسة السلامية الدؤوبة للاتحاد السوفيتى والبلدان لاشتركية الاخرى ، وهى توضح ان فكرة التعايش السلمى بدأت فى الهيمنة على العلاقات بين البلدان ذات النظم الاجتماعية المختلفة •

●

(٢٩) ف • أ • لينين مجموعة الاعمال ، الجزء ٣٠ ص ٥١ •

# الفصل الثالث عشر

# نقد تفسير التعايش السلمى بأنه المحافظة على الوضع الاجتماعى القائم

كانت البورجوازية الامبريالية تعارض على الدوام نظرية وسياسة التعايش السلمى بين بلدان النظامين الاشتراكى والرأسمالى · وبعد ثورة أكتوبر فى روسيا مباشرة ، تدخلت الدول الاوروبية بهدف سحق أول دولة اشتراكية فى العالم ·

وبعد الحرب العالمية الثانية ، وعندما كانت الولايات المتحدة هى الدولة الوحيدة التى تمتلك الاسلحة النووية لعدة سنوات ، أصبحت فكرة « دحر الشيوعية » هى الهدف الاساسى لسياسة الولايات المتحدة ، وهى سياسة اتجهت الى رفض التعايش السلمى مع البلدان الاشتراكية وتفضيل التهديد الذرى ، وكان الغرض منها هو تحطيم النظام الاشتراكى · ومازالت أصداء هذه السياسة قائمة حتى اليوم فى كتابات بعض غلاة الرجعيين البورجوازيين المتعصبين ·

ورغم ذلك ، فالايام تمضى قدما ، وبفضل القوة المتزايدة والهائلة للاشتراكية تحول التعايش السلمى الى حقيقة واقعة ، ولا يمكن لاى محاولة لتغييره بالوسائل العسكرية الا أن تكون محفوفة بأفدح المخاطر · ونظرا للتأيد الواسع الذى تبديه الشعوب فى مختلف انحاء العالم لمبادىء التعايش السلمى ، يحاول الساسة وعلماء الاجتماع الرجعيين ( وبعض حسنى النية من المضللين ) ان ينتجوا مختلف النماذج البورجوازية من مذهب التعايش ·

ولعل أحدث هذه النماذج وأكثرها شيوعا هو تفسير التعايش السلمى بأنه المحافظة على الوضع القائم ·

ويسعى ايديولوجيو البلدان الامبريالية الى اقناع الرأى العام بأن أى تغيير فى العالم يهدد أمن الغرب · وقد كتب عالم الاجتماع الامريكى جيمس واربورج يقول : « خلق الوضع القائم فى العقل الامريكى الاعتقاد بأن الاوضاع الراهنة شرعية وأن أى تغيير فيها ـ ما لم يكن هذا التغيير فى اتجاه الحفاظ على هذه الاوضاع الراهنة ـ غير شرعى » (١)

---

(١) جيمس ب · وابورج · الغرب فى أزمة ، نيويورك ، ١٩٥٩ ص ١٧٠ ·

ويضارب الايديولوجيون البورجوازيون على الرغبة المخلصة للشعوب في المحافظة على السلام فيحاولون ان يضعوا مبدأ التعايش السلمى فى خدمة الرجعية والاستعمار والرأسمالية ، بتفسيرهم لهذا المبدأ بأنه يعنى المحافظة على الوضع القائم • والهدف المنشود من الدفاع عن الوضع القائم ، كما اثبت الباحثون السوفييت بكل وضوح ، ليس هو المحافظة على السلام ، وانما هو المحافظة على الرأسمالية • والغرض الذى تسعى اليه مختلف التفسيرات البورجوازية للوضع القائم لايعدو فى الحقيقة الا أن يكون سلسلة من المحاولات لتخليد الرأسمالية وانتزاع الضمانات من الحكومات الشيوعية باستمرار للنظام الرأسمالى فى البلدان التى مازال يعيش فيها حتى الان •

ومن الواضح انه لايمكن لاى سياسى متعقل فى الغرب أن يصدق ان الدول الاشتراكية ستقدم حقا مثل هذه الضمانات • وعندما يفسر الايديولوجيون البورجوازيون التعايش السلمى بأنه هو المحافظة على الوضع القائم فهم يسعون الى اهداف سياسية ثلاثة أكثر واقعية : أولا ، الهدف الخاص باحتواء واضعاف الحركات الثورية فى البلدان الرأسمالية بزعم دعم التعايش السلمى ، وثانيا ، الهدف الخاص باضعاف نضال البلدان الرأسمالية فى المجال الدولى ضد السياسة الامبريالية استنادا الى نفس الزعم ، وثالثا الهدف الخاص بتحديد سياستها العدوانية للتدخل فى شئون الغير على أساس ان الصراع الطبقى مستمر فى المجال الدولى وداخل كل بلد على حدة •

## الوضع القائم ومحاولات منع التقدم الاجتماعى فى كل بلد على حدة

يحاول الايديولوجيون البورجوازيون، عند تفسيرهم للتعايش السلمى بأنه يعنى المحافظة على الوضع القائم ، أن يطبقوه فى مجال العلاقات الطبقية ، أى على العلاقات داخل البلدان الرأسمالية حتى تحرم الطبقات والامم المقهورة من الحق فى النضال من أجل تحررها ، والحق فى الثورة ، بزعم المحافظة على السلام • على هذا النحو يكتب عالم الاجتماع الامريكى ل • بيرلا ليقول : « لاننا نوافق بشكل عام على الوضع القائم فى المناطق غير الشيوعية ، فنحن نتخذ موقفنا على أساس أن أى تغيير فى هذه المناطق يعرض الامن للخطر »(٢) بينما يعلن زميله جورج كاتلين ان التعايش السلمى يفترض « السلام الاهلى » أى التهادن بين الطبقات فى كل بلد على حدة •

وعند هذه النقطة فلابد لاى شخص مفكر من ان يتعجب لهذا الربط بين الاحداث التى تجرى داخل البلدان لرأسمالية وبين العلاقات بين البلدان الاشتراكية • ويقدم انصار الوضع القائم الاجابة التالية على هذا التعجب :

---

(٢) ليوبيرلا ، هل يمكننا ان ننهى الحرب الباردة ؟ دراسة فى السياسة الخارجية الامريكية نيويورك ، ١٩٦٠ ، ص ١٠٣ •

«الشيوعيون السوفييت يتحدثون عن حتمية انتصار الاشتراكية فى جميع أنحاء العالم ، وهذا يعنى أنهم يعارضون الوضع القائم ، ومن ثم فهم يعارضون التعايش السلمى » . ثم ينتقلون من ذلك الى القول بأن التعايش السلمى ليس الا مجرد فخ ، أو مناورة ماكرة ، من جانب البلدان الاشتراكية .

ولسنا فى حاجة الى البحث عن المنطق فى مثل هذه الحجج ، فوثائق السياسة الشيوعية ، ربما فى ذلك الوثيقة الاساسية الصادرة عام ١٩٦٩ عن الاجتماع العالمى للاحزاب الشيوعية والعمالية وبرنامج الحزب الشيوعى السوفيتى ، تنص ، والحق يقال ، عن الضرورة الموضوعية للثورة وحتميتها . فبرنامج الحزب الشيوعى السوفييتى يوضح ان « الشعوب يمكنها أن تصل الى الاشتراكية فقط عن طريق الثورة الاشتراكية » ، على أن يكون مفهوما ان هذه الثورة يمكن أن تكون سلمية أو غير سلمية . ومع ذلك ، فالايديولوجيون البورجوازيون يأخذون التصريح بأن الثورة الاشتراكية ضرورة تاريخية ويصورونه بأنه تصدير للثورة ، ويحاولون أن يلقوا بمسئولية النشاط الثورى للجماهير فى أى جزء من العالم على الاتحاد السوفيتى ، موجهين له الاتهام بخرق مبدأ التعايش السلمى .

ولكن القضية ليست مجرد أن أنصار . نظرية الوضع القائم يوجهون اتهامات لا اساس لها من الصحة على الاطلاق للبلدان الاشتراكية ، وانما القضية هى أن هذه النظرية برمتها غير علمية ومنفصلة تمام الانفصال عن الواقع . فهى تستند الى الفرض الزائف بأن الثورة لم تعد ضرورة ، فاريك ستشويك ، الذى يمثل مصالح دوائر رجال الاعمال فى بون يقول فى كتابه ، « الثورة العالمية التى عفى عليها الزمن » ، بأن بلدان الغرب حققت مستوى عال من الرفاهية وقدرا عظيما من الحرية السياسية لدرجة لم تعد هناك معها اى حاجة للثورة (٣) . أما الزعيم الاشتراكى الفرنسى ب . رامادييه فيلاحظ فى اغتباط أن برامج أغلب الاحزاب الاشتراكية فى غرب أوروبا لاتؤيد بالضرورة « مفهوم الثورة والمجتمع الاشتراكى » (٤)

ولو فرضنا أن الوضع القائم يمكن المحافظة عليه لفترة غير محددة لكان معنى ذلك الاخذ بوجهة نظر غير علمية ورفض الطبيعة التقدمية للتطور التاريخى .

والثورة حتمية فى مرحلة الرأسمالية بكل ماتحمله كلمة الحتمية من معنى ، بنفس الدرجة التى كانت بها حتمية فى أى مرحلة سابقة . وعلى أى الاحوال ، فمهما تحقق فى المجتمع الرأسمالى من تغيرات ، ومهما تكيف عن طريق الاصلاحات ، فسوف يظل رأسماليا فى جوهره طالما بقيت الملكية الفردية لوسائل الانتاج واستغلال الانسان للانسان . ان القضاء على الملكية الفردية والاستغلال هو وحده الذى يهيىء السبيل للانتقال الى الاشتراكية ،

---

(٣) اريك ستشويك ، عن حتمية الثورة ، دوسلدورف ، ١٩٦٩ .

(٤) بول رامادييه ، الاشتراكيون وممارسة السلطة ، باريس ، ١٩٦١ ص ١١٠ .

وانه لمن المستحيل تحقيق هذا الانتقال عمليا عن طريق الاصلاحات ، أو بدون اللجوء الى التحولات الثورية الجذرية ٠

لقد دخل العالم الان مرحلة تاريخيـة للانتقـال من الرأسـمالية الى الاشتراكية ٠ وبعد البلدان الاشتراكية الاربع عشرة ، طفق عديد من الدول المستقلة الفتية يشق طريقه الثورى الخاص نحو الاشتراكية ٠ ويؤكد التاريخ من جديد انه مهما كانت درجة نضوج الشروط اللازمة لاقامة النظام الاجتماعى الجديد ، ومهما كان الوضـع مواتيا ، فالتحول لايمكن تحقيقه عمليا الا عن طريق الثورة ، سلمية كانت أم غير سلمية .

أما بالنسبة لسياسة التعايش السلمى فهى تقوم على أساس مجموعـة من المبادىء التى تجعل من الممكن تجنب الصدام الخطير فى مجرى تطور العمليات الثورية داخل كل بلد على حدة ٠

من هذه المبادىء مبدأ حق تقرير المصير ، أى الاعتراف بحق كل شـعب وأمة فى أن يقررا فى حرية جميع المسائل المتعلقة بشئونهما الخارجية الخاصة بما فى ذلك ، الحق فى الانفصال وتكوين دولة مستقلة وبشئونهما الداخلية ، بما فى ذلك اختيار نظامها الاجتماعى والسياسى الخاص بهما ٠ وقد حظى هذا المبدأ ، الذى صاغه وقدمه الحزب الشيوعى السوفيتى قبل ثورة أكتوبر كمبدأ سياسى بالاعتراف الرسمى من جانب الدول كافة ، وأصـبح من القواعـد الاساسية للعلاقات الدولية ٠ ويعنى تضمينه فى ميثاق الامم المتحدة ( المادة ١ ـ ٢ ) انه لا الامم المتحدة نفسها ، ولا اعضاؤها قد تعهدوا بضمان الوضع السياسى أو الاقتصادى ـ الاجتماعى أو الاقليمى القائم فى أى دولة (٥) ٠ ولما كان الهدف الاساسى للامم المتحدة هو دعم السـلام العالمى فمن الواضـح أن تحقيق هذا الهدف يمكن أن يتوهم بأنه مضاد لاى تغيير ٠

وربما استغلت البلدان الامبريالية الاحداث الثورية فى مختلف البلدان كذريعة للتدخل فى شئونها الداخلية ، وربما أدى ذلك الى اجراءات مضـادة من جانب البلدان الاشتراكية ٠ ولهذا السبب يعتبر مبدأ عدم التدخل ، والذى يطبق على جميع البلدان ، من صلب المبادىء التى تتضمنها سياسة التعايش السلمى ٠ وكثيرا ماتخرق البلدان الامبريالية هذا المبدأ ، ولكن هذا الخرق يواجه على الدوام بالادانة الحادة من جانب الشعوب فى مختلف أنحاء العالم ، ويجبر المتدخلون على أن يضعوا ذلك فى اعتبارهم ، وغالبا مايجبرون حتى على التراجع ٠ وقد اثبتت المحاولات المتكررة من جانب أنصار ايديولوجية التدخل لتشويه مبدأ عدم التدخل عقمها وفشلها ٠ وتبذل الاغلبية السـاحقة من الدول وبخاصة البلدان الاشتراكية والدول الفتية ، والتقدميين فى كل مكان كل مافى مقدورهم من أجل الدفاع عن هذا المبدأ كمبدأ يتلاءم مع الاوضـاع الراهنة للتقدم الاجتماعى ، فمبدأ عدم التدخل يفيد كلا من قضية السلام ودعم السيادة القومية لكل دولة ٠

---

(٥) ج ب ٠ زادوروزنى ، التعايش السلمى ، موسكو ، ١٩٦٨ ٠

ويتيح حق تقرير المصير ومبدأ عدم التدخل ، جنبا الى جنب مع المبادىء الاخرى للتعايش السلمي ( المســـاواة ، والفهم والثقة المتبادلة بين الدول ، ووضع مصالح الاخرين فى الاعتبار ، واحترام الســـيادة ووحدة الاراضي وتطوير التعاون الاقتصادي والثقافي على اساس المســـاواة الكاملة والمنفعة المتبادلة ) (٦) ، فرصـــة حقيقية لصـــيانة السلام فى مرحلة تجرى فيها التحولات الثورية التقدمية في داخل مختلف البلدان · وقد تأكد ذلك مرارا وتكرارا فى الواقع العملي · ففى مرحلة ما بعد الحرب اشتعلت ثورات التحرير الوطني فى عديد من البلدان ، وتحققت الثورات الاشتراكية فى شرق أوروبا ، والصين وفيتنام ، وكوبا ، ومع ذلك فلم تؤد أى ثورة من هـذه الثورات الى حرب عالمية · واذا كانت بعض هذه الاحداث قد أدت الى زيادة حدة التوتر الدولى ، فانما كان مرجع ذلك بكل بســـاطة الى التدخل من جانب الدول الامبريالية في الشئون الداخلية للبلدان الاخرى ، لان التدخل الاجنبى يؤدى بالضرورة الى تدهور الموقف الدولى ، بصرف النظر عن الذرائع التى يستمدها هذا التدخل من الاحداث الثورية أو غيرها ·

وهكذا ، فسياسة التعايش السلمى تستطيع أن تضمن الســـلام بين البلدان الرأسمالية والاشتراكية ، فى نفس الوقت الذى يستمر فيه تعمق العمليات الثورية داخل المجتمعات الطبقية ، ودون أن يتضمن ذلك التخلى عن الصراع الطبقى ·

## ثورة الحرية كوسيلة لتعطيل التقدم الاجتماعى

أقنعت الفكرة القائلة بتحقيق التحول الثورى الجذرى فى العالم بهدف القضاء على القهر والاضطهاد وانعدام المســـاواة القومية والاجتماعية مئات الملايين في مختلف انحاء العالم · وفى كل يوم يتزايد عدد العمـــال ، فى البلدان الرأسمالية المتقدمة · الذين يدركون ان هذا التحول لا يمكن تحقيقه الا على اساس النظرية الماركسية اللينينية للثورة الاشـتراكية · وحتى فى البلدان المتخلفة اجتماعيا ، تقبلت الكتلة الاساسية من الســـكان ، والافراد التقدميون والذين مازالوا عاجزين عن التخلص الكامل من النظرة البورجوازية التقليدية ، بعض جوانب الماركسية ، أو كما حدد لينين ، بعض شعاراتهـــا ومطالبها ·ويمكننا ان نلاحظ فى جميع هذه البلدان تطلعا عاما الى التحـــول الثورى للمجتمع على اساس مبادىء الاشتراكية ، يعبر عنه اختيارها لطريق التطور غير الرأسمالى ·

وفى ظل هذه الاوضـــاع أخذ عديد من أيديولوجيى الغرب فى ادراك استحالة انكار ضرورة التغيير ، حتى مع الزعم بحماية السلام · ويتضـــح افلاس النظرية السلبية الرجعية عن المحافظة على الوضع القائم تمام الوضوح

---

(٦) الطريق الى الشيوعية ، ص ٥٠٦ ·

فى حالة بلدان اسـيا وافريقيا وامريكا اللاتينية التى تتجلى فيها الحاجة الى التغيرات الثورية بشكل لا غموض فيه · ولهذا السبب تتسع عمليات النشر التى تجرى فى مجالى السـياسة البورجوازية وعلم الاجتماع البورجوازى لوليدهما الجديد ، وهو نظرية الثورة « الديمقراطية » أو « ثورة الحرية » والتى تعنى القيام بالاصـلاحات من أعلى عن طريق الجماعات الحاكمة بهدف دعم مراكزها · ويدعى الايديولوجيون البورجوازيون ان « ثورة الحـرية » تتميز بالاعتراف بالحـاجة الى التغيير فى نفس الوقت الذى ترفض فيـه العنف · وهناك عديد من النظريات التى تقدم تحت وصف « ثورة الحرية » ولكنهـا تحمل جميعا هذا الجوهر ·

وفى عام ١٩٧٣ نشر فى الولايات المتحدة كتاب يحمـل عنوان : عالم بلا حروب ، اشتمل على مقالات لعدد من خبراء القانون والفلاسفة والمؤرخين والسـاسة البورجوازيين المشـهورين يسـلمون فيه بحتمية التغييرات الاجتماعية · فمثلا كتب المؤرخ أرنولد توينبى يقول : « السياسة التى تقبل التغيير السلمى وتشجعه شرط ضرورى للتوصل الى عالم بلا حروب » (٧) · وبالرغم من ذلك يحاول جميع المؤلفين فى كافة المقالات ، بشكل أو بآخر ، المراوغة بعيدا عن الموضوع الاساسى وهو : كيف يمكن ان نضمن انجاز جميع التغييرات اللازمة من اجـل التقدم فهم يصرون ، كما يفعـل المحـرر آرثور لارسون ، على ان « من أهم الاشياء بالنسبة لمفهوم التغيير السلمى ككل المبدأ القائل بأن التغيير الحقيقى يمكن تحقيقـه على نحو اكثر فعـالية فى حدود القانون » (٨) · ومع ذلك ، فالقانون البورجوازى يحمى الملكيـة الفردية لوسائل الانتاج ، ومن ثم تصبح الثورة الاشتراكية بناء على ذلك ، عملا غير مشروع بصفتها موجهة نحو تصفية الاستغلال والملكية الفردية ·

وتستخدم البورجوازية الامبريالية شعار « الثورة غير العنيفة » كمجرد وسيلة لخداع الجماهير ، الامر الذى يمكننا ان نلمسه بوضوح فى ديماجوجيه الامبريالية الامريكية ·

وكان جون فوسـتر دالاس ، وزير الخارجية الاسبق فى الولايات المتحدة ، يفهم حتمية التغيير ، بالرغم من انه كان يقلل من شأنه دائما فى نشاطه العملى ، وقد كتب يقول : « التغيير هو قانون الحياة ، الحياة الدولية وكذلك الحياة القومية والحياة الخاصـة · واذا وضـعنا القيود على جميـع التغييرات ، فلابد ان يدهمنا تغيير عنيف ومتفجر » (٩) ·

وقد دفعت الهزائم التى منى بها الامريكيون خلال عدوانهم فى فيتنام وجمهورية الدومينيكان ، والنقد الحاد الذى أثارته هذه السياسة من جانب الرأى العام والحكـومات ، حتى فى البلدان البورجوازية ، دفعت زعمـاء

---

(٧) عالم بلا حروب ، نيويورك ، ١٩٦٣ ص ، ٣٩ ·

(٨) المرجع السابق ص ٥٦ ·

(٩) جون فوستر دالاس . حرب أم سلام ، نيويورك ، ١٩٥٠ ، ص ١٨ ·

الولايات المتحدة الى التوسع في اســـــتخدام نظرية « ثورة الحرية » بعد ان حورها وفقا لمصالحهم الخاصة ·

وفي اواخر واوائل يوليو عام ١٩٦٥ نشرت جريدة نيويورك تايمـــز سلسلة من المقالات الرجعيـــــة عن حروب التحرر الوطني · وعندما راحت الجريدة تجمع المواد للمقالات جاءت بتصريحات للرئيس جونسون ، ولهمفري نائب الرئيس ، ولستفنسون ممثل الولايات المتحدة في الامم المتحدة ، وغيرهم من الشخصيات البارزة حول ضرورة التوصل الى « نظرية ثورية » بديلة عن الثورتين الوطنية التحررية والاشتراكية ·

وهكذا تضـــمن المقال الاول على التعليق الآتي عن الحركة الثورية في امريكا اللاتينية : « تريد واشنطن ان تكون الثورات ديمقراطية وسلمية في ظل التحالف من اجل التقدم · أما الشيوعيون فيسعون الى الثورة من خلال حرب التحرير » (١٠) ·

وقد تمت صياغة نظرية الثورة « الديمقراطية » بالتفصـــيل لاول مرة كسياسة للحكومة الامريكية في خطاب القاه دين راسك ، وزير الخارجيـــة آنذاك ، في ندوة عقدت بجامعة تينيسي في شهر مايو ١٩٦٢ · وفي هـــــذا الخطاب قدم راســــك بعض الاعترافات الغريبة معلنا ان « ثمة قوى ثورية عظيمة تمارس عملها في عصرنا » ، وان هذه « القوى الهائلة ، المتنازعة غالبا ، تضغط من اجل التغيير » ثم راح يردد نداء الرئيس « باستعادة قيادتنا لثورة الحرية ، وبأن نضيف اليها قيادتنا لثورة التقـــدم الاقتصـــادي والاجتماعي » (١١) · ولتصريحات راســــك اهميتها لانها تمثل البرنامج السياسي للحزب الديمقراطي فيما يتعلق بالعملية الثورية العالمية الجارية ·

فما جوهر هذه السياسة ؟

لم يكن راسك على استعداد للاعترافات بوجود تفجرات ثورية في اسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية مدعيا انها مجرد مسألة « ثورة صناعية » ، وكان يحاول برفضه الاعتراف للحركة الثورية في البلدان الاقل تطورا بأي اهـــداف سوى تلك الاهداف الخاصة « بالثورة الصـــناعية » وبتجاهله للحقيقة التي تؤكد ان هذه الاهـــداف بعيدة المدى ، وتمتد الى ابعاد اعمق مما يحاول ان يحدد ، كان يحاول بذلك ان يقلل من اهمية القلق الشعبي – هذا التقليل الذي يعتبر خدعة العصر المفضلة للدوائر الامبريالية الحاكمة · ولكن الواقع ان الاحداث في اسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية ليست انفجـــارات ثورية معزولة تنشب بسبب « الفقر » كما يريد لنا راسك ان نصدق ، وانما هي ثورة اجتماعية : فالثورة المعادية للاستعمار لا تهدف فقط الى القضاء على القهر الاجنبي والسيطرة الامبريالية وانما هي تهدف في نفس الوقت الى تحقيق تحولات اجتماعية بعيدة المدى ·

---

(١٠) نيويورك تايمز ، ٣٠ يونيو ١٩٦٥ ·

(١١) نيويورك تايمز ، ١٢ مايو ١٩٦٢ ·

ان راسك يرفض الاعتراف بالحركة الثورية للطبقة العاملة العالمية ونتاجها الاساسى ، النظام الاشتراكي العالمى ، ويبذل قصارى جهده لوصمها بانها « ثورة العنف المضادة » . وراسك يعلم جيدا ، كمدرس سابق لعلم الاجتماع ، أن عبارة « ثورى » لاتنطبق الا على تلك القوى التى تطيح بالنظام القديم الذى ولى زمنه ، بينما تنطبق عبارة « مضاد للثورة » على تلك القوى التى تحاول أن تدافع عن هذا النظام ، ولكن راسك لايدقق كثيرا فى تعريفاته طالما أنها تخدم غرضه .

وربما كان من الممكن ان نلتمس العذر لراسك لفشله فى التمشى مع مبادىء المنطق الاولى لانه أخذ على عاتقه مهمة الدفاع عن نظام حكم عليه التاريخ بالدمار . وهو يرفض الثورة الاشتراكية على أساس انها تنفذ عن طريق القوة ، ومع ذلك فليس من الصعب عليه أن يدرك أنه ما من ثورة كبرى فى التاريخ انتصرت بدون استخدام القوة ، لان الطبقات الحاكمة الزائلة لم تتخل مختارة أبدا عن مراكزها الممتازة . فالثورة الامريكية ، التى يدعى زعماء الولايات المتحدة أنهم ورثتها ، لم تنتصر الا بعد نضال مسلح شرس ، وتتضمن وثيقة برنامجها ، « اعلان الحقوق » ــ وبالمناسبة فقد اقتبس منه راسك فى بعض الفقرات فى خطابه ــ تصريحا يقول : « خلق جميع الناس متساوين .. والحكومات تنبع من بين الناس ، وتستمد سلطتها العادلة من رضا المحكومين .. وفى أى وقت يتحول فيه أى شكل من أشكال الحكومة الى عنصر مدمر لهذه الغايات ، يصبح من حق الشعب أن يغيرها ، أو يقضى عليها » .

وربما كان على راسك أيضا أن يتذكر كلمات توماس جيفرسون « العصيان الصغير » من وقت لاخر ، شىء طيب ، وهو ضرورى فى عالم السياسة كما هو الحال بالنسبة للرياح فى عالم الطبيعة » . وقد جرت العادة بزعماء الولايات المتحدة وأيديولوجييها على تناسى هذه الكلمات ، وذلك لاسباب واضحة ، وبالرغم من أن قائلها هو أحد القادة العظام للثورة الامريكية والذى كثيرا مايقسمون على الاخلاص لمبادئه . فكيف يمكن لاى فرد أن يدعى الوفاء لقضية الثورة الامريكية بينما هو يرفض فى نفس الوقت ان يستخدم القوة التى كانت شرطا أساسيا لتأمين انتصارها ؟ .

ويذهب راسك أبعد من ذلك الى حد القول بأن الثورة الاشتراكية تنفذ « ضد ارادة الاغلبية » ، وبدون تأييد الجماهير ، وذلك عن طريق « تنظيم تآمرى محكم » . وعلى أى الاحوال فراسك بهذا القول يمثل قدرا معينا من التقدم بالنسبة لما كان يدعيه اعداء الاشتراكية فى وقت من الاوقات من أن النظام الاشتراكي لايتحقق الا على « اسنة رماح الجيش الاحمر » ، فلقد أخرس انتصار الثورة فى الصين وفيتنام وكوبا بالطبع أولئك الذين يروجون لهذا الرأى ، ولكن الفكرة القائلة بأن الثورة الاشتراكية يمكن أن تنفذ بدون تأييد الجماهير ( عن طريق تنظيم محلى متآمر ) لايمكن ان تؤخذ مأخذ الجد من جانب كل من يحسن التفكير . وراسك نفسه يعترف بأن الشيوعيين ، قد حققوا السيطرة على ١٨ أمة ، أو اجزاء منها ، عن طريق حوالى مليون شخص

وكيف أمكن للشيوعيين · الذين بدأوا من حزب ثورى صغير فى روسيا ، والذين ووجهوا بمقاومة العالم القديم كله وهو كامل التسلح ، ان يحققوا مثل هذا الانتصار الملحوظ بدون تأييد الجماهير ؟ ان الامر على هذا النحو يبدو كما لو كان من اختراع قوة فوق الطبيعة ـ قوة لابد وأن تكون مناصرة للشيوعية ·

والان ، فهيا بنا نلق نظرة على نوع « الثورة التى يدعو اليها مستر راسك · يقول هذا المفهوم عن الثورة وبكلمات راسك نفسه « انها بسيطة على نحو بالغ الروعة : ولقد حددها توماس جيفرسون ببراعة لن ينال منها الموت أبدا » · وراسك يتحدث بغموض عن افضلية تطبيق بعض المبادىء العامة للثورة الامريكية فى البلدان الاخرى ، دون ان يذكر كلمة واحدة عن مراعاة هذه المبادىء داخل بلاده · فهل يعزى ذلك الى أنه كان يشغل منصب وزير الخارجية فى ذلك الوقت ؟ · ولكن مهما كانت احتمالات صحة هذا التفسير ، فهناك أيضا عديد من التفسيرات الاخرى لموقفه ·

والهدف العام لسياسة « ثورة الحرية » كما ورد فى خطاب راسك أبعد مايكون عن الغموض ، انه « توحيد الامم فى أسرة عظيمة واحدة من البشر » · وعلى أى الاحوال فالمهام السياسية الخاصة الست التى يحددها راسك لهذه « الثورة » تمكننا من أن نكون فكرة واضحة تماما ·

فالمهمة الاولى هى اقناع شعوب البلدان النامية بأن اقصر طريق للتقدم ليس هو طريق الشيوعية وانما هو طريق الرأسمالية ، ولنبين لهذه الشعوب ماذا انجزت الشعوب الحرة ومازالت تنجز فى ظل الحرية » · والبرهان الذى يقدم لاثبات ذلك هو التطور الاقتصادى الذى تحقق فى ولايتين من ولايات الجنوب بالولايات المتحدة الامريكية نتيجة للمشروعات الهيدرو تكنيكية فى وادى تينيسى · وراسك تخنقه العبرات عندما يتذكر أيام طفولته التى قضاها فى هذه المناطق فيقول « وانه لامر بالغ الدلالة أن نذكر أن الجهاز المدنى لاستصلاح الاراضى كان يستخدم الاولاد فى الثلاثينيات لزراعة الاراضى البور التى نجدها اليوم وقد أصبحت توفر فرص العمل : ( فى صناعة الغابات ـ المولف ) · ولكن الواقع ان الصورة التى يرسمها راسك لايمكن أن يكون لها تأثيرها على البلدان المتخلفة · فأولا ، وكما يعترف راسك نفسه ، نجد أنه فى الثلاثينيات ، أى بعد أكثرمن مائة سنة من التطور الرأسمالى · كان ثلث السكان فى تلك المنطقة يعانى من الملاريا ، وكانت البطالة تجبر الناس على قبول أى نوع من العمل ، حتى أكثره حقارة · وبمتوسط دخل سنوى ١٦٨ دولارا ، أى على المستوى الذى نجد عليه الحال اليوم فى أقل البلدان تطورا · وأكثر من ذلك · وبالرغم من الاستثمارات الرأسمالية الهائلة ، والتى كانت أوسع بكثير مما هو فى مقدرة البلدان الاقل تطورا ، فمازال متوسط الدخل فى المنطقة يمثل ٦٥٪ بالنسبة لمتوسط الدخل القومى · وقد احتاجت الرأسمالية الى ١٨٠ سنة حتى تصل الى هذا الوضع ، بينما تريد البلدان الاقل تطورا اليوم ان تصل الى مستوى البلدان المتقدمة فى مدى جيلين فحسب ·

والمهمة الثانية هي « الاحتفاظ بقوات كبيرة متنوعة قادرة عـــلى التصدي لمختلف أنواع التحديات · وينبغي أن تكون لدينا القدرة على مساعدة الامم الحرة الاخرى في الدفاع عن نفسها ضد حرب العصابات وغـــيرها من أنواع الهجوم المخرب » ··

وهكذا نلتقي باعتراف صريح بالهدف الحقيقي من « ثورة الحـــرية » ، وهو سحق الحركات الثورية التي تهدف الى التحرر من الامبريالية والقهر الاجتماعي · ولقد شهد العالم بالفعل كيف تساعد حكومة الولايات المتحـــدة بلدان العالم » للدفاع عن نفسها ضد هجمات العصابات » ، ولم يكن تنظيم التدخل الواقع في كوبا الثورة ، والتدخل المســلح في شـــئون جمهورية الدومينيكان ، والحرب السافرة ـ وان لم تكن معلنة ـ ضـد شـعوب الهند الصينية ، وتأييد الاســتعماريين البلجيكيين والبرتغاليين والبريطانيين في سحق الحركات الوطنية التحررية في الكونغو وانجولا وعمان ، والعدوان في الشرق الاوسط لم تكن كل هذه الوقائع سوى بعض الامثلـــة التي تمثل قطرات في محيط الاجراءات الامريكية لوقف العملية الثورية العالمية خـلال السنوات القليلة الماضية · ان الولايات المتحدة لاتتصرف كقوة ثورية ، وانمـا كرجل شرطة عالمي ·

أما المهمة الثالثة فهي « دعم العلاقات بين الامم التي وصلت الى مستوى عال من التصنيع بالفعل ، مثل حلفائنا في غـــرب أوروبا وكندا واليابان » وراسك لايحاول التستر على الحقيقة الواضـــحة من أن الدوائر الحاكمـــة الامريكية عندما تقدم كل تأييدها لاقامة سوق رأسمالية مشتركة فهي انمـا تسعى لتحقيق مآربها الاستراتيجية والاقتصادية الخاصة · وهو يعترف بأن اقامة « نظام للاعتماد المتبادل » بين الولايات المتحدة الامريكية والســـوق المشتركة يمكن أن يؤدي الى « دعم قوة الدول الصناعية الكبرى في المستقبل القريب »·

والمهمة الرابعة هي « المشاركة طـويلة الاجل مـع البلدان الناميـة في أمريكا اللاتينية وافريقيا واسيا لمساعدتها في خططها الهادفة للاستمرار في ثورة التقدم الاقتصادي والاجتماعي » · ولكن من الواضح مما يقوله راسـك ان حكومة الولايات المتحدة ليست مهتمة بالتطور ، وانما بالحد من الثورة ، لانه يعلن فيما عدا استثناء أو استثناءين ·· فقد برزت أزمة العقد الماضي في المناطق المستقلة حديثا من العالم » ، والنتيجة التي ينتهي اليها راسك هي ان مهمة الولايات المتحدة ، ينبغي ان تكون هي وضع العراقيل في طـــريق عملية التحرر الوطني ، ووقف تطور العمليـــة الثورية في البلدان المتحررة حديثا ، واجبارها على الاستمرار داخل اطار النظام الرأسمالي العالمي · ووفقا لما يذهب اليه راسك « فمستقبل العالم ، وسلامنا ورفاهيتنا ، سوف يعتمد كل ذلك في الاغلب ، وبالتأكيد » على مدى نجاح أمريكا في انجاز هـــذه المهمـــة ·

وأما المهمتان الخامسة والسادســة واللتان تتمثلان في جـــذب بلدان جديدة الى « المشاركة الحرة » من نوع حلف شمال الاطلنطي وحلف جنوب

شرقي اسيا ، والمساعدة على مجيء ذلك اليوم الذى تعود فيه الراسمالية الى البلدان الاشتراكية وان « تنضم الى اطار الحياة المشتركة لمجموعة بلدان الشعوب الحرة » فهما من الرجعية السافرة بحيث نرى أنه من الاهانة لذكاء أى شخص أن يقبلها كمهام « ثورية » .

وتوضح تصريحات راسك ، ناهينا عن تصرفات حكومة الولايات المتحدة ، ان هناك أكثر من ثغرة فى المحتوى الثورى لشعار « ثورة الحرية » فزعماء الولايات المتحدة لايلجأون الى التذكير بالتقاليد الثورية المجيدة للشعب الامريكى الا بهدف التستر على سياستهم الرجعية للمحافظة على الوضع الرأسمالى والاستعمارى القائم .. لدرجة أن مؤرخا بورجوازيا عظيم الاحترام مثل أرنولد توينبى يجد نفسه مضطرا للاعتراف بان أمريكا التى كانت أمة ثورية فى يوم من الايام ، « هى اليوم زعيمة الحركة المضادة للثورة دفاعا عن المصالح المكتسبة فى جميع انحاء العالم » (١٢) . وأكثر من ذلك نجده يكتب ليقول : « اعتقد ان امريكا قد غيرت دورها فى العالم الى نقيضه منذ عام ١٩١٧ ، لقد تحولت الى قمة رجعية بعد أن كانت قمة ثورية . والاغرب من ذلك انها تخلت عن دورها المجيد للبلد الذى كان قمة للرجعية فى القرن التاسع عشر ، للبلد الذى راحت أمريكا تنظر اليه منذ عام ١٩٤٦ ، باعتباره العدو الاول لها . لقد تخلت أمريكا عن هذا الدور الثورى التاريخى وقدمته هدية الى روسيا » (١٣) . ويستمر أ . توينبى فى حديثه موجها الكلام الى الزعماء الامريكيين فيقول : « وخلال السنوات الاربع والاربعين الاخيرة ، واصلت ثورتكم مسيرتها بدونكم ، وانتقلت القيادة الى أيد أخرى . ان هذه الايدى غير الامريكية ماكانت لتستطيع أبدا ان تمسك بزمام ثورتكم لولا تخليكم أنتم عنها » (١٤) .

وقد اعترفت بذلك أيضا جريدة نيويورك تايمز فى مقال افتتاحى لها حول موضوع الثورات « الديمقراطية » فى النضال ضد حروب التحرر الوطنى . فمنذ ثلاث سنوات ( وردت بالجريدة ) هذه السطور التى تقول : « وللولايات المتحدة أيضا شهرة تستحقها فى بعض الاحيان بانها المدافع عن الوضع القائم ، أى عن الرأسمالية كما نفسرها ، وعن الديمقراطية فقط فى الشكل الذى نعرفه ، وبأنها تعارض الاصلاح الاجتماعى اذا جاء من جهة اليسار ،وبأنها تتقبل باغتباط أى انقلاب — يأتى من جهة اليمين » (١٥) . وقد ظهرت هذه السطور بعد مايزيد على ثلاث سنوات من مناداة مستر راسك ، وزير الخارجية انذاك ، بنظرية « ثورة الحرية » كسياسة خارجية رسمية للولايات المتحدة ، وهى تفيدنا — هذه السطور — لتوضيح ان هذه السياسة فى التطبيق العملى لم تكن اكثر من سياسة الهراوة الغليظة . وهذا

---

(١٢) أ . توينبى ، امريكا والثورة العالمية ، نيويورك — لندن ١٩٦٢ ، ص ٩٢ .

(١٣) المرجع السابق ، ص ١٠٢ .

(١٤) المرجع السابق ص ١٥٠ — ١٥١

(١٥) نيويورك تايمز ٣ يوليو ١٩٦٥ .

امر مفهوم ، لان المحتوى اللبرالى للنظرية ( المطالبة بالعدالة الاجتماعية للمحرومين من الامتيازات ، وبالاصلاحات الديمقراطية ٠٠ الخ ) لايمكن أن يكون أمرا عمليا فى نطاق النظام الرأسمالى ، بينما الجانب العملى منه ( قهر العدوان الداخلى والدفاع عن الملكية الحرة ٠٠ الخ ) لاعلاقة له بالثورة أو الحرية ٠

## المطالبة بالكف عن الصراع الطبقى فى مجال الشئون الدولية

وعلى أى الاحوال فالتعايش السلمى لايعنى وقف الصراع الطبقى بين النظامين الاجتماعيين المتعارضين فى مجال العلاقات الدولية ٠ فالقوانين الموضوعية لتطور المجتمع المركب من طبقات متناقضة لاتنطبق على الحياة الداخلية للامم فحسب ، وانما تنطبق أيضا على النطاق العالمى ، ومحاولات علماء الاجتماع الغربيين لتفسير التعايش السلمى بأنه اعتراف بحتمية الوجود « الابدى » للنظامين ليست الا محاولات غير واقعية وغير علمية » ٠ (١٦)

والمسألة الجوهرية فى التعايش السلمى هى أنه يضمن عدم ممارسة الصراع الدولى عن طريق الوسائل العسكرية ، وان يقتصر على مجال الاقتصاد والسياسة والايديولوجية وبالتالى لايهدد حياة ورفاهية الشعوب ٠ ومن الناحية الاخرى يستند انصار الوضع القائم ، فى هجومهم على التعايش السلمى ، الى أنه يتضمن الصراع متجاهلين السمة الاساسية لهذا الصراع ، أى طبيعته السلمية ٠

وقد بلغ الفزع بالساسة الغربيين ، وبخاصة فى الولايات المتحدة ، من مجرد فكرة التغيرات الثورية درجة جعلتهم على استعداد ، كما يلاحظ عالم الاجتماع واربورج لان يروا فى أى تغيير فى العالم تهديدا لامن دولتهم ٠ (١٧)

والواقع ان الايديولوجيين الغربيين انما يطالبون فى الحقيقة بأن تلتزم الدول الاشتراكية بامتناع عن تأييد الحركات الثورية و « عدم السماح » للثورات بأن تحدث فى العالم الرأسمالى ، بل وأن تتعاون مع هذا العالم عمليا لكبت مثل هذه الهبات الثورية من جانب الجماهير ، وذلك كشرط لموافقتهم على التعايش السلمى ٠ وقد نادى لورد دوجلاس هيوم ، وكان فى ذلك الوقت وزيرا للخارجية البريطانية ، فى اجتماع لحزب المحافظين فى

---

(١٦) أنظر السياسة الخارجية للاتحاد السوفييتى ، ص ٤٠٥ — ٤٠٥ ب باستد ، الاسس القانونية والاخلاقية للتعايش السلمى « المنشورة فى مجلة الشئون البرلمانية ، رقم ١ ١٩٥٥ ، ص ٧ ، فيشرجالاتى ، « السياسة الخارجية السوفييتية فى شرق أوروبا » فى التاريخ المعاصر نوفمبر ١٩٥٩ ، ص ٢٧٨ ٠

(١٧) ج ٠ واربورج ، الغرب فى أزمة ، ص ١٧٠ ٠

بكنجها مشير انه يتعين على البلدان الاشتراكية ان تقدم الضمانات للغرب ، اولا بأنه لن تكون هناك ثورات في البلدان الرأسمالية ، وثانيا بانهـا سوف تكف عن الصراع الطبقى فى المجال الدولى ٠

ولكن التعايش السلمى ليس الا نتيجة لظهور الدول الاشـــتراكية على المسرح العالمي كدول محبة للسلام بحكم محتواها الطبقى ، وكنتيجة لعلاقات القوى القائمة بين الاشتراكية والراسمالية . ولذلك فالغرب ليس فى الموقف الذى يملى فيه شروط التعايش .

والايديولوجيون الامبرياليون ( من امثال الامريكيين ج . هازارد و ب . رينولدرز ، وعالم الاجتماع الفرنسى ر . أرون ) يتناولون سياســة التعايش السلمى من موقف الكف عن الصراع الطبقى .

وهم يصفون التعايش السلمى بأنه نظرية « ماركسية مغرضـــــة » تتعارض كلية مع المفهوم « الموضوعى غير الماركسى » للتعاون السلمى .

على هذا النحو يكتب ر . أرون و ب . رينولدرز ليقولا :

« والتعايش السلمى يستمد أصوله من فلسفة للصراع الطبقى يستمر الاصرار عليها على المسرح الدولى الى درجة لا تبقى هناك معها اى علاقة الا علاقة العداء بين الدول ذات النظم الاقتصادية المختلفة ، بينما يستمد التعاون السلمى أصوله من فلسفة المجتمع الاخلاقى والمصالح المشتركة » ٠ (١٨)

وفكرة احلال « التعاون السلمى » محل « التعايش السلمى » ، والتى هى من افرازات الصراع الطبقى ، غير عملية على الاطلاق وغير مقبولة علميا بالرغم مما تتمتع به من جاذبية كبرى بالنسبة للساسة البورجوازيين ٠

والبلدان الراسمالية نفسها ليس لديهـــــا أى نية للتخلى عن الصراع الطبقى فى المجال الدولى ٠ فالبرجوازية الامبريالية مازالت تأمل فى تقويض النظام القائم فى البلدان الاشتراكية وفى حرف الجماهير فى البلدان الراسمالية عن الثورة الاشتراكية عن طريق الدعاية المغرضة وحملات التشـــويه . وكتاب « النزاع طويل الاجل » ، الذى الفته مجموعة من أعضاء معهد الشئون الخارجية بجامعة بنسلفانيا يصف التـــأثير الايديولوجى على المواطنين فى البلدان الاشتراكية بأنه مهمة استراتيجية كبرى ينبغى انجـازها عن طريق الدعاية « لنمط الحياة فى الغرب » بكل الوسائل الممكنة مثل تبادل الزيارات السياحية والطلابية ، والدعاية اللاسلكية ، وما الى ذلك .

والصراع الطبقى قانون موضوعى للتطور الاجتماعى حيثمـــا وجدت التناقضات الاجتماعية ، فلا يمكن أن يكون هناك سلام طبقى بين المستعمرات والدول الاستعمارية ، أو بين الدول الفتية والاحتكارات الامبرياليـــة التى

---

( ١٨ ) ر ٠ أ ٠ ارون و ب ٠ أ ٠ رينولدرز ، « التعايش السلمى والتعاون الدولى » دراسات سياسية ، أكتوبر ١٩٥٦ ، المجلد ٤ ، رقم ٣ ، ص ٢٨٩ ٠

نمسك بها بين قبضاتها ، ولا بين المعتدين وضحايا العدوان . وحتى بين الدول البورجوازية التى تنتمى لنفس النظام الاجتماعى ، فثمة صراع لا يتوقف وهو صراع قد يؤدي الى الحرب من وقت لاخر ، فكيف يمكننا ان نتوقع توقف المنافسة الاقتصادية والصراع السياسى والايديولوجي بين دول تنتمى لنظم اجتماعية متناقضة ، وبخاصة عندما تتبع البلدان الامبريالية — كما سنوضح — سياسة تهدف الى تدمير النظام القائم فى البلدان الاشتراكية وعودة الرأسمالية ؟ وطالما وجدت البلدان الامبريالية فى العالم ، مسببة الحرب والبؤس والفقر والاستعباد والاستغلال ، فلا يمكن لشعوب البلدان الاشتراكية ، التى تعلمت بروح الامية البروليتارية ، أن تكف عن النضال ضد جرائمها . ولنلق الآن نظرة على المجالات الثلاثة الاساسية التى تخوض البلدان الاشتراكية فيها هذا النضال ، وهى المجالات الاقتصادية والسياسية والايديولوجية .

أما بالنسبة للتنافس الاقتصادى ، بين النظامين فهو ليس حتميا فحسب ، وانما هو ايضا فى مصلحة شعوب البلدان على كلا الجانبين . فالتنافس الاقتصادى غير المحدود ، والذى لا قيود عليه ، هو الطريق السلمى الاوحد فى ظل الاوضاع الراهنة لحل القضية التاريخية لعصرنا وهى : اى النظامين — الراسمالى أم الاشتراكى — هو الافضل . وعلى المدى الطويل، وبعد كل شىء ، فسوف يكون الانتصار من نصيب النظام الذى يضمن للانسان حياة افضل ، أى النظام الذى يشبع احتياجاته المادية والروحية بشكل أكمل . وان حتمية وضرورة التنافس الاقتصادىبين النظامين لواضحتان لدرجة أن عديدا من أكثر ساسة الغرب ذكاء يعترف بها .

ويهدف الصراع السياسى الذى يخوضه المعسكر الاشتراكى فى مجال العلاقات الدولية الى تأمين التقدم القومى والاجتماعى والاقتصادى الحر لجميع الشعوب ، فى ظل أوضاع يتم فيها نبذ الحرب العالمية والتدخل الاجنبى . والبلدان الاشتراكية تحاول أن تحقق ذلك عن طريق زيادة يقظة شعوب العالم ، وفضح الامبريالية وسياستها العدوانية ، واثارة سخط الجماهير ضد دعاة الحرب والامبرياليين ، وجذب المزيد من فئات الشعب الى حركة السلام ، ودعم التعاون مع جميع البلدان التى تنتهج سياسة سلامية ، وهى تقدم تأييدا معنويا وماديا واسعا لقوى السلام ، مثل الحركة العمالية العالمية ومختلف الفصائل المرتبطة بها ، وحركة التحرر الوطنى ، وغيرها من الحركات التقدمية .

والنزاع الايديولوجى الذى تشتبك فيه البلدان الاشتراكية فى مجال العلاقات الدولية نزاع حتمى هو الآخر . فنزاع الافكار الذى يعكس عمليات التطور ويمهد الطريق للتقدم ، يجرى داخل أى مجتمع ، ولكنه حتى علىوجه الخصوص فى المجتمع المتناقض أو فى مجموعة من المجتمعات المتناقضة . والافكار والنظريات السياسية ووجهات النظر التى لا يمكن التوفيق بينها تعكس المواقف المختلفة للطبقات فى عملية الانتاج ، وسوف تستمر فى البقاء والصراع طالما وجدت الطبقات المتناقضة .

والواقع ، أن التعاون السلمي الحقيقي والصراع يوجدان تلقائيا جنبا الى جنب ويرتبط كل منهما بالاخر . وهكذا ، فمن الصعب أن يكون هنـاك تعاون مع حركة السلام دون الصراع في نفس الوقت ضـد أولئك الذين يرفضون أو يشوهون نظرية التعايش السلمي ، مع قوى الرجعية والعسكرية والانتقـام .

والهدف الرئيسي الذى يسعى اليه الايديولوجيون البورجوازيون عندما يطالبون بأن تتخلى البلدان الاشتراكية عن الصراع الطبقي في العلاقات الدولية هو تمزيق سياسة الاممية البروليتارية وأقامة سد بين الحركة العمالية العالمية وحركة التحرر الوطني من ناحيـة ، والنظام الاشـتراكى العالمي من الناحيـة الاخـرى .

والايديولوجيون البورجوازيون يشوهون سياسة البلدان الاشـتراكية ويتهمونها بارتكـاب « الاعمال غير المشروعة » ، وبخرق ميثاق الامم المتحدة ، والخروج على مبادىء التعايش السلمي واستخدام « جميع الوسـائل باستثناء الوسائل العسكرية .. من اجل القضاء النهـائي على النظـام الرأسمالي » ، وبالسعي الى السيطرة على العالم ، وما الى ذلك (١٩)
وهذا التشويه يخدم سياسة الطبقات الحاكمة في البلدان الرأسمالية وعلى هذا النحو يدعى مستر مارتن ، وزير الخارجية في كندا ، في حديث له في اجتماع لفرع مونتريال للجمعية القانونية الدولية ، بأن نظرية التعـايش السلمي زودت البلدان الشيوعية بأساس نظرى للنشاط التخريبي في بلدان « العالم الحر » في نفس الوقت الذى تقيم فيه علاقات طبيعية معهـا .

ولا يمكن للايديولوجيين البورجوازيين الذين يناضلون ضـد الحركات الثورية أن يدعوا أن المبادىء السياسية التقدمية أو الاخلاق تقف الى جانبهم ، ولهذا نجدهم ينقلون مسألة طبيعة أو الرضى بوجود هـذه الحـركات الى مجال القانون الشكلي . ولكنهم عندما ينهجون هذا السبيل فهم يقعـون من جديد في خطأ خطير في التقدير ، لانه اذا فرض أن الثورة تعتبر عمـلا غير مشروع استنادا الى مبادىء القانون الدولي قبل عام ١٩١٧ ، فالقـانون الدولي اليوم ينظر الى المسألة بطريقة مختلفـة الى حد ما . فميثاق الامم المتحدة يعترف بحق كل شعب وأمة في أن تقرر لنفسيهما جميع المسـائل الخاصة بحياتهما الداخلية والدولية ( المادة ١٢ ) . والاعتراف بحق كل أمة في تقرير مصيرها يعني الاعتراف بحقها في تغيير حياتهـا عن طريق الثورة . ان المسألة ليست أن تستمد الثورة أصولها من القانون ، وانما المسألة هي ان يتمشى القانون مع الاتجاهات الموضوعية لتطور المجتمع الانساني . واذا كان

---

(١٩) ولاديسلاو . كولسكى ، التعايش السلمي . تحليل للسياسة الخارجية السـوفيتية شيكاغو ، ١٩٥٩ ، ص ١٨٧ . انظر أيضا ميلتون كوفنر ، تحدى الضمير ، واشنطون ، ١٩٦١ ص ١٠٨ ، واليوت د . جودمان ، المخطط السوفييتي من أجل دولة عالمية ، نيويورك ، ١٩٦١ ، ص ٤٩ .

الامر كذلك ، فثورات التحرر الوطني والثورات الاجتماعية ظواهر تقدمية وقانونية من وجهة نظر المشروعية الدولية .

وفى وقت من الاوقات كان الاتحاد السوفيتى من الدول القليلة التى تدافع عن هذا الرأى ، اما اليوم فاغلبية بلدان العالم توافق عليه ، وهذا فى حد ذاته انتصار كبير . فعندما يصبح أحد المبادىء السياسية معترفا به كمبدأ من مبادىء القانون الدولى وتلتزم به جميع البلدان من الناحية القانونية ، فلاشك ان هذا دليل مقنع على صحته .

وينص اعلان حقوق الانسان على مشروعية حروب التحرير فى ديباجته حيث يقول « ولما كان من الضرورى ، اذا أردنا الا تجبر البشرية فى نهاية الامر على اللجوء الى الثورة ضد الاستبداد والقهر ، ان تتم حماية الحقوق الانسانية بواسطة نظام من القوانين . . . » كما اعترف مؤتمر القاهرة للبلدان غير المنحازه بوضوح بمشروعية حروب التحرير ، وكان اعترافه على نفس الاسس تقريبا التى قال بها الاتحاد السوفييتى فى وثائقه . ويقول بيان القاهرة : « ان عملية التحرر لا يمكن مقاومتها أو ردها .. ويمكن للشعوب المستعمرة قانونا ان تلجأ الى السلاح من اجل ضمان حقها فى تقرير المصير والاستقلال بشكل كامل ، اذا ما أصرت البلدان الاستعمارية على كبت آمالها الطبيعية » .

ومن الطبيعى أن يلقى الاعتراف بمشروعية الثورات ضوءا جديدا على مسألة المساعدات التى تقدمها البلدان الاشتراكية للدول حديثة الاستقلال وللشعوب التى هبت لتحقيق ثوراتها الاجتماعية أو التحريرية الوطنية . فمن ناحية المبدأ يصبح تقديم مثل هذه المساعدات عملا مشروعا ، ولم يعد النزاع يدور اليوم الا على الشكل الذى تقدم به ، وهذه هى وجهة النظر التى تأخذ بها معظم الدول الآن ، وتؤيدها اغلب الدول الافريقية بنشاط ، الى جانب عديد من البلدان غير المنحازه . وقد قرر المشتركون فى مؤتمر القاهرة « أن يعملوا بلا توقف من أجل القضاء على مخلفات الاستعمار ، وأن يوحدوا كل جهودهم من أجل تقديم المساعدات اللازمة والتأييد ــ المعنوى والسياسى والمادى ــ للشعوب التى تقاتل ضد الاستعمار الجديد » ( الجزء الاول ) .

والايديولوجيون البورجوازيون مغرمون بطرح هذين السؤالين الاستفزازيين : هل يتدخل الاتحاد السوفيتى اذا ماوقعت ثورة اشتراكية فى احدى البلدان الراسمالية ؟ وهل سيلجأ الى القوة المسلحة على اساس أن تناقضاته مع الرأسمالية ذات طبيعة غير قابلة للتوفيق ؟ ويمكننا الرد على هذين السؤالين على النحو التالى :

فالمعونات التى تقدمها البلدان الاشتراكية الى الثورات الاشتراكية تتفق مع الاساليب التى يجيزها ميثاق الامم المتحدة ( تأييد الشعوب الثورية المنضمة للامم المتحدة ، وتعبئة الرأى العام والتأييد المعنوى ، الخ ) والهدف الاساسى هو ضمان عدم التدخل من جانب أى طرف فى الشئون الداخلية للبلاد التى بدأت فيها الثورة ( أى معارضة تصدير الثورة المضادة ) . وعلى خلاف

البلدان الامبريالية التى تنظم النشاط التخريبى ضد الحكومة الشرعية ( مثل تدخل الولايات المتحدة ضد الحكومة الكوبية ) فالاتحاد السوفيتى والبلدان الاشتراكية لا ترسل قواتها الى البلاد الاخرى ، ولا تقيم قواعد عسكرية ومخازن للسلاح فى اراضيها ، ولا تنادى بالاطاحة بالنظم القائمة . ان هذه الانواع من النشاط يمكن أن تسهل الى حد كبير من تنظيم العدوان من جانب الامبرياليين .

والاتحاد السوفييتى والبلدان الاشتراكية الاخرى تعارض بكل حزم « تصدير الثورة » ، وترى ان الثورة يمكن أن تنتصر ، وسوف تنتصر ، فى جميع البلدان ، كنتيجة للتطور الداخلى ، ومن خلال النشاط التحريرى للشعب نفسه . ان التناقضات التى لا يمكن التوفيق بينها تعيش فى جميع البلدان الراسمالية وسوف تجد الحل لنفسها ، بطريقة سلمية أو غير سلمية، وفقا للاوضاع فى كل بلد على حدة .

وليس لدى البلدان الاشتراكية اى سبب مهما كان للخروج على مبدا التعايش السلمى والذى من مصلحتها ان تراعيه بكل دقة ، وهذه حقيقة يعترف بها حتى أمثال الايديولوجى الامبريالى الصريح سكالم الذى سبق أن أشرنا اليه فى احدى المناسبات . فسكالم يكتب قائلا : « الشيوعية تترعرع عن طريق السلام ، وهى ترغب فى السلام ، وتنتصر فى ظل السلام » . وربما لا يناسب التعايش السلمى الانتقاميين من أمثال سكالم واشباهه الذين مازالوا يأملون جميعا فى أن يروا الشيوعية وقد حلت بها الهزيمة ، ولكن هذا ليس فى صلب الموضوع . فالبلدان الاشتراكية ليست فى حاجة على الاطلاق للجوء الى الاجراءات العسكرية من اجل حل تناقضات الراسمالية . وهذا يكفى بالنسبة للسؤال الثانى .

ويتعرض التأييد الذى يقدمه الاتحاد السوفييتى والبلدان الاشتراكية الاخرى لحركات التحرر الوطنى بشكل خاص لنيران مكثفة من جانب علماء الاجتماع الامبرياليين الرجعيين . وقد أعادت المقالة الرجعية « حروب التحرير » المنشورة فى جريدة نيويورك تايمز التحذيرات المخيفة لزعماء الولايات المتحدة وابرز أعوانهم الايديولوجيين والتى تقول بأن الاتحاد السوفييتى وبعض البلدان الاشتراكية الاخرى « تعمل بجد من أجل القضاء على المجتمعات ( المجتمعات الراسمالية — المؤلف ) كما يقضى النمل الابيض على منزل من خشب » (٣٠)

والبلدان الاشتراكية تقدم بالفعل معوناتها المادية والادبية والسياسية للشعوب التى تقاتل من أجل استقلالها السياسى ، ولكن هذه الشعوب جديرة بالسيادة القومية ، ولقواتها الثورية الحق فى القتال ، وأجهزة سلطتها تحظى بالاعتراف الدولى الرسمى كرعايا معترف بها شرعا أمام القانون

(٢٠) و . سكالم ، حروب التحرر ، زيوريخ ، ١٩٥٩ ، ص ١٨٥ .

(٢١) نيويورك تايمز ، ٢٠ يونيو ١٩٦٥ ، ص ٣٦ .

الدولي ، كما أنها معترف بها فى مجال الشئون الدولية كشـــعوب لها نفس الحقوق التي للدول القائمة بالفعل ، بما فى ذلك الحق فى الحصـــول على المعونات الخارجية . وهكذا ، فالبلدان الاشتراكية لها كل الحق فى مساعدتها حتى من وجهة النظر القانونية البحتة .

لقد كان الاتحاد السوفييتى ومازال يقدم منذ زمن طويل مساعدات كبيرة للشعوب المناضلة من أجل استقلالها ، وحصلت شعوب الجـــزائر واليمن وانجولا وموزمبيق ومصر وعديد من البلدان الاخرى على التأييد الســياسى والمعنوى والمادى للاتحاد السوفييتى ، وشرع عدد من البــلدان الاخرى فى السير على نفس الطريق . كما شرعت بلدان افريقية متعددة فى اقامة قواعد على أراضيها لتدريب واعداد ثوار المستعمرات البرتغالية وتزويدهم بالاسلحة والمعـــــــــــدات .

ان هذه الاعمال تمثل دفاعا مشروعا جماعيـــا عن النفس من جانب البلدان الافريقية ضد القهر الجماعى للاستعماريين ( حيث تحظى البرتغـــال بتأييد بلدان كتلة حلف شمال الاطلنطى ) .

وفى نفس الوقت الذى تدين فيه البلدان الاشتراكية الحروب الامبريالية فهى تؤيد حروب التحرير وتعتبرها حروبا شعبية مقدسة ضد الاســـتعمار والحكم الاستعمارى والقهر الامبريالى . وهذه الحروب معترف بها اليوم من جانب القانون الدولى ، وميثاق الامم المتحدة يدين حروب العدوان ولكنـــه يعترف بحق الشعوب فى الدفاع عن نفسها سواء كان ذلك بطريقـة فردية أو بطريقة جماعية ، أى بحقها فى خوض حرب التحرير . وهذه الحـــرب هى الاسلوب الاقصى للدفاع عن السيادة القومية والذى لا تلجأ اليه الشعوب الا عندما تتركها الامبريالية دون اى خيار آخر . وتقديم المساعدات للشعوب التى تخوض حربا للتحرير لا يقوض التعايش الســلمى ، بل على العكس ، يدعمه . ان تقديم هذه المساعدات ليس مجرد حق لجميع البلدان المحبـــة للسلام فحسب ، بل هو واجبها .

والبلدان الاشتراكية تتمسك بحزم بمبادىء التعايش السلمى لانهـــا سلامية بطبيعتها ، وتسترشد بأكثر الايديولوجيات انسانية ، الايديولوجية الماركسية ـــ اللينينية . ومن مصلحة هذه البلدان مراعاة هذه المبادىء ، كما أن ذلك أيضا فى مصلحة الحركة الثورية العالمية . ولهذا السبب تبنت البلدان الاشتراكية التعايش السلمى كجزء هام من سياسة تتبعها بثبات واستمرار وليس فقط فى الوقت الذى يحلو لها أن تتبعها .

والسياسة الاممية التى تنتهجها البلدان الاشتراكية بالنسبة لحـــركات التحرر الوطنى سياسة عادلة فى أهدافها ، مشروعة فى أساليبها ولا يمكن لاى انسان يدافع عن قضيته العادلة أن يكون بحـــاجة الى خرق مبـــادىء التعايش الســـلمى .

## تصدير الثورة المضادة كوسيلة للمحافظة على الوضع الاجتماعي القائم

يدرك بعض الايديولوجيين البورجوازيين تمام الادراك ان المنافسة الاقتصادية والصراع السياسي والايديولوجي بين النظامين مسألة حتمية ، ولكنهم يعارضون هذه العمليات التاريخية الموضوعية التي تجري في ظل التعايش السلمي • وهم يقترحون بديلا للتعايش السلمي هو « التعايش التنافسي » الذي ليس لمحتواه أي علاقة سواء بالسلام أو بالتعايش • وكما يتضح من كتاب عالم الاجتماع الامريكي ج • سكوت الذي يحوي تفسيرا لهذه النظرية ، فهذه النظرية تهدف الى تبرير سياسة الولايات المتحدة للتدخل والتخريب الاقتصادي (٢٢) • والواقع ان هذه النظرية تشبه تماما سياسة الحرب الباردة الامبريالية التي تهدف ، كما اتضح في مجرى العقدين السابقين الى تقويض التعايش السلمي •

وحكومات الدول الامبريالية تشجع الرأي القائل بان التعايش السلمي ليس الا مجرد اسم اخر للحرب الباردة ، التي تصل الى درجة السخونة من وقت لاخر في بعض اجزاء العالم لتتحول الى حروب محلية صغيرة • وهذا التفسير للتعايش السلمي يتمشى تماما مع مصالح هذه الحكومات لانها لاترى أي امكانية للمحافظة على الوضع القائم ، العزيز على قلوبها ، الممقوت من شعوب العالم ، الا في القوة • وهكذا يعلن ستراوس – هوبيه وزملاؤه الذين سبق ان اشرنا اليهم في مناسبة سابقة ، أن « القوة ، اذا كان لابد من استخدامها أصلا ، ينبغي أن تستخدم للمحافظة على الوضع القائم » (٢٣) •

وعلى اساس الاجراءات العملية لحكوماتهم يحاول رجال الدولة في الغرب وتلاميذهم أن يوضحوا ان مبدأ عدم التدخل قد عفى عليه الزمن في ظل الاوضاع السائدة اليوم ، وان التدخل الواسع النطاق ينبغي ان يحل محل التعايش السلمي كقانون للعلاقات الدولية • والحملة الموجهة لتشويه التعايش السلمي تتم على يد جيش كامل من الفلاسفة ،والفقهاء والناشرين الذين يقبضون الثمن بسخاء ، والذين يحاول بعضهم أن ينكر انكارا تاما الطبيعة غير المشروعة للسياسة الامبريالية المعدوان • والبعض الاخر على استعداد للاعتراف بعدم مشروعية هذه السياسة ، ولكنه يحاول تبريرها • وفي مجلد ضخم تم نشره في الولايات المتحدة الامريكية تلتقي بالادعاءات التي تزعم ان التدخل الامريكي واسع النطاق في الشئون الداخلية للامم الاخرى لايتعارض مع مبادئ التعايش السلمي ، وأن له مايبرره ، وبخاصة

---

(٢٢) ر • ستراوس – هوبيه ، و • ر • كينتر ، ج • دورتي ، أ • كرتويل ، النزاع طويل الامد ص ٢٥ •

(٢٣) د• جاربر ، دبلوماسية الازمة . تاريخ سياسة التدخل وتطبيقاتها ، واشنطن ١٩٥٦ ص ١٠ •

عندما يكون الهدف هو الدفاع عن مصالح وحقوق قوميــة هامة • ويقـول مؤلف هذا المجلد ، د • جاربر أنه : « بالرغم من جسامة وتعدد حالات التدخل الامريكي في اجزاء كثيرة من العالم ، فوزارة الخارجيــة الامريكيــة تنكر • كقاعدة عامة ، ان التدخل حدث أو انه مستمر ، بدلا من الاعتراف بقيامــه وشرح الاسباب السياسية والشرعية التى تبرر السياسة الامريكية » (٢٤) •

وثمة عالم اجتماع امريكى أخر ، هو ك • ايجلتون ، يحاول أن يبرر التدخل الامريكى فى الشئون الداخلية للأمم الأخرى على أساس الاعتبارات الاستراتيجية ومصالحها (٢٥) فى الموارد القومية بينما يكتب الاستاذ برنهام يقول • ينبغى نبذ مذهب عدم التدخل فى الشئون الداخلية للامم الاخرى ـ الذى لايمثل أكثر من صدفة جوفاء شكلية ـ نبذا كاملا (٢٦)

وهذه الاضافات والاجتهادات التى يقدمها دعاة الراسمالية ضد مبـدا وسياسة التعايش السلمى لا أساس لها على الاطلاق ، ولاتقوى على الصمود امام اوهى الانتقادات •

فأولا مجموعة البلدان الاشتراكية العالمية ، والدول الحديثة ، والرأى العام فى البلدان الرأسمالية ، الى حد كبير ، ضد سياسة التدخل الامبريالية

وثانيا ، من الخطأ ان نستنتج أن تعـــدد حالات التدخــــل الامبريالى يجعل التعايش السلمى مستحيلا ، فالخروج على القانون لايؤثر فى صـحة القانون نفسه • اما القول بأن هناك تزايدا فى حالات الاغتصـاب فى بعض البلدان الرأسمالية فلا يؤدى الى نقض للقوانين التى تحمى الملكية الخاصـــة أو تعديل القانون الجنـائى المختص بمجـــازاة مثل هــــذه الجرائم فالمبادىء الدولية توجد وتطبق كلما وحيثما احتاجت الدول اليها • وهكذا ، فمبادىء التعايش السلمى ، بما فى ذلك مبدا عدم التدخل ، سوف تبقى صـــحيحة طالما وجدت دول تدعوها سيادتها القومية للدفاع عنها ، وتصمم هى على الدفاع عن سيادتها •

وثالثا ، فسياسة التعايش الســـلمى ليست تنازلا ســـخيا يقـدمه الامبرياليون للشعوب بارادتهم الحرة ، وانـما هى نتيجة لعلاقات القوى فى العالم ، وحصيلة للنضال من اجل السلام من جانب البلدان الاشـتراكية • ولذلك فالامبرياليون لايستطيعون أن يرفضوا التعايش السلمى حتى لوكانوا يريدون ذلك ، واى محاولة من جانب الامبرياليين لنسف التعايش السلمى تقابل بلا تردد باجراءات مضادة من جانب البلدان الاشـــتراكية وغيرها من القوى المعادية للامبريالية •

---

(٢٤) د. جاربر ، ديبلوماسية الازمة . تاريخ سياسة التدخل وتطبيقاتها ، وشنطن ١٩٥٩ ص ١٠ •

(٢٥) ك . ايجلتون ، « الغلو فى حق تقرير المصير » ، الشئون الخارجية ، يوليو ١٩٥٣ ص ٥٦٩ •

(٢٦) ج . برنهام ، النضال من أجل العالم ، نيويورك ١٩٤٧ ، ص ١٧٤ •

ورابعا ، فالمحاولات التي تهدف الى المحافظة على الوضع القائم بالقوة تتعارض تعارضا مباشرا مع الهدف الذى تدعى هذه المحاولات انها تسعى اليه ، وهو المحافظة على السلام ، وهذه حقيقة يعترف بها جميع علماء الاجتماع البورجوازيين الموضوعيين . فمثلا يقول عالم الاجتماع الامريكى الشهير ميلز سوف تنتهى المحاولة المستمرة من جانب الولايات المتحدة الامريكية للدفاع عن الوضع الاقتصادى والسياسى القائم فى عالم اليوم « الى الحرب » (٢٧) . والواقع ان المحاولات الامبرياليه لعرقلة التغييرات الثورية فى أجزاء متعددة من العالم شكلت وما زالت تشكل تهديدا خطيرا للسلام العالمى .

والنضال ضد تصدير الثورة المضادة من أكثر الاساليب فعالية للمحافظة على التعايش السلمى فى عالم اليوم ، عالم التغيرات الثورية والحزب الشيوعى لايمكن أن يقف موقف المتفرج واللا مبالاة أو ان يكتفى بمراقبة « الامبرياليين وهم يطأون مبدأ التعايش السلمى تحت أقدامهم ويغرقون الحركات الثورية فى الدماء . ان الحزب الشيوعى السوفييتى الامين على مبادىء التعايش السلمى والتضامن البروليتارى ، يعارض بحزم السياسة الامبريالية للتدخل وتصدير الثورة المضادة . » والحزب الشيوعى السوفييتى ، جنبا الى جنب مع الأحزاب الماركسيه اللينينيه الأخرى ، يعتبر أن من واجبه الامى ان يدعو شعوب جميع البلدان للاتحاد ، وحشد جميع قواها الداخلية ، واتخاذ الاجراءات الفعالة ، والاعتماد على قوة النظام الاشتراكى العالمى لاحباط التدخل الامبريالى فى الشئون الداخليه لأى بلد يهب للثورة ، ولدحره بكل قوة وبذلك يمنع التصدير الامبريالى للثورة المضادة (٢٨) .

وتمثل معارضة تصدير الثورة المضادة أهمية كبرى سواء بالنسبة لمستقبل الاشتراكية العالمية او بالنسبة لتامين التعايش السلمى . والاجراءات التى تتخذ فى هذا السبيل هى اجراءات ضرورية للدفاع الجماعى عادله فى أهدفها ، ومعترف بها فى ميثاق الامم المتحدة وقد ساعد الاتحاد السوفييتى على منع أو معارضة تصدير الثورة المضادة فى عديد من المناسبات ، وثبت ، فى كل مرة ان موقفه كان لمصلحة قضية السلام . كانت هذه هى الحال فى أعوام ١٩٥٦ و ١٩٥٧ و ١٩٥٨ عندما صان الاتحاد السوفييتى مكاسب ثورات التحرر الوطنى للشعوب العربية من الضياع ، وكانت هذه هى الحال فى عامى ١٩٦١ و ١٩٦٢ عندما ساعد الاتحاد السوفييتى وغيره من الدول المحبة للسلام الشعب الكوبى البطل فى الدفاع عن سيادة دولته . ومازال الاتحاد السوفييتى يواصل القيام بواجبه فى الدفاع عن الشعب الفييتنامى البطل والشعوب العربية فى معارضة التدخل الامبريالى وتصدير الثورة المضادة هو الوسيلة الاساسية للمحافظة على الوضع القائم .

---

(٢٧) رايتميلز ، لعبة الحرب العالمية الثالثة ، نيويورك ، ١٩٥٨ ، ص ١١٦ .

(٢٨) الطريق الى الشيوعية ، ص ٤٨٤ .

وأخطر اشـــكال العدوان والجريمة الدولية ، ولذلك ، فعندما يعبىء الشيوعيون كافة القوى التقدمية لمنعه أو معارضته فهم يدافعون بذلك عـــن مبادىء التعايش السلمى ، ويعملون على تقدم السلام العالمى ومن ثم يقـدمون للبشرية خدمة لاتقدر بثمن ٠

وينعكس فى هذه النظرة المختلفة تمام الاختلاف للوضع القائم تناقض من أهم التناقضـــات بين الايديولوجية الامبريالية والايديولوجية الماركسـية اللينينية ٠ والمحاولات التى يبذلها الايديولوجيون الغربيون لاحلال سياســـة الابقاء الابدى على الوضع القائم محل سياســـة التعايش السلمى لاتقوى على الصمود فى مواجهة القوانين الموضوعية للتطور الاجتماعى ، وتعادى وجهات النظر التى تتبناها الطبقات التقدمية والمبادىء المعترف بها عالميا للعـــلاقات الدولية ٠ وعلاوة على ذلك ، فهذه المحاولات يفتضح امرها من خلال تصرفات الدول الامبريالية نفسها التى تنغمس بالفعل فى محاولات تصـــدير الثورة المضادة وراء ستار من الدخان ، وتبذل جهدها للقضــاء على المكاســـب التى حققتها البلدان الاشتراكية والدول الوطنية الفتية ٠ ونزعة المحافظة على الوضع القائم ليست مجرد دعوة رجعية ، وانما هى دعوة عقيمة ، لانها عاجزة عن تحقيق الهدف الذى تدعى انها تسعى لتحقيقه ، وهو تأمين السلام ٠ وأكثر من ذلك فهذه الدعوة لامكان لها عـــلى الاطلاق ، لان البشرية خلقت لنفســـها بالفعل مجموعة من المبادىء للتعايش السلمى تجعل فى مقدورها تجنب الحرب العالمية الجديدة فى ظل العملية الثورية التى لا راد لها ٠

# الفصل الرابع عشر

# ضد نظرية نزع السلاح الايديولوجى

بمرور الوقت ، يزداد عدد أولئك الذين يشاركون فى الاقتناع بأن التناقض الاكبر لعصرنا ، وهو التناقض بين الاشتراكية والرأسمالية ، لا ينبغى بأى حال من الاحوال أن يحل عن طريق حرب عالمية جديدة .

ومازال هناك بالطبع عدد من الناس فى عالم رأس المال المالى ، وهم من الشخصيات ذات النفوذ ، ممن مازالوا يعقدون آمالهم على القوة المسلحة ويتمسكون بأنه « ليس هناك أى حل وسط ممكن بين الشرق والغرب حول أى قضية من القضايا ذات الاهمية(١) » . وبالرغم من ذلك فكثيرا مانسمع ، حتى فى الدوائر البورجوازية ، عديدا من الاعترافات التى تقر بأن الصدام النووى بين النظامين الاقتصاديين ـ الاجتماعيين ليس هو الرد .

ولكن معارضة جزء من البورجوازية الاحتكارية لاشعال نيران حرب عالمية جديدة لا تعنى ، انها تعترف بعجزها ، أو خطأ محاولاتها لوقف مسيرة التاريخ ، كما أن معارضتها لا تستند الى أى اعتبارات انسانية . انها مجرد نتيجة للتقدير المتعقل للموقف ، والاعتراف بأنه فى ظل الموقف الناشىء فى العالم اليوم ، فلن يكون للحرب العالمية الجديدة من جدوى الا أن تخدم مصالح البورجوازية الامبريالية . وكما حدد السناتور فولبرايت المسألة . « فقد وصلنا الى نقطة فى التاريخ لا يستطيع فيها أى انسان عاقل أن يعتبر الحرب أداة مفيدة للسياسة القومية(٢) » .

---

(١) بول اندرسون ، الحرب النووية الحرارية ، دربى ، ١٩٦٣ ص ١٠٢ .

(٢) مضابط الكونجرس ، أعمال ومناقشات الكونجرس رقم ٨٩ ، الدورة الاولى ، المجلد ٣ ، الجزء ١ ، ٤ ـ ٢٧ يناير ١٩٦٥ ص ٣١٦ .

وفى نفس الوقت ، فالصراع الايديولوجى يكتسب أهمية أعظم كثيرا من ذى قبل ، وترجع الاسباب فى ذلك الى الاوضاع الاجتماعية ـ الاقتصادية. فاليوم ، عندما نضجت الظروف الموضوعية للتحول الثورى الى الاشتراكية فى كل مكان ، تعتمد مسألة انجاز هذا التحول على العامل الذاتى ، اى على وعى الجماهير بمصالحها الجذرية ، ومهامها التاريخية ، وتنظيمها ، ونشاطها الواعى الموجه نحو القضاء على الراسمالية . وهكذا ، فالانتقال الى الاشتراكية ، والذى نضجت الظروف الموضوعية له بالفعل ، يتطلب بالضرورة أن تلعب الافكار دورا منظما ومعبئا .

والتقبل المتزايد لمبدأ التعايش السلمى فى العلاقات الدولية ، والاهمية المتزايدة التى يكتسبها الصراع الايديولوجى فى العالم لا يمكن اعتبارهما ظاهرتين منفصلتين عن الموقف الماركسى ـ اللينينى . فكلا الظاهرتين نتاج للاوضاع الاجتماعية ـ الاقتصادية السائدة اليوم . وعلاوة على ذلك ، فالتعايش السلمى يخلق موقفا جديدا للصراع الايديولوجى ، ويعتمد هو نفسه على هذا الموقف بشكل مباشر فى نفس الوقت . وهكذا ، فالاوضاع الراهنة تربط الصراع من أجل السلام بالصراع الطبقى بين الاشتراكية والراسمالية وتدفع مشكلة التعايش السلمى والصراع الايديولوجى الى المقدمة .

ويجرى تناول هذه المشكلة فى الايديولوجية البورجوازية بعديد من الطرق ، سواء فيما يتعلق بكيفية طرح المسألة ، أو فيما يتعلق بالحلول العملية المقدمة ، وهو موقف تمليه الآراء الطبقية للايديولوجيين البورجوازيين كل على حدة ، والمجموعة المحددة من مجموعات البورجوازية المالية أو المتوسطة أو الصغيرة التى ينتمى اليها كل ، وعواطفه السياسية ، وقدراته الفردية بما فى ذلك قدرته على تقديم تفسير معقول بشكل أو بآخر للتاريخ فى اطار نظرته العامة الاساسية للعالم · ولكن هذه الاراء المعادية للماركسية جميعا تجمع بينها سمة مشتركة رغم اختلافها ، وهى انها تتبنى جميعا تفسيرا مثاليا ذاتيا . وهكذا ، فمفهوم الصراع الايديولوجى يتم تناوله باصرار كدائرة مقفلة على نفسها بشكل مطلق من النشاط الانسانى تعتمد كلية على الاوهام والرغبات التعسفية للابطال ، بل ويذهب هذا المفهوم أيضا الى حد توجيه مجرى الاحداث التاريخية الى مسالك يتم اختيارها وفقا لقدرات الايديولوجيين ومهارة وسائل الدعاية وأدواتها ·

ولما كان من المستحيل تماما ان نحدد فى حدود الحيز المتاح هنا جميع التفسيرات البورجوازية المتنوعة لمشكلة التعايش السلمى والصراع الايديولوجى ، فسوف نركز اهتمامنا على مجرد تفسيرين منها ، بصفتهما الاكثر انتشارا والاكثر تطرفا ، واحد هذين التفسيرين يتناول التعايش السلمى ، وكأنه مطابق للحرب الباردة ، اى انه نضال بين نظامين أيديولوجيين من أجل سيادة العالم دون أى قيد . أما الآخر فنقطة الانطلاق فيه هى الرأى القائل بأن التعايش السلمى ينبغى ان يستبعد الحرب الباردة ليحل محلها التعايش الايديولوجى .

وكلا هاتين النظريتين تشوه مفاهيم التعايش السلمى والحرب الباردة والصراع الايديولوجى ، وتقدمان صورة زائفة للعلاقات المتداخلة بينها . ويمكننا أن نرى ذلك بسهولة اذا القينا نظرة خاطفة على بعض الآراء التى يروج لهـا أنصار كل من هذين التفسيرين .

## التعايش السلمى والحـرب البـاردة :

تنظر البورجوازية الامبريالية ، بصرف النظـر عما اذا كانت تعتبر الحرب العالمية الجديدة مسـألة حتمية أو تقبل امكانيـة التعايش السـلمى وافضليته ، تنظر هذه البورجوازية بشكل عام الى العـلاقات بين البلدان الاشتراكية والرأسمالية كحرب باردة ، يبذل فيها الايديولوجيون المتنافسون قصارى جهودهم لتحقيق السيطرة على العالم بكل الطرق ، وبأى الطرق .

وهكذا ، فأيديولوجيو رأس المال الاحتكارى عموما لا يضـعون اى خط فاصل بين « التعايش السـلمى » و « الحرب الباردة » ، و « الصراع الايديولوجى » ، وانما يعتبرونها جميعا مترادفات تصف نفس النزاع الذى لا يخمد بين النـظامين والذى اندلع منـذ ثورة أكتوبر . ومع ذلك ، فالايديولوجيون البورجوازيون يتفاوتون ويختلفون فيما بينهم فى تحديد مدى الدور الذى ينسبه كل منهم الى الحرب الباردة فى المرحلة الراهنة من هذا الصراع ، ويعتمد كل منهم فىموقفه بالطبع على وجهة نظره الاجتماعية ـ السياسية المحددة .

اما بالنسبة للجناح المغرق فى الرجعية من البورجوازية الامبريالية من « أصحاب الخط المتشدد » الذين ينكرون تماما امكانيـة تجنب الصـدام النووى ، فالحرب الباردة لديهم ليست الا وسيلة لزيادة حدة التوتر الدولى ، فالناشر الالمانى الغربى ل. سخولت يكتب يقول : « لقد كانت حـرب الاعصاب ، وسوف تظل ، مقدمة للصدامات العسكرية(٤) » . والنتيجـة المنطقية لهذا المنحى هى أن تتحول الحرب الباردة الى حرب ساخنة ، تأمل أكثر القوى عدوانية فى البورجوازية الامبريالية عن طريقها ان ترجع عجلـة التاريخ الى الوراء وأن تحرز « نصرا كاملا » على الشيوعية .

وتنظر القطاعات الاكثر اعتدالا من البورجوازية الامبريالية الى الحرب الباردة كوسيلة لتحقيق الاهداف الامبريالية بدون اللجوء الى حرب عالمية ، وعلى خلاف مايذهب اليه « المتطرفون » المغرقون فى اليمينية ، فهم يأملون الا يتغير الوضع الراهن الى الاسوأ على الاقل ، اى أن تستمر الحـرب الباردة دون أن تتطور الى صـدام سـافر يمكن أن يؤدى الى دمار البشرية(٤) .

---

(٣) ل . سخولت ، ثوم بلتزكريج زوم نرفنكرييج ، اتلانتخ بارتنرشافت أم اتومارين زيبقالتر بوبارد ، ١٩٦٤ ص ٣١ .

(٤)المرجع السابق ص ٧ .

ويؤيد المعتدلون استمرار سباق التسلح وزيادة « قوى الردع » ، ويأملون ، عن طريق الربط بين وسائل الحرب الباردة السلمية و « الحروب المحلية » ، أن يعيدوا شعوب البلدان الاشتراكية الى قبضة الراسمالية .
واليوم ، تخشى الدوائر الحاكمة في العالم الرأسمالي المخاطر بحرب نووية شاملة ، وتلجأ الى أساليب أخرى لتحقيق أهدافها الامبريالية ، وهذه الاساليب تتضمن الابتزاز العسكرى و « الحرب المحلية » ، كما تلجأ الى اسلوب هو اهم أساليبها جميعا . اى الحرب الايديولوجية .

ولنلق نظرة على الآراء الاكثر انتشارا بين أولئك الايديولوجيين البورجوازيين الذين ينادون بتصعيد الصراع الايديولوجي في ظل ظروف التعايش السلمي . انهم ينادون :

(أ) بأن التعايش السلمي هو الحرب الباردة ، وانه يتضمن تحقيق أهداف السياسة الخارجية بمساعدة جميع انواع الوسائل الايديولوجية .

(ب) وبأنه في حالة قيام التعايش السلمي ، فسوف يدين النصر للجانب المؤيد بترسانة فكرية أفضل .

(جـ) وبأنه ينبغي على الغرب أن يحسن أسلحته الايديولوجية وأن يستخدمها على نطاق دائم الاتساع .
ولندرس الآن هذه الآراء في تفصيل اكبر .

(أ) يفسر بعض الايديولوجيين البورجوازيين التعايش السلمي كحرب باردة حتمية من أجل السيطرة على العالم ، وذلك لانهم يعارضون قيام حرب عالمية نووية حرارية .

وتجرى حجج المدافعين عن الراسمالية ، بشكل عام ، وفقا للخطوط التالية : في ظل الظروف الراهنة ، يجبر العالمان على التعايش من أجل تجنب الابادة النووية . ومع ذلك ، فهذا التعايش لا يمكن أن يكون « سلميا » بالمعنى الحقيقي للكلمة ، طالما ان الشيوعية « هدامة » بطبيعتها ، ومن ثم فالحرب الباردة حتمية(٥) . وثمة آراء مشابهة أيضا يعبر عنها على الجانب الآخر من الاطلنطى ، و « الواقع انه ليس أمامنا بديل سوى أن ننازل العدو في المجال السيكولوجي للحرب الباردة .. لانه ، قبيل اندلاع الحرب العالمية الثالثة ، فالامل المباشر هو مواصلة وتكثيف الحرب الباردة ، اى النزاع السيكولوجي السياسي الكبير الممتد(٦) » .
والحرب الباردة تتضمن كل أساليب النضال من أجل السيطرة على العالم ، فيما عدا الحرب النووية : فسباق التسلح ، والحروب المحلية ، والتخريب السياسي والايديولوجي ، والابتزاز العسكرى ، وفرض العقوبات

---

(٥) بعض أفكار حول السياسة الخارجية البريطانية ، لندن ، ١٩٥٩ .

(٦) د. ستراوس ـ هوبيه ، و . د . كينتز ، س . ن . بوسونى ، المرجع السابق ص ٢٦ .

الاقتصادية ، والاكاذيب ، والتشويه ــ وباختصار كل مايمكن أن يؤدى الى التوتر الدولى ، يمكن ان يستخدم لممارسة الضغط على الشيوعية .

ومعظم الايديولوجيين البورجوازيين الذين يساهمون بدور أساسى فى النزاع الايديولوجى بين الراسمالية والاشتراكية لا ينظرون الى الحرب الباردة كانعكاس للمواقع الطبقية لكلا الجانبين ، وانما ينظرون اليها كمجرد اداة لضمان السيادة على العالم ، وفى قول آخر فهم يلصقون بها محتوى امبرياليـــا .

ومن اجل اضفاء مسحة من الصدق على هذا الراى يقوم أعداء الشيوعية بمناورة مزدوجة ، فأولا ، هم يعرضون دعم المراكز الدولية للاشتراكيـــة والتى تمليها قوانين التاريخ وكأنها مجرد نتيجة «للامبرياليـــة الحمراء» ، مفسرين الراى الشيوعى القائل بحتمية حلول الاشتراكية محل الراسمالية بأنه «امبريالية شيوعية» .

وعلى هذا النحو يدعى فولبرايت أن الاتحاد السوفييتى مصمم على ان يفرض على « عالم ليست لديه الرغبـــة ، نمطه الخـــاص من المجتمع الاشتبدادى(٧) » . وثانيا ، يقدم أعداء الشيوعية الامبريالية وصراعها ضـد التقدم الاجتماعى ، لا كصراع ضد اختيار الجماهير فى صالح الشيوعية ، وانما كصراع ضد الامبريالية الاجنبيـــة . ونعود الى الاقتباس من أقوال فولبرايت : « ان الشيوعية ليست هى المسألة المطروحة بين الاتحـــاد السوفييتى والغرب ، وانما المطروح هو الامبريالية الشيوعية(٨) » .

وربما ينبغى أن نشير الى ان الايديولوجيين البورجوازيين الذين ينادون بهذا الراى لا يعتبرون الامبريالية نظاما من العلاقات الاقتصادية ــ الاجتماعية والسياسية النابعة منها ، وانما يعتبرونها مذهبا اجتماعيا ( هو الفـكرة الماركسية عن حتمية الانتصار الكلى للشـــيوعية) ، وهم يفسرون المذهب المـاركسى ، الذى اثبت التاريخ نفسه صحته ، بأنه تعبير عن « الامبريالية الشيوعية» .

ويتجلى المفهوم المثالى الذاتى بكل وضوح من خلال هـــذا الخداع الزائف ، انه مفهوم ينظر الى التاريخ لا من زاوية الظروف الاقتصادية ــ الاجتماعية الكامنة وراء حركته ، ولا من زاوية الاسس المادية المتغـــيرة للحياة الاجتماعية ، وانما ينظر اليه من زاوية الصراع بين أيديولوجيتين ــ هما الايديولوجية البورجوازية والايديولوجية الشيوعية .

وهذا المفهوم المثالى ــ الذاتى يسمح للايديولوجيين البـــورجوازيين بتحقيق ثلاثة اهـداف على الاقل .

فأولا ، يجعل من السهل تزييف الصراع بين التقدم والرجعية ، وبين

---

(٧) وليم ج . فولبرايت ، آفاق للغرب ، كمبردج ــ ماساتشوستس ، ١٩٦٣ ص ١٤ .

(٨) ولويم ج . فولبرايت ، المرجع السابق ص ٢٠ .

السلام والعدوان ، لاننا لو سلمنا بأن مجرى التاريخ يتحـــدد بالنزاع بين أيديولوجيتين متعارضتين ، يصبح من غير الصعب أن نقنع الجهـله بأن الايديولوجية الشـــيوعية التى تحاول اثبات الحاجة الى تغيير النـظام الاجتماعى هى الايديولوجية « العدوانية » ، « والامبرياليـــة » ، وأن الايديولوجية البورجوازية والسياســة الموجهـــة نحو الدفاع عن ابدية الراسمالية هما أيديولوجية ذات طبيعة «دفاعية» و « سلمية » . وقـد أعلن دين راسك أن « الهدف الاول لسياستنا بالنسبة للدول الشيوعيـة ينبغى أن يكون ، وهو بالفعل ، أن نلعب دورنا فى كبح الامبريالية الشيوعية. وسوف تعارض هذه الحكومة بكل شدة توسع السيطرة الشيوعية ــ أيا كان الشيوعيون الذين يقومون بهذا التوسع ــ بالقوة أو بالتهديد باستخدام القوة ، وسواء طبق ذلك بطريقة مباشرة أو غير مباشرة(٩) » . وهــذه الاقوال نموذج رائع للطريقة التى تستخدم بها السفسطة لاظهار السياســـة العدوانية الرجعية وكأنها « سياسة سليمة » ، ولدمغ النضال من اجل التقدم الاجتماعى بالامبريالية .

وثانيا ، فالمفهوم المثالى الذاتى يجعل من السهل تبرير مطاردة أولئـك الذين ينادون بأراء مخالفة . فاذا أعلن ان الايديولوجية الشيوعية ايديولوجية امبريالية ( ومن الصعب ان نتجاهل مدى تأثير بعض الافكار المعينـــة ) اذن لاصبح من الممكن تبرير كل نظام القهر فى الداخل ، والتدخل المتواصل فى الخارج ، على أساس انه « لمصلحة الامن » . وقد اعترف مســـتر راســـك ــ صراحه بأن سياسه الولايات المتحدة كانت موجهة ضد الافكار وضــد الآراء فهو يعلن : « وحتى يتغير الشيوعيون انفسهم ، تتطلب اكثر اعتبارات الأمن اوليه ان نظل دائما على أهبة الاستعداد ضد الاخطار التى تقدمها نظرتهم الى الحياة نفسها ، فى مواجهتنا نحن والآخرين من الملتزمين بالحـرية » (١٠) . وعلى هذا النحو يجرى تبرير سلسلة كاملة من مخترعات الحـرب البـــادة العسكرية والسياسية والسيكولوجية ، والتى تقـــدم ، برغم من رجعيتها وعدوانيتها ، كاشياء لازمة للنضال ضد ، المذهب التوسعى ، للشيوعية .

والفائدة الثالثة لهذا المفهوم هى انه مربح للغاية ، ويهىء أرضية كافية تماما للطمأنينة التى تحتاج اليها البورجوازيه بكل تلهف . فاذا كان التطور الاجتماعى يتحدد بالافكار التى تصاغ بطريقة تعسفية متقنة ، اذن يصبح من الممكن النظر الى مجرى التطور الاجتماعى كله كعملية تعتمد ، لا على تناقضات الحياة الاجتماعية وانما على الدعاية البارعة ، وعلى القدرة على بث بعض الافكار المختارة بشكل خاص بين الجماهير ، وعلى نشر الغشـــاوة على أعين الجماهير وتحقيق الاتجاهات المرغوب فيها . وباختصار ، فالتطور الاجتماعى يعتمـد على استراتيجية وتكتيكات الحرب « السيكولوجية » أو الباردة .

---

(٩) نشرة وزارة الخارجية ، المجلد ١ ، العدد ١٢٩٠ ، ١٦ مارس ١٩٦٤ ص ٣٩١ .

(١٠) نشرة وزارة الخارجية ، المجلد ١ ، العدد ١٢٩٠ ، ١٦ مارس ١٩٦٤ ، ص ٣٩١ .

هذا في الواقع هو الاتجاه العام لمعظم التوصيات التى يقدمها اقل انصار الرأسمالية خبثا ، والذين ينصحون باستخدام أى اســاليب ، وايا كانت ، ابتداء من الاكاذيب حتى الاعمال الاستفزازية ، من اجل تحقيق النتائج المبتغاة في الصراع ضــد الشــيوعية • وعلى هذا النحو يقترح ن • ارنولد المعادى للشيوعية الالمانى الغربى « المراوغة الماهرة » ، واستخدام «المقارنات البارعة»، والمبــالغات الديماجوجية » ( التى ينبغى ان تكون « قريبة من الحقيقــة » ) والهجوم السافر المباشر •

ومن الواضح تماما ان التفسير البورجوازى للتعايش الســلمى كحرب باردة ، والمنزاع الايديولوجى كوسيلة نحو السيطرة عـلى العالم ، ليس له أى علاقة بالمصالح الحقيقية للســلام ، أو بدعم علاقات حسن الجوار بين الامم ، أو بالمفهوم العلمى للصراع الايديولوجى •

والنظرية الديمقراطية للتعايش الســلمى والنظرية الامبريالية للحرب الباردة ليستا مجرد شيئين مختلفين ، وأنما هما شيئان متناقضان • وعــلاوة على ذلك ، فهذا التناقض لا يعكس الانفصال بين افكار الطبقة العاملة وأفكار البورجوازية فحسب ، بل يعكس ايضا ، وبنفس الدرجة ، الانفصــــال بين الجماهير بشكل عام وبين العصبة الامبريالية •

ويتضمن مبدأ التعايش الســـلمى بين البلدان ذات النظم الاجتماعية المختلفة ، والذى تؤيده الجماهير ، المطالبة بالمحافظة على السلام وتطبيق سلسلة كاملة من الاجراءات التى تضمن دعم السلام وتحسين الموقف الدولى ، وتشمل هذه لاجراءات وقف سباق التســلح ، ونزع الســلاح بالتدريج ووضــع حد للحرب المحلية التى تشنها الامبريالية ، وانهاء الابتزاز العسكرى ومشاعر الحرب ، وتحسين العلاقات التجارية والثقافية الدولية ، وما الى ذلك • وكل هذه الاجراءات ذات طبيعة ديمقراطية عامة مقبولة تماما من جانب الاشتراكية •

وهكذا ، فعندما يتقدم الشــيوعيون بهــذه الاقتراحات للحكومات البورجوازية ، فهذه الاجراءات سوف لاتستخدم للاطاحة بالرأسمالية ، وانما ستستخدم فقط لتحســين الموقف الدولى ، فى نفس الوقت الذى يجرى فيه تهيئة الظروف المواتية للتقدم الاجتماعى •

وعلى العكس من ذلك ، فالحرب الباردة التى يشنها الامبرياليون ليست الا محاوله لاختزال التعايش السلمى الى مجرد استخدام كل وسيلة ممكنة لاطالة وزيادة التوتر الدولى دون اللجوء الى حرب نووية شاملة •

ولما كان هذا الفهم يبقى على ســباق التســلح ، والحروب المحلية ، والابتزاز النووى ، ومشــاعر الحرب ، والتخريب الســياسى ، والحصــار الاقتصادى ، ومجموعة كاملة من التكتيكات الاخرى للحرب الباردة ، لذلك تصبح مهمة المحافظة على السلام في ظل هذه الظروف مهمة صعبة الى اقصى حد • والواقع انأ ى اجراءات فعالة حقا لدعم التعايش الســلمى وتطوير علاقات حسن الجوار تصبح مستحيلة تماما •

ومن الطبيعي ان يتضمن هذان المفهومان المختلفان تمام الاختلاف عن التعايش السلمي استخدامات مختلفة تماما لوسائل الصراع الايديولوجي . فالصراع الايديولوجي بالنسبة للشيوعيين جزء عضوي من الصراع الطبقي ، يعكس التناقض بين الطبقة العاملة والبورجوازية ، وهو وسيلة للكشف عن الصفات الحقيقية لكل من الاشتراكية والرأسمالية . أما بالنسبة للبورجوازية الامبريالية فهو وسيلة لتحقيق السيادة على العالم ، ووسيلة لتحقيق اهداف السياسة الخارجية الامبريالية ولترويض الرأى العام على تقبل الاعمال العدوانية .

وهكذا ، فالتعايش السلمي الحق لا يعنى الحرب الباردة بأى حال من الاحوال ، وانما هو برنامج بنائى للتطوير الشامل للعلاقات الدولية ، والهدف من هذا البرنامج هو استبعاد النزاع المسلح وتحويل النزاع الحتمي التاريخي بين الاشتراكية والرأسمالية الى طريق المنافسة الاقتصادية والصراع الايديولوجي .

(ب) : وعند تقويم الاتجاهات العامة للتغير الاجتماعى فى فترة ما بعد الحرب ، يعترف اعداء الشيوعية بشكل عام بان الشيوعية حققت نجاحات محوظة . ولكن الام ينسبون هذه النجاحات ؟ فى اتفاق تام مع مفهومهم المثالى الذاتي الكامن وراء مواقفهم ، يعتبر الايديولوجيون البورجوازيون ان النجاحات التى حققتها قوى الاشتراكية انما هى نتيجة للصراع الايديولوجي الذى أحسن تنظيمه والذى يشنه الشيوعيون .

وهم اذ يفعلون ذلك ، فهم يفشلون فى التمييز بين الصراع الايديولوجي وبين العمل الدعائى ، وفى عبارة اخرى فهم على غير استعداد للاعتراف بأن الانعكاسات العملية لمزايا النظم الاجتماعية القائمة ، وليس المقارنة بين الافكار المجردة ، هى التى تعنينا هنا . انهم يتناولون النزاع الايديولوجي فقط من زاوية الدعاية ، يتناولونه وكأنه « حرب سيكولوجية » ، وبناء على ذلك فالنجاحات التى حققها الشيوعيون تفصل بشكل كامل تقريبا عن الظروف الاقتصادية ــ الاجتماعية ، وعن تناقضات الواقع المحدد ، وتنسب الاسباب كلية الى مجال الافكار . وهناك سببان تغلب الاشارة اليهما .

الاول هو ان الشيوعيين قاموا باختيار ماكر للايديولوجية ، « مطلقين عددا من « الافكار الذكية » ، ومن ثم بذروا الفوضى فى العالم وتسببوا فى مختلف التغيرات الثورية . وهكذا يكتب الامريكى المعادى للشيوعية ل . هوينتى فى مقدمة كتابه تخطيط الشيوعية للمستقبل : « ثمة شيء واحد واضح : لقد اطلق ماركس وانجلز ولينين فى هذا العالم ثورة عن طريق الفكر والعقل تقوم فعلا باعادة صياغة التاريخ » (١١) .

وينسب عديد من الايديولوجيين البورجوازيين النجاحات التى حققها

---

(١١) التخطيط الشيوعي للمستقبل ، نيويورك ، ١٩٦٤ ، ص ١٦ .

الشيوعيون الى امتلاكهم لايديولوجية واحدة • فعالم الاجتماع الامريكي فريد ج • كوك يكتب ان قوة الشيوعية تكمن في تحويلها الماركسية من فلسفة الى ايديولوجية ، وفي ضمانها وحدة الفكر ، والتحديد في اختيار الاهداف • ويقدم عالم الاجتماع الانجليزي م • شانكس نفس الفكرة في كتابه « المجتمع الراكد » فيقول : « وفي هذا التوافق على وجه التحديد ، في هذه العملية لتطويع واخضاع المجتمع لتحقيق اهداف اجتماعية واقتصادية محددة ، هناك في نفس الوقت شيء ما ، لطيف ، وشريف وملهم • ومهما كانت جوانب النقص الاخرى فيه ، فهذا المجتمع يحتوي في داخله على احساس بالغرض • وهذا على عكس الحال في الغرب ، هو القوة العظمى » (١٢) •

ويتجاهل المفكرون البورجوازيون على وجه الخصوص مسألة العلاقة بين الايديولوجية والحياة • فالمدافعون عن الرأسمالية ، اذ ينظرون الى الاشياء بمعيار اسلحتهم الايديولوجية الخاصة التي تمثل مزيجاً من الوعود والكذب والديماجوجية ، فهم لا يسألون انفسهم حتى عن الطريقة التي تمكنت بها الافكار الشيوعية ان تجيب على المتطلبات الملحة للجماهير وان تأخذ في اعتبارها الاتجاهات الموضوعية للتطور الاجتماعي ، بل ان البورجوازية لا تعترف حتى بوجود هذه الاتجاهات الحتمية • وهكذا ، فعلماء الاجتماع البورجوازيون ، عندما ينسبون النجاحات التي حققتها الشيوعية كلية الى مزايا ايديولوجيتها بدلا من ان ينسبوها الى العوامل الاقتصادية — الاجتماعية ، فهم يعتبرون هذه المزايا وكأنها مستمدة من وحدة الغرض الذي تتميز به الايديولوجية الشيوعية ، ومن تنظيمها الداخلي ، وليس من اتفاقها وتمشيها مع متطلبات العصر •

والعامل الثاني الذي ينسب اليه الايديولوجيون البورجوازيون النجاحات التي حققتها الشيوعية هو الدعاية البارعة • وهكذا ، يتساءل د • هوايت ، الامريكي المعادي للشيوعية عندما يصف مباهج الرأسمالية الامريكية ، عن الاسباب التي تدفع مئات الملايين من الناس في البلدان الاخرى الى الاعتقاد بأننا « نحن الرأسماليين أوغاد » أو « يحكمنا » أوغاد رأسماليون والاجابة بالنسبة له بسيطة : ان هذا ليس الا مجرد نتيجة للدعاية الشيوعية ، وللحملة الدعائية الشيوعية التي تملأالعالم بهدف تشويه الرأسمالية ، والولايات المتحدة كالمعقل الاساسي لها •

وعلى أي الاحوال ، فمهما كانت التفسيرات التي يقدمها الايديولوجيون البورجوازيون ، فالامر الهام هو أن البوجوازية تقر بتفوق الافكار الشيوعية وتعتبر انتشارها خطرا قاتلا • انهم يدركون تمام الادراك ان نتائج النزاع الايديولوجي ( أو الحرب السيكولوجية كما يسمونه ) لم تعد مريحة بالنسبة لهم بأي حال من الاحوال •

وهذه الحقيقة حقيقة خسائر الرأسمالية في مواجهة الاشتراكية فيظلظروف

---

(١٢) ميخائيل شانكس ، المجتمع الراكد ، بالتيمور ، ١٩٦١ ، ص ١٥ •

التعايش السلمي ، هي التي تفسر العزوف عن قبول سياسة التعايش السلمى التى يقترحها الشيوعيون ٠

وفي نفس الوقت الذى تعترف فيه الايديولوجية البورجوازية بنجاحات الشيوعية ، فهي تعجز عن تقبل الحقيقة التى توضح ان هذه النجاحات ماهى الا حصيلة التطور التاريخى والتقدم الاجتماعى ، وما هى الا نتيجة للقوانين الموضوعية للتاريخ ، وليست فكرة تم اختيارها بدهاء ، و«حرب سيكولوجية» جرى تنظيمها ببراعة ونشاط ٠ ان مجرى التاريخ لايتحـدد عن طـريق « الافكار البارعة » ، وانما القوانين الموضوعية للتاريخ هي التى تحدد التأثير المتنامي للافكار التي تشجع التقدم ، وهى التى تحدد التأثير المتهاوى لافكـار الطبقات المحتضرة ٠

وقد بدأ حتى بعض الايديولوجيين البعدين تمام البعد عن قبول الافكار الماركسية في ادراك ذلك ، كما راحوا يعترفون بالشعبية المتنامية للشيوعية بصفتها حاملة لواء التقدم ٠ وهكذا يلاحظ المحرر الامريكى و ٠ مانجـر في تعليقه على الوضع في أمريكا اللاتينية أن : « أحدى المآسى الكبرى فى المرحلة الراهنة هي ان معارضى أيديولوجيتنا سمح لهم بأن يحلوا محلنا فى مخيلة هذا العدد الكبير من شعب أمريكا اللاتينية ، وان ثمة انطباعا خلق فى أذهانهم أنهم هم ، ولسنا نحن ، الذين ينادون بالسلام ، وانهم هم أبطال الديمقراطية والمدافعون عن الحقوق الفردية وأصدقاء المقهورين ومن هم فى القاع » (١٣) ٠

وفى نفس الوقت ، هناك ادراك متزايد واقرار بأن العالم الرأسـمالى يبدو كمركز للرجعية وقلعة للثورة المضـادة ٠ فعـالم الاجتماع الامريكى هـ ٠ ك ٠ أوبرى يكتب قائلا : « شئنا أم أبينا ، فالولايات المتحدة غالبا ماتوصف بأنها دولة « محافظة » ، وانها صديقة وحليفة النظم التى تعارض التغيير » (١٤) ٠ ومن ابلغ الدلالات فى هذا الصدد هذه الاعترافات المتعددة التى يقدمها أرنولد توينبى فى كتابه ، أمريكا والثورة العالمية والذى يقـرر فيه أن أمريكا اليوم هي زعيمة حركة الثورة المضادة فى جميع انحـاء العالم دفاعا عن مصالح معينة ٠

ومن الطبيعي ان مثل هذه الاعترافات لاتعنى ان الرأسمالية لم تعـد تجد السند والتأييد من أيديولوجييها ، وانما كل ما فى الامر هو أن أنصار الرأسمالية مجبرون على القيام بتقويم متعقل ومتزن للموقف الراهن اذا ارادوا ان تكون لديهم المقدرة على اختيار افضـل « سـبل للعمـل » فى النزاع الايديولوجى ٠ وبالرغم من ذلك فهـذه الاعتبارات بالغـة الدلالة بالفعل : «عنـدما يبدأ أبطال الرأسـمالية فى الاعتراف بالهزائم علنا ، فالنظـرية الرأسمالية تفقد الكثير من بريقها ٠

ج : وعندما يعترف ايديولوجيو البورجوازية الامبرياليـة بنجاحات الشيوعية وهزائم الرأسمالية فهم يضغطون من أجل قلب هذا الوضع ٠

---

(١٣) وليم مانجر ، الاتحاد الامريكى فى خطر ، مستقبل منظمة الشعوب الامريكية ، وشنطن ١٩٦١ ، ص ٦ ٠

(١٤) هـ ٠ ك ٠ أوبرى ، التعايش السلمي ، التحدي والاستجابة فى المجال الاقتصادى ٠

وبالرغم من ذلك ، فعندما يعجز الايديولوجيون البورجوازيون عن ادراك القوانين الموضوعية للتطور الاجتماعي والاستحالة الموضوعية لقدرة البورجوازية على الدفاع عن مزاياغير قائمة لنظامها ، وباختصار ، عندما يعجز الايديولوجيون عن ادراك الافلاس التاريخي لافكارهم ومثلهم العليا . نجدهم ينسبون هزائمهم الى الفشل في استخدام فرص الصراع الايديولوجي على وجه طيب . ومن أجل طمأنة طبقتهم الى ان اسباب الفشل تكمن في نواقص ايديولوجية أقل أهمية ، وليس في النقائص الموروثة للرأسمالية والتي تعجز البورجوازية عن القضاء عليها ، من أجل ذلك يعود الايديولوجيون البورجوازيون الى التركيز على النواقص فيالايديولوجية والدعاية البورجوازية بدلا من التركيز على التناقضات الحقيقية للحياة الاجتماعية .

انهم يتبنون مفهوما مثاليا ذاتيا عند تفسير هزائمهم وعند البحث عن حل ، ويزعمون ان الخلل الرئيسى انما هو فى افتقار الغرب الى مثل أعلى واحد . مع اشارتهم ضمنا الى أن كل شيء سوف يكون على مايرام اذا ماوجد هذا المثل الاعلى ) . وهكذا يكتب الامريكي المعادى للشيوعية فريتج فى كتابه الرخاء عن طرين الحرية : ان الشيوعية تزدهر حيثما لايكون هناك مثل أعلى معارض لمجابهتها ، مثل القوة الدينية القادرة ، أو القومية الموحدة والحادة ، أو اللبرالية العنيفة ، وأنه حيثما لايتوفر مثل هذا المثل الاعلى ، فلن يستطيعمال العالم أجمع ان يمنع نمو الشيوعية . ويكتب م . شانكس متحدثا عن ثراء عالم الغرب وما تتسم به الحياة فيه من اثارة ، ثم يقول ، « ولكن من الواضح انه غير قادر على تركيز طاقاته فى اطار اجتماعى ايجابي فعالم الغرب بأجمعه ، بدرجات متفاوتة ، يقف فى حاجة الى قوة محركة جديدة ، الى احساس جديد بالغرض الاجتماعي . ويبدو هذا النقص بين الدول الصناعية فى أقصى درجات الحدة ، كما نشعر به بالفعل هنا فى بريطانيا » (١٥) . ويشترك عديد من الايديولوجيين البورجوازيين فى الضرب على نفس الوتر ، متباكين على افتقاد الغرب للقوة المحركة وللغرض ، وعلى الاحساس العام بالانحدار وفقدان الاتجاه اللذين يعبر عنهما فى استجداء مثل أعلى لمعارضة الشيوعية .

وبعد ان يشخص الاطباء المعالجون للرأسمالية المرض بأنه وحدة وديناميكية الايديولوجية الشيوعية أمام انعدام تجانس الايديولوجية البورجوازية وسلبيتها ، يصفون الترياق الشافى لكل داء لتحسين وتنشيط الايديولوجية البورجوازية .

ولكنهم لايوافقون عندما يكون الدواء الحقيقى هو المقترح . والبعض يشعر بأن الايديولوجية البورجوازية ينبغي ان تطور حتى تتمشى مع روح العصر ، بينمايعتقد البعض ان التكتيكات المستخدمة فى الصراع الايديولوجي هى التى ينبغي ان تتغير ، ويرى اخرون ان المطلوب هو الربط بين هذين الامرين .

---

(١٥) ميخائيل شانكس ، المرجع السابق ، ص ١٧ .

وينسى العديد من الايديولوجيين البورجوازيين الذين يقترحون « مثلا أعلى غربيا » مشتركا وواحدا لمواجهة « التهديد الشيوعي » ان هذا امــــر محال ،*فالايديولوجية البورجوازية عاجزة عن تقديم افكار تقدمية أو مــذهب* مشترك عام ، لسبب بسيط ، وهو ان البورجوازية مقسمة الى عديد مـــــن المجموعات المتناقضة ذات المواقف المتميزة تماما لكل منها ·

وثمة مسألة أخرى لا تقل أهمية بالنسبة لأعداء الشيوعية » وهى مسألة الحصول على مزيد من « المجال الحيوى » لافكارهم عن طريق طرحها فيمـــا وراء « الستار الحديدى » · وهنا تلعب نظرية « تفتيت الشيوعية » دوراهاما ونقل الحرب الى أرض الخصم ، ومفهوم « التكافؤ فى الفرص » بين الرأسمالية والاشـــتراكية ، وباختصـــار ، مفهوم التخريب الايديولوجي فى البلدان الاشتراكية ·

والايديولوجيون البورجوازيون يتجاهلون كاملا الاسباب الاقتصادية والاجتماعية لانتشار افكار معينة ، ويعتقدون انهم يستطيعون تحقيق نجاح كبير بضـمان تسرب الافكار الرأســمالية الى البلدان الاشـــتراكية · وهم يدعون انه بمجرد توجيه بضعة ضربات سيكولوجية ناجحـــة الى العدو فى داخل اراضيه نفسها ، يمكنهم ان يحققوا نجاحا هائلا « للعالم الحر » ، ومن ثم فهم يقترحون « فتح » المجتمعات الشيوعية المقفلة و « خلع » الماركســـية اللينينية ·

وأما أن هذه الامال مقضي عليها بالفشل لايرجع فحسب الى ان البلدان الاشتراكية ساهرة على حراسة مصالح الجماهير العاملة وانما القضية هى أن الاقتراحات المتعددة التي يقدمها الساســة والايديولوجيون البورجـــوازيون تستند الى المفهوم الخاطىء جذريا عن أن مجرىالتاريخ انما يتحدد باختيــار الافكار والقدرة على بثها بين الجماهير · وانه لخطأ فادح ان تنسب كل هـــذه الاهمية المبالغ فيها للافكار · ولكن هذا لايعنى القول بأن الافكار ليست لهـــا أهمية بالغة ، واليوم أكثر من أى وقت مضى ، ولكن الافكار التى يتركز مـــن حولها نزاعاجتماعي ليست هي الاختيار التعسفى بيّن الايديولوجيات ، وانما هى انعكاس للمصالح الطبقية الاقتصادية الاجتماعية ، وتعبير عن اتجاهات اجتماعية معينة ·

ونجاحات الايديولوجية الشيوعية لاترجع الى ان مؤسسى الماركســـية ــ اللينينية اقاموا نظاما « ملائما » و « مريحا » من الافكـــار والاراء ، وانمـــا ترجع هذه النجاحات الى أن الآراء تمثـــل متطلبـــات ضرورية للتطـــور الاجتماعى ، وانها تشكل « شعارا صادقا » للنضال الجارى بالفعل ، والى انها نعكس ، وتأخذ فى اعتبارها · الاتجاهات الموضوعية للتطـور الاجتماعى ، والتى ستؤدى ، فى استقلال تام عن رغبات أى مجموعات اجتماعية معينـــة عاجلا أو آجلا ، الى احلال الاشتراكية محل الرأسمالية · ومن الممكن رفض الافكار الشيوعية ، ومجادلة الرأى الخاص بالتطور الاجتماعي الذى تمثله ، ولكن هذا لايمكن ان يستخدم فيما يزيد عن الاغراض الدعائية البحتة : فهذا الرفض وهذه المجادلةلن تؤثرا قيد انملة فى المجرى العام للتطور التاريخى ،

الذى سيؤكد مرة بعد أخرى صحة الماركسية ـ اللينينية وخطأ التوقعات البورجوازية ، مما يؤدى الى تزايد التخلي والردة عن صفوف الايديولوجية البورجوازية والتحول الى ايديولوجية البروليتاريا ٠

ومن الواضح ان هذه العملية لن تسير في خط مستقيم منتظم ، فالايديولوجية البورجوازية واداتها الدعائية لهما تأثيرهما القوى على الجماهير فعن طريق نشر الاكاذيب والتشويه ، وربطهما بأنصاف الحقائق ، تحتفظ الايديولوجية واداة دعايتها بقدرتهما على الحفاظ على تأثيرهما على عدد من الناس لبعض الوقت ٠ ولكن المجتمع البورجوازى تمزقه التناقضات ، والهوة بين الطبقتين الاساسيتين ـ البروليتاريا والبورجوازية ـ ومن ثم فالشروط تتواجد داخل المجتمع الرأسمالى للترويج لايديولوجية الطبقة العاملة ـ الماركسية ـ اللينينية ٠

أما فى العالم الاشتراكى ، على الجانب الاخر ، فالشروط الاقتصادية ـ الاجتماعية اللازمة للترويج للافكار الرأسمالية لاوجود لها ، لانه ليس هناك جماعات أو طبقات يمكن ان تمثل هذه الافكار مصالحها ٠ وعى أى الاحوال ، وعلى ضوء الحقيقة القائلة بأن الافكار انما هى ، الى حد ما ، مستقلة عن الظروف الاقتصادية ـ الاجتماعية فلا ينبغى بأى حال من الاحوال تجاهل نوايا البورجوازية لبذر بذور البلبلة فى عقول الجماهير العاملة فى البلدان الاشتراكية أو استبعادها كلية على اساس انها عديمة التأثير ٠ واذا كان الامر كذلك فمن المهم بالنسبة لنا ان ندرس النظريات البورجوازية داخل « حدود الشيوعية » دراسة نقدية ، وبعناية كاملة ٠

والشيوعيون يرفضون المفهوم البورجوازى عن النزاع الايديولوجى كجزء من الحرب الباردة ، وهم يعتبرون الصراع بين الايديولوجيتين البروليتارية والبورجوازية انعكاسا للمنافسة بين نظامين اقتصاديين ـ اجتماعيين مختلفين كيفيا ، وأن نضال البروليتاريا ضد البورجوازية وسيلة لتوضيح وابراز مزايا الاشتراكية كضمان لحرية الاختيار من جانب الجماهير والتى تلبى متطلباتها على نحو أفضل ٠ وليس لدى الشيوعيين مايدعوهم للخوف منالنزاع الايديولوجى ، لان الاشتراكية والشيوعية وحدهما هما هما اللتان تلبيان حقا المصالح الحقيقية للجماهير العاملة ، ولان الايديولوجية الماركسية ـ اللينينية وحدها هى التى تحدد معالم الطريق نحو مجتمع يتمشى مع آمال الاغلبيةالساحقة من البشرية ٠

## التعايش السلمى والتوفيق الايديولوجى

يؤيد التعايش السلمى اليوم عديد من المنتمين للطبقات الوسطى من ممثلى البورجوازية الصغيرة والمتوسطة ، لاكحرب باردة ولكن على اساس انه « توفيق ايديولوجى » ٠٠ وهذه المجموعات الاجتماعية وايديولوجيتها على استعداد لقبول التعايش السلمى على شرط ان يستبعد الحرب الباردة

والنزاع الايديولوجي معا ، انها تنادى « بالتعايش الايديولوجى » ·
على هذا النحو يكتب عالم الاجتماع الالمانى أ · بوتشلوز : « السلام السياسى بدون سلام روحى هو دائما سلام مؤقت » (١٦) · وكان كريستوفر مايهو ، عضو حزب العمال البريطانى يؤمن بنفس الرأى عندما أصر على أن «التعايش الايديولوجى » و « وضع حد لمعركة الدعاية المريرة التى عفى عليها الزمن بين مايسمى بالرأسمالية ومايسمى بالشيوعية » (١٧) هما أحد شروط التعايش السلمى ·

ومن الطبيعى ان يكون هناك عديد من الاراء الهشة بين مؤيدى هذه النظرية أيضا ·ونحن نواجه بعدد كبير من النظريات ، والمفاهيم ، والحلول ، والاقتراحات ، التى تمشى جنبا الى جنب مع الاراء السياسية والشخصية لاصحابها · وهكذا ، وعندما نختبر جوهر الفكرة العامة التى نحن بصددها ، لانستطيع الا أن نقتصر على بعض الاراء الاكثر انتشارا والتى عبر عنها بشكل كامل · وهذه الاراء هى : (أ) الرأى القائل بأن الصراع الايديولوجى مؤقت وانه سيتوقف عند نقطة معينة فى مجرى تطور الرأسمالية والشيوعية ، (ب) الرأى القائل بأن النزاع الايديولوجى لايتفق مع التعايش السلمى · ومن ثم لابد ان يفسح الطريق الى السلام الايديولوجى ·

ولننتقل الى تحليل كل من هذين المفهومين على التوالى :

(أ) : بعض الايديولوجيين البورجوازيين ، ممن يعتبرون السلام مسألة ذات أهمية ، فائقة ينظرون الى الصراع الايديولوجى كنتاج للتطلعات الراهنة للشيوعية والرأسمالية ، وكسمة ملازمة للمرحلة الحالية الموقتة من التعايش السلمى ، ومن ثم فهو سلام مقضى عليه بالاندثار بمرور الوقت ·

ومن أهم المؤلفات التى ظهرت دفاعا عن هذا الرأى كتاب النضال من أجل عالم أفضل بقلم أ · بوتشهولز · فعلى ضوء المجرى الراهن للتاريخ · واستنادا الى الاعتبارات الخاصة بالنضال بين الرأسمالية والشيوعية ، يكتب بوتشهولز : « هنا يواجه مبدآن للحياة كل منهما الاخر · وكل منهما مبدأ عام وعلى نفس المستوى من الشمول · ومع ذلك ، وفى نفس الوقت ، فكل منهما يهدف الى الانتشار فى جميع انحاء العالم » (١٨) وهو يرفض الفكرة القائلة بأن هذين المبدأين يمكن ان يتم التوفيق بينهما بأى شكل من اشكال الاتفاق أو المساومة · « فلا يمكن التوصل الى أى اتفاق بين المبدأين القائمين فى الشرق والغرب بمجرد اللجوء الى المفاوضات أو التنازلات » (١٩) وهو بعيد تمام البعد عن تقديم الشيوعيين كمجرد عصابة من المتامرين ، ويعترف بأن « انصار هذه الايديولوجية مقتنعون بأنهم مقاتلون من أجل عالم

---

(١٦) أ . بوتشلوز ، ديركامبف اوم دبى بيسر ويلت ، ستوتجارت ١٩٦١ ص ٥٠ ·
(١٧)جريدة الجارديان ، ٧ نوفمبر ١٩٦١ ص ١ ·
(١٨) المرجع السابق ص ٣٥ ·
(١٩) المرجع السابق ·

افضل ، ويعتبرون ان القضية مجرد قضية وقت حتى يتحول العالم كله الى الشيوعية . ويرتبط بذلك الاعتقـاد بأن أحـد قوانين التاريخ يفضى الى الشيوعية » (٢٠) .

ويستند بوتشهولز في موقفه من التعايش السلمي والنزاع الايديولوجى الى تفسير سليم في جوهره ، فهو يرى انه فى ظل الظروف الراهنـة ، فى الوقت الذى أصبح فيه لكل من الرأسمالية والشيوعية » ادعـاءات تمتد الى الكرة الارضية كلها » ، فالتعايش السلمي لايستند الى أسس متينة وانمـا يلازمه فقدان عميق للثقة فى الجانب الاخر ، ومن رأيه ان التعايش السلمى اليوم ليس الا « توازن » خطر بين الحاجة للسلام ، وبين أهداف الشـيوعية العالمية والمطالبة بالحرية على نطاق العالم والتى تتجلى فى شكل أو اخـر . ووراء كل ذلك يكمن الفقدان العميق للثقة فى الجانب الاخر » (٢١) .

ولايمكن التغلب على فقدان الثقة المتبادلة وارسـاء قواعـد التعايش السلمى على اسس راسخة الا اذا تحققت حالة من « السـلام الايديولوجى » بين المبدأين المتنازعين . وبالنسبة للوقت الراهن فهـذا أمر مسـتحيل لان « السلام الروحى » لايمكن التوصل اليه الا عندما يتم اكتشاف أساس روحى يكمن فى الاعماق فيما وراء التناقضات التى نراها اليوم ،وحتى يتم استبعاد هذا الاساس الروحى عقليا (٢٢).

فكيف يمكن تحقيق ذلك ؟

على خلاف معظم الايديولوجيين البورجـوازيين الاخـرين ، يتنـاول بوتشهولز المبادىء الايديولوجية على أساس انها تعكس متطلبات اجتماعيـة معينة . ولو ان تناوله يشوبه نوع من السطحية . « فبالنسبة للوقت الراهن تقف مبادىءالغرب ومبادىء الايديولوجية الشيوعية فى وضع النزاع الـذى لايقبل المصالحة والحلول الوسط ، الامر الذى نتوقع أن يتزايد ،وربمـا بدرجة أشد ضراوة ، لان الايديولوجية الشيوعية موجهة الان نحو اشـباع حاجات معينة للعالم نراها شاخصة أمامنا ، بينما يواجـه الغرب مشـكلات المستقبل بكل مشقة وصـعوبة . وهذا الاختلال فى التوازن هو الذى يفسر فقدان الثقةالمتبادل » (٢٣) .

واذ يعجز بوتشهولز عن ادراك النزاع بين المصالح الطبقية الكامنة وراء الصراع بين الافكار ، فهو يتناول الصراع بين الايديولوجيتين كظاهرة مؤقتة ولايرجع الا الى المرحلة الراهنة من العلاقات بين الرأسمالية والشـيوعية ، وهو يعتبر ان النضال فى الوقت الراهـن صراع حتمى ، أما بالنسـبة للمستقبل ، عندما يتحقق التوازن بين الحاجات والمصالح ، فسوف يختفى

(٢٠) المرجع السابق ص ١٠ .
(٢١) المرجع السابق ، ص ٣٥ .
(٢٢)المرجع السابق .
(٢٣) المرجع السابق ص ١٠ .

فقدان الثقة المتبادل ، وسوف ينشأ اساس ايديولوجي مشترك ، وسوف يستقر السلام على أسس راسخة · وهكذا ، فاستنادا لما يقوله بوتشهولز ، « فالجدل الروحي بين الشرق والغرب مدخل يتحتم ولوجه ، ومن ورائه يكمن الطريق نحو مستقبل أفضل » (٢٤) ·

والطبيعة الطوباوية ( الخيالية ) لمثل هذه الاراء واضحة تمام الوضوح فالايديولوجية هي تعبير عن مصالح طبقية أساسية · ومن ثم ، فمهما بلغت درجة الموقف الدولي ، ومهما كانت التعديلات في علاقات القوى على المستوى العالمي ، فسوف تظل ايديولوجية الطبقة العاملة وايديولوجية البورجوازية نعادي كل منهما الاخرى عداء لايخبو أبدا · ولا تستطيع الظروف ، ولا الوقت أن يوفقا بينهما لان مصالح من يستغلون ومصالح من يقع عليهم الاستغلال ، اى مصالح الرأسمالي ومصالح العامل ، لايمكن التوفيق بينهما ·

ولاشك انه من السليم تماما ان نقول بأن التغير في علاقات القوى الدولية يؤثر في مجرى الصراع الايديولوجي ، ومن الحقائق التى تتبدى يوما بعد يوم وتزداد وضوحا أن امال البورجوازية الامبريالية في تحقيق انتصار عسكري على الشيوعية محكوم عليها بالفشل ، وهذا يفيد في تقويض مراكز « المغرقين في اليمينية » وينال من شعبية ايديولوجيتهم المعنة في الرجعية ، ويدفع أعدادا متزايدة من البورجوازيين الى تأييد مبدأ التعايش السلمي الذى ينادي به الشيوعيون · ولكن اقتناع الشيوعيين وبعض الايديولوجيين البورجوازيين بمبدأ مشترك ، والتزام الطرفين بالسلام والتعايش السلمي ، لايعنيان « السلام الايديولوجي » ، لان مصالح وايديولوجية الطبقة العاملة والبورجوازية تستمران في نبذ كل منهما للاخرى بشكل مطلق ، وتبقيان غير قابلتين للتوفيق ، كما كان حالهما دائما ·

(ب) : وينادى بعض أيديولوجيي البورجوازية المتوسطة وبخاصة الاصلاحيين ـ الاجتماعيين ، وفي نفس الوقت الذى يعترفون فيه برغبتهم في التعايش السلمي ، ينادون بأن النزاع الايديولوجي لايتمشى مع التعايش الحقيقي الذى يتطلب سلاما ايديولوجيا ·

والمثل الصارخ على هذا المفهوم عن « التعايش الايديولوجي » هو الذى نلتقي به في مقال نشر في الصحف وفي كتيب صغير لكريستوفر مايهو (٢٥) عضو حزب العمال البريطاني ·

ويعرض مستر مايهو اراءه ، أساسا ، على النحو التالى : « الحرب الباردة افضل من الحرب الساخنة ، والتعايش مع المنافسة أفضل من الحرب الباردة · ولكن التعايش مع المنافسة نفسه مفهوم متخلف · ولا يتناسب

---

(٢٤) المرجع السابق ·

(٢٥) ك · مايهو ، « التعايش ـ اجابة الغرب » جريدة الجارديان ٧ نوفمبر ١٩٦١ ص ٩ و التعايش + الفهم الايجابي للسلام العالمي ، لندن ١٩٦٢ ·

مع العصر الحديث الذى نخطو اليه الان » (٢٦) فما أبرز الاشـــياء إلتى تثير سخط مستر مايهو بالنسبة لهذا المفهوم ؟ انه يرى ان المفهوم الشيوعى الراهن للتعايش السـلمى خطير ويؤدى الى التمزق لانه فى نفس الوقت الذى يرفض فيه الفرض القائل بأن الحرب حتميـة ، فهو لايحـول دون الصراع الضارى ضد الرأسمالية . وكتيب مستر مايهو محاولة تهدف الى ان توضح على وجه الخصوص ان « الصراع الايديولوجى الذى يصر عليه هـذا المفهوم عقيم ولامعنى له . ويسمم العلاقات بين الشرق والغرب » . (٢٧)

ويبنى مايهو حججه على أساس التأكيد بأنه من اللغو ان نتحدث عـن عالم شيوعى وعالم رأسمالى . « فهذه الدعاية الشيوعية ـ الرأسمالية تستند الى افتراضات غير حقيقية متزايدة ـ وبخاصة افتراض ان ايديولوجيات العالم يمكن تقسيمها الى مجموعتين ، وأن هاتين المجموعتين يمكن تصـنيفهما بكل دقة الى مجموعة « شيوعية » ومجموعة « رأسمالية » أو ( حرة ) » (٢٨)

وهذا الرأى ليس جديدا ، ولكنه لم يكن قادرا على أقناع أحد حتى وهو جديد . فليس هناك من يحـاول منازعـة الفكـرة الواضـحة تماما عـن ان « الايديولوجيات والنظم الاجتماعية فى العالم مختلفة ومتنوعـة الى اقصى حد » . ولكن من الخطأ أيضا ، وبنفس الدرجة ، ان ننتقل الى التطرف المقابل كما يفعل مايهو ، مرددا اراء عـدد من زملائه فى حزب العمال ، من أمثال ريتشارد كروسلاند وجون ستراتشى ، فيزعم أن « الرأسمالية قد تحولت الى شيوعية » . وأن « هذا التنوع يتزايد على جانبى السـتار الحـديدى ، وأن النمط الرأسمالى من الحرية يتزايد فى بعض البلدان الشيوعية ، وأن نمط التخطيط الشـيوعى يتزايد فى بعض البلدان الرأسـمالية ، وأن مفهوم « الشيوعية الصرفة » التى تواجه رأسمالية صرفه عبر هوة لايمكن الوصل بين جانبيها ، انما هو فى الواقع مفهوم غير علمى سرعان ماسيتحول الى مفهوم غير معقول بكل وضوح » (٢٩) .

وهذا الرأى ليس الا مجرد تحوير جديد للنغمة الشائعة والتى تنحو الى المزج بين الرأسمالية والاشتراكية لانتاج « مجتمع مختلط » .

ومايهو لايقتصر على التعميم ، وانما يعرض اراءه بالتفصـيل ، ويقوم بمقارنتها نقطة نقطة بالتفسير الماركسى المقابل . وهو اذ ينحو هـذا المنحى يلتقى بما يعتبره ثلاث مقدمات منطقية زائفة . وربما ينبغى الاشارة هنا ، وفى هذا الصدد ، الى أن مستر مايهو يهتم بعرض موقف خصومه بدقة .

واحدى هذه المقدمات المنطقية التى يصب عليها نقـده تتعلق بالبناء الاجتماعى لعالم اليوم ، « فأول هذه الافتراضات هو أنه ليس هناك سـوى

---

(٢٦) هذه الفقرة والفقرات التالية ، مالم نذكر غير ذلك ، مقتبسة من الكتيب .

(٢٧) المرجع السابق ص ١ .

(٢٨) المرجع السابق ص ١ .

(٢٩) المرجع السابق .

ايديولوجيتين رئيســيتين أو نظامين اجتماعيين » (٣٠) • ومايهو يرفض ذلك رفضا قاطعا • « والقوى العسكرية تستقطب على نطاق العالم ، ولكن النظم الاجتماعيه لاتستقطب ، وليست النظرية الشيوعية حول استقطابها الا خطأ نموذجيا للتفكير الجدلى الماركسى بمايحمله من ولع مهلك بالتقسيم التعسفى ( لكل ظاهرة ) الى قطبين • والواقع ، وبالطبع ، ان النظم الاجتماعيـــة فى العالم متنوعـــة الى اقصى حـد ، بل وان هـــذا التنوع ليتزايد يوما بعـد يــوم » (٣١) •

واشارة مايهو الى الديالكتيك ( الجدلية ) لاتعنى بأى حال من الاحوال أنه يمثل فى رأيه شيئا قابلا للتصديق • فأولا لم يكن لدى الشــيوعيين فى أى وقت من الاوقات ولع محدد « بالتقســـيم الى قطبين » ، وعلاوة على ذلك ، فهم لم ينازعوا على الاطلاق فى أن هناك نظما اجتماعية أخرى فى العالم الى جانب الاشـــتراكية والرأســـمالية ، نظما تجمع بين عناصر من الاقطاعيـة والرأسمالية مثل تلك التى يمكن ان نراها بوضوح اذا القينا نظرة عـــلى البناء الاجتماعى لعديد من الدول الافريقية •

ولكن المهمة الحقيقية للعلم ليست هى عمل قائمة بجميع النظم الاجتماعية التى توجد فى العالم وملاحظة مدى تنوعها ، وانما المهمة الحقيقية للعلم هى أن يحدد جوهر النظم الاقتصادية ـ الاجتماعيـــة الاساســـية والاتجاهات الرئيسية للتطور الاجتماعى • واذا تفهم المرء المســألة من هـــذه الزاوية ، فلا يمكن الا بتعمد التعامى عن الحقائق أو تشويهها ان يتمكن من انكـــار ان الاشتراكية والرأسمالية هما النظامان الاســـاسيان فى العالم • وان النزاع بينهما ـ النزاع السياسى والايديولوجى ـ هـو العامل الرئيسى الكامن وراء التطور الاجتماعى •

والواقع ان هذه الحقيقة لايقر بهـا الشــيوعيون وحـــدهم ، وانما هى مقدمة منطقية أساسية لجميع الايديولوجيات البورجوازية الصريحة • ومن الطبيعى أن يعزف الاصلاحيون الاجتماعيون عن الاعتراف بها لان هذا الاعتراف يعنى الاقرار بسخف سياستهم الخاصة بالتوفيق بين المصالح الطبقية واخضاع الطبقة العاملة للبورجوازية • ولكن هذا لايعطيهم تفويضـــا مطلقا بالحق فى اللعب بالحقائق على هواهم ، وتقديم صورة للواقع تتلاءم مع المفهوم الـــذى يقع عليه اختيارهم • فليس فى مقدور أحد ان يلعب بالحقائق دون ان ينال جزاءه : فالحياة تتميز بصفة كريهة ، هى ان تثأر لنفسها من الذين يتصرفون على هذا النحو •

وهناك مقدمة منطقية أخرى ، أو كما يسميها هو « الافتراض » يهاجمها مايهو ، وتتعلق بالفوارق بين الشيوعية والرأسمالية • « والافتراض الزائف الثانى هو القول بأن الهوة بين الشيوعية والرأسمالية لامجال للوصـــل بين طرفيها » (٣٢) • وهو يرى ان « الهوة بين معظم البلدان الشيوعية والبلدان

---

(٣٠) المرجع السابق ص ٩ •

(٣١) المرجع السابق ص ١٠ •

(٣٢) مايهو ، المرجع السابق ص ١٣

الرأسمالية آخذة بلا شك فى الضيق ، وانها سوف تستمر فى الضيق على الارجح فى السنوات المقبلة » . (٣٣)

وعلام يستند مايهو تأييدا لهذا الرأى ؟ مرة أخرى نجده لايأتى بجديد وبخاصة عندما يقدم « أوجه شبه » من نوع التخطيط الاشتراكى وترتيبات الدولة الرأسمالية للاقتصاد ، ووجود الربح فى كل من الاقتصادين الاشتراكى والرأسمالى ، ووجود الانتاج السلعى فى البلدان الاشتراكية ، وما الى ذلك .

ولكن هذه الحجج كلها غامضة تقريبا ، ولاتحمل الا وزنا ضـئيلا . فوجود عشرات من الظواهر المتشابهة ، وليس فقط ظاهرة واحدة أو اثنتين ، فى كل من المجتمعين الاشتراكى والرأسمالى لايغير بأى حال من الاحوال من الحقيقة المؤكدة وهى ان السمات الاجتماعية الاساسية للنظامين متعارضة تمام التعارض . وسوف تستمر هذه السمات الاجتماعية الاساسية للنظامين على تعارضـها لسبب بسيط ، وهو أن تطور النظامين ليس حركة على طريقين منفصلين يقترب كل منهما من الاخر بالتدريج ، وانما هو تحول ثورى مـن أحدهما الى الاخر ، من الرأسمالية الى الاشتراكية .

واذا وافقنا ، كما ينبغى ان نوافق ، على أن ملكية أدوات الانتـاج هى التى تشكل أساس العلاقات الاجتماعية ، فكيف يمكننا ان ننكر ان الملكيـة العامة فى المجتمع الاشتراكى والملكية الرأسـمالية الخاصـة فى المجتمع البورجوازى متعارضتان تمام التعارض فى الجوهر ، وفى الدور الاجتماعى ، وفى طبيعة العلاقات الاجتماعية التى تنبنى على كل منهما ؟ انه على هـذه الاشكال المتعارضة تماما من اشكال الملكية تقوم النظم الاجتماعية والسياسية المتعارضة للرأسمالية والاشتراكية ، ووجود بعض السمات المشـتركة فى النظامين انما يرجع فى جانب منه الى ان الشيوعية لم تنضج بعد بالدرجـة الكافية ، وأنها تستفيد فى المرحلـة الاولى من تطورهـا من بعض الجوانب الاقتصادية الموروثة من المرحلة السابقة ، أى الرأسمالية ، مع اكسابهـا محتوى جديدا ــ جوانب مثل « السلعة » و « النقود » و « الربح » ... الخ ويرجع وجود هذه السمات المشتركة بين النظامـين من جانب اخـر الى ان تزايد التمركز والتركز فى الانتاج فى النظام الرأسمالى جعل مـن الضرورى توفر قدر ما من سيطرة الدولة التى تشبه الى حد ما التخطيط وتدخل الدولة فى الاقتصاد وما الى ذلك .

وهذا لايعنى ان الرأسمالية والاشتراكية تسيران الان فى طـريق التقارب ، ان كل مايعنيه هو ان المتطلبـات الاقتصـادية ــ المـادية للمجتمع الجديد تأخذ فى النضج فى اعماق الانتاج الرأسمالى القائم اليوم ،وكلمـا سار التاريخ الى الامام ، وكلما تطورت الشيوعية ، فسـوف تزداد الفوارق بين الشيوعية والرأسمالية ، فى نفس الوقت الذى ستتطور فيه العمليـة الثورية لتحويل الرأسمالية الى الاشتراكية بطريقة متزايدة السرعة .

---

(٣٣) مايهو ، المرجع السابق ص ١٤ .

ولايمكن لغير الماركسيين ، بما يحملون من نظرة مثالية ، أن يفهموا ، أو هم لايريدون أن يفهموا ، ان الصراع الايديولوجى انعكاس حتمى للصراع الطبقى المتولد عن التناقضات الاقتصادية ـ الاجتماعية . ولا يمكن لهذا الصراع الطبقى المتولد عن التناقضات الاقتصادية ـ الاجتماعية . ولا يمكن لهذا الصراع ان يوقف بارادتنا ، لانه لايجرى ولا يستمر عن طريق الدسائس الشريرة للثوريين ، ولا هو بالمفروض على البشرية عن طريق الشيوعيين . انه بكل بساطة نتاج اجتماعى ضرورى تاريخيا . لقد وجد المجتمع الطبقى منذ الاف السنين ، وطوال تلك الاحقاب استمر الصراع الطبقى فى أشكاله الاساسية ـ الاقتصادية ، والسياسية ، والايديولوجية . وهذا النزاع لم يوجد قبل ان تظهر الشيوعية على المسرح فحسب ، وانما بدأ حتى قبل أن يوجد مايسمى بالطبقة العاملة أو الرأسمالية . والمجتمع الرأسمالى يولد الصراع الطبقى ، بما فى ذلك الصراع الايديولوجى بين الطبقة العاملة والبورجوازية .

ومن الواضح ان الصراع الطبقى يشن بطريقة واعية ، وتتحكم فيه الجماهير ، ولكن حتمبته وضرورته التاريخية تظلان هما العامل الحاسم .

وعندما يعرض مايهو مفهومه للتعايش الايديولوجى فهو يتقدم بحجتين دفاعا عنه :

الحجة الاول هى ان الصراع الايديولوجى عقبة فى طريق التعايش السلمى ، وانه يمنع التعاون بين البلدان الاشتراكية والرأسمالية .

وتنتشر الفكرة القائلة بأن الصراع الايديولوجى ـ « الخرافات الايديولوجية » ـ يكمن فى جذور التوتر الدولى وانه هو العقبة الرئيسية فى طريق السلام ونزع السلاح ، تنتشر هذه الفكرة وتمتد كالخيط الاحمر على طول الكتيب كله . فمايهو يدعو بلدان العالم الى « ان تتخلى عن صراعها الدعائى الشيوعى ـ الرأسمالى الاحمق ، والى ان تتعلم كيف يتحمل كل منها أفكار الاخر ومؤسساته » (٣٤) ولكن لماذا لاتخطو هذه البلدان ، اذا كانت تشعر بأن الصداقة والتعاون مرغوب فيهما على مستوى العلاقات بين الدول ، ولماذا لاتخطو الخطوة المنطقية التالية فتقبل التعايش الايديولوجى أيضا . (٣٥) وفى رأى مايهو أن « امكانيات التعاون اودى تصبح محدودة اذا ما اصر الشيوعيون على فرض الصراع الايديولوجى على العالم » . (٣٦)

ولسنا فى حاجة الى العودة الى القول بأن الشيوعيين لايفرضون الصراع الايديولوجى على العالم . ولنتوقف هنيهة ، بدلا من ذلك ، لندرس

---

(٣٤) مايهو ، المرجع السابق ص ٢ .

(٣٥) المرجع السابق ص ١٦ .

(٣٦) المرجع السابق ص ١٥ .

اراء مايهو التى تذهب الى ان الصراع الايديولوجى يعوق امكانيــة قيــام التعاون الودى .

فمايهو من أولئك الايديولوجيين الذين يعتبرون الصراع الايديولوجى أداة هامة للحرب الباردة ، وأداة لزيادة حدة التوتر الدولى . وهو يميل ، مثل العديدين غيره ، الى تناسى أن هذا ليس الا تفسيرا واحدا لجوهره ودوره ، وأنه ليس التفسير الوحيد بأى حال من الاحوال . وأصحاب هذا التفسير ينتقلون منه الى تصوير الشيوعيين الذين يعترفون بحتمية الصراع الايديولوجى بأنهم من دعاة الحرب الباردة والتوتر الدولى .

ولكن الشيوعيين كانوا يؤكدون دائما على الفارق الجذرى بين الحرب الباردة كوســيلة لتحقيق وزيادة حــدة التوتر الدولى ، وبــين الصراع الايديولوجى كوسيلة للتعبير عن المواقف الطبقية . فالشيوعيون يرفضــون الحرب الباردة ويؤمنون بأنه من الممكن وضع حد لها ، ولكنهم يصرون عــلى أن الصراع الايديولوجى لايمكن أن ينتهى طالما وجدت الطبقات المتناقضــة . ولذلك ، فأى محاولة لاتهام الشيوعيين بأنهم يثيرون هستيريا الحرب عــلى اساس انهم يصرون عــلى حتمية الصراع الايديولوجى وعــلى اساس انهم يشنون هذا الصراع ، انما هى محاولة لاأساس لها على الاطلاق ، ولايمكن أن تصدر الا عن تجاهل للمبادىء الاولية للشيوعية ، أو عن تزييف متعمد .

والحجة الثانية التى يقدمها مايهو دفاعا عن التعايش الايديولوجى هى أنه « الى جانب ما عليه الصراع الايديولوجى من تناقض مــع العــلم ومن خطورة ، فهو باهظ النفقات أيضا » . (٣٧)

أما فيما يتعلق بأن الصراع الايديولوجى يتناقض مــع العلم ، فمستر مايهو لايوضح لنا ماذا يقصد بهذا التصريح الماحق . فاذا كان يقصد انه « غير قانونى » ، فقد سبق أن ناقشنا هذه المسألة قبل ذلك ، أما اذا كان ما يقصده هوأن ثمة وسائل وأساليب « غير علمية » تستخدم فى الصراع ، ففى هــذه الحالة يكون لدينا موضــوع للنقاش .

فى هذه المسألة نلتقى بالطبيعة المختلفة كيفيا لكل من الايديولوجيــة الماركسية والايديولوجية البورجوازية ، فالايديولوجية الماركسية تقدميــة وعلمية ، بينما الايديولوجية البورجوازية رجعية وغير علمية . وهذا الوضع هو الذى يحدد الوسائل التى تحاول كل من الايديولوجيتين أن تكسب بهــا عقول الناس . وقد كان الشيوعيون يعارضون دائما ، وبحزم ، اســتخدام التزييف والاكاذيب وتشويه الحقائق وغير ذلك من الوسائل التى تســتخدمها الايديولوجية البورجوازية فى الصراع ضد خصومها ، وكانوا يقفون دائما ضد الالاعيب الدنيئة التى تستخدمها الدعاية البورجوازية لالقاء الغشــاوة على أعين رجل الشارع . ولقد أكد الشيوعيون على الدوام على الحاجة لشــن

---

(٣٧) المرجع السابق ص ١٩ .

الصراع الايديولوجى بوسائل عادلة ، وهو موقف مفهوم تمـــــاما من جانبهم لانهم يعرفون أن أفكارهم تمثل مصالح الجماهير وأن التاريخ يؤكد صحتها . ونتيجة لان المصالح البورجوازية هى مصـــــالح رجعيـــــة ، يتعين على الايديولوجيين البورجوازيين أن يلجأوا الى التزييف ، على شـــكل اكاذيب وانصاف حقائق وتشويهات للحقيقة ، من أجل كسب تأييد الجماهير ، لانه ليس امامهم اليوم أى طريق آخر لتبرير مصالحهم وأهدافهم الرجعيـــــة . وهكذا ، فالشيوعيون ، وفى نفس الوقت الذى يرون فيه أنه من الضرورى فضح زيف الايديولوجية البورجوازية ، الا انه ليست لديهم أى أوهام حول امكانية تحول هذه الايديولوجية البورجوازية الى أى شىء آخر خلافا لما هى عليـــــــــــه .

أما فيما يتعلق « بالنفقات » المشار اليها ، فبالرغم من أن البورجوازية تعبر من وقت لاخر عن ضيقها بما وصلت اليه من « تجاوز للحد » الا ان هذا لا يمنع انها تضطلع بها . والبورجوازية تدرك تمام الادراك ان المســـتغلين لا يستطيعون ، الا بفضل تأثيرها الايديولوجى ، أن يحكموا قبضـــــتهم على الجماهير ، وليست النداءات الخاصة بخفض النفقات المخصصـــــة للصراع والتى تتعالى أصواتها من وقت لاخر داخل المعسكر البورجوازى الا ضربا من النفاق المحض . وسواء اراد مستر مايهو أو لم يرد ، فالصراع الايديولوجى لا يمكن استبعاده من الحياة الاجتماعية .

وما البرنامج الايجابى الذى يقدمه مستر مايهو لضمان الســـلام ؟ انه يعبر من الفكرة التى تقول بأن « هناك ثلاثة أشياء حيوية ينبغى اضافتها الى المفهوم الماركسى عن التعايش السلمى » : التعايش الايديولوجى ، ووضع حد لمعركة الدعاية التى لم تعد تتمشى مع روح العصر بين ما يســـــمى « بالرأسمالية » وما يسمى « بالشيوعية » ، واقامة علاقات حرة حقا بين الشرق والغرب ، والتعاون النشط بدلا من التنافس العقيم بين الحكـــومات الشيوعية وغير الشيوعية » . (٣٨)

أما بالنسبة للمطلب الاول المطلوب اضــــافته ، أى « التعـــــايش الايديولوجى » فقد سبق أن درسناه موضحين كيف أنه ليس مرفوضــــا من جانب الشيوعيين فحسب ، بل ووضحنا أيضا أنه استحالة عضوية .

اما بالنسبة للمطلب الثانى ، فاذا كان مستر مايهو يعنى التعاون القائم على الحقوق المتساوية والمنفعـة المتبادلة ، فالشـــيوعيون لم يكـن لديهم أى اعتراض فى أى وقت من الاوقات ، بل على العكس من ذلك ، فقد كانوا هم الذين واصلوا اصرارهم على أن التعايش السلمى لابد أن يعنى ، لا مجـــرد عدم قيام الحرب ، وانما يتحتم ان يعنى التعاون التجارى والثقافى والعلمى الشامل والنشط بين البلدان ذات النظم الاجتماعية المختلفة . ولقـــد كان الامبرياليون ، وليس الشيوعيون ، هم الذين يفرضون القيود على التجارة مع

---

(٣٨) ك . مايهو ، المرجع الســابق ص ١ .

البلدان الاشتراكية ، والامبرياليون فى الولايات المتحدة هم الذين يحاولون فرض الحصار على كوبا ، والحكومات البورجوازية هى العازفة عن التعاون مع البلدان الاشتراكية حول برنامج لفرض الرقابة على التسلح . ولسنا فى حاجة الى الاستمرار فى سرد المزيد من هذه التفاصيل . فهذه الحقائق وحدها تكفى لاثبات أن المطلب الثانى لمستر مايهو مقدم الى غير جهة الاختصاص .

أما العلاقات الحرة الحقة التى يقصدها مستر مايهو فالمقصود هو ادخال الافكار البورجوازية الى ما وراء حدود الشيوعية . وهو يعترف بذلك صراحة عندما يكتب ( فى مقاله المنشور بجريدة الجارديان ) بأن أهم الواجبات أمام غير الشيوعيين من امثاله اليوم هو تشجيع البلدان الشيوعية على مواصلة السير على طريق « المراجعة » ، فى اتجاه التوصل الى مفهوم للتعايش السلمى يتلاءم مع العصر النووى . (٣٩) وهذا الرأى يتناقض تناقضا تاما مع جميع « الحجج » التى يقدمها دفاعا عن « التعايش الايديولوجى » ، فالدفاع عن بث مثل هذه الافكار لا يعنى سوى الانغماس فى الصراع الايديولوجى الذى يدعى مستر مايهو ، نفاقا ، انه يعارضه .

ولذلك ، فاذا قمنا بدراسة أعمق لمفهوم « التعايش الايديولوجى » لتأكد لنا أنه لا يعدو أن يكون وسيلة من وسائل « الاخماد الايديولوجى » للشيوعيين من خلال اخضاعهم للافكار البورجوازية .

والشيوعيون لم يوافقوا فى يوم من الايام ، ولن يوافقوا ابدا ، على هذا النوع من « العلاقات الحرة » . وربما كانت البورجوازية وأبواقها قلقة لندرة اعداد الانتهازيين اللازمين لترويج افكارها فى البلدان الاشتراكية ، ولكن ينبغى عليها الا تتوقع قبول « التعايش الايديولوجى » على النحو الذى يصبح به هذا القبول تمهيداً للطريق . لبث الافكار البورجوازية فى المواقع التى تسيطر عليها الايديولوجية الشيوعية الآن .

يمتد الاتجاه الذى ينزع الى اعتبار الصراع الايديولوجى وسيلة اساسية للتصدى للشيوعية كالخيط الاحمر خلال جميع الاراء البورجوازية المختلفة التى تدور حول موضوع التعايش السلمى والصراع الايديولوجى ، ومن أهدافه الرئيسية التوصل الى نزع السلاح الايديولوجى للشيوعيين .

وان أسباب ذلك لجلية واضحة . فالايديولوجيون البورجوازيون يعتقدون ، عندما ينسبون للافكار دورا حاسما فى تشكيل مجرى التاريخ يعتقدون انه من خلال « نزع سلاح » الشيوعيين فى المجال الايديولوجى ، يمكنهم أن يكسبوا الصراع الايديولوجى ، ومن ثم يمكنهم أن يحولوا المجرى الفعلى للتطور الاجتماعى الذى ليس لصالح البورجوازية قطعا .

ومهما يكن من شىء ، فهذه الاستراتيجية غير سليمة على الاطلاق

---

(٣٩) الجارديان ، ٧ مايو ١٩٦١ .

ولا يمكن تطبيقها لانها تستند الى مفهوم مثالى ذاتى زائف للتطور التاريخى يبالغ الى درجة عظيمة فى دور الصراع الايديولوجى ويعتبره العامل المحدد للتطور . والواقع أن الصراع الايديولوجى ليس الا الانعكاس الروحى للصراع المادى للقوى الاجتماعية أى للصراع الطبقى . ان الاتجاهات المادية الموضوعية هى التى تحدد اتجاه التطور الاجتماعى وهى التى تحدد شروط واشكال الصدام بين القوى الاجتماعية بما فى ذلك الانعكاس الناجم عن هذا الصدام ، وهو الصراع الايديولوجى . وهكذا وسواء اراد الايديولوجيون البورجوازيون او لم يريدوا فالتعايش السلمى بين البلدان ذات النظم الاجتماعية المختلفة يتضمن بالضرورة النضال الاجتماعى فى جميع أشكاله فيما عدا النضال المسلح بين البلدان الاشتراكية والرأسمالية . وبعبارة أخرى فالتعايش السلمى كان على الدوام ، وسوف يظل على الدوام نزاعا طبقيا يتم خوضه بمختلف الاشكال بما فى ذلك الصراع الايديولوجى .



# الفصل الخامس عشر

# الكاثوليكية الحديثة ومشكلات الحرب والسلام

مازال لاراء الكهنوت الكاثوليكي أثرها الدائم على المؤمنين ، ليس فقط فيما يتعلق بالمسائل الدينية وانما أيضا بالنسبة للقضايا السياسية والاجتماعية الكبرى لعصرنا ، وسواء عندما تقدم هذه الاراء من فوق منابر الكنائس أو من خلال الكتابات الدينية . وكثيرا ما تقدم هذه الاراء كمسلمات لا نقاش لهـا تلزم جميع الكاثوليك ، ولذلك ، فليس هناك ما يدعو للدهشة عندما تسعى الرجعيات البورجوازية الى كسب تأييد الكنيسة الكاثوليكية التى كانت دائما على استعداد للتواطؤ .

وبعد الحرب العالمية الثانية استخدم الكهنـوت الكاثوليكى فى البلدان الراسمالية نفوذه على المؤمنين لمساندة السياسة العدوانية للامبرياليـة ، وكان ذلك استمرارا للخط الذى سار عليه الفاتيكان اثناء الحرب عندما قدم مساندته الفعلية للائتلاف النازى . وفى السنوات التى تلت الحرب مباشرة منح القساوسة بركاتهم للاسلحة النووية ، وبخاصة عندما كانت الولايات المتحدة تحتكر القنبلة الذرية وحدها . وقد أوضح الفاتيـكان بكل جلاء أنه لا يعتبر أنه من الخطيئة فى شىء استخدام الاسلحة النووية ضـد البلدان الاشتراكية . وعلى اى الاحوال فقد عنى أشد رجال الكنيسة حماسا باللعب على تطلع الشعوب الى السلام ، وحاولوا أن يقدموا الاستعداد للحـرب النووية وكأنه فى مصلحة المحافظة على السلام .

وكانت الحجج المستخدمة على النحو التالى : أولا ، فالحـرب تعتبر عادلة وضرورية للدفاع عن الايمان ضد خطر الشيوعية . وقد أعلن الكاهن الجيزويتى جوندلاخ ، والمستشار السابق للبابا بيوس الثانى عشر ، فى احدى دورات الاكاديمية الكاثوليكية فى بافاريا فى شهر فبراير ١٩٥٩ أن هناك بعض القيم التى يسمح باستخدام الاسلحة النووية للدفاع عنها ، وان استـخدام هذه الاسلحة فى هذه الحالة لا يعتبر عملا غير أخلاقى (١) . ووفقا لاراء هذا

---

(١) وثائق نظرة على المشكلات الالمانية . باريس ١٩٥٩ رقم ٣ ص ٢٨٣ .

الكاهن فالحرب النووية التى تشن باسم القيم «المسيحية» عمل اخلاقى ولها تبريرها اللاهوتي (٢) . وهو يقصد « بالقيم المسيحية » النظام الراسمالى ومؤسساته ، والذى للكنيسة مصالح مقررة فى المحافظة عليه ودعمه .

وثانيا ، فرجال السياسة ليست عليهم أى مسئولية فى التسبب فى نشوب الحرب النووية . وقد اكد جوندلاخ لهم « ان الله سوف يتحمل سخرية انه : « حتي لو حل الدمار بالعالم عن هذا الطريق ، فليست هذه بالحجة المقنعة ضد مانسوقه نحن من حجج ، لاننا ، بادىء ذى بدىء، على يقين تام من أن العالم لن يبقى الى الابد ، وفوق ذلك ، فنهاية العالم ليست مسئوليتنا . ولذلك فنحن نستطيع القول بأن الله الذى مكننا بعنايته من أن نصل الى الوضع الذى يتعين علينا فيه أن نقدم الدليل على وفائنا للامر الذى فرضه ، سوف يتحمل المسئولية كذلك(٣) .

وثالثا ، يطمس هؤلاء الدعاة الكهنوتيون الفارق الحاد بين الاسلحة العادية والاسلحة النووية ، ويصرون على أن ليس هناك سبب يدعو الى ان تراجع الكنيسة موقفها التقليدى من الحرب . وهكذا نجد فى الجريدة الجزويتية الامريكية نقد لاولئك اللاهوتيين الذين يعارضون تطبيق المذاهب المسيحية التقليدية على الحرب النووية تأسيسا على أن هذه الحرب تختلف اختلافا كليا عن الحرب بالقسى والرماح لانهم ينسون أن المسألة لم تعد مسألة الدفاع ضد قيصر روسيا المسيحى(٤) . وتذهب الجريدة الى أن استخدام اى سلاح من أسلحة الدمار الشامل أمر مسموح به تماما فى الحرب ضد الاتحاد السوفييتى .

ويدافع عن هذا الرأى أيضا رجل الكنيسة الالمانى الغربى شخاردت الذى ينادى بأن تطور التكنيك العسكرى لا يجعل من قتل الناس خطيئة ، وليس سببا لاعتبار هذه القوة أو استخدام العنف شرا فى ذاته(٥) .

وهذه الآراء تتعرض للهجوم حتى من جانب الكهنوتيين الكاثوليك الذين يعارضون الحرب النووية ، فمثلا يكتب مؤلفو كتاب « الاسلحة النووية والضمير المسيحى » أن القنبلة الهيدروجينية تختلف عن جميع الاسلحة الاخرى فى انها مصممة من أجل الدمار الشامل ، ومن ثم فهى غير أخلاقية . كما انه ليس هناك أى دفاع ضدها ، ولا يمكن أن تعتبر استراتيجية الرد بالمثل نظرية فعالة للدفاع(٦) .

وثمة نظرية أخرى تستخدم لتبرير الحرب النووية وهى القول بأنها

---

(٢) المرجع السابق .

(٣) وثائق نظرة على المشكلات الالمانية . باريس ، ١٩٥٩ رقم ٣ ، ص٢٨٣ .

(٤) أنظر أمريكا ، ١٧ مارس ١٩٦٢ ، ص ٧٨١ .

(٥) رينخريدكور ، ١٧ أكتوبر ١٩٥٨ .

(٦) الحرب النووية والضمير المسيحى ، لندن ١٩٦١ ، ص ٣٣ .

« أهون الشرين » ، على أساس أن الشر الآخر هو الشيوعية . وكانت هذه هي وجهة النظر التى عبر عنها بيلا ، العضو البارز فى الحزب الديمقراطى المسيحى الايطالى والذى قال بالنص : «ان التدمير النووى لايطاليا أفضل من انتصار الشيوعية»(٧) .

وقد دخل الاستاذ كوربادى أوليفيرو ، من الجامعة الكاثوليكية بسان باولو فى مناقشة تأييدا لهذا الرأى على صفحات جريدة كاتوليكسيزمو فقال: « وسوف يأتى وقت يكون فيه على احدى أمم الغرب أو بعضها أن تضطر الى الاختيار بين عالمين ، أى بين الحرب الحديثة داخل أو خارج بلادها ؛ والحرب التقليدية أو الحرب النووية بكل أهوالها وبين الاعتراف بالنظام الشيوعى . وفى هذه الحالة علينا أن نختار أهون الشرور . ان فقدان الايمان هو أخطر الشرور ، وأخطر حتى من احتمالات الابادة عن طريق الحرب النووية » (٨) .

وكان الاتجاه المفرط فى العداء للشيوعية والبلدان الاشتراكية هو المسئول الى حد كبير عن هذه الآراء المحبذة للحرب من جانب ايديولوجيى الكهنوت الذين راودتهم الاحلام بشن حرب صليبية جديدة ضد العالم الاشتراكى . وقد حظيت هذه الآراء بتعضيد المجمع المقدس ، وخلال فترة بابوية البابا بيوس الثانى عشر كان موقف الفاتيكان بالنسبة لمسألة الحرب والسلام مطابقا لموقف القوى العدوانية فى الولايات المتحدة الامريكية وغيرها من البلدان الرأسمالية ، وكان بيوس الثانى عشر ، والمجموعة المقربة ، على استعداد لمنح البركات لاى سلاح يمكن أن يوجه ضدالشيوعية . وكان المؤمنون محل الحاح عنيد لدفعهم الى الاقتناع بأن انتصار الشيوعية يعنى دمار المسيحية ، وأن الحرب النووية يمكن أن تكون ، لذلك ، حربا للدفاع عن الايمان .

وفى نفس الوقت كان هناك اصرار على أن الالحاد هو السبب الرئيسى للتوتر الدولى المتزايد ، وقد أعلن الكاردينال كوشنج ، رئيس اساقفة بوسطن ، أن « التعايش الحقيقى لا يمكن أن يتحقق الا اذا تخلت الشيوعية عن المادية الالحادية والسياسة المعادية للدين المستمدة منها»(٩) »

وكان الايديولوجيون الكهنوتيون يشبهون الالحاد باللاأخلاقية ، فنلتقى مثلا فى « قاموس علم اللاهوت الاخلاقى » بهذه العبارة : « الالحاد هو انكار وجود الله ، ولما كان الله هو أساس الفرض الميتافيزيقى للنظام الاخلاقى ، فالالحاد يتضمن أيضا انكارا للاخلاقيات » (١٠) ، ويستدل من ذلك على انه من المستحيل تأسيس العلاقات مع البلدان الاشتراكية على

---

(٧) يونيتا ، ٦ ابريل ١٩٥٩ ص ١ .

(٨) نص وارد فى جريدة ، الماركسية العالمية . مشكلات السلام والاشتراكية اغسطس ١٩٦٥ رقم ٨ ، ص ٥٣ .

(١٠) الرشــد ، ٧ مايو ١٩٦٠ ، ص ٨ .

مبادىء الاخلاق والقانون ، وأن التعايش السلمى بين البلدان الاشتراكية والراسمالية ــ على هذا الاساس ــ مسألة لاتستحق النقاش .

ومن أجل تبرير الحرب النووية تقدم مختلف المفاهيم الدينية عن الحرب لمساعدة البورجوازية على أن تخفى عن الجماهير أهداف الحروب العدوانية ومحتواها الطبقى وعلاقتها بسياسة الطبقات المستغلة . وينزع الايديولوجيون الدينيون الى تحويل الحرب الى سر خطير ، سواء فى طبيعتها أو أسبابها ، وهم يقدمونها كتعبير عن الارادة الآلهية ، وكأنها نابعة قبل أى شىء من الطبيعة الآثمة للانسان ، أو من « الخطيئة الاصلية » . « فالحروب هى أسرار التاريخ ، وهى تشتعل لاسباب معقدة ، ولاسباب لا يمكن التحكم فيها فى أغلب الاحيان » (١١) .

ومن الخطأ ، على أى الاحوال ، عند دراسة موقف الكنيسة الكاثوليكية بالنسبة لقضايا الحرب والسلام أن نتجاهل أن آراء الكهنوت تختلف اختلافا كبيرا عن آراء عديد من رجال الدين العاديين . فهناك جزء من الكنيسة يرتبط ارتباطا وثيقا بالطبقات الراسمالية الحاكمة ويعضد سياستها ، تلك الطبقات التى يسعدها الى أبعد الحدود أن يتوفر لها التستر الدينى على خططها العدوانية . وهذا هو الوضع على وجه الدقة فى كل من الولايات المتحدة الامريكية والمانيا الغربية . أما الفئات الدنيا من رجال الدين ، والذين تجمعهم ارتباطات أكبر بجماهير المؤمنين ، فهم يؤيدون السلام فى أغلب الاحوال ، كما أن عددا معينا من رجال الكنيسة يتبنى بالفعل آراء واقعية بالنسبة للموقف الدولى الراهن .

وفوق كل ذلك ، فالكنيسة ليست هى الفئات العليا والفئات الدنيا من رجال الدين فحسب ، وانما هى أيضا ملايين المؤمنين الذين يرفضون سياسة الاعداد للحرب النووية فى نفس الوقت الذى يتقبلون فيه الدين .
وقد تحقق تحول كبير فى موقف الكنيسة الكاثوليكية من قضايا الحرب والسلام أثناء بابوية البابا حنا الثالث والعشرين ، عندما بدأ الفاتيكان فى ادانة سياسة الاعداد للحرب النووية ، وقصم علاقته بالقوى العدوانية للامبريالية .

لقد أدرك قادة الكنيسة بعيدو النظر خطر تأييد دعاة الحرب النووية ومدى مايؤدى اليه من تشويه الكنيسة فى أعين المؤمنين ، وشعروا أن الآوان قد حان لمراجعة سياسة الفاتيكان بالنسبة لقضايا الحرب والسلام . وهذا التحول لم يتحقق الا تحت تأثير تغيرات اجتماعية هائلة ، وفى مقدمتها التطور الضخم لقوى السلام والاشتراكية ، كما عكس هذا التحول أيضا موقف تلك القطاعات من البورجوازية التى شعرت أن الحرب النووية تتعارض مع مصالحها . وقد سجلت الوثيقة الرئيسية الصادرة عن الاجتماع العالمى للاحزاب الشيوعية والعمالية المنعقد فى موسكو عام

---

(١١) الفكرة ، روما ، رقم ١٠ ، أكتوبر ١٩٦١ ص ٦٥٤ .

١٩٦٩ أن « التناقضات تتنامى أيضا وتتعمق داخل الدوائر الحاكمة فى البلدان الراسمالية ، بين المجموعة الاكثر ميلا للحرب والتى تقامر على أكثر الاجراءات تطرفا ، اى الحرب ، وبين أولئك الذين يميلون ، استنادا الى ميزان القوى الطبقية الجديدة فى العالم والى القوة المتعاظمة للبلدان الاشتراكية ، يميلون الى اتخاذ موقف أكثر واقعية فى المشكلات الدولية والى حلها بروح التعايش السلمى بين الدول ذات النظم المختلفة(١٢) » .

ولكن العامل الرئيسى الذى أجبر الفاتيكان على تغيير موقفه هو الضغط من جانب جماهير المؤمنين .

وكان التغيير جزءا من الانفتاح العام للكاثوليكية ، أو من عملية « احيائها » وتكييفها مع الاوضاع الحديثة . وكان ايديولوجيو الكنيسة مضطرين الى الاعتراف بأن الكنيسة تفقد قبضتها على الجماهير ، الامر الذى يعزى جزئيا بكل تأكيد الى موقف رجال الكنيسة فى مسائل الحرب والسلام وموقفهم من سياسة التعايش السلمى . ان ازمة دينية طاحنة تهز الآن المفاهيم الدينية التى عفى عليها الزمن ، سواء كانت من مفاهيم الكنيسة الكاثولوكية أو غيرها من الكنائس والديانات ومن أجل مصلحتها فى « الاحياء » ، نجد الكنيسة مجبرة على التخلى عن بعض تقاليدها واحكامها التى يراها الناس غير مقبولة فى الوقت الراهن .

واليوم ، يتكلم عديد من قادة الكنيسة فى البلدان الراسمالية دفاعا عن السلام ، كما تزايدت أعداد أولئك الذين لا يقتصرون على مجرد الكلام الاجوف وانما يساهمون بدور نشط فى حركة السلام الجماهيرية .

وفى نفس الوقت ، فمازال هناك اتجاه آخر ملحوظ فى المنظمات الدينية فى البلدان البورجوازية ، يعبر عن نفسه من جديد سواء بالاقوال أو بالافعال ، وهو الاتجاه الذى يروج للحرب ويؤيد سياسة الدول الامبريالية على اساس انها سياسة « مسيحية » حقه . وهذا الاتجاه الذى يمثله فريق من رجال الكنيسة يوسع الفجوة بين قادة الكنيسة وبين المؤمنين ، وتتفاقم التناقضات بين الجانبين بسببه .

وقد آثار بيان البابا حنا الثالث والعشرين عن السلام ، وبخاصة بيانه العام « الام والرب » اهتماما كبيرا فى جميع اتجاه العالم . فهذه الرسالة ، اذا أخذت فى مجموعها،تمثل نداء من أجل السلام ، وتتضمن تصريحات تؤكد الفكرة القديمة عن السلام المسيحى بالرغم من انها ربما كانت أقل أصالة مما كان عليه الحال فيما مضى . ولنأخذ العبارة التالية على سبيل المثال : « يفسر فقدان الثقة بأن الناس ، وبخاصة أولئك الذين يضطلعون بمعظم المسئولية ، يستهلمون فى نشاطهم نظرات للحياة مختلفة أو متعارضة تمام التعارض . وبعض هذه النظرات لا تعترف لسوء الحظ بوجود نظام أخلاقى ، علوى ، وشامل ، ومطلق ، ومتكافىء وصحيح بالنسبة للجميع . وهكذا ، فليست هناك اى امكانية للتلاقى وللتفاهم المتبادل على ضوء قانون

---

(١٢) الاجتماع العالمى للاحزاب الشيوعية والعمالية ، موسكو ١٩٦٩ ، ص ١٨ .

واحد للعدالة يعترف به الجميع ويتبعه الجميــع (١٣) .

وعندما ينسب البيان التوتر الدولى الى الفقدان المتبادل للثقة ، فهو يصر على أن أحد الجانبين فقط هــو الذى يقع عليه اللــوم ، وهــو الجانب الذى لايقبل النظام الاخلاقى الذى تنادى به الكنيسة . وينطبق هــذا بــكل وضوح على الاتحاد السوفييتى . ويعتبر البيان أن الفرق بين أخلاقيــات النظامين ، وليس السياسة العدوانية للامبرياليــــة ، هى سبب النزاع بينهما ، وقد تناول أصحاب هذا البيان الحرب من الزاوية الاخلاقية المجردة، ولذلك نجده ، وفى نفس الوقت الذى يشير فيه الى خطر الحرب النووية ، الا انه لا ينادى بالنضال ضد هذا الخطر .

ولكن البابا حنا الثالث والعشرين يتخلى فى تصريحات تالية عن الرأى القائل بأن الالحاد هو الذى تقع عليه اللائمة بالنسبة للتوتر الدولى .

ويتجلى الاتجاه الجديد للكنيسة فيما يتعلق بالسلام فى رسالة البــابا حنــا « الســلام على الارض(١٤) » .

ففى هذه الرسالة يحدد البابا أن الاختلاف فى النظم الاجتماعية لا يمكن أن ينظر اليه كعقبة فى سبيل التعايش السلمى ، كما تخلى البابا عن مفهوم السلام المسيحى الذى نادى به أسلافه والذى كانت الحرب بمقتضاه عقوبة من الرب ، ونتيجة لضعف الايمان والتخلى عن الدين ، هذا المفهوم الذى لا يرفض امكانية التعايش السلمى بين البلدان ذات النظم الاجتماعيــــة المختلفة فحسب ، وانما يستخدم أيضا كتبرير للحرب العدوانية ضد البلدان الاشــــتراكية .

ورسالة البابا حنا لم توجه الى رجال الكنيسة والى المسيحيين فى جميع أنحاء العالم وحدهم ، وانما كانت موجهة الى جميع الناس من أصحاب النوايا الحسنة ، وفيها دعا البابا الى انهاء سباق التسلح ، ونزع الســــلاح فى ظل نظام دولى فعال . « فالعدالة والحكمة والانسانية تتطلب وقف سباق التسلح ، وخفض الاسلحة النووية ، فى وقت واحد ، على كلا الجانبين ، وأن يتم حظر الاسلحة النووية والنزع النهائى للسلاح عن طريق اتفاقيـــة تبرم فى ظل نظام فعال للرقابة » .

ورفض البابا نظرية « توازن الرعب » التى كان عدد من رجال الكنيسة يؤيدونها ، « لقد جرت العادة أن نبرر سباق التسلح على أســـاس أن السلام غير ممكن اليوم الا اذا قام على أساس توازن القوى . وهــكذا ، فاذا سلحت جماعة سياسية ، أصبح لزاما على الجماعات السياســـية الاخرى أن تنهض لتسلح نفسها هى الاخرى . واذا قامت جماعة سياسية بانتاج الاسلحة الذرية ، وجب على الجماعات الاخرى أن تنتج أسلحة ذرية

---

(١٣) لاشيشلاتا كاتوليكا (الحضارة الكاثوليكية) أغسطس ١٩٦١ ، الجزء ٣ ، ص ٢٦٧ .

(١٤) المرجع السابق ، ٢٠ ابريل ١٩٦٣ ، ص ١٢٩ .

لها نفس القدرة على الدمار . ونتيجة لذلك ، يعيش الناس تحت شــبح انطلاق الاعصار فى أى لحظة ليسبب شقاء لا يمكن تخيله(١٥) » .

وتؤكد رسالة « السلام على الارض » أن ثمة تقدما كبيرا طرأ على موقف الكنيسة الكاثوليكية بالنسبة لقضايا الحرب والسلام . وكما لاحظ المـاركسى الفرنسى أندريه موان : « فحتى الامس ، كانت الكنيســة تنظر الى الحرب كفرصة لتدمير الاشتراكية ، اما اليوم فهى تنظر اليها كخطر يهدد بدمار المسيحية(١٦) » .

ومع الترحيب بالاتجاه العام المعبر عنه فى الرسالة ، الا أن هنــاك بعض الحقائق التى ينبغى تسجيلها فيما يتعلق بمفهوم السلام الوارد بها . فأولا ، هى تمتد بمفهوم التعايش السلمى حتى يشمل العقائد والطبقات . وعنـدما يتحـدث البابا عن الســلام بـين المذاهب والامم والطبقات يستند أيديولوجيو الكنيسة الى ذلك ويعلنون موافقتهم على التعايش السلمى على أساس انه يعنى السلام بين الطبقات المتناقضة فى المجتمع الراسمالى ، وبين الايديولوجية البورجوازية والايديولوجية الاشتراكية ، وكذلك أيضـا بين الامم .

ويقوم المفهوم الماركسى عن التعــايش السلمى على أساس الراى القائل بأن الاختلافات بين البلدان الاشتراكية والراسمالية يمكن أن تحـل عن طريق الوسائل السلمية بالرغم من النزاع الطبقى الضارى فى البلدان الراسمالية ، انه شكل من اشــكال الصراع الايديولوجى والمنافســة الاقتصادية بين النظامين ، ولا يتضمن التخلى عن الصراع الطبقى أو النضال الوطنى التحــريرى .

وقد قوبل موقف البابا حنا من التعايش السلمى ، والذى عبر عنــه أوضح تعبير فى رسالة « الســلام على الارض » بالمعارضـــة من جانب العناصر الاشد رجعية فى الكنيســة الكاثوليكية التى مازالت تتعلق بسياسة الحرب الباردة والاعداد للعدوان . ويتهم لوسفيزيرو فى كتابه « الكنيســة بعد حنا الثالث والعشرين » المنشور فى ايطاليا عام ١٩٦٣ ، يتهم البـابا بالتحكم فى أفيون جديد للشعوب — هو فكرة السلام على الارض — وانه يساعد بذلك على تدمير الكنيسة الكاثولوكية وتتحـــول الى أداة فى يـــد الشــيوعيين .

وقد بذل هؤلاء المعارضون لسياسة البابا قصارى جهـــودهم حتى لا تحظى الرسالة الا بأقل التفات ممكن ، وادعت رسالة منشورة فى جريدة الجارديان أن « معظم الكاثوليك فى انجلترا مازالوا يجهلون محتــواها » ، وراحت تدعو الكهنوت الكاثوليكى فى بريطانيــا الى الاعتراض على النهج الذى يقترحه البابا فيما يتعلق بقضايا الحرب والسلام(١٧) .

---

(١٥) المرجع السابق ، ص ١٢٨ — ١٢٩ .

(١٦) أ . موان ، بعد «السلام على الارض» ، المسيحيـــة والشـــيوعية ، باريس ١٩٦٥ ص ٩٥ .

(١٧) الجارديان ، ١٤ ابريل ١٩٦٤ .

وكتبت الجريدة الجيزويتية الفرنسية ايتود ( دراسات ) تقول أن أصل الرسالة لم يحظ بالتفات المجمع المقدس قبل نشرها لان زعماء المجمع لم يخفوا معارضتهم للموقف الحيادى للبابا حنا الثالث والعشرين(١٨) .

وكانت هناك محاولات أيضا لتشويه أصل الرسالة نفسه . وقد لاحظ متحدث فى مؤتمر الحزب الشيوعى الالمانى المنعقد عام ١٩٦٣ أن : « وكالة الانباء الكاثوليكية شوهت بطريقة وقحة فقرتين هامتين من الرسالة . فقد حاولت أن توضح أن الرسالة تركز على المشكلات الدينية ، وذلك عند محاولتها شرح مسألة التعايش السلمى(١٩) » . ونتيجة لذلك نشب نزاع خطير داخل الكنيسة الكاثوليكية حول مسألة موقف الكنيسة من قضية الحرب والسلام .

وكان الموضوع مثارا للنقاش فى الدورتين الثالثة والرابعة لمجمع الفاتيكان الثانى والمنعقدتين فى عامى ١٩٦٤ و ١٩٦٥ على التوالى : ففى بداية الدورة الاولى أعلن البابا انه من الضرورى العمل من أجل خلقَ جو جديد فى مجال الشئون الدولية ، والقضاء على المنازعات ، وبخاصة الحرب ، التى « تسبب . النكبات للامم » . ودعا البابا الى اتخاذ خطوات حاسمة من أجل سلام دائم ، وصدر نداء الى شعوب العالم عن هذه الدورة الاولى ، عبر المشتركون فى الدورة فيه عن تأييدهم لدعوة البابا حنا الثالث والعشرين من اجل السلام ، والتفاهم المتبادل بين الامم .

اما فى الدورتين الثالثة والرابعة فقد نشب صراع عنيف حول مسألة الموقف الذى ينبغى على الكنيسة الكاثوليكية أن تتخذه بالنسبة للاسلحة النووية ، وانقسمت الآراء انقساما حادا حول هذا الموضوع . وكان عديد من الاساقفة ، وبخاصة من فرنسا وهولاندا وبلجيكا ، يؤيدون ادانة الحرب كوسيلة لتطبيق السياسة القومية ، وتحدثوا محبذين تحريم الاسلحة النووية .

وادان المشروع رقم ١٣ ( مشروع القرار ) الذى عرض للمناقشة فى الدورة الثالثة للمجمع ، المنعقدة فى خريف عام ١٩٦٤ ، ادان الحرب النووية وانتقد السياسات القائمة على توازن القوى والردع ، ونص المشروع على المطالبة بالقضاء على الاسلحة النووية ، والح على تقديم العون لكافة المنظمات الدولية المعنية بمنع الحرب والحد من سباق التسلح ، كما اشار الى ضرورية تسوية النزاعات الدولية بالطرق السلمية.

واحتوت نسخة مسودة هذا المشروع رقم ١٣ والتى عرضت للمناقشة فى الدورة الرابعة على بعض التناقضات : فبينما هى تدين الحرب الشاملة كحرب موجهة ضد الله والانسان ، وتعلن أن توازن الرعب انما هو فكرة

---

(١٨) ايتود (دراسات) باريس ، يونيو ١٩٦٣ ص ٤٠٧ .

(١٩) تقرير مؤتمر الحزب الشيوعى الالمانى ، برلين ، ١٩٦٣ ، ص ٢٦١ .

بشعة ، وبينما هي تلح على تدمير الاسلحة الحديثة ، نجـــدها فى نفس الوقت تبرر امتلاك الاسلحة النووية عندما يكون الهدف الاوحد منها هـــو ردع العدوان ، وتسمح باستخدامها ، بروح المذهب الكاثوليكى التقليدى ، لمواجهـــة العدوان .

أما الجانب الآخر من الخطة والذى يتعلق بمسألة الحرب والســـلام فهو يعكس بالفعل مشاعر عناصر الكنيسة الكاثوليكية التى تتبنى وجهـــه نظر واقعية بالنسبة لتوازن القوى القائم وبالنسبة لخطر الحـــرب على البشرية كلها ، وعلى الكنيسة بالتالى .

وكان هناك ايضا اولئك الذين تحدثوا تأييدا لمـــا اعتبروه حـــروبا « عادلة » ، وعبروا عن اعتراضهم على الخطة رقم ١٣ ، واصروا على أن الحرب النووية التى تشنها الدول الغربية يمكن أن تكون عادلة طالمـــا أن هدفها هو الدفاع عن المسيحية .

والمنظرون الكاثوليك الرجعيون أقل اهتماما بمنع الحرب العالميـــة الجديدة من اهتمامهم بتبريرها عند وقوعها اســـتنادا الى الاخلاقيـــات الكاثوليكية . ويعلن الجزويت فى سوراس أن « علمـــاء اللاهوت يمكنهم أن يبرروا موقف الدولة التى تبدأ بالهجوم اذا كانت تسعى من وراء ذلك الى تأكيد حقوقها التى لا نزاع فيها ، وبعد ان تكون قد استخدمت جميع الوسائل السلمية . وكل ماهو مطلوب من الدولة التى تبدأ الهجوم هو أن يكون سبب اللجوء الى القوة سببا جادا بما يكفى لتبرير الشرور الناجمة عن العمليات العســـكرية (٢٠) .

وفى مجمع الفاتيكان ، أصر الاسقف حنان — من الولايات المتحدة — على أنه يتعين على الكنيسة ألا تعترض على الاستخدام المحـــدود للاســـلحة النووية « ففى الوقت الراهن ، هناك أسلحة نووية تتميز بقدرتها التدميرية المحدودة للغاية ، هناك أسلحة لايتعدى مجال عملها ٣ر١ الى ٥ر١ ميـــل ولاتتعـــدى قدرتهـــا التدميرية ما يعـــادل ٤٠ طنـــا من الـــت . ن ت . وقد صممت هذه الاسلحة من أجل تدمير مجموعة من الاهداف العسكرية مع تجنب التخريب الناجم عن استخدام التفجـــيرات النـــووية واســـعة النطـــــاق(٢١) » .

وطالب الاسقف حنان ، ورئيس الاساقفة بك من ليفربول ، بحذف الفقرات التى تشير الى ضرورة نبذ الاسلحة النووية ، كما اعترضا على التصريح الذى يدين الاسلحة النووية والبكتريولوجية والكيميائية ، والوارد فى الخطة رقم ١٣ ، وادانا ايضا « السلبية المفرطة » ، وكانا يقصـــدان بها كل أنواع المعارضة الصريحة للإسلحة النووية . وقد حـــاول بعض المتكلمين التستر على تبرير الحرب ضد البلدان الاشتراكية بتوجيه النداءات من أجل السلام ، فمثلا نرى الكاردينال أوتافيانى ، الرجعى المتطرف الذى

---

(٢٠) أ. دى سوراس . الاخلاقيات الدولية ، ١٩٦٣ ص ٩٠ .

(٢١) الوثائق الكاثوليكية ، ١٩٦٤ رقم ١٤٣٨ المجموعة ١٦٠٩ .

طالما تحدث دفاعا عن العدوان الامبريالى ، نراه يعتبر انه من الضرورى الظهور بمظهر الدفاع عن السلام . ولكن رسالته « المحبة للسلام » التى عرضت على المجمع تحولت فى الواقع الى نداء من أجل الحرب ضد الدول الاستبدادية ، والتى يقصد بها البلدان الاشتراكية بالطبع . وفى نفس الوقت نجده يدين الحرب التحريرية الوطنية العادلة بوصفها حروب عصابات ، مشوها بذلك طبيعتها وأهدافها .

وقد ادانت النسخة النهائية من فصل « الكنيسة فى العالم الحديث » والتى اقرها مجمع الفاتيكان ، اقامة المذابح ( وأكدت أن مذابح الاقليات العرقية هى المقصودة ) مهما كانت الوسائل التى تستخدم لهذا الغرض . وأدانت الفقرة رقم ٢٨٠ التى تتناول الحرب الشاملة ، التقدير العشوائى الشامل للمدن والمناطق طالما أن هذا التصرف يقع خارج نطاق المشروع .

أما الفقرة الخامسة فتتسم بالتوفيق مع الكهنوت الكاثوليكى فى الولايات المتحدة . وعند انعقاد المجمع ، وبخاصة فى الدورة الخامسة ، شن رجال الدين الامريكيون هجوما عنيفا من أجل منع صدور الرسالة وراحوا يوزعون النداءات على المشتركين فى المجمع مطالبين بالتصويت ضدها .

وكانت الخطة رقم ١٣ تمثل نوعا من الردة بالنسبة لرسالة « السلام على الارض » ، نتيجة لما ذهبت اليه من حق استخدام الاسلحة النوويه لاغراض الدفاع . وعلى أى الاحوال فقد كان صدور « الكنيسة فى العالم الحديث » أمرا عظيم المغزى كقوة دافعة هامة لحركة السلام .

وأبدى عديد من المتكلمين فى المجمع ، على عكس مافعل هانان وبك ، نظرة واقعية للموقف الدولى وتفهما وتعاطفا مع تطلع المؤمنين الى منع الحرب النووية . فقد جاء مثلا فى كلمة الكاردينال الفرنيك ( هولاندا ) انه: « ليست القنبلة القذرة هى وحدها التى يجب أن تدان ، وانما أيضا مايسمى بالقنبلة النظيفة . ان المناقشة العامة لمثل هذه المشكلات الخطيرة يمكن أن تؤدى الى مفاهيم خاطئة بين قطاعات معينة من الرأى العام ، ولذلك ينبغى أن نعبر عن آرائنا فى وضوح كامل بالنسبة لمسألة الحرب العادلة والحرب غير العادلة . وهل يمكن أن يقال عن حرب تستخدم فيها الاسلحة النووية انها حرب عادلة(٢٢) » .

أما بطريك انطاكية ، مكسيموس الرابع ، فقد قال: « يخيم التهديد بالدمار على البشرية كلها ،انها مسألة الاسلحة النووية ... وكثيرا ما يتحدث الناس عن الحرب العادلة ، ولكن ما الدوافع التى يمكن أن تبرز حقا ، من الناحية الاخلاقية ، تخريبا يعادل طوفانا يصيب العالم كله؟! وهل يمكن السماح بأن تدمر الحضارة والشعوب كلها تحت زعم الدفاع عنها

---

(٢٢) الوثائق الكاثوليكية ، ١٩٦٤ رقم ١٤٣٨ ، ١٩٥٩ — ١٩٦٠ .

وطالب البطريرك المجمع بادانة استخدام الاسلحة النووية والبكترولوجية والكيمـــــائية .

ويجب أن نشير الى ان هذه التصريحات الجديرة بكل تقـــدير لم تكن مصحوبة دائما ، ولسوء الحظ ، بتأييد حقيقى لقوى السلام . فالفاتيكان لم يقدم ابدا على ادانة كتلة حلف شمال الاطلنطى العدوانية ، أو الســـياسة الخطرة لدعاة الانتقام فى المانيا الغربية وشركائهم عـلى الجانب الاخـر من الاطلنطى بل كثيرا ماكان يضع الامبرياليين وضحاياعدوانهم على مســتوى واحد . هكذا مثلا نجد البابا بطرس السادس يقول فى الرسالة البابوية «فى شهر مايو» والصادرة فى أول مايو ١٩٦٥ : «هناك فى الوقت الراهن تصاعد مخيف فى النزاعا تبين الامم فى بعض أجزاء العالم وتكرار للظاهرة الخطـرة ــ وهى استخدام القوى المسلحة بدلا من المحادثات لحل المنازعات .. ويعنى ذلك أن سكان بلدان بكاملها يضطرون الى معاناة اهوال مخيفة تؤدى اليها كافة أنواع القلاقل وحرب العصابات والعمليات العسكرية التى تزداد انتشـــارا وسوءا كل يوم ، والتى يمكن أن تكون شرارة لاندفاع صدام جديد رهيب فى أى لحظة (٢٣) . وبنفس الصـــوت الذى يدين به البابا بطرس المعتدين ــ الامريكيين فى فيتنام نجده يدين أيضا حرب التحـــرير الوطنى العادلة التى يخوضها الشعب الفيتنامى ضد المعتدين .. وهذه الرسالة نموذج محـــدد لفهم الفاتيكان المتناقض المشوش لمشكلات الحرب والسلام .

أما فى رسالة « أم المسيح » الصادرة فى ١٩ اكتوبر ١٩٦١ ، فالبابـــا بطرس يوجه نداء جديدا من أجل السلام يدعو الى انهاء ســـباق التسلح ، ويذكر الناس بأخطار الحرب النووية . ولكنه ، وكما هو الحال فى رســـالة « فى شهو مايو » ، لم يقدم أى ادانة للعدوان الامريكى فى فيتنام ، ولم يحدد أى خط فاصل بين المعتدين وضحايا العدوان . وان هذا الموقف الحيادى الذى تعبر عنه الرسالة ليحرمها من دورها كأداة للسلام ، ومن دورها فى ايقـــاف الرأى العام ضد المعتذين .

واذا أمكن وصف موقف الفانيكان بأنه أساسا محب للســلام ، لامكن أسباغ نفس الوصف على مواقف الكهنوت الكاثوليكى فى عـــديد من البلدان وبخاصة فى الولايات المتحدة الامريكية وجمهورية المانيا الفيدرالية . والزعماء الكاثوليك الامريكيون الذين يتشبثون بالموقف الذى التزموا به فى مجمـــع الفاتيكان يبذلون قصارى جهودهم من أجل تخريب قرارات المجمع ، وبخاصة وثيقة « الكنيسة فى العالم الحديث » ، يتضح ذلك من موقفهم من الحـــرب الامريكية فى فيتنام . وقد أثار رئيس أساقفة بوسطون الكاردينال كوشنج ، ملحوظة غاية فى الغرابة فى رسالته الموجهة الى مؤتمر بناة الثورة الامريكية المنعقد فى بوسطون فى شهر اغسطس ١٩٦٦ عندما ذكر ان الحرب فى فيتنام هى الوسيلة الوحيدة للمحافظة على السلام (٢٤) ، وقد كتب يقـــول : « ان أحدا لايحب الحرب ، ولكن هناك لحظات فى التاريخ يتعين فيها اســـتخدام

---

(٢٣) أول مايـــــو ١٩٦٥ .

(٢٤) المرشد ، ٢٧ اغسطس ١٩٦٦ .

القوة ضد الاشرار . ولا يمكن أن يؤدى رفض الاخيار لاستخدام القوة الا الى نتيجة واحدة ، هي انتصار الشر » (٢٥) .

ويواجه رجال الكنيسة الذين يؤيدون العدوان الامريكي معـــارضة متزايدة من جانب المؤمنين ، وحتى من جانب اعضاء آخرين فى الكنيســـة نفسها ممن يعارضون الحرب فى فيتنام .. ولقد كانت الرســـالة البابوية الصادرة فى مارس ١٩٦٧ تحت العنوان « البابوية تتقدم » اعلانا بالغ الدلالة من جانب الكنيسة الكاثوليكية من أجل السلام والامن الدوليين أنها تعبير واضح عن الاتجاهات الجديدة التى يمكن ملاحظتها فى الفهم المسيحى لمشكلات السلام والتقدم الاجتماعى .

ومع ذلك فالخط الذى تقرر فى المجمع الثانى للفاتيكان ، والذى يمثـــل بلاشك اتجاها نحو السلام بالرغم مما ورد فى الوثائق من تحفظات ، مازال يقابل بالتجاهل من جانب رجال الدين الكاثوليك فى الولايات المتحدة الامريكية والمانيا الغربية وعدة بلدان امبريالية أخرى . وعندما عقد المؤتمر الكنسى فى شهر نوفمبر ١٩٦٦ أصدر بيانا عن حرب فيتنام بأغلبية ١٨٩ صوتا ضد ٦ وجه فيه الاساقفة نداءاهم الى الشعب الامريكي ليثق فى حكومته ، وادعوا أنه على ضوء الحقـــائق التى احيطوا علما بها فالحـــرب فى فيتنام لها مايبررها (٢٦) .

وفى أوائل عام ١٩٦٧ اجرى استفتاء بين رجال الكنيســـة الكاثوليكية حول موقفهم من سياسة حكومة جونسون فذكر ٢٧٠٦ من بـــين مجموع القسس الذين أجرى بينهم الاســـتفتاء والبالغ عددهم ٣٠٧٨ ، ذكروا أن الولايات المتحدة ينبغى ان تتبع خطا متشددا . وأن عليهـــا أن تتخذ كافة الضمانات للانتصار فى فيتنام ، بينما أعلن ٢٧٤٠ أن على الولايات المتحـــدة الامريكية ان تعتمد اساسا على القوة العسكرية أكثر من اعتمادها عـــلى الاتفاقيات مع الاتحاد السوفيتى .

وفى شهر ديسمبر ١٩٦٥ ، ثم فى شهر ديسمبر ١٩٦٦ ، زار الكاردينال سبلمان فيتنام الجنوبية ، بصفته الراعى الكاثوليكى الاول للجيش الامريكى ، لقضاء عطلة راس السنة مع الجنود . واثناء زيارته الثانية القى احـــدى عشرة موعظة واكد للقوات الامريكية أن الجيش الامريكى انمـــا هو جيش للسلام ، وانها تحارب من أجل السلام ، وأنها لا تدافع عن امريكا وحدهـــا وانما عن الحضارة . وقال أيضا أنه ليس هناك حل ممكن آخـــر الا انتصار امريكا (٢٧) . وفى شهر مايو ١٩٦٧ حض سبلمان الشعب على تأييد « أولادنا فى فيتنام ، الذين يحاربون من أجل الحرية ، وضد الشيوعية الملحدة (٢٨) .

وبكل تأكيد ،فسوف يؤدى النمو المستمر والمتعاظم لحركة السلام الى المزيد من العزلة لذلك القطاع من الكنيسة الكاثوليكية الذى يستخدم الـــدين لتبرير الخطط والتصرفات العدوانية للامبرياليين .

---

(٢٥) اخبار الكاثوليكية العالمية ، ١٥ سبتمبر ١٩٦٦ رقم ٢٧٢ .

(٢٦) مراسلات هيردر ، ٢١ جاهرجالج ، ٥ ، مايو ١٩٦٧ .

(٢٧) كارينور ، باريس ، ٢٨ ديسمبر ١٩٦٦ ، ص ٣ .

(٢٨) المرشد ، بوسطون ، ١٣ مايو ١٩٦٧ ص ١٨ .

## الفصل السادس عشر

# الايديولوچية السلبية اليوم
# حركة الكويكرز الأمريكية

فى السنوات الاخيرة ، أخذ عديد من الامريكيين ينظرون الى السياسة العدوانية لحكومتهم فى قلق متزايد ، يتضح ذلك من مختلف استفتاءات (١) الراى العام ، ومن خطب الساسة والشخصيات العامة ، وكذلك من تعاظم نشاط الحركات والمنظمات المعادية للحرب . ومن الطبيعى أن جانبا كبيرا من هذا القلق انما هو وليد للحرب فى الهند الصينية وملابساتها . وعلى اى الاحوال ، فغالبا ما يربط الامريكيون النزعة العسكرية ، لا بحدث محدد فى مجال السياسة الخارجية ، وانما بوضع المجتمع ككل ، اى بالنفوذ القوى لما يسمى « المجموعة الصناعية ـ العسكرية » ، وتعاظم البيروقراطية والفساد ، وتزايد الاعتداءات على حقوق الفرد ... الخ .. وهناك اتجاه قوى للتقارب بين برامج مختلف المنظمات التى تعمل من أجل السلام والحقوق الديمقراطية والحل الفورى لمشكلة الملونين . ومما يلفت النظر أن عددا من الزعماء ذوى النفوذ للنضال المعادى للعنصرية من أمثال مارتن لوثر كنج ومالكولم اكس يؤكدون من وقت لآخر على الربط بين ما يقع على السود من اضطهاد وبين الحرب العدوانية فى فيتنام .. ومما يلفت النظر أيضا ، وبنفس الدرجة ، أن برنامج الطلبة من أجل مجتمع ديمقراطى يحتوى على مطلب واضح بانهاء الحرب فى فيتنام وكبح جماح العسكريين .

ويلعب عديد من الكنائس والمنظمات الدينية دورا هاما فى الحركة المعادية للحرب كما يتضح من قرار المجلس العالمى للكنائس ومن موقف المسلمين السود والكنيسة الميثودية والزعماء الدينيين اليهود . ومن اكثر هذه الحركات الدينية نفوذا ونشاطا « الجمعية الامريكية لاصدقاء الخدمة » ، أو الكويكرز التى حازت على جائزة نوبل للسلام فى عام ١٩٤٧ ، هى وجمعية الكويكرز البريطانية .

والبرنامج السياسى الاجتماعى للكويكرز بالغ التعقيد متعدد الجوانب ، ويتعرض لنواح متعددة من السياسة الداخلية والخارجية . وربما كان أهم

---

(١) انظر مثلا ، الشباب فى قلق ، رقم ٤ ، ١٩٦٩ ص ٣٣ .

ما يعرف به الكويكرز اليوم هو مظاهراتهم المعادية للحرب . والتنظيم الحالى للكويكرز الامريكيين ونشاطهم يمثل اكثر التعبيرات شمولا عن ايديولوجيه وتطبيقات النزعة السلبية التى تحظى بانتشار واسع النطاق فى الغرب اليوم .

ولاشك أن التطور المهم الذى طرأ على حركة الكويكرز الدينية القديمة والذى يمزج بين المفاهيم الدينية والليبرالية البورجوازيه ومعاداة النزعة العسكريه ، ويغلف كل هذا المزيج بثياب الدين ، لاشك ان هذا التطور يجعل من مهمة التصدى لتحليل هذه الحركة مهمة غاية فى التعقيد ، فلابد ان يتناول البحث بالضرورة تحليلا للظروف الاجتماعية التى أنتجت نظرة الكويكرز للامور والمشكلات الحقيقية التى تعبر عنها هذه الحركه ، الى جانب تركيبها الداخلى واسلوب عرضها لمختلف القضايا وتحليلها .

نشأت ايديولوجية الكويكرز فى القرن السابع عشر فى عصر ظهور الاساليب البورجوازيه للانتاج ، وقدمت غطاء دينيا لمصالح البورجوازيةالتى كانت تعارض النظام الطائفى المقفل للمجتمع الاقطاعىوالحواجز التى يفرضها وتقف ضد الكنيسة القائمة . أما اليوم فتمثل آراء الكويكرز بقايا ايديولوجية فى مجتمع وصل الى مرحلة اكثر تقدما فى تطوره هى مرحه رأس المال الاحتكارى .

وبالنسبة للكاتب الشديد التدين ، فالعملية التى تنتهى بالناس الى اتخاذ موقف اجتماعى معين ، وتحديد موقفهم من بعض الاحداث السياسيه الجارية ، ليست بكل بساطة الا عملية تطبيق دقيق للمفهومات الدينية العامة الجامدة التى لانقاش لها ، أو لاحكام الانجيل . فهناك بالنسبة لمثل هذا الكاتب ، مبادىء الهية ثابتة لا تتغير تطبق عند تقويم ظواهر العالم المتغير ، ومن ثم فهو لا يمتلك الا صورة زائفة عن المصادر الحقيقية لآرائه . ولكن والامر على عكس ذلك تماما : فالواقع الاجتماعى هو الذى يحدد تفسير الشخص للمبادىء الالهية « الثابتة التى لا تتغير » .

وتتركز النظرة الاجتماعية للكويكرز حولتفسيرهم الخاص جدا للعمليات المميزة للمجتمع الراسمالى الحديث .. ولسنا فى حاجة هنا الى تجشم مصاعب التعمق فى هذه العمليات ، ويكفى أن نقول انها تنبع اساسا من العوامل الاقتصادية ، من تركز رأس المال ونمو الاحتكارات ، ومن فرض قبضة اكثر احكاما على المجتمع عن طريق القيود الاقتصادية وغير الاقتصادية وتمتد قوة الاحتكارات الى كافة المجالات الاجتماعية ، الاقتصادية والسياسية والايديولوجية ، ونتيجة لذلك ، يتزايد احساس الناس بأنهم مثل الدمى التى لا حيلة لها ، وأن ثمة قوى اجتماعية تتحكم فيهم دون أن يكون لهم هم من سيطرة عليها .

وبناء على ذلك ، فهناك انفصال متزايد بينشعارات الحريةوالديمقراطية البورجوازية التى استحقت الاكبار وقت اطلاقها ، والتى تمثلت فى المثل العليا لحرية الملكية والفردية البورجوازية من جانب ، وبين العلاقات الاجتماعية القائمة من الجانب الآخر .. وهذه الحقائق جميعا مزعجة اشد

الازعاج بالنسبة للمواطن الامريكى العادى ، وكانت محل جذب لاهتمام علماء الاجتماع وعلماء النفس والفلاسفة ورجال السياسة والدين الذين يتقدمون بمختلف الشروح والتفسيرات . وتقدم ايديولوجية الكويكرز انعكاسا هاما لهذه العملية .

وليس من العسير أن ندرك الاسباب التى اضفت على الفروض التقليدية لايديولوجية الكويكرز ما تحظى به من انتشار اليوم ، فقد تحددت معالم هذه الايديولوجية كاحتجاج على تزمت المجتمع الاقطاعى ، وفى مواجهة عديد من الاشكال غير الاقتصادية للتسلط .. ومع نمو الاحتكارات يبدو وكأن هذه الظواهر تطل بوجهها القبيح من جديد ، ومن ثم تتزايد من جديد حدة مشكلة حماية حقوق الفرد والحريه الفردية والتى فهمت على أنها تعنى حرية الملكية الخاصة .

والكويكرز يركزون اهتمامهم اساسا على مظهر خاص محدد فى المجتمع الامريكى اليوم ، وهو ذلك النفوذ المتزايد للدوائر العسكرية ورجال الصناعة العسكريين ، وسباق التسلح ، والسياسة الخارجية العدوانية ، وترويج المشاعر العسكرية ، الخ .. وتتبدى هذه الظواهر على السطح فى شكل خطط سياسية رجعية ، واجراءات يقدم عليها الدبلوماسيون ورجال السياسة والقادة العسكريون ، ونشاطات لمختلف مؤسسات الدولة والتنظيمات العامة والاتجاهات الاساسية للدعاية ، وما الى ذلك .

ومن اجل فهم السبب الحقيقى لهذه الظواهر وجوهرها لابد ان ننظر اليها على أساس القوانين الاساسية للتطور الاجتماعى ، وأن نقارن بين القسمات الكيفية لهذه القوانين وتطور النظم الاجتماعية الاخرى ، وعندئذ يصبح من الواضح ان الحروب ، والعنف والنزعة العسكرية ، والعدوان ، لا ينبغى أن ينظر اليها كأشياء « شاذة » تنشأ عن تصرفات متعمدة من جانب اشخاص بذاتهم ، لانها تتحدد وفقا لقوانين موضوعية للتطور الاجتماعى .

ومن ثم فالمسألة التى نحن بصددها هى مسألة الطبيعة الطبقية للمنهج المستخدم فى تحليلها ، وللنظرة العامة للطرف القائم بالتحليل . وموقف الكويكرز واضح كل الوضوح . فمهما كان عدد أولئك الذين ينتقدون السياسة الداخلية والخارجية للولايات المتحدة ، فالكويكرز هم دائما الكويكرز : انهم الانصار الثابتون « لنمط الحياة الامريكى » والعلاقات الراسمالية . ولم يكن من الممكن أن نتوقع غير ذلك لان تعاليم الكويكرز تنبع اساسا من تيار بورجوازى فى المسيحية . فالمذهب الدينى للكويكرز نشأ ليعكس الاتجاهات الانسانية للفكر البورجوازى المبكر والتى تركزت حول مفهوم الانسان ككائن موهوب بالخصال الاخلاقية الرفيعة التى يمكن الكشف عنها بمساعدة « الروح القدس » .. وقد قام هذا المفهوم على اساس تحويل سيكولوجية المنتج الصغير الى فكرة مثالية .. فالحرية البورجوازية هى المثل الاعلى الاجتماعى ، التى يرى فيها الهدف الاساسى الشعب الامريكى كله » .. ونحن نؤمن انه لابد لكل انسان أن يكون حرا فى أن يفكر لنفسه ، وان يعيد الآلة

الذى يختاره بطريقته الخاصة ، وأن يعبر عن معتقداته ، وأن يتصرف ــ سواء بمفرده أو فى تعاون مع الآخرين ــ وفقا لما يؤمن بأنه الخير الاسمى .. ونحن نعتقد أن لكل شعب نفس الحرية فى أن يختار لنفسه نوع الحكومة التى سيعيش فى ظلها ، وأن يحدد سياسة تلك الحكومة » (٢) .

وباختصار ، فموقف الكويكرز موقف غاية فى التناقض : فهم يؤيدون تطور الاقتصاد الراسمالى ، ولكنهم يعارضون تركز راس المال الذى يدمر استقلال المنتج الصغير ، انهم يؤيدون التجارة الحرة ولكنهم يعارضون التسلط غير الاقتصادى للاحتكارات .. انهم مع الراسمالية والملكية الخاصة ، ولكن على شرط أن تقوم على مبادىء « أخلاقية » و « انسانية » (٣) .

وينعكس هذا الموقف المتناقض فى المذهب الايديولوجى للكويكرز ، فهم يعارضون التطور الاحتكارى للراسمالية ولكنهم يؤيدون الراسمالية بصفتها الشكل « الطبيعى » للجماعة الانسانية . ولهذا السبب يعجز المنظر الكويكرى عن دراسة الاسباب الموضوعية التى تحدد «الاتجاهات المتطرفة» التى يدينها أن اهتمامه محصور كلية فى دائرة السلوك ، وفكره لا يتعدى أبدا الظواهر الخارجية « رغم أنه يدعى أنه يفسرها » . وهكذا ، فالقسمات الخارجية وحدها هى الدائمة بالنسبة له ، وهى التى تتكرر باستمرار لتنعكس فى ظواهر خارجية مرئية يعتبرها بمثابة « القوانين » ، وليس الدائم هو الاسباب الحقيقية الكامنة تحت هذه الظواهر . فالقانون يساوى نمطا مثاليا لتحقيق الظاهرة ، أو للشكل المستمد من المحتوى الحقيقى ، وفى النهاية فما يرى فى واقع الحياة ما هو الا عملية تطور عجيبة .

فالقانون المستمد من الظواهر الدائمة أو المتكررة ، وكتعميم للملاحظات النابعة كلية عن التجربة ، يحل محل الحقائق المحددة الاصلية ، التى ينظر اليها فى هذه الحالة كمجرد أحداث فردية تؤكد صحة « القانون العام » .

وهكذا ، فأفكار الكويكرز تدور فى حلقات مفرغة وتنظر الى الفروض المجردة باعتبارها حقائق تجريبية محددة ، ولا يعدو منطقهم العام للتبرير أن يكون الحاصل الاجمالى لهذه الحلقات المتعددة الابعاد .. ويتجلى هذا المفهوم الذى ينادى به الكويكرز فى عديد من المؤلفات .. وعلى أى الاحوال فعناصره الاساسية تبقى كما هى : صياغة آراء تعتبر من وجهة نظر واضعها وكأنها الطريق الوحيد لضمان السلام ، والقول بأن العلاقات الاجتماعية

---

(٢) خطوات نحو السلام . رأى الكويكرز فى السياسة الخارجية للولايات المتحدة ، تقرير أعد لجمعية أنصار الخدمة الامريكية ، فيلادلفيا ، ١٩٦١ ، ص ٧ .

(٣) ولسنا فى حاجة الى التأكيد على أن الكويكرز كأعضاء لايديولوجية الملكية الراسمالية والحرية البورجوازية فهم يعادون الاشتراكية . وكثيرا ما يكتبون عن « التسلط » و « التعصب » و «فقدان الحريات الفردية» بصفتها أشياء تحدث فى ظل الاشتراكية . وفى بعض الاحيان نجدهم يرددون بكل بساطة الشعارات الجارية للدعاية الرسمية .

القائمة لا تتفق مع هذه الصياغة ، ومحاولة تقديم التفسير ـ أو السبب ـ الذى تجرى المحاولة للتوصل اليه فى التغيير الذى يعمم الحقائق التى تنتظر التفسير .

وعند دراستنا لآراء الكويكرز سنرجع أساسا الى كتاب « قل الحقيقة للسلطة » (٤) لأنه يمثل الأفكار الاجتماعية للكويكرز تمثيلا محددا . وعندما حاول المؤلفون أن يحللوا السياسة الداخلية والخارجية الحالية للولايات المتحدة بدأوا بابراز بعض القسمات الأكثر تحديدا والتى يمكن أن تقدم فيما بعد المفتاح لفهم الظواهر المحددة . لقد اعتبروا « حكم العنف » هو القسمة الأساسية للحياة الحديثة .

وهم يرون أن العنف يسيطر على المجتمع بأسره ، وأن عصرنا الراهن هو « عصر العنف » ، وهو أيضا عصر يتم فيه سحق شخصية الفرد عن طريق نشر المذاهب الاستبدادية . فنمو السلطة المركزية يؤدى الى نشأة مجتمع لا يعترف بكيان الأفراد ويتم تحويل الناس فيه الى قالب عام ، ويدفعون دفعا الى التوافق مع المعايير الفكرية والسلوكية المتعارف عليها . كما أن المفهوم النبيل عن سمو الفرد يتخلى عن مكانه بسرعة لتحل محله أشكال متنوعة من التسلط . فالسلطة المركزية ما هى الا قوة مسيطرة فى قطاعات واسعة فى الشرق والغرب على السواء » (٥) .

وفى نفس الوقت فهذا العصر « عصر ثورى » ، لقد رفع التقدم التكنولوجى المستوى المادى لمعيشة البشرية الى مستوى لم يحلم به أحد من قبل . ومع ذلك فهذه الفرص لا يتم الاستفادة منها ، فالأمم الصناعية معنية فحسب باشباع حاجاتها الخاصة ، تاركة الملايين غيرها للجوع والاملاق . ان تناقض المجتمع الحديث « ضارب بجذوره الى مدى أبعد وأكثر انتشارا ، لأنه ينشأ عن سيطرة أدوات القوة نفسها التى لجأ لها الانسان بكل هذه الثقة . الفقر والثراء ، الجوع والطعام ، القلق والقوة ، القيود والحرية ، الحرب والسلام ـ هذه هى التناقضات الحقيقية » (٦) .

والمفارقات فى المجتمع البورجوازى صريحة واضحة بحيث لا تحتاج لاكثر من الملاحظة التجريبية للتيقن من وجودها ، ولكن الاصرار على «التناقض» فى منطق الدراسات الاجتماعية الحديثة يخدم أغراضا متعددة .

فمن الممكن لهذا التناقض أن يستخدم ، باديء ذى بدء ، كتفسير مناويء ، أو كدليل على عجزنا عن رؤية العلاقات الداخلية بين الظواهر عندما نقيد أنفسنا فى حدود ملاحظة المرئيات المباشرة على سطح الأشياء . وفى هذه

---

(٤) قل الحقيقة للسلطة . سعى الكويكرز الى بديل عن العنف . دراسة للنزاع العالمى اعد لجمعية انصار الخدمة الامريكية .

(٥) المرجع السابق ص ٢ .

(٦) قل الحقيقة للسلطة ، ص ٣ .

الحالة فسوف يوضح التحليل العلمي أن التناقض انما هو مجرد تناقض ظاهري ، وسوف يكشف النقاب عن النظام الداخلي ( الميكانيزم الداخلي ) الذي أنتجه ، عن أن القوانين الطبيعية للملكية الخاصة تفضى أوتوماتيكيا الى الاستغلال والعنف والحروب ٠

وهذه السمات ، بطريقة أخرى ، هي التي تميز النظرة الدينية التي يتم عن طريقها « البحث في ماهية » « التناقض » باعتباره قسمة للحياة الاجتماعية ، نابعة من صميم هذه الحياة ولا راد لها ، مما يثبت وجود خطين منفصلين للتطور ٠ وفي هذه الحالة يتم رفع قطبين متعارضين الى مستوى الحقائق المطلقة ، مع استبعاد أي امكانية لتقديم تفسير حقيقي ٠ والمفهوم الكويكري مفهوم من هذا النوع ، انه مفهوم العالم الى ما هو انساني وما هو الهي ،فهم يقولون لنا « وتنشأ احدى المشكلات الأكثر خطورة التي تواجه الانسان من النزاع بين استجابته الفردية للعالم المحيط به وبين الاستجابة السياسية للجماعة التي ينتمي اليها » (٧) ٠ ومن الممكن لهذا النوع من التصريحات ، والذي يمثل احدى السمات المميزة لعلم اللاهوت الحديث ، أن يستخدم أيضا كأساس لتحليل القوى « الخارجية » التي تمارس الضغوط على الانسان ٠ ولكن هنا نجد المؤلفين وقد انغمسوا على الفور في دائرة أخرى ، وراحوا يعالجون النزاع بين الفرد والقوى التي تستعبده ، لا كصدام داخل الحياة نفسها ، وانما كتعبير عن التناقض بين ما هو الهي وما هو انساني داخل كل فرد ، « فنحن ، كأمريكيين ، أبناء كل منا في ذاته لله ، بكل ما في ذلك من التزام عميق بسيادة الضمير ، وفي نفس الوقت نحن مواطنون في أمة تلعب دورا كبيرا في تشكيل ومواجهة كل ما يحيط بنا » (٨) وكما سترى ، فهذا « التناقض » يرد في ثنايا نظرة الكويكرز كلها ٠ وفي أشكال متعددة ٠

وقد اهتم مؤلفو هذا الكتيب على وجه الخصوص بالسياسة العسكرية ، وسباق التسلح ، ومحاولات استخدام القوة في المنافسة بين القوتين العظميين، الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي ، وهم يرون في ذلك جذر التناقضات المتوارثة في عالم اليوم . وسرعان ما أثبتت الآمال التي تعلقت بقيام سلام دائم والتي بدت مستندة الى اسس متينة بعد الحرب ، سرعان ما أثبتت هذه الآمال أنها ميئوس منها ، لان « السنوات العشرين من الكراهية التي سبقت الحرب أنتجت في كل من روسيا والغرب شكوكا متبادلة أعمق من أن يتم القضاء عليها عن طريق التحالف الشاق الذي شهدته فترة الحرب » (٩) . وهكذا تسيطر سياسة الحرب وسباق التسلح على عالم اليوم ، الى جانب الموقف المفعم بالشكوك المتبادلة والتهديدات من الجانبين . ولما كان الكتيب موجها في المقام الاول الى الحكومة الامريكية ، فقد اهتم المؤلفون اساسا بدراسة سياسة الولايات المتحدة . ومرة أخرى نلتقي بالثنائية المتوقعة في وجهات نظر الكويكرز ، ففي نفس الوقت الذي يدينون فيه الاتجاه الرئيسي

---

(٧) قل الحقيقة للسلطة .

(٨) المرجع السابق ص ٤ ٠

(٩) المرجع السابق .

للسياسة الخارجية الامريكية واهدافها ، نجدهم يصرون على أن هـــذه السياسة تقوم على الاهتمام «بالمصالح القومية» ، وعلى المبادىء الغيرية (١٠) والانسانية . ولما كانوا ينظرون الى السياسة باعتبارها تجسيدا لافكار محددة بذاتها ، فهم يعتبرون أن السياسة الامريكية ان هى الا التطبيق العملى للمثل العليا الامريكية المعلنة عن الحرية والمساواة والديموقراطية ، وما الى ذلك . ولذلك فهم يتناولون حقائق العدوان والعنف والتواطؤ مع الرجعية وما شابه ذلك ، لا كتعبير منطقى حتمى عن الطبيعة الامبريالية لهذه السياسة ، وانمـــا كسمات محزنة لا ينبغى السماح بها .

ولا بد لنـــا أن نقرر أن الكويكرز ، عنـــدما يقومون بتقويم السياسة الخارجية العملية للولايات المتحدة فهم يرفضون ابتلاع « الروايات الرسمية » بالجملة ، وغالبا ما يسلكون طريقا منصفة نحو تفسير الأشياء على حقيقتها . فهم يلاحظون ، مثلا ، أن مشروع مارشال الذى ظهر بعد الحرب قدم « فى نفس الوقت تقريبا جنبا الى جنب مع سياسة احتواء الدولة السوفييتية والشيوعية بالقوة » (١١) . كما أنهم بعيدون عن الاوهام ، أيضـــا ، فيمـــا يتعلق باقامة حلف شمال الأطلنطى ، وحلف جنوب شرقى آســيا ، وسياسة اعادة تسليح ألمانيا الغربية ، وتوقيع معاهدة الســـلام مع اليابان وما الى ذلك ، وقد بينوا كيف تستند السياسة الدولية الأمريكية أســـاسا فى أجزاء عديدة من العالم على القوة العسكرية ، وكيف أنها غالبا ما تحمل فى طياتها قمع حرية وحقوق الشـــعوب الأخرى .

وينبغى أن نسجل للكويكرز أيضـــا أنهم يدركون العلاقة بين سياسة القوة وبين العدوان على الحقوق الديمقراطية ، وان كان ذلك على طريقتهم الخاصة .

وقد أوضح مؤلفو الكتيب كيف تجرى التضـحية بالحريات الديمقراطية البورجوازية من أجل متطلبات عسكرية مفتعلة لا تفضى الا الى التخلى بالتدريج عن الحريات الفردية .

وغالبـــا ما يعبر الكويكرز عن ادراك كامل للعـــلاقة بين تأثير الدعاية العســـكرية وبين الأوضاع التى تنشأ فى المجتمع . فمثـلا نجـد الكويكرى البريطانى ب . سيد يتلمس الجوانب السيكولوجية لسباق التسلح ، ويتساءل عن الأسباب التى تدفع عديدا من الانجليز الى الايمان بخطر العدوان وضرورة الدفاع عن بلادهم ضـــد الاعتداء (١٢) ، وهـــو يرى عاملين يكمل كل منهما الآخر : « الأول هو الحد الأقصى من تناقص المســئولية الشخصية الناجم عن الحياة فى خضم مجتمع منظم ضخم ، من تحول الناس الى مجرد أفراد فى زحام حشد عظيم . وأما العامل الثانى الجديد فينجم عن تطور الأسلحة الحديثة» (١٣)، ويستمر فى حديثه فيوضح كيف أن العلاقات بين الناس آخذة فى التحول الى

---

(١٠) التى تحب الخير للغير (المترجم) .

(١١) المرجع السابق ص ٥ .

(١٢) ب . سيد ، مالا دفاع عنه . الجوانب السيكولوجية لمشكلة نزع السلاح والحلول الممكنة ، لندن ، ص ٣ .

(١٣) المرجع الســـــابق ، ص ٦ .

علاقات سطحية وميكانيكية أكثر فأكثر ، وأن هذا هـو أحد الأسباب التى تجعل النـاس يشـعرون بأنهم عزل من أى دفاع ، وأنهم عرضـة لتأثير الدعاية العسكرية .

ولا شك ان سيد يصف بكل تأكيد عمليات مطابقة تمـاما لما يجرى فى المجتمع البورجوازى اليوم ، ولكن ما ان يحاول المرء تحويل هـذه السمات المميزة الى تفسير للظواهر الجارى بحثها حتى تفقد صحتها .. ويتضـح ذلك بنوع خاص فى محـاولات مؤلفينا الكويكريين لتقـديم تفسير اجتماعى « لسياسة القوة » .. فيجب الا يغيب عن اذهاننا أن هذا الموقف يمثل مفتاحا هاما فى الفلسفة الاجتماعية للكويكرز ، طالما انهم يعتبرون الالتزام الحـالى بالعنف سببا للنزاعات العسكرية ، مما يلح فى طلب البحث عن العوامل التى تؤدى الى هذا الشكل من اشكال العلاقات بـين الناس ، والجمـاعات الاجتماعية ، والبلدان .. « لماذا بقيت الاقتراحات المفعمة بالامـل فى أغلب الاحيان مجرد ممارسات فكرية خاملة ، مطبوعة فى كتيبات ، أو مدبجـة فى قرارات المؤتمرات (١٤) ، أو اذا أردنا أن نطرح المسألة فى عبارات اكثر مدعاة للتأمل : لماذا يحدث أن الناس « يؤمنون بقـوة القنبلة الهيدروجينية أكثر من ايمانهم بقوة الحب ؟ » (١٥) .

يتحول الكويكرز الى هذا السؤال ويحاولون الاجابة عليـه مرة بعد اخرى ، وفضلا عن ذلك فهم يضعون اجابتهم على نحو يقصد به أن تكون هذه الاجابات حجة لصالح عقيدتهم ، أو كبرنامج « ايجابى » لهم . ومـع ذلك فلا يمكن القول بأن تفسيرهم يكشف بالفعل عن أسباب العنف ، بل والواقع ، اذا شئنا الدقة ، انه لا يحوى أى تفسير على الاطلاق ، وانما هو مجـرد الدوائر المعينة التى تميز فكر علم الاجتماع الدينى كله ، ومن ثم ينتهى الامر بأن السلوك انما يخضع فى التحليل الاخير .. للسلوك .. والكويكرز يرفضـون الفكرة القائلة بأن أسباب العنف ينبغى البحث عنها فى الاتجاهات الاجتماعية الخاصة ، ويصرون على البحث عنها فى خصائص الفرد ، بصرف النظر عن المجتمع الذى يعيش فيه . « فالاسـباب الحقيقية التى دفعت بالعالم الى الطريق المسدود الحالى ، والتى يتعين علينا أن نناضل من أجل التغلب عليها تنبع من القيم الزائفة التى مازال الانسان يعيش عليها فى الشرق والغرب على السواء . أن لعنة الانسان تكمن فى عبادته لنتاج يديه ، وفى تمجيده للاشياء المادية ، وفى سعيه المجنون للقوة ، وعدم اكتراثه بالشخصـية الانسانية ، وتجاهل الله ، والقبول بالعنف أو أى وسيلة أخرى لتحقيق الغايات .. انها وثنية لا يتهم بها الشيوعيون وحدهم ، وانما يشارك فيها جميع البشر ، وعندما ندقق فى دراستها ، فسوف يكتسب النضال من أجل القوة فى العالم ابعـادا جديدة » (١٦) .

---

(١٤) قل الحقيقة للسلطة ، ص ١٨ .

(١٥) المرجع السابق ، ص ١٨ .

(١٦) المرجع السـابق ، ص ١٨ .

وتتجلى سمات النظرة الدينية للكويكرز بوضوح فيما سبق ، حيث نلتقى بنسخة حديثة من الآراء المسيحية الجامدة من « خطيئة » الانسان كأساس لكافة الشرور الاجتماعية .. واكثر من ذلك فهذه الفكرة لم تعد تذكر ضمنا ، وانما يقال اليوم بصراحة أن : الشرور الحقيقية الكامنة فى جذور النزاعات المحزنة التى تهدد بدمار البشرية انما هى الشرور التى تنبع من عبادة الانسان للاوثان ، والسعى المحموم من أجل القوة ، وعجز القوة عن أن تحدد لنفسها أبعادا محددة ، وهى الشرور التى تنبع من انتهاك الشخصية الانسانية والاعتداءات على حريتها وكرامتها ، ومن « الالحاد العملى » للمادية والمذاهب الدنيوية السائدة ، ومن انتشار عبادة وممارسة العنف والمذهب العام الذى يقول بأن غاياتنا تبرر كافة الوسائل .. وهكذا نجد أن أفكار المؤلفين وقد لفت من حول نفسها فى دائرة كاملة ، لترجع الى نقطة وجود العنف فى العالم ، ولكنها لا ترجع اليها هذه المرة كملاحظة تجريبية مستمدة من الظاهرة نفسها وانما كسبب أساسى لهذه الظواهر .

وكما رأينا ، فالكويكرز يبداون من الظواهر المميزة لراس المال الاحتكارى انهم يتحدثون عن « السلطة المركزية » ، وعن « أداة القهر » . وعى « طمس الشخصية » فى المجتمع ، وعن الاشتراك الاجبارى فى المعايير الايديولوجية ، وانتشار الامتثال للاوضاع القائمة ، وما الى ذلك .. ومع ذلك ، فاستنادا الى طريقتهم فى التعليل ، فالسياسة المحددة ، او سلوك المجموعات الاجتماعية المعنية ، ليست سوى حاصل جمع سلوك الافراد ، فى نفس الوقت الذى يتم فيه تجاهل العوامل التى تحدد ظهور هذه المجموعات وتتحكم فى أفكار وأمزجة أعضائها تجاهلا كاملا .. وهكذا ، فالمجموعة الاجتماعية ، أو الطبقة ، لا تشكل وحدة الا بالقدر الذى يسجل فيه على الافراد الذين يكونونو هذه الوحدة الاشتراك فى منحى واحد للسلوك ، ولا تعتبر الاتجاهات الاجتماعية الا مجرد عملية جمع لسلوك الافرا د.

ومن المؤكد أن مفهوم الكويكرز عن الانسان مفهوم انسانى وديمقراطى فهم يؤمنون ايمانا راسخا بقدرة الانسان ( بمساعدة « الروح القدس » ) على اختيار « سياسة الابدية » ، وعلى التصرف وفقا للمبادىء الاخلاقية العليا ومقاومة طوفان الخطيئة الذى يسيطر على المجتمع .. ولكن هذا التفاؤل لا يستند الى تحليل واقعى للاتجاهات الاجتماعية الحديثة ، وانما يستند الى ايمانهم بمقدرة الفرد على أن يطهر نفسه وفقا للمبادىء المسيحية . ولهذا السبب فبرنامجهم ، وبالرغم من النوايا النبيلة التى تمليه ، لا يعدو أن يكون مجرد أمان طيبة .

سبق أن رأينا كيف ينظر الكويكرز الى العلاقات بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى باعتبارها السبب الرئيسى للتوتر فى عالم اليوم .. وهذا هو السبب الذى يجعلهم يكثرون الكتابة حول « تحدى الشيوعية » و « الاستبداد » الشيوعى ، ويكرسونجانبا من الجهد لتفسير السياسة الخارجية لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية .. وفى نفس الوقت فهم يحاولون دائما أن يضعوا أنفسهم « فوق » « العملاقين المتنازعين » ، ويدينون

السياسة الخارجية للطرفين معا .. وهم يعتقدون أنه ليس من المهم تحديد اى الطرفين هو الذى بدأ فى التعبير عن سوء النية ، وانما المهم هو ان هـذا هو ما انتهت اليه الحياة اليوم ، ولابد من التوصل الى طريق لوضع حد له .

والشاغل الاساسى للكويكرز هو دحض الفكرة القائلة بأن « سـياسة القوة » يمكن أن تستخدم كوسيلة لحل المشكلات القومية وتبريرها فى نفس الوقت بأنها فى مصلحة الامن القومى . وهم يسوقون حججهم بشكل علم على النحو التالى تقريبا : (١) منذ نهاية الحرب العالمية الثانية يتزايد نفوذ الاتحاد السوفيتي وجاذبية مذهبه الشيوعى بشكل ثابت ، بينما يتقلص مركز الولايات المتحدة ونفوذها فى مختلف أنحاء العالم ، (٢) تتجه السياسة العدوانية للولايات المتحدة الى تأكيد وجهة النظر الماركسية عن الطبيعة العدوانية للرأسمالية ، وتزيد من الكراهية بين « الكتلتين » (٣) .. المبادىء التقليدية لسياسة الولايات المتحدة يجرى تقويتها على نحو خطير ، ونتيجة لذلك يتزايد تدخل الولايات المتحدة فى الشئون الداخلية للبلدان الاخرى وتأييد الحـكام الديكتاتوريين ، وتشجيع سباق التسلح ، وما الى ذلك ، (٤) هذه السياسة ليست فى مصلحة الامن القومى ، بل هى تنتج ، على العكس من ذلك ، خوفا متزايدا واحساسا متناميا باليأس بين الامريكيين (٥) ونتيجة لكل ذلك فقد فسدت المعـايير الاخلاقية للامة (١٧) .

فما البرنامج البنائى الذى يقدمه الكويكرز بدلا من سياسة القوة ؟ من الواضح انه برنامج رسم من أجل وضع حد لحكم العنف فى العالم ، ومن ثم تعتمد الطريقة التى تمت صياغته بها على التفسير الذى يقدمه الكويكرز للعنف وكما سبق أن رأينا فالكويكرز ينزعون الى أحد أمرين : أما ان يساووا بـين سبب العنف وبين حقيقة العنف نفسه ، أو أن ينسبوا هذا العنف الى عبادة الاوثان ، والتى تمارسها البشرية كلها . وعلى هذا النحو يأتى برنامجهم وقد انحصر بتأبعاده فى توجيه النداءات من أجل الكف عن العنف من أجل التطهر الاخلاقى الذاتى وفقا لمبادىء المسيحية .

ويلتقى المرء فى كتابات الكويكرز من وقت لآخر باشارات ملتـوية الى الاسباب الاجتماعية لسياسة القوة ، ولكن هذه الاشارات تقترن بتفسيرهم الخاص ، الغريب الى حد ما ، لما هو اجتماعى نوعا لما هو « اجتماعى » .. فمثلا فيما يتعلق بالنزاع بين الشرق والغرب نجدهم يعتقدون أنه لم يعـد من الممكن الاستمرار فى مناقشته «وفقا للقواعد المبسطة للخير والشر» (١٨) وكان من المتوقع أن يلى ذلك محاولة للتخلى عن تفسير النزاع بالحديث عن الوثنية ، والبحث عن الاسباب الاجتماعية ، ولكن هذا لا يحدث ، وانما يكتفى المؤلف باعتبار المسألة مجرد اتجاهات مختلفة بالنسبة للافكار المسيحية ، كما لو كانت هى العامل الوحيد الذى يحدد أشكال التنظيمات الاجتماعية .. فهو

---

(١٧) المرجع السابق ، ص ٦ — ٩ .

(١٨) المرجع السـابق ، ص ٣٢ .

يقول أن النزاع انما هو بين « الفلسفة المسيحية ـ اليهودية عن قيمة الانسان الفطرية (١٩) · وبين الاستبداد ·· وهنا نلتقى مرة أخرى بالموقف المسيحى التقليدى الذى يضع الاخلاقيات « الدنيوية » الدنسة فى مواجهة الاخلاقيات الالهية « الحقة » .

وهكذا ، فالبرنامج « البنائى » للكويكرز ، وحتى فى اكثر اشكاله ارتباطا بعلم الاجتماع ، يهتم بالقضاء على اسباب عبادة الفرد للاوثان ، « بالعودة » الى المعايير المسيحية .. ويسجل الكويكرز أن هناك فجوة واسعة بين التطور الاجتماعى الفعلى وبين هذه التوصيات ، ومن ثم أصبح عليهم عند مناداتهم بأن برنامجهم لاعادة تشكيل المجتمع برنامج « واقعى » و أن « سياستهم الابدية » سياسة « واقعية » ، أن يبحثوا عن مجال من مجالات الحياة يمكن أن يوضع فيه هذا البرنامج وهذه السياسة محل التنفيذ .

والكويكرز ينظرون الى كل فرد باعتباره مكونا من جوهرين : جوهر الهى هو منبع الفضائل الاخلاقية الحقيقية ، وجوهر انسانى متردد فى الخطيئة ، ومن هنا تأتى وجهة النظر القائلة بثنائية الانسان ، وتقسيمه الى انسان أخلاقى متدين «باطنى» ، وانسان اجتماعى ، لا لزوم له ، و«خارجى» وعلى هذا النحو فالشر الاجتماعى لا يمكن القضاء عليه الا بوسائل التطهير الاخلاقى للفرد ، بأن يكشف الفرد عن جوهره الالهى « الحق » ، وتخليصه من السمات الاجتماعية « الخارجية » التى لا تؤدى الا الى افساد طبيعته الحقيقية · وفى قول آخر ، فالانسان جدير بأن يعتبر فاضلا اذا ماتصرف بصفته انسانا متدينا « باطنيا » ، مفعما بالانصياع والاحساس بالبنوة لصانعه وليست هذه الآراء الا مجرد صياغة جديدة للفكرة المسيحية التقليدية القائلة بأن الفضائل الاخلاقية هى من أصل الهى أو أنها « فوق اجتماعية » . ويصل بنا هذا العرض الى سمة أساسية من سمات موقف الكويكرز ، فالكويكرز لا يتوجهون بنداءاتهم الى اى جماعة اجتماعية معينة ، ولا حتى الى فرد اجتماعى ـ تاريخى محدد ، وانما يتوجهون بها الى الافراد بالمعنى المجرد ، الافراد الذين تهيمن عليهم طبيعة ثابتة لا تتغير ، والذين ينظر اليهم فى المقام الاول ككائنات متدينة .. أما استعدادهم لتغيير العالم فهو حقيقة مسلم بها كواجب شخصى نحو الله . ويفسر الكويكرز وجود الشر الاجتماعى فى العالم اليوم بأن المجتمع الانسانى الحديث يطمس احساس الانسان بالتزاماته نحو الله .

« فالطبيعة الانسانية تطالب بأن يؤمن الناس بشخص أو بشىء ما .. ومع ذلك يبدو أن قليلا منا هم الذين يؤمنون ايمانا كافيا بالله وبتعاليم المسيح والذين لديهم الرغبة فى أن يعتمدوا عليها بدلا من التسلح ، ونحن نعتقد أن البديل الآخر انما هو الايمان بالبشرية على أنها من خلق الله ، الذى وضع صورته فى كل فرد » (٢٠) .

---

(١٩) قل الحقيقة للسلطة ، ص ٣٢ .

(٢٠) طرق السلام على الارض · الطريق رقم ٤ ( نزع السلاح ـ حتى مساوىء الرقابة البوليسية ) .

وهكذا ، فالقفز الى « سياسة الابدية » يتضمن « تطهير » الانسان من المؤثرات « الخارجية » و « الدنيوية » التى تطمس صورة الله فى روحه ، وتنتهى به الى التخلى عن الانصياع المسيحى الحق . « ونحن نعتقد ، لذلك ، ان اى اقتراح لحل النزاع بدون اللجوء الى العنف ينبغى أن يبدأ بالاعتراف بالحقيقة الواضحة والبسيطة عن الجرم المشترك للانسان ، وعن نبله المشترك » (٢١) .

وثمة اقتراح بأن التطبيق العملى لبعض المعايير الاخلاقية « المطلقة » ، أو المعايير الاخلاقية الالهية « الباطنية » هو وحده الذى سيمكن الناس من الارتفاع فوق الاعتبارات النفعية التى تهتدى بها الجماعات المختلفة من الناس فى الدفاع عن مصالحها .

ومن اجل تكوين فكرة واضحة عن آراء الكويكرز ينبغى أن نلقى نظرة على السمات الخاصة لمفهومهم عن العلاقة بين الله والانسان والتى يختلفون فيها بالضرورة عن معظم البروتستانت الآخرين .. فالكويكرز يركزون على الفكرة التى تذهب الى أن الله دائم الحضور فى الانسان ، وأنه « ملازم للحياة الانسانية » .. وتكمن حقيقة الله كحضور حى فى العالم وفى الانسان فى جوهر عقيدة الكويكرز ذاتها .. فكل يوم هو يوم للخلق ، والتاريخ كله تاريخ مقدس وهم يعتقدون أن روح الانسان ، انما هى مكان يكشف فيه الله عن ذاته .. فالانسان انما صنع على الصورة الالهية (٢٢) : وحضور الله فى الانسان ، فى كل فرد ، أو حضور « النور الداخلى » كما يعبر الكويكرز عن القضية ، هو ما يعتبره الكويكرز أساسا للاخوة الانسانية . وهذا الاقتناع بأن ثمة شيئا الهيا فى كل فرد يهبه الكرامة والنبل ، هو الذى يفسر اصرارهم على أن الانسان ينبغى ألا يخضع للاستغلال لصالح اى أهداف ، أيا كانت هذه الاهداف ... وهذا الموقف هو الذى يحدد معارضة الكويكرز للعنف ، « فمذهب الكويكرز القائل بأن « الله حاضر فى كل انسان » هو بشكل ، عام الاساس الذى تقوم عليه سلبية جماعة الاصدقاء » (٢٣) .

وعلاوة على ذلك فالكويكرز يعتقدون أن العلاقات المعارضة لسياسة العنف لا يمكن أن تتحقق الا على أساس الحب المسيحى .

ولنلق نظرة على مسار التفكير الذى يفضى بالمنظر من جماعة الكويكرز الى النتيجة القائلة بأن المبدأ الوحيد للحب الالهى يمكن أن يستخدم كوسيلة فعالة لتحسين المجتمع .

لقد سبق أن لاحظنا كيف يعتبر الكويكرز حقيقة العنف نفسها كسمة

---

(٢١) قل الحقيقة للسلطة ، ص ٢٣ — ٢٤ .

(٢٢) ر.م. جونز ، عقيدة الكويكرز ، فيلادلفيا ص ٣ .

(٢٣) جونار ساندبرج ، نحو السلبية ، معتقدات والتزامات شباب أوروبى . ديسمبر ١٩٥٠ بندل هل ، وولنجفورد ، ص ٢٠ .

مستقلة قائمة بذاتها بعيدة عن العلاقات الانسانية ، الشخصية والاجتماعية تنبع كلية لا من العلاقات الاجتماعية الجارية والمتغيرة وانما من الطبيعة الانسانية ، ومن طبيعة الفرد التى ينظر اليها كشىء ثابت لا يتغير . وهكذا فثمة دائرة من القيم الروحية الكامنة خارج الاخلاق والتى تتولد عن طبيعة الانسان « الخاطئة » ، وهم ينظرون الى هذه الدائرة من القيم بصفتها العنصر المحدد لجميع مجالات العلاقات الاجتماعية الجارية — الاقتصادية والسياسية والثقافية . ويتجلى « تردى الانسان فى الخطيئة » أكثر ما يتجلى فى اقترانه للعنف ، وفى علاقاته العدائية التى توجد بين الناس .. ولما كان الشر غريزيا فى الطبيعة الانسانية ، فلا يمكن التغلب عليه أو استئصاله الا عن طريق انتصار القيم الاخلاقية المضادة ، بذل الجهد للتغلب على الكراهية بالحب ، وعلى الكبر بالتواضع ، وعلى عبادة الانسان لنتاج عمله هو بادراك خطيئته الذاتية ، وعبادة الاوثان بالعودة الى الله ، وما الى ذلك .. وأكثر هذه الصياغات التى تحوى فى طياتها الاخلاقيات الانجيلية شمولا هى مبدأ الحب .

ولسوء الحظ أنه من المحال فى الحيز المحدود المتاح هنا أن نقوم بتحليل تفصيلى لهذا المبدأ المعقد تعقيدا أبعد مما يتصور الناس بشكل عام .. وعندما يقدم أحد علماء الدين مبدأ الحب المسيحى كأساس لتحويل المجتمع ، فهو يقصد الحب ، لا كقيمة عاطفية تشتمل على المشاعر « العالمية » ، وانما هو يقصد حبا « الهيا » خاصا يستخدم كنموذج للعلاقات الاجتماعية . ويبرز ذلك بكل وضوح فى فكر الكويكرز حيث يعتبر الحب كالمبدأ الكامن ، لا وراء العلاقات الحقيقية التى تحددت اجتماعيا ، وانما وراء « أسرة انسانية » غامضة ، و « مجتمع انسانى — الهى » .

وكما رأينا ، فالكويكرز لا يقومون بتحليل المجتمع استنادا الى احكام نظرية أو الى تشخيص سلبى لامراضه ، وانما ينظرون اليه فى المقام الاول كشكل من اشكال النشاط . فسلبية الكويكرز « ليست نتيجة للتنظير العلوى من الابراج العاجية ، وانما هى تنبع من الخبرة المباشرة الفجة النابعة عن المحاولة (٢٤) .. ومع ذلك فهم لا يعتبرون برنامجهم للعمل امتدادا للسياسة الجارية ، أو انعكاسا لبعض القوى الاجتماعية المعينة ، وانما كشىء يقف خارج شبكة الاحداث الحقيقية . أنهم يرون أن دورهم انما يتركز فى القيام بمسح « دينى » خاص للمجتمع يعجز العقل عن تفهمه ، أكثر مما يتركز فى تقديم وشرح البرامج الاجتماعية وأشكال النشاط السياسى القائمة بالفعل . وهكذا ، فهم مقتنعون بأن لديهم مهمة رسولية عليهم القيام بها فى المجتمع الحديث ، وبأنهم حملة رسالة الحقيقة المسيحية التى تتميز عن الحقائق الانسانية البحتة بأنها حقيقة خالدة . « ان حقيقتنا حقيقة قديمة : ان يتحمل الحب ويتغلب ، وان الكراهية تدمر ، وأن مايتحصل عليه عن طريق الحب يبقى ، ولكن ما يتحصل عليه بواسطة الكراهية يتحول الى عبء . وهذه الحقيقة ، التى تعتبر جذرية بالنسبة للموقف الذى يرفض الاعتماد على

---

(٢٤) و. كومنورت ، نمط الحياة عند الكويكرز ، فيلادلفيا ، ١٩٤٨ ، ص ١٦٦ .

أسلوب الحرب ، انما هى احساس دينى فى كل جوانبها ، وايمان يقف خارج نطاق التاريخ » (٢٥) .

وهكذا يقيس الكويكوز احتمالات نجاح آرائهم بالاســـتناد على مدى ما تستطيع ان تفعله لاقناع الناس بالحاجة لتبنى سياسة « جديدة » · والهدف الرئيسى لما يبشرون به هو اثبات ان آراءهم « واقعية » وعملية · ونتيجة لذلك فنظرياتهم تحكمية الى أبعد الحدود ·

وعندما يحاول كتاب الكويكوز أن يثبتوا صلاحية مفاهيمهم للواقع العملى فهم يســـتخدمون كافة انواع الحجج ، ويلجأون الى العلم ، وعلم الاجتماع ، وماضى حركتهم ، والمشاعر الانسانية ، واحساس الانسان بالواجب الاخلاقى ، وما الى ذلك من العناصر المتعددة ، ولكن الواقع انه من المحال دراسة كل هذه العناصر هنـــا · ولذلك نقترح ان نلقى نظرة على الحجج التى نعتبرها أكثر تعبيرا عن آراء الكويكوز ·

والحجة الاساسية التى يسوقونها هى الاشارة الى اخلاق « الهية » أعلى بصفتها الاخلاق الوحيدة التى تليق بالطبيعة الالهية للخلق . « فالله لم يخلق الانسان ليكره ، ولا سن قانونه حتى يخرج السلام من الغضب » (٢٦) · وهذه الحجة سقيمة ، اذا اردنا الدقة فى التعبير ، لانها مستمدة من مفهوم زائف تماما للعمليات التى يتشكل من خلالها الموقف الاجتماعى أو الســـياسى لمختلف الحركات الدينية والكنائس · والكويكرز يدعون ان تفسيـــرهم للانجيل هو التفسير الوحيد الصائب · ولكن الواقع ، بالطبع ، هو انه ليس هناك مايمكن القول بأنه حقيقة انجيليـــة مفردة خالدة · وكما لاحظ فيورباخ ، فلكل عصر انجيله الخاص به ، من صنعه هو · وليست الحقائق الانجيلية الجامدة هى التى تحدد الموقف الاجتماعى للكنيسة أو الحركة الدينية ، وانما الامر على العكس من ذلك فآراؤها السياسية هى التى تحدد تفسيرها للانجيل ·

وثمة حجة شائعة اخرى يستخدمها الكويكرز لدعم ادعائهم بأن برنامجهم واقعى وعملى تماما ، وهى القول بأنه يتمشى الى اقصى حد مع « الديمقراطية » التى يؤمنون بأنها « انبل فلسفة للتنظيم الاجتماعى » (٢٧) · وهنا يكمن فى الحقيقة أحد المفهومات البورجوازية الخاطئة ، لأنه : ما الديمقراطية ؟ انهـــا بالنسبة للكويكرز انتصار المبادىء البورجوازية الليبرآلية الكامنة فى نظام الملكية الفردية · ومع ذلك فمثل هذا المجتمع لم يعد له وجود · لقد فقد المجتمع البورجوازى ، وهو يتقـــدم وفقا للقوانين الموضـــوعية الداخليـــة للتطور الاجتماعى ، تلك الســـمات التى يعتبرها الكويكرز « ديمقراطية » · وهكذا ،

---

(٢٥) قل الحقيقة للسلطة ، ص ٣٧٥ · ويجب أن نلاحظ أن تبشير الكويكرز «بالحقيقـــة الخالدة» ليس له الا علاقة واهية بالمواعظ المسيحية الصريحة التى لا يلجأ اليها الكويكرز على الاطـــــلاق ·

(٢٦) المرجع السابق ، ص ٥٠ ·

(٢٧) المرجع الســـابق ، ص ٥٠ ·

فعندما يلجـــأ الكويكرز الى مثل أعلى ، أو الى ديمقراطية لا وجود لها ، فهم يتجاهلون العمليات الجارية في واقع الحياة بالفعل ، وبذلك ينهار الاساس الذى يقوم عليه زعمهم بأن لديهم برنامجاً « واقعيا » ٠

وكثيرا ما يعتبر الكويكرز ان الفضل الاساسي لموقفهم انما يرجع الى انه يأخذ في اعتباره الخطر الداهم للسياسة العدوانية في العصر النووى ٠ ولاشك ان هذا القول يعكس الاقتناع المتزايد في امريكا بأن طريق الحـــرب انما هو طريق الانتحار الامر الذى ربما كان له تأثيره ، حتى على الدوائر العسكرية ، مما يلجمها الى حد ما ويمنعها من شن العمليات العدوانية الصريحة ٠ وهنـــا يواجه الكويكرز حجج العســـكريين وأداة الدعاية القوية التى تعمل من أجل « غســـيل مخ » الجماهير ٠ وهذه الحجج التى تنتج نظاما كاملا من الخرافات الاجتماعية والآراء الزائفة والشعارات « الوطنية » لم تنبع من الفراغ ، وانما هي تعكس مصالح جماعات وطبقات اجتماعية معينة ، بل تعكس مصالح اكثر هذه الجماعات والطبقات نفوذا ٠ فلابد للمفهـــوم « الواقعى » من أن يتضمن بالضرورة تمييزا وتحليلا للعوامل الطبقية الاجتماعية الكامنة وراء الايديولوجية العســـكرية ، وتحديدها ودراســـة العلاقة بين مثل هذه الايديولوجية وبين المصالح الحقيقية والاشكال التى يعمل بها رأس المال ٠٠٠ الخ ، وعندئذ ، وعندئذ فقط يمكن ان توجه الحجج المعادية للحرب ، لا نحو الكشـــــف عن النقائص الانسانية « الابدية » وانما نحو الكشف عن حقيقة الاشكال التاريخية المحددة للعلاقات الانسانية وعن حقيقة اولئك الذين يخرجون عن مسارها لاستغلال هذه النقائص » ٠ ولكن ، وكما سبق ان رأينا ، فالكويكرز يتجاهلون التحليل التاريخى المحدد ، ولذلك فهم لا يســـــتطيعون ان يفعلوا اكثر من ان يعقدوا الآمال ، ومن ان يثقوا بأن الناس ســـــوف يتبعونهم عاجـلا أو آجـلا ، وأن « الطبيعة الانسانية ، التى نورتها العناية الالهية وأكسبتها النبل تستطيع ان تقدم الادلة الحاسمة فى اتجاه الجماعة العالمية » (٢٨) ٠ وهكذا يكتسب البرنامج « البنائى » للكويكرز سمة خيالية ( طوباوية ) واضحة ٠

ولسنا فى حاجة الى ان نكرر كثيرا ان مفهوم الكويكرز لا يقوى عـــلى الصمود فى مواجهة النقد العلمى او النقد المستند الى أصول علم الاجتماع ٠ وعلى أى الاحوال ، فسوف يبقى تحليلنا سطحيا ما لم نحاول ان نجيب عـــلى سؤال معين يحمل اهمية اساسية وهو ، كيف نشأ هذا المفهوم ، وما جذوره الاجتماعية ؟ وهذه العمليـــــة هامة الى اقصى حد ، لان ايديولوجية الكويكرز ليست ثمرة تأمل فلسفى او تنظير عقيم ، وانما هى تحمـل فى طياتها تجربة معينة ، اكتسبت تلقائيا ، وبشـــكل مســـتقل ، ومن خلال جهود عدد من الايديولوجيين الافراد . ولذلك ، فاذا أردنا ان نحكم على هذا المفهـــوم « من الداخل » وفقا لمعاييره العضوية «الفطرية» و «المتوارثة» بدلا من الحكم عليه « من الخارج » وفقا للمعايير « الخارجية » لما كان لدينا بديل عن دراسة هـــذه التجربة ٠

---

(٢٨) المرجع السابق ص ٥٢ ٠

فالكويكرز يعتقدون ان القضاء على العنف انما هو عملية تدريجية لاحلال العلاقات اليوميه العادية محل مختلف العلاقات الاخرى القائمة فى المجـــالات الاجتماعية والدولية والسياسية والطبقية ٠

ولسنا فى حاجة الى توضيح الطبيعة الواهمة لمثل هذا الموقف ٠ لاشك ان الكويكرزعلى حق فى رسم خط فاصـــل بين العـــلاقات اليوميـــة العادية والعلاقات السياسية والطبقية ـ فهى بالفعل اشياء مختلفة جدا ـ ولكنهم عندما يرسمون هذا الخط فهم يكشفون عن مفهوم ساذج جدا عن العلاقة والتداخل بين الجانبين ٠ فالمجتمع لا يمكن ان ينظر اليه « كأسرة موسعة » ، لانه بعيد عن التجانس الى أبعد الحدود ، وله قوانينه الموضوعية واتجاهاته ، ومؤسساته المختلفة ، وقواه الاجتماعية التلقائية ، وما الى ذلك ، وكلها تعمل فى استقلال عن ارادة الافراد او معتقداتهم الاخلاقيـــة ٠ وهذه النظرية عن المفهوم المادى للتاريخ معروفة لدرجة ليست فى حاجة معها لمزيد من الشرح هنا ٠ والواقع ان الراى القائل بأن المجال الاجتماعى مستقل استقلالا جذريا عن الاخلاقيات الفردية يشـــيع اليوم فى الاتجاهات المختلفة فى علم الاجتماع فى الغرب ، ويكفى ان نشير الى « معضلة نيبور » الشـــهيرة عن « الفرد الاخلاقى والمجتمع غير الاخلاقى » ، والى العديد من كتابات الفلاسفة وعلماء الاجتماع الامريكيين التى تحلل عملية الاغتراب وشيوع البيروقراطية التى تجرى فى المجتمع المعاصر ( رايسمان ، فروم ، ميلز ، الخ) والى نظريات الوجوديين وما الى ذلك ٠

بعد هذا العرض نصل الى نقطه يتطلب الموقف عندها ان نلقى نظرة على تشكيل النظرية الاجتماعية للكويكرز ٠

فالمنظر من جماعة الكويكرز لايحلل النسيج الموضوعى للمجتمع ، والذى لا مفر من امتداد بعض العلاقات والارتباطات اليه ، ولا يحلل تغيير الشـــكل والمضمون ، ولا الظواهر والجوهر ٠٠ الخ ، وانما هو يفضـــل ان « يعيش » الاحداث التى يصفها ، محددا موقعها فى سياق ودرجة الاهمية التى يدركهـا من خـــلال التجربة المباشرة ، وعلى هـــذا الادراك تتأسس آراؤه الاجتماعية ، الامر الذى يجعلها تبدو شبيهة بالنظرية المؤسسة على مبادىء البحث العلمى ٠ ونظرا لغياب الحقائق الكافية او الحجج العلمية الحقيقية ( كما يبدو له على الاقل ) فهو يعالج النقص بتسليح نظرته العامة بالايمان ، والتصـــــديق العاطفى ، والمبادىء الاخلاقية الخ ٠

وهكذا يعتمد مفهومه كلية ، لا على المنطق او التحليل العلمى الصارم ، وانما على الاعتقاد فى صـــــدق افكاره وفى انها « مرغوبة » ٠ « وأزعم ان السلبية ينبغى ان تبقى عاطفية الى حد ما ، فمن المحال ان تظل مسألة خاصة بالعقل وحده ٠ فالشـــــعور ، والحدس ، والايمان تلعب جميعا دورها ٠ وان القبول غير المشروط بالاخوة الانسانية لهو عنصر هام » (٢٩) ٠

ويكفى هذا بالنسبة للجانب النظرى لبرنامج الكويكرز ٠

---

(٢٩) جونار ساندبرج ، نحو الســـــلبية ، بندل هل ، وولنجفـــورد ، بن ، ١٩٥٠ ص ١٦ ــ ١٧ ٠

لننتقل الان الى الجانب العملي للبرنامج « البنائي » للكويكرز الذي يقوم على اساس تفسيرهم الذاتي الخاص لقوانين التطور الاجتماعي .

ان عديدا ممن يشنون الحملات الدينية من اجل الاصـــلاح الاجتماعي لا يتعدون مستوى الوعظ الديني البسيط ، ولكن برنامج الكويكرز يجبرنا على النظر اليه كظاهرة اجتماعية ، لان المقصود به على وجه التحديد هوان يكون خطة للنشاط العملي . والكويكرز لا يقبلون الا بطريقة واحدة لوضـــع هذا البرنامج محل التنفيذ ، وهي العمـــل غير العنيف الموجه نحو تحقيق الاخوة الشاملة . « انه يسعى الى رأب الصدع في احساس الجماعة التي يمثل تصدعها سببا ونتيجة للنزاع الانساني في آن واحد .. انه يقدم طريقا لملاقاة الشر دون الاعتماد على القدرة على احداث الالم بالانسان ، والذي يتم من خلاله التعبير عن الشر . انه يسعى الى تغيير موقف الخصم بدلا من اجباره على الخضوع من خلال العنف . انه ، باختصار ، الجهد العملي للتغلب على الشر بواســـطة الخير » (٣٠) . ويمتد تحليل هذا المفهوم الى مجالات أبعد من مجال دراســـتنا الحالية لنشاط الكويكرز ، لان تكتيك « الاحتجاج غير العنيف » ذائع الانتشار في الحركات الديمقراطية في الولايات المتحدة في الوقت الراهن .

فأولا وقبل كل شيء لننظر كيف يعرف الكويكرز مصـــطلح « عدم العنف » . « نحن نســـتخدم هـــذا المصطلح « العمـــل غير العنيف » لانه بالرغم من أن سلوك الاشخاص الذي سبق ان تعرضنا له قد تحددت معالمه بما فيه الكفاية ، وبالرغم من انه يجنح الى استخدام القوة فيما يتبع من اساليب ، الا انه يخلو من العنف العضوي » (٣١) . ويجب ان نقول ان هذا التعريف تعريف مفرط في تبسيط الامور ، لان مصطلح عدم العنف يتضمن في حقيقة الامر خضـــما واسعا من الاشكال المختلفة للعمل والنتائج الاجتماعية التي يمكن ان تترتب عليه .

فأولا وقبل كل شيء ، لنأخذ تلك الاشـــكال من العمل المقصود بها ان تؤثر في الرأي العام في اتجاه معين . ان فعاليتها ينبغي ان تقاس بكل بساطة استنادا الى التأثير الذي تمارسه على اناس مسئولين عن الغرض من الاحتجاج . ان عديدا من الاساليب القانونية يلجأ اليها في مثل هذه الحالات ، كالتحري عن الحقائق في نشـــاط الاجهزة الحكومية ، والالتماسات ، ونشر المقالات في الصحف والمجلات ، وتوزيع المنشورات او الكتيبات ، والمظاهرات الســـلمية ، وما شابه ذلك . وبعبارة أخرى فالفكرة هي نشر افكار معينة ، دون ممارسة اي تأثير فعلي مباشر على هدف الاحتجاج ، وهذا هو اكثر اشكال العمل تمييزا لمختلف التنظيمات الديمقراطية ــ الليبرالية ، بما في ذلك الكويكرز ، وهو لا يؤدي عادة الى العنف او تدخل الشرطة .

فما الاهداف ، بالدقة التي يأمل اولئك الذين يستخدمون هذه الاشكال

---

(٣٠) قل الحقيقة للسلطة ، ص ٣٥ .

(٣١) ج. لاكي ، العمـــل غير العنيف ، كيف يتحقق . لبنـــان ، بنســـلفانيا ، ١٩٦٢ ص ٣ .

من الاحتجاج غير العنيف فى تحقيقها ؟ انهم يصرون على ان الشىء الرئيسى هو دفع أولئك الذين يستخدمون القوة الى ادراك أن ضـــحاياهم انما هم بشر مثلهم ، فالهدف اذن هو تحقيق المودة والتقارب بـــين القاهرين وضحاياهم بـــين أولئك الذين يحسنون استخدام القوة وأولئك الذين يعانون من الطريقة التى تستخدم بها القوة ، وذلك عن طريق « اثبات التطابق » بينهم هم انفسهم وبين ضحاياهم . ويدعى الكويكرز ان هذه هى الطريقة الوحيدة للتغلب على النزاع بين الجانبين .

وأفضل طريقة لخدمة هذا الغرض هى الاعمال التى توضح حسن النية والشـــجاعة والاخلاص من جانب القائمين بها ، وكثيرا ما يكون ذلك من خلال أعمال تحمل فى طياتها معاناة واضحة . والشىء الرئيسى هنا ليس هو المعاناة فى حد ذاتها ، وانما هو اضفاء الصـــفات الاخلاقية النبيلة على معاناة البشر . « أما تحديد ما اذا كانت هذه المعاناة انسانية ام غير انسانية ، فالامر يتوقف على هذه الاعمال » (٣٢) . وباختصار فمثل هذه الاساليب لا يمكن ان تنجح الا عنما تكون المعاناة اختيارية .

وليس هناك ما يدعو الى الدهشة اذا ما سمعنا هذه الاراء من الكويكرز ، لان المعاناة الاختيارية سمة هامة للاخلاقيات المســيحية . فالاصرار على أن المعاناة يتم تحملها بطريقة اختيارية مســألة مفهومة ، طالما ان المعاناة لا تعبر الا عن الصـــفات الاخلاقية للشخص ، وعلى شرط انّ نفترض انه اقبل عليها نتيجة لاختيار واع ، أى ان المعاناة تكون انسانية اذا كان الشخص قادرا على تجنبها ، ولكنه يعزف عن ذلك لبواعث اخلاقية .

ولكن هذاالقول ينتهى بنا الى احدى النتائج الهامة المترتبة على هـــذه النظرة للطريقة التى يطبق بها شعار عدم العنف . واذا قبلنا بأن هذا الاسلوب فعال ،طالما ان المعاناة التى يكابدها اصحاب الاحتجاج هى معاناة اختيارية ، اذن لاضطررنا بكل تأكيد الى الاقرار بأن استخدام هذا الاسلوب ضد العنف لا يكون له من معنى الا اذا كان العنف ايضـــا اختياريا ، أى ان يكون فى الاستطاعة التخلى عنه . ولهذا فهذا الاسلوب غير فعال على الاطلاق فى مواجهة العنف ، لان العنف له اسبابه الاجتماعية العميقة الجذور .

وقد سبق ان لاحظنا ان تعريف الكويكرز لعدم العنف اقرب الى الغموض فالعمل « غير العنيف » لا يمكن ان يكون الا خلفية لظواهر اجتماعية ، أو عاملا مرافقا ، كما يمكن ايضا أن يكون عاملا يقطع المجرى الطبيعى لهذه الظواهر ، وهكذا يمكن أن تقف « مظاهرة صامتة » خارج البنتاجون حتى تغيب الشمس وعـــودة الابقـــار الى حظائرها دون اثارة اى رغبة فى « اثبات الهوية » لدى المسئولين العسكريين . أما الاضرابات التى يقوم بها العمـــال ، والتى تندرج ايضا تحت « عدم العنف » فهى مسألة مختلفة تماما . ومن الصعب على المرء ان يعزى التنازلات التى يقوم بها أصحاب الاعمال الى القول بأنهم «طابقوا بين انفسهم وبين العمال » وهكذا يحدث فى بعض الظروف أن يطبق هذا الاسلوب

---

(٣٢) المرجع الســـابق ، ص ١٤ .

وفقا لمبدأ القوة ، وفى الحالة المذكورة مثلا يضطر أصحاب الاعمال الى الانتباه الى عواقب نشاط أولئك الذين يستخدمونه .

ولذلك ، فالفكرة التى نؤمن بها هي انه بينما يبقى « عدم العنف » هو الاساس لمثل هذا النوع من النشاط الا أن هناك اتجاها متزايدا للاستعاضة عن اسلوب « اقناع » الخصم بأسلوب القوة ، وهذا الاسلوب هو بكل تأكيد الاسلوب المميز لعديد من الحركات الاجتماعية فى الولايات المتحدة ، وقد لوحظ عمليا فى الحركات المضادة للتمييز والتفرقة العنصرية ، حيث تم دعم التكتيكات القديمة بواسطة « العمل المباشر غير العنيف » ، والذى طبقه مارتن لوثر كينج لاول مرة بنجاح . وقد كتب لوثر كينج يقول : « والعمل المباشر غير العنيف يسعى لاحداث ذلك النوع من الازمة ، وتحقيق ذلك النوع من التوتر الخلاق ، الذى يجعل المجتمع الذى رفض التفاوض باستمرار مجبرا على مواجهة القضية . انه يسعى على هذا النحو الى تحويل القضية الى مأساة لايمكن الاستمرار فى تجاهلها » (٣٣) .

ويتضمن « العمل المباشر غير العنيف » تعطيل سير العمل المعتاد فى المصانع والورش والمحطات .. الخ ، ومن ثم فهو يمثل نوعا من الاستخدام للعنف ، وان كان ذلك بطريقة خاصة . فهو « غير عنيف » طالما ان المشتركين فيه لا يردون بالعنف على اجراءات الشرطة ، فى نفس الوقت الذى يرفضون فيه الاذعان لاوامر السلطة القائمة . ومما يلفت النظر ان نلاحظ تطور هذا التكتيك فى المنظمات المرتبطة بالفكرة المسيحية لعدم العنف وتوجيه النداء الى قلوب الناس وضمائرهم ، فالواقع ان اضطرارهم الى اللجوء لبعض مظاهر القوة يوضح ان اساليبهم السالفة ( الالتماسات ، وتحرى الحقائق ، والاستجوابات ، والنداءات .. الخ ) قد اثبتت عدم فعاليتها .

ولحركة السلام جذور عميقة فى الولايات المتحدة وهى مستمرة فى النمو ، وتغير كل يوم من اساليبها فى النضال ومن ايديولوجيتها . وبدون ان نخوض فى مختلف التفاصيل يمكننا ان نلاحظ نفس الموقف العام بالنسبة للنضال النشط الذى يتضمن استخدام القوة ، رغم انه يتطور بدرجة اكثر بطئا ، كما هو الحال فى النضال من اجل الحقوق المدنية . ويقدم تطور الحملة من اجل نزع السلاح النووى ، والتى لها فروعها فى عديد من البلدان ، مثالا مثيرا على ذلك :

فقد بدأت كحركة ملتزمة تماما بالعمل غير العنيف ، وكان هدفها يتركز اساسا فى التأثير على الرأى العام بكل انواع الاساليب التى تتدرج بكل دقة داخل اطار القانون. ومع ذلك ، فقد اقتنع عديد من المنضمين الى هذه الحركة ، بالتدريج ، بعدم جدوى مثل هذا العمل ، وتبنى اكثرهم نشاطا فكرة « العمل المباشر » ، أى التدخل المباشر فى نشاطات أولئك الذين يمارسون السياسة العسكرية . وبينما كانت المسألة فيما مضى مجرد مسألة تنظيم المظاهرات

---

(٣٣) م . ل . كينج ، رسائل من سجن مدينة برمنجهام ، ١٩٦٣ ص ٥ .

السلمية التى تنادى بتصفية قواعد الصواريخ ، اصبح المتظاهرون الان يمشون الى قاعدة محددة ، ويقيمون المتاريس فى الطرق المؤدية لها ، ويحاولون تعطيل نشاطها المعتاد . وقد أدت هذه الاعمال بالضرورة الى تدخل الشرطة ، والى ضرب المتظاهرين ، والقبض عليهم ، وتقديمهم للمحاكمة .

ولا ينطبق كل هذا القول على نشاط الافراد المنعزلين ، وانما ينطبق على نشاط التنظيمات الخاصة التى نشأت بغرض استخدام التكتيك الجديد . وأحد هذه التنظيمات ، على سبيل المثال ، هو لجنة العمل غير العنيف ، وهى تنظيم صغير ، ولكنه فائق النشاط تأسس فى عام ١٩٥٧ . وقد تضمن احد منشوراته مايلى :

« وهناك لعبة .. يأخذ شعبان المسدسات ويضعان الرصاص فى كل منها .. ثم يتم تنظيف خزانات المسدسات ، ويصوب الناس السلاح نحو رؤوسهم ، ويشدون الزناد فى وقت واحد .. « واذا لم تطلق المسدسات رصاصها تتكرر اللعبة » ويموت البعض فعلا .. والامم الكبرى فى العالم تلعب ... بالقنابل الهيدروجينية والمدافع وقاذفات القنابل النفاثة .. ومالم نوقف هذه اللعبة القاتلة ، فسوف يموت الجميع » .. وتؤكد الجمعية ضرورة القيام بعمل ، وقد قدم أعضاؤها عديدا من الامثلة لمثل هذا العمل ، بما فى ذلك محاولات اختراق مناطق التجارب الذرية فى نيفادا والصحارى وعديد من قواعد الغواصات النووية ، وما الى ذلك .. وقد انتهت كل هذه الاعمال بتقديم القائمين بها الى المحاكمة ، وشاع خبرها على نطاق واسع .

وثمة حقيقة معروفة تماما وهى أن مزيدا من الامريكيين يلجئون فى الآونة الاخيرة الى الاحتجاج النشط ضد السياسة العدوانية لبلادهم . وهناك حركة قوية تجرى على قدم وساق بين الشباب الامريكى ، وبخاصة فى صفوف الطلبة ، للمطالبة بانسحاب القوات الامريكية من الهند الصينية . ولم يقتصر هذا العمل على المظاهرات السلمية ، وانما كان هناك عديد من الحالات التى وقعت فيها اشتباكات مع الشرطة فى حرم الجامعات فى مختلف أنحاء البلاد ، وتلا ذلك مظاهرات جماهيرية فى واشنطن فى خريف ١٩٦٩ قدمت فيها مطالب سياسية محددة » .

فما موقف الكويكرز من هذه الاتجاهات ؟ مهما كان الامر ، فهم يرفضون الاساليب التى تتضمن استخدام القوة .. من الحماقة أن نظن أن الحكومة سوف تجبر عن طريق حركة السلام على الرضوخ للمطالبة بنزع السلاح من طرف واحد أو أى شىء آخر . وفى نفس الوقت فان ٣٠٠٫٠٠٠ أو ثلاثة ملايين من السلبيين الذين يكتفون بالجلوس فى اماكنهم لن يخضعوا الحكومة ، لانهم قوة لا يأبه بها من جانب البناء الدفاعى للامة (٣٥) .. لقد اختاروا منهج ضرب

---

(٣٤) هذه الفقرة ماخوذة من المنشور المعنون مسيرة السلام الامريكى الاوروبى ، ٨٧ شانرى لين لندن ، انجلترا .

(٣٥) ج. لاكى ، العمل غير العنيف ، ص ١٨ .

المثال الطيب . انهم « لا يستطيعون دفع الناس الى التوقف عن القتال ، ولكنهم يستطيعون ان يثبتوا انهم جماعة قليلة من الناس الذين مازالوا قادرين على اظهار حسن النية » (٣٦) . وثمة جانب آخر من جوانب عدم اتساق الكويكرز وهو معارضتهم ضد « المقاومة غير العنيفة » المنظمة . فاستنادا الى تقاليد الكويكرز فمسألة « السهر على السلام » ان هى الا مسألة اختيار فردى لايمكن أن تتقرر رسميا بأن حال من الاحوال عن طريق أى جهاز من أجهزة الكويكرز ، لانهم يؤمنون بأن مثل هذا الموقف يمثل اعتداء على الحرية الشخصية . وفى نفس الوقت فهم يبذلون قصارى جهدهم من أجل أن يضمنوا عدم لجوء أنصار مختلف الحملات غير العنيفة الى الاعمال المنافية للقانون .

والكويكرز يقدمون خدمات لها قيمتها من أجل التأثير على الرأى العام فى اتجاه معارضة الحرب فى الهند الصينية .. ومع ذلك فحركة الاحتجاج الجماهيرية ضد الحرب ، لما تمثله من أصالة سياسية ولما تتبعه من أساليب فى العمل ولما تحمله من ادراك سياسى واضح ، تضيف المزيد من الابعاد للنضال بحيث تسير بالتدريج نحو الانفصال عن الاشكال الضيقة التقليدية لمعارضة الكويكرز . وهكذا ، ترفض عديد من الفرق الامريكية الاستجابة للدعوة للتجنيد ، بل ، وهناك العديد من الحالات التى تم فيها احراق بطاقات التجنيد فى مظاهرات علنية .

وفى وقت من الاوقات أدى رفض الكويكرز للخدمة العسكرية الى دخولهم فى نزاع مع الحكومة بحيث يمكن لنا بحق أن نتوقع موافقتهم على هذه الحركة المعارضة .. وبالرغم من ذلك فواقع الامر انهم اتخذوا موقفا غاية فى الحذر وقالوا انهم لا يرون أن هذا هو الموقف المناسب : أولا لانه غير قانونى ، وثانيا لانه موجه ضد الحرب فى الهند الصينية وليس ضد الحرب بشكل عام ، بينما يعارض الكويكرز الحرب كطريقة لحل المنازعات من ناحية المبدأ أكثر من معارضتهم للسياسة الامريكية فى فيتنام على وجه التحديد .. وفى نفس الوقت ، ووفاء لمبادئهم الانسانية التقليدية ، فالكويكرز يحاولون مساعدة عائلات المسجونين بسبب رفضهم للتجنيد .

ماذا يمكننا أن نقول فى النهاية كتلخيص لايديولوجية ونشاط الكويكرز ؟

من الواضح أنه طالما أن مفهوم الكويكرز مفهوم غير علمى ، ويروج لافكار غير علمية عن قوانين التطور الاجتماعى وطرق تحويل المجتمع ، ويعجز عن كشف النقاب عن التناقضات الاجتماعية الحقيقية ، فلا يمكن أن يكون حكمنا النهائى فى صالحه . ولكن من الخطأ أن نكتفى بذلك . فنشاطات الكويكرز ليست مجرد أعمال نابعة عن نظرتهم الاجتماعية ، التى تمثل انعكاسا للتناقض الحقيقى الموروث داخل المجتمع الامريكى .. فينبغى علينا ، الا نخلط بين الدور الاجتماعى لاحدى الايديولوجيات وبين الدور الاجتماعى للحركة التى أنتجتها . والقول بأن احدى الايديولوجيات غير علمية لا يمنع أن تكون الحركة النابعة عنها حركة ديمقراطية وتقدمية .. وهكذا ، فنحن لا نستطيع أن نحكم على ايديولوجية الكويكرز بمجرد النظرة التى تحملها

---

(٣٦) و. كومفورث ، نمط الكويكرز فى الحياة ، فيلادلفيا ، ١٩٦٨ ، ص ١٦٠ .

فى طياتها ، وأنما يمكننا أن نحكم عليها فقط من خلال اتجاهات الحركة فى غمار الحياة الاجتماعية — السياسية الامريكية الراهنة . وســــوف يكون من السذاجة أن نتوقع أن تأتى ايديولوجية حركة السلام علمية مائة فى المـــائة فى خضم الدعايات البورجوازية المكثفة . ان هذا الوضع لايمكن ان ينشأ الا بعد عملية طويلة من النضال والبحث تتمخض عن عديد من الصدمات ، والا كنتيجة للخبرة المكتسبة فى العمل السياسى .. ولا جدال فى أن ثمة عملية معقدة ومؤلمة تجرى فى الوقت الراهن لميلاد فلسفة اجتماعية واقعية وعلمية ، ولميلاداساليب فعالة للنضال ضد النزعة العسكرية ، ولكن الواقع أن نشاط وايديولوجية الكويكرز تمثلان جزءا هاما من هذه العملية .

والكويكرز يقدمون خدمات جليلة بما يقومون به من اثبات أن العلاقات والمؤسسات القائمة الآن فى المجتمع الامريكى تتناقض تناقضا حادا مع الحريات الديمقراطية التقليدية وان السياسة الامريكية المحلية والخارجية لا تجـــرى للصالح القومى .. ولقدكان لمحاولات الكويكرز لشرح أهوال الحرب النووية ولفضـــــح الطبيعة المزيفة والاجرامية للنظريات من نوع نظريات « الردع » و « الحرب المحلية » وقع كبير . وقد ساعد تغليف هـــــذه الافكار بالرداء المسيحى التقليدى فى واقع الامر على زيادة تأثيرها فى بـ لادمازالت المسيحية تحتفظ فيها بنفوذ عظيم .

وهناك جانب هام آخر من نشاط الكويكرز جدير بأن نشـــير اليـــه ، فالكويكرز لا يعملون باسم مذاهب سياسية محددة ، وانما هم يعملون من أجل مبادىء أخلاقية عامة أولية ، مثـــل الاحترام المتبادل ، والحب ، والثقة ، والشرف ، والحق فى أن يؤمن الفرد بما يعتقد فى صحته ، والروابط الاسرية القوية ، وما الى ذلك. لاشك أن القول بأن هذه الغايات مازالت أبعد ماتكون عن التحقق ، وبالرغم من كل الاعمال التى تتم من أجلها ، فهو يدفع النـــاس الى التفكير فى هذهالمشكلات والى بذل الجهد من أجل اكتشاف أسبابهـــا الحقيقية .



# الفصل السابع عشر

# علماء ومثقفو الغرب والبحث عن السلام

ترتبط مشكلة الحرب والسلام اليوم بتطور العلم والتكنولوجيا أكثر من أي وقت مضى ٠ ونتيجة لذلك ، يجد العلماء البارزون فى مختلف انحاء العالم انفسهم عاجزين عن تجاهل مشكلات الحرب والســلام التى شقت طريقها الى « الدائرة المقدسة » للعلم والمعرفة ٠

وفى مرحلة مابعد الحرب ، تزايد نشاط العلماء وعلماء الاجتماع التقدميين فى الدفاع عن افكار القضاء على الحرب ووضع البرامج الخاصة بالسلام العالمى وقد اقترن ذلك بنقد متنام للايديولوجية والسياســة الرســمية فى البلدان الامبريالية والتى تنادى بالحرب العامة ضد الاتحاد الســوفييتى والبلـدان الاشتراكية الاخرى ، و « بالحرب المحلية » ضد شعوب أســيا ، وافريقيــا ، وامريكا اللاتينية التى تناضل من أجل استقلالها الوطنى وحريتها ٠

## القسمات العامة لأراء علماء وباحثى الغرب المعادية للحرب

تتحددا لمعارضة المتزايدةللحرب منجانب علماء ودارسى الغربىعددمن العوامل الموضوعية الهامة النابعه من الحقائق الاجتماعية ــ السياســية لعالم اليوم ، وتعبر آراوهم عن ثلاثة عوامل اساسية : فأولا ، هناك المعارضة العالمية المتزايدة ضد قوى العسكرية والحرب والتى تتجلى فى العلاقات بين النظامين الاشتراكى والرأسمالية وفى الحركة العمالية العالمية وحركة التحرر الوطنى ، وثانيا ، التناقضات المتوارثة فى الحياة الاجتماعية السياسية والروحية للبلدان الرأسمالية ، والنضال المتصاعد لجميع قوى السلام ضــد قوى اليمين الرجعى المتطرف والفاشية والحرب ، وثالثا ، تقبل المفكرين الغربيين الأبعد نظرا وذكاء للتقاليد الانسانية المعادية للحرب ، وللافكار الديمقراطية العامة للسلام والتقدم الاجتماعى ٠

وهذه التقاليد لا يتم توارثها وتقبلها على نحو سلبى وانما يجرى تطويرها باصرار عن طريق العلماء التقدميين الديمقراطيين ، فى كــلا المجالين الاجتماعى السياسى والاخلاقى الايديولوجى ٠ والاحداث التاريخية للقرن العشرين تولد

بالتدريج شعورا أكمل بالاهمية الخاصة للعصر الراهن فى تاريخ البشرية ، وادراكا للمسئولية الباهظة التى يتحملها العلماء البارزون نحو مايجرى فى العالم ، ومن ثم تبرز الحاجة الى النضال المتفانى من أجل منع المجزرة النووية .

وانه لأمر بالغ الاهمية بالنسبة للجهود المعادية للحرب ، والتى يقوم بها العلماء ، أن يكون لديهم فهم سليم للاسباب الحقيقية للحرب وعسكرة العلم والتكنولوجيا فى الغرب ، وأن يدركوا المصادر الاساسية للعنف فى العصر الراهن ادراكا كاملا • وقد وجه الاجتماع العالمى للاحزاب الشيوعية والعمالية المنعقد فى موسكو عام ١٩٦٩ نداء للدفاع عن السلام ، الى جميع الناس ، أياكان موقعهم فى المجتمع ، فى جميع انحاء العالم لتوجيه عنايتهم الى هذه الاسباب • ان الحروب وأعمال العدوان والعنف ، والاعتداءات على حرية الشعوب ، تستمد جميعا جذورها من سياسة الامبريالية •• فالامبريالية هى المسئولة عن توجيه أعظم منجزات العلم والتكنولوجيا ، والتى تفتح آفاقا جديدة أمام الانسانية ، لأغراض الدمار ، فى نفس الوقت الذى يعانى فيه مئات الملايين من الناس من الجوع والفقر (١) . وتحظى هذه الافكار باستجابة متزايدة من جانب العلماء البارزين فى مختلف انحاء العالم •

وقد أجبر تاريخ القرن الراهن ، وبخاصة الدروس المفجعة للحربين العالميتين والسلسلة الكاملة من الحروب المحلية فى فترة مابعد الحرب والتى نتجت عن العدوان الامبريالى ضد الشعوب التى تحاول ان تكسب حريتها ، أجبر عديدا من العلماء على التخلى عن « البرج العاجى » « للعلم المجرد » • والأضرار الناجمة عن قصر النظر الاجتماعى ــ السياسى لاصحاب فكرة العلم المجرد لاترجع الى أنه يشجع « الحياد » و « عدم التدخل » فى الشئون السياسية فحسب ، وانما ترجع ايضا لانه رفيق طريق خطر يمشى جنبا الى جنب مع قوى العسكرية والحرب • وقد اثبت الواقع العملى انه من المستحيل أن يقف المرء بعيدا عن نزاعات عصرنا • ان قوى الحرب والرجعية لا تستغل العلماء فحسب ، وانما هى تخضع وتكبت ، على المدى الطويل ، أولئك العلماء الذين يرفضون السير فى ركابها •

وفى هذا الصدد يكتب ماكس بورن ان تدمير النازيين للمراكز العلمية التى تشكلت تاريخيا كان هو الدرس السياسى الفادح الذى تعلمه العلماء الالمان الذين اختاروا أن يقفوا بعيدا عن السياسة ، والذين حاولوا أن يدافعوا عن الحرية الاكاديمية وحدها (٢) . وهذا الدرس هو الذى دفع علماء مشهورين من أمثال م . بورن ، و أ . هاهن ، و و . ك ويزساكر ، وعديدا غيرهم الى معارضة النازية والامبريالية • وقد افادت تجربتهم الخاصة المريرة فى اقناع بعض العلماء البارزين فى الغرب باستحالة البقاء « بدون تدخل » بالنسبة للعلماء ، لأن علم وتكنولوجيا القرن العشرين أصبحا اداة مباشرة وقوية للسياسة •

---

(١) الاجتماع العالمى للاحزاب الشيوعية ، موسكو ، ١٩٦٩ براغ ١٩٦٩ ص ٤٧ — ٤٨ •

(٢) أنظر ماكس بورن ، الفيزياء فى جيلى ، لندن ١٩٥٦ •

وفي نفس الوقت الذى كانت الفاشية العسكرية ، بما فيها النازية الالمانية ، تطل فيه برأسها البغيض ، تخلى العالم الكبير البرت أينشتين عن موقفه السلبي المحايد ليتحول الى معارض نشط للعسكرية ، وكان يومن على خلاف غاندى بالمعاومة السلبية حتى درجة معينة فحسب « فهو يؤمن بأنه » على المرء أن يلجأ الى العنف كلما أطلت الفاشية العسكرية برأسها » (٣) • وعندما يشير بورن الى التغير الكيفى الذى تحقق فى مكان ودور العلم وبخاصة بالنسبة للفيزياء يقول بأن الفيزياء الحديثة لم تعد « مجرد علم نقى كما كانت فيما مضى » بل ان كثيرا من علماء الغرب يستخدمونها ، وأنها « عامل حاسم فى القوة السياسية للامم » ولذلك « لا يستطيع ، اى عالم ، ان يتجنب مساءلة ضميره عن مدى رغبته فى المساهمة فى تطوير القوى التى تهدد وجود العالم المتحضر ذاته » (٤) .

وحياة واعمال اينشتين ، وعديد غيره من العلماء البارزين فى الغرب ، والاتهامات التى حوكم من اجلها العالم الفيزيائى النووى ر • أوبنهايمر وغيره من العلماء المعادين للعسكرية فى الولايات المتحدة الامريكية ، أدلة مقنعة على أن العلم لايمكن ان يبقى محايدا فى عصر الصراع بين قوى الرجعية وقوى التقدم ، وان عدم التدخل فى الحياة الاجتماعية ـ السياسية موقف خاطىء بل وضار • ويشير روبرت اوبنهايمر فى محاضرته « الحرب والشعوب » الى المسئولية الباهظة التى يتحملها العلماء بالنسبة للنصائح التى يسدونها لحكوماتهم ، وبالنسبة لما يقولونه للرأى العام وبخاصة بالنسبة للتوصل الى التوجيه الصحيح فى الوقت المناسب . وهو يصر بحق ، على انه من المستحيل بالنسبة للعلماء ان يظلوا بمنأى عن النشاط الاجتماعى الواعى • فمسألة الهدف الذى نعيش من أجله على الارض ، ومسألة كيف تدفع حكومة لتمثيل هذه الاهداف ومسألة تحديد مسئوليتها الخاصة ، ومسألة اى الاعمال هى التى علينا ان نفكر فيها ، ان هذه الاشياء لايمكن ان تجد لها حلا فى أى معمل ، ولايمكن أن تسوى عن طريق أى معادلة أو اى رياضيات » . (٥)

أما ادانة كارل جلسبرز الشجاعة للعسكرية والسمات غير الديمقراطية على المسرح الالمانى الغربى ، فقد تبعها خطاب مفتوح وجهه اليه وولتر أولبريخت ونشر فى جريدة نيوزديوتسلاند «ألمانيا الجديدة» • كتب أولبريخت : «اننى أعتنق افكارا مخالفة لافكارك فى عديد من المسائل • ولكن كتابك أقنعنى بأنك مدفوع بنفس القلق الذى يجبرنى ، انا واصدقائى السياسيين ، على الاستفادة من كل فرصة من أجل ضمان السلام فى المانيا ، وفى سبيل المانيا .. لقد تاثرت الى أقصى حد بأنه ، على أساس تجربتنا فى الحربين العالميتين والاحداث التى أفضت اليهما ، وأيضا كنتيجة لتحول جمهورية المانيا الفيدرالية الى مجتمع مصنوع و ••• انتهينا الى نتائج متشابهة حول المسائل الكبرى •• لقد

---

(٣) البرت اينشتين ، العالم الفيلسوف ، ايفانستون ، ١٩٤٩ ص ٦٥٤ .

(٤) م• بورن ، الفيزياء فى جيلى ، لندن ، ١٩٥٦ ص ٢٢٣ .

(٥) ج• روبرت أوبنهايمر ، الطيران نحو السلام ، ثلاث ازمات أمام الفيزيائيين ، لندن ــ نيويورك ، تورنتو ، ١٩٦٤ ص ٦٢ ــ ٦٣ .

أن الاوان لجميع من تشبعت أفكارهم بروح الانسانية لان نعارض هذا المجتمع المصنوع . ونحن نرحب بأنكم — جنبا الى جنب مع عديد من العلماء الآخرين — ترفعون صوت النذير ، وتشيرون الى خطر مثل هـــذه التطورات وتدافعون صراحة عن حقوق ومصالح الجماهير وتطلعها الى السلام » (٦) وهكذا ، مرة اخرى ، وفى ظروف تاريخية جديدة يركز الخطر الداهم للحرب الاضواء على العـــلاقة المباشرة بين الخطر العسكرى للحرب ومصدرها الاجتماعى — وهو النظام الاجتماعى — الاقتصادى والسياسى للرأسمالية .

ولكن جاسبرز ليس هو الوحيد من هذا النوع ،فعديد من الشخصيات البارزة من طبقة المثقفين فى المانيا الغربية يقترب من الجماهـــير فى محـــاولة لمعارضة خطر الحرب والقوى السياسية الرجعية التى ينبع منها هذا الخطر ، لقد وقع ٣٦٢ استاذا من المانيا الغربية احتجاجا ضد قوانين الطوارىء الموجهة ضد النقابات فى المانيا الغربية ، كما أصبح العلماء الفيزيائيون المشاهير ماكس بورن ، و أوتوهاهن ، وكارل ويزساكير الآن فى عداد أنصـــار الســـلام النشطين ٠

ومن السمات الهامة لنشاط العلماء البارزين المعادى للحرب اليوم تزايد مابينهم من تضامن ووحدة ٠ وحقا ان هذه السمة لسمة عامة هامة فى تطـور حركة السلام فى فترة مابعد الحرب ٠ فالخلافات الايديولوجية لم تمنع مجموعة ضخمة من العلماء ، على رأسهم اينشتين وجوليو كورى ، وبرتراند راســـل ، وبولينج ، و روتبلات من ان يصدروا بيانا مشتركا يعرف باسم بيان راســل — أينشتين — طرحوا فيه المشكلة فى أكثر العبارات قوة : « هل نقضى على الجنس البشرى ، أم أن البشرية هى التى ستنبذ الحرب ؟ » (٧) . لقد غاصت الخلافات أمام هذه المشكلة العامة التى لا فرار منها .

وشهدت العقود القليلة الماضية تطورا جديرا بالملاحظة مازال مستمرا حتى الآن ، بين علماء الغرب الابعد نظرا نحو احساس أكبر بالمسئولية الاجتماعية والاخلاقية عما يحدث فى العالم ٠ فمنطق حياتهم وعملهم يدفـــع بهم دفعا الى حلبة الصراع ضد قوى الحرب والرجعية ٠ وينتهى ب ٠ بورن الى النتيجـــة العامة النقدية والواضحة الصحة بأن « مشكلة المسئولية مشكلة عالمية مثــل العلم نفسه » (٨) وبالنسبة لجميع العلماء ٠

وبالرغم مما بينهم من خلافات ، يتفق علماء الغرب البارزون الـــذين يؤيدون السلام بنشاط على الادانة غير المشروطة للحروب العدوانية بوصــفها أفدح الجرائم ضدالانسانية ، وعلىمعارضة العسكرية والحربالنووية ، وعلى الالتزام المخلص بالمثل الانسانية العليا التى تسعى الى ضـــمان اســـتخدام منجزات العلم لصالح السلام ٠ وقد استخدمت هـذه المبادىء الاجتماعيـــة

---

(٦) نيوديوتشلاند (المانيا الجديدة) ١٠ يونيو ١٩٦٦ ص ٣ ٠

(٧) ج٠ روتبلات «تاريخ مؤتمر البوجورش» العلم والشئون الدولية لندن ١٩٦٢ ص ٤٠ ٠

(٨) م٠ بورن ، المرجع السابق ص ٢٢٤ ٠

ـ السياسية الاساسية دائما كامل لتوحيد المثقفين التقدميين فى الغروب ، الامر الذى يهيىء اليوم فرصة للتجمع لاناس من مختلف الاراء والمهن مثل العالمين الفيزيائيين أينشتين وبورن ، والفيلسوفين وعالمى الاجتماع راسل وميلز ، والكاتبين ارنست هيمنجواى وريمارك ، وشخصيات دينية وعامة من أمثال جونسون واند يكون ، وحملة جائزة نوبل من امثال لينوس بولينج والبرت تشويتزر ٠

وطوال سنوات عديدة كان هولاء الرجال يكشـفون فى كتاباتهم وفى نشاطهم الاجتماعى عن الايمان بأنه مع ظهور الاسـلحة النووية وغـيرها من اسلحة الدمار الشامل ، اصبحت مشكلة السلام والحرب هى المشكلة الاساسية للنصف الثانى من القرن العشرين . وهم معنيون بأن يدرك جميع الرجال من ذوى النوايا الحسنة فى كل مكان ، وبشكل كامل ، هذه الحقيقة ،وأن يعبئوا كافة جهودهم من أجل منع الحرب النووية ، وأن يحسموا المشـكلة الحيوية لعصرنا ـ حربا ام سلاما ؟ ـ مرة والى الابد ، ولصالح السلام ٠ ومـع ذلك فعند تحديدهم لطبيعة الحرب نجدهم يظهرون بمظهر العاجز عن تقديم معيار موضوعى يمكن ان يستخدم كأساس المتصنيف العلمى للحروب ٠

والمثال المحدد لنوع التصنيف الذى يقدمه العلماء والدارسون فى الغرب هو مايقول به استاذ الفلسفة وعلم الاجتماع الامريكى ل ٠ مومفورد ، فهـو يكتب ليقول : « تختلف الحرب فى مداها ، وفى نواياها ، وفى مدى ماتسببـه من ضحايا ، وفى علاقتها بنوع المجتمع » (٩) . ومع ذلك فنحن لانعثر فى أى صفحة من الصفحات المائة لكتابه ، ولا فى المولفات الاخرى له ولزملائه ، عـلى أى تفسير مرض للكيفية التى يؤثر بها «نوع المجتمع» عمليا علىهذه السمات، ناهيك عن كيفية تحديد المحتوى الاجتماعى ـ السياسى لحرب محددة ، والذى يجعل منها حربا تقدمية أو رجعية ٠

ان الماركسية ـ اللينينية هى التى تقـدم التصنيف العلمى الوحيـد للحرب ، وتصفها بأنها عادلة أو غير عادلة على أساس معيار موضـوعى ـ هو المحتوى التاريخى المحدد للحرب ٠ وهكذا ، أكد لينين على الحاجة الى أن «نكون واضحين بالنسبة للظروف التاريخية التى أدت الىالحرب ، وبالنسبة للطبقات التى تخوضها ، وبالنسبة للاهداف التى تشن من أجلهـا» ، ثم يضـيف انه «مالم نستوعب ذلك ، سـوف يكون كل كـلامنا عن الحـرب خاطئا تمـاما بالضرورة ، سـيكون كلامنا من النـوع الذى يعطى حـرارة أكثر ممـا يعطى ضوءا » (١٠) ٠ فاذا كانت الحـرب حربا يخوضـها شعب يقاتل من أجـل استقلاله وحريته ضد الامبريالية أوالفاشية أو الاستعمار الجديد ، فمثل هذه الحرب هى بلا شك حرب عادلة ٠ أما اذا كانت الحـرب تشن ضـد الجماهير ، فهى حرب اجرامية ومحكوم عليها بالهزيمة النكراء فى خاتمة المطاف ٠

---

(٩) لويس موفور ، التكتيك والحضارة ، نيويورك ، ١٩٣٤ ص ١٠٨ ٠

(١٠) ف٠ أ٠ لينين ، مجموعة الاعمال الجزء ٢٤ ص ٣٦٩ ٠

وفي عصرنا الراهن يتضح التعارض بين النظامين الاجتماعيين المتناقضين ، الاشتراكي والرأسمالي ، بجلاء أكثر من أى وقت مضى ، كما يحدث نفس الشيء أيضا في المواقف المختلفة كيفيا للنظامين بالنسبة للحرب. ويعوض ذلك الى حد ما من القصور وضيق الافق الاجتماعي الذى يتميز به منهج الفلاسفة وعلماء الاجتماع البورجوازيين الذين يعارضون الحرب ، فاذا ماتوفر لهم الضمير الحى والقدر الوافي من الحقائق لأصبحوا قادرين على التوصل الى النتائج السليمة فيما يتعلق بمصلحة الاشتراكية فى منع الحرب وايمان الرأسمالية بالحرب .

ويقدم الباحث الامريكي ف . أ . ستشومان ، الذى كرس أربعين عاما من عمره للدراسات الجادة عن الاتحاد السوفيتي ، يقدم وجهة نظر تستند الى حجج معقولة جدا ، تقول بأن الحرب معادية بالضرورة للنظام الاشتراكي . وهو يلاحظ ان لينين كان يبشر منذ الايام الاولى لقيام الدولة السوفيتية بأن « الاعتماد على القوة المسلحة لنشر الشيوعية خطأ » (١١) . ويرى ستشومان أن الدولة السوفيتية استمرت مخلصة على الدوام لهذا المبدأ طوال تاريخها .

وعندما يحلل ستشومان السنوات التسع من الحرب التى اضطرت الدولة السوفيتية الى خوضها ( ١٩١٨ ـ ١٩٢١ و ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥ ) ينتهى الى أنها « لم تكن نتيجة لهجوم شيوعى عسكرى على الدول الرأسمالية ، وانما كانت نتيجة للهجوم العسكرى المعادى للشيوعية على الاتحاد السوفيتى لقد كانت حروبا سوفيتية دفاعية ضد الهجوم الاستفزازى الذى استهدف ابادة الدولة السوفيتية » (١٢)

ويتعارض الموقف الذى تتخذه القوى الميالة للحرب للامبريالية المعاصرة والقوى المعادية للشيوعية ـ أو مايسمى « المجموعة الصناعية العسكرية » فى الولايات المتحدة الامريكية وجمهورية ألمانيا الفيدرالية من الحرب تعارضا تماما مع الموقف الذى يتخذه النظام الاشتراكى . فلقد كانت التناقضات المتوارثة للنظام الرأسمالى ، والتدهور الكبير مع كل ماجره فى أذياله ( الاضطرابات النقدية والركود الاقتصادى ، وعسكرة العلم والاقتصاد ) ، وظهور الفاشية فى ألمانيا وأسبانيا وايطاليا واليابان هى الاسباب الحتمية للحرب العالمية الثانية (١٣) . ويقدم اريك فروم فى كتابه « هل يسود الانسان ؟ » تحليلا متعمقا ومقنعا للاسباب الاساسية للايمان بالعسكرية والحرب من جانب تلك القوى فى الولايات المتحدة الامريكية وبلدان الغرب التى تمقت الاشتراكية . وهو يلاحظ خوفها من المنافسة السلمية ضد الاتحاد السوفيتى ، فهذا الخوف المرضى يقود الولايات المتحدة والقوى المعادية للاشتراكية فى الغرب الى اختيار النضال المسلح ضد

---

(١١) ف. ستشومان ، السياسة الدولية ، نيويورك ـ تورنتو ـ لندن ـ ١٩٥٨ ص ٥٠١.

(١٢) المرجع السابق .

(١٣) المرجع السابق ص ١٠٢ .

الاتحاد السوفيتي والبلدان الاشتراكية الاخرى وتفضيله على المنافسة الاجتماعية - الاقتصادية • وعلى خلاف الصياغات الجامدة التي يستخدمها الايديولوجيون ورجال السياسة فى الغرب من أعداء الاشتراكية ، يصف فروم ايمانهم بالعسكرية والحرب بأنه سمة من سمات الضعف وليس من سمات القوة فى الغرب الرأسمالى ، وبأنه انهزامية وفقدان للايمان بالقيم التى ينادى بها الغرب • (١٤)

ومهما كانت اختلافاتهم الاخرى ، فأكثر العلماء والباحثين فى الغرب ثباتا وأبعدهم نظرا يشتركون جميعا فى قبولهم وتزايد تأييدهم لمبدأ التعايش السلمى •

وبالرغم من بعض الاخطاء ونقاط الضعف فى تفسيرهم لهذا المبدأ الا أن تأييدهم له كان له بلاشك أثره الايديولوجى والمعقول كما كانت له نتائجه العلمية الكبيرة • ويرى أكثر المدافعين عن هذا المبدأ حماسا فى الغرب ( ك • لامونت ، وبرتراند راسل ، و اريك فروم ، و ك • مومفورد ، و ف • ستشومان ، و هـ • هودجز ، و د • فلمنج ، و أ • بوليج ) ان مشكلة عصرنا هى بعبارة قاطعة « أن نعيش معا أم نلقى الدمار معا ؟ » .

ومعظمهم يدين معاداة الشيوعية ويتخذ موقفا وديا من الاتحاد السوفيتي والاشتراكية • وهم يكشفون عن موضوعية علمية عظيمة وشجاعة أدبية كبيرة عندما يعبرون عن ازدرائهم للاتهامات السخيفة التي يوجهها العسكريون لهم بأنهم « غير وطنين » أو انهم « خونة » ، وهم يقدمون كافة انواع الادلة التى تؤكد الرغبة المخلصة للاتحاد السوفيتى فى السلام ، والتى تؤكد أخطار معاداة الشيوعية كأداة للحرب أو كوسيلة للحرب ( ميلز ، وراسل ، ولامونت ، وسارتر ، وبوليج ، وغيرهم ) •

ومن السمات الاساسية المتطور الايديولوجى والاخلاقى للمثقفين المعادين للحرب فى الغرب ذلك الفهم الذى يزداد تعمقا يوما بعد يوم لاخلاص الشعب السوفيتى والحزب الشيوعى ، اللذين يسترشدان بأفكار لينين ، وايمانهما بالسلام العالمى ، وبالرغم من محاولات الدعايات المعادية للشيوعية لاثبات عكس ذلك • وقد حظيت جوائز لينين للسلام ، التى تقدمها الحركة العالمية للسلام ، بالاعتراف على مستوى العالم أجمع طوال العشرين عاما التى انقضت منذ تأسيسها ، وتم تقديمها لاناس من ٥١ بلدا •

وثمة سمة أخرى من هذه السمات المشتركة ، وهى التفاؤل الاجتماعى والايمان بأنه من الممكن منع الحرب العالمية النووية ووضع حد للحرب نهائيا ، والايمان بأن مستقبل البشرية لايحمل فى طياته بالضرورة مواصلة سباق التسلح الباهظ النفقات والبالغ الخطورة ، وأن العقل والانسانية يمكنهما أن يسودا فى العلاقات الدولية ، وأن قوى الحرب يتم عزلها وهزيمتها بطريقة فعالة •

---

(١٤) اريخ فروم ، هل يسود الانسان ؟ نيويورك ، ١٩٦١ .

وعلى هذا النحو يحذرنا برتراند راسل من أن نستمع الى المتشائمين ، « لاننا لو فعلنا ذلك لكنا خونة لمستقبل الانسان » (١٥)

ومازالت هناك سمة أخرى من هذه السمات ، وهى التكامل الاخلاقى ، والضمير كشىء منزه عن الخطأ وجدير بالثقة — على حد تعبير هيمنجواى — تستخدم كمعيار أشبه بالمقياس المترى فى باريس . ففى أوقات الازمات الدولية المتعمقة والتى تنجم عن السياسة الامبريالية والتى تشوه بواسطة الدعاية الغربية ، حافظ هؤلاء الناس على سلامة تفكيرهم وروح العدالة فيهم ، كما حافظوا على موضوعيتهم وكرامتهم وطالبوا بالمسئولية الاخلاقية والسياسية لحكوماتهم . لقد كانت لديهم الشجاعة الادبية الكافية لكى يحتقروا الاعتبارات المادية « للمكاسب الشخصية » ، وكما عبر برتراند راسل عن الوضع ، فهؤلاء العلماء والفلاسفة لم يجعلوا انفسهم « أدوات طيعة فى أيدى حكوماتهم » . (١٦)

والقوى الفعلية الرئيسية التى تقف الى جانب السلام ومنع الحرب النووية — وهى الاتحاد السوفيتى والبلدان الاشتراكية الاخرى والحركة الشيوعية والعمالية العالمية ، والبلدان المحبة للسلام ، وحركة السلام — تشكل أيضا بلا شك ، القوى الاخلاقية والروحية للنضال من أجل السلام وضد المعتدين ، كما يمثل النشاط المتنامى للمثقفين والعلماء فى الغرب ، والموجه ضد المعتدين وسياستهم ، والتأثير الذى تمارسه أفكارهم على الرأى العام فى الغرب ، عنصرا اضافيا له أهميته الكبرى فى الجبهة الديمقراطية الواسعة لحركة السلام .

## ادانة الحرب وسباق التسلح

يشغل تحليل العسكرية والحرب كظاهرة اجتماعية خاصة مكانا متزايد الاهمية فى أبحاث الفلاسفة وعلماء الاجتماع فى الغرب ممن يعلنون عن موقفهم المؤيد للسلام العالمى الدائم . والواقع ان الامر ماكان من الممكن ان يكون على غير هذا النحو ، لان أى بحث عن الطرق والوسائل اللازمة لتأمين السلام يؤدى بالضرورة ، عاجلا أو اجلا ، الى خوض المعركة ضد العسكرية والحرب .

وكان رايت ك . ميلز يتحدث الى عدد كبير من المثقفين المحبين للسلام فى الغرب عندما شن هجومه على كل الكلام الاجوف عن السلام فى الغرب فقال : « ان الحديث عن السلام بدون أى حديث عن وسائل الحرب انما هو فى الحقيقة نوع من البلاهة » (١٧) . وعلاوة على ذلك فهو يصر على انه

---

(١٥) ب. راسل هل للانسان مستقبل ؟ لندن ١٩٦١ ، ص ١٢٨ .

(١٦) ب. راسل المرجع السابق ص ١٣٤ .

(١٧) رايت ك. ميلز ، أسباب الحرب العالمية الثالثة ، نيويورك ١٩٥٨ ص ١٢١ .

ويلاحظ ل · مومفورد أن « الحرب فاقمت بالفعل من متاعبنا اليوم » (٢٢)

وينذر الفيلسوف الامريكي الشهير س · لامنت الدوائر الرأسمالية الحاكمة بأن « الحرب العالمية الثالثة سوف تخلق بالتأكيد مزيدا من المشكلات أكثر مما تحل ، وانها ستترك البشرية فى حالة من الارتباك الاقتصادى المشوش والحاد سيؤدى بدوره فى جميع الاحتمالات الى حروب وثورات جديدة فى المستقبل » (٢٣)

ويركز باحثو الغرب المعادون للحرب تركيزا خاصا على مخافة مايسمى « الحرب الهيدروجينية من الدرجة الاولى » ، على أساس أنها تهدد بالدمار الجسيم دون ان تقدم للغرب أى فرصة للفوائد السياسية · ولكنهم يدينون أيضا سياسة « الحرب المحلية » ، لسبب واضح وهو أن أى حرب من هذه الحروب المحلية يمكن أن يؤدى بسهولة الى صدام نووى عام · ومومفورد يقترح ، مثلا ، الكف عن الاعداد للحرب ضد روسيا وتجنب المأساة العامة فى الوقت الذى تكون فيه الفرصة مازالت متاحة لذلك» · (٢٤)

كما يكرس باحثو الغرب المعادون للحرب قدرا كبيرا من اهتمامهم للجوانب الاقتصادية لمشكلة الحرب والسلام · فسياسة العسكرية وسباق التسلح وشن الحروب العدوانية تشل تطور عديد من المجالات الكبرى للنشاط الانسانى ، وتحمل فى طياتها خسائر هائلة فى الموارد البشرية والمادية · والواقع أن العسكرة المتزايدة لاقتصاد الولايات المتحدة الامريكية وتوابعها فى حلف شمال الاطلنطى وغيره من الكتل العسكرية لاتستخدم من أجل ازدهارها كما تريد دعاية الغرب للناس ان يقتنعوا ،وانما على العكس من ذلك فهى تجر فى أذيالها حتما زيادة حدة التناقضات الاقتصادية للنظام الرأسمالى وتجبر الجماهير على تحمل الاعباء الباهظة للنفقات العسكرية التى تجاوزت كل الحدود ·

وقد اثبت العلماء الذين يعادون الحرب دون شك ان التفجيرات الذرية سببت للناس بالفعل مضار فى شكل امراض اشعاعية · ولاشك ان الحرب النووية الشاملة ستؤدى الى اضرار وراثية لاعلاج لها بالنسبة للانسان والحيوان والنبات فى جميع القارات · ولذلك أدان علماء مشهورون على نطاق العالم من أمثال اينشتاين وبورن ، وألبرت ستشيوتزر ( فى سلسلة المقالات الشهيرة المعنونة : « السلام أم الحرب الذرية » ) وعديد غيرهم ، وبصراحة ، الحرب النووية على أساس من الحقائق التى لاتدحض ،ودمغوا بالاجرام مصادقة الدوائر الحاكمة فى الولايات المتحدة على القاء القنبلتين الذريتين على هيروشيما ونجازاكى (٢٥) . ويصدر العلماء المعادون للحرب فى الغرب اليوم عديدا من البيانات والمقالات والاحتجاجات ضد استخدام

---

(٢٢) ل · مومفورد ، المرجع السابق ص ١٣

(٢٣) س· لامونت ، الحضارة السوفييتية نيويورك ، ١٩٥٢ ص ٣٦٣ ·

(٢٤) ا· موفورد ، ثمن المستحيل ص ٩ و ٢٩ ·

(٢٥) ملحق مجلة نيوتايمز ، العدد ١٩٠ ، ٤ مايو ١٩٤٩ ، موسكو ص ٥٢·

الولايات المتحدة الامريكية لاسلحة الدمار الشامل ( المواد الكيميائيـة الفتاكة وقنابل النابالم ضد الفيتناميين ) ٠

وقد أشا رالمؤتمر العالمي للسلام المنعقد في عام ١٩٤٩ ، الى ان التقـدم العلمي والتكنولوجي يوجه للاغراض العسكرية على يد المجموعات الحاكمـة في الدول الغربية ونتيجة لطبيعة الرأسمالية ذاتها ، كما اشـــار الىالخطـر الفادح الذى يمثله هذا الاتجاه : « فالعلم ، الذى يتركز دوره في تأمين سعادة البشرية ، يحرف عن هدفه ويجبر على خدمة أهداف الحرب » . (٢٦)

وأينشتاين ، على سـبيل المثال ، يعتبر ان « الفوضى الاقتصـــادية » للمجتمع الرأسمالي والتي تولد « أوليجاركية لرأس المال الخاص لهامـــن القوة الهائلة مالايمكن السيطرة عليه بطريقة فعالة » هي « المصدر الحقيقي للشر » ٠ (٢٧) والاشتراكية ، على عكس ذلك معنيةالى أبعدالحدود بالمحافظة على الســلام ٠ وأينشتاين يرفض الفكرة الرجعيـــة التي تروج لها الدعاية المعادية الشيوعية والتي تدعى أن الاتحاد السوفيتي هو اليوم دولة عسكرية تشبه المانيا النازية من عدة جوانب ، ويعتقد أنهما نوعان مختلفان جـدا من الدولة ، وبخاصة « فيما يتعلق بالاهداف والغايات الاساسية » وهو يشير الى النازيين بصـــفتهم « زمرة من القتلة » الذين « ينبغي أن يلقوا جزاءهم » كما كان لاذعا بنفس الدرجة عند نقـده لاولئك المســئولين عـــن صـــفقة ميونيخ ٠

ويشير علماء الغرب البارزون الى أن هنـاك في بلادهم ،وبخاصـــة في الولايات المتحدة الامريكية ، « صناعات ضخمة ومشروعات وعمليات متعـددة تحصل على المال عن طريق الاسلحة ، وقوى نشطة » لها مصلحة خاصـــة فىالاعداد للحرب ، وشنها اذا لزم الامر » ٠ (٢٨) « وبناء على ذلك » ،كمـا يعلنعالم الاجتماع الامريكي الشهير و ٠ ميلز ، « فالهجوم على صناعة الحرب هوأيضا هجوم على سلطة الصفوة المختارة في الولايات المتحدة » (٢٩)

وقد أدت تصرفات المجموعة المسيطرة عـلى الســلطةا لاقتصــــادية والسياسية في الولايات المتحدة الامريكية في سنوات مابعد الحرب الى وقوف هذه المجموعة أمام حكم التاريخ باعتبارها مسئولة عن الازمات العالمية مع ماتهدد به من كوارث ذرية ٠

وكما لاحظ الاستاذ هويلرابت ، عضو مجلس السلام ، فما أن اصـبح لقوى السلام الغلبة في الامم المتحدة ، حتى تجاهلت الحكومة الامريكية الامم

---

(٢٦) البرت اينشتاين ، «لماذا الاشتراكية؟» ، «منثلى ريفيو» نيويورك ، يوليو ١٩٥٥ المجلد ٧ العدد ٢ ص ٤٨ و ٤٩ ٠

(٢٧) البرت اينشتاين — المرجع السابق ص ٦٥٧ ٠

(٢٨) م٠ بورن ، المرجع السابق ، ص ٢١٩ ٠

(٢٩) و٠ ميلز ، أسباب الحرب العالمية الثالثة ، ص ١٢٠ — ١٢١ ٠

المتحدة كلية فى اتباعها لسياستها العدوانيــة ٠ ان الدوائر الحاكمــة فى الولايات المتحدة تتصرف على نحو يتعارض مع امال شــعوب المســتعمرات السابقة فى الحرية ٠ ويدعو الاســتاذ هويلرابت الناس الى اســتخدام كل الوسائل الممكنةمن أجل دفع الزعماء الامريكيين الى ادراك أن « العالم قــد تغير فى السنوات العشرين الاخيرة » ٠ (٣٠)

ويبذل علماء الغرب جهودا نشطة تتزايد يوما بعد يوم فى هذا الاتجاه ، ومن أمثلة ذلك رفض جان بول سارتر الذهاب الى الولايات المتحدة الامريكية وتعريضه بها بهذه المناسبة على أوسع نطاق ، كاحتجاج على الحرب الامريكية فى فيتنام ٠ وفى مقاله المعنون : « لماذا لم أذهب الى أمريكا ؟ » أشارسارترالى الحرب فى فيتنام بصفتها « عملا فاضــحا وصريحا ومكشوفا ، ونموذجيا من أعمال العدوان ، ليس له تبرير ولايمكن التنصل من مسئوليته فى نفس الوقت » ٠ ويحدد سارتر الطبيعة الرجعية للسياسة الامريكية بكل وضــوح عندما يقول : ٠ « ينبغى ان ينظر الى التدخل الامريكى فى فيتنام الشمالية فى اطار السياسة الامريكية الخارجية ككل ٠ انه ليس مجرد مسألة خاصة بفيتنام ٠ فاذا تم طرد الامريكيين من سايجون ، فسوف تترتب عــلى ذلك عديد من النتائج فى جميع انحاء العالم الثالث ، كما ســيقود الى هبات فى أمريكا اللاتينية ٠ان الهدف هو المحافظــة عــلى نظام الاســتغلال ككل ، وبالقــوة » ٠ (٣١)

وتحت تأثير أحداث التاريخ القريب والشئون الجارية ، يتزايد أعــداد العلماء الغربيين الذين يقتنعون بادانة معاداة الشيوعية كأداة للحرب وكقوة للاعداد للمأساة النووية . وكما يشير ف . ستشومان ، فمنذ ظهور الاتحاد السوفيتي ، نشبت اكثر الحروب ضراوة نتيجة « للهجوم العسكرى المعــادى للشيوعية ضد اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية (٣٢) . أما فى الاتحاد السوفيتى والدول الاشتراكية الاخرى ، من الجانب الآخر ، فلــم تستخدم العسكرية والعدوان أبدا كوسيلة لحل المشكلات الداخلية أو العالمية ، ولــم يتصرف القادة السوفييت فى أى وقت من الاوقات برعونة أو مغامرة فىالشئون الدولية ، وانما كانوا على الدوام « يسعون الى السلام والتجارة » مــع الدول الغربية . (٣٣)

وحتى اولئك العلماء الديمقراطيون ، والباحثون ، والشخصيات العامة فى الغرب ، والذين هم ابعــد ما يكون عن اعتناق الماركسية والشيوعية ، يزدادون اليوم وضوحا وتحديدا فى ادانة المذهب الرجعى « الذى يبرر » الحرب

---

(٣٠) أ ٠ ل ٠ هويلرايت ، « هيروشيما » أم الامم المتحدة ، ايهما هو طريق البشرية ؟» العمل من أجل السلام فى استراليا ، ١٩٦٥ ، جـ ٧ ، العدد ١٥ ص ٦ و ٧ ٠

(٣١) أزفستيا ، ٥ ابريل ١٩٦٥ ٠

(٣٢) ف. تشومان ، السياسة الدولية ص ٥٠١ ٠

(٣٣) ف. تشومان ، السياسة الدولية ، ص ٥٠١ ،

باسم معاداة الشيوعية .. لقد بدأ المثقفون والناس عموما فى ادراك أن معاداة الشيوعية تعنى الحرب .

ومن أبرز المثقفين الذين يوضحون العلاقة بين الحرب الباردة ومعاداة الشيوعية ، ينبغى أن ننوه بشكل خاص ببرتراندراسل ، والبرت اينشتاين و د. فلمنج ، ود. ميلز ، وجان بول سارتر ، وج.سومرفيل ، و ف .تشومان واريخ فروم ، و ج. موراى ، وس. لامونت ، و ل. مومفورد و هـ. هودجز .

وتمتد الفكرة القائلة بأن العسكرية ومعاداة الشيوعية هما اللتان تجران فى أذيالهما الحرب الباردة والحروب المحلية الامبريالية والاستعمارية الجديدة ، تمتد هذه الفكرة كالخيط الاحمر خلال الاغلبية الساحقة من الكتابات الذكية التى تتناول الحرب الباردة وغيرها من الاعمال العدوانية المتعددة التى ترتكبها الدول الغربية .

فالمؤرخ الامريكى البارز د.ف. فليمنج يشد انتباه القارىء بعنوان كتابه ذاته « الحرب الباردة ومصادرها » : ١٩١٧ — ١٩٦٠ ، موضحا أن مصدر الحرب الباردة ينبغى أن يبحث عنه فى نقطة التحول التاريخى لثورة ١٩١٧ (٣٤) . فالاستاذ فلمنج ، يحلل التاريخ العام للحرب الباردة التى تشنها البلدان الراسمالية ضد الدولة السوفييتية ملتزما بمنتهى الصراحة بالحقائق التاريجية التى لا تدحض ، وهو يكتب كيف نظمت الولايات المتحدة الامريكية ، والمانيا ، وبريطانيا ، واليابان ، وغيرها من البلدان — بعد ثورة اكتوبر — تدخلا مسلحا منظما لم يدحر ، الا بعد جهود وتضحيات فائقة .. وكان هذا التدخل هو بداية الحرب الباردة للحركة الدولية المعادية للشيوعية ضد الدولة السوفييتية والتى استمرت عاما بعد عام منذ ذلك الوقت الى ما بعد الحرب العالمية الثانية .. وقد تعود أيديولوجيو وساسة الغرب الذين يشاركون فى الحرب الباردة ، تعودوا هم أنفسهم أن يعتبروا اكتوبر ١٩١٧ مصدرا وسببا لها (٣٥) .

وعندما يرفض الاستاذ فلمنج الادعاء المعادى للشيوعية بأن الاتحاد السوفييتى هو الذى بدأ الحرب الباردة ، فهو يشير الى أن لينين نادى منذ البداية بطريق مضاد تماما . طريق التعايش السلمى : « فليتركنا الراسماليون الامريكيون لشأننا ، ونحن أيضا سنتركهم لشأنهم » (٣٦) .

ويشارك عديد من المثقفين التقدميين فى الغرب فى الراى القائل بأن الحرب الباردة سلاح خطير ضد الديمقراطية ، وأنها تنتهى ، اذا استمرت ، الى خنق كل مظاهر الديمقراطية فى الولايات المتحدة وغيرها من بلدان الغرب (٣٧) .

---

(٣٤) فلمنج د. ف. الحرب الباردة ومنابعها ١٩١٧ — ١٩٦٠ ، نيويورك ، ١٩٥٦ .

(٣٥) أنظر مثلا ، كتاب د . دونيلى — الصراع من اجل العالم — الحرب الباردة ١٩١٧ — ١٩٦٥ نيويورك ، ١٩٦٥ .

(٣٦) د . ف . فلمنج ، الحرب الباردة ومنابعها ١٩١٧ — ١٩٢٠ الجزء ١، ص ٥٣٧ .

(٣٧) اتزيوتى ، الفوز بدون حرب ، نيويورك ، ١٩٦٥ ص ١١ ، ١٣ ، ٢٤٤ .

ويزيد المثقفون التقدميون فى الغرب يوما بعد يـوم من نقدهم الصريح والعلنى للجوانب التى تساهم بالضرورة فى أذكاء الحرب الباردة ، مثـــل سباق التسلح ، والاستراتيجية التى لايمكن الا أن تكون عدوانية والتى تسمى « استراتيجية الردع » ، وزيادة الضرائب وخرق الحريات الديمقراطية . بل وثمة ادراك متزايد ، حتى بين الانصار المخلصين للايديولوجية الرسمية فى الغرب ، بأن الولايات المتحدة الامريكية ليست فى الموقف الذى يسمح لهـــا باملاء ارادتها الانانية على الدول الاخرى ، وأن تفرض رغباتها الخاصـــة على شعوب العالم . (٣٨)

ان الحرب وقوى الحرب لا تحظى الا بالادانة أمام شـعوب العالم ، وأمام التاريخ .

## مثقفو الغرب والطريق نحو السلام الدائم

تعبر جميع الكتابات الهامة لمثقفى الغرب المعادين لىحرب عن الفكــرة القائلة بأن السلام العالمىالدائم سوف يكون فىصالح الامم جميعا ، الراسمالية منها والاشتراكية ، ويدعون الى المزيد من الجهود الجماعية الكبيرة من جانب جميع الشعوب لتحقيق هذا السلام .

ويناشد برتراند راسل فى كتابه ـــ الوعى العام والحـــرب النووية ـــ الوعى العام للشعوب والحكومات ويطالبه بأن ـــ يعبر عن الوسائل الممكنــة لتحقيق السلام بطرق يمكن أن تكون مقبولة من الطرفين ـــ .. وكما يوضح راسل بكل حق ، فمن واجب كل من النظامين الاجتماعيين أن يقيما علاقاتهما على الامكانيات القائمة للمحافظة على السلام والضرورة الملحـــة للاجراءات المشتركة من أجل ضمان أمنهما المتبادل .

ويدرك مثقفو الغرب المعادون للحرب أن فترة طويلة من الســلام من شأنها أن تؤمن الانجازات الجديدة فى بناء الاشتراكية والشيوعية ، ويرفضون رفضا قاطعا الحجة السخيفة للايديولوجيين والساسة المعادين للشيوعية بأن الحرب النووية مسألة « مرغوب فيها » ، على أساس أن السلام فى مصلحة الشيوعية .. فمثلا يكتب ك . لامونت ليقول : « .. وسوف يكون السلام العالمى ونزع السلاح والتبادل الطبيعى للسلع فى السوق العالمية مفيـــدا للامم الشيوعية ، ولكن رفض هذه الاهداف على هذا الاساس انما هو نفى لعمليات العقل ، لان تحقيق هذه الاهداف سوف يكون مفيدا الى ابعـــد الحدود لامريكا وبقية العالم غير الشيوعى » (٣٩) .

ويتفق المعادون للحرب فى الغرب عموما على أن السلام ينبغى الا يتحقق الا على أسس ديمقراطية من المساواة الكاملة بين الامم ، صغيرها وكبيرها ،

---

(٣٨) ب. راسل ، الوعى العام والحرب النووية ، المرجع السابق ص ٧ .

(٣٩) ك. لامونت ، الحضارة السوفييتية ، المرجع السابق ، ص ٣٨٦ ـــ ٣٨٧ .

وليس كنتيجة لفرض الدول الكبرى لما تمليه على البلدان الاقل قوة .

ويصر برتراند راسل على أن السلام العالمي ينبغي أن يتحقق بـــدون تضحيات وتنازلات من أي دولة ، أو تعد على مصالحها الحيوية . فاذا وضعت هذه الجوانب في الاعتبار فهو لا يرى أي عقبات أمام تحقيق سلام دائم مقبول من جميع البلدان (٤٠) .

ويتضمن هذا الموقف ادانة فكرة « السلام القائم على القوة الذائعة الانتشار » بين الساسة المبالين للحرب « وخبراء الشـــئون السوفييتية » البعيدين عن روح المسئولية في الغرب .

ويضع عديد من الفلاسفة وعلماء الاجتماع في الغرب آراءهم حـــول السلام تحت عناوين ضخمة ويطلقون عليها تسميات مثل (مفاهيم) و (مذاهب) و ( استراتيجيات ) ويحاولون أن يضفوا عليها طابعا مظهريا مغالى فيه مدعين أن أفكارهم الخاصة وحدها هي التي تستطيع أن تنقذ العـــالم من الحرب النووية ( أنظر ( مذهب الحكومة العالميـــة ) ، و ( الاستراتيجية التدريجية الجديدة للسلام ) وما الى ذلك ) .. أما بالنسبة للباحثين والعلماء المعادين للحرب فهم يعزفون عن اضفاء أسماء شديدة البريق على آرائهم ، ويبذلون محاولة جادة لدراسة دور العوامل المحددة في تحقيق السلام .

ومن المهام البالغة الاهمية اليوم تحقيق نزع السلاح الشامل والكامل في ظل نظام من الرقابة المحكمة ، وهذا هو أحد الاتجاهات الاساسية التي يبحث فيها مثقفو الغرب المعادون للحرب عن الامكانيات لتأمين السلام .

وتشترك آراؤهم في عديد من السمات المشتركة والاساسية :

في الشكل الذي ينظرون به الى مسألة نزع السلاح ، وفي حججهم الجادة التي يوضحون بها ضرورة نزع السلاح الشامل ، وفي تحليلهم السليم وفهمهم الدقيق لموقف الاتحاد السوفييتي كموقف معـــارض لموقف الولايات المتحدة الامريكية وجمهورية المانيا الفيدرالية وغيرهما من الدول الغربية ، وفي النقد الذكي للعديد من « النظريات » التي تبرر سباق التسلح الذائعة الانتشار في الغرب .

وهم يعتبرون مسألة نزع السلاح مشكلة كبرى من مشكلات عصرنا (٤١) فالتدمير الكامل للاسلحة البشعة للنصف الثاني من القـــرن العشرين هو الوسيلة الاساسية لمنع الحـــرب النووية ، وضرورة مطلقة ، هي الطـــريق الوحيد نحو السلام الحقيقي على الارض لجميع الامم (٤٢) ، فليست المسكنات أو الرقابة على الاسلحة ، ولا حتى « تجميد » المخـــزون هي الاجابة ــ

---

(٤٠) ب. راسل ، الوعي العام والحرب النووية ص ٧ .

(٤١) مشكلات نزع السلاح في العالم ، بوسطون ، ١٨٦٣ ، ص ١ ــ ١١ .

(٤٢) س. شيز ، عش ودع الآخرين يعيشون ، نيويورك ، ١٩٦٠ ، ص ١٣٥ .

« فالخطوات الاولى لتجنب الطوفان النووى والحفاظ على الديموقراطية هى الموافقة على نزع السلاح الشامل . (٤٣)

ويمكن تلخيص الحجج التى يقدمونها بشكل عام فى حجتين رئيسيتين :

أولا : القوة التخريبية الرهيبة للاسلحة النووية ، وثانيا : النتائج الضارة التى يجرها سباق التسلح فى أذياله بالنسبة للبلدان الغــــربية .. فسباق التسلح لا يعمل فحسب على تفاقم التناقضات الاساسية فى المجتمع الغربى ، بما يجلبه من أضرار للكتلة الرئيسية من السكان ، وانما يهدد أيضـــا بتدمير بقايا الديموقراطية ، ويؤدى الى سيادة القوى العسكرية اليمينية .. واكثر العلماء وضوحا واقتناعا فى طرح هذه الحجة الاخــــيرة برتراند راســـــل وو . ميلز وعديد غيرهما ، بينما يوضح ف فروم أن مجتمعا ينتهج طــريق التهديدات المتبادلة لايمكن أن يتوقعمنه أن يحافظ على طبيعته الديمقراطية(٤٤)

وقد بدأ المثقفون المعادون للحرب فى الغرب فى المناداة بنزع الســــلاح وتصفية الاسلحة النووية والرقابة الدولية الفعالة بعد الحرب العالميةالثانية بوقت قصير ، عندما كانت الولايات المتحدة الامريكية تنتهج سياسة « الابتزاز النووى » ، فتقدم ل . مومفورد بنظـــام كامل من الاجراءات العملية لنزع السلاح فى الولايات المتحدة فى كتابه « برنامج من أجل البقاء » فى عام ١٩٤٦ أصر فيه على أنه ينبغى على الحــــكومة الامريكية والرئيس والكونجرس التعهد باتباع الاجراءات الآتية دون أى تعطيل ، وذلك لصالح العالم أجمع .

١ ـــ اعلان الاستعداد للخضوع لنظام كامل من التفتيش والرقابة عـــلى الاسلحة الذرية والطاقة الذرية تحت اشراف الامم المتحدة .

٢ ـــ وقف أى انتاج جديد للقنابل الذرية .

٣ ـــ تفكيك القنابل الذرية التى سبق أن صنعتها الولايات المتحدة ووضـــع مالديها من مخزون من المواد القابلة للانشطار تحت رقابة الاممالمتحدة كدليل على عزوفها الاخلاقى عن استخدام القنابل فى هجوم مفـــاجىء ضد أى أمة (٤٥) .

ولو أن الولايات المتحدة أخذت بهذا البرنامج منذ عشرين عاما بدلا من فرض سباق التسلح على الاتحاد السوفييتى والبلدان الاشتراكية والعـــالم كله ، لما ران التهديد بالدمار الذرى على العالم اليوم ، ولامكن اســــتخدام القيم المادية الهائلة التى تنفق على سباق التسلح لصالح شعوب العــــالم والتقدم الاجتماعى .

ويصر برتراند راسل على ضرورة نزع السلاح الشامل ويكشف النقاب

---

(٤٣) ف. فروم ، هل يسود الانسان ؟ ، ص ٢٤٨ .

(٤٤) المرجع السابق ، ص ٢٠٧ .

(٤٥) ل . مومفورد ، برنامج من أجل البقاء ، لندن ، ١٩٤٦ ، ص ٦٧ .

فن « نفاق الموقف الرسمى » . وهو يوجه النقد الى « النظرية » الشائعة فى الغرب وبخاصة فى الولايات المتحدة الامريكية ، والقائلة بأن « نزع السلاح يمكن أن يسبب تفسخا اقتصاديا محزنا » ، ويوضح مدى غرابه وتناقض الاعتقاد « بأننا لا نستطيع أن نبقى على قيد الحياة الا بالاستعداد لقتل الآخرين « .. وهو يشير الى أن هذا الموقف موقف رجعى » ويغذيه أولئك الذين يحققون مصالحهم عن طريق تجارة السلاح » ، فهذه النظرية التى يقصد بها تشويه نزع السلاح وخداع الجماهير ، لا أساس لها على الاطلاق ، وكما يقول راسل فخبراتنا فى أواخر الحرب العالمية الثانية « توضح امكانية الانتقال التدريجى من اقتصاد الحرب الى اقتصاد السلام » (٤٦) .

ويصر عالم الاجتماع والفيلسوف الامريكى س . تشيز على أن السلام لابد أن ينتصر فى العالم طالما أن البديل الوحيد هو الدمار الذرى ، ويعتبر أن من أكثر المسائل اهمية وضع برنامج لتحويل اقتصاد الولايات المتحدة الى اقتصاد يرتكز على أسس سلمية ، رغم اعترافه بأن عملية تحويل الاقتصاد الرأسمالى والتنظيم الاجتماعى فى الولايات المتحدة بأسره الى مسالك سلامية عملية بالغة التعقيد والالم على ضوء فوضى الانتاج الرأسمالى ، والافتقار الى التخطيط على المستوى القومى ، واعتماد الاقتصاد كله على سياسة العسكرية . وبالرغم من ذلك ، فهو يوضح ، على نحو مقنع ، أن التعايش السلمى مع الاتحاد السوفيتى ، ونزع السلاح ، هما السياسة الحكيمة الوحيدة التى يمكن للولايات المتحدة أن تسير عليها » (٤٧) .

ويتفق جميع المثقفين المعادين للعسكرية على أن نزع السلاح العام والشامل ضرورة حيوية فى عصرنا ، ومن شأنه أن يضمن السلام ، ويؤمن حل المشكلات الاجتماعية الكبرى . ومن الدوافع الاساسية التى تحدو المثقفين التقدميين الى المزيد من النضال ضد الحرب اقتناعهم بأن السلام شرط ضرورى مطلق من أجل مرحلة جديدة كيفيا فى العلم العالمى ، يوجه فيها التقدم العلمى والتكنولوجى عبر مسالك غير عسكرية . والعلماء السوفييت على اقتناع بأنه اذا ما توفر السلام ، « فسوف تتحسن الى حد كبير الاوضاع الخاصة باتصال الافكار وتبادلها بين علماء العالم ، مما يهيىء الاساس لازدهار لم يسبق له مثيل للعلم والتقدم السريع » (٤٨)

ويتم الترويج على أوسع نطاق فى علم الاجتماع الامريكى « للمفهوم التدريجى » للسلام بصفته « الطريق الامريكى نحو السلام » .. فما جوهر هذه النظرية ، المعادية للعسكرية فى الاساس ، والتى تتضمن نقدا للسياسة العسكرية للولايات المتحدة ؟ ما الافكار المعقولة التى تحتويها وما أوجه القصور والنواقص ؟

---

(٤٦) أنظر ب . رأسل ، هل للانسان مستقبل ؟ لندن ١٩٦١ ، ص ١٢٩ – ١٣٠ .

(٤٧) س. تشيز ، عش ودع الآخرين يعيشون ، نيويورك ، ١٩٦٠ .

(٤٨) الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة الامريكية ونزع السلاح (بالروسية) الناشر – ناووكا ، موسكو ، ١٩٦٧ ، ص ١٦١ .

ومؤسس « النظرية التدريجية » واشد المتحمسين لها فى علم الاجتماع الامريكى هو أميتاى اتزيونى ، وهو اليوم باحث منتسب فى معهد دراسات الحرب والسلام التابع لجامعة كولومبيا .. وقد عرض نظريته بالتفصيل فى كتابين وقدمها للمرة الاولى فى كتابه « الطريق الشاق الى السلام — استراتيجية جديدة » ، ثم قام فيما بعد « بتوسيعها الى درجة كبيرة وتكييفها فى كتابه « الفوز بدون حرب » . والواقع ، على أى حال ، أن الكتاب الاخير أقل شأنا الى حد بعيد ، وقد تخلى فيه الكاتب عن عديد من الافكار المعقولة التى تضمنها الكتاب الاول .

والمقصود بالنظرية التدريجية أن تكون برنامجا اجتماعيا سياسيا للانتقال التدريجى ، خطوة بعد خطوة ، من التوتر الدولى ، وسباق التسلح والحرب الباردة ، الى التفاهم المتبادل وبخاصة بين الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة ، ومراقبة التسلح ، والتعاون الدولى ، والسلام الدائم . ويتقدم الاستاذ اتزيونى باقتراحات محددة عن الطرق التى يمكن بها تحقيق ذلك ، وهى اقتراحات ، وان كانت غير جديدة أو أصيلة ، الا أنه يمكن اعتبارها بشكل عام اقتراحات ايجابية ومعادية للعسكرية .. والنظرية التدريجية تقدم كبرنامج شامل ، يحتوى على سياسة جديدة للاسراع بادخال الحضارة الى البلدان المتخلفة واقتراحات لتكوين مجتمع عالمى وأمم متحدة جديدة ، واستراتيجية سياسية جديدة للقضاء على الفقر والامية والمرض .. وفيما يتعلق بهذا الجانب الاخير فمفهوم السلام التدريجى مثال نموذجى للعديد من الفلسفات الخيالية ( الطوباوية ) التى نلتقى بها فى علم الاجتماع الامريكى لفترة ما بعد الحرب ، والتى ليس لها أى قيمة عملية على الاطلاق .

فالفكرة القائلة بأن السلام يمكن أن يعرف بأنه المحافظة على الوضع القائم ، وهى الفكرة التى يؤمن بها عديد من المثقفين الغربيين ، فكرة زائفة وغير واقعية .. ومهما كانت نواياهم الذاتية مخلصة تماما ، وهى فعلا كذلك فى أغلب الاحيان ، الا أن الفكرة من الناحية الموضوعية خيالية من أساسها ، ولا يمكن أن تستخدم الا لعرقلة تقدم الشعوب للقتال من أجل حريتها واستقلالها ضد الامبريالية والاستعمار الجديد .. وقد أخذت أعداد متزايدة من المثقفين التقدميين فى ادراك العلاقة الجدلية بين السلام الحقيقى ونضال الشعوب ضد قوى الحرب والعدوان . وهكذا أشار جان بول سارتر بكل الحق ، الى اعتماد سلام وحرية الشعوب كل منهما على الآخر عندما قال :

« نحن نريد أن نضمن السلام من خلال الحرية وأن نعيد للشعوب حريتها خلال السلام » (٤٩) .

وجنبا الى جنب مع الافكار الخاصة بمنع الحرب وضمان السلام

---

(٤٩) المجلس العالمى للسلام ، هلسنكى ، ٢٢ — ٢٩ يونيو ١٩٥٥ . ملحق العدد ٥٠ ، ٥١ من مجلة هواريزونس « الافاق » اغسطس ٥٥ ص ٨ .

الدائم يقدم علماء وباحثو الغرب عديدا من الافكار التى لا تعكس الظـــروف الحقيقية والاتجاهات الموضوعية للتطور الاجتماعى على الاطلاق ، بل وربما كانت متعارضة معها بشكل كامل .

وابرز الامثلة واكثرها تحديدا لهذه الافكارالطوباوية هو نظرية «الحكومة العالمية » كأفضل طريق لتأمين السلام الدائم (٥٠) .

ويدعونا الانتشار الواسع والجماهيرية التى حظيت بها هذه النظرية لعشرات السنين الى تحليل مقوماتها تحليلا نقديا جادا ، بل وان أهمية هذا التحليل لتتزايد عندما نعرف أن من بين مؤيديها أنصارا متحمسين للســلام بين المثقفين الغربيين من أمثال براتراند راسل ، ول ، مومفورد ، وأريخ فروم وعديد من العلماء البارزين ، منهم البرت أينشتين على سبيل المثال .

وينبغى الا نخلط بين الآراء الطوباوية للمثقفين المعادين للعسكرية ، بالرغم من كل مافيها من تعارض مع الاوضاع الحقيقية ، وبين « المذهب » العدوانى للدوائر الحاكمة فى الولايات المتحدة ، التى تستغل فكرة «الحكومة العالمية» لمصلحة سياستها « للسيطرة على العالم » .

ومن أكثر نقاط الضعف انتشارا فى مختلف برامج السلام التى يتقــدم بها المثقفون الغربيون انهم يؤسسونها على مبادىء انسانية مجردة ، فلنأخذ على سبيل المثال هذه العبارة من اقوال لـــ . بولينج :

« اننى أؤمن بأن هناك فى العالم شيئا أكبر من السطوة الشريرة للقوة المســـــلحة والقنـــــابل الذرية ــ هناك ســــــطوة الحق ، والاخلاق ، والانسانية(٥١) » .

ويوما بعد يوم يزداد اقتناع العديد من العلماء والدارسين والشخصيات الجماهيرية فى الغرب بفوائد التعايش السلمى ، سواء من الناحية النظرية أو التطبيقية .وبالرغم من انهم يميلون الى تقديم تفســـــير محدود وقاصر للتعايش السلمى ، كبديل للحرب ، الا انهم اخذوا على أى الاحوال ، فى ادراك الآفاق التاريخية لهذه السياسة وضرورتها ، ولاعتبارها شـــــكلا معقولا للعلاقات الدولية المفيدة للبلدان الاشتراكية والراسمالية على حـــد سواء . انهم يدركون أن التعايش السلمى ضرورة تمليها ظروف موضوعية ــ طالمـــا أن البديل الوحيد هو المأساة النووية . ويقدم المثقفون التقدميون فى الغرب هذه الفكرة فى أشكال متعددة ، ولكنها تتحد جميعا فى جوهرها ، « فمثلا » التعايش معا أو الدمار معا ، هى الطريقة التى يعرض بهـــا س . لامونت المشكلة(٥٢) . بينما يقول ، بورن « أن برتراند راسل عـــلى حق اذ لم يكف أبداعن ترديد أن اختيــــارنا هو فقط بين التعــــايش أو اللاتعايش(٥٣) » .

---

(٥٠) تناولنا هذه النظرية فى فصل «السيادة القومية والحرب» .

(٥١) لينوس بولينج ، لا مزيد من الحرب ، لندن ، ١٩٥٦ ، ص ١٩٣ .

(٥٢) عنوان فصل ( ص ٣٥٥ ــ ٤١١ ) فى كتاب لامونت ، الحضارة السوفييتية .

(٥٣) م. بورن ، المرجع السابق ، ص ٢٢١ .

ومن الطبيعي تماما ، ان يؤيد التقدميون فى الغرب التعايش السلمى لانه فى مصلحة الانسانية جمعاء باستثناء الرجعيات السياسية والزمرة العسكرية والاحتكارات التى لها مصلحة مؤكدة فى سباق التسلح ، أو باختصار باستثناء مختلف القوى التى تسعى من أجل اهداف أنانية معادية للمجتمع .

والمثقفون الغربيون الذين يرون فى سياسة التعايش السلمى طريقا نحو السلام العالمى انصار متحمسون لحركة السلام ، ومعارضون أشداء للرجعية والحرب .

وانه لمن واجب الفلاسفة الماركسيين أن يواصلوا دراستهم الموضوعية وتأييدهم للافكار المعادية للحرب وللبرامج العملية للسلام التى يقدمها الباحثون المعادون للعسكرية فى الغرب ، وان يبينوا العناصر الايجابية التى تحتوى عليها ، وأن يوضحوا مدى امكانية التغلب على التناقضات الشائعة فيها والسمات الطوباوية الاجتماعية التى تتضمنها .

والنضال الراهن من أجل السلام والتقدم الاجتماعى ضد خطر الحرب ليس مجرد نضال أيديولوجى وسياسى لا يتوقف ضد قوى الرجعية والظلام وضد أيديولوجية وسياسة الحرب ومعاداة الشيوعية ، وانما يتضمن النضال الراهن من أجل السلام والتقدم الاجتماعى أيضا التضامن العالمى مع الحركات والافكار المعادية للحرب وتأييدها والتى تعبر عن نفسها بطريقة أكثر حزما فى مختلف انحاء العالم .



## الفصل الثامن عشر

# حركة البوجواش

من مظاهر التطور الراهن فى الحركة الاجتماعية اليوم ذلك الدور والنفوذ متعاظما الازدياد للعلماء . ويصدق ذلك بنوع خاص على حركات السلام ونزع السلاح التى يلعب فيها العلماء دورا يفوق كل نسبة لقوتهم العددية بين أنصار هذه الحركات . وينعكس هذا الوضع ، بشكل جزئى ، عن الدور المتزايد للعلم فى الحياة الحديثة ، ولكن هناك أيضا عددا آخر من الاسباب الخاصة المحددة .

واول هذه الاسباب هو أن العلماء يدركون أكثر من أغلب الناس مدى النتائج الرهيبة للحرب النووية . فاليوم ، هناك أسلحة نووية تصل قدرتها التدميرية لما يعادل قدرة القنبلتين الذريتين الاوليين اللتين تم القاؤهما على هيروشيما ونجازاكى فى أغسطس سنة ١٩٤٥ آلاف المرات . والفيزيائيون وعلماء البيولوجيا ، وخبراء الطب وغيرهم من العلماء ، وبفضل علمهم ومعرفتهم الخاصة، فى موقف يتيح لهم أن يدركوا تمام الادراك ، (١) وأن يفسروا ويوضحوا للآخرين ، النتائج الرهيبة التى يتضمنها استخدام هذا السلاح الفظيع للدمار .

والسبب الثانى هو أن الدول تستخدم العلم استخداما واسعا من أجل وضع استراتيجية وتكتيكات الحرب الحديثة ، وفى صناعة الاسلحة المدمرة الجديدة ، بينما تتطلب الضرورة الموضوعية للقضاء على الحرب أن يلعب العلم دورا نشطا فى تطوير العلاقات السلمية بين الدول ، وفى وضع استراتيجية واقامة أدوات فعالة للسلام والامن الدوليين .

ويفسر العامل الاول من عاملينا ظهور الحركة العالمية للعلماء التى تولى اهتماما خاصا لمشكلات نزع السلاح والتعاون ـ وهى حركة البوجواش . ويبين العامل الثانى القدر المتزايد من الابحاث العلمية التى

---

(١) حركة البوجواش هى الحركة العالمية للعلماء والتى تهتم اهتماما خاصا بمشكلات نزع السلاح والتعاون، وتستمد أسمها من اسم مدينة بوجواش بنوفا سكوشيا والتى انعقد بها أول مؤتمر لممثلى الحركة ( المترجم ) .

تدور حول مشكلات السلام فى مختلف البلدان فى السنوات القليلة الماضية ، والتى تمكننا بالفعل من أن نتكلم عن مولد فرع جديد من الابحاث العلمية ، هو الدراسات الخاصة بالسلام .

ولما كان من الواضح انه من المستحيل ، فى اطار الحيز المتاح هنا ، أن نحلل جميع الجوانب المتعددة لهذا الموضوع المعقد للعلاقات بين العلم العالمى والسلام ونزع السلاح ، لذلك سنقتصر على دراسة العاملين المذكورين فيما سبق وما ينبنى عليهما من آثار .

ولا يعنى اهتمامنا الخاص بحركة البوجواش اننا نتجاهل الدور النشط الذى يلعبه العلماء فى عديد من الحركات الاجتماعية الاخرى ، فهناك مجموعة كبيرة من العلماء البارزين فى مختلف البلدان أعضاء فى حركة السلام العالمية ، والتى يمارس الاتحاد العالمى للعاملين فى مجال العلم فى اطارها دورا نشطا ، والذى يضم فى صفوفه حوالى ٢٠٠ر٠٠٠ عضو من ١٩ بلدا . وعلى أى الاحوال ، فحركة البوجواش تشد انتباهنا لانها الحركة الاجتماعية الوحيدة التى أسسها العلماء بالفعل ، وتتكون كلية من العلماء ، وتهتم بشكل خاص بمشكلات الامن العالمى ، ونزع السلاح والتعاون .

وحركة البوجواش حركة واسعة التمثيل ، تضم فى صفوفها علماء من مختلف البلدان ، الاشتراكية منها والرأسمالية ، ومن مختلف الآراء الفلسفية والسياسية . وهى تتمتع بقدر كبير من النفوذ ، بل واضطر عديد من الحكومات فى عدد من البلدان الرأسمالية التى تنتهج سياسة ليس لها الا القليل مما يربطها بالسلام والتعاون ، الى الاعتراف بها .

وبالرغم من أن العلماء الطبيعيين ، وبخاصة علماء الفيزياء النووية ، هم الذين يشكلون القلب النابض لحركة البوجواش — الامر الذى يمثل نتيجة مباشرة للعامل الاول المذكور فيما سبق والذى يحدد الدور الخاص للعلماء فى حركات السلام ونزع السلاح — الا أن المتخصصين فى العلوم الاجتماعية والسياسية يلعبون فيها أيضا دورا نشطا .

وقد كان علماء مشاهير من علماء عصرنا من أمثال البرت أينشتين وفردريك جوليو — كورى ، وبرتراند راسل ، وماكس بورن ولفيوس بولينج من بين مؤسسى البوجواش ، وكانوا يرعونها فى مراحلها المبكرة ، وفى ٩ يوليو ١٩٥٥ أصدر هؤلاء العلماء بيانا فى لندن دعوا فيه علماء العالم والتقدميين فى كل مكان الى اعلان معارضتهم للحرب العالمية كوسيلة لحل النزاعات السياسية والى الاصرار على تسويتها بالمفاوضات(١) . وقد التقى العلماء الذين وقعوا ،أو أيدوا بنشاط بيان راسل/اينشتين ، كما كان يسمى ، للمرة الاولى فىمؤتمر فى منزل رجل الاعمال المشهور والشخصية الاجتماعية المرموقة المستر كايروس ايتون فى بوجواش بنوفاسكوشيا . وكان الحاضرون فى هذا المؤتمر ٢٢ عالما من عشرة بلدان ( الاتحاد السوفييتى ، والولايات المتحدة الامريكية وبريطانيا ، وفرنسا ، وجمهورية

---

(١) ب. راسل ، التاريخ المبكر لحركة البوجواش ، «نزع السلاح : سياسته واقتصادياته» ص ١٨ — ٢٠ .

الصين الشعبية ، واليابان وبولندا ، والنمسا ، وكندا واستراليا ) ، وقد انتخبوا لجنة دائمة تكونت من برتراند راسل ( بريطانيا ) ، ود. ف . سكوبلتزاين ( الاتحاد السوفييتى ) ، و أ . رابينوفتش ( الولايات المتحدة الامريكية و ج . روتبلان و س . بوويل ( بريطانيا ) .

وتاريخ حركة البوجواش هو بالضرورة تاريخ مؤتمراتها ، ولم يكن من قبيل الصدفة أن يتخذ السكرتير العام للجنة الدائمة لحركة البوجواش ، الاستاذ ج . روتبلان عنوانا لكتابه عن تاريخ الحركة هو : تاريخ مؤتمرات البوجواش(٢) .

واصدر المؤتمر الدولى الثالث لعلماء البوجواش المنعقد فى مدينة تايروليز . فى كيتزوبوهل وفى فينا ( من ١٤ — ٢٠ سبتمبر ١٩٥٨ ) بيان فينا ، وهو وثيقة بالغة الاهمية تعلن عن الحاجة لانهاء الحروب وسباق التسليح ، وتشجيع التعاون العلمى على نطاق العالم ، ووضع الضمانات حتى يستخدم العلم لمصلحة السلام(٣) .

وفى شهر ديسمبر ١٩٥٨ قررت اللجنة الدائمة للبوجواش اجراء استفتاء بين العلماء حول موقفهم من مشكلات الحرب والسلام . وقد تضمن الاستفتاء أسئلة حول مسئولية العلماء وعما اذا كانوا يعتبرون بيان فيينا أساسا مناسبا للتعاون العلمى الدولى . وعبر مايزيد عن ٨٠٪ من علماء البلدان ( بخلاف الاتحاد السوفييتى ) التى أرسل اليها الاستفتاء — وبلغ عددهم حوالى ١٠٫٠٠٠ — عن تأييدهم لبيان فيينا . أما فى الاتحاد السوفييتى فقد عبر العلماء السوفييت الخمسة آلاف الذين اشتركوا فى الاستفتاء ، وبالاجماع عن موافقتهم التامة على البيان .

وكان المؤتمر الخامس للبوجواش ، والمنعقد فى بوجواش بكندا ( من ٢٤ — ٢٩ أغسطس ١٩٥٩ ) مكرسا بشكل خاص للحرب الكيميائية والبيولوجية(٤) .

أما المؤتمر السادس للبوجواش والذى انعقد فى موسكو ( من ٢٧ نوفمبر الى ٥ ديسمبر ١٩٦٠ ) فكان من أهم مؤتمرات هذه الحركة ، وهو الذى ناقش مشكلات نزع السلاح والامن الدولى ، وقد حضر هذا المؤتمر ٧٤ عالما من ١٥ بلدا . وكان اكبر الوفود هو الوفد الامريكى الذى ضم عددا من المستشارين العلميين للرئيس كيندى (ج. ويزنر . وب . دوتى) . وبلغ عدد الخطابات التى القيت فى المؤتمر حوالى ٥٠ خطابا تناولت عددا كبيرا من المسائل المتعلقة بمختلف جوانب مشكلة نزع السلاح ، وتاريخ

---

(٢) ج. روتبلات ، العلم والشئون الدولية ، تاريخ مؤتمرات البوجواش لندن ، ١٩٦٢ .

(٣) الشئون الدولية ، موسكو ، نوفمبر ١٩٥٨ ، العدد ١١ ، ص ٨٠ — ٨٣ .

(٤) نشرة علماء الذرة ، شيكاغو ، أكتوبر ١٩٥٦ ، الجزء ١١ ، العدد ٨ ، ص ٣٣٧ — ٣٣٩ .

سباق التسلح ، ومحادثات نزع السلاح ، والمرحلة التى تم التوصل اليها فى محادثات حظر التجارب النووية ، والامن الدولى ، وخطة نزع السلاح الشامل ، والجوانب السياسية والاقتصادية والتكنيكية لنزع السلاح ، ومنع الهجوم المفاجىء ، والرقابة على الاسلحة النووية ودور ومسئولية العلماء . كما صدر بيان عن ضرورة نزع السلاح(٥) .

وساهم المؤتمر العاشر للبوجواش ( لندن من ٣ — ٧ سبتمبر ١٩٦٢ ) مساهمة قيمة فى اتفاقية نزع السلاح باقتراحه ضرورة تزويد الوسائل القومية القائمة للكشف عن الانفجارات النووية بمحطات للتحكم الآلى ( « الصناديق السوداء » كما كانت تدعى ) ، يمكن أحكام غلقها عن طريق جهاز دولى للرقابة وتوضع بكميات متفق عليها فى أجزاء مختلفة من العالم .. وكان من الممكن لهذا الاجراء أن يساعد على الاستغناء عن اقامة اجهزة خاصة للتفتيش للرقابة على تنفيذ الاتفاقيات الخاصة بحظر التجارب النووية .

واصدر المؤتمر العاشر للبوجواش وثيقتين هامتين — هما بيان وبرنامج وافق فيهما الحاضرون ، من الشرق ومن الغرب على السواء ، على أن نزع السلاح الشامل والكامل ضرورة قصوى ، وأن — نشاط الحركة بأكمله ينبغى أن يخصص لهذا الغرض ، وأن الخطوة الاولى نحو نزع السلاح الشامل الكامل يجب ان تكون هى تدمير الاسلحة النووية القائمة ، جنبا الى جنب مع تخفيض الاسلحة التقليدية والقوات المسلحة بدرجة كبيرة ، مع تصفية القواعد العسكرية فى الاراضى الاجنبية فى نفس الوقت .. وانتخب المؤتمر لجنة دائمة جديدة أكبر عددا (٦) .

وناقش المؤتمر الحادى عشر ( المنعقد فى دوبرفنيك بيوغوسلافيا فى الفترة من ٢٠ — ٢٥ سبتمبر ١٩٦٣ ) مسألة تدمير جميع الاسلحة النووية القائمة مع استثناء الحد الادنى من قوة الردع او قوة « المظلة » والتى ينبغى أن توضع تحت رقابة أمريكية سوفييتية لمنع أى بلدمن القيام بالعدوان بالصواريخ أو أى أسلحة يتم اخفاؤها أثناء عملية نزع السلاح الشامل (٧) .

وأدان علماء البوجواش الاقتراح الخاص باقامة قوة متعددة الاطراف تابعة لحلف شمال الاطلنطى ، كما أدانوا جميع الاشكال الاخرى للتكاثر النووى ، كذلك أدانوا العدوان الامريكى فى فيتنام ، وبخاصة استخدام الولايات المتحدة للاسلحة الكيميائية هناك .. كما قدمت اقتراحات عامة وتفصيلية من أجل التعاون العلمى على المستوى العالمى .

ويسمح لنا التلخيص السابق لتاريخ حركة البوجواش بالخروج بعدة نتائج .

---

(٥) ١٩٦١ ، العدد ١ ، ص ٨٤ — ٨٥ .

(٦) المرجع السابق ١٩٦٢ ، رقم ١١ ، ص ١٠٠ — ١٠٤ .

(٧) نزع السلاح والرقابة على الاسلحة ، جريدة عالمية ربع سنوية ، المجلد ، العدد ١ ، شتاء ١٩٦٣/١٩٦٤ ، ص ٩١ .

فأولا ، تقوم حركة البوجواش بمسح شامل لمشكلة نزع السلاح ككل ، سواء للاجراءات الجزئية أو لنزع السلاح الشامل والكامل ، محللة هذه المسائل فى علاقتها بمشكلات الامن الدولى والتعاون على نطاق العالم . ولما كان المشتركون فى الحركة من أبرز العلماء — وهم فى عديد من الحالات علماء من مجال الفيزياء النووية وغيرها من العلوم الطبيعية — فقد كانت لديهم القدرة على تقديم اقتراحات عملية هامة .. وفى نفس الوقت فقد استقر فى منطق الحركة أنه ينبغى أن تمتد باهتمامها الى جميع المشكلات ذات الاهمية الكبرى فى مرحلة معينة من حركة السلام ونزع السلاح .

وثانيا ، أن أهمية ونفوذ حركة البوجواش يتزايدان باستمرار ، فقد تطورت الحركة عبر السنين من مناقشات تدور بين مجموعة صغيرة من العلماء فى مسكن خاص لكايروس ايتون الى منبر عالمى لمجموعة من العلماء لهم وزنهم ولآرائهم أهميتها كما يتمتعون بقدر كبير من الجماهيرية .

وثالثا ، وبالرغم من أن حركة البوجواش مازالت خارج اطار حركة السلام العالمى ، فهى تسعى من نواح عديدة لتحقيق نفس أهداف حركة السلام ، وتتقدم بنفس مطالبها ، فى محاولاتها المخلصة النابعة من ضميرها الحى للسعى من اجل التوصل الى الوسائل البناءة لحل مشكلات السلام ونزع السلاح .

وكان العلماء السوفييت ، ومازالوا ، يلعبون دورا نشطا فى حركة السلام منذ بدايتها ، وهم يؤيدون بثبات برنامج نزع السلاح الشامل والكامل ، وتطبيق الاجراءات الخاصة بوضع حد لسباق التسلح والتخفيف من حدة التوتر الدولى ، كما ساهموا فى مناسبات عديدة فى المناقشات مع العلماء الامريكيين وغيرهم من علماء الغرب فى جمع أوجه نشاط هذه الحركة .

ومن تقاليد البوجواش أن يتم نشر تفاصيل ما يجرى فى اجتماعاتهم من مناقشات .. وسيرا على هذا التقليد ، يمكننا أن نتحدث عن الآراء التى عبر عنها علماء البوجواش فى مناقشاتهم فنقول انه بالرغم من العديد من الخلافات فى الرأى فهى تمثل ، فى مجموعها ، التأييد لفكرة نزع السلاح الشامل والكامل ، وتنفيذ الاتفاقيات الخاصة باجراءات وقف سباق التسلح ، والتى تنفذ الآن بالفعل . وهذه هى المساهمة الهامة التى تقوم بها حركة البوجواش فى السعى الى السلام .

وقد شهد العقد الاخير فى عديد من البلدان ظهور عدد كبير من مراكز البحث والمعاهد الخاصة بالدراسات التى تدور حول السلام ونزع السلاح .

واستنادا الى تقرير لليونسكو اعتمدت فيه على دراسة أجراها أحد هذه المعاهد ، وهو المعهد الدولى لابحاث السلام فى أوسلو ، كان هناك ٨٣ معهدا من هذه المعاهد تستخدم ٢٫٥٠٠ من العاملين فى مجال العلم فى أواخر عام ١٩٦٥ .

ولنلق نظرة على بعض هذه المعاهد : أسست الحركة العالمية للسلام المعهد العالى للسلام فى فيينا ، والذى يعمل على التنسيق بين الدراسات

الخاصة بالسلام ونزع السلاح فى البلدان المختلفة ويقوم باصدار نشرة وعديد من المطبوعات .

وهناك عديد من معاهد السلام فى البلدان الاشتراكية ، ففى الاتحـــاد السوفييتى تجرى الابحاث عن التعايش السلمى ونزع السلاح والجـــوانب الاخرى للسياسة الخارجية السلامية للاتحاد السوفييتى وغيره من البلدان الاشتراكية فى مختلف فروع أكاديمية العلوم ، بما فى ذلك معهد الاقتصـــــاد العالمى والعلاقات الدولية ، ومعهد تاريخ أتحــــاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية ، ومعهد الدولة والقانون ، ومعهد الفلسفة ، ومعهد الدراسات الشرقية ، ومعهد أفريقيا ، ومعهد أمريكا اللاتينية ، ومعهد الولايات المتحدة الامريكية ، أما الهيئة التى تتولى مهمة التنسيق بين جميع الدراساتالخاصة بنزع السلاح فهى لجنة دراسات نزع السلاح التى شكلها مجلس رئاســـة أكاديمية العلوم .. ولهذه اللجنة علاقات واسعة مع مختلف الباحثين فى هذا المجال فى البلدان الاخرى .

كما تجرى الابحاث الخاصة بالسلام أيضا فى مختلف مؤسسات التعليم العالى بما فى ذلك معهد الدولة للعلاقات الخارجية بموسكو ، والعـديد من الجامعات وكليات الحقوق .

وتشمل معاهد الابحاث ومعاهد التعليم العالى المتعددة التى تجرى بها الدراسات الخاصة بالسلام فى البلدان الاشتراكية الاخـــرى المعهد البولندى للشئون الدولية ، ومعهد الاقتصاد والسياسة الدولية فى تشيكوسلوفاكيا ، والمعهد الالمانى للتاريخ المعاصر فى جمهورية المانيا الديمقراطية ، ومعهـــد الاقتصاد الدولى والسياسة العالمية فى يوغوسلافيا .

ويعكس العمل المكثف الجارى فى هذا المجـــال فى البلدان الاشتراكية الرغبة الحقة لحكومات وشعوب مجموعة البلدان الاشتراكية فى السلام ونزع السلاح .

والأغلبية الساحقة لمراكز الابحاث من أجل السلام ونزع الســلاح فى البلدان الرأسمالية مراكز صغيرة للغاية ، وليس بها سوى حفنة من الباحثين الدائمين بين الهيئات المشرفة عليها ، كما تخصص لها ميزانيـــات ضئيلة الى أبعد حد ، وهى تعتمد اساسا على الهيئات لتغطية احتياجاتها . وتضم هـذه المراكز معهد المجادلات فى جرونيخن ( هولندا ) ، والمعهد الدولى لدراســات السلام فى أوسلو ، وعدة مراكز فى بريطانيا ، وكندا ، والدانيمارك والهند واليابان ، وجمعية دراسات السلام فى جمهورية المانيا الفيدراليه ، والمعهـد الدولى للسلام الذى اسسته وتموله الحكومة السويديه .

وهناك فى الولايات المتحدة عـدة مراكز للابحاث تعمل فى الظاهر فى دراسات السلام بينما تهتم أغلبيتها فى الواقع بالاســتراتيجية العســـكرية والأسلحة اكثر من اهتمامها بنزع السلاح . وهناك بالطبع عديد من العلماء فى الولايات المتحدة يهتمون حقا بمشكلات السلام ويقومون بدراسات جادة

للموضوع . وقد قمنا بدراسة كتاباتهم بالتفصيل في فصول اخرى من هـذا الكتاب .

وقد بلغت الدراسات الخاصة بالسلام حدا من الانتشار أصبح هنـاك معه الآن تنظيمان عالميان للأبحاث في هذا المجال ـ هما الرابطة العالمية لابحاث السلام ( أبرا ) ، والجمعية الدولية لأبحاث السلام ( أبرس ) .

وتمثل المعاهد والمراكز المتنوعة لدراسات السلام ، والتى تأسست فى مختلف البلدان فى السنوات القليلة الماضية ، مجموعة اقرب الى الوحـدات الصغيرة المتباعدة ولكن تظل الحقيقية الاساسية وهي ان عديدا من المراكز تم تأسسيها وعلى نحو تلقائي في اغلب الاحيـان ، فى مختلف انحـاء العـالم بغرض الاجابة على التساؤل الكبير لعصرنا : كيف يمكننا ضمان السلام العالمى والأمن ونزع السلاح ؟

وما كان من الممكن ان يحدث ذلك بمحض الصدفة : وانما هى ظاهـرة طبيعية ، خرجت الى الحياة نتيجة للمتطلبات الموضوعية للعلاقات الاجتماعية الراهنة .

ان الحياة نفسها هى التى وضعت مشكلة الحرب والسـلام فى قلب السياسـة العالمية نفسه ، وأى سياسة بناءة اليـوم ، لابد وان تقوم عـلى الدراسات الجادة فى هذا الموضـوع .

ويجب ان ندرك ان العلم الحق لايمكن الا ان يقوم على أسـاس الفهم الماركسى ـ اللينينى ، وليس من قبيل الصـدفة ان ابحـاث علم الاجتماع الماركسى ـ اللينينى فى هـذا المجال هى التى تفضى الى النتائـج العلمية الحقيقية التى يمكن ان تستخدم كأساس للقرارات السياسـية ، أما المفهوم المثالى والصوفى الذى يسود العلم غير الماركسى فهو يعـوق البحث الحقيقى ويمنع عـديدا من الباحثين البورجوازيين من القيام بتحليل علمى صـادق لمشكلات الحرب والسلام .

ويزداد اليوم شد انتباه علماء العالم نحو مشلات الحرب والسـلام وتجرى الدراسات الخاصة بالنشاط العملى او الدراسات الاقتصادية ، بهدف حل هذه المشكلات ، والمثال على النوع الاول هو مساهمة العلماء فى الحركات الاجتماعية مثل حركة السلام العالمية وحركة البوجواش ، والمثال على النـوع الآخر هو التطور الملحوظ للدراسات الخاصة بالسلام ونزع السلاح فى عديد من البلدان والتى ادت الى ظهور فرع جديد مستقل للبحث .

وكلا النوعين من الظواهر الاجتماعية الهامة المميزة لعصرنا . وانه لمما يتمشى مع منطق التاريخ أن يزداد ارتباط مسألة البحث عن حل لمشكلات لها مثل هـذه الأهمية الحيوية بالنسبة للبشرية اكثـر فأكثـر ، بالمجموعات الاجتماعية ، بما فى ذلك العلماء التقدميون فى العالم .

## الفصل التاسع عشر

# البرنامج السوفيتي لنزع السلاح ... والقوى المعارضة له ...

وصل سباق التسلح الذى تشنه الامبريالية اليوم الى ابعاد لم يسبق لها مثيل ، ووضعت الامبريالية الموارد الهائلة للثورة التكنولوجية فى خدمة العسكرية . ولقد ادت الثورة التكنولوجية الى زيادة ضخمة فى القدرة التدميرية لأدوات الحرب ، ويكفى المخزون من الاسلحة النووية والنووية الحرارية القائم بالفعل فى العالم لتهديد وجود المجتمع الانسانى نفسه ومع ذلك مازال تخزين وتطوير الاسلحة النووية وغيرها من أسلحة الدمار الشامل مستمرين ، كما تحول سباق التسلح الى مصدر اساسى للتوتر الدولى ، يزيد الى حد كبير من خطر الحرب ، العالمية . وكل هذه العوامل تجعل من مشكلة نزع السلاح مشكلة بالغة الاهمية بالنسبة للبشرية فى يومنا ، وفى عصرنا الراهن .

والامبريالية تستخدم سياسة العسكرية استخداما واسعا ضد الجماهير ومن اجل اخضاع حركات التحرر الوطنى والتدخل فى الشئون الداخليه للدول ذات السيادة . وتلجأ المجموعات العدوانية فى المعسكر الامبريالى الى القوة العسكرية فى مناسبات تزايدت فى الآونة الاخيرة ، وذلك من اجل المحافظة على مجال سيطرتها ، وتوسيعه حيثما كان ذلك ممكنا ، ووضع العراقيل فى طريق التقدم . ولهذا الغرض فهى تحاول تصعيد سباق التسلح وتنشيط الكتل العسكرية وشن الحروب المحلية ، وتنفيذ الاعمال العسكرية الأخرى التى خططت بهدف تقويض السلام والأمن العالميين .

وتلقى الاستعدادات للحرب بأعباء لاتحتمل على كاهل الجماهير ، وتؤدى الى استنزاف الموارد القومية ، وتعطل التقدم الاجتماعى ـ الاقتصادى ولهذا أصبح نزع السلاح شرطا لاغنى عنه من أجل المزيد من التقدم للبشرية . ومن الممكن ان يكون نزع السلاح الشامل والكامل ، فى ظل رقابة دولية فعالة ، هو الاجابة على مشكلة كبح جماح القوى الصدامية للعدوان الامبريالى والرجعية .

هل هناك امكانية حقيقيه لتحقيق النزع الشامل للسلاح ؟ الماركسيون ـ اللينينيون ليس لديهم اى تردد للرد بالاجاب • فنظرية الاشتراكية العلميه منذ بدايتها الاولى ، تربط امكانية منع الحروب وخفض السلاح بالعمل من جانب الجماهير وجميع القوى الاجتماعية التقدمية • وقد رفض مؤسسو الاشتراكية العلمية المهفوم القدرى لتفسير العمليات ـ المحددة للتطور الاجتماعى وأكدوا ضرورة بذل الجهود المعادية للعسكرية فى ظروف الرأسمالية وامكانية حل المسائل العلمية للنضال ضد أعباء السلاح •

واليوم ، ازداد المطلب الماركسى بنزع السلاح غنى بمحتوى محدد جديد ، واكتسب اهمية اكبر من أى وقت مضى • ان امكانيات جديدة برزت لحله، ويمكن استنتاج ذلك من التحليل العلمى للاتجاهات فى عصرنا الراهن مع العناية بالاتجاهات الاساسية فى التطور العالمى والعلاقات بين القوى الطبقية فى العالم ، ومختلف الحقائق المادية والعوامل الاخلاقية المرتبطة بها وتتوفر امكانية تحقيق نزع السلاح لأن الامبريالية ، والعسكرية التى تأتى فى اذيالها ، فقدتا دورهما المسيطر فى العلاقات الدولية ، بينما تحولت الاشتراكية الى القوة الحاسمة للتطور العالمى •

ولأول مرة فى التاريخ تطالب قوى منظمة مقتدرة بنزع السلاح ، وهى الاتحاد السوفييتى الذى يقف فى المقدمة فى الفروع الحاسمة للعلم والتكنولوجيا ، والبلدان الأشتراكية الأخرى التى وضعت قوتها الاقتصادية والسياسية فى خدمة السلام ، والحركة العمالية العالمية والأحزاب الشيوعية فى مختلف انحاء العالم ، والتى تعتبران واجبها الأول هو انقاذ البشرية من ويلات الحرب العالمية الجديدة ووضع حد للحرب ، وشعوب آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية التى تهتم اهتماما حيويا بالمحافظة على السلام ، وحركات التحرر الوطنى التى تلقى عن كاهلها اغلال الامبريالية والاستعمار ، وحركة السلام العالمية التى توحد فى صفوفها اناسا من مختلف المواقف الاجتماعية والأفكار السياسية والمعتقدات الدينية • وان نمو هذه القوى الاجتماعية التقدمية وتضامنها ليخلقان فرصا افضل للتقدم فى مسألة نزع السلاح •

وقد اكدت احداث السنوات القليلة الماضية صحة التحليل الماركسى اللينينى للعصر الراهن ومحتواه واتجاهاته الاساسية ، والذى يقول بأن المجرى الأساسى لتطور البشرية يتحدد بالنظام الاشتراكى العالمى ، والحركة العالمية للطبقة العاملة وجميع القوى التقدمية الأخرى • كما عبر المؤتمر العالمى للأحزاب الشيوعية والعمالية المنعقد فى موسكو فى عام ١٩٦٩ عن الفكرة القائلة بأنه على ضوء التغيرات التى تحققت فى العالم فى العقد الاخير ، لم يعد السلام الدائم حلما طوباويا ، وانما هو هدف ممكن التحقيق تماما ، ودعا الشعوب الى النضال الجاد من اجل نزع السلاح الشامل والكامل •

وعلى أساس نظرية الاشتراكية العلمية التى تذهب الى ان نزع سلاح الدول على نطاق العالم وتحت الرقابة الدولية هدف عملى تماما ، ظل الاتحاد السوفييتى يشن طوال السنوات ، تؤيده البلدان الاشتراكية الأخرى نضالا لايتوقف من أجل تحقيق السلام العالمى •

وكانت الخطوات الاولى نحو الحد من سباق التسلح النووى ووقفه وهي معاهدة حظر التجارب النووية في البر والبحر والجو ( ١٩٦٣ ) ، والمعاهدة الخاصة بالمبادىء التى تحكم نشاط الدول في استكشاف واستخدام الفضاء بما فى ذلك القمر وغيره من الاجرام السماوية ( ١٩٦٧ ) وحظر وضع الاسلحة النووية فى مدارات حول الأرض أو فى الفضاء ، ومعاهدة منع التكاثر النووى ( ١٩٦٨ ) ، والمعاهدة التى تحظر الأسلحة النووية وغيرها من أسلحة الابادة الجماعية فى قاع البحر وقاع المحيط أو فى باطنها ( ١٩٧١ ) ، والاتفاقية المبرمة بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الأمريكية حول الاجراءات الخاصة بالمبادىء التى تحكم نشاط الدول فى استكشاف واستخدام الفضاء كانت كل هذه الخطوات تثبت بشكل لاجدال فيه ان النضال ضد سباق التسلح يمكن ان يحقق نتائج هامة • وكلما خضنا هذا النضال على نحو أكثر نشاطا ، كلما أصبح من الصعب على قوى العدوان ان تنسف الاجراءات التى أمكن التوصل اليها حتى الآن فى مجال الحد من التسلح •

وتعارض الدوائر العسكرية صاحبة النفوذ في الولايات المتحدة الامريكية وغيرها من الدول الامبريالية النقاط الآساسية فى برنامج نزع السلاح الذى اقترحه الاتحاد السوفييتي معارضة اليائس • ولهذا الغرض راحت هذا الدوائر تعبىء ذلك النوع من العلماء الذين ابدوا استعدادهم لخدمة الامبريالية والذين يعتقدون ان سباق التسلح هوالأمل الوحيد للبشرية •

ونشغل المحاولات الرامية الى الحد من السباق فى جميع انواع الاسلحة وتحقيق نزع السلاح مكانا بارزا بين المهام الأساسية التى حددها برنامج السلام والأمن العالميين الذى اقره المؤتمر الرابع والعشرون للحزب الشيوعى للاتحاد السوفييتى •

وقد تقدم المؤتمر بالاقتراحات المحددة التاليه من أجل انجاز هذه المهام ابرام معاهدات تفرض الحظر على الأسلحة النووية والكيميائية والبكتريولوجية ، ووضع حد لتجارب الأسلحة النووية بما فى ذلك التجارب تحت الارض ، واقامة مناطق منزوعة السلاح النووى فى مختلف انحاء العالم وتصفية القواعد العسكرية الأجنبية ، وتخفيض القوات المسلحة وبخاصة فى وسط أوروبا ، ووضع الاجراءات اللازمة للحد من امكانية الاندلاع العفوى أو المتعمد لأحداث مسلحة وتطورها الى ازمات دولية والى حرب ، وخفض الانفاق العسكرى ، ومن جانب الدول الكبرى فى المقام الأول ، وعقد مؤتمر الدول النووية الخمس — الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة وجمهورية الصين الشعبية ، وفرنسا ، وبريطانيا — بهدف التوصل الى نزع السلاح النووى في كافة الدول التى تمتلك أسلحة نووية ، وعقد مؤتمر عالمى لبحث مسائل نزع السلاح بكافة ابعادها •

ومن الممكن ان يصبح حل مشكلات نزع السلاح اكثر سهولة اذا طبقت الاقتراحات الاخرى الواردة فى البرنامج والتى تهدف الى دعم الأمن العالمى وهى : القضاء على بؤر الحرب فى جنوب شرقى آسيا والشرق الاوسط

والتوصل الى تسوية سلمية فى هاتين المنطقتين على أساس الحقوق المشروعة للدول والشعوب التى وقع عليها العدوان ، ونبذ التهديد باستخدام القوة أو استخدامها فى تسوية القضايا الهامة ، ابرام المعاهدات الثنائية أو الاقليمية المناسبة ، واتخاذ الاجراءات التى تضمن تحقيق تحول جذرى نحو الانفراج والسلام فى أوروبا ، وعقد مؤتمر أوروبى عام ، ونجاحه ، والغاء معاهدة وارسو وحلف شمال الاطلنطى فى وقت واحد – أو كخطوة أولى – تصفية تنظماتهما العسكرية ، والتطبيق الكامل لقرارات الامم المتحدة الخاصة بالقضاء على بقايا النظم الاستعمارية ، وتطوير علاقات التعاون المثمر المتبادل فى كافة المجالات ، بما فى ذلك التعاون لحل مشكلات من نوع مشكلات المحافظة على البيئة ، وتطوير الطاقة وغيرها من المواد الطبيعية وتطوير النقل والمواصلات وما الى ذلك .

وسوف تسهل الاجراءات الحازمة التى تتخذ فى هذا الاتجاه الى حد كبير من حل المشكلات الاساسية لنزع السلاح الكامل والشامل ، ومن ثم تنفتح صفحة جديدة فى تاريخ المجتمع الانسانى .

ويعلن علماء الاجتماع الامريكيون ستراوس – هوبيه ، وكينتز وبوسونى ان نزع السلاح الشامل والكامل ان هو الا « وهم لا غناء فيه » ، فهم يكتبون قائلين :

« ونحن نعتقد أن التعايش الدائم بين نظامين متعارضين الى هذا المدى الجذرى ، مستحيل(١) » .

ولفترة طويلة كان المفهوم الخاص بسباق التسلح بلا قيود ، والذى ظهر عند ماكانت الولايات المتحدة الامريكية تحتكر القنبلة الذرية مؤقتا ، والذى كان يغذيه مذهب دالاس عن « دحر » الشيوعية « وتحرير » البلدان الاشتراكية ، كان هذا المفهوم هو السائد فى علم الاجتماعى البورجوازى وفى السياسة البورجوازية ، وحظيت بعض فروضه الاجتماعية ، بل ومازالت تحظى بهذا التأييد حتى الآن ، مما يعرقل كافة المحاولات للتوصل الى طريق بديله .

ويمثل المفهوم الخاص بالتسلح بلا حدود أو قيود جزءا لا يتجزأ من السياسة المغامرة المتطرفة التى تنتهجها الامبريالية الامريكية ، وهو احد المكونات الاساسية للفلسفة الاجتماعية السياسية التى يروج لها اكثر الرجعيين سعارا ، انها المفهوم الذى يعتنقه رجال الاعمال الذين يكونون الثروات عن طريق طلبيات الحكومات للاسلحة ، وزعماء الاحزاب السياسية البورجوازية اليمينية ( جولد ووتر ، ووالاس ) ، وبعض أعضاء مجلس الشيوخ والكونجرس – وبخاصة اعضاء لجنة الكونجرس للخدمات العسكرية والامن القومى – ( ثورموند ، وجاكسون ، وهومر ، وفيندلى )

---

(١) د. ستراوس هوبيه ، وو. كينتز ، وس . بوسونى ، استراتيجية جسورة لامريكا ، ص ٢٦٧ .

والباحثين البارزين فى المعامل التى تجرى تجاربها على الاسلحة الجديدة، واتحادات البحث ، ومراكز الدراسات الاستراتيجية ، وأيضا بعض الاعضاء النشطين فى التنظيمات المغرقة فى اليمينية ، مثل جمعية جون بيرسن ومجلس الامن القومى .

ويغذى جنون معاداة الشيوعية ومعاداة السوفييتية ، والاوهام التى تنسج حول القدرات الخارقة للامبريالية الامريكية ، والدعاوى المتطرفة فى تشاؤمها ، والنظريات الخاصة بحتمية الحروب الصغيرة والكبيرة واستخدام اسلحة الدمار الشامل . وهذه النظريات تشكل المقومات المنطقية للمفهوم الخاص بالحاجة الى سباق للتسلح بلا قيود . وترتبط هذه المفاهيم بأسماء الايديولوجيين المغرقين فى اليمينية من أمثال بورنهام ، وكاهن ، وبوسونى ، وستراوس هوبيه ، وتوكر ، وبتللر .

ويمكننا أن نلتقى بآخر صيحة لمفهوم التسلح بلا قيد او شرط تطبيقا على الاوضاع الخاصة بأواخر الستينيات وأوائل السبعينات فى منشورات مركز الدراسات الاستراتيجية . ى . منه جورجتاون ، وفى مجلة أوربيتس ( المدار ) وهى جريدة ربع سنوية للشئون الدولية التى تصدر عن معهد أبحاث السياسة الخارجية بجامعة بنسلفانيا ، وكذلك فى الاقوال التى أدلى بها ستراوس ـ هوبيه وبتللر لمختلف لجان الكونجرس الامريكى فى الفترة من ١٩٦٧ حتى ١٩٦٩ .

وانصار التسلح بلا قيد أو شرط يرفضون مبدأ التعايش السلمى مع البلدان الاشتراكية على أساس انه « لا يتمشى مع السلام الحق » ، وهم يعلنون الرأى التقليدى عن العدوان بكل وقاحة ويعتبرون أن مجرد وجود البلدان الاشتراكية والحركة الشيوعية العالمية عمل من أعمال العدوان وتحد لمصالح الولايات المتحدة . ويصر الايديولوجيون المغرقون فى اليمينية على السياسة التى تهدف الى تحقيق « النصر على الشيوعية » عن طريق تكثيف الضغط العسكرى والتصاعد به حتى يصل الى توجيه ضربة نووية عقابية .

وتعتبر النظريات المذكورة فيما سبق أن العلاقات بين الدول ذات النظم الاجتماعية المختلفة ان هى الا مظهر من مظاهر النزاع العسكرى ، وهى ترفض احتمالات تخفيف حدة التوتر فى المستقبل واقامة العلاقات الدولية على اسس طبيعية . انها على استعداد لحل القضايا المتنازع عليها بين البلدان الاشتراكية والرأسمالية بالقوة المسلحة .

وكقاعدة عامة ، يتجاهل أبطال هذا الاتجاه مخاطر الحرب النووية ويقللون من شأن مايترتب عليها من نتائج . وهم يبالغون، فى تفاؤل ، من امكانية اعادة تعمير الدمار الناتج عن تبادل الضربات النووية ، ويبنون مايقدمونه من حلول على اساس التبجح بالتفوق العسكرى للولايات المتحدة ولذلك يدقون ناقوس الانذار بالخطر على ضوء التوازن الاستراتيجى المتحرك القائم بين الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفييتى .

والايديولوجيون المغرقون فى اليمينيـــة لا يرغبون فى أن يغلوا يد المجموعة العسكرية الصناعية ، ولذلك فهم يتجاهلون العواقب السلبية التى يجرها سباق التسلح بلا قيود فى أذياله بالنسبة للولايات المتحـدة نفسها ، ويرفضون بالمثل أى خطوات تهدف الى التوصل الى اتفـاق حول الحـد منه • وهم يبذلون كل ما فى جعبتهم من اجل اثبـات انه من الممكن خلق القوات القادرة على توجيه ضربة ناجحة للخصم ، وعلى هذا النحو يجعلون من الحرب الصـاروخية والحرب النووية أداة ملائمة للسياسة الامبريالية .

وينادى روبرت كليماركس العضو القديم فى هيئة مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية بجامعة جورجتاون ، ببناء نظام أمريكى للدفـاع ضد الصواريخ ، وبناء أحدث أنواع الصواريخ التى تحمل أكبر عـدد ممكن من الرؤوس النووية .

ويتركز اهتمامه الاساسى فى أن المحادثات السوفييتية / الامريكية ربما حدت من نطـاق البحث والتطـور العسـكريين ، وكليماركس يؤيد المحادثات مع الاتحاد السوفييتى ، ولكنه يقول أن أولئك الذين يعتقدون أن الولايات المتحدة الامريكية تستطيع أن تضمن حرمة الاتفاقيات التى يتم التوصل اليها من مستوى تكنولوجى أدنى عليهم أن يحملوا « صليبا ثقيل الوزن » ، وهو يعتبر أن الرقابة على التسلح ليست الا مجالا جـديدا للنزاع الدولى . فأغراض وأحكام مثل هـذه الرقابة « يتعين أن تتفق تماما مع الاستراتيجية القومية العامة ، وأن تكون فى خدمة الاهـداف التى تسترشد بها وزارة الدفاع » .

وهـو يقـول :

« علينا أن نواصل طريقنا ولو كان ذلك لمجرد التقليل من احتمالات المخاطرة بنشوب نزاع يمتد الى العالم كله ويمكن أن يفتح الطريق لمـا يمكن أن يكون اكراها سوفييتيا(٢) » . وكيلماركس يؤيد نوعا من الرقابة على التسلح يساعد ... « على التسرب الى المجتمع السـوفييتى وفتحه ، وتسهيل مهمة المخابرات لتشجيع التجارة الحرة(٣) » .

وهكذا ، فالمسألة بالنسبة له ليست مسألة وقف سباق التسـلح والحد من دوره فى العلاقات الدولية ، بقدر ماهى فتح الطريق لاتجاهات جديدة فى المنافسة التكتيكية ـ العسـكرية ، وتحقيق المزايا للدوائر العدوانية الامريكية عن طريق فرض شروط غير ملائمة على الخصم فى الاتفاقية .

---

(٢) كيلماركس ر. أقوال حاسـمة لعصرنا ، المجلـد ٣٦ ، ١٥ يوليـو ١٩٧٠ ، ص ٦٠٣ ـ ٦٠٤ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٦٠٣ .

ومازال هيرمان كامتد ، مدير معهد هدسون ، والذى شارك فى الجدل الذى دار حول بناء شبكة الدفاع الصاروخية وغيره من أنظمة الاسلحة الاستراتيجية ، مازال يحتل مكانا خاصا بين المنظرين المتطرفين .

وليست حججه الحالية الا استمرارا لآرائه السابقة ، بالرغم من انه قدم فى أواخر الستينيات تفسيرا أكثر حذرا الى حد ما لامكانية — استعمال الحرب النووية الحرارية الكبيرة كأداة سياسية . وهو يعترف بأن جوهر هذه النظم الدفاعية الصاروخية قد « تغير تغيرا جذريا حقا » خلال السنتين الماضيتين ، مما أدى الى فقدان الولايات المتحدة الامريكية « لتفوقها الاستراتيجى » ، أى انه يسلم باهتزاز الفرض الاساسى فى خطط كاهن لتصعيد التهديدات والنزاعات المسلحة المستندة على التفوق العسكرى للولايات المتحدة . ومع اعتراف كاهن بأن النزاع النووى على نطاق العالم سيجلب الاضرار للولايات المتحدة الامريكية ، الا انه لا يخرج رغم ذلك بالنتائج المنطقية التى يفضى اليها هذا الاعتراف وهى نبذ سياسته الخاصة بالحصول على المزايا السياسية والاستراتيجية عن طريق سباق التسلح. انه يرفض البديل المنطقى الوحيد لسياسته المفلسة — أى توقيع اتفاقية لوقف سباق التسلح،وبدلا من ذلك يجادل بأن المخرج لايمكن الا فى البدء فى دورة جديدة من التسلح .

ويصر كاهن على انه ينبغى على الولايات المتحدة أن تأخذ « بالتعبئة التنافسية » فى استراتيجيتها فى السبعينيات ، والهدف من هذا النوع من التعبئة هو اجبار الخصم على أن يرفع بسرعة وثبات من ميزانيته العسكرية مع ما يستتبعه ذلك من وضع أداة الحرب فى حالة من الاستعداد الكامل للقتال فى ظل أوضاع السلام ، ومن أجل تحقيق ذلك يقترح أن تكون نفقات الحرب فى الولايات المتحدة ٢٠٫٠٠٠ مليون دولار فى السنة الاولى من « التعبئة التنافسية » ، ثم تصل الى ٥٠٫٠٠٠ مليون فى نهاية السنة الثالثة . وفى خلال سنوات ثلاث ينبغى أن يخبأ السكان جميعا ، والصناعة والمؤسسات ، فى مخابىء تحت الارض ، وأن تقام نظم جديدة كلية للاسلحة الاستراتيجية وأن يتحقق مستوى من التفوق يجعل من توقيع اتفاقية مع الاتحاد السوفييتى مسألة ممكنة ( وهو يقصد بذلك استسلام الاتحاد السوفييتى ) أو ضمان نتائج أفضل للولايات المتحدة فى حالة الحرب . والفكرة هى أن « التعبئة التنافسية » وما ينتج عنها من استعداد قتالى أكبر ستجعل من الممكن تغيير شروط المباراة ، أى الى ازالة جميع القيود وتمكين الولايات المتحدة الامريكية من العودة الى تكتيكات تقديم الانذارات .

ويجب أن نلاحظ ما يتضمنه مفهوم « التعبئة التنافسية » من استفزاز ، يبدأ من الافتراض بأن الازمة العالمية الحادة حتمية . وآراء كاهن تعنى بالضرورة أن الولايات المتحدة ستكون فى أفضل الاوضاع اذا

ما تم افتعال مثل هذه الازمة ، لان الافتعال من شأنه أن يشد زناد « التعبئة التنافسية » .

وينادى كاهن بأن مفهومه هو البديل عن الحرب ، ويعد الولايات المتحدة بالنصر اذا تصرفت وفقا لمشورته . وهو يعتقد أن خططه مفيدة على وجه الخصوص لانها تخلق حركة آلية رائعة لتحسين البحث العسكرى وتطويره ، ولاستنزاف اقتصاد الخصم ، وايضا للحصول على « فدية » اذا ما قرر الخصم بأن يقبل التحدى . وتبين محاولة كاهن للحصول من خلال « الحرب البديلة » على النتائج التى عجزت السنوات العديدة من الحرب الباردة عن تحقيقها انه فقد تماما اى احساس بالواقع .

وينبغى الا نتجاهل هذا الجانب الذى ذكرناه من تفكير كاهن ، لان بعض الاستراتيجيين العسكريين الآخرين أيضا يدعون أن تصعيد سباق التسلح يمكنه أن يتيح للولايات المتحدة التفوق على الاتحاد السوفييتى ، وهم يعتقدون أن الغرب يمكنه أن « يستنزف » الاقتصاد السوفييتى « باجباره على مجاراة المستوى العالى لبرامج التسلح بالولايات المتحدة (٤) » . وخطأ هذه المخططات مسألة واضحة فى حد ذاتها ، فلما كانت الامكانيات الاقتصادية والعلمية والتكنولوجية الكامنة للنظامين العالميين اليوم فى صالح الاتحاد السوفييتى اكثر مما كانت فى السنوات العشرين الماضية بل وفى السنوات العشر الماضية ، ولما كان الاقتصاد والعلم السوفيتيان يتطوران الآن بمعدلات عالية وثابتة ، فقد نمت القدرة الدفاعية للاتحاد السوفييتى بشكل هائل ، كما ازدادت بشكل هائل أيضا قدرته على الدفاع عن المواقع العالمية للاشتراكية .

ان اى محاولات من جانب التجمع العسكرى / الصناعى للتصرف على المسرح الدولى على أساس فهم غير واقعى ، وأى محاولة لتحقيق « تفوق غالب » سوف يقابل كل ذلك بعقبات من الصعب ان يتغلب عليها اكثر مما كان الحال فى اى وقت من الاوقات .

ان الامل فى القدرة على تحقيق اى مزايا عن طريق جر العالم الى سباق جديد للتسلح الاستراتيجى مسألة لا تقوم على أساس ، وبخاصة فى السبعينيات . وعلاوة على ذلك ، فهذا الاسلوب فى التصرف يحمل فى طياته عواقب مدمرة وبخاصة بالنسبة للمصالح القومية للولايات المتحدة ، ولامكانيات ارساء قواعد اقتصادها على اسس سليمة ، وحل مشكلاتها الاجتماعية الملحة فى الداخل .

لقد تغير ميزان القوى فى العالم فى الستينيات ، وسوف يحكم البدء بشن الحرب النووية من جانب أى معتدى عليه حتما بالفناء ، كما

---

(٤) السياسة الدولية ، مجلة ( ربع سنوية للعلاقات الدولية ) المجلد ٢٣ ، العدد ٣ ، ابريل ١٩٧١ ، ص ٤٤٠ ) .

فضى التوازن الاستراتيجي .منحرك ( الديناميكي ) بين الاتحـــاد السوفييتي والولايات المتحدة على كل محاولات للعودة الى سياسة استخدام الاسلحة النووية للضغط الديبلوماسى والابتزاز ، فى مهدها .

ولهذا السـبب بدأت عملية لاعـادة تشكيل المجمـوعات داخل الطبقات الحاكمة فى البلدان الرأسمالية . بالنسبة لمسألة نزع السلاح ، وقد بدأ اكثر ممثلى البورجوازية تعقلا ، عندما أدركوا مدى النتائج المفجعة التى يمكن أن تجرها الحرب النووية الحرارية فى أذيالها بالنسبة للطبقات الحاكمة فى البلدان الامبريالية ، بدأوا فى البحث عن طرق جديدة لتحقيق أهدافهم الطبقية . وفى نفس الوقت الذى لا يستبعـدون فيه الاساليب العسكرية استبعادا تاما ، فقد أخذوا يقتنعون بالتدرج بخطأ استخدام الحرب النووية كورقتهم الرابحة الاســاسية فى معارضـــة البلـــدان الاشــــتراكية .

وينعكس الموقف الجديد من مشكلة الحرب والسلام فى الكتـــابات البورجوازية فى ظهور عديد من الرسائل ومجموعات المقالات التى تعرض مفهوم « السلام القائم على الخوف والردع المتبادل » ، ومختلف المذاهب عن الرقابة على السلاح .

وفى خضم التيار الكبير من المطبوعات والكتابات التى تدور حـــول قضايا الرقابة يتمثل الاتجاه الاساسى فى علماء الاجتماع الذين يؤيدون ، الى درجة كبيرة أوضئيلة ، الاستمرار فى سباق التسلح . وهم يقدمون ، كبديل عن البرنامج السوفييتى لنزع السلاح ، خططا مختلفة للرقابة ليس لها أى علاقة على الاطلاق بنزع السلاح الحقيقى ، ولا يقصد منهـــا الا تبرير الاستمرار فى سباق التسلح ، على النحو الذى يكون عليه هـــذا السباق فى صالح الامبريالية . ففى نفس الوقت الذى يدعون فيه أن نـــزع السلاح مستحيل ، نجدهم يعترفون بأن الحرب النووية الحرارية ســتكون مفجعة بالنسبة لجميع البلدان .

واستنادا الى هذه المزاعم نجدهم ينادون بالفكرة البعيدة تمام البعـد عن المنطق والتى تذهب الى أن الحرب يمكن أن تمنع ، لا عن طريق نزع السلاح ، وانما عن طريق الاستمرار فى سباق التسلح ، مدعين أن مايتحقق من تطوير فى التكنولوجيا العسكرية ليس بالضرورة أمرا سيئا ، لان القدرة التدميرية الهائلة للاسلحة الحديثة سوف تضمن عدم استعداد أى من الطرفين للمخاطرة باشعال صدام عسكرى شامل .

وتتجلى الافكار الخاصة بالسلام من خـــلال « ميزان الرعب » أو « الردع المتبادل » فى كتابات ب . برودبى ، ون ، سنتشـــلنج ، و هـ . كيسنجر ، وم هلبرين ، وح . ستراتشى ، وهـ . بول ، وأبو نشـــان ول . هاليه ، ور . أوسجوود(٥) .

---

(٥) انظر ـ ب ـ برودبى الاستراتيجية فى عصر القـذائف ( برنكتون ١٩٥٩ ) ورت ستشلنج استراتيجية النزاع ( كمبروج ، و ن ـ ستشلنج و م هالبر ـ الاستراتيجية والرقابة

ويعتقد بعضهم أن قوة الردع النووى ينبغى تثبيتها على مستواها المرتفع العالى ، بينما ينادى بعضهم الآخر بالاستمرار فى سباق التسلح النووى على أساس أن الاسلحة القوية الجديدة « المحققة للتوازن » وتحسين أجهزة الردع سوف تعمل على تحسين الجو الدولى .

وجميع الآراء المتنوعة التى يقدمونها من أجل تنظيم سباق التسلح عن طريق الرقابة المحدودة على الاسلحة لا تقدم شيئا بالنسبة للقضاء على خطر الحرب النووية .

وتحظى هذه المواقف بدفاع العديد من المشتركين فى مجموعة المؤلفات التى تضم المقالات والخطب وغيرها من الكتابات التى دبجتها أقلام المنتسبين لعدد من مراكز الدراسة ومعاهد الابحاث(٦) ، والذين يختلفون عن الايديولوجيين المغرقين فى اليمينية فى انهم ينادون بفهم اكثر حذرا عند تفسير العواقب التى يمكن أن تجرها الحرب النووية ، ويقدرون أطار المجازفة باشعالها . وتهتم توصياتهم أساسا بالاستخدامات غير المباشرة للاسلحة الاستراتيجية . ويبدى انصار مايسمى بسباق التسلح المنظم ( أو الموضوع تحت الرقابة ) شيئا من الاهتمام بخطر المزيد من التخزين للاسلحة النووية، وكذلك بخطر نشوب حرب كبيرة عن طريق الصدفة ، فمثلا يكتب ريتشارد ب. فوستر ، مدير مركز الدراسات الاستراتيجية بمعهد ستانفورد للابحاث فيقول بأنه :

« طوال العقد القادم للاسلحة الاستراتيجية سيكون لدينا نحن والسوفييت هدف ملح واحد هو الحد من خطر نشوب الحرب النووية نتيجة لاى سبب(٧) » .

وحتى لو لم ينكر دعاوة التسلح المنظم ( او الموضوع تحت الرقابة ) جدوى المحادثات السوفييتية / الامريكية فى هذا المجال من ناحية المبدأ ، الا انهم يسعون الى الاقلال من أنواع الاسلحة التى تشملها الاتفاقية المحتملة الى الحد الادنى ، « فالتفوق الاستراتيجى » هو شاغلهم الاول . ويوافق بعضهم على وضع القيود ، وفرض الحدود ، ولكن فقط بالنسبة لبعض الاسلحة الاستراتيجية ، وعلى شرط ان تكون هناك امكانيات واسعة لتطوير الانواع الاخرى ( الاسلحة المضادة للصواريخ مثلا ) كما يسعون

---

على الاسلحة » نيويورك ١٩٦١ ، وهـ كيسنجر ضرورة الاختيار ـ مستقبل السياسة الخارجية ) ( نيويورك ١٩٦٨ ، و ج ستراتش حول منع الحرب ( لندن ١٩٦٢ ) وهـ هول ، الرقابة على سباق التسلح ( لندن ١٩٦٣ ) و أ . بونشان حلف شمال الاطلنطى فى الستينات ( نيويورك ١٩٦٠ ) وعصر القلق مقالة فى مجلة انكونتر ١٩٦٣ العددين ٦،٧ ، و ل هاليه السلام فى العالم النووى ١٩٦٤ المجلد ٦ العدد ٢ و د . أوسجود الحرب المحددة ـ موسكو ١٩٦٠ الطبعة الروسية .

(٦) حذار : لماذا يبدو المزيد من التسلح معقولا؟ تأليف و. ر. كينتنر ، نيويورك ١٩٦٩ .

(٧) المرجع السابق ، ص ٢٤٥ .

أيضا لتأمين البحث العسكرى غير المقيد ، وتطوير اجراء التجـــارب على الانواع الجديدة من المعدات الحربية .
وهناك عديد من الجوانب المشتركة بينهم وبين أنصار خطط التفوق فى التسلح « الذين ناقشنا آراءهم فيما سـبق ، وتشمل هذه الجوانب معاداة الشيوعية ، والقول بأن الاسلحة النووية تقوم بوظيفة الادارة السياسية ، والاستعداد فى ظل شروط معينة للمغامرة بشن حرب نووية ، والتركيز على اقامة ترسانة من الوسائل المتنوعة والمتعددة لشن الحرب الهجـومية . والواقع انهم يريدون أن تنتهج الولايات المتحدة سياسة تهدف الى تحقيق التفوق الاستراتيجى عن طريق الرقابة على سباق التسلح . ويعتقـــد ويليام د. كينستنر أن « أفضل تأمين للسلام ربما يكمن فى امتـــلاك قـــوة متفوقة(٨) » .

والاهمية الكبرى التى يعلقها ابطال سباق التسلح المنظم على التفوق الاستراتيجى وعلى استخدام القوة النووية لحل اهداف السياسة الخارجية هى التى تحدد فهمهم للمحادثات السوفييتية / الامريكية . ففى رأى ر. ب فوستر أن الهدف الاساسى من هذه المحادثات ليس هو التوصل الى اتفاقية حول خفض المخزون النووى ، وانما الهدف الاساسى منها هو اســتخدام وجود الاسلحة النووية كعنصر نشط فى الردع للتأثير على سلوك « الدول المتناقضة(٩) » وهو يعتقد انه من الممكن ، من ناحية المبدأ ، فرض قيـود محددة على وسائل نقل مثل هذه الاسلحة ولكنه يقترح فى نفس الوقت اقامة نظام واســـع النطاق من الدفاع المعتمد على الصـــواريخ من اجل « اعادة توطيد أركان الردع » ، وهو يقر بأن مثل هذه العملية لاعادة التوطيـــد والمفاوضات لاقامة الرقابة على التسلح « هدف واضح التناقض » .
وقد تم عرض هذا المفهوم بشكل أكثر تفصيلا على يد د . ج . برينان، الرئيس السابق لمعهد هدسون ، الذى يقترح تحديد حد أقصى للقـــوات الهجومية الاستراتيجية لكل من الولايات المتحدة الامريكيـــة والاتحـــاد السوفييتى بحيث يمتد أيضا ليشمل الانظمة التى على وشك الظهور . وفيما يتعلق بالدفاع الصاروخى ، فهو يصر على المحافظة على حرية العمـــل الكاملة . وبالرغم من ان برينان يعتقـــد انه ينبغى فرض بعض القيـــود المعينة على معدل زيادة مثل هذه المعدات الحربية فى المســـتقبل غير المحـــدد بعد ، الا انه يعتبر أن تطويرها « على نطاق ملموس » مسألة مرغـــوب فيها على أى الاحـــوال .

ويعتقد أنصار « الحد من الاسلحة » أن من الواجب تحويل الانتباه من الزيادة الكمية للاسلحة الى تطويرها الكيفى ، وانه يجب تجميد صنـــاعة بعض أنواع الصواريخ . وهم لا يريدون أن تفرض الاتفاقيات أى قيـــود على البحث العسكرى الواسع النطاق أو على تطوير وبنـــاء نظم الدفاع

---

(٨) المرجع الســـابق ، ص ٢٧ .
(٩) حذار : لماذا يبدو المزيد من التسليح معقولاً؟ ص ٢٧ .

الصاروخية ، او العمل من اجل تحسين وسائل ضبط اصابة الاهـــداف وغيرها من الوسائل الفنية والرياضية للاسلحة الاستراتيجية الهجوميـــة . ولاشك أن مثل هذا التفسير لمفهوم « الحد من الاســـلحة » يتناقض مع التزامات الولايات المتحدة التى تنص عليها معاهدة منع التخزين النووى .

ويحاول بعض خبراء الشئون السوفييتية أن يزعموا أن رأى الاتحاد السوفييتى يعادل مفاهيم « الصقور » فى الولايات المتحـــدة ، وذلك حتى يسبغوا على تفسيرهم لمفهوم « الحد من الاسلحة » نوعا من القـدرة على الاقناع ، ويمكننا أن نرى ذلك فى آخر صورة للنظرية التى تدعى أن هنـــاك « تشابها متزايدا بين النظامين » المفروض أن يعبر عن نفسه فى تطــور العمليات الاجتماعية ــ السياسية السلبية المشتركة بينهما . ويفتــرض نموذج كاهن ، على وجه الخصوص ، للتفــاعل المتبـــادل بين النظامين المتعارضين فى ظل أوضاع الحرب « البديلة » ، يفترض ايضا اتجاها يجب فيه أن تتطور العسكرية الشاملة والحد من الحــــريات الديموقـــراطية وسيكولوجية الدولة الحربية ... الخ . فى كلا المعسكرين المتعارضين .

أما « خبير الشئون السوفييتية » ر. كولكويتر فيخرج بمفهومه عن « التماثل المتزايد » بين المذاهب الاستراتيجية للاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة وسياستهما من دراسته لاتجاهات التقدم العلمى والتكنولوجى التى تمثل ، كما يقول ، ظاهرة مستقلة بذاتها ، تنتقل من قومية الى أخرى ، ومن أيديولوجية الى اخرى ، وتخلق وتفرض لوازمها الخاصة على مبنى السياسة(١١) » وعلى هذا النحو يسعى كاهن للتســـتر على الاختــلافات الجذرية القائمة بين السياسة الخارجيـــة للاتحاد الســـــوفييتى وللولايات المتحـــدة .

وينطلق المفهوم السوفييتى للعلاقات الدولية ، متميــزا عن دعاوى الردع التى تشكل الاساس النظرى للسياسة الخارجية للولايات المتحـدة ، من ضرورة نبذ التهديد باستخدام القوة او استخدامها من أجل تســـــوية القضايا محل النزاع بين الدول . وقد استكملت هذه السياســـــة بجميع الاجراءات التى اقترحها الاتحاد السوفييتى من أجل وقف سباق التسلح ، وتحقيق نزع السلاح ، وحل النزاعات الدولية بالطرق السياسية ، وتطوير التعايش السلمى والتعاون المثمر المتبادل بين الدول فى كافة المجالات ، وقد تأكد ذلك بتركيز خاص فى المؤتمر الرابع والعشرين للحزب الشيوعى للاتحاد الســــوفييتى .

وفيما يتعلق بالمفهوم السوفييتى عن الحد من التسلح ، فهو يذهب الى ان الاتفاق ينبغى أن يستند الى مبـــادىء الامن المتكافىء لاطــــراف الاتفاق ، وانه يجب الا يؤدى الى مزايا لطرف واحد ، وانه من المحتم أن يؤخذ بعين الاعتبار ، والى اقصى درجة ، الهدف الخاص بالقضاء على خطر

---

(١٠) السياسة الدولية ، الجزء ٢٣ ، العدد ٣ ، ابريل ١٩٧١ ، ص ٤٥٠ ــ ٤٥١ .

الحرب بشكل عام ، وان يكون الاتفاق متمشيا مع المصالح الحيوية لجميع شعوب العالم .

ومبدأ الامن المتبادل ، أو المتشابه ، يتعارض مع فكرة مواصلة سباق التسلح ، تلك الفكرة التى تحمل ابلغ الضرر بالامن العالمى كما أثبتت جميع التجارب . وينطلق المفهوم السوفييتى من الايمان بأن انهاء سباق التسلح ، وبخاصة سباق التسلح بالصواريخ النووية ، وهى أخطر الاسلحة على الاطلاق ، يسهل من مهمة الامن العالمى الى اقصى درجة . وقد تأكدت هذه الفكرة الاساسية فى المفهوم السوفييتى فى المؤتمر الرابع والعشرين للحزب الشيوعى للاتحاد السوفييتى الذى أوضح أن النضال من اجل وقف سباق التسلح ، سواء بالنسبة للاسلحة النووية أو التقليدية ومن أجل نزع السلاح ، بما فى ذلك نزع السلاح الشامل والكامل ، سوف يظل اتجاها من أهم الاتجاهات فى السياسة الخارجية للحزب الشيوعى للاتحاد السوفييتى والدولة السوفييتية .

وهكذا ، فالفكرة هى وقف سباق التسلح فى كافة أشكاله ، الامر الذى لا يعنى أن يتم وقف صناعة بعض الاسلحة مع التوسع فى صناعة البعض الآخر ، وينطبق ذلك بنوع خاص على الاسلحة الاستراتيجية . ومن المهم أن نلاحظ فى هذا الصدد أن الوفد السوفييتى صوت فى الدورة الخامسة والعشرين للجمعية العامة للامم المتحدة من أجل اتخاذ قرار يدعو كل الدول النووية لوقف التسلح النووى على الفور ، ووقف تطوير النظم الهجومية والدفاعية المعتمدة على الاسلحة النووية . وقد امتنعت الولايات المتحدة الامريكية عن التصويت عند طرح الاقتراح . وهذه الحقيقة هامة من أجل فهم المواقف المختلفة للدولتين بالنسبة لمشكلة الاسلحة الاستراتيجية .

وتركيز الاتحاد السوفييتى على الحد الشامل من الاسلحة لا يعنى انه يؤمن بمبدأ « كل شىء أو لا شىء » .

وقد كتبت الصحافة الامريكية فى تقاريرها ان الولايات المتحدة الامريكية لجأت الى المناورات لمنع ادراج الاسلحة الاستراتيجية الموزعة فى مواقع بالقرب من الاتحاد السوفييتى والبلدان الاشتركية الاخرى ( حاملات الطائرات والطائرات البعيدة المدى على أراضى بعض بلدان غربى أوروبا ... الخ ) فى قائمة الاسلحة الاستراتيجية التى سيتم الحد منها ، وقد أدى ذلك الى منع التوصل الى اتفاقية تشمل نظم الاسلحة النووية الهجومية كما تشمل نظم الاسلحة النووية الدفاعية لان هذا من شأنه أن يحقق مزايا عسكرية لاحد الطرفين .

وفى محاولة لتحقيق تقدم حقيقى فى المحادثات تقدم الاتحاد السوفييتى باقتراح بعقد اتفاقية محدودة فى بادىء الامر لضمان الامن المتبادل للطرفين وكان من شأن هذا الاقتراح أن يهيىء مخرجا من الطريق المسدود .

وفى شهر مايو سنة ١٩٧١ وردت التقارير بأن حكومتى الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة الامريكية قد اتفقتا على تركيز الجهود على

الاعداد لاتفاقية حول الحد من تطور نظم الشبكات الصاروخية الدفاعية ، كما اتفق ايضا على اتخاذ بعض الاجراءات الخاصة بالحد من الاسلحة الهجومية الاستراتيجية من كلا الطرفين بعد أن يتم التوقيع على الاتفاقية .

وسوف يكون لاتفاقية الحد من شبكات الصواريخ الدفاعية تأثيرها على أحد جوانب المنافسة بين الاسلحة الاستراتيجية الهجومية والدفاعية ، وهي تنتزع الاساس من تحت اقدام اولئك الذين يعتبرون اقامة شبكات الصواريخ الدفاعية جزءا لا يتجزأ من القوى الهجومية ويعقدون آمالهم على أن تزودهم هذه النظم بدفاع جدير بالثقة ضد أي ضربة مضادة اذاما قرروا شن حرب وقائية • وعندما تؤكد هذه الاتفاقية ان العدوان النووى لن يمر بدون عقاب ، وتكبح بالتالى المغامرات النووية ، فهي تدفع بأمان الجانبين نحو الامام •

والاتحاد السوفييتي لا يثير فحسب مسألة الحد من الاسلحة الاستراتيجية ، وانما هو يثير ايضا مسألة الخفض منها بعد ذلك ، مفضلا اتباع خطة لخفض جميع المخزون الاستراتيجى الى الحد الادنى المطلق ، وبحيث لا يتبقى ، وفقط للفترة الحالية ، سوى عدد ضئيل للغاية منها •

وهكذا ، فمن وجهة النظر السوفيتية ، ينبغي ان يفترض مبدأ الأمن المتكافىء ، سلفا ، عدم تثبت الوضع القائم ، وانما ينبغي ان يتضمن هذا المبدأ التوصل الى درجة اعلى من الامن المتبادل كنتيجة لخفض التسلح وبعبارة اخرى ، فالاتحاد السوفييتي ينطلق من افتراض ان التوصل الى مستوى « التدمير المؤكد » ، ناهيك عن الاحتفاظ الى الابد بالاسلحة الاستراتيجية الوافرة ، ليس هو الاساس المناسب لضمان الامن المتبادل الوطيد ، وانما هو العكس ، عامل لتهديد أمن الدول جميعا • والمفهوم السوفييتى ، اذ يرفض بحزم دعاوى نظرية الردع النووى كأساس للسلام العالمى ، فهو يوضح الطريق نحو تحقيق مستوى أعلى حقا من الامن للمشتركين فى المحادثات ولجميع البلدان الاخرى • ويمكننا التثبت من أن موقف الاتحاد السوفييتى هو موقف مبدئي وليس مجرد تنازل امام الموقف الراهن ، من الجهود المتزايدة التي يبذلها الاتحاد السوفييتى ، منذ الحرب لحظر كل وسائل الابادة الشاملة - نووية كانت أم كيميائية أم بكترولوجية ، ومن انه لا يعلق ذلك على حل المسائل الاخرى • وحتى تتفق الدول الكبرى على نزع السلاح النووى وتلتزم به ، يعتبر الاتحاد السوفييتى انه من المتعين اتخاذ الخطوات التى تفضى الى الاقلال من دور الاسلحة النووية فى العلاقات الدولية •

ويعتقد الاتحاد السوفييتى ان حظر العدوان النووى وحظر التهديد باستخدام القوة او استخدامها ينبغي ان يكون حظرا شاملا • ولهذا السبب يعرض الاتحاد السوفييتى توقيع اتفاقيات ثنائية واقليمية مشابهة مع البلدان التى تشاطره الرأى ، فتوقيع مثل هذه الاتفاقيات من شأنه أن يضعف معارضة القوى السياسية التى مازالت تبنى آمالها على قدرتها على تخويف البلدان الاخرى •

ولا يمكن وقف تطوير المزيد من الانواع الخطرة من الاسلحة الا عن طريق نزع السلاح ، وتدمير الاداة العسكرية للدول ، ووقف البحث التكنولوجى

العسكرى ، وهذا هو النهج الذى اقترحه البرنامج السوفييتى لنزع السلاح ٠

ويحاول الايديولوجيون البورجوازيون الذين يروجون لفكرة السلام القائم على « الردع النووى » ان يضعفوا من قوة جذب المقترحات السوفيتية والقاء الشكوك على امكانية وقف سباق التسلح ، وهم ينتقدون البرنامج السوفييتى من جوانب متعددة ٠

فالايديولوجيون البورجوازيون المغرقون في اليمينية يدعون أن البرنامج السوفييتى يتناقض مع الايديولوجية الشيوعية التى ينسبون اليها سمات غريبة تماما عنها لتبرير استخدام القوة فى العلاقات الدولية وسباق التسلح والحروب بين الدول ٠

وعلى اساس هذا التفسير الزائف تماما للماركسية اللينينية تستند الخرافة القائلة بالطبيعة العدوانية للاتحاد السوفييتى ، تلك الخرافة التى يستخدمها الساسة الامبرياليون لتبرير العسكرية واقامة التكتلات العسكرية ورفضهم لابرام أى اتفاقيات لنزع السلاح ٠

ويصر ابطال العسكرية على ان برنامج نزع السلاح السوفييتى ليس الا مجرد حركة من حركات الدعاية ، ومناورة دبلوماسية ماكرة ، بل وهم يذهبون الى ما هو أبعد من ذلك فيدعون ان سباق التسلح مفيد للاتحاد السوفييتى ٠

والواقع ، ان فكرة النزع الشامل والكامل للسلاح تنبع من مبادىء الاشتراكية العلمية ، ومن ثقة اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية والحركة الشيوعية العالمية فى الانتصار النهائى لافكارهما ٠ فنزع السلاح من شأنه ان يخلق انسب الشروط لاظهار واثبات مزايا النظام الاجتماعى الجديد

بالنسبة للنظام القديم ، وبطريقة عملية ، ومن شأنه ان يسرع بخطا التقدم الاجتماعى الاقتصادى للبشرية ككل ، وان يخلق الفرص المواتية لتحقيق التحولات الاجتماعية الجذرية بالطرق السلمية ٠

أما فيما يتعلق باستعداد الاتحاد السوفييتى لقبول نزع السلاح ، فهو يتحدد بعدم وجود أى طبقات اجتماعية او جماعات فى البلاد لها مصلحة معينة في الحرب والبرامج العسكرية ، وبالايمان بأن نزع السلاح سوف يمكن البلاد من اتمام بناء الشيوعية على نحو اكثر سرعة ٠

وليست الاتهامات الموجهة الى الاتحاد السوفييتى « بعدم الاخلاص » و « عدم الاستعداد » لنزع سلاحه الا ستارا للدخان يطلق لاخفاء المخاوف والشكوك المسيطرة على ايديولوجيي الرأسمالية بالنسبة لقدرة النظام الرأسمالى على منافسة الاشتراكية على أسس سلمية فى عالم منزوع السلاح ٠

وعندما يقدم علماء الاجتماع البورجوازيون افكارا رجعية ، فهم يكشفون ، وبطريقة يخونها الذكاء ، فى اغلب الاحيان ، عن الجوهر العسكرى للامبريالية ٠ فكل هذه التصريحات ليست سوى اضافة الى الحقيقة الثابتة

والتى توضح ان الامبريالية تحتاج الى أداة عسكرية هائلة والى سباق للتسلح ، والى النزعات العسكرية العالمية لضمان وجودها ذاته ، وحتى تدعم اقتصادها وتقهر النضال الثورى للجماهير وحركة التحرر الوطنى ، وحتى تفرض ارادتها على الشعوب الاخرى ٠

وفى السنوات القليلة الماضية كانت هناك بوادر تشير الى ان اتجاها واضحا بين الباحثين الغربيين يسعى للتوصل الى مخرج من دائرة الخطر فى اتجاه الحد من سباق التسلح والتحرك فى خطوات نحو نزع السلاح ٠

وقد عرضت بعض الاجراءات البناءة نحو التقدم ونزع السلاح كاقتراحات من جانب ل ٠ بولينج ، وك ٠ س ٠ س ٠ رايت ، ود ٠ فلمنج ، وأ ٠ اتزيونى ، وس ٠ ملمان ، وم ٠ أ ٠ هوروويتز ، وف ٠ باد ، وعديد غيرهم من الباحثين فى العالم الرأسمالى ٠

كما عرضت عدة اقتراحات حول وسائل الحد من تضخم التسلح من جانب خبراء معروفين آخرين ، تعكس مصالح الفئات المتوسطة ، وفى رأيهم ان استمرار المنافسة فى انتاج وتطوير الاسلحة الاستراتيجية سوف يزيد الى درجة كبيرة من المخاطرة بنشوب الحرب النووية ، ويزيد من حدة الاتجاه نحو النزعة المغامرة النووية ، ويتصاعد بالانفاق العسكرى ٠ ويزيد من صعوبة حل المشكلات الاجتماعية ـ الاقتصادية الداخلية ٠

وقد أدرك المتعقلون فى الولايات المتحدة الامريكية ، بما فى ذلك بعض من احتلوا مراكز اساسية فى حكومات أيزنهاور وكيندى وجونسون هذه الحقيقة ٠ فهربرن يورك ، المدير السابق لمكتب ابحاث الدفاع والهندسة التابع لوزارة الدفاع يقول مثلا انه فى السنوات العشرين الماضية « اقترنت القوة العسكرية الدائمة التزايد بأمن قومى دائم التدهور » وهو يعتقد ان « الورطة لا يمكن الخروج منها بتطوير وحشد الآلات التى تزداد تعقيدا ، وتزداد نفقاتها كل يوم » (١١) ٠

وعلى أى الاحوال ، فالفكر الاجتماعى البورجوازى تسيطر عليه مفاهيم نبرر وتمجد سباق التسلح ، وتعتبره جانبا هاما و « طبيعيا » فى العلاقات الدولية ، كما تعتبر الحروب ، واستخدام التهديد باستعمال القوة أداة ضرورية ومسموحا بها من أجل تحقيق الاهداف السياسية ٠

ومن الواضح ان عدم استناد المفاهيم التى تبرر سباق التسلح الى أى اساس ، مسألة ليست فى حاجة الى دليل ، بطبيعتها نفسها ، ومع ذلك ، فهناك من يتقدمون بمثل هذه المفاهيم بمنتهى الجدية ٠ وهؤلاء القوم خطرون بشكل خاص لانهم يتمتعون بمساندة اكثر الدوائر السياسية والعسكرية قوة

---

(١١) هربرت يورك ، سباق نحو الغفلة ، رأى شريك فى سباق التسلح نيويورك ، ١٩٧٠ ، ص ٢٣ ٠

في البلدان الامبريالية ، تلك الدوائر المستعدة لتطبيق سياستها المغامرة في الشئون الدولية .

ويريد انصار العسكرية من الشعوب ان تعتاد سـباق التسلح وان تتوقع استمرار الاعداد الذى لا ينتهى للحرب ، وان تعتاد نهائيا على أن الحروب التى يخطط لها التجمع العسكرى الصناعى حروب لا يمكن تجنبها .

ولا شـك ان فضـح « المنظرين » الذين ينادون بالحرب ، والابتزاز النووى ، وسباق التسلح ، واجب هام في النضال ضد خطر الحرب .

# الفصل العشرون

# حركة السلام والإنسانية الاشتراكية

يمثل الموقف من مشكلة الحرب والسلام اليوم معيارا من معايير الانسانية ، وهذا أمر مفهوم فى عصر أدى فيه التقدم التكنولوجي الهائل ، وانتاج الاسلحة ذات القدرة التدميرية التى لم تعرف من قبل ، الى قيام موقف يمكن للحرب العالمية فيه ان تحمل معها معاناة وتخريبا لم يسبق لهما مثيل ٠ وحتى تلك المجموعة من علماء الاجتماع البورجوازيين الذين اختاروا فيما مضى الاصرار على ان الحرب حتمية ، بل وربما كانت مفيدة ، بدأوا اليوم فى الاعتراف بذلك ، وفى حالات تتزايد يوما بعد يوم ٠

وبالرغم من ان شعوب العالم تواقة الى منع حرب مفجعة ٠ الا ان مشكلات المحافظة على السلام مازالت ابعد ما تكون عن الحل ٠ فخطر الحرب مازال قائما لان الامبرياليين ، وبخاصة الامبرياليين فى الولايات المتحدة ، مازالوا يمارسون الاعمال العدوانية فى اجزاء مختلفة من العالم ، ويوسعون بالتدريج من مسرح عملياتهم العسكرية ٠ وفى نفس الوقت الذى يرتكبون فيه جرائم وفظائع لا حصر لها فى الاراضى التى احتلوها ، يعلن المعتدون بأعلى صوت ان الهدف الاساسى من سياستهم انما هو السلام ٠ ويدعى عديد من الايديولوجيين البورجوازيين ، من مختلف الاراء ، انهم يدافعون عن افكار السلام والانسانية وحقوق الفرد ٠

ولذلك فمن اعظم الامور اهمية بالنسبة للانسانية ان تضع خطا فاصلا واضحا بين الانسانيين بالاقوال والانسانيين بالافعال ، وهذا أمر ضرورى من أجل تأمين وحدة وتضامن الجيش الكبير لانصار السلام الذى تقف شعوب الاتحاد السوفييتى والبلدان الاشتراكية الاخرى فى مقدمته ، ومن اجل عزل الايديولوجيين الامبرياليين والشخصيات العامة التى تستغل الوعى السياسى المتخلف لبعض فئات المجتمع البورجوازى ٠

ويتشكل موقف الانسانيين الحقيقيين من مشكلات الحرب والسلام على اساس دراسة العمليات الاجتماعية كما توجد حقا في واقع الحياة ، وعلى اساس علاقات القوى القائمة بالفعل ٠ والنوايا الحسنة لا تكفى ٠ فما الاتجاهات الحقيقية للتطور الاجتماعى اليوم ؟ وهل تجعل الظروف القائمة من النزاع

النووى بين النظامين الاجتماعيين مسألة حتمية ؟ هذا هو السؤال الذى لا يمكن لأى عالم اجتماع يدرس مشكلات الحرب والسلام ان يتجنبه ، والاجابة عليه ترتبط بالطرق والوسائل التى توضع بها الافكار الانسانية فى التطبيق العملى • ولا يمكن لاى شخص يرقب الاحداث الدولية عن كثب ان يعجز عن ملاحظة ان النزاع لا يقوم بين سياستين خارجيتين متعارضتين فى الاساس ، وانما يقوم النزاع بين ايديولوجيتين هما الايديولوجية الاشتراكية ، والبورجوازية • فمهما كان الموضوع ، وسواء كان هو القضاء على خطر الحرب العالمية الثالثة ، أو دعم الامن الدولى ، او النزع التدريجى للسلاح ، أو تطوير التجارة الدولية ، فالاتحاد السوفييتى والبلدان الاشتراكية الاخرى هى صاحبة المبادرة ، وباستمرار ، فى مجال السياسة السلامية الحقة ، تلك السياسة التى تبرهن على الجوهة الانسانى للاشتراكية •

وحقيقة الامر ان الانسانية تعنى جعل الناس ورفاهيتهم وكرامتهم هى الشاغل الاول للمرء ، وهدف الشخص الانسانى هو ان يحرر الانسان من القوى المعادية والدفاع عن حقه فى السعادة • والانسانية تتجلى فى اشكال عدة ، فهناك انسانية حقة وهناك انسانية زائفة ، وهناك انسانية نشطة وهناك انسانية سلبية •• وأغلبية الفلاسفة البورجوازيين انسانيون تجريديون ، يخدمون حقوق الفرد بالاقوال فحسب ، وهدفهم ليس هو التحرر الحقيقى للجماهير ، وانما مجرد الحرية الثقافية ، تلك الحرية الوهمية التى تعتبر نفسها ، كما قال ماركس ، حرة حتى ولو كانت مصفدة بالاغلال • ولم يكن من قبيل الصدفة ان يكرس مؤسسا الماركسية كتابا من باكورة مؤلفاتهما لفضح الانسانية العقيمة المجردة للهيجليين الجدد الذين « انتقدوا كل شىء » ولكنهم لم يفعلوا شيئا فى الواقع لمعارضة الشرور القائمة ، ومن ثم كانوا محافظين فى حقيقة الامر ، بالرغم من جميع عباراتهم « التى تهز العالم » •

وقد اطلق ماركس وانجلز على الشيوعية تسمية الانسانية الحقة ، ولم يناديا بالمبادىء الانسانية فحسب ، وانما ربطا التحقيق العملى لها بالنضال ضد السياسة غير الانسانية للطبقات المستغلة ، وبالتحولات الثورية فى المجتمع • لقد وجدا فى المجتمع نفسه ، فى البروليتاريا ، القوة التى ألقى التاريخ على عاتقها رسالة انسانية عظمى •

وكما اوضح ماركس وانجلز ، فالبروليتاريا ليست فى حاجة الى « العطف » المنافق والمفكر لذاته من جانب البورجوازية الصغيرة ، ولا الى الشفقة المنزهة عن الغرض • والانسانية الاشتراكية المتضمنة فى الماركسية – ايديولوجية البروليتاريا – لا تطالب بوهم السعادة ، وانما تطالب بالسعادة الحقيقية ، لا تطالب بالسعادة التى تتلقاها كهبة « من أعلى » ،وانما تطالب بالسعادة التى يتم كسبها من خلال جهود اكثر الطبقات تقدمية فى التاريخ ، ومن خلال جهود سائر الجماهير العاملة • وهذا العنصر الثورى النشط فى الانسانية الاشتراكية له اكثر من سمة ، انه تعبير عن جوهرها نفسه ، وهو الذى يجعلها اكثر تقدما من أى مفهوم تقدمى سابق عن الانسان •

والماركسية تتخذ موقفا جديدا من المشكلات الازلية للانسان والشخصية الانسانية ، وهي تنظر اليها غير منفصلة عن المشكلات الاجتماعية بما في ذلك المشكلات ذات الطابع العالمي ٠

والماركسية تتضمن توق الانسانية الى عالم بلا حروب ٠ وعند تحديد معالم الطريق التي ينبغي ان يشن عليها النضال من اجل الاخوة العالمية الحقة ، اوضح ماركس وانجلز ان المثل الاعلى للسلام لا يمكن ان يتحقق في ظل نير الرأسمالية ، ولكنه سينتصر على وجه التأكيد في المجتمع الشيوعي في المستقبل ٠ وقد اعلن النداء الاول عن الحرب الفرنسية ـ البروسية الصادر عن المجلس العام للدولية الاولى ، والذي حمل توقيع ماركس انه « في مواجهة المجتمع القديم ، بشقائه الاقتصادي وجنونه السياسي ، ينبثق مجتمع جديد ، ستكون قاعدته الدولية هي السلام ، لان الحاكم القومي فيه سيكون هو نفسه في كل مكان ـ العمل » (١) ٠

وقد فتحت ثورة اكتوبر فصلا جديدا في تاريخ البشرية ، وقربت من اليوم الذي سيتحول فيه حلم الانسانية عبر العصور بالسلام الابدي الى حقيقة واقعة ٠ لقد جاءت بالاشتراكية ، التي يتعارض السعي الحثيث وراء التوسع واستعباد الشعوب تعارضا تاما معها ، والتي توحد ، على العكس من ذلك ، جميع الشعوب في اسرة كبيرة واحدة ٠

وناضل لينين بعناد ضد الحروب التي تشنها الامبريالية ، وأكد ان الشيوعيين لا يعتبرون من الحروب ما هو عادل الا الحروب التي تخوضها الطبقات المقهور ضد القاهرين ، والحروب التي تخوضها الشعوب من أجل كسب حريتها واستقلالها ، والحروب التي تشن دفاعا عن الاشتراكية بعد ان تنتصر الثورة ٠ « ومع ذلك ، فسياستنا ودعايتنا كلهما تتجهان نحو وضع حد للحرب ، ولا تتجهان بأي حال من الاحوال نحو دفع الامم الى الحرب » (٢)

وقد دافعت الدولة السوفيتية والبلدان الاشتراكية الاخرى عن مكاسبها الثورية بالنضال البطولي والعمل المتفاني ، كما تجبر منجزاتها ، بالتدريج ، بعض المجموعات البورجوازية على اعتبار سياسة التعايش السلمي ضرورة تاريخية ٠ وتوضح تجربة ما يزيد على الخمسين سنة من وجود الدولة السوفيتية ، وبما لا يدع مجالا للشك ، ان سياسة السلام ، التي تلتقي مع المصالح الحيوية للبشرية ، والتي تنبثق كلية من تحليل لينين لافاق التطور الاشتراكي العالمي ، هي اكثر السياسات تعقلا وواقعية ٠

وكان لينين مقتنعا اقتناعا راسخا بأن الاشتراكية ستنتصر على الرأسمالية عن طريق المنافسة الاقتصادية وليس عن طريق الحرب ، عن طريق تحقيق اعلى انتاجية للعمل في العالم ، والتأثير على مجرى التاريخ العالمي

---

(١) المجلس العام للدولية ـ ١٨٧٠ ـ ١٨٧١ ـ السجلات موسكو ، ١٩٧٠ ص ٣٢٨ ٠

(٢) ف ـ ١٠ ـ لينين مجموعة الاعمال الجزء ٠ ص ٤٧٠

بانجازاتها الاقتصادية · ويسرى ايمان لينين فى قوة الاشتراكية فى كافة اوجه نشاط الحزب الشيوعى للاتحاد السوفييتى والحكومة السوفيتية · وقد قدم الحزب الشيوعى للاتحاد السوفييتى بالتفصيل حججا مقنعة مستندة الى اساس من الحقائق التى لا يمكن دحضها والتى تؤكد انه فى العصر الراهن ، والذى يتميز بالتفوق المتناهى لقوى السلام والاشتراكية على قوة الامبريالية والحرب ، هناك - فى هذا العصر - فرصة حقيقية للقضاء على الحرب ، وقد تبلور هذا الاستنتاج فى قرارات الاجتماع العالمى للاحزاب الشيوعية والعمالية المنعقد فى موسكو ، وفى برنامج الحزب الشيوعى السوفييتى · لقد تمت تصفية عديد من المنازعات التى كانت تنذر بأوخم العواقب عن طريق جهود انصار السلام الذين يستندون الى تأييد وقوة النظام الاشتراكى العالمى ، كما تتقدم حركة الاحتجاج ضد العدوان الامريكى فى الهند الصينية والعدوان الاسرائيلى فى الشرق الاوسط بخطا بالغة السرعة ·

والجماهير تدرك اليوم بالتدريج ان الحرب ليست حتمية ، وان نجاح الحركة من اجل السلام يعتمد على جهودها هى ، وعلى وحدة وتضامن وتنظيم الجيش الكبير للسلام · وقد اصبح للنضال من اجل تحقيق المثل الانسانية العليا ، والتى اعتبرت فى وقت من الاوقات اسمى المهام امام الاخلاقيين والمفكرين ، اساس راسخ اليوم : فالانسانية تتحول الى قوة مؤثرة عندما تعتمد على نضال الجماهير من اجل مستقبلها ·

وتتطلب الماركسية - اللينينية وعيا متعقلا واقعيا بالاشياء كما هى فى الواقع ، وفهما سليما لعلاقات القوى فى المجال الدولى · والاحزاب الشيوعية لا يمكنها ان تستبعد امكانية نشوب الحرب العالمية اذا فشلت الجماهير فى كبح جماح الامبرياليين اصحاب المصلحة المقررة فيها · ولهذا السبب يعتبر الماركسيون - اللينينيون مسألة دعم قوة النظام الاشتراكى العالمى ، بما فى ذلك قوته العسكرية ، افضل طريق لضمان السلام العالمى · كما يمثل العمل اليومى الخلاق للشعوب فى البلدان الاشتراكية بدوره ايضا اسهاما فعالا فى قضية السلام العالمى ·

وعلى هذا النحو فالانسانية الاشتراكية ترتبط ارتباطا لا انفصام له بالاممية والوطنية البروليتارية ·

ويتهم الايديولوجيون البورجوازيون الشيوعيين ، فى محاولة لتشويه أهداف الاحزاب الشيوعية وأساليب نضالها ، يتهمونهم بأنهم يتوقون الى الدمار الشامل .

والواقع أن الانسانية الاشتراكية ترفض الفكرة القائلة بأن الانسان لابد أن يتحمل مشاق لا حدود لها من أجل تحقيق الشيوعية . وقد جعل الماركسيون - اللينينيون هدفا لهم على الدوام أن يجنبوا الشعب أى متاعب لا داعى لها . وكان الشيوعيون يعارضون باستمرار ، وبصراحة ، النزعة المكيافيلية فى السياسة ، ويرفضون القاعدة التى يسير عليها الجزويت والتى تقول بأن «الغاية تبرر الواسطة» . لقد رفض الشيوعيون دائما وأبدا القسوة الهوجاء والاعمال غير الانسانية ، وهم لا يفرقون بين الغايات والوسائل ،

وانما ينظرون اليهما كأطراف لا انفصال بينها لشيء واحد . وكما كتب ماركس « فالهدف الذى يتضمن وسائل غير عادلة ليس بالهدف العادل » . (٣)

والتعايش السلمى شكل من أشكال الصراع الطبقى يجعل فى مقدور شعوب البلدان الاشتراكية أن تحول النزاع مع الرأسمالية الى مجالات يمكن أن تستفيد منها البشرية . وموقف البلدان الاشتراكية ليس هو بأى حال من الاحوال « السلام بأى ثمن » ، وانما هو الثقة فى المجتمع الجديد وفى قوته وحيويته ، والنضال الذى لا يتوقف ضد الرجعية والعدوان .

والطبيعة الانسانية للشيوعية هى التى تجعل منها المثل الاعلى التى هى عليه .. « فالايديولوجية الشيوعية ..... هى أكثر الايديولوجيات انسانية . ومثلها العليا هى اقامة علاقات انسانية حقيقية بين الافراد والشعوب ، وتخليص البشرية من التهديد بحروب الابادة ، وتحقيق السلام الشامل ، والحياة الحرة والسعيدة لكل البشر على الارض » . (٤)

والاشتراكية ، كنظام أكثر تقدما ، تنفى الرأسمالية . ولكنها لا تمثل نفيا مباشرا بل نفيا جدليا للرأسمالية ، محتفظة بالسمات الايجابية للرأسمالية فالرأسمالية ليست فقط نظاما اجتماعيا قبيحا عفى عليه الدهر واستنفد أغراضه ، وانما هى مستوى من تطور القوى الانتاجية ، وهو تطور رفيع فى عديد من الاحوال ، انها قيم مادية وروحية خلقتها أجيال عديدة من الجماهير العاملة ، والاشتراكية تحمل فى حناياها احتراما عظيما للقيم المادية التى خلقتها الجماهير العاملة . ولاشك فى أن الفكرة القائلة بأن ثمار هذا العمل ينبغى أن تدمر فى مذبحة الحرب النووية هى فكرة كريهة بالنسبة للانسان العامل .

ويستتبع التناقض بين النظامين الرأسمالى والاشتراكى أشكالا معينة من الصراع بينهما ، يمكن أن تكون سلمية أو غير سلمية . ويوضح تاريخ أول دولة اشتراكية فى العالم أن الدول الامبريالية تعمد الى الحرب كوسيلة لحل التناقضات الاساسية بين النظامين ، بينما ظلت الدول الاشتراكية مخلصة لمبدأ لينين عن التعايش السلمى بين الدول ذات النظم الاجتماعية المختلفة ، ودون ان تقع فى اى خطأ .

ويبذل الباحثون البورجوازيون قصارى جهودهم من أجل أن يتستروا على هذا الجانب من الموضوع ، وهم يفعلون ذلك فى أغلب الاحيان بالاشارة الى آراء لينين عن حتمية الصراع الطبقى بين البروليتاريا والبورجوازية على المستوى العالمى ، والذى ينتهى بالانتصار الكامل للطبقة العاملة . مهما كان الامر ، فمحتوى الصراع الطبقى للبروليتاريا بعد ان تنتصر على البورجوازية فى بلادها يختلف اختلافا كبيرا عن الصراع الطبقى للبروليتاريا

---

(٣) ك ــ ماركس ــ ف انجلز ، المؤلفات ــ الجزء الاول .

(٤) برنامج الحزب الشيوعى للاتحاد السوفيتى ــ ص ١٠٢ ، ١١٣

فى البلدان التى مازالت البورجوازية تمسك فيها بزمام السلطة .. وقضية القضاء على الرأسمالية فى بلد معين هى بالضرورة قضية التغلب على التناقضات المتوارثة بين القوى الاجتماعية المتعارضة . وتقع مهمة الاطاحة بالنظام الاجتماعى غير العادل ، من وجهة نظر البروليتاريا فى بلد معين ، وبشكل كامل وصريح ، على عاتق البروليتاريا فى ذلك البلد .

والبلدان الاشتراكية ليست لديها اية نية لتصدير الثورة ، لان الثورة لابد أن تتحقق كنتيجة لتفاقم التناقضات الطبقية داخل البلدالمحدد . وقد أعلن لينين عن معارضته الكاملة « لدفع » الثورة على أساس ان هذا الدفع « يتعارض تماما مع الماركسية » . (٥)

وهذا لا يعنى ، بالطبع ، أن شعوب البلدان الاشتراكية تقف موقف اللامبالاة من النضال الثورى فى الخارج ، وانما هى تؤيد ، اخلاصا لقضية الاممية البروليتارية الحركة العمالية وحركة التحرر الوطنى فى جميع أنحاء العالم ، وتعارض بحزم جهود الدول الامبريالية لتصدير الثورة المضادة . كما ان القوة الاقتصادية المتنامية للنظام الاشتراكى ، وخلق ظروف اكثر ملاءمة فى العالم للنضال الثورى للبروليتاريا ، وقوة المثال عن التحويل الثورى للمجتمع ، كل هذه العوامل لها أهميتها العظمى فىحفز النضال ضد الامبريالية وهكذا ، فعند تأييدها للسلام والتعايش السلمى ، فالشيوعيون لا يتخلون بأى حال من الاحوال عن واجبهم الطبقى .

ويدعى البعض أن الانسانية شعار بورجوازى ، وليس اشتراكيا ، وان الشيوعيين عندما يأخذون به فهم يقدمون تنازلا للايديولوجية البورجوازية .. ولا يمكن أن يكون هناك ما هو أبعد عن الحقيقة من ذلك .. فان كانت البورجوازية قد نادت فى وقت من الاوقات بالانسانية والحرية والاخاء ، فهذا لا يعنى أن هذه الشعارات تتفق مع مصالح البورجوازية الامبريالية الحديثة ، فقد خانت هذه الاخيرة منذ وقت طويل ، المثل العليا التى نادت بها وطبقتها فى يوم من الايام ، وانتقلت راية النضال من أجل الحرية والتقدم لترتفع عاليا على يد الشيوعيينوالجماهير العاملة .

والانسانية الاشتراكية تنبثق من المصالح الطبقية للبروليتاريا ، ومع ذلك وفى نفس الوقت ، فهى تدافع عن مصالح البشرية ككل . وليس هناك اى تناقضات فى ذلك ، فالمثل العليا العامة للانسانية تتجسد اليوم فى المثل العليا الشيوعية .

والبروليتاريا هى الطبقة الوحيدة فى التاريخ التى تلتقى مصالحها ، بجوهرها الموضوعى ، مع مصالح البشرية التقدمية بأسرها . فالقضاء على جميع الاسباب الاجتماعية والقومية للحروب بين الشعوب ، وعلى القهر والعنف الامبريالى ، يرتبط قبل أى شىء بنشاط البروليتاريا ، وهذا هو

(٥) ف ـ ا ـ لينين ـ مجموعة الاعمال ، الجزء ٢٧ ، ص ٧١

السبب الذى دفع مؤسسى الماركسية الى اعتبار تطـــور الحركة العمالية ونجاحاتها شرطا للتقدم الاجتماعى . وهكذا ، خاطب انجلز العمال الانجليز على النحو الآتى : « لقد وجدت أنكم أكثر من مجرد رجال انجليز ، أعضاء فى أمة واحدة منعزلة . لقد وجدتكم رجالا ، أعضـــاء فى أسرة عالمية كبيرة للبشرية ، يعرفون أن مصالحهم ومصالح الجنس البشرى كله هى مصـــالح واحدة . وعلى هذا النحو ، وكأعضاء فى هـــذه الاسرة ، « الواحدة التى لا تتجزأ » ، وكبشر ، بأكثر معانى هذه الكلمة دقة ، على هذا النحو ، فأنـــا وعديد آخر فى القارة ، نحيى تقدمكم فى جميع الاتجاهات ونتمنى لكم النجـــاح السريع .. ان نجاحكم مؤكد ، ولن تضيع اى خطوة تخطونها الى الامام مـــن أجل قضيتنا المشتركة ، قضية الانسانية » . (٦)

واليوم ، وعندما مازادت قوة البروليتاريا العـــالمية بدرجة تخطت كل المقاييس ، ومع ظهور نتاجها ، وهو النظام الاشتراكى العالمى ، يمكننـــا أن نقول بدون تردد أن مستقبل البشرية يعتمد قبل أى شىء على نشاط واقدام وتضامن الجماهير العاملة .. ان المهمة التاريخية للبروليتاريا هى أن تقضى على الطبقات المستغلة ، وأن تكف هى نفسها فى نفس الوقت عن الوجـــود كطبقة ، وأن تندمج مع الجماهير العاملة كلها لتكون مجتمعا بلا طبقات تتلاقى فيه مصالح البروليتاريا ومصالح الفئات الاخرى لتتحول الى مصالح عامة . وفى النضال ضد الحرب النووية الحرارية ، فالشيوعيون هم رسل الحضارة التقدمية وحملة لوائها . ويجب ان تركز على ذلك ونؤكده على ضوء الاهميـــة القصوى التى يعلقها الشيوعيون على المحافظة على القوى الانتاجية الاساسية وهى الشعب الذى يخلق القيم المادية والثقافية .

والانسانية الاشتراكيةـــ انسانية مناضلة بالضرورة ، طالما أنها لاتقدم أى تنازل لاى شكل من أشكال الاستغلال أو العنف ، وطالما أنها تقاتل القوى التى تسعى الى الحرب ، والتوسع الاستعمارى ، واستعباد الشعوب .. والحزب الشيوعى للاتحاد السوفييتى يهاجم بكل اقتناع وبلا تحفظ ، الاتجاهات التواكلية ، ويدرب الشعب السوفييتى باســـــتمرار حتى يكون على أهبة الاستعداد على الدوام لحمل السلاح حيثمـــا لزم الامر للدفاع عن مكاسب الاشتراكية . وعلاوة على ذلك ، فيجب أن نلاحظ أنه اذا أقدمت الامبريالية على اشعال نيران الحرب العالمية ، فسوف تبـــذل البروليتاريا العالمية ، والمعسكر الاشتراكى العالمى ، قصارى جهودهما حتى يتم التخلص من نظـام الامبريالية برمته .

ومع ذلك فالطبيعة النضالية للانسانية الاشتراكية لاتعنى ان شـــعوب البلدان الاشتراكية يتم تشجيعها على تهديد أى انسان ، بل على العكس من ذلك ، فالشيوعيون يعملون فى صالح السلام العالمى والتقدم الاجتماعى .
وقد قدم المؤتمر العالمى للاحزاب الشيوعية والعمالية « موســـكو

---

(٦) ك ـ ماركس و ف ـ انجلز ، عن بريطانيا ، ص ٣٣٧ ـ ٣٣٨

١٩٦٦ » برنامجا شاملا لتأمين السلام والامن الدوليين ، من شأنه اذا ما طبق أن يكون في صالح الشعوب كافة . والنقط الاساسية في هذا البرنامج هي : انهاء العدوان الامبريالي في الهند الصينية ، وازالة آثار العدوان الاسرائيلي في الشرق الاوسط ، والنضال من أجل القضاء الكامل على الاستعمار والاستعمار الجديد والعنصرية ، ومن أجل تخفيف حدة التوتر الدولي وتسوية القضايا الدولية الهامة عن طريق المحادثات ، ومن أجل وضع حد لسباق التسلح ، واقامة نظام فعال للامن الجماعي .

والانسانية الماركسية ـ اللينينية تتضمن التأكيد النشط للحياة ، والنضال من أجل تغيير العالم على أساس من المبادىء الثورية . وقد كتبت ن . ك . كروبسكايا تتحدث عن لينين فقالت : « انه لم يكن ناسكا » ولكنه « أحب الحياة في كل جمالها المتعدد الجوانب ، أحب رفاقه ، وأحب شعبه ، والجميع يعرفون بساطته ، ومرحه ، وضحكه الذي يسري الى الآخرين ، ولكن كل شيء فيه كان يخضع لشيء واحد ـ للنضال من أجل الحياة المضيئة المشرقة ، الموفقة ، الزاخرة ، والسعيدة للجميع ، ولقد كانت النجاحات في هذا النضال هي التي تجعله سعيدا أكثر من أي شيء آخر » . (٧)

وتستمد الانسانية الاشتراكية حيويتها من استنادها على فهم واضح لمستقبل التطور الاجتماعي ، وعلى الثقة في انتصار المثل العليا الشيوعية ، وبأنها تتضمن ، في جوهرها ذاته ، الجهود العملية للجماهير العاملة والموجهة نحو القضاء على القوى التي تعاديها ، ودفع قضية السلام الى الامام .
وكما حدد لينين الامر ... « فنحن متفائلون متحمسون في كل ما يتعلق بحركة الطبقة العاملة وأهدافها . لقد وضعنا بالفعل الاساس لصرح جديد ، وسوف يكمل أبناؤنا بناء هذا الصرح » . (٨)
والايديولوجية الشيوعية ، عندما تلهم انصار السلام الثقة في قوتهم الذاتية ، فهي تعطي معنى لنشاط كل عضو في الحركة من أجل السلام العالمي والصداقة العالمية .. وادراك الارتباط بين العمل والنضال اليومي والمستقبل المشرق للانسانية كلها يزيد على الفور من نشاط وجهد جميع أولئك الذين يناضلون من أجل التقدم ، ويساعدهم على تخطي العقبات المتعددة التي يتصدون لها على الطريق .

والنضال الذي يشنه الماركسيون اللينينيون على الجبهة الايديولوجية هو نضال الانسانية الاشتراكية ضد الظلام ، هو نضال الحقيقة ضد زيف البورجوازية . وهذا النضال لا يهدف الا الى المساعدة على تحسين الموقف الدولي ، رغم أن بعض الكتاب والناشرين البورجوازيين يحاولون اثبات عكس ذلك . فمثلا ، يدعي عالم الاجتماع الفرنسي دايموند أرون أنه استنادا

---

(٧) ن ـ ك ـ كروبسكايا عن لينين ، مجموعة المقالات ـ موسكو ١٩٨ ص ٢٢٩١ الطبعة الروسية .

(٨) رايموند أرون تناقضات التعايش السلمي « الفيجارو » ٢٩ أغسطس ١٩٦٣ ص ١

الى منطق التعايش السلمى الذى يؤمن به الشيوعيون ، فلابد عليهم ان يعترفوا بضرورة السلام الايديولوجي ·· وعديد من الايديولوجيين البورجوازيين يشوهون الصراع الذى يشنه الماركسيون على الجبهة الايديولوجية بتصويرهم الصراع الايديولوجي بأنه نوع من الحرب الباردة .

وعلى أى الاحوال ، فحقيقة الامر أن الصراع الايديولوجي والحرب الباردة مفهومان مختلفان تمام الاختلاف . فالحرب الباردة فى المجال الايديولوجي ، والتى تؤيدها القوى المعادية للشيوعية فى مختلف أنحاء العالم ، ليست الا حملة مشينة يقصد بها قلب النظام الاشتراكى واصابة الجماهير بالتحلل من أجل تسهيل مهمة الاعمال المغامرة للامبرياليين والنضال ضد الايديولوجية البورجوازية ، من الناحية الاخرى ، هو النضال من أجل اثبات مزايا الاشتراكية وتفوقها على الراسمالية على أساس من الحقائق والتحليل العلمى الصارم ، وفضح خرافات معاداة الشيوعية ، وتأكيد الحقيقة وتوحيد الجماهير للنضال من أجل المثل العليا الوضاءة للبشرية .

والواقع أن أنصار « التعايش الايديولوجى » للبورجوازيين يخلطون بين مسألتين : بين مسألة العلاقات الطبيعية بين البلدان ذات النظم الاجتماعية المختلفة ، ومسألة عدم التصالح بين النظرات البورجوازية والشيوعية .. وقد أوضح التعاون السوفييتي مع بلدان مثل افغانستان ، وفنلندا ، والهند ، أن العلاقات بين الدول يمكن أن تتطور بنجاح بالرغم من الخلافات الايديولوجية الاساسية .

أما فيما يتعلق باقامة « هدنة أيديولوجية » ، أو كما يقول عالم الاجتماع الامريكى أ · مابر ، ابرام « صلح وستفاليا من نوع جديد ، فهى محاولات لايمكن أن تنتهى الا الى لا شىء . فالراسمالية وأيديولوجيوها لن يصلوا الى « هدنة أيديولوجية مع العالم الاشتراكى لسبب بسيط وهو أن الايديولوجية الشيوعية والايديولوجية الرأسمالية متعارضتان ولا يمكن التوفيق بينهما من كافة الوجوه . فالافكار الماركسية مشبعة بالنضال من أجل مستقبل أفضل ، وقد أنتشرت فى جميع أنحاء العالم واثبتت بالفعل تفوقها على الايديولوجية البورجوازية ، وهذا هو ما يقلق أولئك الذين يتمسكون بالافكار الرجعية أكثر من أى شىء آخر . ومن الطبيعى أن يستمر الصراع الايديولوجي حتى النصر النهائى للايديولوجية الشيوعية ، أكثر الايديولوجيات تقدمية ، على الايديولوجية البورجوازية .

ويطالب بعض الايديولوجيين البورجوازيين ، فى نفس الوقت الذى يتظاهرون فيه بالموافقة على سياسة للتعايش السلمى ، بتخلى الشيوعيين عن الماركسية ، بل ويحاولون فى بعض الاحيان أن يوجهوا حديثهم الى البلدان الاشتراكية فى صورة الانذار . ومع ذلك ، فالمفهوم الماركسى ــ اللينينى عن

التعايش السلمي يعنى الرغبة فى شن الصراع الطبقى الحتمي بين النظامين فى مجالات مثل الاقتصاد والايديولوجية بما يتفق مع مبـــادىء الانسانية ... فالماركسيون يؤمنون بآراء واقعية ، ولا يتوقعون أن تتخلى الصفوة الحاكمة فى البلدان الرأسمالية عن ايديولوجيتها البورجوازية . ولا يمكن التغلب على النظريات غير العلمية والزائفة تلقائيا ، وانما يتم ذلك فقط كنتيجة موضوعية لنضال طبقى طويل وعنيد ، ينتصر من خلاله النظام الاشتراكى وأيديولوجيته العلمية والانسانية الحقة بالفعل فى جميع أنحاء العالم .

ولا يمكن للمرأة أن يعجز عن ملاحظة عنصر الخوف والحيرة لانتصـــار مسيرة الافكار الاشتراكية فى مختلف أنحاء العالم ، فى مطالبـــة البورجوازية يتخلى الشيوعية عن الماركسيـــة .. ورفض العـــديد من الايديولوجيين البورجوازيين اليوم لفكرة الحـــرب الذرية لا يقضى على الازمة الايديولوجية العميقة التى تأخـــذ بخناق الرأسمالية الحديثة ، كمـــا أن الايديولوجيين البورجوازيين البعيدى النظر لا يملكون الا أن يزدادوا قلقـــا عند مواجهتهم للسؤال الآتى :

اذا لم تكن الحرب ، فأى مستقبل ينتظر الرأسمالية ؟ ولما كانوا نافرين من تقبل الفكرة التى تقطع بأن النظام الرأسمالى محكوم عليه بالانهيار « عاجلا او آجلا » فهم يحاولون الترويج للفكرة القديمة عن استمرار الرأســـمالية فى الوجود الى الابد عن طريق كافة الوسائل الملتوية مثل نشر بعض المفاهيم من نوع « المجتمع الصناعى » ، والدعوة الى التخلى عن النضال من أجل التحرر الوطنى والاجتماعى ، وما الى ذلك . ومن الطبيعى أن يعارض الماركسيون هذه المفاهيم لما هى عليه ، وعلى أساس التشخيص العلمى وخبرة النضـــال الطبقى فسوف لا يكف الشيوعيون عن الاعتراف بحتمية الاخذ بأفكارهم على المستوى العالمى .

ومهما اشتدت محاولات الايديولوجيين البورجوازيين لاخفاء مصدر الحرب ، فسوف يبقى هذا المصدر هو آمال الاحتكاريين فى التوسع غير المحدود من أجل نهب الشعوب وكسب مواقع جديدة فى السوق العالمية ، وزيادة أرباحهم وتحقيق سيطرتهم الاقتصادية والسياسية فى جميع أنحاء العالم . فالاحتكارات تخضع لارادتها أجهزة السلطة فى البلد ، وهى تؤيد سباق التسلح فى سعار ، وتؤيد اقامة التكتلات العدوانية ، وقهر الحركات الثورية للجماهير . ولمـــا كانت تعتبر الاتحاد السوفيتى والبلدان الاشتراكية الاخرى هى العقبـــة الاساسية فى طريقها ، فهدفها الاول هو الاطاحة بالاشتراكية العالمية .

وقد كان من المنطقى أن يدرك حتى اكثر الرجعيين تطرفا اليوم انه ليس من السهل جر الجماهير الى حرب جديدة ، ولهذا السبب يعبئون أيديولوجيتهم لتبرير العدوان الامبريالى عن طريق الخرافات التى يشيعونها حول عدوانية البلدان الاشتراكية ، ومن أجل اقناع الجماهير قبل اى شىء آخر بأن الحرب حتمية حتى تروض نفسها على هذه الحقيقة . وعن هذا الطريق ايضا يسعون لاثبات خطأ حركات السلام التى تمثل عقبة بالغة الخطر بالنسبة لمخططاتهم.

ومن الطبيعى ان يدرك الماركســـيون ــ اللينينيون تمام الادراك أن

هناك ، جنبا الى جنب مع الانسانيين الاشتراكيين ، العديد من ممثلي مختلف التيارات والفرق الانسانية البورجوازية المعنية بالسلام وربما اختلفت هذه التيارات عن الماركسيين في فهمها لمختلف قضايا التطور الاجتماعي ، ولكنها غالبا ما تقوم بنشاط مفيد لقضية السلام ، فاضحة هستيريا الحرب فى البلدان الرأسمالية ومعبئة الجماهير للعمل دفاعا على السلام .. وفى هذا الصدد يتميز نشاط الفيلسوف البريطاني برتراند راسل بنوع خاص .. كما دعا البابا حنا الثالث والعشرون أيضا ، فى ندائه العام الشهير ، الى وضع حد لسباق التسلح ، والى حظر الاسلحة النووية ونزع السلاح فى ظل رقابة دولية فعالة ، والى التعايش السلمى والحقوق المتساوية لكل الشعوب والدول ، والى وضع حد لهوس الحرب . فما الموقف الشيوعى من مثل هذه التصريحات ؟ .

ان الشيوعيين لا يوافقون على المعتقدات والآراء الدينية المثالية ، ولكنهم يعتقدون أن مشكلة المحافظة على السلام تمس الناس جميعا ، وعلى قدم المساواة ، وبصرف النظر عن قوميتهم او اتجاهاتهم السياسية او عقيدتهم والشيوعيون يبذلون كل جهد من أجل تضامن كل الناس من ذوى النوايا الحسنة .

وفى نفس الوقت ، فالشيوعيون يدركون تمام الادراك أن المبشرين بالخطط الكوسموبوليتانية « أو التى تعتبر العالم كله وطنا لها » من أجل وحدة العالم ، ومن أجل « دولة عالمية » وما الى ذلك من الافكار الرجعية غالبا ما يتحدثون من أرضية سلبية .. فتحت رداء « الانسانية » غالبا مايقف هؤلاء الناس فى الواقع مؤيدين سيطرة الاحتكارات الامريكية ، ومن الواضح انه لا يمكن السماح بسيادة هذه الاتجاهات .

وهناك انسانيون « بورجوازيون يبشرون » بالقيمة الاخلاقية للمعاناة انتظارا للمباهج الكامنة « فى المجهول » ، ويطالبون البشرية باتباع طريق المعاناة لان هذه هى « مشيئة الرب » . ويرى بعض الفلاسفة البورجوازيين أن الاختيار أمام البشرية انما هو بين التخلى عن اى تطور جديد ، أو ترويض النفس على احتمال الدمار الذاتى .

وبالرغم من أن التيارات المعادية للانسانية فى علم الاجتماع البورجوازى ، من طراز النزعة البيولوجية والدارونية الاجتماعية ، قد انقشع عنها النقاب الى حد كبير مع انهيار النظريات العنصرية والنظرية الجغرافية السياسية ، ولكن هذه الآراء مازالت تجد رواجا فى الغرب لدرجة أن البعض يسعون الى البحث عن مصدر الحرب فى الطبيعة القاصرة للانسان فمثلا يكتب عالم الاجتماع الامريكى ا . كوهر انه « ما من شىء يبدو اكثر طبيعية بالنسبة للانسان اكثر من العدوانية وابتهاجة لها (٩) » .

وعندما أدرك العديد من الايديولوجيين البورجوازيين مدى الدفعة القوية التى يحدثها تطلع الناس الى بعض المثل العليا فى حياتهم ، راحوا

---

(٩) ارتوهر ، انهيار الامم – لندن ١٩٥٧ ، ص ٨٦

يبذلون قصارى جهودهم لتدمير الاعتقاد فى وجود المثل العليا نفسه . فالمؤرخ الكندى أ . لووار (١٠) ، مثلا ، يكتب قائلا انه حتى بالرغم من رحلات الانسان فى الفضاء فسوف يظل نفس الانسان المتوحش الذى هو عليه اليوم . ثم ينزلق لووار الى جدال داروني — اجتماعى من النوع العتيق فيعلن انه اذا ماكف الانسان عن أن يكون حيوانا محاربا فسوف يكف عن الوجود ، لان الحرب قانون أساسي للحياة ، واستنادا الى هذه « الحجة » فهو يبرر الحروب العدوانية على أساس انها تكشف عن الجوهر الحقيقى للانسان ! .

ولووار محق عندما يشير الى الحقيقة الواضحة من أن وسائل الدمار تزداد هولا يوما بعد يوم ، ولكنه يمتنع عامدا عن الاشارة الى أن « الطبيعة العدوانية » للانسان ليست هى التى تلام بسبب التهديد الذى يخيم على البشرية ، وانما الذى يلام هو النظام الامبريالى الذى أشرف على الفناء . وقد وضع لووار لمقاله عنوانا هو « مستقبل الانسان » ، ولكن جميع محاولاته موجهة نحو اثبات أن الانسان لا مستقبل له ، وان كانت البشرية تعقد آمالها على العقل الجماعى للشعب القادر على تكشف الطرق لتحقيق أحلام عمرها وتطلعاتها ،الا أن لووار يعلن ان العقل الانسانى ليس قادرا الا على اختراع الوسائل المتجددة لابادة النفس .

واخيرا ، مازالت هناك حتى اليوم محاولات لتبرير الحرب باللجوء الى الدين . فرجال الدين الرجعيون يعظون الناس بألا يضعوا العراقيل أمام الرسالة « المقدسة » على الارض ، أى ، القاء بضعة قنابل هيدروجينية على البلدان الاشتراكية من أجل انتصار مبادىء « الانسانية المسيحية » . وكقاعدة عامة ، يبشر رجال الدين الرجعيون بمنتهى الضراوة بأكثر الاتجاهات المعادية للشيوعية ، ويزعمون أن الخلافات الايديولوجية بين البلدان الاشتراكية والراسمالية سوف تؤدى حتما الى الصدام المسلح بينهما .

ومن الموجات الجديدة التى اخذت تتفشى فى الغرب فى الوقت الراهن أيضا نظريات علماء علم النفس الاجتماعى البورجوازيين الذين ينسبون أسباب الحرب لعوامل سيكولوجية ، مثل وجود مايسمونه « الشخصيات النزاعة للسلطة » . وهذه النظريات تنشر عن طريق أناس يحملون مختلف الآراء السياسية بعضهم من المعادين للعسكرية . وعلى أى الاحوال فهذه النظريات ، بمجرد وجودها نفسه ، لا تفيد الا فى طمس أو تشويه الجوهر الاجتماعى لظواهر مثل الحرب والفاشية والعدوان ، وبالتالى فليس من النادر أن تستخدم فى التطبيق العملى « لنزع سلاح » الحركات التقدمية وتبرير سياسة الرجعية الامبريالية .

وغالبا ما ترتبط نداءات السلام بنداء من أجل السلبية والاذعان ، وكثيرا مايبشر الانسانيون البورجوازيون بالحب العالمى كأساس للعلاقات بين البشر دون أن يضعوا فى اعتبارهم مسألة كيفية تحقيق ذلك فى التطبيق

---

(١٠) تونيز كوارتولى — شتاء ١٩٧٢ ص ٥٤٢

العملى . أما بالنسبة للانسانية الاشتراكية فالتطبيق العملى هى المعيـار الاساسى .

ويرتبط الموقف العملى الذى يتخذه الباحث البورجوازى أو الشخصية البورجوازية العامة بالنسبة لقضايا الحرب والسلام الى حد ما بآرائه ، فربما تقبل المرء أو لم يتقبل النظرية المادية للاشياء ، ولكن منطق النضال من أجل السلام يجبره عاجلا أو آجلا ، وبالتدريج ، على التخلى عن عديد من الاوهام المثالية . وقد جاء التطور فى آراء العديد من الانصار النشطين للسلام والتقدم نتيجة لاشتراكهم فى النضال العملى للجماهير ، ومن خـلال العملية التى يستطيع المرء أن يكتسب فى مجراها الادراك السليم للاتجاهات الاساسية للعالم المعاصر .

والعمل من أجل السلام تعبير حقيقى عن الانسانية ، كما أن الركود السياسى والتبلد الايديولوجى للجماهير شرطان لتطبيق الخطط العدوانيـة للامبرياليين . وعلى العكس من ذلك ، فتحقيق المثل العليا للسلام والاشتراكية فى الواقع العملى يتطلب أن يدرك كل فـــرد ، ادراكا كاملا ، لدوره فى النضال المشترك ، وأن يعمل وكله ثقة فى الانتصار على قوى الشر ، ويتضمن ذلك التغلب على الافكار البورجوازية عن عجز الفرد عن مقاومة ضربات الحظ والقائها جانبا ، وفهم دور الجماهير بصفتها الصانع الحقيقى للتاريخ ، والنضال النشط من أجل انتصار القضية العادلة .

فى كتاب « حياة جاليليو » ، يلقى برتولت بريخت على لســـان تلميذ جاليليو السؤال التالى : « ألا تعتقد أن الحقيقة ، اذا كانت هى الحقيقة ، ســوف تشق طريقها حتى بدوننا ؟ » ، ويرد جاليليو على السؤال قائلا : « كلا ، ثم كلا ، ثم كلا ! ان الحقيقة لن تشق طريقها الا بالدرجة التى تساعدها بها . ان انتصار الحكمة لايمكن ان يكون الا انتصـــار الشـعب متشرب بالحكمة » .

واليوم ، هناك قلعة قوية للسلام والانسانية ، هى النظام الاشـتراكى العالمى ومن حوله يتجمع ويتحد كل ما هو مشرف وتقدمى فى العالم ولابدلكل انسانى مخلص من أن يعمل على المزيد من الدعم لهذا الاساس وأن يساهم بدوره فى قضية منع الحرب ، « ونحن الشـيوعيين ، وعلى امتـداد جميـــع محاولاتنا ، حافظنا ، ومازلنا نحافظ ، على تفانينا القلبى والروحى للافكـار اللينينية عن السلام والصداقة بين الشعوب . واليوم ، وكما كان الحـال فيما مضى ، سوف نواصل النضال من أجل هذه الاهداف الكلية النبيلة ، جنبا الى جنب مع جميع من يعارضـــون سياسة الامبريالية والعـــدوان والحرب (١١) » .

والانسانية الاشتراكية ، التى هى فى نفس الوقت انسانية عملية ، سلاح لا يقدر بثمن فى النضال من أجل تأكيد مبادىء السلام والحـــرية ، والاخـــوة العالمية .

---

(١١) النداء الصادر عن اجتماع موسكو للاحزاب الشيوعية والعمالية .

## فهـــرست

صفحة

الجــزء الثــالث

ضد ايديولوجية العسكرية والرجعية ومن اجل السلام والتقدم الاجتماعي .





رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٤/٣٨٩٩



# دار الثقافة الجديدة

صـــدر أخيرا :

● الاقتصـــاد الســـياسى واســـئلة واجوبة )

تاليف : ل ٠ ليونتيف

ترجمة : د ٠ رشاد الحملاوى

● عصر الانسان أم الروبوت

تاليف : ج ٠ فولكوف

ترجمة : مجدى نصيف

● محاورات فلسفية فى موسكو

تاليف : د ٠ مراد وهبة

● الحرب النفسية

تاليف : ميلوش ماركو

ترجمة : لبيب لبيطة

● المعجم الفلسفي

د ٠ مراد وهبة

● أيام الطفولة

٣ أجزاء

ابراهيم عبد الحليم

● ابن الانسان

ابراهيم عبد الحليم

طلائع الفكر الاشتراكى

● عصام الدين حفنى ناصف

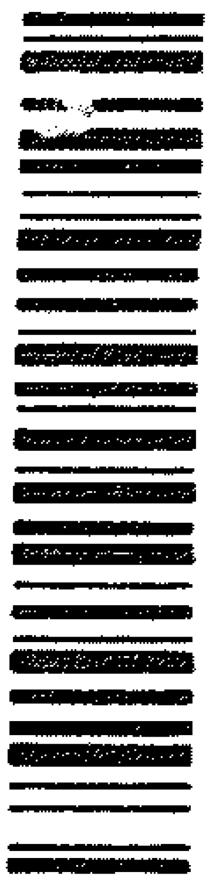
● نقولا حداد

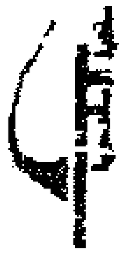
تاليف : د ٠ رفعت السعيد

● فنان فى موسكو

للفنان زهدى

تطلب من دار الثقافة الجديدة ـ ٢٢ شارع صبرى أبو علم ـ القـــاهرة



الثمن ١٠٠

طبع بمؤسسة روز اليوسف